وردة

رواية مصر الخالدة



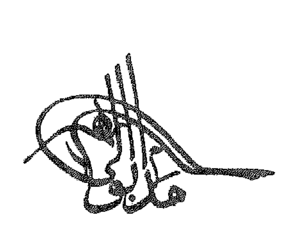
أبرزها من الآثار القديمة
وأوراق البردى

د. جورج ايبرس

نقلها إلى العربية

محمد مسعود

الجزء الأول و الثاني



وردة مصر

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء فى ماضى الحقب إلى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة، فيحس إذ يتلوها كأنه يحيا بحياة المصريين فى عصر رعمسيس الثانى، وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية فى العلوم والفنون والأدب، ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارهم الكهنوتية، ويلم بالأسباب التى علت بهم فوق شعوب الأرض طرا فى زمنهم.

أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى

الدكتور ايبرس الألمانى

ونقلها إلى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجزء الأول

مكتبة مدبولي

القاهرة

لمترجم وردة مصر

معارج الفلاح

كتاب عصرى هو للطالب المقبل على الحياة العملية مرشده إلى ميادينها وسلاحه الكفيل له بالفوز فيها، ولـرب الأسرة قائده إلى تنظيم شؤون الأسرة، وللتاجر رائده إلى ترويج تجارته، وللصانع هاديه إلى إتقان صناعته، وللقارىء بوجه عام الناصح الأمين والجليس الذى لا يمل.

وسائل النجاح

كتاب عصرى يبحث فى طائفة من الفضائل، التى إذا راض المرء نفسه عليها وأخذ بما احتوته من المبادىء القويمة والإرشادات النافعة كفلت له الفوز فى الحياة وبلغت به إلى السعادة المتمناه.

المرأة فى أدوارها الثلاثة

كتـاب عصرى فى آداب المرأة وواجباتها وحقـوقهـا فى جميع أدوار حياتها نحـو أعضاء أسرتها ونحو غيرهم ممن تخلطها بهم روابط المعاملات فى الحياة.

الاقتصاد السياسى لجيفونس

هو خير مصنف فى هذا العلم بإجماع الآراء، لأنه يزجى قواعده وأصوله إلى ذهن القارىء بدون أن يلقى عناء فى تفهمها.

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصلياً

أما بعد فهذه هى «وردة» قد تفتقت عنها أكمامها، لامعة الزهرة رائقة النضرة متلألئة الغرة فتانة الحسن للناظرين، أهديها إلى شبيبة مصر النابهة التائقة منذ سنوات إلى استنشاق رياها الأرج النازعة إلى الانتشاء بشميم عرفها الطيب، فقد تواردت علىّ رسائلها فى إعادة نشرها، مبالغة فى هذا الطلب بما لم أجد معه مناصاً من الإجابة، فسلخت نحو العام فى تعهدها - تهذيباً وتشذيباً - حتى غدت بجزالة لفظها أشرف جوهراً وبحسن ديباجتها أجلى مظهراً وبجمال رونقها أكثر طلاوة منها فى نشرتيها السابقتين. ولست بكاشف اللثام عن فوائد «وردة مصر» ومايزخر به بحر حوادثها القصصية من الحقائق التاريخية، فإن ذلك ليس بالسر المكتوم، وقد سطع شذاها بالنقل والترجمة فى لغات الأمم المتحضرة جميعاً التى يحج أسرياؤها وعلماؤها من أقاصى العالم إلى مواطن حوادث «وردة» فى طيبة الأموات وطيبة الأحياء. ولكنا إذ نتعرض لشىء من أمرها نجتزىء ببيان الظروف التى حدت بمؤلفها الفاضل إلى تأليفها.

كان الدكتور جورج إيبرس مؤلف رواية «وردة مصر» من أكابر علماء اللغة المصرية القديمة، وهو عند الألمان فى منزلة ماربيت وماسبيرو عند الفرنسيين. ولقد هبط مصر فى أخريات سنة ١٨٧٢ للبحث فى آثارها، وقضى الشتاء منقبا بين مقابر

الفراعنة بأطلال طيبة، فوفق للعثور على بعض الأساطير المدونة فى أوراق البردى. ولما أكب على درسها لاستكناه أسرارها تراءت له بعض حقائق تاريخية لم تكن برزت بعد إلى عالم البحث ، فوجدها صالحة لأن تكون أساساً وطيداً لقصة غرامية رائقة المعنى، فوق ما تمتاز به من صفة الفائدة التاريخية الجزلة. وكان مما سهل عليه تحقيق أمنيته أنه من أفذاذ الشعراء الألمان الذين يشار إليهم بالبنان فى براعة النظم وجلال المعانى المستمدة من لطف المشاعر وصفاء العواطف، فأعانته هذه الصفات على وضع خطة شاملة لقصته حدد فيها أقسامها وضبط حوادثها، حتى إذا تم له الأخذ بأطرافها وارتسم فى مخيلته هيكلها عول على سبكها فى قالب التدوين والتحرير.

وكان ذلك عقب عودته إلى موطنه، فحدث أن حال بينه ومراده أن وصوله إليها كان مقترناً بأعراض اعتلال البدن وضعف القوة، فأشار الأطباء عليه بالراحة والإمساك عن كد الفكر وإجهاد العقل ريثما يبرأ من مرضه. ولقد لبث ثلاث سنوات وصالا لايتراءى له –وهو طريح الفراش– سوى طيف وردة وما استشفه خلاله من قد رشيق وحسن أنيق، واستوضحه من خصال شريفة وشيم كريمة. ومازال هذا دأبه تلكم السنوات الطوال حتى أذن الله له بالإبلال من مرضه (عام ١٨٧٦). وكانت وردة قد تفتحت أكمامها فى ذهنه وارتسمت صورتها طبق ما أراد لها فى مخيلته، وما بقى إلا أن يصوغها فى القالب الذى همّ بأن يفرغها فيه عندما ثاب إلى وطنه فصده المرض طول ذلك الزمن عن تحقيق أمنيته.

وكان ايبرس، فوق عبقريته فى الشعر ونبوغه فى التأليف والتصنيف، صاحب إرادة قوية وعزيمة ماضية وهمة عالية. فإنه ما ترك فراش الألم والسقم إلا

للقرطاس والمداد والقلم. وكانت إلى جواره جنة ذات أشجار باسقة ومياه دافقة وأزهار مونقة، فانتحى من هذه الروضة مكاناً قصياً ليزجي بنفسه في تيار الأفكار والتأملات.

ومن ثم دبج ببراعة هذه الرواية متراجعاً بالقارىء فيما انقرض من أحقاب الدهر إلى تلك العصور التي خلدت ذكراها مدنية بان شأوها على سائر المدنيات الكبرى المعروفة– وتشرف به من قمة التاريخ فيحس – إذ يتلوها– أنه يحيا بحياة مصر لعهد رعمسيس الثاني ويرى بعينيه ويدرك بعقله معجزات تلك الحضارة في العلوم والفنون والآداب ، ويعجب بعظمتها الحربية وأنظمتها الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارها الكهنوتية وحكمتها التي ساست بها البلاد في آسيا وأفريقيا، بين حدود فارس وخط الاستواء، ويلم على الجملة بمجمل الأسباب التي علت بها فوق شعوب الأرض طراً في عصره والبواعث التي هوت بها فيما بعد إلى الدرك الأسفل من الحضيض.

على أنه للوقوف على قيمة هذه الرواية من جهة البحث العلمي الخصيب الذي ساق مؤلفها إلى تدبيجها، لا أرى خيراً من أن أعرض على القارىء ما خطه بقلمه في هذا الصدد، إذ قال:

« في شتاء سنة ١٨٧٣ قضيت بضعة أسابيع في إحدى مقابر طيبة، للبحث في أطلال هذه المدينة العظيمة، مدينة الأموات. وفي خلال رحلاتي الطويلة بالصحراء نبتت في ذهني الفكرة التي عليها بنيت هذه القصة. وقيض الله لي– خلال مرضي الطويل–فراغاً كافياً وذهناً صافياً وقفتهما على تدبيجها وتنسيق حوادثها.

« وكنت انتويت فى مستهل الأمر أن أذيل القصــة بمذكرات مفصلة، كما فعلت فى قصة الأميرة المصرية. ولكنى عدلت عن هــذه الفكرة حينما لاح لى أنها سوف تؤدى إلى تكرار كثير مما وعتــه– فى روايتى الأولى– تلك المذكرات التى أردت بها أن تكون شرحا لما استعجم فهمه في متن الكتاب ودليلا على العناية التى حاولت أن أصور بها التفاصيل التاريخية والأثريــة نقلا عن المراجع الخاصة بها، راجياً أن يجد القارىء البحاثــة فيها ما يــرشده فى مباحثه عن ذلك العهــد، إلى معلومات أبعــد غوراً وأجل خطراً.

«أما قصتى هــذه، فلى أن أجهر بأنني لم آت فيهــا عن مصر وعن عهد رعمسيس الكبير بمعلومــات يتعذر إرجاعهــا إلى مصدر من المصادر. ذلك لأن الآثــار المختلفة التى خلفها لنا المصريون منذ ذلك العهد القصى تمكن الباحث من الوقوف على كثير من وجــوه الحياة المصرية ونظمهــا. وقد أصبح من السهــل تتبع تفاصيلهــا خطوة خطوة، بل الوقوف أيضاً على كل ما يتعلق بحياة أفراد معينين بالذات. ومن ثم يرى القــارىء أن هذه القصـــة ظاهــرة المعنى واضحة الحجــة فى جميع أجزائهــا، وأن لا حاجة للرجوع إلى شرح واقعة من وقائعها.

« وأساس القصة هو حديث لهيرودت انتهت إلينا منه بعض أساطير تحملنا على التسليم بأن حكــاية الخيــانة التى ارتكبهــا النائب عن الملك –والتى رواهــا لنا أبــو التاريخ– ترجع إلى عصر رعمسيس الثــالث، لا الثانى، وأنه لاشك فى أن ذلك المؤرخ لم يتصل بـــه الخبر الصحيــح. على أننى سأقـــدم للقـــارىء صـــورة من عصر سيزوستريس الذى وقعت فيــه حوادث القصة، مراعيا فى ذلك إظهــار الحقيقة قدر الاستطاعة. ومن الحق أن أذكر أننى، لأجل الوصول إلى هذه الغاية، لم آل جهدا فيما

يمكن البحث عنه من الآثار وأوراق البردى. ولما كانت هذه الرواية من باب القصص والخيال الشعري -قبل أن تكون بحثا تاريخياً- فقد جعلت لتصوير أشخاصها ووصف عواطفهم ومشاعرهم المختلفة المحل الأول، ولم تكن للحقائق التاريخية فيها غير أهمية ثانوية.

« ولدىّ ملحوظة أخرى، وهى أننا اعتدنا- لدى دراستنا الفن المصرى القديم- أن نتخيل سكان وادى النيل فى زمن الفراعنة قوما طوال القامة نحيلى الجسم، وأن ليس بين أفرادهم فروق أو مميزات. وهذا راجع لما كانت تستدعيه أصول الفن المصرى القديم من ضرورة التناسب والتماثل فى جزئيات معينة. ولكن خطأ هذا التخيل ظاهر من أن المصريين كانوا من أرقى الشعوب القديمة وأنشطها، ومن أن اتصالهم بغيرهم من الشعوب كان ضربة لزام، فمن الخطأ تمثيلهم فى أحوالهم المعيشية بما يمليه علينا مرأى تلك الأوضاع المنقوشة على جدران هياكلهم ومعابدهم. فإن الأوضاع إنما تعمد منشئوها إبعادها عن مواطن الحقيقة بقدر ما أرداوه من المحافظة على أصول التناسب والتماثل المقدسة عندهم، وأن على من يريد التزام جانب الصدق فى تصوير قدماء المصريين أن يحل تلك الأوضاع التقليدية من القيود الخاصة بفنهم، والتى هى بعيدة كل البعد عن حقيقة حياتهم. وهناك بعض الآثار من عهد الهرم الأول تمثل القوم على حقيقتهم دون التقيد بالقيود الدينية المقدسة. ومن السهل أن نستعيد لذاكرتنا تمثال «قاضى القرى» المعروف بتمثال شيخ البلد والموجود فى المتحف المصرى، وتمثال «الكاتب» الموجود فى متحف باريس وتماثيل أخر مصنوعة من البرونز فى متاحف متفرقة، فإنها جميعا تنطق بعظم الفروق الجثمانية بين أفراد المصريين القدماء وما يتبع ذلك من الفروق الخلقية.

وهنا يظهر جليا واجب الكاتب الذى يريد تصويرهم، فإن عليه أن لايتردد فى الأخذ بما يراه فى حياة أناس العصر الحاضر وأحوالهم، بل أن ينتحل من صفات من يعيشون حوله نماذج واضحة لحياة أولئك القوم. ولا خوف عليه من أن يحيد بعيدا عن الحقيقة فى تصو يرهم ، إذا هو ألبسهم روح العصر الذى عاشوا فيه.

«وقد وضعت هذا الرأى نصب عينى عنما أبرزت وردة إلى حيز الوجود. وهاأنذا أقدمها للعالم مسدياً أجزل الشكر لأصدقائى الأعزاء الذين جددت بينهم نشاط روحى ووجدانى فى مقامهم الجميل المكسو بالخضرة السندسية والمجمل بطيور الغابات حيث أخط الآن آخر كلمات روايتى».

هذه هى الكلمة التى صدّر بها المؤلف روايته عندما أتم كتابتها فى أواخر سنة ١٨٧٦. ومنها يتبين القارىء أن القصة ليست من قبيل الروايات التى ترمى إلى التسلية وترويح النفس فحسب، بل إن لها غرضا أسمى وأبلغ، وأن لنا— نحن المصريين فى نهضتنا الحاضرة— أن نتخذ منها عبرة وذكرى. إذ نتبين من خلال حوادثها الطلية ما كان لنا منذ فجر التاريخ من شأن عظيم بين الأمم وجاه طويل عريض فى أرجاء الأرض، فنعمل على أن يكون لنا منه ما ينهض بنا إلى أسنى المعالى وأشرف الرتب إن شاء الله.

بيـــان
لصاحب الإمضاء

أحسن القصص صحيحه وموضـوعه ما بنى على التاريخ أو على حوادث وأشياء لا يأبى العقل على الكاتب نسبتها إلى زمان معلوم ومكان معلوم وأمة معلومة.

ومن القصص الموضـوع مايراد بـه تعليم التاريخ بـالذات فى صـورة التفكهة، بحيث تقـرب مطالبـه البعيـدة إلى الأذهان. وأجل مـا كتب تـوخيا لهذا الغـرض فى النصف الأخير من القـرن التاسع عشر قصـة (وردة مصر) للعالم النحـرير ايبرس الألمانى. ضمنهـا كل ما يـروق ذكـره ويستغرب أمـره من أخبـار مصر إبان عهـد رعمسيس الثانى من الأسرة التـاسـعة عشرة مدرجـاً فى حواشى قصة ملفقـة تأخذ بالألباب فجاءت مرضية للعالم معلمـة للجاهل سائغة المشرب للجميع.

على أن كثيرين من القصصيين قـد حـاولـوا أن يتحدّوا إيبرس فأخفقـوا سعيـاً وانتثرت أوراق كتبهم -لإهمال الناس لها- كانتثـار أوراق الأشجار التى لا تتعهد سقياً وتـربية فتكسو منبتها بسـاطـاً أصفر ذابـلا، ولم تسلم فيه إلا (وردة مصر) فهى لم تزدد على الأيام إلا زهواً ونضـارة.

ولا مشاحة فى أن تقدم علم الآثار المصريـة منذ نيف على عشرين سنة قد أفضى إلى نقض أمور كثيرة مما كان العلماء يعتقـدونه لعهد صدور (وردة مصر). غير أن ذلك لم يتناول إلا بعض الأعراض أمـا الجوهر فسليـم يصح أن يعول عليه من يريد مطالعة سيرة عصر من أعظـم عصـور الأمة المصرية، بما اجتمع فيه مـن الدلالة على

ماضيهـا الفخيم والإشارة إلى مستقبلهـا الوخيم تحت نير الـرق وفى ظلام الطـاعة المبنية على جهـل ما يحق لـلإنسـان ومـا يجب عليه ، حـاكما أو محكومـاً، وفى دينه ودنياه.

قرأت (وردة مصر) باللغـة الفرنسية منقولة عن الألمانيـة ولم يدر في خلدى أن أقرأها بـالعربية، فلم يلبث القـدر أن أتاح لى رؤية عنوانها فى المؤيـد فتتبعتها فصلا فصـلا إلى نهايتها، فكنـت إذا أمعنت فى الموضوع الـذى أقـرأه محيت الحروف من أمامى وزالت الصحيفة وهبط ستار الماضى، ورأيت طيبة الأحياء شامخة القصور بجانب طيبـة الأموات بـاذخة القبور، هـذه تزدحم بالأقـدام وتعالت فيهـا غمغمة الأصـوات بما لم تشهد مثلـه الشمس فى ذلك الزمـان ولم تسمع مثله أذن إنسـان، وتلك ساكنة نائمة يلقى عليها القمر نوره الوسنان فترسل مقابرها الظلال الضخمة إلى أقصى ما يحيط به العيان. هذه تمثل اجتهاد الأحياء وتنازع الطبقات، وتلك تمثل سلام الرفات وتآخى الأموات.

ثم رأيت ما كـان من مطامع ملوك، ومظالم ولاة، ودسـائس كهان، وتحمل قوم صبر ذلل، كالنياق التـى تركب إلى الرزق مرة وإلى الحرب أخرى، إلى مـا يماثل هذه المشاهد التى لا يحيط بها إلا قلم كاتب بليغ أو رسام متفنن.

ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية– بما طُبعت عليه من التزام الوصف الحق، ومن التباعد عن الخيال إلا بقدر مـا يستطاع معه تجسيم المعنى الخفى فى شكل مألوف، ومن تصوير حركات النفس فى كل حال من أحوالها– أطوع بكثير من لغتنا لأغراض الكاتب فيها وأتم تأدية للانفعـالات الوجدانية والأفكار، بحيث إذا أراد أديب منا أن

يحتذى مثالها فى ذلك، جلّ ما يعانيه وبعدت عليه الشقة فلم يتسن له إدراك أمنيته إلا إذا كان مجيداً عارفاً بأسرار اللغة مفلول رأس القلم رياضة ومراسا. فالذى سرّنى فى (وردة مصر) من هذا القبيل أننى قرأتها عربية كأنى أقرأها فرنسية وعجبت لما أوتيه معربها الفاضل من الذكاء والاقتدار وملكة الإنشاء الجامعة علما الراسخة متانة اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة فيها.

ولست هنا فى مقام مدح وثناء، فإن صلتى بصديقى مسعود تقضى علىّ بالجرى معه على القاعدة التى مقتضاها أن يكون حكم الأخ اعجاباً بأخيه حكم الأسير المقيد بيده ولسانه. فليكن ختام ما أذكره عن كتابه حث كل مصرى على اقتنائه. فإنى قلما وجدت أحداً من هؤلاء الإخوان الكرام واقفاً على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب فى جمعه له واهدائه إليه.

وإنه من الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها لا تدرك حاضرها ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها.

هذه وردتنا، فعلينا أن نتمتع من شميم عرفها، وإلا فلا عطر بعد وردة، ولا أمة مع جهل ، وما أجدر طيبة الأموات أن تكون عبرة لطيبة الأحياء!

خليل مطران

الفصل الأول

وصف مدينة طيبة فى ليلة صيف من سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد

يجرى النيل بالقرب من مدينة طيبة ذات المائة باب بين جبلين من الرواسى الشامخات، ينعكس خيال ذراهما العالية وسفوحهما المنحدرة على صفحة مياهه اللجينية، ويختال فى مشيته وسط الوادى المحصور بينهما اختيال العروس فى ثوبها الخزّ ليلة عرسها بين غادتين من صويحباتها.

وتمتد الصحراء فيما يلى الجبل الشرقى إلى حيث تتكسر بسواحلها أمواج البحر الأحمر، وتترامى الفلوات الجرداء خلف الجبل الغربى إلى أقصى مدى تدركه الأبصار. وفيما بين هذين الحاجزين تنساب مياه النيل حاملة فى قطراتها عناصر الخصوبة ومواد الخير الوفير الذى يدور عليه محور حياة ألوف الألوف من النفوس، وما الابليز إلا الذهب الابريز.

وفيما يلى حافتى النهر يمنة ويسرة تنبسط الأرض صعيداً، مهدتها يد القدرة تمهيداً. وفي مائه العذب الفرات تغدو وتروح ألوف الأحياء المائية، على اختلاف أشكالها وتباين أنواعها، ومنها التمساح الهائل الجثة فاغراً فاه على الدوام. وفوق أغصان البردى اتخذت الطيور أوكاراً وملأت جوانب الفضاء بتغريدها اللطيف. وعلى السطوح الممهدة من الأرض تترنح المزروعات بمعاطفها اللينة على قوائمها اللدنة، فيخالها الرائى –لاتصالها بعضها ببعض– بساطاً غير متناه من السندس الأخضر. وفى جهات أخرى تدور عجلات النواعير بقرب أشجار الجميز التى يشعر الجسم فى ظلها بطراوة المياه المتدفقة منها، فترتاح النفس وينشرح الصدر وينكشف الغم.

فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يرى الإنســان حوالى مدينة طيبة- عاصمة ملك الفراعنة- هــذه المناظر البهيجة فيعجب من عنايتهم بتنسيقها وتعهـدهم إياها بما يوجب دوام بهجتها. فإنهم أقامــوا بينها وبين النيل السدود الضخمة لحمايتها من طغيان مياهه فى أوان الفيضان وقسموها إلى أحياء، خصص أحدها -وهو الذى يلى النيل من جهــة السدود- للمعـابد والهياكـل المشيدة على أجمل هندام، والثـانى لقصـور الملوك والأمراء، والثالث لمنـازل الأهلين والعامة. وكان ماء النيل يجرى بين هـذه الربوع العامرة فى سراديب ومسارب يحار العقل فى وصف تشعبها وانعطافها وحصر عددها. وكانت الطرقات التى تتخلل هـذه المبانى الفخمة والقصور الباذخة لا يكف الناس عـن الغدو والرواح فيهـا، فكانت حـركتها الـدائمة من دلائل تـوافر شروط الحياة فى تلك المدينة الجميلة.

وتجاه مـدينة طيبـة، على الضفة الغـربية من النيل، كـانت تناغى السماء مبـانٍ سـامقـة منجدة متنـاءٍ بعضـها عن البعض الآخـر، تحف بها أكواخ حقيرة كما يحف الأطفال بأمهـاتهم. وكان الناظر إليهـا من قمة الجبل يخيل له أنها قصــور الأمراء ودور الأغنياء تحيـط بها قرى الفلاحين، أو مـن عرض السـهل بـدت لناظـره منها أبواب متصل بعضـها ببعض على خطـوط مستقيمة متوازية. فكـان أسلوب المبانى ونظامها وتشعب الطرقات بينها وحركـات السكان فيها غيرها في مدينة طيبة. فهنا ترتاح النفس لحسن النسق وجمال الهيئة وازدحـام الناس فى طلب الرزق ومزاولة الأعمال وسماع جلبـة الغـادين والرائحين وضـحك الضـاحكين وغنـاء المسرورين وتبتهج لوفـرة دلائل الحركة والحياة وبـواعث الفرح والانشراح، وهنـاك تنفر من قبح المنظر وعـدم التناسق وقلة السكان ويتراكم لـذلك عليها العناء، فلا غـرابة إذا لقبت هذه بطيبة الأموات وتلك بطيبة الأحياء.

على أنه بالرغم من هذا السكون المحزن كانت لا تمر هنيهة إلا ويطرق الآذان فيها صدى الألحان والأناشيد تردده الآفاق من بعيد، وينحصر فى مجال النظر ومطارح أشعه البصر مشهد المئات من الزوارق يتلو بعضها البعض مزينة بأجمل ما يلفت الأبصار من ضروب النقش والزخرف ومتجهة صوب الجبل فى مظهر مؤثر من الخشوع والشجو. ولكن لم تكن تلك الاغانى إلا مراثى وهذه المواكب إلا مراكب تقل جثث الموتى إلى حيث توارى عن العيون، فإنا لله وإنا إليه راجعون. نعم إن منظر طيبة الأموات يشجى النفس ويؤلم القلب لأن السكون نشر عليها أجنحته، إلا أنها كانت لا تخلو من حركة تجارية فيما تستوجبه حالة الموتى من مقومات العناية بهم. فقد عرف المصرى فى العصور الخالية باعتبار الموت طوراً من أطوار الحياة وأن الأموات أحياء لا محالة على حد قول بعضهم:

قل لإخوان راونى ميتاً	فبكونى إذا راونى حزناً
اتظنون بانى ميتكم	لست ذاك الميت والله أنا
انا عصفور وهذا قفصى	كان سجنى وقميصى زمناً
لا ترعكم هجمة الموت فما	هو إلا نقلة من ههنا
لا تظنوا الموت موتاً إنه	لحياة هى غايات المنى

يحتضر المصرى فيطبق آله جفنيه ويرسلون جثته إلى المحنط فيعالجها بمضادات العفونة، ثم ينقلونها إلى شاطىء النيل فالقبر المعد فى الجبل لدفنها، ويقومون بعدئذ نحوه بسائر الفروض الجنازية. ولكنهم يعتقدون أن الروح إذا زايلت الجسم تبقى على قيد الحياة وتوشك أن تحل في صور شتى أو تجيب دعوة أوزريس إلى مصاحبتها إياه فى سفينة الشمس أو تهبط الأرض لشاطرة الأرواح

نعمة القيام بأجساد الأحياء. ولقد رسخ هذا الاعتقاد فى أذهانهم رسوخاً جعلهم يضاعفون العناية بتحنيط جثث الموتى لصونها من الفساد عملا بالأصول القاضية بتقديم القرابين عنها من اللحوم اللذيذة والروائح الزكية والأزهار النضرة والفواكه اليانعة.

وكان لا يحتفل بدفن ميت ولا تُقدّم بعد وفاته القرابين للتكفير عن سيئاته إلا على أيدى الكهان. ولذلك كانت طيبة الأموات محط رحال العلماء وسدرة طلاب العلوم العالية. وكان لهم فيها بيوت يقيمون بها حول الهياكل، كما كان لطائفة المحنطين -الذين يتوارثون أسرار صناعتهم عن الآباء والأجداد- منازل خاصة تحيط بمعامل التحنيط. وكانت الصناعات بها تنحصر فى عمل التوابيت من الحجر أو الخشب، ونسج الأكفان التى تدرج فيها جثث الموتى، ورسم صور الأحجبة والطلسمات الواقية من المكاره، كما كانت التجارة بالحوانيت وعلى أعطاف الطرقات مقتصرة على صنوف الأزهار والفواكه والروائح العطرية والفطائر المقدسة.

وكان من العادات الشائعة أن يتعهد زوار المقابر مايقدمونه من ألوف الحيوانات- قرباناً باسم الموتى- كالبقر والماعز والغزلان والأوز- بالعلف اللازم، ثم يأتى الكهنة فيختارون منها ما يقدرون على تطهيره من الدنس ويسمونه بالميسم المقدس ثم يستاقونه إلى المعبد للقربان. وكان العاجز من عامة الناس وغوغائهم عن اقتناء ماشية يقربها باسم موتاه يشترى من القصاب قطعة لحم أو حيوانات مصطنعة من دقيق الحنطة ومبرقشة بالألوان الزاهية لتقوم مقام الحيوانات الحية التى يقربها الأغنياء والكبراء.

وكان اتباع الكهان يبيعون فى حوانيتهم المزخرفة ملفات من ورق البردى المسطر

فيه بعض الدعوات المقدسة، توضع مع الموتى في قبورهم لتعاونهم فى ظلامها الدامس على الخلاص من حبائل الشياطين ويستفتحوا بها أبواب السموات السفلى حيث يجلس أوزريس على منصة العدل وإلى يمناه ويسراه اثنان وأربعون قاضياً يتألف منهم مجلس العدل فى باطن الأرض.

وكان الأهلون يجهلون ما يقام فى الهياكل من الطقوس الدينية؛ فقد أحيطت بسياجات عالية ذات أبواب لا تفتح إلا للكهان، كلما خرجوا فى شروق الشمس وغروبها إلى الخلوات أفواجاً متتالية، يترنمون بالأناشيد الدينية تعظيما للإلهين هوروس وطوم (١).

وكانت المقبرة –عند الفراغ من ترنيم المساء– تخلو من الغادين والرائحين. لأن زوار القبور كانوا –متى انقطعت أصوات النشيد– يسرعون بالفيئة إلى الشاطىء حيث تنتظرهم الزوارق فيستقلونها إلى طيبة الأحياء وكانوا يتسكعون أحياناً فى الطريق فيطاردهم الحراس المنوط بهم حراسة القبور ووقايتها من عيث اللصوص فيهرولون جماعات وشتى إلى ضفة النهر ويتهافتون على استقلال زوارقهم للعودة إلى منازلهم.

وكان التجار يغلقون حوانيتهم والمحنطون يرجعون إلى أكواخهم الحقيرة والكهان يوصدون أبواب الهياكل والأجانب الذين أقبلوا من الأنحاء القاصية لزيارة موتاهم ينزلون بالفنادق ودور الضيافة المشيدة على ضفة النيل، مؤثرين التماس الراحة بجوار الموتى على عبور النهر لقضاء الليلة فى طيبة الأحياء التى لا تلبث جلبة

(١) يشبه قدماء المصريين حياة الإنسان بالشمس فى مسيرها، فشروقها رمز للطفولة وتسمى فيه «هوروس»، وبلوغها الأوج رمز للفتوة وتسمى عنده «رع»، وأفولها رمز للشيخوخة والهرم وتسمى فيه «طوم».

لنــاس فيها أن تمحــو من النفوس مــا انطبع فيهــا من الأثر المحمــود خلال زيــارة القبور.

خفتت أصوات المرتلين وانقطعت ولــولة الثكــالى وسكت نوتية الــزوارق بعد إذ كانوا يمــلأون الفضاء بنشيدهم المنضود وغنائهم المعهــود، وكان النسيم بعد ذلك يحمل إلى السامعين صدى أصوات بعيدة، ولكن لم تمض هنيهة حتى نشر السكون أجنحته فوق ذلك المقام، دليلا على إدبار جيش النهار أمام جيش الظلام.

وكانت طيبة الأموات في هذه اللحظات كقفر لا ديار فيه ولا نافخ نار، يكدر صفاء أديم سمائه خيــال الخفاش يلتمس بتحليقــه فيهــا ضفاف النيــل، فإذا ما بلغ إليــه وارتوى بمائه العذب الفرات عاد إلى وكره فى حنايا القبور وزوايا الصــخور.

وربما شهدت العين أحيــاناً ظلال أشباح تمر على الثــرى مرور الطيف، فإذا بها ظلال بنات آوى تتسلل إلى النهر بحركتها المعــروفة يتبعها أمثالها ، ثم تعود اسرابا شتى للوثبة على الأوز والماعز وما إليهما من الحيــوانات التى أودعها أقارب الموتى الحظائر المسورة للتقرب بها إلى الآلهة تكفيراً عن ذنوب موتاهم.

ولم يكن أحد ليجسر على صدّ تلك الضوارى عن هذه الحيوانات الداجنة الأليفة، لأن الديانــة المصرية كانت تحرم مطاردتها بحجــة أنها قد فازت بالقــربى من الإله أنــوبيس حــارس القبور وحــافظ الموتى مــن عبث الأشقياء والنبــاشين والمرشــد لأرواحهم في الآخرة، ولأنها كانت إذا امتــلأ بطنها بما تجد بجوار القبور من لحوم القربان لا تمس بأذى أحداً من سكان طيبة على الإطلاق.

وكان أقارب الموتى، إذا زاروا القبور فلم يجدوا بجانبها لحوم القرابين، يطيرون فرحاً ويتهللون بشراً لاعتقادهم أن آكليها إنما هم أرواح موتاهم، فيبادرون بتقريب

غيرهـا وهكذا. وكـان لايعلم الحقيقـة إلا الكهنة الـذين تـوسلوا ببنـات آوى لجلب القرابين واتخذوها حارساً أميناً للقبور، فكانت تناهض النباشين كما يناهض الكلب الأمين من يريد الغدر بصاحبه.

●●●

أسلفنـا أنه في تلك الليلة من ليالى صيف سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد كان السكون قد خيم على طيبة الأموات حين أتم الكهنة ترتيل أناشيدهم وعاد الحراس إلى مساكنهم، بعد أن جاسوا خلال الديار وطـافوا بالقبور واطمأنت قلوبهم لغياب الدخيل. ولكن لم تمض بعد ذلك سـاعة حتى سمع من شمال المقبرة هريـر كلب من كلاب الليل لم يلبث أن انضم إليـه ثان وثـالث ورابع وتضاعف العـواء ، فهب رئيس الحرس من مرقـده ونادى برجـاله هلموا نستطلـع الخبر. وبعد أن عين مصدر النبـاح أمرهم بالمسارعة إليـه، فساروا. وكانوا كلما دنوا من المكان عـلا الهرير فمازالوا يقتربون حتى وصلوا إلى ربوة رأوا من أعلاها جهة الضـوضاء فانقضوا كالأسود الكاسرة وسارعوا إليها فوجدوا الكـلاب النابحة على مقربة من أعمدة هيكل سيتى الأول بن رعمسيس الثانى صاحب البطش والقوة ، القـابض فى ذلك الوقت على زمام الأحكام فى مصر.

●●●

وكان القمـر قد علا على الأفق وأنفـذ أشعته اللجينية إلى جميع المطـارح فأنارت قمة ذلك الهيكل المنجد، وتراءى للأعين وقتذاك جمع حاشد من العبيد وقوفاً بجوار جدرانه الوثيقة وبأيديهم المشاعل يتصاعد منها الدخان كثيفاً، وخلله وميض النار. وكان رجل قصير القـامة بدين الجسم مـزركش الثياب مهيب المنظـر يدق بمقبض

سوطـه باب الهيكل، وطـائفة من الحشـم والخدم حـوله، وعلى مقـربة منهـا محفة مرفـوعة على الأعنـاق وفيها امرأة، ثـم مـركبة يجرها اثنـان من الجياد الصـافنات تحمل غادة هيفاء القد بارزة النهد، وإلى جانبها رجل تبدو عليه آيات المجد والشرف، وقد التزمـوا الصمت جميعاً بينما كان الواقف بباب الهيكل يطرقـه بمقبض سوطه فيردد الجو صدى طرقاته الشديدة.

وكان الـوقوف متجهين جميعاً صـوب باب الهيكل المقـدس، لا يستطيع أحد أن يميزهم بعضهم عن بعض لاضطراب الضوء. فلما أطلّ بواب الهيكل من الكوة التى تعلو الباب تمكن بضوء القمر والمشاعل من معرفة أن الطارقين من أصحاب المراتب الشريفة والأقدار العالية، وأنهم ربما كانوا من أعضاء الأسرة المالكة، فسأل الطارق عما يريد. فرفع هذا رأسه رويداً رويـداً، وقال بصوت جهورى فزع الواقفون منه وانتفضت لسماعـه المرأة التى فى المحفـة: حتى متى ننتظـر بـالبـاب أيها الكلب الكسـول.. انـزل أولا وافتح البـاب ثم تكلم.. وإذا لم يكن ضـوء المشـاعل كـافيـاً لتستوضـح مـن نحن، فسيكتب لسـان هـذا السوط أسماءنا على ظهـرك فتعلم كيف تستقبل الأمراء.

فهبط الـرجل وتبرطم متلعثما بكلمات لا يفهم معنـاها والتفتت السيـدة التى فى المركبة إلى رفيقها الطارق على الباب وقالت له بصوت خافت: أنسيت يا (بعاكر) أنك بمصر وأنك لا تخاطب متوحشى الشـازوس (١) بل كهنة يجب لهم الاحترام، لاسيما وأننا جئنا إلى هنا فى طلب معونتهم ونجدتهم؟.. لقد تواترت شكايات الناس من غلظ كبدك وخشونة طبعك وكان لزاماً — إذا كـانت الإساءة ديدنك — أن تعدل عنها هنيهة

---

(١) قبائل شرق مصر، وكانوا معروفين وقتئذ بالسلب وقطع الطرقات.

حتى نقضى الحاجة التى لأجلها طرقنا هذا الباب.

فاهت الأميرة بهذه الكلمات بصوت كان له فى قلب بعاكر أشد الوقع، فانحنى أمامها إشعاراً بالطاعة والخضوع، ولكن عقارب الغيظ دبت إلى قلبه فرفع بالسوط يده وألهب به أحد الحبشان الواقفين إلى جانبه، فتلوى جسمه تلوّى الثعبان ولم يسمع أحد له أنيناً لعلمه بطباع مولاه وأنه لو أنّ أو شكا لأشبعه ضرباً وأوسعه هماً وكرباً.

وما فتح باب الهيكل حتى برز منه كاهن فى مقتبل العمر تدل هيئته على الرفعة وسمو المكانة واستفسر من القوم عن سبب حضورهم إلى هذا المكان أثناء العبادة. فتحفز بعاكر للكلام، ولكن ابنة الملك خشيت أن يبتدر الكاهن بغليظ اللفظ فقالت: أنا (بنت أنات) كريمة رعمسيس وهذه الجالسة فى المحفة (نيفرت) قرينة (مينا) الراسخ فى الحسب والنسب وأحد أعيان المقربين من والدى.. وقد كنت سائرة فى هذا الجمع بالوادى الممتد غربىّ المقبرة أتفقد الأعمال ، وفى العودة صدمت مركبتى فتاة رائعة الحسن كانت تحمل ورداً نضيراً يشبه خديها فانكفأت على الأرض وأصيبت بجرح أخشى منه الخطر على حياتها.. ولقد عنيت نيفرت بأمرها فضمدت جراحها ثم نقلناها إلى بيت أبيها (بينم)، من عمال المقابر الذين يشقون جثث الموتى ليحنطوها.

سأل الكاهن: وهل دخلت داره الحقيرة أيتها الأميرة؟

فأجابت: لقد كان هذا واجباً تفرضه علىّ مقتضيات الحال.. ولست أجهل أن من يدخل ديار هذه الطائفة يدنس نفسه ولكن ..

فنهضت نيفرت من محفتها وقالت : قد تطهر بنت أنات من الدنس على يدك أو

على يد أحد كهان هذا الهيكل.. أما ذاك الرجل فيبقى طول حياته تعساً منحوساً ، إذ قد لا تشفى ابنته من جرحها الخطير فيقضى بقية أيامه فى لهف عليها وشقاء.

قال الحاجب (بنبيزا) من رجال تشريفات الأميرة وخاصة المقربين منها: تبينت فى طليعة الأمر أن غشيان دار المحنط يلحق الدنس بداخلها، فلما أبصرت ببنت أنات مصرة على دخول هذا الوكر اللعين الملوث بالأدناس بذلت فى نصحها كل مجهود ألا تدخل وأشرت عليها بالاقتصار على نقل الفتاة إليه وإتحاف أهلها بهدية ملكية سنية تكشف عنهم الغمة، فأبت إلا أن تنفذ إرادتها. قالت بنت أنات بصوت يكاد لايسمع: الحمد للآلهة على ما قدرته وقضت به. ثم تحولت إلى الكاهن وقالت: أيها الأب الجليل.. لقد علمت قضاء الآلهة وما جبلت عليه من الشغف بمساعدة الفقراء والمنكوبين، وها أنذى قد يممت إليك راجية مبتهلة. فرفع الكاهن يده اليمنى وقال: أحسنت أيتها الأميرة صنعاً ،وثقى بأن هاتور (١) هى التى بثت فى قلبك الحنون عواطف الرفق وأودعته آيات الحقيقة. وبعد أن سكت هنيهة قال: لاشك أنك جئت إلى هنا فى طلب طبيب لعلاج الجريحة. أجابت : نعم. فقال: سألتمس من رئيس الكهنة أن يكلف طبيباً ماهراً بمداواة الجراح، ولكننى أجهل مكان بيت المحنط فأين هو؟ قالت: بحرى بيوت حتاسو (٢) وعلى مقربة من.. على أننى سأترك هنا أحد رجال حاشيتى ليرشد الطبيب إلى دار الجريحة. ثم التفتت إلى بعاكر وقالت: أرغب الوقوف على حالة الجريحة قبل شروق الشمس، فلا تنس ذلك يا بعاكر.

---

(١) هاتور هى ايزيس فى حالة تصويرها تصويراً محسوساً، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنها إلهة الأنوار السماوية والحاملة لقرص الشمس بين قرنى أحد الأبقار، وكانوا يلقبونها بذات الوجه الساطع الذى تنبعث منه أشعة مسرات الحياة وأفراحها.

(٢) كانت وصية على ثانى فراعنة مصر، وهى من ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

فتقدم بعاكر نحوها في احترام وخشوع مستفسراً أمرها، فقالت: أكلفك بمرافقة الطبيب الذى يعين لعلاج الفتاة وإرشاده إلى دار أبيها ومن الهين –على ما أعتقد– قيامك بهذه المهمة، فقد سبق لك أن جست خلال أحياء طيبة الأموات، ولا تنس أنك شريكي فيما لحق الفتاة من الأذى. قالت هذا ثم تحولت نحو الكاهن قائلة: أما أنت فسأشرح لك أسباب الحادث الذى أحزن فؤادي وأقلق راحتي.. كان بعاكر كثير المفاخرة والمباهاة بأصالة جياده الشامية زاعماً أنها أسرع من جيادى المصرية فأنكرت عليه حكمه الذى إليه ذهب وطلبته إلى المسابقة لاقناعه بفساد هذا الحكم، فلما أجابنى إلى طلبى كان ما كان مما أثار الأحزان والأشجان. قال رئيس التشريفات: الحمد لآمون أن لم يتسفحل الخطب ويعم الكرب، وأن وقف المصاب بعد جرح الفتاة عند تحطيم مركبة بعاكر وإصابة جواده الشامى بجرح بالغ. قالت الأميرة: سوف يهتم الطبيب بتضميد جراح الجواد بعد ذهابه إلى بيت بينم.. وهل تدرى يابنبيزا، أن هذى أول مرة سرّنى فيها اشتغال الملك أبى بمحاربة الأقطار البعيدة؟ أجاب رئيس التشريفات: لو أن جلالته كان هنا للقينا منه ما لا نود. وبعد برهة انقضت فى سكون، صاحت بنت أنات ببعاكر سائلة: أين الأطباء.. أين الأطباء يا بعاكر؟ لقد عهدت إليك إرشادهم إلى دار الجريحة ومبادرتى بشرح حالها فجر الغد.

وما أشار بعاكر برأسه إشارة الطاعة، حتى أمرت بنت انات ركبها بالمسير. وقبل أن يتحرك الركب دنا منها الكاهن وبسط على رأسها يديه ليبارك فيها، فما أتم صلواته الطيبات ودعواته المباركات حتى أخذ الركب يسير حثيثاً نحو ضفة النيل، وظل بعاكر واقفاً بين عبدين يشيع نيفرت بنظرات الحسرة على فراقها.

وما برح يستشرفها ويمد بصره إليهـا حتى توارت خلف حجاب الظلام، فانشأ عندئذ يفكر في منزل بينم ويناجي نفسـه سـائلا عن موقعه من طيبة الأموات. وكان رئيس الحراس وأعوانه الذين استدرجهم نباح الكلاب إلى هذا المكان وقوفاً صفوفاً فسألهم عن بيت المحنط أجـاب الرئيس: ومـاذا تريـد منه؟ فقـال بصوت المستبـد المتجبر: وما شأنك يـا هذا حتى تستفهم عنـه؟ فأخذ الرئيس يحد البصر إلى رجـاله محملقاً فيهم حملقـة الغاضب السـاخـر وقال: هلموا ننحـدر من الشمال إلى الجهة التى زايلناها.

فتصلف بعاكـر متغيظاً مما أبداه الـرجل من قلة الاكتراث بأمره وإغفالـه القيام بمفـروض الاحترام له، وصـاح بالـحراس: أن قفـوا فإنى قـائد طليعة الملك. فقـال رئيس الحرس: إذا كنت تـريـد بيت بينم فاطلبـه من الطـريق التى جئت منهـا.. إلى الأمام أيها الجنود!

ما كـاد رئيس الحرس يفوه بـآخر كلمـة حتى طرق الأسماع ضحك أغـرب فيه الضـاحكون على وجـه أخجل بعاكـر حتى هـوى سوطـه من يده دون أن يشعـر، فالتقطعه العبـد الحبشى الذى ضُرب به منذ بـرهة واقتفى أثر مولاه الـذى كان قد سبق إلى الهيكل لتبين أسباب الضحك و التنكيل بالضاحكين.

وكان حـارس أبواب الهيكل– الذى أبدى رئيس الحراس أمـامه ضروب الجرأة والتبجح – ملما بسر الضحك، فتقـدم رويـداً نحو البـاب المفضى إلى صـدر الهيكل مستتراً بالظلام. وبعد أن طرقه مراراً بعصاه الطويلة صاح: ياأولاد (ست) يا صيد المشنقة وقنص جهنم هلموا ابرحوا هـذا المكان من غير توان. فانقطع الضحك فوراً وما هى إلا فترة من الزمن حتى انسـاب سرب من الأطفال يتبعهم ذلك الشيخ بعكازه

ثم دخلوا المكـان الأول من أحد النـوافذ، فعاد الشيـخ الحارس ممسكا بأذن صبى نيفت أعوامه على الثلاثة عشر وقال له ولزملائه: سوف أخبر أستاذكم بقبيح فعلكم وذميم خلقكم، أيها الجراد المنتشر.. أيها الخفـــافيش القـــذرة الضـــاريـــة.. أيها الوحوش.. أيها النسل الشقى والذرية الشريرة!

وبيان الحادث أن أطفـال المدرسة رأوا بـاب الحبس الذى حبســوا به مفتـوحاً فأفلتوا منـه وانطلقوا يضحكون ويلعبـون ويسخرون من الشيخ حـارس الأبواب فقبض على أكبرهم سناً، وهو ذلك الصبى وأخذ يعـرك أذنيه بين إبهاميه وسبابتيه. وما رضـى أن يخلى سبيله إلا بعـد أن أمسك الغلام بلحيتـه مستميحاً منـه العفو، واعداً إيـاه بالنبيذ الذى تـرسله إليه والدتـه كل أسبوع. ولكنه قال لـه وهو يجرى واضعاً يديه على أذنيه من شدة ما نابهما من الألم: لست أغضى على فعالكم الذميمة وحيلكم الكـريهة، أيها التـلاميـذ. كلا وإنكم لتجهلـون حقيقتى.. لقـد انتـويت ألا أشكوكم إلى الأستاذ، بل إلى الآلهة.. أما نبيـذك أنت أيها الغلام، فخليق بك أن تقربه إلى مقامهم الأسنى ليصفحوا عن زلتك ويتجاوزوا عن خطيئتك.

الفصل الثانى

بنطاؤر الشاعر

كان الهيكل الذى برح الكاهن فناءه لاستدعاء الطبيب وظل بعاكر ينتظره فيه حتى يعود هو بيت سيتى الذى لا يعدله فى انفساح الجوانب وترامى الأركان غير هيكل تحتمس الثالث الذى أقام أمينوفيس الثالث عند مدخله تمثالين عظيمين يسمى أحدهما ممون، وكان بيت سيتى بناء ممرداً وصرحاً منجداً بلغ من الاحتفال بتنميقه مالم يجاره فيه هيكل من هياكل طيبة الأموات. وقد بدأ بوضع أساسه رعمسيس الأول لما اغتصب صولجان الملك وجلس على عرشه. وأتم بناءه من بعده سيتى الأول وإليه نسب. وكانت تقام فيه الصلاة على أرواح الموتى من الأسرة المالكة والأسر العريقة فى المجد والحسب وتعقد به الحفلات علانية، إجلالا لآلهة السماء السفلى.

ولقد أجرى الملك عليه الأرزاق الوافرة وخصص لمعهده الدينى الكبير والمدارس الصغرى التابعة له المرتبات الجزيلة، وعنى بانشاء هذا المعهد ومدارسه على مثال معهدى عين شمس ومنفيس ومدارسهما، ليتوافر الطباق فى منافسته إياهما فى ميادين العلوم والمعارف، رجاء أن تتفوق طيبة عاصمة مصر العليا وتتئذ على مدائن مصر السفلى التى كانت لذلك العهد مركز دائرة العلوم ومنبعث أنوار المعارف.

وكانت مدارس بيت سيتى تمتاز على نظيراتها [1] بالمعهد الدينى العالى الذى كان

---

(١) إن البيان الآتى عن نظام مدارس مصر القديمة مستخرج باكمله من أوراق مؤرخة من عهد رعمسيس وخلفه الملك منفتح.

يتلقى فيه نجباء الطلاب علوم الدين والطب والحقوق والرياضة والفلك والنحو وغيرها، على علماء برزوا فى هذه الفنون واشتهروا فيها بالبراعة والنبوغ. وكانت تجري الأرزاق لذلك عليهم من فيوض المكارم الملكية، إذ كانوا يأكلون ويشربون وينفقون على حساب الملك.

وكان لأولئك الطلبة -إذا أحرزوا درجة عالم فقيه أو كاتب مجيد- أن يستعينوا بمعلوماتهم على كسب معاشهم. وقد أنشئت لهم بالمدرسة دار عظيمة للكتب تحتوى آلاف المصنفات النفيسة، يتصل بها معمل لتحضير ورق البردى. وكانت إدارة المدارس الملحقة بذلك المعهد تناط ببعضهم من آن إلى آن.

وكان عدد تلاميذ كل مدرسة من المدارس الابتدائية التابعة لمعهد بيت سيتى لايتجاوز المائة، يشترط فى قبولهم بها أن يكونوا من أبناء الوطن الأحرار، لا فرق بين غنى وفقير أو عزيز وحقير، وكانوا يقيمون بها ليل نهار على أن يدفع أهلوهم أو أولياء أمرهم مالاً معيناً فى مقابل ما يتناولونه من الغذاء ، وإلا أرسلوا إليهم من بيوتهم فى مواعيد موقوتة مايقوم بأودهم من الطعام والشراب. وكان لتلاميذ الداخلية من أبناء العظماء والأعيان مكان خاص بهم يكونون فيه تحت رقابة الكهنة وعنايتهم، ويدفعون فى مقابل تعليمهم علوم الدين والدنيا المبالغ الفادحة. وقد رُبى رعمسيس الثانى بن سيتى الأول فى هذه المدرسة.

وكانت برامج المدارس الابتدائية وأنظمتها تتطلب من التلاميذ الالتفات إلى الدرس والمثابرة على تفهمه، فإذا خالفوا هذه الأنظمة ولم يراعوا العمل بنصوصها عوقبوا ضربا بالعصى، وهي العقوبة الشائعة وقتئذ بالمدارس كما يثبته المثل المصرى القديم : «إن آذان التلاميذ فى ظهورهم.. فهم لايسمعون إلا إذا ضربوا».

وكان لاينقل التلميذ من مدرسة ابتدائية إلى مدرسة عليا إلا بعد اختبار دقيق يكرم فيه ويعظم شأنه. وكان للتلميذ الناجح أن يختار من بين أساتذته الأقدمين أستاذاً يستمر فى التلقى عليه، حتى ينبغ في العلم الذي انصرف إلى تحصيله، ويلازمه ملازمة الظل للشبح ويبقى خاضعاً لأمره. وبعد انقضاء سنوات فى الدرس والبحث والتحقيق والتقرير يمتحن فيما حصله من العلوم أمام العموم لينال مرتبة فقيه أو ليرشح لمناصب الحكومة.

وكان هناك فيما عدا هذه المدارس مدارس الفنون والصناعة، كان الطلاب يتلقون فيها العلوم المؤهلة لتخريج مهندسى العمارات والنقاشين والمصورين. وكان نظام التعليم فيها عينه فى الأولى، أى أنه كان للتلميذ أن يختار المعلم الذى يأمل بالتلقى عليه الوصول إلى ذروة التقدم والنجاح.

وكان عدد الأساتذة فى المدارس كلها ثمانمائة أستاذ، تخرجوا جميعاً من بيت سيتى. وكانوا ينقسمون إلى خمس درجات ويرجعون فى أمورهم إلى ثلاثة رؤساء يعرفون بالأنبياء، أشرفهم مرتبة وأرقاهم درجة فى العلوم والفنون رئيس كهنة بيت سيتى الذين كان يتجاوز عددهم في طيبة الأموات ألوفاً كثيرة.

أما بيت سيتى فكان بناء وطيد الجدران شامخ الأركان، يصل الإنسان إليه من نهج قويم أخذ من ضفة النيل إلى باب السياج المحيط به. فإذا دخل من هذا الباب وجد نفسه فى فناء فسيح يحيط به من الجهات الأربع صفان متوازيان من الأعمدة الضخمة، يقابل كل عمود من صف نظيره من الآخر. وشهد أمامه تجاه الباب باباً آخر توفر المهندسون على الاحتفال بتنسيقه والمبالغة فى تنميقه، وإلى جانبيه هرمان ناقصان زادا فى حسن النظام وبهجة المنظر. ويؤدى الباب إلى فناء آخر يشبه الأول

حجماً وشكلا، إلا أنـه ليس فيه سـوى صف واحد من الأعمـدة بالـواجهة المقـابلة للمدخل الذى أوردنا وصفه.

وكان بيـت سيتى وراء طائفـة من منازل كبيرة مكعبـة الشكل مشيدة بـالأجر النىء المتخـذ من طمى النيل ومجصصـة بالجير. وقـد زينت بـالصور والنقـوش الهيروغليفية وأعدت لإقـامة الكهنة والمدرسين. وكان نظامهـا الهندسى من الداخل واحـداً، إذ كانت تتألـف من فناء تحف بـه ممشـاة من الخشب تؤدى إلى حجـرات الأساتذة وتتوسطه نافـورة ينبط منها الماء على الدوام فى حوض تحيط به شجيرات الأزهـار وتنصرف المياه منـه في مسـارب متعـددة حتى لا تبقى فيـه أسنة. وكـان الطلاب يقيمـون بالطبقة العليا من تلـك المساكن ويتلقون الدرس فى فنـاء غير الذى وصفناه، جلوساً على حصر مبسوطة فوق الثرى.

أما دار كبير الأنبياء الثـلاثة ورئيس كهنة بيت سيتى، فكانت على مسـافة مائة خطوة من واجهته الخلفيـة تكنفه من الجانبين أشجار باسقة ظليلـة. وكان القصاد يعـرفونـه من بعيد بما يخفق مـن الأعلام الكثيرة حـول سطوحـه. وكان الأنبيـاء لايقصـدون إليـه إلا لإدلاء المفـروض عليهـم من الـواجب نحـو النبى الأكبر ثم ينصرفون إلى طيبة الأحياء حيث يسكنون مع أسرهم فى منازل خصت بهم.



نعود الآن إلى ذكر ما وقع عقب انصراف الأميرة بنـت أنات فى موكبها الحافل إلى ضفة النيل ودخول بعاكر بيت سيتى للبحث عن الضاحكين الذين ظن أنهم يهزأون به.

ألقت الضجة الهائلة التى حدثت عقب حضور الأميرة وانصرافها –فى وقت جرت

العادة بأن يكون من أوقات السكون- الذعر فى روع الكهنة والعلماء والطلاب، فخرجوا من دورهم هائمين استطلاعاً للحقيقة وصاروا فى حالتهم هذه أشبه بالنمل إذا دهمتهم مصيبة فخرجوا من مساكنهم، ثم أخذوا يجتمعون زرافات حول الهيكل ويتساءلون عن هذا النبأ ويذهبون مذاهب شتى فى تفسيره ، فمن قائل إن رسالة ملكية وصلت إلى رئيس الكهنة، ومن قائل إن المحنطين وفاتحى جثث الموتى انقضوا على بنت أنات وأصابوها بأذى.

وكان بين الطلاب الواقفين غلام ممن هربوا من السجن، فقال للقوم: إنى ملم بحقيقة الواقعة وهى أن بعاكر رئيس طلائع الملك أدخل فى بيت سيتى رغم أنفه ليحسن الكتابة. أراد التلميذ بهذا الكلام التشهير ببعاكر والسخرية منه، لأنه كان فى طفولته من طلاب بيت سيتى وكان معروفاً بين أقرانه بكثرة الأغلاط النحوية فى كتابته. وله فى ذلك حوادث مأثورة تُضحك الثكلى. وقد بقيت شائعة على ألسنتهم يلقنها طلاب الفرق العليا لمن يأتون بعدهم وهكذا. فلما سمع الحاضرون ذلك أغربوا فى الضحك وصفقوا سروراً واستحساناً.

وعزّ على القوم الاهتداء إلى الحقيقة. فلما حضر أحد الكهان قال لهم إنه رأى بعاكر بفناء الهيكل غير أنه لم يدرك سبب حضوره فى هذا الوقت، فاعتقدوا صدق مارواه الغلام الساخر، وإن لم تكن علاقة هناك بين مركزه السامى فى معية الملك وبين ما يعزونه إليه من الجهل بالقواعد النحوية وتصريف الكلام.

ولما كثر الهرج فى الطريق -لاختلاط الطلاب وعدوهم ورواحهم وتساؤلهم ومزاحهم- هبّ (أمينى) رئيس الكهنة من مكانه ليقف على سر هذا الضجيج.

وكان أمينى هذا ابن (نبكت) من عائلة عريقة فى الحسب . وقد نال منصبه عن

كفاءة واستحقاق، فامتد نفوذه الدينى إلى مدارس الكهنة فى جميع أنحاء القطر. وكان إذا شجر خلاف أو حدثت شبهة فى أمر يتعلق بالعلم أو الدين وذهب كل فريق مذهباً؛ ستعانوا بمعارفه الواسعة على حل عويصات المسائل ورضخوا لحكمه وأخذوا به قضية مسلمة.

وكان الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وانفراج مذاهبهم يعدونه الممثل لروح الكهنوت، فكان إذا جهر بفكرة تصدم أفكارهم أو رأى يعارض -ولو فى الظاهر- آراءهم فى العلم والدين امتثلوا لحكمه فيها وأقروا له بالطاعة، لما وقر فى نفوسهم من الاعتقاد بانصراف أقواله وأعماله إلى غايات تخفى على مداركهم، ولاسيما أن التجارب العديدة دلتهم على وجوب حسن الظن به.

وكان الملك يبالغ فى توقيره وكثيراً ما كان يغدق النعم عليه ويخصه برعايته ويستميله إلى تقلد منصب الحافظ الأمين لختمه، فلا يلقى منه إلا إعراضاً مفضلا البقاء فى منصبه الدينى الذى كان يباشر أعماله الدقيقة مطلق اليدين فى كل شىء إلا ما تقيدهما فيه القوانين الرسمية. وكانت نفسه تعاف مظاهر العظمة الباطلة وتجنح إلى التواضع والانجماح عن الناس. وكان لايرهب مخالفة أوامر البيت الأعظم (١) مادامت غير متفقة مع أفكاره وآرائه.

وكان أمينى من أحرص الناس على رعاية النظام فى معيشته لايصرفه عنها صارف مهما جل، فكان يخص من كل عشرة أيام ثمانية بفروض وظيفته ويومين بالإشراف على شؤون أسرته. وكان أخصاؤه وأقرب الناس إليه يجهلون أى يوم من

---

(١) البيت الأعظم أو الباب العالى هو قصر الملك، وكان يسمى باللسان المصرى القديم برايا، ومنه اشتقت لفظة «فرعون» مع تحريف كبير فى اللفظ.

تلك الأيام يعبر فيه النيل إلى طيبة الأحياء ليقضى بعض ساعات الفراغ بين عشيرته وذوى قرباه.

وكان لايستغرق نومه أكثر من أربع ساعات فى اليوم قبيل الظهر أو بعده فى غرفه مظلمة لا تصل إليها ضوضاء المارة ولا ضجيج الطلاب. وكان لايغمض الطرف فى أثناء الليل، لأن طراوة الجو والسكون الذى يشمل فيه الكائنات كانا يبثان فى نفسه القدرة على العمل، من تصنيف ومطالعة وبحث ومراقبة لحركات الأجرام السماوية وكان من أحرص الناس على رعاية الأصول الدينية والطقوس الرسمية من وضوء وطهارة وصوم وجز لشعر الرأس.

وكان فى الخمسين من عمره، طويل القامة، قوى الأساطين دون بدانة، وضخم كغيره من أهل الشرق إذا ناهزوا هذه السن، واضح الجبين ،جميل الطلعة، تبدو من شفتيه الرقيقتين ابتسامة مستمرة، واسع العينين، تدل عيناه على عصمة النفس من الانفعال بعوامل الشهوات. وكان مطرق الرأس على الدوام، فإذا أحبّ أن ينظر أو يتكلم رفعه ببطء مقلباً عينيه ببطء كذلك.

وقد تغزل بنطاؤر نابغة بيت سيتى فى النظم فى عينيه فشبههما بجنود أحسن قائدها قيادتها فى ميدان القتال ثم تركها تلتمس الراحة حتى إذا عاودها النشاط ووجدت ما فقدته من قوة هبت إلى القتال بعزم جديد وإقدام يكفل لها الانتصار فى ميدان الفخار.

●●●

لما سمع رئيس الكهنة ضجيج الطلاب عندما أقبلت بنت أنات على الهيكل وعادت منه، برح حجرته لاستطلاع الخبر. وكانت هذه الحجرة من أوسع حجرات الهيكل

وأحسنها شكلا، إذ كان النصف الأسفل من جدرانها إلى ما يوازى ارتفاع القامة مكسواً بالغضائر الخزفية وما بقى منها مزيناً بالصور والنقوش العجيبة. وكان لا يوجد بها من المتاع غير مائدة كبيرة وسرير للاضطجاع يعلوه متكأ من سن الفيل بشكل الهلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراسى عديدة وخزانة تحتوى أوانى معدن وقدوراً من صلصال، وأخرى تحتوى قنانى وقوارير زجاج. وهذا فيما عدا العلب المختلفة الأشكال والأقدار وصدف البحر بأنواعه. يضىء هذا كله ثلاثة مصابيح تشبه الطيور فى صورتها ويمد فتيلتها بالضوء ما تحتويه من زيت الخروع.

وكان لباس أمينى ثوباً من التيل سابلا إلى كاحل القدم ناصع البياض كثير الثنيات، عليه وشاح ذو أهداب مرسلة محيط بخاصرته ومعقود من الأمام فى نقطة ينسدل منها طرفاه إلى ما يوازى الركبتين، متماسك الأجزاء بحمائل مزركشة بالذهب. وكان بعنقه عقد لؤلؤى وأحجار كريمة منضودة على مثال فرعين متعانقين من سعف النخل، وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز.

فلما نهض –وهو بهذا اللباس – من كرسيه المفرغة قوائمه على مثال مخالب الأسد أشار إلى عبد قاعد القرفصاء بجوار الحائط، فأدرك العبد ما أمره به مولاه فقام من فوره وأقبل مسرعاً نحوه ووضع على رأسه جمجمة صناعية ألصقت بها شعور متجعدة ومرسلة من حولها إلى الكتفين (١)، ثم تناول فروة فهد، رأسه ومخالبه من الذهب الخالص وأفرغها على كتفيه. وتقدم بعد ذلك عبد آخر يحمل مرآة من المعدن الثقيل فتراءى أمينى فيها وسوّى جمته ثم قدم إليه عبد ثالث محجن

(١) كان وجهاء قدماء المصريين يحملون فوق رؤوسهم شعوراً مستعارة، ولايزال بعض هذه الشعور محفوظاً فى دور التحف.

الـرئاسة الكهنـوتيـة، ودخل فى أثناء ذلك كـاهن أخبر الـرئيس بحضـور الشاعـر بنطاؤر.

أذن أمينى للشاعر بـالدخول فدخل ودنـا منه وجثا أمامـه على ركبتيه ثم تناول يده ولثمها. فقـال أمينى: قم يا بنىَّ فإن فى حضورك مـا يكفينى مؤونة الخروج فى مثل هذه السـاعة للوقوف على سر هيـاج الطلاب حول الهيكل بما لم يعهـد مثله فى سـالف الأيـام فهل وقفت على بعض هـذا السر؟ أجاب بنطـاؤر: لم يقع مـا يخالف العادة أيها الأب المبجل، وكل ما فى الأمـر أن الأميرة بنت أنات جاءت الهيكل فى طلب أحد الأطباء. قال أمينى: وهل بها أذى من مـرض أو غيره؟ أجاب: كلا، فإن صحتها على خير مـا يرام غير أنها كـانت تسابق بعـاكـر بجيادهـا الصافنـات فى واد ضيق فصدمت مركبتها ابنة المحنط بينم، ولما كـانت نفسها مجبولة على الرحمة فقد نقلت الجريحة إلى بيت والدها. قال أمينى: وهـل غشيت الأميرة هذا المكان المدنس؟ أجاب بنطـاؤر: نعم غشيته. قـال أمينى: وأظنها جـاءت الآن تطلب تطهيرها من شـوائب الدنس. أجاب بنطـاؤر: نعم ، لأجل هذا أتت. ولقد رأيت صـوابـاً أن أقابل ملتمسـها بالقبول، لأن عاطفة الرفق ببنى الإنسـان هـى التى دفعتها فى مـأزق المخالفة لطقوسنا الـدينية، ولأنـه لا يصح – فى اعتقـادى– اعتبار الشفقـة إثماً واصطناع المعـروف نقصـاً.. وهذا الإلـه رع الذى يجوب السماوات العلى فى زورقـه الذهبى ألا يـرسل أشعته الشمسية إلى أكواخ الفقراء كما يرسلهـا إلى قصور الفراعنة ودور الأغنياء؟ فلماذا تكون بيـوت هؤلاء طـاهرة وأكواخ أولئك مـدنسة؟ وإذا كـان قلب الإنسان يفيض بـالشفقـة والحنـان أفلا يجدر بـه أن يشمل الفقـراء والبـائسين بـالعطف والإحسان؟.. وأى إحسان أفضل عند الله زلفى من مـواساة جريح طريح الفراش لايملك من وسائل العناية ما يحفظ به حياته؟

قال أمينى: أنت يا بنطاؤر تتكلم بلسان الشاعـر الذى خدعته لطافة العواطف، لا بلسان الكاهن الذى سما إلى أشرف درجات العقل والحكمة واستحق بهذا الفوز الساطع أن أسميه أخى وأن أعتبره خدنى وظهيرى! اعلم أن أعمالنا وتجاربنا لا تُوجِد معدوماً ولا تحدُث فى هذا الكون شيئاً غير الذى كان، وأن هذه الأعمال والتجارب ترشد إلى وجوب المحافظة على تقاليد السلف الصالح. ولقد سمعتك منذ أسبوعين تعظم فى صلواتك علم أحوال الغابرين وتسأل الله تأييدك بها وإعانتك على حفظها ، فكيف تغيرت أحوالك وتقلبت أطوارك؟ ألا تدرى أن من العلم ما يشبه النار، إذا حصّله من يحسن تدبيره والتصرف فيه أفاده المزايا الجليلة، و إذا تناولته يد الطفل -والشعب يظل طفلا دائما- شبّ بسببها حريق هائل يأتى على كل ما أولدته القرائح فى الأزمان الغابرة من جلائل الأعمال ومحامد الخصال؟ إنا معشر المحيطين بأسرار الدين نستطيع -متى أردنا - أن نوسع نطاق معارفنا ومعلوماتنا بالتجارب نقوم بها داخل الهيكل حيث لا غريب ولا رقيب، وذلك حرصاً على عقائد العامة والسذج الذين يخدعهم حب التقليد أن تتزعزع فيحيدون عن جادة الصواب. ولقد عاهدتنا يا هذا بقسم غليظ أن تحافظ على هذا المبدأ وأن لا تخيس بعهدك، فلم جئت الآن تحنث بيمينك وتهتك حرمة الواجب الذى فرضت على نفسك القيام به، وهو المحافظة على تقاليد الآباء والأجداد ودعوة الخاصة والكافة إلى السير عليها؟ اعلم يا بنى أن الأحوال الآن ليست مثلها فيما غبر من الزمان. ففى عهد الملوك السالفين كانت جذوة النار التى ذكرتها لك على سبيل المجاز مضطرمة بين جدران نحاس يمر الشعب بها فلا يدرى حقيقتها. ولقد رأيت اليوم ثلمة فى هذه الجدران أخشى أن يحمل العامة حب الاطلاع على النظر منها إلى ما فى الداخل أو أنه إذا سطعت منها أنوار الحقيقة فبهرت أبصارهم وفتنت عقولهم أذاعوا أسرارها ولاكت

الألسنة أخبارها وسقطت فى درك البدهيات العادية التى ألفتها الأفهام.

وهنـا بح صوت أمينى كمن ينفعل بتأثير وجـدانى شـديد، وشـخص بعينيـه فى بنطاؤر وظل ثـابتاً هكذا مدة من الـزمن استأنف بعدها الحديث فقال: إنـا نستنزل اللعنات على كل كاهن يوسع تلك الثلمـة، ونحكم عليه بالطرد والنفى، ونعاقب بهذه العقوبة كل كاهن يتراجع عن سد أية ثغرة تحدث فى أركان الدين جهد الإمكان.

فما سمع بنطـاؤر هذا الكـلام حتى علت وجهـه حمرة الخجل وصاح بصـوت الفازع: أبت!.. أبت!.. فدنا منه أمينى ووضـع يديه على كتفيه.

وكان الـرجلان متماثلين فى اعتـدال القوام وتناسب الأعضــاء حتى لكأنهما من نبعة واحـدة ، غير أنهما مع تشـابهما فى الجثمان كان الاختـلاف بينهما واضحاً فى الوجـدان. ذلك لأن أمينى كان مستحكم الشكيمـة قاسى الطبع قـوى الإرادة ثابت العزم قادراً على قمع النفس بعكس بنطـاؤر الذى كانت أعماله وأقوالـه تستمد مما جبلت عليـه نفسه من عـواطف الحنان وميـول الخير والإحسان. وكـان مما تهواه نفسه اللقاء بفقير بائس أو حزين يائس فيسرى الهموم بإسعاف العانى وفك كربته وتسلية الحزين والتأسى على مصيبته.

وكان بنطاؤر إذا فكـر أو تكلم نمّت عيناه وشفتاه على دخيلة نفســه وما ينتابها من الـريب والشكوك. ولقـد لاح من هيئته– لما استقـرت فى سمعه كلمات التعـزير والتقـريع التى وجهها إليـه رئيس الكهنـة– أن بعض تلك العـواطف كانت تحفـزه لمعارضتـه ومناقشتـه الحساب فيما أنـذره به. غير أنـه كان لسمـو مركز الـرجل وشرف رتبته من الأثر فى نفسه ما لم يجد معه بدا من الرضوخ لأمره، فآثر ملازمة الصمت على كـلام ربما أدى إلى تـوسيع هـوة الخلاف فمضـاعفـة التعنيف،

والاعتساف. وكـان جسمه -لكظمـه الغيظ فى نفسه- كـالقدر تغلى فـوق النار، إذ أخذته هزة شعر بها أمينى حينما وضع كفيه على كتفيه.

وإذ أحس رئيس الكهنـة بأثر هـذا العامـل الوجـدانى قال لـه بصوت تخالطـه الـرحمة والشدة: نعم كـان لا مفـر لى من تعنيفك وعقـابك. ثم أخذ بيمين بنطـاؤر وتراجع إلى الوراء قائلا: إنى لمغتبط بما هيأتـه الظروف من ضرورة توقيع العقاب عليك، مع أننى أحبك وأريـد لك الـخير وأوليك الاحترام الذى أنت لـه أهل بما جمعت نفسك من صفـات عالية وإرادة تـذلل بها الصـعوبـات.. واعلم أن عادة الـزراع قد جـرت بإغفـال الحشـائش الـرديئـة لكى يستطيعـوا -إذا نمت- استئصـالها من جـذورها.. وأنت والحمـد للـه لم تكن من فصيلـة هذه الحشـائش بل أنت شجـرة مباركة غرست فى أطيب مغرس، إلا أن الغارس فاته أن يتعهدها بالرى ويسوق إليها ما تحتـاجه من مواد النماء لتبقى ملتفـة الأفنان وارفـة الظلال فتلافى مغبـة الغفلة باقتضاب الأغصان الزائدة، ويلوح لى على وجهك أثر التذمر من الشدة التى أعاملك بها، ولكن ألا تجعل لنفسك من نفسك حكما لترى مقدار ما احتوت الجهالة عليه منك حتى صـدتك عن السعـادة، وأن شيطـان الغرور زيـن لك قبيح العمل فأضلك عن سواء السبيل وأن رعـونة الشباب قـد استحوذت عليك فصرفتك عن الـرشد؟ لعلك رأيت أن ليس في الأمـر من بأس! ولكن أنسيت أن ذنبك يعـد بـذنبين وأنك تستحق عليه عقوبتين؟ إن ابنة الملك التى ينبغى أن تكـون لغيرها من رجال الشعب ونسائه قـدوة حسنـة قد تلـوثت بحمأة الخطيئـة إذ دخلت بيت بينم، فإذا جـارينـاك على اعتقادك أن الاتصال بالمدنسين لايشوب بالدنس أصحاب المراتب السامية والأقدار الشريفـة، فماذا تكـون العاقبـة؟ إن القـوانين التى سنهـا السلف الصـالح يـذهب بسلطانها على النفوس احتقار الأهالى لها، إذ يعتقدون أن المحنطين أناسـى مثلنا وأن

الأوامر المأثـورة بالفرار منهم كما يفـر السليم من الأجرب لغو وبـاطل.. ويا ليتهم وقفوا عنـد هذا الحد! إذ لا مناص لهم من النظـر فى المسائل الدينية الأخـرى فتتلبد غيوم الـريب والشكوك ويذهب كل واحـد فى تأويلها إلى ما يطابق مصلحتـه فتكثر البدع وينثلم ركن الدين ويكون الفشل والتفريق والعياذ بالله.. ولكأنك اليوم تروم بفعلك فتح باب لـلأعداء يلجون منـه إلى باحـة ديننا القويم ثم يتسـورون أسواره الضخمة المتينة ليهدموها بمعاول الحقد والضغينة...

ألا تعلم يا بنى أن طقوسنا الدينية أصبحت كمركبة على منحدر ينتهى إلى هاوية سحيقة القرار، وأنـه لا يعوقها عن التدهـور فيها إلا ما استندت إليـه عجلاتها من الأحجار التى إذا رفع طفل أحدها هوت إلى قاع الهاوية وذهبت حطاماً؟

لنفرض أن الأميرة هى هذا الطفل وأن المركبة يـوقفها فى مكانها رغيف خبز بدلا من حجـر وأنها تحمل أبـاك وأمك وبعض أهلك الأقـربين، أفتـود أن تتنـاول هـذا الرغيف لتتحف به جائعاً التصق بطنه بظهـره من فرط الطوى ثم تدع أهلك الأعزاء يهوون في الهاوية التى لا قرار لها؟.. إنى لا أظنك تحير جواباً على هذا السؤال وليس عنـدى خلجة شك فى أن الأميرة ستقصـد غـداً دار بينم. فعليك أن تنتظـرها عنـده لتخبرها بالمسارعة إلينا حتى نطهـرها من أقذار الدنس، أما أنت فقد أعفيتك من كل عقاب سوى ما قضيت به عليك من قبل.. أن الله أجزل لك من هبات العقل والفهم ما تستطيع بـه الصـعود إلى ذرى الحكمة وتصـون به إيمانك، فكيف يفتنـك الشيطان بغروره وكيف لا تلزم سبل التقوى والرشاد ليحبك الله والعباد؟

ولما أتم أمينى نصيحته، أمـر بنطاؤر باسصطحاب الأطبـاء إلى بيت بينم لعلاج الجريحة، ثم سأله: هل في الهيكل مَن يعرف هـذا البيت؟ أجاب بنطاؤر: إن ابنة الملك

أمرت بعاكر قائد الطليعة بالبقاء هنـا ليرشد الأطباء إليه. فقال رئيس الكهنة باسماً: وهل يناط بمثل قائد طليعة الملك الاهتمام بابنة رجل يشق بطون الموتى ويحنطها؟.. فرفع بنطاؤر رأسه عندئذ رويداً رويداً وقال متنفساً الصعداء: وهل يناط ببنطاؤر بن البستانى الحقير توبيخ ابنة الملك؟.. فقال أمينى: مـا دمت يا بنطاؤر خادماً للرب ومنتظماً فى سلك الكهنـوت فـلا يحق لك أن تنظـر فى التفاوت بين درجـات الجنـاة والخاطئين. إن بنت أنـات مهما تكن من سمـوق المجد وكـرم المحتـد لا محيص من مساواتها بـالفقيرة المعدمة متى كان الغـرض من تقريعها التحذيـر من السقوط فى مهاوى الخطيئـة. فأحنى بنطـاؤر رأسه امتثالا ثم خـرج، بينما كان أمينى ينـاجى نفسه بقوله: لقـد وصل كلامى إلى قرارة نفسه فأثر فيها، غير أنـه ما برح متمادياً فى غيه ومصراً على بـاطله. ثم سكت وأخـذ يمشى سبهللا بخطوات واسعـة سريعة وقال: إن لهذا الشاب مستقبلا مجيداً يكون لـه فيه شأن خطير.. إنه لا تنقصه مزية من مزايا العلم وشدة العارضة ودقة الشعور، ولقد استمال القلوب إليه حتى قلبى الـذى كأنـه قـدّ من صخر. على أنـه يجب أن يجمع إلى هـذه المزايـا خصلـة الطمع والطموح إلى المعالى، فلنبادر إلى إضرام نارها فى قلبه، فإن فى ذلك خيراً لنا وله.

الفصل الثالث

ما كان منذ ٣٠٠٠ سنة فى غرفة الطبيب ورأسه

امتثل بنطاؤر لأمـر أمينى فاستدعى بعاكـر الذى كان ينتظر بـالفناء حتى عيل صبره. وبعد أن أدخلـه عليه عاد ليقـابل الأطباء ويسألهم معـالجة الجريحة. وكان رهط من كهـان بيت سيتى يـزاولـون الطب [١] وكـان من يريـد منهم بعـد إتمام الدراسـة فى هذا البيت إحراز رتبـة كاهن أو درجة النبـوغ فى الطب يقصد إلى (عين شمس)حيث كانت توجد أقدم وأكبر مدرسـة طبية فى الديار المصرية، فيتلقى فنون الطب فيها حتى ينال درجة (رئيس) فيها كلها أو فى واحد منها كالجراحة أو أمراض العيون، ثم يـرجع إلى طيبة ليعين إما فى قصر الملك أو يندرج فى سلك الأسـاتذة فيما برز فيه أو يزاول معالجة المرضى فى الفـرع الذى نبغ فيه، ويمهر فى ذلك حتى يمتد صيته فى الآفاق وتخترق شهرته السبع الطباق. وكان الأطباء يقطنون طيبة الأحياء مع خضوعهم للنظام الكهنوتى، بمعنى أنه إذا مست الحاجة إلى طبيب لا يطلبه أحد رأساً من منزله بل من هيكل سيتى، يفـاوض فى هذا الطلب رئيس الأطباء. وعليه فى هذه الحالـة أن يقدم إليه اسم المريض ويصف أعـراض مرضه فيرشـده عندئذ إلى الطبيب المنقطع لعلاج مرضه.

وكان الأطبـاء كالكهنـة يستمدون أرزاقهم من الأمـلاك الموقوفـة على الهياكل، والضرائب المفروضـة برسمهم على الأهلين، والنذور التى يقدمهـا هؤلاء إلى الآلهة.

(١) إن الفوائد والمعلومـات الواردة فى هذا الفصل مستخرجـة من أوراق البردى المستكشفة قبل سنة ١٨٨٢، ومنهـا الورقـة رقم ١ المحفـوظة بمتحف بـرلين والورقـة الهيروغليفية المحفـوظة بمتحف لوندرة، وتاريخ هذه الأوراق من عهـد الأسرة الثامنة عشرة.. أى فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد أيدت مضامينها أقوال هيرودت وديودروس الصقلى المؤرخين الشهيرين.

ومن ثمّ كانوا لايقبلون من أحد جزاء مقابل علاجهم إياه، لأن المريض كان إذا شفى من مـرض أفاض بـالنذور والهدايـا الكثيرة على الهيكل الذى ينتسب إليـه الطبيب. وكان من العقائد الراسخة بأذهان العـامة أن الشفاء من المرض يتوقف على النذور والقرابين أكثر منه على مهارة الطبيب.

ومن الحقائق المقررة فى التاريخ أن قدماء المصريين بلغوا فى المعارف الطبية شأواً بعيداً وغايـة لا تُدانَى، ولكن لما كان الأطباء من رجال الـدين فقد اضطروا إلى اتخاذ الأعمال الروحانية كالرقى والتعـاويذ من وسائل العلاج حتى انتهى الأمر بالأهلين إلى نسبة الشفاء إليها لا إلى الحقائق العلمية الثابتة. وكان ببيت سيتى أطباء كثيرون تنوعت معارفهم وتباينت خصالهم وتفـاوتت درجاتهم، فاختار بنطاؤر من بينهم لعلاج الفتـاة التى صدمتهـا مركبـة بنت أنات صـديقه (نبسشت) حفيـد الطبيب المشهـور فى تلك الأزمان بهذا الاسم. وكـان (نبسشت) هذا أصـدق أقران بنطـاؤر بالمدرسة وأشدهم ميلا إليه ووفاء له، وكـان من أمره أنه شغف منذ نعومة الأظفار بممارسة العلـوم الطبية. فلما غـادر بيت سيتى إلى مدرسـة عين شمس للتخصص والنبـوغ فى علومهـا آثر فن الجراحـة فاستقصـى فيه البحث حتى أخـذ بأطرافـه واستقرت قواعده كلها فى ذهنه.

وكانت النيـة معقودة على تعيينه أستاذاً لعلم التشريح فى تلك المدرسـة الجامعة وإنما عدل عنها للعثمة فى لسانه تحول دون إحرازه هذا المنصب العلمى الرفيع الذى طالما تـاق إليه العلماء الفطـاحل فلم تتحقق أمانيهم. وكان أبـواه وأقاربـه فى حزن وتوجـد ويأس من تسنمه غارب ذلك المنصب بسبب تلك العـاهة المقوتة. أمـا هو فكان منشرح الصدر قرير العين بها؛ إذ وجد أنها خير نصير له على العزلة والتفرغ للأبحاث العلمية والانصباب على التحقيقات التى يرجى أن تفضى به إلى استكشاف

أسرار الحياة العنصرية وأن يقضى فيها وقته، بينما تذهب أوقات أقرانه بدداً فى الترنم بالأناشيد والأغانى الكهنوتية.

وكان أساتذته يحثونه على موالاة البحث والتنقيب ليقفوا منهما على الحقائق العلمية الغامضة فى فن التشريح. ولقد كان يخالفهم فيما يعتقدونه من تأثير الوسائل الروحانية كالسحر والرقى والنذور فى شفاء الأمراض أو عدم شفائها ويأبى التسليم بأن بين القواعد العلمية المؤيدة بالتجارب وبينها علاقة ما، إلا أنه كان لايجهر بهذه الآراء ولا يفضى إلى أحد بها لما فيها من مخالفة المبادىء المتبعة، ولكونه لو أقدم على هذا الفعل لعوقب بالطرد من الهيكل بتهمة الابتداع والإلحاد. على أنه لم يكن هناك ما يحمله على الجهر بآرائه، إذ كان يرى فى كتمانها خير الذرائع للانفراد بمزاياها والاستئثار بلذة الوقوف على أسرارها. وقد بلغ منه حب الكتمان والميل إلى العزلة أنه كان إذا دعاه داعٍ إلى شرح تجاربه العلمية الدقيقة فى محفل حافل بالعلماء والفضلاء شعر بانقباض فى صدره ونأى عنهم بجانبه اعتقاداً منه أن الأولى به قضاء وقته منقباً عن الحقائق العلمية التى وهب لها حياته.

قلنا إن بنطاؤر اختار هذا الطبيب لعلاج الفتاة ثقة منه بكفاءته ولأنه من خاصة أصدقائه ولأنه كثيراً ما صحبه وهو يرتاد الغابات ويجوب الفلوات ويجوس خلال الجبال والصخور للبحث عن الأعشاب الغريبة والحشرات النادرة، والتقط معه الكثير منها فأعجب بذكائه ونشاطه وخبرته.

ولقد كان بنطاؤر يشعر فى هذه الجولات بلذة بالغة ويجنى منها فوائد جمة، إذ كان يرى ما لم تكن عيناه قد وقعت عليه قبلا من الكائنات ويقف على الحقائق العلمية المرتبطة بها. وكان نبسشت لشدة شغفه بالبحث فى هذه الحقائق يستقيم

لسانه وتـزول عنه اللعثمة فيعبر عن مراده بأفصح بيـان وأحسن أسلوب. وكانت المودة بينـه وبين بنطاؤر وثيقـة العرى، إذ كـان يجد فيه مـا ينقصه من الصفـات الفاضلة كـدقة الشعور والقدرة على إبـراز المكنون من الأفكار، فى قالـب النثر تارة وطوراً فى قالب الأشعار.

أما بنطاؤر فكـان من أصحاب المدارك السامية والكفايات العـالية والقدرة التى لاريب فيها على حل المشاكل وفهم عويصات المســائل، إلا أنه كان كالتلميذ لأستاذه إذا قيست معارفـه فى العلوم بمعارف صــديقه، وكان لـه على هذا الأخير دلال كبير ونفوذ قوى، إذ كان نبسشت لا يصدر إلا عن رأيه ولايعمل إلا بنصائحه ، ضارباً عـرض الحائط بـآراء زمـلائه فى عملـه ونصــائحهـم، مـا ذلك إلا لأنهم كـانـوا فى منـاظراتهم العلميـة يـركنون إلى مجرد النقل غثـاً أو سمينـاً ولايقيسون الأمـور بأشبـاهها ولايحكمـون البصر والبصيرة فيها، بخـلاف بنطاؤر فإنـه كان لايقيـد حكمه بقاعدة مأثورة ولابمبدأ منقول إلا إذا سبرهما بثاقب نظره ووزنهما بصائب رأيه.

وكانت غـرفة نبسشت التى يتفرغ فيهـا لأبحاثه العلمية وتجاربـه الفنية تحت مخزن الحبـوب من هيكل سيتى، فى معزل عن الأمـاكن الآهلـة بساكنيهـا. فلما أن غشيها بنطـاؤر ليكلف صديقـه بمعالجة الفتاة الجريحة أخـذ يتعثر فى أذيـاله كلما تقدم خطـوة إلى الأمام، لأنها كانت محشـوة بما لا عداد لـه من الأعشاب الخضراء والجافـة والأقفـاص المختلفة الأحجـام من سعف النخـل والآنية المتبـاينـة حجماً وشكـلا، المغطـاة بأوراق مثقوبـة تحتـوى حيـوانات وحشرات شتى كـاليربـوع

والحرباء والهامة والضفدعة والأفعى والجعران وما شابهها. وكان بوسط الغرفة مائدة خشب عليها دواة عظم وجملة مدى من حجر الصوان وأخرى من نحاس، وبأحد أركانها حصيرة ومتكأ خشبي، وهو المكان الذى كان نبسشت ينام فيه.

ولما سمع نبسشت وقع أقدام بنطاؤر دون أن يراه أخفى ما بيده تحت المائدة وتخبط فى أمره وحار حيرة التلميذ الذى يفاجأه أستاذه لاعباً. وكانت بيده سكين ذات مقبض من السأسم (الأبنوس) فأخفاها فى طيات ثوبه ثم وقف ويداه على صدره فى انتظار المقبل.

وكان بالغرفة مصباح ضعيف الضوء، فلما دخل بنطاؤر أدرك سر الخوف الذى وقع فى روع صديقه وأيقن أنه يرجع إلى ارتكابه محظوراً. وحين تحقق نبسشت أن الزائر بنطاؤر اطمأن قلبه وهدأ روعه فصاح به: أما كان ينبغى ألا تزعجنى فى هذه الساعة؟ ثم دس يده تحت المائدة وأخذ ما كان ألقاه فإذا هو أرنب حى مثبت على لوحة من الخشب، وقد فتح بطنه حتى بدا القلب منه.

عندئذ استأنف فحص أعضائه وانصرف إلى ذلك كأن لم يكن بالغرفه سواه. فأخذ بنطاؤر يتمعن حركاته، وإنه لكذلك إذ فاجأه الشاعر بوضع يده على كتفه قائلا: كان لزاماً عليك يا أخى- وقد عمدت إلى مخالفة الواجب والقانون- إغلاق الباب حتى لايراك أحد.

فاضطرب نبسشت حتى كاد يتقطع نياط قلبه من الهلع وأجاب متلعثما: هم.. هم.. هم.. أ..أ.. أخذوا مزلاج البا.. باب حين د..د.. دخلوا منذ أيام وأنا.. أ.. أشرح يد بتاحميس.. ميس المزوّ..ر.

فقال بنطـاؤر: وجثة هذا المسكين تنقصها إذن اليـد اليمنى؟ قال نبسشت: وهل تفيـ.. تفيـــ. ـيده هـذه اليد فى الآخـرة..؟ قال بنطاؤر: لكن هل وضعـت بالأقل فى قبرها تماثيل شيتى؟ (١)

قال نبسشت:ليس هذا إ..إلا.. حمقاً .. و.. شعوذة.

قال بنطاؤر: خذ حذرك يا نبسشت أنت تمضي فى طريق الإباحة متخبطاً وتنتهك حرمـة الدين. أما دريت أن من يعذب حيـواناً ولو لغرض حميـد يلق فى الآخرة مثل هذا العـذاب؟ يخيل لى أنك تنتحل لنفسك عذراً فتقـول بجوار تعـذيب الحيوان متى كان القصد خدمة العلم واستكشـاف الحقائق النافعة للإنسان.

قال نبسشت: أو تعتقد أنت بصدق ما تقول؟

فابتسم بنطاؤر وسكت، ثم حدق فى الأرنب منـاجياً نفسه: عجباً كيف يبقى هذا الحيوان المسكين حياً مع أنه لو أصاب إنساناً ما أصابه من العذاب ما بقى لحظة على قيد الحياة؟ إن الإنسان ضعيفة أعضاؤه ولايحتمل ما يقاسيه الحيوان!

فهز نبسشت كتفيه وقال: قد يكون ما تقوله صواباً.

قال بنطاؤر: أعتقد أنك موقن بصواب قولى.

قال نبسشت: ومن أين لى علم مـا إذا كان القوم قد حظـروا علىّ فحص يد مزور لأقف على كنه حركتها.

قال بنطاؤر: تذكر يا صـديقى ما أوردتـه كتبنا المقدسة من توقف سلامة الروح على صحة البـدن. فأخذ نبسشت يحد النظـر فى بنطاؤر ويقول: ليست الـروح مما

(١) كانت توضع هذه التماثيل مع الموتى لمساعدتهم على أداء أعمال الحياة الأخرى وهى تحمل فى يدها إما فأسا أو محراثاً وعلى ظهرهـا كيس البذور، وقد جاء فى الفصل السادس من كتاب الموتى بيان مزايا التماثيل وفوائدها.

أعانى البحث فيه، فتصرف أنت فى أرواح العباد كما تهوى ودعنى أبحث أجسامهم، حتى إذا أصيب أحدهم برض أو بكسر أقمت منه المعوج وأصلحت الفاسد.

قال بنطاؤر: الحمد لتوت [1] أن لم تعارضنى فى عرفانك تقويم أعضاء الإنسان وإصلاح فاسدها.

قال نبسشت: الكمال لله وحده.. إنى لمقرّ بعجزى ومعترف بأنى لم أبلغ فى ضبط يدى، وهى تحرك المبضع مبلغ المثّال الذى يُطلب منه العمل فى الظلام.

قال بنطاؤر: كلا، فأنت ندّ (كيزو) الذى فاق الأقران فى إتقان التصوير بالهيكل وهو أعمى.

قال نبسشت: قل ما شئت، وكل ما أعرفه فى نفسي أننى لست بين إجادة العمل وعدمها فى حد الوسط، فإما أجيده للدرجة القصوى أو لا أجيده مطلقا.

قال بنطاؤر: إنا نرغب منك الإجادة فيه وما جئتك الآن إلا مختبراً.

قال نبسشت: وهل بك علة؟

أجاب بنطاؤر: الحمد لأيزيس التى أودعتنى قوة اقتلع بها النخل من أصوله، وإنما جئت لأدعوك إلى علاج جريحة ، فإن الأميرة بنت أنات كانت..

فقاطعه نبسشت بقوله: أليس للأسرة المالكة طبيب؟

قال بنطاؤر: دعني حتى أتم كلامي.. كانت الأميرة بنت أنات فى مركبتها إذ

(١) توت إله العلم والطب فى اعتقاد قدماء المصريين الذين كانوا يمثلونه برأس طير اللقلق المعروف ويقولون إن الإله (رع) أخرجه من العدم كالشعاع المنبعث والضوء المتألق لكى يكون له مصباحا يهديه فى الظلمات إلى مكامن الأعداء، وقد صار بعد ذلك إله القمر الذى يدير الأمور بالحكمة ويقيسها بأشباهها كما أن القمر يدبر المواقيت ويحدد الأزمان، ثم إله الآداب والعلوم والفنون وكان يسميه المصريون تيشوت.. أى الكبير مرتين، أما اليونان فكانوا يسمونه جسيس.. أى الكبير ثلاث مرات .

صدمت فتاة فأصابتها بجرح بالغ.

قال نبسشت: وهل الفتاة بالمدينة أو بالمقبرة هنا؟

أجاب بنطاؤر: هنا وهى ابنة أحد المحنطين. فصاح نبسشت ابنة محنط.. ولمَ لم تتحفنى من قبل بهذه البشرى؟ ثم ألقى بالأرنب وأدوات الجراحة تحت المائدة.

أما بنطاؤر فبهت لابتهاج صديقه وقال: لعلك تعلل نفسك باستكشاف سر غريب عند أولئك المدنسين.

قال نبسشت : الأمـر فى هذا يرجع إلىّ ، وقد عولت على عيادة الجريحة الآن وما اسم والدها؟ أجاب بنطاؤر : اسمه بينم.

قال نبسشت: ولكنى أخشى ألا أوفق معه لإدراك غايتى ونيل أمنيتى.

وعلى أثر هذه المحادثة أخذ قنينة محكمة السدّ وتحيل لفتحها. ثم غمس فيها قلماً كقلم المصور، وبعد أن أخرجه أدناه من أنف الأرنب فمات من فوره، لأن السائل الذى فى القنينة كان الاستركنين وهو سم قاتل. ثم ألقى به فى صندوق وقال لصاحبه: هلم بنا إلى حيث تريد.

قال بنطاؤر: ولكن ينبغى ألا تخرج بهذا الثوب الملوث.

فتنبه نبسشت إلى أنه لم يغير ثياب العمل ففتح خزانة الملابس واختار منها ثوباً أخذ يفرغه على جسمه وبنطاؤر على مقربة منه، فشهد أنه لم يخلع الثوب القذر وأن تحت هذا الثوب ثياباً أخر، فأمسك بيده ضاحكا، فأمعن نبسشت فيه النظر مستغرباً وسأل عن سبب الضحك فأجابه: كيف تفرغ الثوب النظيف على ثياب قذرة أصبحت تشبه فيها البصلة بتعدد طبقاتها؟

فضحك نبسشت وقال:الآن أدركت سبب اشتداد الحرارة فى جسمى.. أرجو

منك إذاً أن تبرح هذا المكان حتى أخلع هـذه الثياب وتستأذن لى من أمينى بالخروج من الهيكل.

قال بنطاؤر: لا فائدة فى الاستئذان مادام أنه أمرنى بندب طبيب لمعالجة الجريحة فى بيت بينم.

قال نبسشت: وهل علم أن الفتاة ابنة محنط الموتى؟

أجاب: نعم.

قال نبسشت: لابـد لى من علاجها أيضاً بـالرقى والتعاويـذ، لهذا أرجو منك أن تستأذن النبى جاجابو فى أن يصحبنى الشيخ (تيتا) لترتيل الرقى والتعاويذ التى لا قبل لى كما تعلم على تلاوة حرف منها للعثمة لسانى.

قال بنطاؤر: الأفضل أن يصحبك كاهن شاب بدلا من ذاك الشيخ الأعمى.

قال نبسشت: إنى مع كراهتى لهذا الشيخ أرى أنه لابد لى منه لفصاحة لسانه.

قال بنطاؤر : حقـا إنه لجهورى الصوت فصيح اللسان، ولقد سمعتـه منذ أيام يرتل التعاويذ لأحد المرضى ويحصى البلح الذى أخذه فى مقابل أجرته.

قـال نبسشت: إذا صحبنى إلى بيت بينم فإنما يصحبني رغم أنفـه لأنـه يبغض الفقـراء ويفضل أن يضع يده فى هـذا الإناء الممتلىءبـالعقارب على غشيـان دورهم وتناول طعامهم، ومع هذا فلك أن تعده بأننى سأعطيـه ما فى خابيتى من النبيذ لعله يجىء عن طيب خـاطر.. أمـا أنا فـلا أسيغ هذا الشراب فى الحر الشـديد لأنـه يكدر صفاء نظرى.. ثم أين يسكن بينم، أبجنوب المقبرة أم بشمالها؟

أجـاب بنطاؤر: أظنـه يسكن بالشمال، على أن بعـاكـر مازال هنـا وهو المأمـور بإرشادك إلى بيت الفتاة..

قال نبسشت باسما: إن هــذه الليلة غريبة الشأن.. وما هو طالعهــا فى التقويم يا ترى؟ [1].. غريبــة جداً هذه الليلة ، يسألـوننى فيها معالجة ابنــة محنط كما أعالج أميرة، ويذهبون بى إلى بيت أبيها أنا الطبيب الوضيع الحقير فى ركب كركب فرعون، ولكن ليتنى ما خلعت ثيابى.

قال بنطاؤر: الحرارة فى هذه الليلة شديدة.

قال نبسشت: لست أخشى الحرارة بل بعاكر الـذى اشتهر بأطواره الشاذة فقد كنت منذ يومين أعالج شاباً ضربه فكسر تـرقوته، ويا ليتنى كنت أحد جياد الأميرة بنت أنات لأدوس بسنابكى هذا الوحش الضارى لا تلك الفتاة البريئة.

فضحك بنطاؤر وقال: وأنـا أيضاً أتمنى ذلك. ثم انصرف قاصداً جاجـابو ثانى أنبياء هيكل سيتى ورئيس أطبائه ليستأذنه فى أن يرافق نبسشت الشيخ تيتا مرتل التعاويذ والرقى.

---

(١) وجـد أتم تقويم مصرى فى الـورقـة الرابعــة من مجموعـة أوراق البردى المعـروفة بـاسم (سـاليـيــه) وهو يحتـوى بيان طـالع كل يوم فى السنــة من سعادة ونحس، وفى كثير من الهيـاكل تقاويم أخر خاصــة بالأعياد والاحتفالات الدينية، وأكثر هذه التقاويـم شرحاً وتفصيلاً هو الذى فى هيكل مدينة أبو، وقد نشره دوميشن العالم الألمانى.

الفصل الرابع

أين يتناجى الكهان فى أحوال بنى الانسان

علم بنطاؤر أن جاجابو كان يتناول الطعام فى مأدبة شائقة أُعدت احتفاء بعالمين من علماء خينو (١) صدر الأمر بنقلهما إلى بيت سيتى، إكراماً لهما وترفيعاً لمقامهما. وقد مدت المائدة بإحدى ساحات الهيكل تحيط بها أعمدة مزخرفة بالألوان الزاهية والصور الجميلة وتضيئها مصابيح لا حصر لعددها . وكان لفيف الكهان جلوساً حول المائدة على صفين متوازيين وأمامهم من ألوان الطعام الشهى أفخاذ الغزلان وشواء الأوز والبط (٢) والقرنبيط والهليون والفطير والحلويات والأنبذة المعتقة التى مُلأت بها دنان الهيكل.

وكان الخدم يجيئون بهذه المأكولات صنفاً صنفاً من مائدة أخرى رتبت عليها الأطعمة بأسلوب حسن ونظام متقن ويطوفون بالمدام على المدعوين فيسكبونها فى أقداحهم حتى تفيض من حافاتها. وكانوا عقب الفراغ من كل صنف يقدمون لهم آنية من نحاس أصفر يغسلون فيها أيديهم ومناديل من التيل الناعم لتنشيفها. فلما فرغ القوم من الطعام أخذوا يشمون الورود والرياحين التى وُزعت عليهم فى باقات منسقة تنسيقا بديعاً تحفزهم رائحتها الزكية إلى المحادثة فى شؤون شتى والمناقشة

(١) خينو مدينة كانت على شاطىء النيل بقرب حدود النوبة، وكان بها مدرسة لتخريج الكهنة، وموقعها محدود الآن بالقرب من جبل السلسلة.

(٢) كانت الغزلان فى ذلك العهد من الحيوانات الداجنة، وترى الآن مرسومة على الآثار إما حية فى الحدائق أو مذبوحة فى حوانيت الجزارين، ووصف هذه الوليمة مأخوذ من صور الولائم الكثيرة المرسومة فى المقابر.

فى موضوعات مفيدة. ومما زاد فى طلاوة حديثهم تشابه ثيابهم وتوافق شاراتهم الكهنوتية، لأنهم كانوا من كهنة بيت سيتى وكبار موظفيه وليس بينهم أجنبى يتعرف أسرارهم أو يتسرق أخبارهم.

وكان جاجابو -الذى ندبه أمينى لرئاسة الحفلة- فى صدر المائدة، متكلفا فى أوضاعه العظمة والرفعة يتحرى بهما ستر عيوبه الجثمانية التى لا تتفق مع الرئاسة، فإنه كان قصير القامة كبير الهامة أصلع الرأس غليظ البدن غليظ الخدين. وكان كلما عرته دهشة أو أحس بانفعال برقت أسرته ولمعت عيناه واضطربت شفتاه الدالتان بغلظهما على غريزته الشهوية. وكان بالقرب منه كرسى خالى هو كرسى أمينى، وإلى جانبيه يمنة ويسرة كاهنا خينو اللذان برسمهما أُدبت المأدبة، ويليهما باقى المدعوين جالسين بحسب ترتيب الأعمال ، الأكبر فالكبير فالصغير فالأصغر، عملا بأنظمة الهيكل وقوانينه.

وتكلم فى أثناء المحادثة (توان) أكبر الكاهنين المحتفل بهما وهو الذي كانت مصنفاته فى الإنشاء تدرس بالمدارس (١) فقال: أيها العلماء المحترمون ! لايسعنا أن نقابل الشرف الذى أسبغتم علينا نعمته بدعوتنا إلى الانتظام فى عقدكم إلا بما يستحق من جزيل الشكر وجميل الثناء والحمد. فإنا بوجودنا فى هذا المكان المقدس نفوز بالزلفى من فرعون الذى نسأل له طول البقاء ودوام الصحة والهناء.. ولقد تخرج من مدارس خينو عدد غير قليل من أساطين العلم وفطاحله، ولكن الحقيقة التى لاريب فيها.. الحقيقة التى ننادى بها على ملأ منكم هى أن المعاصرين من خريجيها لم يبلغوا -وما هم ببالغي- شأو زملائهم خريجى بيت سيتى الذين سما بهم -شأن هذا البيت- إلى ذروة المجد الخالد، وأصبحت مدارس هليوبوليس ومنفيس بإزائه فى الدرك الأسفل. ولقد عاهدت نفسى -رغم قصورى وضعتى-

---

(١) ادى البحث فى الآثار القديمة إلى العثور على بعض جمل إنشائية لهذا الكاتب الشهير.

ن أؤيدهـا بروح الإلهام الذى نستنشق ريـاه العبق فى هذا المقـام، واستجلاء مجالى العلـوم والمعارف لانتهـاج الطريق القـويم، والحث على الاقتداء بمحـاسن أعمالكم والتخلق بمكارم أخلاقكم، فلقد أنست فيكم مـا يشجعنى على الاجتهاد للوصول إلى المأمول. وإنى أختم كلماتى بتوجيه عبـارات الثناء إلى أمينى عميد الكهان، الذى ذاع له صيت بحسن السيرة وسعة العلم الذى جنى ثماره القاصى والدانى، وإن أنس لا أنسى واجب التنويـه بالعالمين الشهيرين جاجـابو و(مريابو) اللـذين رددت الآفاق ذكرهما. ثم قام المحتفل بـه الثانى وقال: من ذا الذى أريـد أن أخصه منكم بمدحى وثنائى لأنـه نظم أحسن الأناشيد يمجـد بها الإله آمـون؟.. أين شاعركم هـذا فخر الشعراء، ومن هو بينكم حتى استمتع برؤيته واغترف من فضلـه؟ فأشار جاجابو إلى كرسى خال بآخر المائدة وقال: هو صاحب هذا الكرسى وهو أصغر الكهنة سنا وأزهرهـم مستقبلا وأرفعهم شأنـا. قال تـوان: لقد سرت أشعـاره مسرى الأمثال وحفظها الكبير منا والصغير.

قال كبير المنجمين (١):لاريب أن الآلهة أجزلوا له العطـاء وأفاضوا عليه المواهب، إلا أننى أنست منه استبداداً بـالرأى أزعج خاطرى وانحـرافاً عن المذهب أقلق بالى، وقد أودع أشعاره التى لا مجال للطعن فى صحة أوزانها وانسجـام قوافيها سوانح تخالف قواعد الدين المقدس وأركانـه الثابتة. وفى النشيد الذى ألمحتم إليه الآن أفكار كـان يجب عليه التبصر قبـل ابتكاره إيـاهـا، إذ يخُشى أن تفضـى إلى كشف أسرار مذاهبنا وإذاعتها على ألسنة العامة، مع أنه أقسم ألا يعرضـها للشكوك والريب بقول أو فعل. وإنى أضرب لك مثـلا على ذلك بعض مقـاطع ذلك النشيـد، فإنـه وإن تكن منسجمة اللفظ سامية المعنى يخشى أن يستفحل فى المستقبل ضرر تداولها، ما دمنا

(١) منجمو قدماء المصريين الذين كانوا يستكشفون الطوالع بساعة الميلاد، وكانت وظيفتهم من المراتب الكهنوتية.

نستعذب التغنى بها ويحفظها العامة والخاصة من الشعب افتتاناً بمعانيها الرائعة وعباراتها الطلية.. وإذا كان من تلك المقاطع مثل قوله:

«هو الواحد الدائم القهار الجبار، المنفرد بالخلق والايجاد، المبدع لجميع المخلوقات لا على مثال ، المحيط علمه بجميع الأسرار».

« من تأمل بعين الفكر فى مظاهر الكائنات، وأمعن بنور بصيرته فيما احتوته من سواطع البراهين وبواهر الآيات، شهد موجدها فى كل صورها ومعانيها بلا حلول، واستدل بها على أنه الواحد الأحد الذى يحول ولايزول» (١).

أفلم يكن من الواجب منع التغنى بمثل هذا النشيد خصوصاً فى عهد أماط الأجانب فيه عن وجوههم نقاب الحياء، فاشرأبت أعناقهم لاستطلاع الأسرار الدينية؟ قال حافظ الخزينة: قلت صواباً، فقد أطلع أمينى هذا الشاب على الأسرار الكبرى قبل أن ينضج عقله ويستعد لإدراك كنهها. قال جاجابو وكان يفتخر بانتساب بنطاؤر اليه: إن أمينى لم يطلعه على تلك الأسرار إلا إجابة لطلبى كأستاذ له، وإنما الواجب على عشيرتنا الافتخار بهذا الشاعر الذى ذهبت له فى الآفاق شهرة كبيرة.. أما الشعب فلا خوف على عقيدته من عادية الشكوك لاستظهاره أشعار بنطاؤر، فقد رأيت أن الناس كلما ترنموا بمنظوماته ترنحوا طرباً لجودة مبانيها وسمو معانيها مع جهلهم بحقيقة ما ترمى إليه من الحقائق والأسرار .. وما من مرة تغنوا بها فى عيد الدرجات حتى سكروا بسلاسة عباراتها ولطف إشاراتها. قال رئيس المنجمين: لا عجب إذا رأيتك ماضياً فى تمجيد هذا الشاعر، فإنما هو برعايتك

---

(١) هذه الأشعار من النشيد الذى نظمه بنطاؤر فى تمجيد الإله، وقد وُجد مكتوب على ورق البردى المحفوظ الآن بالمتحف المصرى وترجمه غريبو وسترن

يستظل وبكنف عنايتك يلـوذ وبعرى محبتك إياه يستمسك، وإنما أنت تـرضى منه ما لاترضاه من غيره وتغفر له من باطله وشاذ أعماله ما لا تغفره لسواه. أما أنا فما برحت موقناً أن أناشيده نزغـات شيطان رجيم، وأنها تجور بحافظها ومرتلها عن قصد السبيل، وأخـاف أن تصبح الشرارة التى نستصغرهـا الآن معظم النار إذا لم نتلاف الأمر بالحكمـة والروية. فاضطربت شفتا جاجابـو وقال: لا تأخذنكم ريبة فى أمر تلميذى، فسيكافح العدو بعزم شـديد، ويحسن البلاء فى الذود عن مصـالحنا بقوة تفل الحديد، ويستذل لأجل الدين كل شقى عنيد، ويعمل ما تعمل الشمس ذات الجناحين بـالظالمين وكل خـارج متمرد على الـدين.. فلم تحاولـون الآن أن تقصوا جناحيـه وتحرموه أن يـدرج بقدميه؟ إن زئير الأسـد لأشد من مـواء الهر، وأشعة الشمس لا تنبعث بضـوئها المتألق من مصبـاح ضعيف. فدعـوا بنطاؤر بحـاله إذا شئتم ألا ينطبق عليكم مثل من أصـابـه ألم فى ضرس فخلعه وخلع معـه الأضراس الصـحيحة. قال الأكبر من عـالمى خينو: لقد شعرنا نحن أيضاً بدنـو الأعداء وتدخل الغربـاء فوجهنا الشطر السليم منـا إلى الجنوب تحاميا من تطرق الفســاد إليه فلم تنفع الحيلة إذ عم الفساد وجـرف سيله الناس فمضوا فى ظلمات الجهل متخبطين، لايفرقـون بين حق وباطل ولا بين طهـر ودنس.. وإنما الدنس من عمل تيفـون إله الشر والظلام.. قـال رئيس المنجمين وقد اضطرمت فى قلبـه جذوة التعصب: يحاط الأجنبى هنـا بصنوف الـرعايـة وتبذل فى مـرضاتـه أساليب المداراة، فيتـدخل فى الأخلاق والعـادات تدخل الرمال التـى تسفيها رياح الصحراء فى أخشـاب البيوت، وكثيراً ما ذهب به التدخل إلى غشيـان المنازل والهياكل حتى لكأنكم ترون الآن على عرش خليفـة (رع) واحداً من سلالة.. وكـان أمينى داخلا ساعتئذ من المكـان الذى مدت فيه مائدة الطعام وسمع كلام رئيس المنجمين فقاطعه بقوله: صه أيها الجرىء

المتهجم، لا يفه لسانك بهذه الألفاظ البذيئة فى حق مليكنا الشرعى الذى آل إليه قضيب (رع) رمز التملك بطريق الوراثة. فسكت رئيس المنجمين وأحنى رأسه إشعاراً بالطاعة. وكان الحاضرون قد وقفوا جميعاً تعظيماً لأمينى وردوا على تحيته بأجمل منها ثم جلس وقال لجاجابو: مالى أراك فى غضب لا يليق بحلم الكهان وتؤدتهم، وما الذى حصل فى هذا المجتمع بينكم حتى اضطربت موازين عقولكم ونفوسكم؟ أجاب جاجابو: كنا نتحدث بأمر الأجانب الذين نسلوا إلى مصر من كل جانب وانتشروا فيها انتشار الجراد وأحرزوا من القوة والسلطان ما يأتون معه كل يوم بضرب من ضروب البدع فى العادات والأخلاق، ولجأنا بسببه إلى الأخذ بمقاومتهم وصد تيارهم الجارف دفعاً لضررهم ومنعاً لفسادهم. قال أمينى: ستروننى فى طليعة المحاربين لتلك الطغمة الشريرة التى جلبت معها إلينا المصائب، وإنى لأخشى أن تتسع خروق الفساد بعد ما تواردت من جهة الشمال أخبار يسوء سماعها الأحباء ويسر الأعداء. سأل الحاضرون بصوت واحد: وماذا جرى.. هل انهزمت جنودنا؟ أجاب أمينى: كلا.. لايزال الظفر حليفها، ولكن سهام المنون أصابت أكباد ألوف الجند فى ساحة القتال فاضطر المليك رعمسيس إلى طلب النجدة، وقد تسلمت من بعاكر قائد طليعته كتابا منه وآخر من صديق لى فى ركابه يتضمن أولهما الأمر بحشد ٥٠ ألف مقاتل. ولما كانت طبقات المجندين قد خرجت كلها للقتال فلا مفر لنا اليوم من حشد ذلك المدد من المزارعين والصنّاع، وهم قوام الهياكل وعمادها.

ما استقرت هذه الكلمات فى مسامع الحاضرين حتى بدت عليهم آيات الاستياء والتذمر. فضرب رئيس المنجمين الأرض بقدمه حانقا ودمدم الكاهن مريابو بكلمات لم يفهم معناها. أما جاجابو فقد سأل رئيس الكهنة بقوله: وماذا اعتزمت؟ أجاب

أمينى: اعتزمت تنفيذ أمر الملك، وسأجمع هنا كهنة هياكل طيبة للتشاور فى هذا الأمر الخطير. وعليكم أن تبتهلوا إلى الله أن يضيء بصيرتكم بنور السداد ويؤيد آراءكم بالحق! فإذا بحثنا فى المسألة واستقر رأينا على شىء فيها قدمنا إلى الوالى وألزمناه قبوله. ثم سكت هنيهة وقال: أيكم حضر الصلاة التى أقامها الوالى أخيراً؟ أجاب رئيس المنجمين: لقد حضرتها. قال أمينى: تعال عندى بعد الوليمة. ثم أرسل نظره حواليه وقال: لمَ غاب شاعرنا عن هذه الحفلة البهية؟ وما أتم هذا السؤال حتى دخل بنطاؤر مسلما على الحاضرين وتقدم نحو أمينى فى طاعة وخشوع وسأله أن يأذن لتيتا الأعمى بمرافقة نبسشت المكلف بعلاج الجريحة، فأجابه إلى طلبه ثم قال: ليبادر القوم بالذهاب، فلا يزال بعاكر بباب الهيكل وقد عيل صبره انتظاراً.

ما غاب بنطاؤر عن الأنظار حتى خاطب أكبر الكاهنين أمينى بقوله: أيها الأب المبجل.. لقد وافق منظر بنطاؤر سابق ظنى به واعتقادي فيه الكفاية العالية وما أشبهه بإله الشمس وما أوفر الدلائل على أنه من سلالة كريمة وأصل عريق فى الشرف والمجد. قال أمينى: ليس أبوه إلا من فقراء الفلاحين فى الأرض الموقوفة على الهيكل، ومع هذا فقد كان موفقاً حينما بعث بولده إلى المدرسة وتوليت بنفسى تثقيف عقله وتهذيب طباعه حتى صار من نوابغ العصر فى مصر. (١) قال الكاهن: وما وظيفته بالهيكل؟. أجاب جاجابو: تدريس النحو والبيان لطلاب الفرق العليا، دع أنه من الثقات فى علم الفلك ورصد الكواكب وله خبرة واسعة بتفسير الأحلام.

---

(١) يدل المكتوب فى أوراق البردى على أن المصريين لم يكونوا منقسمين إلى طبقات بحسب درجاتهم فى الهيئة الاجتماعية، وأن أحقر الناس كان يصل إلى أسمى المراتب فى الكهنوت والحكومة بعلمه وكفاءته.

وفى هذه الأثنـاء كان بنطاؤر قد عـاد فسأله جاجـابو: إلى أين يذهب بعـاكر مع جراحنا الأبكم وزميله الأعمى؟ أجاب: إلى بيت بينم لعلاج الفتاة الجريحة، أما بعاكر فقد أنست منه غلظة الأخلاق توجب البعد عنه والنفور منه. قال أمينى: لعله متذمر مما ناطتـه به بنت أنات، وإذا صدقت فى حـدسى هذا فلا عجب أن سـاء خلقه. قال كبير من الكهان: إن أخا بعاكر الذى برح المدرسة منذ سنوات كان لين الجانب سمح الأخلاق، أمـا هو فـلايزال وحشى الطبع ردىء الخلق. قـال أمينى: كان والـده من أعيان رجـال مصر المعروفين بسعـة العلم وأصـالة الـرأى ومكارم الأخـلاق. قال الكاهن: إذاً فقد ورث طباعـه الفاسدة من أمه. قال أمينى: كلا إن والـدته من اللائى اشتهرن بـالعفة والصون وكرم المحتـد. قال بنطاؤر: وهل من القواعـد المقررة أن يكون الولد شبه أبيه؟ أنظروا إلى الثيران المقـدسة، أيوجد من بينها ثور يحاكى أباه شكلا أو لـونا؟ قال جـاجابو ضـاحكـا: يستخلص من قولك أنه لـو كان أبو بعـاكر العجل أبيس لما استحق ابنه أن يوضـع بزريبة أحـد الفلاحين. قال بنطاؤر: إن خلقه الآن ما برح كما كـان بالمدرسة ولذلك كنا نسميه الحمار المتـوحش. وكان زملاؤه بالرغم من صـلابة جسمه لا يدعـون فرصة تمر إلا وعاكسوه وتحرشـوا به. قال أمينى: حقا إ ن الأطفال يجهلون الشفقة والحنان ويحكمون على الأشياء بظواهرها ولا يكلفـون أنفسهم مـؤونـة البحث فى أسبـابها، فكثيراً مـا رأينـا طلبـة المدارس لايميـزون بين البليد منهم والكسـول ولا بين الملتفت المنصرف إلى درسه والـلاهى المنقطع عنه السفائف، فتراهم يتخذون الأول كالثانـى هدفا لنكاتهم ومزحهم.. ولو دروا أن البلادة عيب غـريزى ليس فى قدرة مخلـوق إصلاحـه مهما أوتى من حول وحيلة لما ازدروا بصاحبها وحقروه فى أعين العموم. ولو كان بعاكر فى أثناء وجوده بالمدرسـة على شىء من لين الجانب ودماثة الطبع لما صـار مضغة فى أفواه أقـرانه

ووسيلة يصرفـون بها الهموم عن قلوبهم. ثم التفت أمينى إلى كاهنى خينـو وقال: الذى أراه هو أن يرخى العنان للطلبة وأن لايحجر عليهم فى شىء من تصرفاتهم على شرط مـراقبتهم عن قرب حتـى لاينحرفـوا عن جـادة الاعتدال بـالـوقوع فى أحـد الطرفين الإفراط أو التفريط. ذلك لأن منع الشبان من الاسترسال فيما تدعوهم إليه حدة المزاج وحميـة الشباب من المزح والمطايبة يعطل أهم الآلات المسـاعدة لهم على فهم دروسـهم، فإن من دلائل صحـة النفس والعقل انشراح الصـدر وسرور القلب. وهاتان الحالتان مرتبطتان كارتباط صحـة البدن بالرياضة الجسمانية، وأرى أنه لا أدعى إلى تـوازن الانفعالات النفسية فى طـور الشباب ولا أبعث على اعتـدالها من قضـاء بعض الوقت فى مزاح ولعب لتنشيط النفس من عنـاء الجد، فتستأنفه بعزيمة صـادقة وهمة لا تقف دونها صعوبة. ولقد صدق من قال : «إن التلميذ أحسن أستاذ للتلميذ».

قال مريابو: غير أن بعاكر ما استفاد من أقرانه فائدة ، لأنهم كانوا ينفضـون من حـوله ويتحـرزون من مخالطته لما رأوه فى طبـاعـه من الغلظة والجفـوة والصلف فمقتوه وجانبوه. قال أمينى: لا شك أنه كـان طالباً تعساً ، بل أشقى الطلاب الذين وكلت تربيتهم إلىّ، لتكلفه العظمة والكبرياء وبعـده عن سذاجة التلمذة التى تتوقف عليها سعادة الحياة المدرسية، حتى إنه ليبدو – وهو فى عنفوان شبابه – كأنه شيخ حنكته التجارب. ولعل الخالق جل جلاله قد سلب فؤاده نعمة التسامح الذى لا لذة ولا هناء فى الحياة بدونه، فلقد كان يرى فى ممـازحة أقرانه إياه جنونا وفى مداعبتهم له اضطهاداً ومشاكسة. وبعيد عن الشك أن والـده أساء إليه إذ قابل هذا الخلق منه بالتســامح فلم يحضـه على الأخذ بمكـارم الأخلاق وبالحسنـى فى معاملـة الناس. ولعله كـان وقتئذ يعتقد أنـه إذا تلظى ابنه بنـار الغضب وهاج هائجـه علوا وتجبراً

وتغشمراً هـابه الناس وتـرشح لرتبة (مـوهار) الجيش المصرى. قال أحـد كاهنى خينو: سمعت الكثيرين ينوهون باسم الموهار ويمجدون فعاله ولكنى مازلت أجهل حدود وظيفته. قال جاجابـو: وظيفة الموهار إرشاد الجيش ببلاد الأعداء والسير فى طليعته بشرذمة من الجند لاستطلاع أحوال الأرض من سهولة وحزونة وما يكون بها من الجبال والأودية وعيـون الماء والمدائن والقرى ثم تدوين ذلك كلـه فى تقرير يومى يشرح فيه ما عنّ له من الملاحظـات وإرساله بعد ذلك إلى قائد الجيش الذى لا يتحرك إلى الأمام إلا إذا بنى أوامره وتعليماته على ما دوّن فى ذلك التقرير اليومى.(١) قال كاهن خينو: يُستخلص من هذا البيان أن الموهار كما يكون بارعا فى حمل اليراع ينبغى أن يكونه فى حمل السيف وإرواء ظبـاته بدماء الأعـداء. قال أمينى: نعم، فقد كان والد بعاكر كاتباً بليغاً وبطلا مقـداما وكانت تقاريره السريعة الدلالة على المراد -مع قصر عبارتها- تصور لقارئها تصويراً محسوساً حالة البلاد التى سيخترقها الجيش حتى لكأنه يشهد بباصرته وهادها ونجادها من قمة جبل شاهق ، وهو أول من لقب بـالموهـار أى البطل الشجاع. وكـان الملك يكـرمـه ويحترمه ويستنصحـه مستمداً بآرائه السديدة. قال عالم خينو: إذاً فهو سليل بيت راسخ فى الشرف. أجاب رئيس المنجمين: كيف لا وهو فرع شجرة أصلهـا ثابت فى الأرض؟ بل هو فى أسرته الكريمة شهابها الساطع وبدرها الطالع.. كان والده البطل (آسا) الذى أسبغ الملوك عليـه حلل الشرف والمجد وأفـاضوا على أسرتـه العطاء وسنـوا لأفرادهـا الجوائز

---

(١) يؤخـذ من أوراق البردى المحفـوظة بمتحف لـوندرة أن وظيفـة الموهار عنـد المصريين تشبه وظيفة وزير الحربيـة فى العصر الحاضر، غير أن الفرق بينهما هو أن الموهار المصرى كـان يصدر التعليمات العسكـرية بنـاء على خبرته الشخصيـة، بخلاف وزراء الحرب الآن فإنهم يصـدرون التعليمات إلى الجيش من الغرفة المخصصة لهم فى قصر وزارة الحربية.

والصلات، حتى إن الملك (هور ام —هب) لحم نسبه بهذا الشهم إذ زوّج منه ابنة اخته فأصبح بذلك نظير والى طيبة بل قسيمه فى حق الترشيح لعرش الملك، غير أن رعمسيس الأول جد الملك الحالى حرم تلك الأسرة المؤثلة المجد هذا الحق بالقوة والغصب.. فقاطعه أمينى قائلا: زن كلامك يا هذا، فإن رعمسيس الأول الذى تصفه بالغاصب إنما هو جد ولىّ أمرنا الملك الحاكم الآن وفى عروقه يجرى الدم الملكى المنبعث فيها من والدته سليلة الإله (رع) . قال رئيس المنجمين: وهذا الدم ألا يجرى أيضاً فى عروق الوالى؟ أجاب أمينى : اعلم أن رعمسيس الثانى هو ملكنا وصاحب الأمر والنهى فينا، وسيبقى كذلك ما شاءت الربوبية. ويبدو لى أنك وان اشتعل رأسك شيباً فقد نسيت أن كلم التحريض على الثورة أشبه ما يكون بشرر النار الذى تحمله الرياح —حيث يشاء القدر— فتأكل الشرارة الواحدة مدينة بأسرها. ثم التفت إلى بقية الكهان وقال لهم: أما أنتم معشر الأصدقاء فكلوا مريئاً واشربوا هنيئاً ولا تتناولوا سيرة الملك بكلمة ولاتجادلوا فى أمره القاضى بحشد المدد وإعداد العدد، أما أنت يا بنطاؤر فعليك فى بكرة الغد بتنفيذ أمرى بما عهدته فيك من مروءة وهمة. ثم انصرف بعد أن ودع الحاضرين . وما أغلق الباب خلفه حتى قال أكبر عالمى خينو: إن ما اتصل بى من الأخبار عن رئيس طلائع الملك وما يقوم به من جلائل الأعمال لما يستوجب العجب والفخر.. فهل هو حقيقة على ما يذكر به من سعة التدبير وبعد النظر فى العواقب؟.. ثم كيف يفوز بهذا القسط الوافى من الخصال الفاضلة وقد كان فى المدرسة معروفا بالغباوة وعصيان الأوامر؟ أجاب رئيس المنجمين: لا محل للسؤال، فلسوف يجرف الاضطراب منصب الموهار كما جرف منصب الإمارة وعرش الملك. قال عالم خينو: وكيف تندثر هذه المناصب العليا مادام أصحابها يتقلدونها؟ أجاب جاجابو: الدهر خؤون لايؤمن، إذا صافاك يوما بقضاء مرادك

انقلب عليك أعواما وعاملك بغير ما تشتهى. وما نراه الآن ينطبق عليه المثل السائر: «العنب لا يعز على ولد صاحب الكرم» وقول البعض: «يكفى لولد البواب أن ينادى مرة ليفتح له الباب».

قال أحد الكهان ممن لزموا الصمت دفاعا عن بعاكر: لقد أخلص هذا الرجل للملك فأدى له بمثابرة وهمة وإقدام خدمات جليلة، دع شهرته بالتقوى وإيتاء المعروف فإنه لا يصرفه عنهما صارف أبداً. أما كان فى عهد طفولته يشترى بكل ما يتحفه به أهله من نفقة الجيب القرابين الكثيرة ويقدمها إلى الآلهة بينما كان زملاؤه ينفقون مالهم فى الملاهى ومالايفيد إلا الضرر جسما وعقلا؟ أظن ألا أحد يملك مثل ما عنده من الأحجبة والتمائم والتماثيل المقدسة أو يقيم ما أقامه أخيراً من الحفلات الفخمة تذكاراً لوفاة والده، وجملة القول عندي أنه قدوة الشبان ونابغة هذا الزمان. قال حافظ الخزينة: نحن لا ننكر عليه هذه الخلال الكريمة فإخلاصه لوالده المتوفى حديثاً فضيلة نادرة المثال. قال جاجابو: ما تلك الخلال الكريمة إلا ثمرة مجاهدته لتقليد أبيه كى يقال عنه ومن يشابه أباه فما ظلم، على أنى لا أجد من جوامع الشبه بينهما إلا مقدار ما تشبه الأوزة البجعة والبومة النسر. ولو أنكم عرضتم على أنظاركم أحوال الاثنين لوجدتم أن كرامة الأب وعزة نفسه صلف فى الابن وتغشمر، وأن قسوة الأول التى كان يلطفها العدل والرفق استبداد فى الثانى وعسف جائر، وأن مثابرة ذاك تصلب وعناد في هذا. إلا أن يصح مع هذا أن تكون ثروته التى تنتفع بها خزينة الهيكل شفيعاً له لدى حافظها الذى كان ينبغى عليه تفضيل الثمر المتناثر حول جذع النخلة اليابسة على الأثمار الدانية القطوف فى أنضر الأشجار وأينعها. هذا ومازلت أعتقد أنه مهما قرّب من القرابين وصرف فى سبيلها من الملايين فالآلهة لا تلتفت إليها ولا تشمله بالرعاية من أجلها، ولو كنت تدرى أن هذا الشاب

قد انتفخت أوداجه أذى وشراً واتخذت الشياطين جسمه وكرا فلم يبق فيه حيز ذرة للإله (رع) لما أطريته إلى هذا الحد. قال رئيس المنجمين: وهل سبرت غور قلبه ووقفت على مكنون سره لتحكم بأنه لهذا الاطراء غير أهل؟ قال جاجابو: سبرته وعرفت سره كما سبرت هذا القدح الذى ارتشف منه النبيذ المعتق.. سبرته وعرفته لأننى خبير بأحواله منذ خمسة عشر عاما، عليم بأن قلبه متقرح بقروح الغايات والشهوات وبأنه لاحظ له فى الشفاء منها، ولكن أى ضرر من الاستفادة بما يجزله لنا من العطاء؟ ولئن يكن ماله غير حلال فكثيراً ما يعالج الطبيب جريحه بمر العلقم أو بوضع السم فى الدسم. قال رئيسى المنجمين: أكلامك هذا عن ضغينة كامنة فى صدرك على ذلك الشهم الهمام؟ فاضطربت شفتا جاجابو وضرب صدره بيده وقال: الضغينة.. الضغينة.. نعم هى عاطفة امتلأ بها هذا الصندوق العتيق.. اصغ لقولى أنت يا رئيس المنجمين وأنتم معشر السامعين واقتربوا منى جميعاً لتتلقوا هذا الدرس عنى.. إن للضغينة نوعين ضغينة الإنسان على الانسان، وقد وفقت والحمد لله لقهرها والتغلب عليها بعدما ذقت مرارتها أعواماً استنبطت من الخبرة فيها أن أشد الميول الفاسدة ضرراً بالمرء حقده على أخيه. لأنه إذا كان حب الكسل يستفز النفس إلى النشاط والعمل فإن المضىّ مع الضغائن يكون كالنار المدمرة والسيل الجارف. والضغينة إذا غشيت القلب حالت بينه وبين أنوار الحقائق الساطعة وأضلته السبيل فى ظلمات الغرور. لذا كانت الألوهية تعفو عن جميع الخطايا إلا خطيئة الحقد التى تذهب بكل حسن جميل . أما ضغينة النوع الثانى فقد بارك فيها الآلهة الذين ابتهل إليهم ليل نهار ألا يمحوا أثرها من قلبى، وحدها كراهة الشر والكذب والظلمة. وإنى لأسائل الآلهة أن ينتقموا منى إن كنت أبغض بعاكر نجل صديقى وأن يلقوا بقلبى فى غياهب الظلمة فريسة للشياطين إذا خالط نفسى نفور

من ذلك الشاب المدنس الذى ظن أن يستميل الآلهة إليه أو يكسب محبتهم بما يقدمه إليهم من النبيذ والحيوان وساوم على السعادة كما يساوم المرء على رداء يلبسه أو دابة يركبها. لقد امتلأ فؤاد ذلك الخبيث بالشرور والأحقاد فلا عجب إذا رفضت الأرواح العلوية قرابينه ورفستها أنت يا رئيس المنجمين كما ترفس بقدمك إناء يشمل العقارب والأفاعى. ولقد شهدته يصلى مبتهلا إلى الله، وما صلاته إلا رياء ونفاقا أراد بها الظهور بلباس التقوى والورع حتى يسهل عليه الفتك بشاب فى قلبه منه ترة وسخيمة لا ليتحلى بمكارم الأخلاق ويسترضي بعبادته الملك الخلاق.

قال رئيس المنجمين: ألم تتضمن صلوات الأقدمين توسلا للآلهة أن يقهروا أعداءنا ويلقوهم تحت أقدامنا؟ ومع هذا فكثيراً ما سمعت بعاكر يستنزل الرحمات على الموتى من آله وأقاربه. قال جاجابو: لقد وقفت على أسرار الكهنوت فكيف غاب عنك أن المراد بالأعداء فى تلك الدعوات شياطين الظلام والأمم الأجنبية التى تضمر لمصر السوء؟ قال سبتاح رئيس المنجمين: ولد بعاكر فى ساعة نحس إذ لم تغدق عليه الإلهة هاتور نعمة السرور التى يسمو لإحرازها الشبان، لأنه لما شرع فى الاقتران بفتاة كان متدلهًا فى حبها جاء مينا حارس ركاب الملك فأخذها منه غصباً وتزوج منها، فكيف بعد هذا يهون إقناعه بالعدول عن مخاصمة من سلبه أنفس ذخر عنده؟ قال أحد كاهنى خينو: وكيف أمكن مينا أن يحل رباط الخطبة وهى فى شريعتنا عروة وثقى لا انفصام لها؟ (١).

قال رئيس المنجمين: كان بعاكر قد شغف حبا بنيفرت ابنة خالته راتوتى أجمل

---

(١) جاء فى قطعة من رواية شنيو المكتوبة على ورقة بردى محفوظة بالمتحف المصرى ما يأتى «أليست الشريعة هى التى تربط الزوج بالزوجة».

غـادات طيبة فخطبهـا من آلها، ثم حـدث أن توفى والـده فى الحرب وسأل الملك قبل وفاته أن يعين ابنه بعاكر خلفا له. فلما تولى هذا المنصب وجاء بجثة والده إلى القطر المصرى حيث دفنها عاد أدراجه إلى آسيا للقيـام بأعباء وظيفته فى الجيش. وفى أثناء ذلك لاحت له فرصة فبادر إلى طيبة لاستجلاء محيا خطيبته غير أنه ما كاد يصل إلى (ثانيس) مدينة رعمسيس حتى نمى إليه خبر زفافهـا على مينا أحد ضباط حاشية الملك، فهـاج وماج وزأر وزمجر. وغير خـاف أن الأسف على مفقـود يزداد بنسبـة قيمتـه، وقد كـانت نيفـرت فى عين بعـاكر أجمل نسـاء الأرض، فكيف لا يكـاشف بالعداوة والبغضاء خصمه الذي قضـى على أمانيه مالم يكن الدم الجارى فى عروقه دم ضفا ع لا دم إنسـان..وهل يلام عندئذ إذا قـرب للآلهة مئات البقـر ليصبوا على عدوه مينا جام غضبهم وسخطهم؟ قال جاجابو: إنه لخطأ بين أن تقبل هذه القرابين مادمت واقفا على سر الغرض المقصود بها وعارفاً بكنهها. ولاريب أننى لو كنت من أهل هذا الهيكل لامتنعت عن عبادة الآلهة فيه لأن كهانه يحققون أمانى امرىء طفح فؤاده بالشرور، فى مقابل مال ينقدهم إيـاه، ومع هذا فإن الإله القادر المدبر لشؤون هذا العالم بما سنه من النواميس الأبديـة الخالدة لن يتقبل قربان بعاكر وإنما يلقى به إلى شيـاطين الشر ليذيقهم مرارة طعمـه. أما أنت فلا لـوم عليك ولا تثريب لأنك بصفتك الحافظ لخزينـة الهيكل لايهمك فى الحقيقة شىء سـوى أن تمتلىء الحظائر بحيـوانات القـرابين، وإنما لا تنس أن (سيت) إذا رآك راضيـاً عن توارد القـرابين ووفرتها طار فرحا وعرك يديه الحمراوين [1] إشارة إلى الاغتباط والسرور. ولقد

(١) سيت هو إلـه الشر الممثل لاضطراب العناصر وعـدم التآلف فى طبيعـة الكون. ويقول قـدماء المصريين إنه كان أحمر اللون.. دلالة على الشر والفساد، وكانوا يعتقدون أن ذوى الشعور الحمراء من الأشرار المفسدين.

دنس بعاكر حظيرة هذا الهيكل المقدس بما استنزله على مينا من اللعنات والضربات والطاعون والأسقام والموت، وبـالغ فى تدنيسه إياه بدعائه إلى اللـه أن يرمى نيفرت بالعقم فلا تلد ذكراً ولا أنثى يكون لها ولزوجهـا زينة الحياة الدنيا، وأن يملأ قلبها بـالغموم والأكـدار. قال رئيس المنجمين: إن الآلهة تقبلت دعـواته فلقـد مضى على زواجهما أربع سنوات لم يتمتع مينا فى خلالها بمعاشرة زوجته سوى أسابيع قليلة لاشتغاله بـالحروب ثم هى لم تلد إلى الآن، ولست أدرى لماذا لا تشفق بعد ذلك على بعاكـر مع علمك بميله إلى تعضيدنـا بماله؟ قال جاجـابو بصوت خـافت: إنى أريد الاستفادة بماله كما استفاد به رئيس الكهنة الـذى تتساوى عنده الوسائط ما أدت إلى الغرض المقصود. ألم تـأمرنا الآلهة بسلوك طريق الشر للـوصول إلى الخير. مع بقاء كل شـىء على حالـه فلا يسمى الشر خيراً ولا القبيح جميلا؟.. إنى أنصح إليكم أن تستنزفوا أمـوال بعاكر على أن تعاملـوه بحسب أقواله وأفعالـه حتى لا تتهموا بالحيد عن محجة الصـواب. دعوا مواشيه تدخل الحظائر بـرسم القرابين وأمواله تتراكم بخزينة الهيكل، ولكن لا تـدنسوا قلوبكم باعتقـاد أن الآلهة تتقبلها.. ثم لابد من إرشاد ذلك الشاب المفتون إلى الصواب، إذ من واجباتنا جميعا غرس بذور الخير والطـاعة فى النفـوس التى يعهد إلينـا تهذيبها. قـال بنطاؤر: مـا أوسع رحمتك من شدتك وعدلك فى رحمتك! قـال جاجابو وقد نهض متحفـزاً للانصراف: لقد كشفت لكم عن قـروح ذلك الرجل فعليكم بعـلاجهـا واعلموا أن إطـراءكم إياه يـزيد هـذه القروح استنهاراً ويذهـب بالأمل فى شفائها. أما إذا ذكرتموه بعيـوبه فلعله يهتدى لإصـلا حها. وإذ لم تـرق هذه النصيحـة فى نظركم فـاعلموا أننى سأجىء إلى هنـا وبيـدى مـديـة القرابين فأطـرح المريض أرضـاً وأشرح جسمـه تشريحاً يقيـه شر السقوط فى مهـواة الخطيئة. وكان رئيس المنجمين فى خلال هـذا الحديث يهز كتفيه

ويبتسم. فلما انصرف جاجابو التفت إلى عالمى خينـو وقال: لقد سمعتما الآن كلامه الـذى اعتدت سماع مثلـه، وكان الأولى لـه أن يكـاشف به صغـار الطلاب لا كبـار الكهنة. نعم، إن قوله يدل على سلامة الطـوية وشرف الغاية، غير أنه لا يتناسب مع الموضوع ولايطـابق حقيقة الـواقع.. إذ بينما هو يحض على التمسك بتلـك المبادىء نسمع الرئيس أمينى يقـول فى كل الأوقات «إن الوسائل تبرر الغـايات».. أى أنه إذا تـوقف الســلام العـام على تضليل مئات النـاس عن سبيل الحق والصـواب، فهـذا التضليل جائز مادام أنه يؤدى إلى غاية شريفة ويرمى إلى غرض نبيل.

الفصل الخامس

كيف أيقن بنطاؤر أن الأميرة رقيقة الإحساس والشعور

أدبرت جيوش الظلام فرشقتها الشمس من كنانة أشعتها بالسهام، ووالت رمى النبال حتى تكسرت النصال على النصال، وهبّ نسيم الصباح معطراً بأنفس الأرواح، وانعكس شعاع الشمس على الرمال وصخور الجبال، فتلألأت كالماء إذا سامتته الأضواء، وآبت الأسود إلى أوجارها وهبت الطيور من أوكارها، وانتشر الرجال فى الحقول يسقون الأرض ويلقون فيها البذور ويجرون إليها الماء وتحلق تلك الطيور فوقهم فى السماء، وتزاحم المرسى بزوارق الزوار وسفن التجار مشحونة بصنوف البضاعة من حاصلات ومصنوعات ، وأخذ النوتية يتلمسون ظلال الأشجار أو يجلسون تحت جدار، فى انتظار الزوار الذين يقصدون الهياكل والمقابر زرفات وشتى، وآوى أحد المتسببين إلى شجرة جميز يبيع فى ظلها إلى الغادين والرائحين بعض الأغذية والمسكرات، فأحاط به النوتية وأخلاط الهمج يشترون منه تارة ويتضاربون مع بعضهم أخرى، حتى إذا انحطت قواهم وخارت عزائمهم عادوا إلى السفائن فناموا على سطوحها فى حر الهجير مستظلين بأكمامهم أو بالأكواخ الصغيرة المتخذة من سعف النخيل.

وكان الناظر يرى بقرب هذا المكان أفواجا من العبيد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون من الصناديق المملوءة بالقرابين المصدرة إلى الهياكل من أصحاب النذور، وإلى جانبهم جماعات أخرى منهم يسحبون بالحبال صناديق ملئت بالأحجار المنحوتة ووضعت على اسطوانات خشب، كان جماعة من المسخرين فى نقل هذه

يفخـران بمنظـرهما الجميل أو يبـاهيـان بسمـو قـدر الأميرة بنت أنـات كـريمـة رعمسيس التى كانت تسـوسـهما، فبغمزة واحدة تـوقفهما أو تمر بهما إلى يمنة أو يسرة حسب إرداتها.

وكان رجـلان يركضـان وراء هذه العجلـة يحمل كل منهما مروحـة كبيرة من ريش النعام الناصـع البياض ليحجب بها أشعة الشمس عن مولاته ويتبعهما ثمانية رجال يحملون على الأعناق محفة استوت فيها نيفرت زوجة مينا تتبادل مع الأميرة ما رق وطاب من الحديث. وكانت هـى وبنت أنات على جمال نادر وحسن وافر غير أنهما كانتا تختلفان عن بعضهما بصفات ومميزات خـاصة تزيدانهما ظرفاً ولطفاً. أمـا نيفـرت فقد اجتمعـت فيها محاسن الجمال المصرى بمميـزاتـه الجاذبـة للقلب الخالبة للب من امتشاق قـد ونحول خصر ولين عطاف ووضاحـة حاجبين وسواد شعر ودعجة عينين. وكانت بنت أنات تناهـز التاسعة عشرة من عمرها وكانت أرق من نيفرت بشرة وأنقى منها لـونا وكانت تنم عيناها على قريحة وقـادة وذكاء نادر وشعور لطيف كما كان أنفها الأقنى يـدل على أنها من سلالة سام (١) وكان يحيط بشعرها المرسل إلى كتفيها من نقطة انسدالـه منديل حرير معلم بالأبيض والأزرق يستتر مكان العقدة منه بخاتم ذهب بصورة ثعبان على رأسه تاج مرصع بالنيلم(٢) وكان شعر فودها الأيسر مرسلا بشكل غـديرة تتخللها أسلاك الذهب إلى ما يوازى

---

(١) توجـد جملة صـور لرعمسيس الثـانى أجملها وأتقنهـا الصور الموجودة فى متحـف تورين بإيطاليا، ويظهر منها أن أنفه أقنى وأشبه شىء بمنقار النسر وأقرب فى الشبه أيضا بأنف نابليون الأول.

(٢) كان الثعبـان عند قـدماء المصريين رمـزاً على الملك والسلطة يمثل مـا لها من الحق فى الإعدام والعفو، كما أن الثعبان إذا لم يلدغ لا يقتل، وكان فراعنـة مصر يزينون تيجانهم بصورة الثعبان والنيلم هو الياقوت الأزرق.

شحمة الأذن وعود قـدها اللدن ملتفاً برداء من الحرير القـانى الدقيق النسج مثبتة عليه بنطـاق من الذهب حمائل مزركشـة. وكان حـول جيدها الاسطـوانى عقد من اللؤلؤ والأحجار الكريمة يداعب نهديها البارزين فى كل زفرة وشهيق.

وكان يتبـع الأميرة ضابط من الأشراف وثـلاث محفات، فى كل محفة اثنـان من ضباط البـلاط الفرعونى واثنـا عشر عبداً يتلوهم حملة القضبـان فثلاثون جنـدياً مرتـدين بأردية قصيرة وعلى رؤوسـهم المنـاديل وفى أيديهم اليمنى خنـاجر كبيرة وفى اليسرى سعف النخل رمـزاً إلى مهتهم السلميـة وتتدلى السيـوف بحمائلهـا إلى مؤازرة القدم. وكان يحف بهذا الزى العظيم مئـات من الأبكار الناهدات يحملن على رؤوسـهن جرّات الماء يوافين بها من يصيبهم الظمأ من العســاكر ورجال الحاشية. وكن يجارين الجياد الصافنات وتلـك القدور فوق رؤوسـهن لا تميل يمنة ولا يسرة ولا تتداعى إلى السقوط.

و كان رجـال بطانة الأميرة يستظلون بظـلات يحملها خدم يـركضون خلفهم، وكانوا يتحـدثون بلغو الحديث، وكانت الأميرة تعطف على جيادها لأن الـذباب كان لايفترّ عن لسعها كما كـان يتبع العسكر وحملـة المحفات والظلات. وكـانت البنات الحامـلات جرار الماء يجارين تلك الجيـاد ويسابقنهـا على حصباء تتلظى بأشعـة الشمس حتى كادت قلوبهن تتمـزق وأعصابهن المتوترة تنقطع لشـدة ما نالها من الإعيـاء ولا راحم لهن، إذ كـــان الجميع بين لاهٍ بحـديث أو مشفـق على حيـوان أو متزلف لـلأميرة بعبارة مدح أو استحســان. ومازال الـركب سائراً حتى وصل إلى منعرج طـريق قريب من مـدخل الوادى الذى فيـه مقبرة الأسرة الملكية المنقـرضة، فأشارت الأميرة بوقـوف الركب فوقف. وما هى إلا هنيهـة حتى علا فى الأفق غبار

انكشف عن الموهار بعاكر فى عجلة يجرها جوادان أدهمان من جياد الشام كان الدم والزبد يتساقطان من لجاميهما بعد إذ قطعا المسافات الشاسعة خبباً على أحجار صلدة، وما أن أدرك الركب حتى هبط من عجلته منفتلا نحو الأميرة فبعد أن حياها بتحية الاحترام قال لها: فى هذا الوادى دار أولئكم الذين ستشملهم الأميرة بنعمة الزيارة، فهل تأذن لى بإرشادها إليها؟ قالت الأميرة: الأفضل يا بعاكر أن نذهب إليها على الأقدام ليرتاح رجال الركب ونساؤه. فانحنى بعاكر إشارة الطاعة، أما هى فوثبت من عربتها وثبة الغزال بعد أن أسلمت أعنة الجياد إلى أحد أتباعها وتلتها فى النزول من المحفات نيفرت والوصيفات، وتسلل حاملو الظلات والجنود إلى ناحية وقفوا فيها شاخصين فى الأميرة يرتقبون أوامرها، فأمرتهم بملازمة أماكنهم وأن لايصحبها سوى بعاكر ونيفرت.

ثم جدّت فى السير على حصباء تتلهب حرارة وأدركت أن نيفرت لن تستطيع مسابقتها فخفضت من غلواء سيرها. وما بلغت إلى آخر الطريق حتى وقف بعاكر بغتة. وكان وقوفه تجاه سور هبطت عليه نسور تجردت رؤوسها من الريش ولزمت السكون بحيث يخيل معه للناظر من هيئتها أنها جامدة باردة. فاقبل نحوها ثم جثم أمامها إعظاماً لها لأنها درجت في هذه البقعة باسم الآلهة التى كان سكان طيبة يعتقدون أنها الحامية لحمى مدينتهم فاقتدت به بنت أنات ونيفرت.

وأشار بعاكر بسبابته بعد ذلك إلى كوخين مبنيين بالآجر وطمى النيل قائلا: ذلكما كوخا والد الفتاة الجريحة. فانطلقت بنت أنات نحوهما واجفة الفؤاد مضطربة القلب مزلزلة القدم وتبعها بعاكر حتى إذا بلغت الحائل القائم دون الكوخين طرق أذنيها أنين مستطيل وبث متقطع ، وسمعت نيفرت هذا الأنين

فأخذها الـروع وترامت على بنت أنات ثم وقفتـا تحدان البصر فى بعضهما لشدة ما نالهما ولبثتا كذلـك وقتاً قالت الأميرة للموهار بعده: هيـا اسبقنا إلى المكان. فصدع بأمـرها وقال متبسماً : ألا يحســن أن ندعو إلينـا هذا الـرجل لنقى أنفسنا الـدنس بالوقـوف ببابه؟ وكانت نيفرت تحدق فى بنت أنـات بعين المبتهل الراجى ألا تدخل. فقـالت الأميرة بصوت تـدل نبراته على الســادة والإمارة: لست أخشـى الـدنس ولا أتقيه، فهلموا بنا ندخل . ولم يكن الموهار برح مكانه فقال: أتريدين أن تستنزلى على نفسك غضب الآلهة. غير أن الأميرة كـانت فى أثنـــاء هـذا الحديث اجتـازت الحائل وأشارت إلى نيفرت باقتفائهـا فبسطت هذه ذراعيها استنكاراً وضرعت إلى مولاتها أن تحجم عن فعلهـا. فضحكت هذه وهـزت كتفيهـا استخفافـاً ثم لم تكن إلا صرة الحالب حتى دخلت وجار الحانـوتى وغابت عن النظر فوجـدت به معزتين وحماراً ودجاجاً يفحص الأرض.

ولقد أزعج الأميرة هـول ما رأت، لأنها اعتادت رؤيـة المناظر السارة والمشـاهد البديعـة. على أن انزعاجهـا لم يك تقرفاً أو ترفعـاً بل شفقة وحنانـاً على أرباب ذلك المسكن الحقير، وأخذ منها العطف بحيث ودت أن لو تنكرت بزى الشحـاذين واطمار الفقراء حتى لا يتنبـه الحانوتى وآلـه إلى قياس الفرق بين حـالهم وحالها وحتى لا يتراءى لأنظـارهم ضعة قـدرهم وسفالـة مقـامهم فى الاجتماع الإنسانى، فتكـون كالملك المتجبر الذى يتعمد الجلوس إلى مـائدة رصّ فوقها شهى الطعام ورائق المدام ثم يعرض عليها أفراد رعيته وقد عضهم الجوع بنابه.

وكـانت كلما جالت بنظـرها فى أنحـاء الوجـار وضح لها الفارق العظيم بين مـا تعودته من المنـاظر الفخمة وبين ما تشهـده فيه من آثار الضعة والفـاقة، وشعرت

بقلبها الحنون تحفزه الآلام. وكلما طرق أذنيها أنين الفتاة الذى يستمطر من العيون الدمع الهتون ،ضاق صدرها واحتواها اليأس لعلمها أنها سبب شقاء هذه الفتاة وعذاب آلها.

وقد تمنت الأميرة أن لو تعود إلى مكانها وتخلص من هذا المنظر المؤلم لولا أنها بلغت إلى نقطة لا تحمد معها العودة. ولهذا ظلت ثابتة فى مكانها تجيل الطرف حواليها فى دلالات الآلام وبراهين الأحزان. وكانت كلما أمعنت النظر ازدادت يقيناً بعجزها عن تخفيف مصاب القوم بالتأسى والسلوان، وأدركت أن سلطتها الملوكانية ظل زائل وأن الهدايا الفاخرة التى أتت بها لاسترضاء الجريحة وآلها زهو باطل. لذا رجعت على نفسها باللائمة إذ قالت: ليت كان مجيئى هنا فى مظاهر الخشوع والابتهال لا فى مجالى الأبهة والجلال.

أما وجار آل الفتاة فكان لاينفذ الضوء فيه إلا من كوة صغيرة فى سقفه الواطىء ومن باب ضيق. فلما وصلت الأميرة إلى الباب رأت وسط الوجار عجوزاً قوست الأعوام ظهرها وكسا الشيب رأسها، تلبس ثوباً أزرق من القطن مشقوقاً من الأمام بحيث يبدو منه صدرها وقد وشم بشكل نجمة منبعثة الأشعة. وكانت تفترش الثرى وتضم فتاة إليها يظهر من تناسب أعضائها أنها هيفاء القد ومن بياض وجهها وقدميها المتدتين نحو الباب أنها من الفتيات اللائى سباهن الجيش المصرى في حربه مع أقوام الشمال. وكان بالقرب منها شيخ طاعن فى السن يتحسس بيده هاتين القدمين مدمدماً بكلمات متقطعة لايفهمها السامع ولو داناه.

أما الجريحة التى كانت خشنة الثوب الذى كان لايستر غير عورتها وجزءا من جسمها فكانت فى وضعها السالف وانطباق جفنها قليلا أشبه بالطفل إذا استهوته

الأحلام فاستعذب المنام، لولا أن شفتيها كانتا من آن إلى آخر تتشنجان تشنجاً يدل على شدة ألمها وزوال لذة أحلامها.

وكان شعرها النحاسى اللون المرسل بين كتفيها مرصعاً بورود ذهب بنضرتها الحزن الشديد على ما نزل بصاحبتهـا من الجراح فى صدرها ونهدها على أثر مرور عجلة الأميرة فوقها. أما بنت أنات فقد لفـت نظرها هذا المنظر المؤثر ومضت فى تيار الأفكار بينما كـان نبسشت يجس نبضها ويعد ضربـاته، وخلفه تيتـا الأعمى يرتل التعاويـذ والرقى. وكان من آن إلى آخـر يفتح حقيبة العقاقير الطبية فيتنـاول منها سائلا يقطره على الجرح ليسكّن من الآلام.

وكان بجانب الجدار نســوة متفاوتات فى العمر تقـاطرن من كل فج وحدب حين بلغهن خبر المصاب لتعزيـة آل الجريحة فاسترسلن فى البكاء حتى أحرقـت الدموع مآقيهن وحزت فى جلباب خدودهن، وكانت كل منهن تقوم تلو الأخرى لتجىء بماء فى إناء من صلصال ليغسل الطبيب به الجرح الفـاغر. فكان كلما صبّ شيئاً منه على صـدر الجريحة، رجفت أعضاؤهـا وتفتحت عينـاها وأرسلت منهما إلى واحـد من الواقفين حولها نظـرات تنمّ على مقدار ما عراهـا من الدهشة المقترنـة بالاحترام له والارتياح لرؤيته. ولم يكن بنطاؤر بحيث ينتبـه من غفلته إذ كان متطامنا إلى جدار يرتقب وصول الأميرة، ولكن اتفق أن تلاقى نظرها بنظره فلم يتمالك أن بسط يديه ضارعاً إلى الله أن يسبغ عليها حلة الشفـاء . ثم عاد فأطرق برأسه وانصرف إلى ما كان فيــه كما لو كان ارتقـابه حضور الأميرة الأمر الـوحيد الذى يجول بخـاطره. وكان مجىء بنطـاؤر إلى هذا المكان فى شـارة الكهان وشوارهم الأبيض ليـؤدى ما كلفـه به أمينى من إنـذار الأميرة، أى أنها إذا تخطت عتبـة بيت بينم إلى داخله فقـد

استهدفت نفسها لعقوبة القانون الديني، وهي استحالة تطهيرها مما يلحقها من الدنس مالم تلتمس من الكهان الصفح عنها. وكان كلما تدبر ما عهد أميني إليه به من تعزير الأميرة لأنها أتت أمراً يعده من أشرف الفعال وأوجبها للحمد والتمجيد أحس بعبء تلك المهمة على عاتقه ومخالفتها لاعتقاده.

ولقد أسلفنا أن مخالطة بنطاؤر لنبسشت أثرت في حاله فوسعت نطاق عقله وطهرته من أوضار الاعتقادات الباطلة وفتقت ذهنه لخواطر وأفكار لو جهر بها في حضرة زملائه لما تردد الرئيس أميني في تسفيه رأيه ومعاملته معاملة الملحدين باعتبار أن تلك الخواطر والأفكار إن هي إلا نزغات شيطان رجيم ووساوس تدعو إلى الثورة والانقلاب.

ومع هذا فما برح بنطاؤر شديد التمسك بالخيالات وفاسد الاعتقادات لمحض المسايرة والمجاراة احتفاظاً بمركزه في الكهنوت وحتى لا تفوته فرصة الصعود إلى أشرف الرتب. ولا جرم فقد كان المصريون يعتبرون الكاهن أنبه ذكراً من التاجر والفلاح وأسمى قدراً من الجندي فكان لذلك لا مندوحة له عن العمل بحسب أصول الدين، وإن يكن في ذاته لايسلم بصحة الأسباب التي أفضت إلى وضعها.

ومن أخص ما كان بنطاؤر يتظاهر بالتسليم به من أصول الدين وقواعده اعتبار المحنطين قوماً مغضوباً عليهم، وأن من مظاهر هذا الغضب قضاء الدهر عليهم بمزاولة هذه الصناعة، وأن المحنط لايملك لنفسه الحق في اتخاذ حرفة سواها يزاولها ، لأنه لايجوز له –بمقتضى تلك الأصول والقواعد– التملص من عمل يضطره إلى أدائه حكم الوراثة عن أبيه وجده ، ولسوف يؤديه من بعده رضوخا لهذا الحكم أبناؤه وأحفاده ومَن بعدهم من الأجيال . وكان الكهان يعللون

هذا القضــاء المبرم بأن المحنط إنما يكفـر بمزاولتـه حرفته الـوضيعة عـن سيئات وخطيئات زلت فيها قدمه قبل حياته الحاضرة باعتبار أن روحه حلت سابقاً فى أحد الأجسام ثم فـارقته ساعـة وفاتـه تلتمس الحياة الأخرى، غير أنها طـردت منها لما ارتكبت من الآثـام الكبـار وقضى عليهـا بالحلـول فى جسم جنين من أجنـة طبقـة المحنطين السافلة اللعينة لتحاكم عقب الوفاة أمام قضاء العالم السفلى.

ومـا تخطى بنطاؤر بـاب بيت المحنط حتى أحس باضطـراب وتقزز فى نفســه، ولاسيما إذ تذكـر تلك النظرية الحلـولية وفتح لها باب إيمانـه. وكان الشيخ الهرم يخالسه النظر فقال له معترضاً فى دهشــة: هاك أحد ذوى الثياب البيضاء.. أفيجوز أن تحول المصيبة الـدنس فتجعله طهـراً؟ فسكت بنطاؤر ولبث الشيخ يـدلك قدمى الفتاة بلطف، عمــلا بإشارة الطبيب. وكانت حـركة يده منتظمة فى ذهـابها وجيئتها انتظام عجلة الناعورة فى دورانها إذا طردت القوة المحركة لها.

أما بنطاؤر فقد تخبل فى أمره حين سمع كلام الشيخ وأخذ يسائل نفسه: ما مراد هذا الرجل بقولـه إن المصيبة تمحو الدنس؟ هل المحو خاصيـة من خواصها، أم هو صفة طارئة عليهـا؟ نعم إن النار تطهر المعادن من الخبث وتنقيهـا، والرياح تقشع السحب وتقصيهـا، ولكن لمَ لا يصح تطهير الإنسان من دنس لصق بـه ولم يقض عليه بالبقـاء طول عمره متمرغاً فى حمأته؟ ثم التفت إلى المحنط فآنس منـه هشاشة تذكر معها ما كان بين والده وهذا الرجل من قرائن الشبه، فهاجت هذه الذكرى من نفسه طائفة من حوادث الماضى الدفينـة فيها. ومدّ نظره بعد ذلك إلى العجوز امرأة الشيخ فتبين فى وجهها إمارات القلق والحزن، ورآهـا تنتفض من آنٍ إلى آنٍ انتفاض عصفور بللـه القطر أو تنكبّ على الفتاة كلما ضعـف نفسها أو اشتد خفقـان قلبها،

فخشع لهول ما رأى ووجم، وخيل لـه أن باباً مـوصداً انفتح أمامــه على مصراعيه فتراءت له حوادث الماضى كأنما قد صوّرهـا مصور بارع وبدا له شبح شـخصـه لما انتـابته وهـو صـغير أعراض الحمى التى أنهكت قـواه وأكلت منه وشربت ولاح لـه مثال أمه تحوطه بصنوف العناية وتشمله بمظـاهر العطف والرعاية وتلزم فراشه ليل نهار ثم استخلص من مجموعة هذه المرائى المروعـة ما حقق له أنها كانت قدوة النساء فى العطف على الأبناء. ولكنــه لم يلبث بعد مقارنته إياها بـالعجوز فى الشفقة والحنان –هذه عليـه، وتلك على ابنتها– أن ظهر له بـون ما بينهما فى ذلك وأن حنان والدته عليه ما هو إلا قسوة إذا قيس بحنان العجوز.

وما انتهـى بنطاؤر من هـذه المقارنة حتـى أخذ ينـاجى نفسه بقـوله: إن الحب الطاهر واحد لايتعدد وكل لا يتجـزأ لأنه مستمد من حب ايزيس لهوروس.. أى من حب الأم ولدها. وإذا كان ولع العجوز بـالفتاة حقيقة لا مراء فيها، فينبغى أن يكون هذا الولع مشتقـاً من ذلك الحب الربانى وطاهراً مثله من الـدنس، وإذا كان مصدر الطاهر الطهارة فلا محل لما زعمه الزاعمون من دنس المحنطين والتصاق هذا الدنس بمخـالطيهم أو الـداخلين فى بيوتهم.. تلك هــى الحقيقة البيضــاء التى لا تحتـاج فى تفهمها إلى عنـاء.. وإذا قلنا إن القـدرة الربـانية بثت فى اللبـؤة الحنان على جـروها وأودعت الكركدن الرفق بصغاره– وكـلاهما يستمد روحه من الشيطان– أفلم يك أدنى إلى الصواب أن يكون الإنسان أشفق على بنيه وذراريه من الحيوان؟

رفعت العجوز رأسها رويـداً رويداً عن جسم الفتاة بعد أن ظلـت بضع ساعات منكبة عليها لأن الـرجاء فى نجاتها من الخطر المحدق بها قد عـاودها لما تحققته من دلائل مثـولها للشفاء، وتهلل وجههـا فرحـاً وأنشـأت بعـد إذ استقرت مطمئنـة فى

مكانها تبشر الطبيب وزوجها بهذه البشرى. وكان لايزال زوجها يدلك قدمى الفتاة بيده اليسرى فبسطها مع اليد اليمنى ليحمد اللـه على هذه النعمة واقتدت العجوز به فى القيام بمفروض الحمد.

وحانت من بنطاؤر التفاتة نحـو العجوز فرأى آثـار الورع باديـة على وجهها وراعـه منها مشـاركتها زوجهـا فى التـوجه الكلى إلى الـربـوبية فكـانا يمثـلان فى وضعيهما آنئذ معنى التجـرد عن المحسوسات والصبو بجـوارحهما إلى علىّ الذات، ولم خالطه ريبة فى شدة شغف المرأة بحب الفتاة ومـرّت بخاطره ذكرى ممات أخته الوحيـدة حينما ترامت أمـه عليها والدمـوع تنحدر من مـآقيها، وكيف كـان والده يضرب الأرض بقدميه جزعـاً ويأساً وينزع شعر رأسه وجداً وحـزناً، وقال: أعظم بورع هـذا الرجل وأكرم بحنـان امرأته، وإن أعجب فعجب منهما تلك المسـارعة إلى حمد المنعم على ما أولاه من النعم.

منذ هذه الآونة دبّ إلى قلب بنطاؤر دبيب الشك فى صحة ما يؤمن به من المبادىء الدينية فأخـذ يقارن بين الإنسان والحيوان، إذ قال: تحب الضبـاع صغارها ولكن الحيوان لا يضـارع الإنسان فيما رصد نفسـه له من استطـلاع الحقائق الربـانية وتسنم ذرى الكمالات الأدبيـة المجـردة من كدورة المادة. وبعـد صمت قليل قـال: لاعقل للحيوان يفكر به ولا يـرجى أن يدبره عقل ما دامت الربوبيـة الأبدية البقاء.. ذلك لأن الحيـوان متجـرد من آثـار الحياة العقليـة، بل من بعـض مظاهـر الحيـاة الجثمانية نفسها حتى التبسم، وهو من أيسر هذه المظاهر. فالحيوان من هذا الوجه يشبه الطفل فى أول عهـد وجوده من جهـة أنه لا يتـوافر فيـه أثناءه سـوى القوى الحيويـة التى هى روح الحيوان. ولكن لايمر بـالطفل زمن ينفذ فيه شعـاع الروح

الدنيوية أى الإدراك العام الهادى للنفس فى ظلمات الحياة حتى تبدو مظاهره فى أول ابتسامة تتحرك بها شفتاه. وليست هذه الابتسامة أقل فى صفائها سطوعاً من نور الحق الذى منـه تنبعث وإليه تـرتد. ولقـد شهدت فتاة المحنط تبتسم كـذلك الطفل وككل مولود حملتـه أمه ووضعته، فلو كـانت مدنسة ولم يفرق بينهـا والمخلوقات فارق لما شاركتهم فى الابتسام الذى هو أول مظاهر الإدراك الحيوى.

مضى بنطاؤر فى تيار هـذه الهواجس وعرض على ذهنه ما خطـر له من أسباب المقارنة والقياس حتى تملكت نفسه الشفقة على تلك الفتاة فجثا على ركبتيه ضارعاً إلى من بيده ملكوت كل شىء وعنـده مفاتح الغيب أن يصلح الأحوال ويحسن المآل. وكان دعاؤه منبعثاً من قلب سليم وصاعـداً إلى ذلك الخالق المبدع الذى كانت تحرم الأسرار الكهنوتية عليه الجهر باسمه الأقدس لا إلى الآلهة الكثيرة التى يغالى الشعب فى تمجيدهـا لإدراكه إياهـا بالحس وسهولـة استطلاعه حقيقتهـا مع ضعف عقله وقصر نظره. وما آمن بنطاؤر بهذه العقيدة حتـى توجه إلى بارىء النسم مبتهلا أن يأخـذ بناصر عشيرة المحنطين التى ضربت عليهـا الذلـة والمسكنة وكـادت تنقرض بـالحرمان المهلك، وأن ينتشلهـا من الحضيض الذى تنكست فيـه منذ قـرون، وأن يمده بروح من عنده ليهتدى فى طريـق الحياة إلى جادة الحق والصواب، وأن يوفقه لتبديد سحب الشكوك التى غشيت بصيرته ليتـم ما عهد به أداؤه على ما ينبغى من الحكمة والسداد.

وما أتم الدعاء حتى وقف فى مكانه الأول فشيعته الفتاة بلفتة من لفتاتها. وكان كأنه قـد نشط من عقال الخمـول وزوده إيمانه الجديد عـزماً لم يعهده قبـلا فأخذ يفكر فيما لابد له من موافاة الأميرة به عند لقائه بها وكان يعرفها قبلا إذ رآها مرارا

فى الحفلات الدينيـة التى تقام عادة بطيبة الأمـوات. ولطالما أعجب بحسنها وافتتن بجمالها كغيره ممن كـانوا يشيعـونها بنظرات الحب ولـواعج الغرام كلما مـرت فى زيها العظيم، غير أن هذه المعرفة لم تتعد حدود الاستشراف إليها من بعيد، فأصبح بنطاؤر فى افتتانه بها كمن يفتن بالكواكب فى لألئها ويتطلبها بإمعان النظر فيها وهو يعلم أنها منيعة المرام بعيدة المنال.

أخـذ بنطاؤر بعـد هذا يجيـل النظر فى أركـان الوكـر المظلم وقـد غص بالنـاس وتساءل: كيف يباح لبنت أنـات ورجال حاشيتها العديدين الـدخول فيه؟ ثم تخيل قدومهـا فى ركبها الحفيل ودنوها من بـاب الوكر الـذى ضربت عليه الذلة والفـاقة والمصائب حـاملة تاجهـا الملكى، وبدا له كـأن رجال حاشيتهـا –بما عهد فيهم من الخشـونـة والغلظـة– يدفعـون النسـاء الـلائى جئن لعـزاء المحنط وزوجتـه على مصيبتهما ويقصـونهن عن ممر ركبهـا حتى لا يقع نظـرها الكـريم عليهم وهن فى أطمارهن الرثـة وشاراتهن المحـزنة فيقشعر جسمهـا وينقبض قلبها أو يعـاملون الطبيب وصـاحبـه بـالامتهـان، ثم استجمـع فى مخيلتـه مـا يعقب ذلك من الهرج واختلال النظـام وما يبديـه صويحبات الأميرة مـن علامات التقـزز والترفع كسد الأنف بأطـراف الأنامل أو الأمر بتنحيـة الشيخ وزوجه عن طـريق الأميرة. وربما اضطـرا أن يطـرحـا الفتـاة أرضـاً بينما هما يضمانها إلى صـدريهما للمبـادرة باستقبـالها وتقبيل الأرض بين يديها، وتمثلت له بنـت أنات بعد ذلك نـاثرة عليهما حلقـات من الفضـة أو الـذهب على سبيل التصدق وإظهـار الـرضـاء بينما يجتمع النسوة اللائى تفرقن ويصحن صيحات الفـرح والسرور. وتراءى له عقب ذلك كله تألف الـركب ثانياً للعودة بـالأميرة ولكأنه كان يسمع بعض رجال حـاشيتها وهم يقولـون: بارك الإله فى ابنة الشمس وأدام لها الشرف والكـرامة تلقاء ما أبـدته من

آيات الشفقة والإحسان، ثم يبعد الموكب حتى يختفى مرآه عن العيان.

وما تمثل لينطاؤر هـذا المنظر حتى اشتد به الغضب والتبرم لأنـه صاغ من هذا الخيال حقيقة، فوقف إلى جانب باب كوخ الجريحة تأهباً للذود عنه وللحيلولة دون دخول الأميرة فيه إذا فاهت بما لا يرضيـه من الكلام. غير أنه لم يلبث بعد هنيهة أن حاسب نفسه حسـاباً عسيراً إذ قال: قـد تكون عاطفة الشفقة والرحمة حفزتها لهذه الـزيارة.. ولكن لا .. مـا جـاءت الأميرة إلى هنا والـدافع لها هـذا الوازع النفسـانى الشريف ! بل كل ما فى الأمـر أن قصر الملك أبيها أصبح ببعده عنه خاليـاً من بواعث اللهو والانشراح ومـا يدعـو إلى قطع حبال الـوقت فى الهناءة والاغتبـاط فجاءت فى قضها وقضيضهـا لتتخلص من سأم الإقامة وملل الـوحدة. ولعلها نـاجت نفسـها بقولها إن قضاء ساعة فى زيـارة هذه الأسرة الحقيرة خير من الاستقرار فى مكان لا ينشرح فيه الصـدر باستجلاء مختلف المناظـر البهجة فضلا عما تتداولـه الألسنة عندئذ من عبارات الإطراء فيها والتنويه بذكـرها لأنها مع سمو مكانها وعلو قدرها قد تفضلت منة وكرماً منها بتفقـد أحوال الرعية بما جبلت عليه من شرف الخصال وكرم السجيـة. ثم أطرق هنيهة بدت عليـه فيها لوائح الغضب لأن وسواسـه كان يحدثه بما أتته بنت أنات من الرذيلة بتلبسـها بهذا الخلق.. وأية رذيلة أوجب فى نظره لانتقاص القـدر من الازدهاء بـالباطـل والتباهى بما يـربأ بسجايـاها الكـريمة أن تتنكس فى حضيضه. وكـان يحس إذ ذاك بتزاحم ألفاظ اللوم والتأنيب على لسـانه الذى كـاد ينطق بها غير حاسب حسـاباً لمكـانة الأميرة ، اعتقـاداً منه بأنـه فيما مر بخاطـره من الأفكار لم يجر عن قصد السبيل فى حكمـه عليها. وأنه لفى هـواجسه هذه إذ سمع جلبة خيل مقبلة ووقع حوافرهـا على الصخور فأنصت باهتاً. وما هى إلا برهة من الزمن حتى توردت بنت أنات إليه من ملتوى الوادى فى هيئة هيّئة وزى

عظيم ومرت من باب الوجـار الحقير مرور الطيف وجلست إلى جانب الجريحة فلم يعـرفها أحـد من الحاضرين وفى مقدمتهم نبسشت وصـاحبه تيتـا. على أنهم هموا جميعاً بـالوقـوف فأشارت إليهم بـالبقاء فى مقـاعدهم ففعلوا، ثـم أمعنت النظر فى الجريحة بعين يخامرها الحنان والعطف ومدت يدها إليها ونظرت بعد ذلك للعجوز قائلـة: ما أجمل هذه الفتـاة! فهزت العجوز رأسـها تصـديقاً على هذا الاعجـاب. أما الفتاة فقد افتر ثغرها بابتسـامة دلت على سرورها بما سمعته من الثناء على جمالها وودت أن لو كان فى قدرتها التشكـر للأميرة والثناء على صنيعها الحسن. وأدركت بنت أنات ذلك منها فكفتها مؤونـة هذا العناء بأن وضعت على صدرها بلطف ورفق وردة زاهية نضيرة مما زينت به غدائرها. وكان الشيخ لايزال دائباً على دلك قدمى الفتاة فنظر إلى الأميرة وقال لها: جزتك هاتور خيراً على صنيعك الحسن الذى طوق أعناقنا بالمنن وزادتك جمالا على جمالك. فقالت الأميرة: أرجو منك يا أبت أن تصفح عنى فقد وقع هذا المصاب رغم إرداتي. فنهض الـرجل واقفاً وقال: أأنت بنت أنات؟ فأطرقت برأسها وأجابت: نعم أنا. فقـدحت عيناه شرر الغيظ وقال: هيا ابرحى هذا المكان وإلا تدنست نفسك مدى الأزمان. قالت: لن أبرحه حتى تغفر لى ذنبى وتستر عيبى. قال: ما فـرط منك كان رغما عنك.. ألا تدرين أن سنابك خيلـك قد تدنست إذ داست هذه النهد؟ ثم رفع الغطـاء عن صدر الجريحة فإذا بجرح غائر ينـزف بالدم فأشار إليه ثم قال: هذه أول وردة رصعت يدك بها صدر ابنتى.. أما الوردة الثانية وهى هذه.. وكان قد تناول الوردة التى وضعتها بنت أنات على الغطاء وهمّ بإلقائها خارج الكـوخ، فأمسك بنطاؤر بيده وقـال له بصـوت متخلخل: مكانك!.. ألا تبصر بعقلك الضعيف وقلبك المتقرح بالأحزان الوردة الثالثة التى جاءت الأميرة لتهديكها وهى وردة العطف والإحسـان؟ إن الأميرة على سمو قـدرهـا ورفعة منـزلتها قـد

تنازلت بالحضور إلى هذا المكان لا لتسترضيك بالمال بل لتوليك كل ما تملك من أدب وخشوع عطفاً عليك والتماساً للمغفرة منك. ومن تهبط ابنة رعمسيس من علاها لزيارته وتفقد حالته حقّ عليه الخضوع لها بلا مراء، ولو كان أمير الأمراء. وإذا كانت الآلهة تقدست أسماؤهم وتعالت أقدارهم قد تقبلوا من بنت أنات استغفارها من ذنوبها، فلِمَ لا تسامحها أنت أيضاً ولو لتكفر عن نفسك السيئة التى حملت وزرها بحكم الوراثة وستلقيه على عواهن أبنائك من بعدك على تعاقب الأجيال؟

فأطرق الشيخ برأسه ثم رفعها بعد إذ سكنت عاصفة غضبه وقال لبنطاؤر: إن يدك أيها الكاهن شديدة قاسية وكلامك أشد إيلاما من طعنات الرماح.. لم تتعمد هذه السيدة الفاتنة الحسن –حينما أرسلت لجيادها العنان– إلحاق الأذى بحفيدتى هذه لا ابنتى كما تقولون. ولو أنها كانت زوجك أو زوج هذا الطبيب، بل لو أنها كانت ابنة تلك العجوز التى تلتمس قوتها من فضلات القرابين لذهبت من الصفح عنها إلى مقاسمتها ما هى فيه من بؤس وشقاء ساقهما إليها القدر المحتوم والقضاء الذى لا مفر منه. فما وقع من الأميرة كان عفواً لا قصداً، واضطراراً لا اختياراً.. وإنما شأنها فى ذلك شأنى حيث حرمت الطهارة وحرمانى إياها لم يكن جزاء ما قدمت يدى من شر، إذ هو ثمرة ما قدر علىّ مذ كنت فى المهد صبياً لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً. وبعد فقد كان حتما على مثلى– وهذا مكانه فى المجتمع أن يحمل على عاقته وقر ذلك المصاب أو يتناسى ما أدركه من الشقاء وإن توافرت أسباب تدعونى إلى الزهد فى هذه الحياة بل إلى القنوط منها. ألست أرى كبار الناس وصغارهم يفرون منى إذا التقوا بى فى الطريق حذر التلوث بلوث الدنس، بل

جام الأحـزان والغموم، فإنى أشكـو بثى من إمعانـه فى العسف بى والإساءة إلىّ إذ اغتصب أولادى السبعة وسـاقهم إلى ميدان القتال ليـذوقوا الوبال والنكـال. ومما زادنى مضضـا أن ابنتـه أصابت ابنـة أصغـرهم سنـا بجرح بـالغ ليس لـه دواء ولايرجى منه الشفـاء. وقد كانت لحياتى -فى هذا الـوكر الحقير- كشعاع الشمس يبعث الحياة فى الوجود . أما أولادى السبعة فقـد مات منهم ثلاثة بالجوع والعطش فى أعمال إيصال النيل بالبحر الأحمر (١) وقتل ثلاثة فى حرب الحبشـة، أما السابع وهو الكـوكب الساطع فى سماء حيـاتى فوسـواسى يحدثنى بأنه لا منجـاة له من براثن وحوش الشمال.

ما استقـرت هذه الكلمـة فى أذنى العجوز حتى هـاجتها ذكـرى أبنائهـا فأخذت تولـول وتبعها النسـوة اللائى جئن لتعزيتهـا وتخفيف مصيبتها، فـانتبهت الفتاة مروعـة وسـألت : مَن تبكين؟ أجابت العجـوز: نبكى والدك يا ريحانـة القلب وثمرة الفؤاد. فأسفرت ثنايا الفتاة عن ابتسامة الطفل الذى يكتم أهله حقيقة ما يسأل عنه وقالت: والدى فى طيبة الآن، وقد رأيته بها فقبلنى وقال إنه وصل إليها بحصته من الغنائم وأنـه سيقيم هنا فـلا يعود إلى ميـدان القتال. ثم أتحفنى بحلقة مـن الذهب الخالص كـانت منوطـة بثوبى وقتما دهمتنى العجلـة ومرت على صدرى وهـا هى

---

(١) كانت تسمى هذه الأعمال باللسان المصرى القديم (تينات) أعنى النقب أو الحفر، وهى تطابق موقع قناة السويس فى جزء منه، وقد جاء وصفها على الجدار الخارجى المواجه للشمال من هيكل الكرنك فى الصعيد، ويؤخذ منه تطابق جـزء عظيم من قناة السويس وترعة الإسماعيلية الحاليين مع تلك الترعة القديمة .

خذيها لتشترى بها قربانا للآلهة ونبيذاً لجدى وكحلا وغصن مصطكى لك (١) فقد مضى زمن طويل عليك ولم تتكحلى.

وكان بينم يصغى لحديث الفتاة، فلما انتهت منه بسط يديه حامدا الله ومثنيا عليه. ثم رأى بنطاؤر العجوز ولسانها يلهج بالحمد والثناء وتشارك بعلها فى هذا الدعاء ودموع السرور تتساقط من مآقيها. إلا أن الشيخ لم يلبث أن ارتاع، إذ ذهب إلى أن الفتاة قد شبه لها أبوها فى صورة إنسان يماثله أو أنها رأت فى المنام ما قصته على الأسماع، ولكن من أين يأتى الالتباس أو الوهم وقد رأى الحلقة معقودة بثيابها؟! فحلّ العقدة واستخلص الحلقة منها، والتقطتها بنت أنات بعد إذ سقطت من بين أصابعه وقدمتها إليه، بل بعد أن قالت له هذه الأميرة: قد كان قدومى عليك اليوم عنوان سعادة ومقدمة خير، فقد كنت يائسا من بقاء ابنك على قيد الحياة فجاءتك البشرى بوجوده قريبا منك، وكنت قانطا من شفاء ابنته وها هى بعنايته تعالى مقبلة عليه. وما كادت تتم كلامها حتى دنا بينم منها حبوا وأمعن فيها النظر مغرورقة عيناه بالدموع ثم قال مبتهلا: مولاتى.. تجاوزى عن خطيئتى كما تجاوزت عن ذنبك. أجابت: إننى شاكرة لك حسن صنيعك، ثم التفتت إلى نبسشت وأوصته أن يعنى بأمر المريضة، ودنت من الفتاة فقبلتها بين عينيها وتركت إلى جانبها دملج ذهب مصفى، وبرحت المكان بعد أن أمرت بنطاؤر باقتفاء أثرها.

(١) يسمى الكحل باللغة المصرية القديمة (مستم) وقد كان شيوعه فى مصر نقلا عن أهالى آسيا. أما أعواد شجر المصطكى فكان يستعملها قدماء المصريين فى تنظيف الأسنان، وكانت لهم طرق لصناعة الحبوب من الأفاوية المعطرة للفم، ولا تزال هذه الطرق مبينة فى أوراق البردى التى استكشفها ايبرس.

الفصل السادس

تنازع العشق والسحر

كان بعاكر ونيفرت فى خلال ما مر من الحوادث ينتظران أوبة الأميرة من بيت بينم، وكانت الشمس أنئذ فى سمت الرأس ترسل سهام أشعتها النارية إلى الصخور الصلدة والتلال الجرداء القائمة إلى جانبى المضيق فتنعكس منها حرارة كالسعير تكاد تز.ق الأرواح. ولم يك فى تلك الأرجاء مكان ظليل يأويان إليه ويتقيان به هذه الحرارة المحرقة، فأمرت الأميرة حاملى الظلات بالوقوف حيث توجد العجلة والمحفات.

ولقد انقضى زمن طويل وهما بهذا المكان لا تنبس شفتاهما بكلمة إلى أن عرا نيفرت الضجر وتولاها الملل، فرفعت عينيها المتلوّزتين نحو بعاكر وقالت: لقد طال غياب بنت أنات ببيت المدنسين وأحرق جسمى حر الهجير فما العمل؟ قال بعاكر: لابد لنا من انتظارها هنا على كل حال. ثم ابتعد عنها قليلا وصعد فى صخرة يترامى النظر من قمتها إلى مدى سحيق. وبعد أن سرح النظر حوله دنا من نيفرت وقال: لقد اهتديت إلى مكان يقينا أشعة الشمس. فلما عرفت نيفرت موقعه هزت رأسها منكرة توافر الظل فيه فتلامست الحلى والجواهر التى رصعت بها رأسها فسمعت لها وسوسة لطيفة تشبه حفيف الأشجار، ثم لبثت فى مكانها، فقال بعاكر: إن سخت[1] قد هاجتها فى السماء عوامل الغضب فرشقتنا بسهامها النافذة، فهلمى بنا إلى ذلك المكان نتفيأ ظلاله، وإن يكن غير جدير بالمقام. فتنفست نيفرت الصعداء ثم اقتفت

---

(١) سخت الهة كان يمثلها المصريون برأس لبؤة أو هرة يعلوها قرص الشمس أو الثعبان، وكانوا يسمونها رع، وكان إذا علا رأسها الثعبان دلت على شدة حرارة الشمس أو على شدة الهيام والشغف.

أثر بعـاكر وهو يقصـد صـخرتين قائمتين يفصل بينهما مضيق ألقت قمـة إحداهما على قاعه من الظل ما لا يتجاوز مسـاحته بضـع الأقدام المربعة، فلما انتهى إليه رفع بعاكر حجراً مكعباً وأرساه على هذا المكـان بعد قتل ما علق به من العقارب ثم غطاه بمنديل وأشـار إلى نيفرت بـالجلوس عليـه قائلا: ها أنتِ الآن فى مأمـن من حرارة الشمس ولظى الظهيرة!

لما جلست نيفرت أخـذت تحدق فى الموهار نظرها بعين يخامـرها القلق والغيظ، وكان لاينفك عن التنقل أمامها جيئة وذهابـا، فلم تتمالك أن قالت له: الزم مكانك يا هذا وخلك من الغدوّ والـرواح، فوقف بعاكر موليا ظهره إليهـا وأخذ يطيل النظر فى الطريق المؤدية إلى بيت بينم، فقالت نيفرت: أما عندك قصة تقصها؟ فتحوّل الموهار نحوها وقال: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. ثم استأنف السير ذهابا وجيئة كالضوارى إذا حبست فى القفص. فقالت: إنى عالمة بدخيلة صدرك، وما ران على قلبك من الحقـد لفشلك فى الـزواج بى.. ولكننى لا أجد لحقـدك سببـا فقد كنـا –حينما خطبتنى والدتك– أطفـالا لا نعقل. وكثيراً ما كنت أبتهج إذ ا سمعتهـا تقول عنى إننى امرأتك الصغيرة. وكنت أود لو تحققت فى المستقبل أمنيتها إذ من يأبى من السيدات أن تكـون صاحبـة الأمر والنهى فى قصـورك الباذخـة وبساتينك النضرة وخيراتك الـوافرة التى كـانت فخر آبـائك وأجدادك؟ فضحك بعـاكر مـزدرياً بهذا القول: فحنقت نيفرت لاستهتاره ولكنها كظمت حنقهـا وتظاهرت باللين والاعتدال فى القول، حتى لايـركب بعاكر متن الشطط معهـا فى خطابـه فقالت: نعم، إنى آنست منك غضبـاً علىّ وإعـراضـاً عنى، ولكن مهما يكن غضبك أيجوز لك أن تفسر قـولى بـافتتانى بثـروتك وطموحى لأمـوالك؟ إنى أكرر لك مـا قلته الآن وهـو أننى كنت شديدة الاحترام لك والعطف عليك، وحسبى شاهداً على ذلك مقاسمتى إياك همومك

وأحـزانك حينما كنت تشكـو بثك إلىّ وتتـوجـع من تضييق والـدك عليك وإسـاءة زملائك إليك، فلما توفى والـدك سافرت إلى أسيا.. فقـاطعها بعاكر سـاخـراً بقوله:.. ففسخت عقد الخطبة ونسيت مواثق المودة وتـزوجت بمينا ملازم ركاب الملك.. إنى بكل ذلك عليم يا نيفرت فلا حاجة بك إلى تكراره. قالت نيفرت: يسوؤنى جداً يا ابن خالتى أن تكون واجـداً علينا وأن تعرض والدتك عنـا وتتنحى عن مخالطتنا، ولكن هلا عذرت وأنت أدرى بحال المرء إذا تيمه العشق وسلب قلبه وأخذ لبه؟ قال بعاكر وقد وقف أمامهـا مواجهة واضعاً يديـه على صدره: نعم أنا بكل ذلك عليم ولكن ألا تدرين أنت أيضا أنى كلما فكرت فيك شعـرت بأن ناراً تتأجج بين جوانحى، بل إن جحيما تلظى فى كل جسمى؟ وما كـاد يتم كلامه حتى شخصت عيناه وبحّ صـوته وقال: لعلنى نسيت أن منصب مينا لدى الملك يصرف الأنظار نحوه أكثر منها نحوي فى منصبى بعيداً عن جلالتـه.. ووالدتك .. فقاطعته نيفـرت بصوت مرتفع: لم تكن والـدتى هى التى اختـارت.. ولا هـى التى أشـارت بتفضيلـه عليك وإنما أنـا التى اخترته، إذ رأيته يوما يقود عجلة الملك فبدا لى كأنه إله الشمس وقد حانت منه التفاتة إلىّ فرمانى من لحظه بسهم أصاب فؤادى. وحدث بعد ذلك أننا التقينا يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك فبهرنى منظره الشائق فى شارته الجميلة وخُيل لى أن الإلهة هاتور قد نسجت حولى نسيجاً لحمته وسداه أشعة الشمس العسجدية، فأفضى إلىّ بما فى قرارة نفسـه.. إذ قال إنه يشعـر من حبى بمثل ما أشعـر من حبه، فلما خطبنى إلى أهلي بعد ذلك أبت والـدتى أن تزوجنى منـه فاعترانى هم كثير لا يعدلـه غير ما كنت أتمناه أن أكون قرينة له، وعراه هو أيضا وجد شديد لم ينفع معه التأسى، فصار لا يهنأ له طعام ولا شراب ولا يهدأ لـه خاطر، ولحظ جلالة الملك تغيراً فى حـاله فسأله عن سبب حزنه ووجومه، إذ كان كما تعلم يحبه ويجلّ قدره، فكاشفه بسره وأوقفه

على حقيقة أمره، فتلطف به وواساه وتفضل كرمـاً منه وإحساناً بطلبى من والدتى التى لم يسعها –والطالب هو سيد البلاد ووليها– إلا أن تسارع بالطاعة، وإنى أؤكد لك بأن نعيم الأبـرار فى عالـو (١) ليس بـالشـىء المذكـور إذا قيس بما أوتينـاه من السعادة والهناءة أنا ومينا، حتى لقد طوّح بنا الظن يوماً أننا صرنا فى عداد الآلهة.

وكانت عينا نيفـرت شاخصتين فى السماء فلما وصلت إلى هذا الحد من الحديث حدقت النظـر فى بعاكـر وقالت: ولكنا مـا لبثنا على ذلك أيـاماً معـدودة حتى تكدر صفونا بهجوم قبائل الخيتاس (٢) على وطننا فاضطـر رعمسيس إلى قتالهم ولزم مينـا ركابـه فى ميدان القتـال، ولم يكن قضى معى من الأيام إلا خمســة عشر، ثم.. فقاطعها بعاكر بصوت مضطرب: ثـم أجاب الآلهة دعائى وتقبلوا رجائى إذ فرقوا بينك وذلك الذى سلـب هنائى وسبب شقائى، واضرمـوا فى قلبك نار الشـوق إليه. وإذا ظننت أنك أتيتنى بنبأ جديد فقد أخطأ ظنك، لأنه إذا تمتع مينا بمحاسنك الفتانة خمســة عشر يـومـا فقـد ذهـب إلى حـرب يصرع فى ميـدانها عشرات الألـوف من الشجعان. فتبرمت نيفرت بهذا الكلام وصاحت: كلا فلسوف يؤوب بالسلامة وتقرّ عينى برؤيته. قال بعاكر: جـائز أن يعود، ولكن ألا تعلمين أن أيدى الخيتاس قاسية وأن سيوفهم مـاضية وأن جبال لبنان تحلق فى سمائها ألـوف النسور ولايستحيل أن تكون محومة على جثته الآن تمزقها كما مزق قلبى وتسلبه روحه كما سلب لبى؟ وكان وقع هـذا الكلام في نفس نيفرت أشـد إيلامـا من طعن الحسام فلم تتمالك أن

---

(١) عالو باللغـة المصرية القديمة مسكن الأبرار فى الجنة، وقد جـاء فى كتاب الأموات أنهم يقيمون فيه بالقرب من مياه جارية ويغرسون ويحصدون.

(٢) الخيتاس هـم الآراميـون الذين كانوا مع شعـوب آسيا الغربية يحتلـون صعيد مصر فى عصر رعمسيس الثانى.

وقفت واتجهت نحو بيت بينم، غير أنها لما تولاها من الهلع بسبب ذلك الكلام خانتها القوى فسقطت فى مكانها ثم عالجت الكلام فلم تستطع بل شعرت بضيق فى صدرها وخفقان فى قلبها، حتى لم تعد تعى شيئاً مما يحدث حولها. وكان بعاكر يحدد فيها النظر وهو جامد فى مكانه لايواسيها بكلمة تخفف من آلامها، ذلك لأن قلبه كان أشبه بإحدى شجرات الجنوب تطرح الثمار الرطبة والثمار الجافة معاً فى وقت واحد أو فى بعض أيام السنة التى يطلع القمر فيها على الأفق والشمس ساطعة الضياء ، أعنى أنه كان يتراوح بين طرفى العشق والضغينة تراوحه بين الأمل فى الظفر بأمنيته واليأس منها. وكانت دموع نيفرت مازالت تهطل مدراراً، فإذا شهدها بعاكر تنحدر على خديها هدأ روعه واطمأن قلبه وزال ما به من الاضطراب وانطفأت النار المتضرمة بين جوانحه ، إذ كان يشبهها بالطل إذا كسا الأزهار أكسبها البرودة وذهب بما فيها من جفاف. ولكنه مع ما أبداه من جفاء الطبع وغلظ الكبد وهو فى هذا الموقف الذي تحن فيه العواطف وتتلاشى دقائق الأحقاد كان لا يلبث- كلما خالسها النظر- أن يزداد هياماً بها ويحس بتأثير محاسنها أفعل فى قلبه المستهام منه عن ذى قبل، فيقف عليها نظراته لايصرفها صارف عن شخصها المحبوب، ويهم بالتماس رضائها عنه وتقديم كل ثروته إليها فى مقابل كلمة صفح يسمعها من فيها أو قبلة يضعها على ثغرها المنضد بأسنان لؤلوية لا نظير لها نظاماً وإشراقاً.

وبعد ساعة أفاقت نيفرت من غشيتها فكفكفت الدمع ونظرت إلى بعاكر ساخرة مستهترة وقالت بصوت خافت: لقد جف لسانى من العطش، فهات لى ماء.أجاب : إن ميعاد حضور الأميرة قد دنا، فكيف العمل؟ قالت: لقد انحلّت قوايَ بما أصابنى من العطش الشديد. ثم تناثرت الدموع على خديها فهز بعاكر كتفيه ثم هرول مسرعاً

نحو الوادى القريب حيث مقابر أجداده لإحضار الماء. وكان عارفا بمنعطفاته ومضائقه لكثرة ما تردد على المقبرة فى الليالى المقمرة للصلاة على أرواح الموتى. وكان بوده أن يأتى بالماء من بيت بينم إلا أنه تذكر أن هنالك مغارة تأوى إليها عجوز شمطاء ففضل أن يأتى بالماء من عندها وانصرف مغذاً السير، رجاء أن يسترضى نيفرت بمروءته. وكانت تبدو لناظره وهو يجرى باكية متوجعة فيذوب عطفا عليها ويزداد هياماً بها، وإن يكن من جهة أخرى يبغضها أشد البغض لما تبديه نحوه من الصد المتلف والهجران القاتل.

وكان باب المغارة الذى يحفظ العجوز من سطوات بنات آوى واللصوص الذين يتسللون خلال الديار فى جنح الظلام مفتوحاً. وكانت جالسة تحت ظلة من الخرق البالية مثبتة الأطراف بقوائم خشب يستعان بها على حزم أعواد النبات. وكان بالقرب منها هرّ أسود ينشق الرائحة الذافرة التى تسطع من رؤوس الغربان والبوم التى طرحتها العجوز بعد أن استخرجت عيونها. وكان بجوار الباب طائران من الجوارح يغشاهما الدخان الكثيف المتصاعد من نار وقودها حطب بعض النباتات، فلما دنا بعاكر من هذا الباب نسى هواجسه ولاسيما حينما سمع العجوز تسأل بصوت خشن: هل غلى الشمع الذى على النار؟ ثم سمع برطمة من الداخل لم يفهم معناها وإنما فهمتها العجوز لقربها من مصدرها حيث قالت جواباً على قائلها: ضعى عليه عين قرد [1] وريش أوز وخرقة بالية من ثوب معلم ثم حرّكى هذا

(١) إن بعض الكلمات التى تروى هنا على لسان العجوز وتحضيراتها السحرية مستنبطة من ورقة البردى المعروفة بالورقة السحرية المحفوظة إلى الآن فى أحد المتاحف. وبقية الكلمات والتحضيرات مأخوذة من ورقة سحرية أخرى تعرف باسم ورقة هاريس–المترجم لها– وتاريخها مطابق لتاريخ وقائع هذه الرواية، ومن ورقتين غير السابقتين تسمى إحداهما بورقة ليد والثانية بورقة برلين، وهذه الأخيرة باللغة اليونانية.

المخلوط رويداً رويداً حتى إذا امتزج بعضه ببعض اطفئى النار ثم خذى الجرة واملئيها ماء.. وما أتمت هذا الكلام حتى برزت من المغارة أمة سوداء بلغ ردفاها من النحول مبلغا يخيل للناظر معه أنهما هيكلا عظم مطليا بالقار. وكانت تستر عورتها بخرقة بالية فسد لونها فتناولت إناء من صلصال وضعته على شعر رأسها المتجعد وسارت في طريق مقابلة للتى جاء بعاكر منها. أما العجوز فكانت نحيفة الجسم محدودبة الظهر، قد أكل الدهر عليها وشرب، فلما وقع نظرها على بعاكر نهضت للقائه بعد أن عصبت رأسها بمنديل حرير معلم وألقت على الأرض حصيرة لإخفاء رؤوس الغربان والبوم التى كانت تتصاعد منها رائحة كريهة ثم عادت إلى مزاولة عملها كأنها لم تبصر بأحد ولم تجاوب على نداء بعاكر إياها بصوته الجهورى، فرأى أن يدنو منها أكثر مما فعل فمدت إليه نظرها وقالت: إنى أحمد سعيك أيها الزائر الشريف ، فلقد وافيتنا يحف بك يوم سعادة ويوم نور، وزرتنا فاسبغت علينا حلة المجد والفخر. فألقى بعاكر إليها بحلقة فضية[1] وقال لها: قفى على قدميك واتنى بماء نقى فى إناء نظيف.فالتقطت العجوز الحلقة الفضية، وبعد أن حدقت النظر فيها طويلا قالت: هذا هو اللجين الخالص! هذا هو المعدن الكريم! ولكنه دون ثمن مائى السحرى العجيب الفعل الغريب التأثير. قال بعاكر: لاتكثرى من الهذى أيتها العجوز وعليك بإحضار الماء فوراً. ثم رمى إليها بحلقة ثانية فقالت: إنك طلق اليدين! إنك ندى الكفين! لذا أريد أن أطلعك على جميع الأسرار وأفتح لك مغالق الأبواب. والذهب الوضاح لها خير مفتاح.. لقد طلبت منى بقيمة الحلقتين ماء ولكن لم تقل لى ما هو الماء، فإن عندى منه أصنافا عدة منها ماء إذا تناولته صانك من فتكات الحيوانات الضارية، وماء يساعدك على استنزال النجوم من أفلاكها،

(١) كانت المعاملات عند قدماء المصرين بحلقات من الفضة والذهب.

وماء يوقفك على أسرار الطرقات المجهولة وهو أليق بك وأعلق بوظيفتك، وماء يعينك على تحصيل العلم والتمييز بين العدو والصديق وبين الغث والسمين، وماء تعرف به متى يموت أعداؤك، وماء يخفيك عن الأنظار، وماء تزيل به الأصبع السادس من رجلك اليسرى. قال بعاكر: يظهر من كلامك أنك تعرفينني أيتها العجوز؟ قالت: كيف لا ، ولى عين ترى الغيوب وتستطلع ما فى القلوب، ويد حذقت تجهيز المياه النافعة للكبار والصغار. قال: إن هذا إلا من أساطير الدجالين وحيل المشعوذين. ثم أخذ بمقبض سوطه وقال للساحرة: هيا اسرعى فإن السيدة التى لأجلها.. فقاطعته قائلة: لمَ لم تقل من بادىء الأمر أنك تريد ماء لسيدة؟.. ولقد كان فى إمكانى معرفة قصدك لولا أن كل الذين اعتادوا طلب الماء السحرى النافع فى استهواء أفئدة النساء أمراء وأعيان من ذوى الأسنان وليس فيهم من هو مثلك فى ريعان العمر وعنفوان الشباب.

اختفت العجوز هنيهة ثم عادت وبيدها إناء اسطوانى الشكل دفعته إلى بعاكر قائلة: دونك الشراب الذى تطلبه وطريقة استعماله أن تشوب نصفه بماء وتعطيه من تحب استهواءها إليك فإذا لم يأت بالغرض المقصود فوافها بالنصف الثانى، إذ لابد من حصول الفائدة على ما يوافق الأمل. واعلم أنه لاخوف من هذا الشرب حتى على الطفل الصغير. أما الشيخ الذى قعد بـه عجز الشيخوخة وخمولها فهانه إذا تناوله تدب فيه روح النشاط والهمة. وإن تكن فى ريب من صدق قولى فهاأنذى أشرب منه قبلك. ثم رفعت القدح إلى فمها كمن يتجرع شرابا وقالت: أرأيت بعد أنه لم يلحقنى سوء؟ وما شربته الآن أمامك كاف لمثلى، ولو تجاوزته لعرّضت قلبى لخطر الوقوع فى شرك هواك، وأنا عجوز شمطاء.. فعليك إذاً بهذا الماء يا بنى فإن لم يوافق تأثيره حسن ظنك به يكن ما دفعته لى من المال غير راب على ثمنه، وإن وافقه

فقد حقت عليك مكافأتى بثلاث حلقات من الذهب الإبريز. وإننى لموقنة من قضائك لى بهذه الجائزة.

قـالت ذلك وبعاكـر مصغ إليها لا تنبس شفتـاه بكلمة، فلما أمسكت عن الكـلام جذب الإناء منها فى عنف وشدة ووضعه فى قطـرميز فضة ثم ألقى للساحرة بثلاث حلقـات فضة بعـد أن سألها إناء مملـوءاً بماء النيل. فهـرولت الساحـرة إلى داخل المغارة قائلة: ما لى أراه عجلا ملولا؟ لقـد سألنى أأعرفه وهو ما لا خلاف فيه، ولكن لا أدرى من هى معشوقته.. أهى وردة الصغيرة ابنة المحنط القريب منا، أم غيرها؟. فإن تكن هى فله العـذر فى هيامه بها إلا أنها الآن طريحة الفراش وقـد لايُرجى لها البقاء بعد الحطمة التى أصابتها.. وبعد فـلا مناص لى من تعرّف الخبر.. أما أنا فلو كنت فى مقتبل العمر لما مـال قلبى إلى هذا الرجل.. وإن أعجب فعجب أن ينـال بغيته بغير ما يبديه من الصبر وقوة الاحتمال ويبسط يده به من وفير المال.

طـافت هذه الهواجس بخـاطـر العجوز وهى تملأ بماء النيل المصفى جـرّة من الخزف البرّاق، فلما انتهت غطت فـوّهتها بـورقة غـار رسم عليها قلبـان مترابطان بسبعة خطوط متوازية، ثم خرجت فتناول بعاكر منها الإناء وأمعن النظر فى الورقة فقالت الساحرة: فى هـذه الورقة سر ارتباط القلوب كما ترى ثـلاثة للرجل، وأربعة للمرأة، وسبعة لمن لا يتجزأ شعاع شاشـاش شارشـال اشاشا (١).. وأخذت بعدئذ تردد هـذه الرقى الشيطانيـة فلم يلتفت بعاكر إليهـا، بل عاد من حيث أتى قـاصداً مكـان نيفرت. وقبل أن يـدركه بقليل وضـع الجرة على حجـر مستوٍ ثم أخـرج من القطرميز إناء الماء السحرى بيد راجفة وقلب خافق فخيل له أن هاتفاً يصوّت به: ها

---

(١) هذه الألفاظ مستخرجة كما هى من الورقة السحرية الموجودة فى برلين.

استهواء الفتيات وسلب ألباب الغانيات.. وهب أننى عمدت إلى إصابة هذا الغرض، فلم لا يقال إن الآلهة وأرواح الموتى من أهلى قد رأفت بى فتقبلت منى ما قدمته إليها من القرابين ومهدت لتحقيق أملى وإجابة سؤلى، فهدت خطواتى إلى مغارة العجوز التى أرشدتنى بباعث من نفسها إلى الشراب السحرى الذى يلين القلوب الصلدة ويجذب الميول المستعصية؟

كان بعاكر معروفا فى أصحابه بشدة العزم وقوة الشكيمة وارتقاب الفرص للوثبة عليها عند سنوحها. وكان إذا قال فعل وإذا فعل أصاب الغرض، غير مفرق بين السهل من الأمور والصعب الذى يستدعى إعمال الروية فى معالجته حتى يجىء وفق المراد، إلا أن هذه الهمة لم تكن لحدة فهمه أو سعة حيلته أو بعد نظره فى المصائر، بل هى ثمرة من ثمار المصادفة العمياء.

وكانت عادته أن يحمل قلادة ثبتت فيها التمائم المختلفة الأشكال والأحجام لاعتقاده بما لها من الخصائص النافعة والفعل العجيب الذى بثه فيها الكهان ببركة دعواتهم الصالحات مقابل ما كان يدفعه إليهم من وافر المال ويتحفهم به من جزيل الخيرات. وكان يحتفظ دائما بأشياء ثلاثة: حجر اللازورد وتمثال وخاتم. أما الحجر فكان معلقا بسلسلة ذهب منوطة بنطاقه، وفائدته عنده أنه إذا ألقاه على الأرض فواجه السماء وجهه المنقوش دل ذلك على نيل المطالب وتحقيق الأمانى والعكس بالعكس. أما التمثال فكان يمثل صورة الإله أفيرون برأس ابن آوى، وهو هادى الضالين ومرشد المسافرين وفائدته عنده أنه إذا التمس الهداية إلى طريق ألقاه على الأرض أيضاً فحيث ينصرف رأسه يذهب راشداً على خط مستقيم، فلا

ينشب أن يصل إلى الغاية المقصودة. أما الخاتم فقد ورثه من أبيه وبالغ فى صيانته لما يحتويه من أسرار القوة والبأس، لأنه كان فيما مضى للملك تحتمس الثالث الذى دخل عداد الآلهة، فأمر بوضعه على أقدس قبر لأوزريس بهيكل أبيدوس[1] ليستمد منه القوة، وقد أهداه قبل وفاته إلى أحد أجداد بعاكر. وكان فص هذا الخاتم منقوشاً بثلاثة رموز مقدسة وثلاثة غير مقدسة، وفائدته أنه إذا ودّ أن يتعرف ما سيقع له من ضر أو نفع مسّ الفص بطرف خنجره، فإذا أصاب رمزاً مقدساً دل ذلك فى اعتقاده على أن والده الذى حلّ فى نفس أوزريس راضٍ عن مشروعه فيبادر إلى تنفيذه، وإذا مس رمزاً غير مقدس عدل عن عزمه وانتظر ما يرشده هذا الرضاء إليه فى الظروف الملائمة.

يبدو مما تقدم أن همة بعاكر فى قضاء مصالحه وتنفيذ مشاريعه كانت ثمرة رضوخه المطلق وطاعته العمياء لما تخبره به المصادفة الناطقة بلسان ذلك الخاتم. وكان من عادته أحياناً أن يضمه إلى صدره وينتظر ريثما يلتقى بأحد فى طريقه، فإذا مر من اليمين أفاد ذلك موافقة والده إياه على عمله أو من شماله أفاد العكس. وعلى هذه القاعدة بنى بعاكر أعماله وتصرفاته كافة، فكان لايعمل عملا ولا يقول قولا إلا إذا وافق عليه الموتى من آله. ولقد اتخذ أباه وأخاه الأكبر المتوفى فى ريعان الشباب رائدين له في طريقه يدلانه على سبل الخير ويعدلان به عن مهاوى الشر ويمحضانه النصح، فكان يعمل بما يأمرانه به وينتهى عما ينهيانه عنه. وقد وقر فى

---

(١) كان قدماء المصريين يعتقدون أن تيفون إله الشر قتل الإله أوزريس وقطع جسمه أربع عشرة قطعة ثم ألقاها في جهات بعيدة من القطر المصرى، فلما رأت ايزيس زوجة اوزريس ذلك شيدت قبرا جميلا على كل قطعة. وأقدس هذه القبور قبر أبيدوس، وكان وجوه المصريين يوصون قبل وفاتهم بدفن جثثهم بجوار هذا القبر التماسا لبركته.

نفســه أنه إذا استمــد بروح والــده أو روح أخيه ليستشيرهما في أمــر خطير وعمل بنصيحتهما وفق للنجاح والخير، وإذا خالف مشورتهما أحدقت به المصائب من كل جــانب. وقد علمتــه التجارب أن لتلكما الــروحين من المزايا مــا تفضل إحداهما بــه الأخرى، وإنما العمدة على العــادة فإذا اعتاد من إحداهما الموافقة على دــالم تأذن به الثانية استمد بها دون هذه والعكس بالعكس.

وكان بعاكر يرى أنه بالسير على هذا المنهج وعدم الحيد عنه يفوز برضـى الآلهة ويكون حظياً عنــدهم. فقد استقر في خلده أن أرواح الموتى تتحد بعــد ثبوت براءتها بروح الكون وتشترك فى تــدبير شؤونه مع الأرواح الأخرى. وهــذا ما استحثه على تقديم القرابين الكثيرة إليها بمــدفن آله وفى هياكل العبادة، ولاسيما فى هيكل سيتي الذى يمجد كهانه ويكــرمهم ويعمل بنصائحهم ويبالغ فى الشكر لهم والثناء عليهم. وكان يعتقد أنه إذا سار على هذه الخطة اتصلت روحــه بالربوبية فتجل عن مناظرة الكائنــات السفلية، فانتفخت أوداجه لــذلك كبراً وعتواً وتاه على الأشبــاه والنظراء، اعتماداً على الإيثار الــوهمي الذى خيــل له أن الآلهة قــد ميزتــه به على أفــراد الأمة المصريــة، فى مقابل تفــانيــه فى محبتهم ودأبه على تقــديم القــرابين إلى هياكلهم. أمــا أساتذة بعاكر من كهنة هيكل سيتى فكانوا يقومون المعوج من خلقه ويرشدونه إلى الطريق الأقوم، غير أنهم كــانوا يتحرزون من تصحيح غلطاته ويمدونــه فى طغيانه استبقاء لما كان يسديهم إياه من جزيل النعم ويوالى هياكلهم به من وفير الخيرات.

ولما استقر فى نفس بعــاكر الاعتقاد بأنــه مشدود الأزر بالقوى الخفيــة ومكلوء على الدوام بعين العنايــة الصمدانية انفض من حــوله الأصدقاء وبان عــن معاشرته الرفقاء، فكان لا يرى إلا وحيداً في ميادين القتــال بل وفى طرقات طيبة. ولقد بالغ فى

البعد عن الناس والنفور منهم حتى وصموه بـالكبرياء ولم يعترفوا له بغير فضيلة واحـدة وهى العزم وقـوة الإرادة. وقـد أفضى بـه اعتقاده بتنـاسخ أرواح الموتى وتدخلها فى شؤون الأحياء من قرابتها إلى الزعم بأنها كانت تبعث من قبورها فيراها رأى العين ويخاطبها فى شؤؤنه ويستعين بها على قضـاء حاجاته. وكان كلما فكر فى هذا الاعتقاد هاجت شجونه وثارت نفسه وتراءت له صورة مينا، فلا يلبث أن تدب فى صدره عـوامل الضغينة والحقد فيكثـر من الصلوات للآلهة والتـزلف إلى الكهنة ليعجلوا بموت هذا الخصم اللدود والمناظر العنيد .

قلنا إن بعاكر وضع على الحجر الإناء الذى تسلمه من العجوز الساحرة لتطفىء نيفرت بمائه نـار ظمئها.. فلما تحقق استواؤه فى وضعه ولم يخش عليـه الانقلاب، تناول الماء السحرى بيـد راجفة. وكان الشغف بنيفرت قد بلغ منـه حدا نسى معه كمين حقده عليها وتذكر حينما همّ بصـب الماء السحرى فى الإناء نصوص القوانين الدينيـة على السحر وأنه من الآثـام التى يعاقب مـرتكبها بالاعـدام، فتخبل فى أمره وتراجع مستطـار اللب روعاً وفزعاً، غير أنـه لم ينشب أن تزود من غرامه الشـديد قوة وإقدامـاً فعاد إلى موقفه الأول، ولكن مـروع العينين منزعج الضمير ولبث فيه جامـداً لايتحرك. ثم تذكر الخاتم ووجـوب الرجوع إلى ارشاداتـه، لاسيما وهو فى مـوقفه الحرج، فما هى إلا طـرفـة العين حتى أبرزه مـن جيبه ومسّ وجهـه بسن السيف فلم تصب رمزاً مـا من الرمـوز المقدسة التى تفشت فيـه، وهو الـدلالة على وجوب العدول عما انتواه من أمر. ولو كـان لهذا الأمر علاقة بغير نيفرت وحبها لما تردد طبعـاً فى العدول عنـه، إلا أن تدلهه فى عشقها كـان قد ملك من قيـاده وأفقده الصواب فلم يعبأ بـدلالة الخاتم، فعمـد إلى استشارته بطـريقة أخـرى إذ ضمه إلى صدره ونطق باسم (أوزريس) ثم انتظـر ريثما يسنح له إنسان أو حيوان حتى إذا

مرّ عن يمينه دل ذلك على رضاء والده عنه وموافقته على ما انتواه، أو عن يساره دل ذلك على العكس فينصرف عن نيته. وما هى إلا إناخة راكب حتى لاح له خلف الجبل طائران صفقا بجناحيهما وحلقا فى الجو فترة من الزمن ثم مرا عن يساره ولم يمرا عن يمينه كما كان يود ، فكاد ينشق غيظا وهمّ بإراقة الماء السحرى على الأرض لولا أن شيطان الجنوب كان يتعقبه فى كل حركة فأذكى فى قلبه نار الحب، فما لبث أن تذكر نيفرت ساحرة لبه وسالبة فؤاده، فخارت عزيمته وتلاشت قوته ولكنه عمد إلى إناء الماء السحرى فسكب نصف ما يحتويه منه فى الإناء الذى على الحجر واتجه به نحو نيفرت ليقدمه إليها فإذا بها مقبلة عليه فأخذته متلهفة وتجرعت كل ما فيه عباً. ثم تنفست الصعداء قائلة: أشكر لك يا بعاكر ما خولتنى من النعمة وقلدتنى من المنة، فقد شفيت بهذا الماء الزلال غليلى وشرحت صدرى، ولكن خبرنى ما الذى مرّ على رأسك من البلايا حتى رأيتك مضطرب الحركة ممتقع اللون؟.. ألما قاسيته من العناء وتكلفته من المكروه لأجلى؟ ثم صعدت فيه بصرها ومدت نحوه يدها فتناولها وقبلها بشغف ولهف. عندئذ افتر ثغر نيفرت عن ابتسامة ملكت على بعاكر مشاعره ثم قالت: حسبك هذا وكفى يا بعاكر، فقد برحت الأميرة بيت بينم ولا بد لنا من التأهب لاستقبالها، ولا تنس على كل حال ما وجهته إلىّ منذ ساعة من القول المؤلم والتنديد القارص.. نعم، لست بمنكرة أننى أثرت فى صدرك الغيظ الذى حملك على أن ترمينى بسهامهما، إلا أننى أود أن أراك فيما أنت الآن عليه من السكون وطمأنينة النفس وأن تعمل مجداً لإصلاح ذات البين بين والدتك ووالدتى. ثم أومأت إليه بسبابتها كمن يتوعد غيره بسوء العاقبة إذا لم يبادر بالطاعة. قالت هذا ورمته بسهم من لحظها أصمى فؤاده وزاده بها غراماً وافتتاناً.

أخذت نيفرت سمتها بعد ذلك إلى بيت بينم تاركة بعاكر من خلفها يضغط صدره

بكفيه معالجا بهذه الحركة تخفيف خفقان قلبه ومناجياً نفسه بقوله: لاريب فى أنها آيلة إلىّ وأنى قابض على ناصيتها فى آخر الأمر بفضل هذا الماء العجيب.. بورك فيك أيتها القوة السماوية! وكان من عادات بعاكر المألوفة وعباراته المأثورة أنه إذا ظفر بأمنية أو خيل له انه سيظفر بها تهلل فرحاً وكرر تلك الجملة (بورك فيك أيتها القوة السماوية). ولقد انطلق لسانه بها فى هذا المقام إشارة إلى أن الأمر الذى عالجه واستعصى عليه فيما مضى قد تمهدت له السبل وزالت من أمامه العقبات، فهو يشكر القوة السماوية التى تذلل الصعاب وتفتح موصد الأبواب.

على أنه لم يستطع البقاء فى مكانه بل أخذ يتتبع مواطىء أقدام نيفرت بعد أن احتفظ بالإناء فى نطاقه لكى يروى بمائه غلتها إذا عطشت ثانياً، وهو بذلك قد عمل بنصيحة الساحرة تلك العجوز الفاجرة. إلا أنه لم ينشب أن أحس بوازع نفسى يذم إليه رأيه ويقبح فعله وينحى عليه بصنوف التوبيخ والتقريع مذكراً إياه بواجب الاستقامة وفضل الصدق والأمانة. ولكنه لم يعبأ بصوت الوازع ولا نداء الضمير، بل تمادى فى غيه وسجل عناده واستخفافه بهز الكتفين وتحريك اليدين، فعل المتبرم من سماع نصيحة لا تطابق هواه. وعلى الجملة كان كالسكير الذى كلما أُلقيت فى روعه الرهبة من عواقب إدمان الشراب انحط على دنان الخمر يعب من مشمولها عباً.

وكان بعاكر لايستطيع أن يكاشف نيفرت بغيظه من مينا ولا يجهر بعزمه أنه فاعل كذا وكذا للفتك به، بل كان يكل إلى (القوة السماوية) العناية بتصريف الحوادث على ما يوافق شهواته. أما الآن فقد استقل بإرادته واستأثر بحريته وأصبح فى غنى عن الاستمداد بتلك القوة أو الاعتماد عليها، ثم شطح فى الإلحاد

والكفر بما حبب إليه ارتكاب ما طالما اعتقد منافـاته للإرادة الربانية، وكثيراً ما كان يتقى السقوط فى المحرمـات بما كان يظهره من التقى والصلاح والـدأب على تقديم القرابين للآلهة والموتى فى الهياكل والمقابر.

وحدث فى هذه الأثناء أن خرجت الساحـرة من المغارة وتتبعت آثار بعاكر لترقب حركاته وتعـرف مَن هى المرأة التى من أجلها جاء فى طلب الماء السحرى، فلما دنت منه توارت خلف صخر وقالت: هو بعينه الرجل السداسى أصابع الرجل اليسرى.. أراه يتكلف الوقار والرصانة حتى ليخيل لنـاظره أنه وارث آسا حقاً فى هذا العصر. أما نيفرت وبعـاكر فقد التقيا ببنت أنات وبنطاؤر فى جـوف الوادى، وكانت الأميرة قد لزمت الصمت عقب خروجها من وجار المحنط. فما غـاب هذا الوجار عن نظرها حتى وضعت يدها على صدرها وترددت أنفاسها دراكا، كأن خطراً يتهددها أو كأن حركتى الزفير والشهيق قد اختل نظامهما بتأثير الفـزع من الخطر الداهم، ثم عادتا إلى سابق عهدهما من التواتر المنتظم. وقبل لقائها بنيفرت صوبت البصر فى بنطاؤر ثم أطرقت قـائلة: إن ما شهـدته الآن لعجب عجاب. فلم يجاوب بنطـاؤر على قولها مجتزئاً بحـركة من رأسه تفيـد معنى الموافقة عليه. ولم تكن بنت أنـات أمعنت فيه النظر ولا تثبتـت من ملامحه إلا عنـدما برح بيت المحنـط فإنها أخذت تـرمقة بعين الإعجاب وسألتـه: أأنت الكاهن الذى طهـرنى أمس من الدنس بعـد زيارتى الأولى لبيت بينم؟أجاب: نعم أنا الذى طهرك. قالت: ما عرفتك الآن إلا بنبرات صوتك. وإنى أشكـر لك صنيعتك معى لأننى اتخذتـك لنفسى -مـذ شجعتنى على العمل بـوحى الضمير- قدوة صالحة فى الاعتقاد، فعدت إلى هنا مرة أخرى بالرغم مما نصحنى به الناصحون. وإنى لأتوسم فيك القدرة على الـدفاع عنى، إذا استطال أحد فى كرامتى على مسمع منك. قال بنطاؤر: إنى إن بكرت إلى هنا فما هو إلا لأبلغك أنك ما زلت على

دنسك. قالت وقد عرتها دهشة شديدة: إذن لقد رجعت فيما كاشفتنى به من عقيدتك؟ قال: كل ما عندى أننى موكل بتنفيذ الأوامر العليا التى تفرض علينا القوانين تقديسها.. وإذا لم تتدنس بنت أنات بلمس المدنسين فمن ذا الذى يتدنس؟ قالت: أتوسم فى هذا الرجل شرف النفس واستقامة الطبع رغم ما يتبادر إلى الذهن عند رؤيته من خمول الجاه وضعة القدر، ولكننى إذا أخطأت فى ظنى ولم أصب شاكلة الصواب بحدسى فإننى التمس من الآلهة التسعة أن يقيلوا عثرتى ويصفحوا عن زلتى. وعلى كل حال فلا يسعنى أن أصفه بغير صفات الورع والكرم وعزة النفس مادامت هى الصفات التى يتحلى بحلاها، ولكنك أنت أنت الذى كان بالأمس يزعم القدرة بكلمة على التطهير من الدنس مالى أراك الآن تعامل المحنط كما يعامل السفلة والأوشاب؟ أجاب: يرجع ما شهدته من انحراف عن خطتى الأولى أن عظيما من رجال الدين أمرنى -وأمره ضربة لازب- بالمحافظة على الأصول والتقاليد، إذ قال لى إن سلسلة هذه التقاليد قد سطا عليها مبرد الشكوك والبدع، وإننا إن لم نأخذ حذرنا فلا مفر من انقطاع السلسلة وسقوطها بصلصلة تصم الآذان وتلقى الهلع فى القلوب. قالت: معنى هذا أنك تحسبنى مدنسة حتى الآن لا لأننى أخطأت بدخولى فى بيت المدنسين بل لمجرد العمل بالنواميس الوضعية والتقاليد القديمة.. وبعد، فأجبنى إن كنت مازلت على ما عهدته فيك من الصراحة والإخلاص والنزاهة والميل إلى مجانبة الاعتقادات الباطلة.. أجبنى فإن فى جوابك راحتى وهناءتى أو تعبى وشقاوتى. فتنفس بنطاؤر الصعداء إذ شعر بضيق فى صدره دلّ على أن الشكوك أخذت تنتاب إيمانه ثم قال بصوت خافت أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً: أنتِ تزجين بى فى مأزق لا مخرج لى منه إذا صارحتك بما يدور بخلدى من أفكار وآراء خليق بى محوها من ذهنى وإزالة أثرها من عقيدتى. غير أنى أوثر

مخالفة الأوامر على معارضة الحقيقة وحجبها وإنما هى بنت الشمس التى أسموك باسمها (بنت أنات).. أوثرها مصارحاً إياك بأننى لا أدرى أكان المحنط مدنساً لذنب اجترمه آباؤه فيما غبر أم غير مدنس. لأن مركزى فى الكهنوت لا يؤهلنى للحكم فى أمر من الخطورة بمكان ما نراه الآن. إن كل ما أطلعت عليه من أحوال الرجل ويجوز لى الحكم عليه بمقتضاه أنه من ذوى الميول الشريفة والعواطف العالية التى تجعلهم أسرع ما يكون تأثراً بالعوامل الطارئة كما تتأثرين أنت وأتأثر أنا ويتأثر غيرنا على حد سواء. أرى لهذا أن ما شهدناه بأعيننا وأحست به قلوبنا فيما قضيناه من الوقت بذلك الوكر لا يلصق بنا ذرة من الدنس، بل ربما طهر قلوبنا من أدران الشكوك والريب. وإذا أخطأت الصواب فى هذا الاعتقاد فإنى أضرع إلى الآلهة الكثيرة الأسماء أن تقيل عثرتى وتصفح عن زلتى فإنها هى التى أوجدت المحنط من العدم كما أحدثتنا منه كذلك، معتقداً بوجود القوة الربانية الوحيدة التى تصعد إلى عرشها الأسمى آيات حمدى وثنائى فى البكور والآصال ، وبأن الكون وما حواه من بدائع المخلوقات وغرائب الكائنات ومن أحياء وناميات وجامدات ومن فرح وكدر صنع الله عز وجل الذي أتقن كل شىء.

وكان بنطاؤر فى هذه الأثناء يصعّد نظره فى السماء، فلما انتهى من المصارحة السابقة أطرق برأسه، فاشتبك نظره بنظر بنت أنات يتشعع فرحاً وسروراً، فصافحته بلهف، فلثم بنطاؤر طرف ثوبها شكراً لهذا العطف الملكى والرعاية العالية، فقالت له بلهجة شديدة: خل هذا عنك واعفنى منه إذ الأوفق أن تضع يدك بيدى لتعمنى بركاتك فإنك رجل صادق وبالحق ناطق، وشاركنى في الضراعة إلى الآلهة أن يطهروا أولئك المساكين من الدنس فإنه لا شىء فى الكون على سعة أرجائه وتباعد أطرافه أجمل من أن يرى المرء نظيره على الفطرة التى فطره الله عليها وألا

يـوصم بوصمـة عـار يزعم الـزاعمـون أنها سرت إلى الأبناء من أصـلاب الجدود والآباء. ثم أجالت النظر فيما حواليها فرأت بعاكر ونيفرت مقبلين من بعيد، فقالت: إنهما ينتظراننا فى أشعة الشمس المحرقـة فلنذهب إليهما. ثم سارت يتبعها الكاهن، فلم تمض فى الطـريق قليـلا حتى دارت على عقبها لتسأل بنطـاؤر عن اسمـه، فلما ذكره لها قالت: كيف .. أأنت إذن شاعر بيت سيتى؟ أجابها: هكذا يقولون.

وقفت بنت أنات عندئذ باهتة وصـوبت فيه النظر كما يفعل من يستثبت شخصاً لقيه لأول مـرة بالطريق عقب تعـرفه عليه، ثم قـالت: لقد فزت يـا بنطاؤر من نعم الآلهة بالنصيب الأجزل، وإنى أراك قد بلغت الغاية من الرأى الصائب وبعد النظر فى العواقب، وأجد فيك من قوة البيان وسماحة البـديهة وفصاحة اللهجة ما تصوّر به للأنظـار دقيق الأفكار، لذا أريـد أن اتخذك أصدق خليل وأرشد دليل. فـاحمر وجه بنطـاؤر حياء وقـال بصوت خـافت ، بينما كـان بعاكـر ونيفرت يتقـدمان حثيثـاً نـحوهما: كنت إلى هـذا اليوم من حياتى لا أرى حول عقيـدتى إلا الشك والتردد، أما الآن فقد انجلت الريب وحل محلها اليقين بنوره اللامع وشعاعه الساطع.

الفصل السابع

خيبة آمال

انتهت بنت أنات مع رجال حاشيتها -بعد فترة من الزمن- إلى بيت سيتى. وكان أحد رماحة الركب قد سبق إليه لإخطار رئيس الكهنة بقرب وصولها، فاستعد للقائها مع الكهان وما هى إلا دقائق معدودة حتى أقبل الركب تتقدمه الأميرة فى مركبتها ومن خلفها بنطاؤر وبعاكر فى محفة واحدة.

وكان الباب الكبير للهيكل مفتوحاً بحيث يرى النظارة من دونه ما يليه من فناء المذبح المبلط بالنهاء الصقيل تحيط به ثلاثة صفوف متوازية من الأعمدة الضخمة الراسية القواعد على أوطد الأساس وأمتنها فيبهرهم تناسق النقوش التى غطيت بها الجدران والأفاريز والأعمدة وتيجانها، وما جمعت من جمال التنميق وحسن البرقشة والتزويق، وفى وسط ذلك الفناء مذبح القرابين تحيط به المباخر المعدة لإحراق كرات الريفى (١) تسطع منها الروائح العطرية فتملأ بأريجها رحب المكان وتستدرج من يشمها إلى الإغفاء برهة من الزمان.

وكان بصحبة رئيس المنجمين مائة كاهن افرغت على أبدانهم ثياب ناصعة البياض واصطفوا على شكل هلال منتظم الاحديداب، استعداداً لاستقبال الأميرة بما يناسب معاليها الخطيرة. وكانوا لايفترون عن ترديد الأناشيد بصوت يملأ القلب

---

(١) الريفى بخور كان شائعا فى مصر، ولصناعته طرق مختلفة فى أوراق البردى التى اكتشفها ايبرس، وفي كتابات ديوسقوريدس وبلوتارك وجالينوس وغيرهم، وقد ركّب الصيدلى فوجت فى برلين بخور الريفى نقلا عن تلك الكتابات فوجد أن أحسنها ما أورد شرح تركيبه ديوسقوريدس، وهو يتركب من النبيذ وعنب كورانت والأسفالت والمصطكى والعسل واللادن.

أسى وحسرة، فاحتشد أخلاط الناس خلف تماثيل أبى الهول المواجه بعضها بعضاً على صفين متوازيين يفصلهما طريق يمر منه الزائرون بين ضفة النيل وباب الهيكل. ولقد لبثوا ساكنين ساكتين لايتساءلون عن نبأ هذا الاحتفال العظيم، لاعتيادهم شهود أمثاله فى كل آن ولأنهم لايهمهم منه سوى إثارة الأشجان بما يسمعون من شجى الألحان. وبعد قليل لاحت بنت أنات فى ركبها المنيف فلما دنت من هذا الجمع الحفيل رنت إلى جلالتها الأحداق وامتدت نحوها الأعناق وانطلق الكهنة يتغنون معاً «السلام على ابنة رعمسيس. العبادة لابنة الشمس بنت أنات». ثم أعادوا السلام على بدئه فكانت الآفاق تردد صداه آونة بعد أخرى. وظلوا كذلك حتى اجتازت الطريق المرصوف المحفوف من جانبيه بالتماثيل، ووقفت مركبتها تجاه باب الهيكل فركع الكهنة ركعة الاجلال وحياها المنجم الأعظم بالتحية اللائقة بهذا المقام. ثم ولى ظهره إليها وتحفز للدخول فاقتفت الأميرة أثره، ولكنها لم تمض بضع خطوات حتى اندفعت أصوات الكهان بما يصم الآذان من الألحان، فوقفت فى مكانها باهتة متخيلة إلا أنها لم تلبث أن استأنفت المسير فما كادت تخطو خطوة حتى التقت بأمينى عند عتبة الهيكل الأعظم مرتدياً ثيابه الكهنوتية التى ورد وصفها فى فصل سابق ومد إليها المحجن(١) كأنه همّ بأن يلكزها به وقال لها بصوت يلقى فى النفس الروع: إن وجود صاحبة العفة وربة التقوى وتاج الصون ابنة رعمسيس فى هذا الهيكل الأقدس لمن أجمل الإشارات إلى هطول البركات ووفور الخيرات، ولكن التقاليد الدينية صريحة النصوص فى وجوب إغلاق أبواب بيوت الآلهة فى وجوه الذين يلحقهم الدنس وتمسهم شوائب الرجس، لا فرق فى هذا بين العبد الحقير والأمير الخطير. فاستحلفك يا بنت أنات باسم القوة السماوية التى

(١) عصا الكهنوت

تستمدين منها وجودك الذاتي لتقولين لى الصـــدق فيما أنا سائلك عنه.. أأنت طاهرة أم مازلت ملوثة بأدناس المحنطين؟

قال هذا ووقف تجاه الأميرة يحد فيها بصره فأحفظها هذا القول وغاظها وكسر بالها فاحمر وجهها وطفق نهداها الرمـانيان يصعدان ويهبطان استنكاراً لمعاملة لا تليق بمكـانتها واستقـر في خلـدها أن الكـاهن الأعظم دبـر لها مكيدة للـوضـع من كرامتهـا فوطنت النفس على مفـاجأته بما لم يكن في حسـابه من القـول المقذع. ثم أنشـأت تتكلم، فحدّق أمينى فيها بعين الإرهاب والتهديـد وتربد وجهه تربداً تغيرت به بهجتـه وتنكرت بشاشته فأمسكـت عن الكلام. إلا أن هيبة منظره لم تـرعها إذ تجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن يرى بنت أنـات لا تقيم له وزنا ولا تـرعى له حـرمة واحتدمت فى نفســه نار الغيظ وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردى من خلال بشرته الصـافية الأديم. إلا أنه رأى أن يكظم هذا الغيظ ويأخذ بالأناة فى الأمر فأعاد السؤال الأول فى صيغة لطيفة الـديباجة ظاهـرة المعنى فقال: أعيد عليك سؤال الآلهة الـذين أنابونى عنهم فى بيتهم هذا بمجيئك إلى هنـا تبغين التطهر من الدنس الذى تلـوث به جثمانك وروحك؟ أجـابت بصوت جهير: سـوف أجاوبك على هـذا السؤال. قـال: إذا جاوب والدك عليه فإنما يجاوب الآلهة فقط، وإنى لآمرك يا بنت أنات أن تبرحى هذا المكان المقـدس الذى تلـوّث بأقذار وجـودك به. فـارتاعت بنت أنـات لهذا الكلام وقـالت: هـاأنذى مـاضية فى سبيلى. ثم دنت دنـوة من البـاب فإذا بها تبصر بنطاؤر واقفـاً مبهوتـاً ومرتاعاً، لأن مـا سمعه من أقوالها –وإن وافق اعتقـاده– ليس من الهنات الهيّنات، لاسيما وأن لأمينى من بسطة الجاه والنفوذ وقوة البطش ما تعنو له جباه الجبـابرة. ولقـد خرقـت الأميرة بثبات جأشهـا وقوة حجتهـا سيـاج هذا النفـوذ

فوضعت من قدر أميني في نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصته وأعوانه.

ولهذا ظل حينما انكفأت إلى قصرها يشيعها بنظره فيبصر بها وهي تومىء إلى بنطاؤر إيماءة لم يدرك معناها. وكان هذا الشاعر يحلق بفكره آنئذ في جوّ الخيال فانبهته الإيماءة من غفلته، فأخذ يرشقها بنظرات تشف عما في فؤاده من الهيام، فأيقن أميني أن بين الاثنين سراً لايفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق. فارتعد غيظاً وصوّت ببنت أنات أن تقف وأن تصغى إليه، ففعلت ناظرة إياه بعين المستفهم عن سبب استرجاعه إياها، وهي ماضية في طريقها. فقال: أنت يا بنت أنات تظاهرين الآلهة بالعداوة والتعدى . والمتبادر إلى الفهم أنه لم يزين لك هذه الغواية ويتركك في هذه العماية إلا حليف لك هو الآن بمرأى منك ومسمع. لهذا أنذرك أيتها الفتاة الجامحة في الضلالة بأن الآلهة لا تتجاوز عن ذنبك إلا إذا رجعت إليهم بحسن التوبة. ثم صعد نظره في بنطاؤر وأومأ إليه بسباته قائلا: أما أنت أيها الكاهن الذى تمادى في البهتان وخضع لوساوس الشيطان فعبثاً تطمح إلى استدرار غيوث المكارم الربانية والفوز بالمغفرة الإلهية، فلقد أصررت على الباطل والبهتان ونكثت العهود وحنثت في الإيمان. ومع أن الآلهة قد أجزلت لك المواهب وأغدقت لك العطاء، من ذكاء متوقد وخاطر سريع ،فسنعاملك بالحرمان من هذا العهد ونبعدك إلى أقصى مكان، مشيعاً بالخزى واللعنة من كل إنسان.

فرفعت بنت أنات رأسها وصوّبت نظرها إلى أميني وصعدته فيه ثم التفتت إلى بنطاؤر وكان راقفاً تجاهها فرأته ساكن الجأش مطمئن النفس، وقد أخذ يتقدم نحوها بقدم ثابتة. ففهمت أنه يبغى تبرئة نفسه مما عزاه الكاهن الأعظم إليه

وخشيت أن تفـرط منه كلمـة تخشى عاقبتهـا أو تـزل قدمـه فى هفوة يعسر عليـه النهوض منها، فتقدمت نحو أمينى وابتدرته بقولها: إننى وحدى الجانية على نفسى بما تعمدته من الدخول فى وجـار المدنسين. ولا يد لهذا البرىء الساحة من كل ذنب، الطاهر النفس من كل عيب فيما اجترحته من الآثام.. كلا بل إنه أكثر من نصحى أن أتجنب الدنس فلم تبلغنى العظة، وزجرنى فلم يعمل الـزجر فى نفسى. وهاأنذى قد جئتك مستمحة العفـو، فأقلنى من عثرتى وامح ما بى من الرجس الـذى حال دون دخولى فى هذا المكان الأقدس.

لم تتم الأميرة هذه الكلم حتى تهلل وجه أمينى بشراً وسروراً وشملهـا بمظاهر عطفه، إذ بارك فيها بإمرار يده على رأسها، ثم سار بها فى داخل الهيكل حتى وصل إلى قدس الأقداس حيث غمس شعرها الفاحـم فى الزيوت التسعة، بينما كانت رائحة البخور تسطع من حـولها. وأذن لها بعد ذلك بالعودة إلى قصر الملك أبيهـا ذاكراً لها أنها لم تبرأ تماماً من الخطيئة وأنه لسوف يـرشدها إلى ما يجب اداؤه من الصلوات وتقديمه من القرابين لتخلـص خلوصاً تاماً من شوائب الدنس، ووعـدها بأن يرفـع هذا الأمر إلى مقام الآلهة حتى إذا تلقى أوامرهم فيه بادر بإبلاغها إليها. وقعت هذه الحوادث والكهنة عـاكفون على ترديد الأنـاشيد والناس فى خارج الهيكل يـذهبون مذاهب شتى فى تأويل أسباب هذا الاحتفال، وينتظرون خروج الأميرة للوقوف على جلية الخبر، لاسيما وأن الشمس كانت فى تطفيلها وأن السـاعة قد أزفت للرحيل من مواطن الأمـوات. ومما جـرى على لسان بعض من كـان يهمهم استراق الأخبار أن جماعة الكهـان ضربوا على بنت أنـات اللعنة والحرمـان لزيارتها وردة التـى فاقت فتيات طيبة بالحسن والجمال.

وكـان سواد أولئك الـذين يتنسمون الأخبـار من العامـة وأفناء النـاس كالصنـاع والمحنطين، فلما وقذوا عليهـا هاجوا ومـاجوا وانقسمـوا شيعاً وأحزابـاً وتخاذلوا كتخاذلهم الذى أفضى فى عهـد استيلاء الأجانب على بلادهم إلى التنـاحر، ثم أنحوا باللائمة على الكهنة لاستبدادهم وعسفهم فى مناصبهم التى تستدعى ملاينة الناس والرفق بهم وانتقلوا من ذلك إلى الطعن فى القوانين والتقاليد المأثورة، ذاهبين إلى أنها تخالف ضرورات العصر ورموا القائمين عليها بالظلم والإجحاف.

وكان فى المتظاهرين جندى باسل لعبت الخمـر بعقله فتناول حجراً رمى به باب الهيكل، ففعل الأطفـال فعلته وتحفـز الـرجال للقتـال. وكـانت الحمية قـد دبت فى نفوسهم بتحـريض النساء اللائى سـاءهن الاستهانة بمقام الأميرة. وكـان الكهان دائبين فى أثناء ذلك على ترديد الأناشيد الـدينية، ولكن علت صيحات المتظاهرين على أصواتهم فلم يعـد أحد يسمعهـا. وما هى إلا فترة قصيرة من الـزمن حتى انشقت الأبواب وبرز منهـا أمينى بملابسه المحلاة بـالوشى متثاقل الخطـوات متهاديا فى مشيته تحف بـه الهيبة والـوقار. وجـاء فى أثره عشرون كـاهناً يحملـون الرمـوز المقدسة والتماثيل الإلهية فلم يلبث السكون أن نشر جناحيه على المتظاهرين. فثابوا على الفو ر إلى السكينـة ولزموا حـدود الأدب، فوقف أمينى وقـال بصوت جهير: لِمَ تفسدون علينا الأمـور وتمنعوننا من إقامة الصلـوات ؟ فما فاه بهذا السؤال حتى طرقت المسـامع ضجة دلت على اختـلاف السامعين فى الإجـابة عليـه والإعراب عن مكنـون ضمائرهـم إذ أصر البعض على وجـوب المضى فى المظـاهرة، وفـاه بألفـاظ الوعيد والتهديد وارتاع البعض الآخر لمنظر الكهان فصلى مع المصلين عملا بأوامر الدين. وكان اسم بنت أنات يسمع خـلال ذلك ألوفاً من المرات، فلما انتهى القوم من ضوضـائهم صاح بهم أمينى: تـراجعوا يا قـوم عن مواقفكم وتنحـوا عن أماكنكم

لبنت أنات سليلة الملوك العظام! فلقد قصدت الأميرة هذا المقام الأقدس لتسجد أمام الآلهة ملتمسة منهم ما فاتها من الطهارة بخروجها على القوانين والتقاليد.. فطوبى للأتقياء المتمسكين بعروة الدين وسحقاً للأشقياء الكافرين! اسجدوا أيها الناس ثم أبسطوا أكف الابتهال إلى المولى المتعال أن يهطل عليكم غيوث العفو عن سيئاتكم ويبارك فيكم وفى أولادكم من بعدكم. وأمر بعد هذه الخطبة القصيرة أن يقدموا إليه آلة الخشخشة المقدسة (١) فلما تناولها أومأ بها إلى السماء فانطلق الكهان يترنمون بنشيد دينى استهوى السامعين فاطرقوا بالرؤوس صامتين، فقال أمينى: إن القوة الإلهية باركت فيكم فاهرعوا إلى منازلكم وافسحوا للأميرة المكان لتعود إلى قصرها فى أقرب آن. قال هذا ودخل الهيكل فأخذ الحراس يفرقون الجموع فى طريق أقيمت على عطفية التماثيل واعتلت بنت أنات مركبتها، فقال لها أمينى وقد اجتازت عتبة الباب: اعلمى يا بنت أنات أن القصور الباذخة التى شادها والدك على أجمل الأنماط إنما قامت على أعناق أفراد الأمة المصرية. فإذا فككت عرى التقاليد القديمة التى تربط هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض فلا مناص من التخاذل والتدابر وكلاهما مفض إلى تداعى تلك الجدران وسقوط تلك الأركان.

قال هذا ثم توارى عن الأنظار فأخذت بنت أنات تسوى أعنة الجياد. وإنها لكذلك إذ لمحت بنطاور مستنداً إلى عمود الباب يرشقها بنظرات الهائم الولهان، فألقت السوط الذى بيدها، كما لو سقط منها بلا عمد وأرادت بهذه الحركة لفت نظره واستنفاره لالتقاطه ورفعه إليها، غير أنه لم يكن التفت إلى هذه الحيلة

(١) آلة الخشخشة كانت شائعة عند قدماء المصريين فى حفلاتهم الدينية وهى على مثال اللعبة المعروفة بالشخشيخة الشائعة الاستعمال بين أطفال العصر الحاضر، غير أن هذه تختلف عن القديمة فى كيفية التركيب، وإن اتحدت معها فى الغاية المقصودة من حيث إحداث الصوت المعهود فيها.

فأشارت إلى أحـد الاتباع فالتقط السوط وقـدمه إليها وتحرك الركب رويـداً رويداً حتى غاب عن العيان.

أما بنطـاؤر فكان لايزال مشرد الفكـر، وقد لبث فى مكـانه كمن أخذتـه الصيحة حتى طـرق سمعه رنين الطبل النحاسـى المؤذن باجتماع الطلاب لتلقـى الدروس، حيئذ اعتدل فى وقفته ومـرّ بيده على قلبه وجبهته كمن يقوم من نومـه وقد نسى ما رأه من لذيذ الأحـلام فأخذ يستجمع شتاتها من هناك وثمّ . ثم هرول قـاصداً فناء الهيكل المعد للتدريس فوجد الطلاب متربعين به بعضهم لصق بعض، فى شكل حلقة كاملـة متأهبين لتلقى درس البيان على أستاذهم بنطـاؤر المشار إليه بـالبنان. فلما وقف فى بهرة الحلقة لينثـر عليهم درر لفظه لحقـه عىّ وحصر، لأن عقله لم يكن فى هـذه الآونة حـاضراً بل طـائراً وراء قلبه الـذى سلبتـه بنت أنـات بجمالها الباهـر وشبابها النضير الزاهر. ولقد كان فى هيامه بها غافلا عن بون ما بينه وبينها حسباً ونسباً، ولو لم يغفل عن إدراك هـذا الفرق لما طوح بنفسه فى هذا التيـار، ولكنه كان من جهة أخرى يعتقد أنه من كرم المحتد وطيب العنصر بحيث يجيز لنفسه الطموح إلى الرتب الشريفـة والمقامات العاليـة، وأن يكون فى طليعة العـظماء بل من صفوة الأمراء. وكـان هذا الاعتقـاد يزداد رسوخـاً فى نفسه كلما فكـر في بنت أنات وتمثل وجهها الجميل وقـدها الأثيل وود لـو تكون لـه أجنحة فيطير إليهـا ليقصر محبته عليها.

تلك كانت حـالة بنطاؤر عندمـا تأهب لإلقاء درس البيان على الطـلاب، ولكنه لم ينشب أن أدرك من امتـداد أعناقهم إليـه وتحويم أنظارهم عليـه أنه فى غير مـوطن

العشق والهيام. فبادر بنشر ملف من ورق البردى قدمه إليه (أنانا) أمهر تلاميذه. وكان فى اليوم السالف قد وعدهم بتفسير ما تضمنه من الحقائق الفلسفية، وما إليها من الحكم البالغة التى تقصر عن إدراكها أفهامهم ، فتطامن إلى الجدار وأطال التأمل فى الورق فلم يستطع فهم شىء مما احتواه، إذ أشكلت عليه الحروف واستعجمت الكلمات فلم تتيسر له تلاوتها. ولطالما أجهد الذاكرة ليلمّ بماهية الدرس الذى وعد بتفسيره فلم يحضره شىء من حوادث الماضى وظل متحيراً ساعة كان الطلبة فى أثنائها يتغامزون ويتهامسون لتبين سر ما أصاب أستاذهم من العى والاستغلاق حتى تعذر عليه الكلام، على خلاف ما يعهدونه فيه من ذلاقة اللسان وفصاحة البيان. ولاح لأنانا أن أستاذه يضغط على ورق البردى ضغطاً كاد يفتت أجزاءه وكان لا يستطيع إنباهه إلى ذلك خيفة أن يكون متفرغاً لاستجماع شتات موضوع الدرس فى ذهنه فيكون تدخله داعية لنفور شوارد الموضوع واستغلاقه عليه، ولهذا أمسك عن الكلام. ووقع نظر بنطاؤر آنئذ على اسم الملك منقوشاً فى الجدار المقابل له ومشفوعاً بكلمتى (الإله الرحيم) فتذكر الموضوع فى الحال وانصرف إلى تلاميذه متهلل الوجه بشراً واغتباطاً وقال لهم: بم تعرفون الرحمة الإلهية؟ قفوا جميعاً على أقدامكم ، وليسرد كل منكم سوانح فكره فى هذا الموضوع. فقام الطلاب جميعاً وأخذوا يشرحون- بعضهم تلو بعض-ما عنّ لهم من الآراء والأفكار، فمنهم من أصاب الشاكلة فأحسن وأجاد ومنهم من أخطأها فخلط وهذى أما أنانا التلميذ الأول فقد استرسل فى وصف الخليقة بكلمات رشيقة ومعانى دقيقة، وسرد ما حوته من غرائب المخلوقات وعجائب الكائنات الحية

والنامية والجامدة، وانتقل من هذا الوصف البديع إلى بيان العلاقة بين الألوهية والخليقة على اختلاف منشائها وتعدد مظاهرها، وأنها تشير إلى رحمة آمون ورع وفتاح (١) وشفقة بقية الآلهة.

وكان بنطاؤر ينصت لأقوال تلميذه معجباً بها واتخذها تكأة له فى تفسير درسه فشرح ما جال بخاطره من الأفكار وسنح له من الآراء . وأفاض فى ذلك بكلام سهل المخرج مطرد السياق، حتى خلب الأسماع وبهر العقول. وقد أبان عزة شأن الخليقة وما حوته من بدائع الكائنات واتحاد الجسم بالقوى العقلية، وذهب فى هذا الباب كل مذهب إلى أن قال فى ختام الدرس: «إن الأرض التى هبطناها بقضاء الله قدره لنمشى فى مناكبها ونأكل من رزقها أحسن مقام للإنسان فى الحياة الدنيا، وهى بما حوته من الكائنات الحية والنامية والجامدة دليل على وجود الإله القادر المبدع، وأن فى كل كائن أثراً واضحاً ثابتاً يثبت استمداده الحياة من إمداد ذى الوجود السرمدى وسعة رحمته تعالى، وأنه موجود فى كل مكان، فأينما صرف

(١) آمون إله طيبة، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنهم لم يطردوا العمالقة من وادى النيل إلا بمعونته. وقد أضافوا صورته إلى صورة (رع) إله هيلوبوليس فاتحدت فيه بذلك صفات كل الآلهة. ولذا جردوا طبيعته من شوائب المادة ونسبوا إليه الصفات الروحانية فقررت الأسرة الرعمسيسة تلقين طلبة المدارس بأنه العقل المدبر لكل شىء فى العالم، وأنه فى آن واحد زوج والدته ووالد نفسه وابن نفسه وأنه المودع للروح والعقل فى الكائنات الحية، وأنه الدرة الخفية القابضة على ميزان العقل والمجزى على الحسنة والسيئة– أما فتاح فكان فى اعتقادهم الإله القديم الواضع لمبدأ الخليقة والقائم بتنظيمها، وكان يحيط به دائما السنيمو السبعة أى المهندسون المكلفون بتنفيذ ارادته، وكان يلقب بصاحب الحقيقة وخالق عنصر الضوء وخالق الثلج والفاتح له، لأنه فلق الثلج فخرجت منه الشمس والقمر. وكانت مدينة منفيس مقر عبادته.

الإنسان وجهــه وجده وكان دليلــه ورائده». واسترسل مخاطباً الطلبــة بعد ذلك إذ قال : «فــابحثوا إذن عنــه أيها الطلبة، فإذا اهتديتــم إليه فخرّوا لــه سجداً وكــونوا لنعمته من الشــاكرين. ولاتقصروا شكركم لــه على ما برأ من مخلوقات، بل اشكروا له عز وجل مــا أولاكم به من نعمة القــدرة على إدراك كنهها ومعرفة حقــائقها بما خصكم به من العقل والتمييز. وإنما أنتم الآن تجاه أكمة عــالية فاصعدوا فيها حتى إذا تسنمتم ذراها العــالية فسرحوا الطــرف فيما حواليكم إلى أقصى مــرامى النظر تجدوا الشمس فى الأصيل وقد أضرمت أشعتها الآفــاق بلهب من العقيق. ثم ارمقوا هذه الآفــاق إذا نضّ النهار جيده فسترونها وقــد اكتست بطيلسان أصفــر وارقبوا الكواكب الســاطعة والنجوم الثــاقبة فى فحمة الليل الهادىء، وقــد خطت على بساط اللازوردى أفــلاكها الاهليلجية المنتظمــة التى لا تكف عن مواصلة السير فيهــا منذ الأزل، وابصروا بــالطفل فى مهــده والأزهــار وقـــد تفتقت عنهــا الأكمام بأطــراف الأغصان، وتأملوا كيف تحنو الأم على وليدها وكيف تتكلل الأزهار بالندى، تجدوا لكل من هذه المظــاهر الرائعــة حدّا يقف عنه ولن يتجــاوزه إلى ما بعده. أمــا الرحمة الإلهية فكــالآفاق لا حد لها على الإطــلاق، وكالبحار بعيــدة القرار، لكن أدريتم أين يسطع شذا هذه الرحمة وعلى من تغدق المواهــب اللدنية؟ الرحمة والمواهب هذه إنما تفيض على قلوبكم إذا طهــر عنصرها وشرف جوهرها وامتــلأت بالحب، لأن القلب المحب الرحيم مرآة تتجلى الطبيعة فيها بأحسن ديباجة وأظهر رونق، فلولا القلب لما ابتسم ثغر الطفل فى مهده ولاتفتحت الورود فى أكمامها بل لولاه لتضعضعت أركان الأيمان وكدر صفــاء العواطــف والوجدان وانحلــت عرى التقــوى والإحسان، ولما

نزعت النفوس إلى الإله الواجب الـوجود ولجأت إلى حظيرة قدسه تخلصاً من أكدار المادة وظلمات العوالم السفلى. هو الإله الـذى تعجز الألسنة عن وصف ذاته وتحار الأفهام فى معرفـة كنهه وتحديد صفاته. هـو الإله الذى لا إله إلا هو، هـو الإله الذى إليـه تضرع الآلهة التسعـة العظمى وتبسط الأكف إلى مقـامـه الأسنى كما يمـدّ المستجدى يده التماس البرّ من المنعم الجزيل الإحسان».

وما أتم بنطاؤر هذا البيان حتى طرق الآذان دوى الطبل النحاسى المؤذن بختام الدرس فأمسك عن الكلام. ولبث الطلاب سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذهم الروع واعترتهم الـدهشة لطلاوة الـدرس وحلاوة ما تضمنـه من الأفكار، فتركهم تحت هذا التأثير اللطيف وقصد إلى حديقة الهيكل فى طلب الـراحة والعزلة. إلا أنه ما كاد يبلغ إلى بـاب الهيكل حتى أحسّ بيد قد هوت على كتفـه فتأمل فإذا بها يد أمينى الذى أراد بهذه الحركة أن يستوقفه ، فلما وقف باهتـاً قال له: لقد خلبت يا بنطاؤر ألباب الطلبة ببيـانك وجذبت قلوبهم بفصاحة لسـانك! فكان لهذه الملاحظة فى نفس بنطاؤر تأثير الثلج فى المحموم إذا وضع على صدره لأنه كـان عالما بأساليب الكاهن الأعظم في التوبيخ وأنه يصبه عادة فى قالب التحبيذ والمدح وهو إنما يريد به التأنيب والقدح. وعلى هـذه الطريقـة واصل حديثـه إذ قال: الحق أحق بأن يتبع.. لقـد كنت ثملا بخمرة العشق والهيام فوقفت بين التلاميذ لتلقى عليهم الدرس فنسيت ما كان يجب أن تتصدى له بحكم وظيفتك ففتحت أبواباً كان ينبغى أن تبقى مغلقة وجهرت من الحقـائق الفلسفية والـدينية بما لا يصـح أن تهبط به إلى مـدارك طلبة العلـوم الأولية! وهل ذهب عنك أنك أقسمت بالإيمان المغلظة أن تحرص على الأسرار، فكيف بـذلتها الآن على مـلأ من الصغـار؟ وعرضـت سلعتها فى سـوق الابتـذال يرمقهـا

الخاصة والعـامة على السواء، وهى فخـر الكهنة وشرفهم وشارتهم القـدسية التى ليس لغيرهم أن يطمح إلى التحلى بها؟. أجاب بنطـاؤر: لقد وقع تعـزيرك من نفسى مـوقع السيف المرهف من العنق، ولكن رب ملـوم لا ذنب لـه. قال أمينى: ليت هـذا السيف قد بلغ منك إلى ما بين الجنبين ليستأصل من قلبك جذور الفساد التى أخذت منه مغـرساً عميقـاً.. إنك وإن تكن فى فتاء السن فلست أشبهك بـالعود اللـدن الذى يسهل تقويمـه أو الشجرة المبـاركة التى تـؤتى أكلها كل حين، بل أشبهك بـالعود اليابس المعـوجّ والشجرة الفجة الثمر التى يغتر الأطفال بنضرتها فـإذا تسابقوا إلى اقتطاف ثمرها ذاقوا منه السم الزعـاف.. ومع كل هذه الهنات رضيت أنا وجاجابو ببقائك فى هذا الهيكل ولم نذهب إلى ما ذهب إليه بـاقى الكهنة الذين استرابوا بذمتك وقرروا مقاطعتك والبعد عنك. وكان ممـا زادنا ثقة بك أنك أقسمت بالأيمان المغلظة ألا تكاشف أحداً بأسرارنـا، ولكنا لم ننشب أن رأيناك جامحاً فى غـوايتك ومعرضاً عنـا بجـانبك ومقبـلا على احترام مـا يخالف حسن ظننـا فيك، فإنك مـا كـدت تتم الدراسـة وتتدرج فى صفـوف الكهنة والأسـاتذة حتى مـددت يدك فهتكـت أستار الأسرار وطوحت بنفسك فى تيار الزندقة والإلحاد. قال بنطاؤر: كفى لوما وتعنيفاً! إنك أن تحسب صنعى جهـلا فخير لى الجمـوح فى غـوايتى واللجـاج فى ضـلالتى، ونعمت الضلالة إذا وافقت الحقيقـة وطابقت العدالة. قـال الكاهن الأعظم: صه أيها الـزنديق الـزائغ عن محجة الطـريق! ألا تعلم أن العـدل لا يُلتمس إلا من القانـون، والقانون يحرّم إفشاء السر المكنون؟ لقد فهمت الآن الحقيقة، فما تعنى بها يا أشقى الخليقة؟ قال بنطاؤر: الحقيقة التى انطلق بها لسانى هى التى لم يجرؤ أحد من قبلى

على الجهر بها بعد استجلاء مظاهرها.. إنى لم أر وراء ستار الأسرار ما يدل على اشتقاق الروح من الذات الخفية المدبرة لشؤون البرية ولا على قيامها بجزء من الحكمة الألهية. ومتى بدت هذه الحقيقة فى الإنسان بمظهرها الجلى.. فقاطعه أمينى بقوله: نعم! نعم! إنه ليهون على مثلك يا بنطاؤر أن تسمى نزعات نفسك الأمارة بالسوء بمظهر الإمدادات السماوية والحكمة الألهية!! قال بنطاؤر: ألا يحيط علم هذا الإله الذى وسع كل شىء بإرادته الغالبة وقوته القاهرة اللتين تستمد منهما إرادتك وقوتك كسائر الناس سواء بسواء؟ قال أمينى وقد روعه ما طرق سمعه: إن يفهم عامة الناس معاني هذه الأقوال فلا عجب إذا مدّوا إليك الأعناق وقصدوا إليك من سائر الآفاق، وأقام كل منهم فى نفسه عرشاً لعقيدة خاصة يكل إليها الهيمنة على إرادته وتصرفاته ثم يزعم أن الإله يوحى إليه بما يجب عليه من قول أوفعل! وإنى لأرى -وملء فؤادى الأسف- أن القوانين قد لعبت بها الأغراض وهتكت حرمتها الغايات وعصف الجهل بما احتوته من أصول العدل. قال بنطاؤر: أنا واحد من قليلين اطلعوا على الحقيقة فاهتدوا بهديها واستضاءوا بضوئها الذى لاح للعامة فبهر أبصارهم وخلب عقولهم. قال أمينى: وبه بهرت أبصار تلاميذنا إذ أرسلت أشعته إليهم فنفذت إلى قلوبهم! قال بنطاؤر: نعم، هكذا فعلت لأجعلهم أهلاً لصون الأسرار من عبث الأغيار. قال أمينى: وهل تثق بهم لو أفضيت إليهم بأسرار قلبك الثمل بخمرة العشق؟ قال بنطاؤر: دعنا من هذا الكلام يا أمينى. قال الكاهن الأعظم: طاعتك لى فرض محتوم عليك لأننى أستاذك وإلىّ يرجع حق عقابك على مخالفتك أصولا كان يجب أن تعلو على شهوات النفس. ألا تدرى أن من الواجب على من

يحيط بالأسرار الدينية أن يرضخ للـدين ويعمل بأوامره ونواهيه، فلِمَ تهمل القيام بهذا الواجب المقدس؟ أما وليتك الود الخالـص مذ كنت طفلا إلى أن بان عذارك؟ ألم استودعك أمانيَّ التى مازلت أعتقد أنها فى حـرز حريز؟ خذ للسفر عدتك ولا تطلعن عليك شمس الغد إلا وأنت آخذ سبيلك إلى هيكل (حاتاسو) ، فإن ما تعمدت الزلل به من فاحش الأغلاظ والتخبط فيه من واضح البهتان قد استوجب عزلك من مناصب التدريس السامية ونقلك إلى رئاسـة كهان ذلك الهيكل، وأرجو أن تكسبك التجارب فيـه حكمة فيعلـو مقـامك بين العدو والصـديق. وعليك بلقـائى قبل بزوغ كـوكب سوتيس (١) لأزودك النصائح اللازمة، ثم إنى أسـألك الاستمداد بعون الله على أداء مهمتك والتوجه إليـه تعالى فى قضاء حاجتك، وأن تصعـد كل يوم إلى سطح الـهيكل للسلام على الشمس عنـد بزوعها. وسأضرع إلى مجيب الدعـاء أن ينقش فى صدرك أصول الدين ويرشدك إلى الحق بنور اليقين....

ما فاه أمينى بهذه الأوامر والزواجـر حتى انكفأ عائداً إلى مخدعه وأخذ يتمشى فيه سبهلـلا ليسكن اضطرابه ويسرى الهم عن نفسـه. وكان بالقرب منـه منضدة صـغيرة عليها مرآة من الصلب المصقول، فتناولها بعد أن تراءى فيها هنيهة طرحها في مكانها، وقد تربـد وجهه كأنه تحقق من دمامة صـورتـه وقبح هيئته. ولعله علل ذلك بتسلط الغضب والحدة عليه وبتواتر المباغتـات فى ذلك اليوم، حتى لقد زعزعت ثقته بالرجال وحملته على إساءة الظن بهم فى كل حال.

(١) هـو الشعرى اليمانيـة أو كوكب الكلب، وكـان يسمى عنـد قدمـاء المصريين بكوكب ايـزيس المقدس، وكانوا يتخذونه قاعدة للحساب الفلكى لأن مجراه فى فلكه يعدل السنة الشمسية الفلكية.

ومما برح بـه وزاده هموما وأتراحا أن تلك الثقة أدت بـه إلى الزلل والسقوط في مهاوى الخطأ والخطل، حينما عـامل بالجفـاء والشدة ابنة رعمسيس رغم مـا كان كهنة طيبـة ينبهونه إليه من كـرم سجاياها وطهـارة ذيلها وشدة رفقها بـالفقراء والبائسين. وكان يراجع نفسه بهواجس كثيرة لتســويغ خطته منها أن مخالفة بنت أنات لقواعد الدين وزيغها بذلك عن الطريق القـويم فرصة أتاحتها المصادفة لتأييد نفوذه وتوطيد شوكته فإنه اضطرها إلى المثول بين يديه في موقف الاستكانة والذلة وكل ما أخـذه على نفسه مسارعتـه إلى تطبيق العقوبة عليهـا وأنه كان خليقـاً به أن ينظرها إلى حين. ولكنـه لم يلبث أن التمس لنفسه المعاذير بقولـه إن الذى حمله على الظهور بمظهر الشدة هو الخوف على الكاهن بنطـاؤر أن تزل به القدم وأن يقع بعد في مهواة الندم، ثم التبرم بتماديها في العصيان وتبجحها أمامه بالباطل والبهتان.

وكأن الكاهن الأعظم حينما أمر بنطاؤر بتعزيـر بنت أنات على ماسولته نفسـها لها من انتهاك الحرمات يريد استفزازه إلى صعود درج المعالى بمعاملة أمراء الأرض وعظمائها كعامـة الناس، إذ كان يعتقد أن نظام الهيئة الاجتماعيـة يتوقف على بقاء أزمة الحكم في قبضة الطائفـة الكهنوتية. وكان لإصابة هــذا الغرض يرشح الأكفاء من رجاله للمناصب الدينية التى تكون المعاملات فيها دائرة مع سراة الأمة وأعضاء أسرتها الملكية، ليلقوا الروع في قلوبهم ويقعوا موقع الاحترام في نفوسهم. ثم أطرق هنيهة وقال متابعاً حديثه الأول لنفسه: نعم لابد من البلوغ إلى هذه الغاية التى ليس من ورائها مـذهب لذى همة ، ولا مفـر منه حتى لايـرفع العظماء والأمراء عقيرتهم على الكهنة وحتى لايكونوا في معاملتهم إيـاهم بالصلف والخيلاء أزهى من الديكة.

أما بنطـاؤر فلا حق له فى أن يصبـو إلى هذه الغـاية الجليلة والمقصـد الشريف، لأنه مازال فى عنفوان الشبـاب، ولو شب على هذه المبادىء لانتقشـت فى صحيفة صدره ولست أنسى عجزه فيما مضى عن مقاومة الشهوات النفسية وقصوره عن مغالبة النزعات الغرامية، ولكنه إذا أقام فى هيكل حاتاسو وترأس فيه على رهط من الكهان والمبخرين ورجال القـرابين تولدت فى نفسه محبـة الرئاسة فينبذ وراءه ظهـريا ما ينتحله الآن من رقـة الحاشية وعطف الفـؤاد ويتعذر على الغـانيات استهـواء قلبه برشاقة القدود وورد الخدود. وأهم من هذا أنه -وهو فى مركزه الجديد- سيروض نفسه على الطاعـة لاسيما إذا دفعت نزعات الحسد والشر أحـد الكهان إلى رفع لواء العصيان، فإنه يحس وقتئذ بما يحق لكل رئيس على مـرؤوسيه من واجب الطاعة. وربما اضطـر إلى التذرع بسـلاح الشـدة والعنف لإظهـار كلمته وتحصين نفسـه ومركزه من حملات العصاة ومباغتات المتمردين فيكون منهم معه مثل ما كان منه معى حينما استظهر بالمعصيـة على الطاعة وبالفرقة عن الجماعـة فلقد قضت سنة هذا الكون: (أن من شبَّ على العصيان كان مآله إلى الاستبداد والطغيان). ولقد لاح لى من فعال هـذا الشاعر أن فـؤاده الشفاف الخالص من شوائب الغـرض قد افتتن بحب بنت أنات وحقا فإنى لا أرى بمصر غـادة -ولو فازت من الجمال الفاتن بأوفى نصيب- لايذوب قلبها هياما ببنطاؤر الـذى يشبه بحسن ذاته وكمال صفاته (رع هرماكيس) وتنتثر من فيه درر ألفاظ تيشوتى [1]. أما الآن وقد بعدت الدار وشط المزار فقد أصبح مستحيلا على بنت أنات أن تخامر شاعرنا بلحاظها الفاتنات.

(١) هـو توث هـرمس (انظر كتاب مـاسبيرو في تاريخ أمم الشرق القـديم صفحة ٤٨ من الطبعة الثانية).

قال هذا وأسرع فى مشيته وباعد فى خطوته، وظل هكذا زمنا ثم قال: ما أغرب هذا الاتفاق! لقد دخل هذا المعهد فتيان امتازا بحدة الذكاء وصفاء القريحة وفاقا الأقران فى ميادين المساجلة والامتحـان كما تفوق ذرى النخل حشائش الأرض، فشملتهما بعنايتى وقصرت عليهما رعايتى ووددت يومـا أن يكونا لى خليفتين من بعدى، غير أنهما ارتكبا مـن الأعمال ما خيب فيهما الآمـال. أما الأول وهـو ميسو [1] فقد ولى الأدبار واقتدى بـه الثانى وهو بنطاؤر ولم يخش هذا العار! مـا سبب ذلك يا ترى؟ أأسأت إليهما؟.. أم ذا جزاء عطفى عليهما ورفعى من شأنهما؟ ألم يجدا فيما عهدته بهما من الأعمال ما يؤيد مـذهبهما ويكفل لهما تحقيق الآمال؟ لقد ران على قلبيهما الزهو والغرور فظنا أنهما أرفع عباد اللـه شأناً وأسماهم مكاناً، وجرد كلاهما من نفسه عـالما التمسا فيه رضى الأهواء والشهـوات والمضى فى تيار المصالح الـذاتية والغـايات.. ظنـاً أنهما إن تخلفا عن النـاس لحقت بهما الإهانـة والضعة وتبـددت أمانيهما التى تعبدت قلبيهما بـالوهم الفاسد والخيالات المستحيلـة، فشعرا بلذة لم تلبث أن تلاها غم وانقباض.. إلا أن مكانتى فى الهيئة الاجتماعية لتدعونى إلى الثبات والاستمرار فى مخالطة الناس حتى يهتدوا بهديى ويعشوا على نور معارفى الدينية، وأن أكـون لهم كالماء الـدافق من ينـابيع جبل لبنـان، يقطع المسـافـات الطويلـة فى مساربه وقنواته، فإذا ما خالطت مياه الأنهار الكبرى أكسبتها لونها وطعمها.

أمسك أمينى هنـا عن مناجـاة نفسـه بهذه الهواجس واستدعى كـاتب الهيكل،

---

(١) اسم موسى عليـه السلام، الذى كان معـاصرا رعمسيس الثانى. وفى عهد خلفه كـان خروج العبرانيين من مصر.

وهوأحد الكهنة الملقبين بالآباء المقدسين، وقال له: اكتب رسالة إلى الكهان جميعاً أن أقيموا الصلـوات لتطيهر بنت أنات مما لـوثها من الدنس بخروجها عن أفق أوامر الدين ونواهيـه.. إنما .. ناولنى القلم والقرطاس والمحبرة، فإنـى أفضل تحرير هذا المنشور بنفسى. فوافاه الكاتب بأدوات التحرير والتحبير، ثم تراجع إلى أحد أركان المخدع، بينما كـان أمينى يخاطب نفسه بقولـه: إن السطور التى سيرقشها يراعى الآن ستكون عنوان حرب عوان يشيب لهولها الولدان!!

الفصل الثامن

عادات داخلية وأحوال منزلية

طلع بدر السماء على طيبة الأحياء، فبهر الناظر بسنائه الباهر، وكشف ما امتازت به من الحركة والحياة على طيبة الأموات. هنا لما مالت الشمس إلى المغيب وانتهى الكهنة من ترديد أناشيد المساء، ضرب السكون فسطاطه ونشر الهدوء أعلامه. وهناك كان بدء الحركة والانتقال ، لأنه بمغيب الشمس زالت الحرارة الشديدة وأعقبتها البرودة، فخرج الأهلون زرافات ووحداناً للرياضة وترويح النفوس. فمنهم من سار فى الطرقات ومنهم من صعد إلى ذرى المنارات وسطوح المنازل لاستنشاق النسيم. وكان الكثيرون منهم يتهافتون على المنتديات العامة لابتياع النبيذ والجعة وعصير الفواكه، ويتزاحمون حول الخطباء والشعراء ليستمعوا منهم ذكرى حوادث الماضين أو يطوفون حول المغنين، فيرافقونهم فى أداء أغانيهم بالنفخ فى المزمار والنقر على الدفّ الصنجيّ الإطار.

وكان قصر الملك شامخ العلوّ جنوبى هيكل آمون بوسط حديقة غناء حفت بها منازل العظماء من بطانة الملك وحاشيته، وبينها قصر وطيد الأركان سامى الجدران رحب الفناء تناطح ذروته السماء. شاد بعاكر هذا القصر بعد وفاة أبيه ليحل فيه عندما يتزوج بنيفرت ريحانة فؤاده ومالكة قياده. وإلى الشرق من هذا القصر المنيف بيت فسيح الساحة متنائى الأطراف، إلا أنه عتيق البناء هو البيت الذى ورثه مينا عن أبيه ولم يباشر فيه إصلاحاً بل تركه على حالته تخليداً لذكرى الأجداد، وأسكن به نيفرت ووالدتها (راتوتى). ولقد أقام به معهما أياما قضت عليه وظيفته من بعدها بمغادرته لملازمة ركاب الملك الهمام فى حروبه مع أهل الشام.

وكان بكل بـاب من أبواب تلك القصـور الشامخة والـدور الفسيحة البـاذخة، أفـواج من الحاشيـة والغـاشية والمصطنعين يتنـاجى بعضهم ويتبـاحث آخـرون واقفين يترقبون قـدوم سادتهم ومـواليهم. وكان بـاب قصر بعاكـر يلفت الأنظار برسـومه البديعـة ونقوشه الأنيقة الـدالة على المغالاة فى البـذخ والافراط فى الترف. وكـان ممـا يميزه عـن غيره من المبانـى الحافلة أدقـال جيء بها من جبـال لبنـان وغرست أمـامه لـرفع الأعلام[1]. وكـان الداخل فيـه يصل إلى سـاحـة متباعـدة الحواشى مرصوفة بحجر النهاء يحيط بها إيوان مظلل بظلة تحملها أساطين خشب على صفوف متوازيـة. وكانت هذه الساحـة مخصصة لسكنى العبيد والخدم وبها مواقف للخيل وأماكن لادخار المؤن الشهرية لسكان القصر. وإزاء المدخل العام باب يؤدى بالداخل إلى حـديقة غناء غُرست بها أشجار الفواكه والأزهار صفـوفاً ألوفاً وبزرت البقـول والخضروات فى مربعات متسـاوية متواليـة يحف بها من الأطراف أشجار النخل والجميز والتين والرمان واليـاسمين الذى كانت تعبق رائحته أرجاء

(١) هذا الوصف مأخوذ من رسوم منازل الأمراء وبساتينهم على جدران قبور تل العمارنة، وقد نقلها ليسيوس بشكلهـا فى الجزء الثالث من كتابه المسمى بآثـار مصر والحبشة، وكانت الحدائق نادرة فى عهد قـدماء المصريين لدلالتها على بـذخ صاحبها وترفـه واتساع ثروته. وجـاء فى ورقة البردى الرابعة المحفـوظة بمتحف القاهرة مـا يشير إلى ذلك وهو : «لقد اشتريت أرضـا يثمر فيها الرى واحطت حـديقتك بالأسـوار العالية وغـرست أشجار الجميز حـول منزلك الـرفيع الذرى وكللت رأسك بالأزهـار ولكن لابد من يوم تـزهد فيه نفسك هـذه الخيرات وتشعر فيه بالسـآمة والملال من الحياة» وهو يقابل فى معناه قول الشاعر العربى:

أيا من عاش فى الدنيا طويلا	وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتعب نفسـه فيما سيفنى	وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفـوا	أليس مصير ذلك للـزوال

والأدقال جمع دقل السـاريات

البتسان فينشرح لها الصدر ويرتاح الفكر.

وكانت (ستخم) والـدة بعاكر تتـولى بنفسها فى هذه الحديقـة أعمال المتعهدين بخدمتها من رى وحـرث وغرس، فتأمرهم بغرس نبات نـادر أو بملء البركة بالماء الذى كـان يصل إليها فى مسربين يتـواصل انحداره فيهما من نـاعورتين يـديرهما ثوران صباح مساء، فينقضى النهار وهما لا يفتران عن اغتراف الماء من النيل حتى إذا ما انصبّ فى البركة تشعب منها إلى أنحاء الحديقة فى مئات من المسارب والقنوات ليروى ألوف الأشجار التى تتدلى منها الفواكه والثمار.

وفى الجهة الشرقية مـن الحديقة حجرات شيدت بعضها إلى جـانب بعض، طبقة واحدة أو بضع طبقات، ولكل منها طنف ومستشرفات تحملها أعمدة خشب رفيعة، ويشرف الـواقف فيها على الحديقـة. وكان بعـاكـر يقيم فى تلك الحجرات مع أهلـه وقرابتـه. وكان بجـوارها بنـاء على شكل زاوية قـائمة أُعـد لحفظ الأنبذة والثمار وصيـانة الأقمشـة والمنسوجـات والجلـود والأشعار والأوبـار، وبناء آخـر متين الجدران يحتوى ما ادخره جـدود بعاكر واقتناه هو من النفـائس القيمة كالسبائك من المعدنين الكريمين الذهب والفضة وتماثيـل الحيوانات والأوانى الظريفة الشكل والـلازورد والأحجـار الكـريمـة، إلى غير هـذا من التحف التى يقصر عن وصفهـا اللسان. وكان بوسط الحديقة مقصـورة زُينت بالنقوش الأنيقة التى تلفت الأنظار وتستهوى الخواطـر والأفكار، ومصـلاة نقشت فى جدرانها صـور الآلهة ونصبت تماثيل آباء بعـاكر تحيط بها لفائف التحنيط وكلهـا بصورة أوزريس وإن اشبهت وجوهها وجوه أصحابها وملامحها ملامحهم المميزة لذواتهم. وكان الجناح الأيسر من القد ر ينبعث إليه الضياء من جميع الأرجاء، ولكنه خُص بالعبيد والأسرى، تقع

الأنظار عليهم فيـه مجتمعين مثنى وثلاث وربـاع أو مضجعين على رقع من حصير سعف النخل وقد اتزروا بمآزر من القطن.

وكان إلى جانبى الباب مصابيح ترسـل أشعتها الباهتة الضعيفة فتضىء رجالا جلسوا متربعين إلى مائدة واطئة يتناولون ماطاب لهم من الطعام، ويبدو من كمودة بشرتهم أن الشمس لوحتهم بلفحاتها ودمغتهم بحر هجيرهـا. وكان طعامهم خبزاً وشواء غزال. فكانوا ينتابونه تارة ويتعاطون تارة أخرى شراباً أصفر اللون يقدمه إليهم خدم فى أكـواب من صلصال مدهون بطـلاء براق. أولئك الرجال هم مـوظفو القصر والقائمـون بإدارة شؤونـه. وكان يتصـدر رئيسهم المائدة فقبض على فخذ الشواء واقتطع منه قطعة قدمها إلى قيم البساتين قائلا له وهو يشير إلى أحد العبيد: لقد كلّت يدى من ضرب هذا العبد لأنه كلما تقادم عليه هنا العهد ازداد عناداً وكسلا. أجاب القيم: لقد تبينت منه هذه العيـوب وأنا أتفقد الأشجار، إذ رأيت النخل مجرداً من سعفه بما جعله أشبه بالطيور وقد نتف ريشها.(١) قال ناظر الخيل: يجب علينا الاقتداء بمولانا، فإنه يتخذ عصيه من السأسم الذى لصلابته يعيش مائة سنة. قال ناظر الماشية الموكل بماشية القرابين: هذه العصى تعيش أكثر من عظام الجسم، فلو اقتدينـا بمولانا فلا يكـون بين خدمة القصر غير الأكتع والأعمى والأعـرج وأرباب العاهات. قال الـرئيس: أتذكر المسكين الذى كسر له مولانا تـرقوته بضربة من تلك العصـا، وهو الآن طـريح الفراش يئن مـن شدة الألم؟. إنى لفى كـدر شديـد لهذا

---

(١) شهد كتاب قـدماء الرومان واليونان بميل المصريين إلى المزاح، وأن أحـدهم ربما أنفق ثروته على قصيدة مجون أو هجو لينشرهـا على الجمهور، يؤيد ذلـك الصور والرموز المنقـوشة فى آثار مدينـة أبو والمرسومـة فى ورقة بردى محفـوظة بمتحف تورين، وقـد أعثر البحث على فصل من كتاب فلافيوس فويسكوس الرومانى يشبه فيه الشعب المصرى بالفرنسيين.

الحادث، لأن الرجل كان من أمهر صانعى الحصر عندنا، والحق يقال إن والد مولانا كان أرفق منه بأتباعه، إذ كان إذا ضرب أحدهم لا تأخذه مثل هذه القسوة. فسمع الحاضرون صوت متكلم قد توارى عن الأنظار يقول بصوت مجونى: يظهر أنك جربت ضربه. فالتفتوا جميعاً إلى مصدر الصوت وضحكوا ضحكاً عالياً إذ علموا أن الزائر رجل قصير القامة لايكاد يعدل ارتفاعه ارتفاع طفل فى الخامسة من العمر. وكان بمدينة طيبة كثيرون من أمثاله ، لأن قدماء المصريين من ذوى اليسار والوجاهة اعتادوا أن يكون من بين المقربين منهم أو المصطنعين لهم أقزام كذلك الزائر يقضون الأوقات معهم في الممازحة والتماجن. وكان هذا القزم المسمى (نيمو) من أتباع نيفرت، وقد امتاز على أمثاله فى طيبة بحدة اللسان والتفنن فى التنكيت حتى كان لا يفاجىء قوما فى مجلسهم إلا استقبلوه بالإيناس والبشاشة.

فلما برز نيمو إلى موظفى قصر بعاكر وهم جلوس إلى المائدة وخاطبهم بذلك، أغربوا فى الضحك ونشطوا لقدومه. وحينما أمسكوا عن الضحك قال: امنحونى موضعاً ضيقاً بينكم، ولعل زيارتى إياكم فى هذا الوقت لا تثقل عليكم فإن الجعة التى تحتسونها والشواء الذى تتذوقونه لن يحل بهما مكروه إن شاركتكم فيها، فإنكم جميعاً تعلمون أن معدتى لايتجاوز حجمها حجم رأس الذبابة. قال رئيس الطهاة: نعلم ذلك جميعاً ولكن ما قولك فيما يحتويه كبدك من الصفراء اللعينة التى تزيد بوفرتها على صفراء فرس البحر. أجاب نيمو ضاحكاً: إن صفراء كبدى تغلى وتفور إذا حركها بمغرفة جهله طاه غبىّ مثلك.. وعلى أى حال فسأجلس بينكم بأذنكم.. قال الرئيس : أهلا بك وسهلا.. ما أخبار اليوم وبمن أتيت؟ أجاب: أتيت بنفسى قال الرئيس: إن يكن هذا كل ما أتيت به فهو قليل. قال نيمو: أجل لأنى لا أطمح إلى مقارنة نفسى بكم.. والآن وقد وصل بنا المزاح والتماجن إلى هذا الحد

فلندعهما جانباً ولنتكلم فى غيرهما من الشؤون الهامة.. إن السيدة راتوتى والدة مولاتى نيفرت والوالى الذى جاء الآن لزيارتها وجها بى إلى هنا للاستفهام منكم أحضر مولاكم بعاكر أم لم يحضر. فلقد كان مع الأميرة بنت أنات ونيفرت بالمقبرة. ولما لم تعد مولاتى إلى الآن اشتد بنا القلق والخوف عليها لأن الليل كما ترون قد ضرب بأوراقه. قال الرئيس بعد أن رفع نظره إلى السماء: حقا لقد كاد القمر يتكبد السماء مع أن مولانا حفظه الله وعدنا بالعودة قبل غروب الشمس. قال رئيس الطهاة: وقد أعددت له الطعام فى الموعد المعتاد فإذا لم يحضر الآن اضطررت لإعداده مرة أخرى. قال الرئيس : إن تأخر مولانا فهو لابد فى ركاب الأميرة بنت أنات. قال نيمو: كيف– وقد مضى الهزيع الأول من الليل– لاتعود سيدتى نيفرت؟ قال ناظر البساتين باسما: علىَ مَ دارت المحادثة اليوم يا ترى بين بعاكر ونيفرت؟... وهل صحيح ما أكده لى أتباعها من أنهما لم ينبسا بكلمة واحدة؟ قال أحد الحضور: لا لوم على مولانا إذا عامل بالجفاء والصد امرأة رضيته بعلا ثم ألقت بنفسها فى أحضان سواه.. إنى كلما تذكرت الساعة التى نمى إلى سيدى فيها خبر عدول نيفرت عن الاقتران به أشعر بالحر والبرد يتناوبان جسمى بتأثيرهما المتلف. قال نيمو: ولم تهتم بهذا الأمر إذا كنت تشعر بالحر فى الشتاء وبالبرد فى الصيف؟.. أتتمنى من نعم الله وآلائه فوق هذا؟ قال المتولى سياسة الخيل: لا تظنوا المشكلة قد انحلت، فبعاكر رجل دفين الحقد شديد إوغار الصدر لا يستلها منه شىء حتى الشدائد، فمهما تكن عناية الملك به ورفعه إياه إلى أشرف الرتب فلابد من يوم يحاسبه فيه مولانا على غدره وقبيح فعله. قال نيمو: ان راتوتى لا تحفل بهذه السفاسف ولا تصرف همتها الآن إلا إلى قبض ما لمينا صهرها من خير المال. ومع هذا فقد اتجهت فى العهد الأخير ميولها إلى إعادة صلات الود بينها وبين أسرة بعاكر، وظفرت

بموافقة الوالى على سعيها، لأن من أحب الأمـور إليه أن يرى البيتين مرتبطين بعرى الألفة الوثيقة والاتحاد الأكيد. ثم التفت إلى الرئيس قائلا: اسعفنى بقطعة من أطايب شوائك فإن معدتى خاوية على عروشها. قال رئيس الطهاة: أظن يا نيمو أن الخزانة التى تحفظ مولاتك فيها أمـوال مينا أصبحت كمعدتك خاوية على عـروشها؟ أجاب القزم: أجل هى كعقلك خاوية على عروشها. ثم التفت إلى الرئيس وأحد الخدم فطلب من الأول معـاجلته بقطعة ثـانية من الشـواء ومن الثـانى كوب شراب. قـال متولى سياسة الخيل: أمـا قلت الآن أن حجم معدتك كرأس الذبـابة، فلِمَ أراك تبتلع اللحم الآن كتماسيح أراضى شدّ ؟[1] ولكن لا غرو فقد جئت فى عصر انقلب كل شىء فيه على عقبه وتحول إلى ضـده حتى أصبح الإنسان بحجم الذبـابة وأصبحت الذبـابة بحجم الإنسان. قال نيمو بـاسما مع استمراره فى الأكل: أود أن يكون وعاء جسمى أوسع ممـا هو وأغلظ بشرط ألا يبلغ غلظ أخـلاقك وشدة حـرصك المانعين لك من معاجلتى بقطعة ثالثة من الشواء.. إلىّ سريعاً يا هذا بقطعة من ضلع الغزال الذى بيد الرئيس حتـى أبتهل إلى زيفا [2] أن تغدق عليـه الخيرات وتشمله بـالبركات. قـال الرئيس: خـذ أيها المسعور.. إلا أنى أنصح لك أن ترخى نطـاق ثوبك حتى لا تتعطل حركة معدتك.. ولقد كنت أود أن أخص نفسى بهذه القطعة الشهية ولكنى أعطيكها اعترافاً بدقة حاسة الشم فيك. قال نيمـو: لِمَ لا تكون حاسة الشم دقيقة عندى؟ أما دريت أن أنف المرء ميزان تمييزه بين الجيد والردىء؟ قال قيم البساتين: أو هذا من الممكنات؟ قال الرئيس: هات من كلامـك الذى يشبه الدر إذا ما انتثر عسى أن يلهيك

(١) أراضى شـد هى الفيـوم الآن، وبها هيكل الإلـه «سبك»، الـذى تـربى فيـه التماسيح وتحلى بالذهب والفضة.

(٢) زيفا إلهة الخصب والخير والبركة عند قدماء المصريين.

الكلام عن تناول الطعام. قال نيمو: أما دريت أن باستطاعة المرء أن يتكلم ويأكل كما ترانــى أفعل الآن؟.. إن الأنف الأحدب الشبيـه بمنقار النسر آيـة علوّ الهمـة وسموّ الشأن.. انظر إلى فرعون وأسرته الكريمـة تجد أنوفهم مصبوبة فى هذا القالب وهى غير أنف الـوالى فإنه أقنى معتـدل كأنف تمثال آمـون الدال على الاستقـامة وإرادة الخير. ولقد اختص من هـذه الفضائل بالنصيب الأوفى واشتهر بـالاعتدال فى جميع الأعمال، فلا هـو بالمختـال الفخور ولا الـوضيع المتسفل، بل هو على مـا ينبغى أن يكـون ذو المروءة والهمة. وإنى لأراه أجـدر بـالتربع فى دست الملك من سواه. قـال رئيس الطهـاة: إذا كانت مبـايعة الملـوك بالأنوف فعلى الـدنيا العفـاء.. على أن أنف رعمسيس إذا كان كمنقـار النسر فى الاحديداب فإننى أفضله على ســواه.. وبعد فما قولك فى أنف سيدتك نيفرت؟ قال نيمو: أنــف دقيق لطيف ينفعل بمؤثرات خاطرها الشريف وإنك لترى مارنه يهتـز اهتزاز كؤوس الزهر إذا ما حـركها نسيم الفجر. قـال رئيس الطهاة: ومـا رأيك فى أنف بعاكـر؟ قال نيمـو: أنف أقطس عظيم واسع الخياشيم.. إذا دنـا صاحبـه من خصمه فى معـركة وأثار (ســت) العثير انبثت فيه ذراته فـاهتاج غيظاً وحـرداً.. أنف ترتبط به أحوال بعـاكر وأطواره إلى حـد لا أعد مبالغـاً فيه إذا قلت: «إنــه ليس فى بعاكـر بل إن بعاكـر فيه»، أنف يكفى النظـر إليه لاستكناه سر هذه الخطوط الزرقاء التى سطرت بها جلودكم.. أنف مستمد من أنف ستخم شقيقة سيدتى راتوتى.. أنف مكور مرن المارن.. فقاطعه مقدم الخدم بقوله: نحن يا بذىء اللسان دعونـاك إلى لحم الغزال لا إلى القيل والقال.. أمسك عن كلامك أمسك وإلا جـذبتك من طوقك وأسقطت كـواكب السماء على قتبك! قال نيمـو رابط الجأش :هذه خير فرصة لأستخرج من قتبى مـا يقع فيه من الكواكب لأتحفك منها بما يقـوم بحق مكـافأتك على مـا أطعمتنى من أكلتك.. لقـد وصل بعاكـر فى عجلتـه

فاستودعكم الله أيها الصحب وأوصيكم، إن جاءكم أنف محدوب كأنف النسر وساقكم إلى ميدان الحمام فى بلاد الشام، أن تذكروا ما قاله نيمو القصير لكم، فإنه بأسرار الرجال بصير وبمزايا أنوفهم خبير.

كانت عجلة بعاكر قد اجتازت الباب خلال ذلك بقرقعة رددتها جوانب القصر، فهبت الكلاب من أوجارها وأخذت تهز أذنابها وتهر هرير الفرح للقاء سيدها وصاحبها، وتراكض الخدم من أماكنهم فأحاطوا بالعجلة لتلقى أوامر سيدهم، فأمسك سائس الخيل بأعنة جواديها، ووقف مقدم الخدم تجاهها لخدمة مولاه عند نزوله منها، وتسرب رئيس الطهاة إلى ناحية المطبخ لإعداد الطعام وتفرق الباقون ليؤدى كل منهم عمله. أما بعاكر فنزل عن العجلة قاصداً إلى الحديقة فما كاد يصل إلى بابها حتى طرق سمعه دوىّ الطبل النحاسى الذى كان يدق فى هيكل آمون وصدى أصوات الكهنة الذين كانوا يرتلون الأناشيد الدينية، فوقف فجأة ونظر إلى السماء هنيهة ثم قال لمن حوله: ها قد طلع كوكب سوتيس. قال هذا ثم خرّ ساجداً واضعاً جبهته فى كفيه، فاقتدى به أتباعه فى مظاهر التقوى والصلاح.

عُرف كهنة قدماء المصريين بترصد الفرص السانحة لتأييد شوكتهم بين العامة، فكانوا إذا لاحت ظاهرة سماوية كبرق أو رعد أو غيم ألقوا فى نفوس العامة من الاعتقادات الدينية بشأن الحوادث العلوية ما يخولون لأنفسهم به حق الإشراف على أعمالهم السرية والجهرية، وبلغ من نفوذهم لذلك أن المصريين كانوا- إذا فاض النيل، يقولون إن لفيضانه سراً إلهيا لايحيط به غير الكهان، وأن الواجب عليهم مقابلة هذه النعمة بالحمد والشكران. ولهذا كانوا فى مدة الفيضان يقيمون الأعياد ويسيرون المواكب ويترنمون بالأغانى الدينية ويقربون القرابين، وغير هذا مما يدل

على استقرار ذلك الاعتقاد فى نفوسهم وانتقاشه على صفحات صدورهم.

لبث بعاكر وخدمه جاثين على ركبهم فترة من الزمن، منصرفة أنظارهم إلى كوكب سوتيس المقدس، منصتين بالخشوع والرهبة إلى الأناشيد الدينية التى كان يترنم الكهنة بها فى هيكل آمون. فلما انقطع الصوت نهض بعاكر فتراءى له شبح رجل عارى الجسد مستنداً إلى جدار قريب منه، فأشار إلى الخدم أن ينهضوا ثم أمرهم بالاتجاه صوب هذا الشبح. فلما دنوا منه قال لرئيسهم: أجلد هذا الرجل مائة جلدة لتخلفه عن أداء الصلاة وعصيانه أوامر الآلهة. قال الرئيس : مولاى هذا الرجل إنما هو صانع الحصر وقد وصاه الطبيب بالراحة والإخلاد إلى السكون. وهو لا يستطيع أن يحرك ذراعه لشدة ما يشعر به من الألم، وقد ضربه مولاى بعصاه. قال بعاكر بصوت جهير: لقد استحق العقوبة لسوء أدبه وفرط تقصيره. ثم ولى عنه بكتفه ودخل الحديقة حيث أمر حافظ المؤن والأغذية بتوزيع كمية وافرة من الجعة على الخدم. ثم قصد حجرة والدته. وكانت جالسة بدهليز منمق بالأزهار المتسلقة تداعب طفلة فى الحول الثانى من عمرها، وهى ابنة ولدها الأصغر، فسلم عليها باحترام فاستقبلته بوجه باش وثغر باسم. وكان بالقرب منها كلاب صغيرة، فلما أن دخل أخذت هذه الجراء تثب عليه فرحاً به، فأسكتها ثم التفت إلى الطفلة وشرع يداعبها فبكت وصوتت صارخة فنأى عنها بجانبه قائلا: إنها لفتاة سيئة الخلق رديئة الطبع. قالت ستخم: إنى أداعبها منذ ساعة فلم تجفل منى كما جفلت منك، وما ذلك إلا لأنها ترانى على الدوام، أما أنت فلست مثلى حتى تميل إليك. قال بعاكر: قد يكون هذا التعليل حقاً، ولكن أليس بعجيب ونادر أن تنفر الطفلة منى فى حين تميل هذه الكلاب إلىّ وتستأنس بى؟ قالت ستخم: لا عجب وأنت جاهل بأساليب ملاطفة الأطفال. قال بعاكر: إذا كنتِ ملمة بهذه الأساليب فهلمى

بإسكاتها، فقد ملأ صراخها أركان القصر.. واعلمى أنى أرغب فى مكاشفتك بأمر خطير. فلاطفت ستخم حفيدتها حتى أسكتتها ثم بعثت بها إلى حجرة أخرى مع بعض الخدم، ودنت بعد ذلك من بعاكر وأخذت تلاطفه بأمرار يدها على خده قائلة: لو كانت هذه الطفلة ابنتك لأقبلت عليك لتثبت لك بحركاتها البعيدة عن التصنع أن أجزل هبة وهب بها الإنسان ولد تقرّ به العين وتطيب النفس. أجاب: فهمت الآن ما الغرض الذى ترمين إليه، دعى هذا الموضوع.. موضوع الزواج لنتداول فى حادث جلل جئت خصيصاً لمشورتك فيه. قالت : تكلم. قال : إننى منذ يوم النحس الذى انقبض فيه قلبك لم أوجه إلى نيفرت كلمة إلا فى هذا النهار. ولقد رأيت بعد هذا الهجر الطويل أنه خليق بنا نسيان ما فات وتجديد ما كان بيننا وبين خالتى من قديم الصلات.

تحولت ستخم نحو ولدها، وقد هش وجهها وافتر ثغرها وترقرت بالعبرات عيناها، وقالت: لقد أثلجت صدرى وأجليت كربى حتى أكاد لا أصدق ما تقول. قال: لقد راق لى وصل ما انقطع بين البيتين، فقد كفانا ما فات من خصومات وحزازات. قالت: صدقت يا بنىّ فقد طال الأمد، ولكل شىء حد.

ثم أطرق برأسه ملياً. فجاش بخاطر والدته أن تدعوه إلى الدنو منها والاطمئنان إلى صدرها ولكنها لم تفعل حرصاً على راحته واكتفت بأن تناولت يده فجعلتها بين كفيها وطفقت تناجى نفسها بقولها: لقد حدثنى وسواسى بأن ختام هذا اليوم سيكون على ما نشتهى لأننى رأيت الليلة الماضية فيما يرى النائم كأن أباك تقمص فى جسم أوزريس وأننى كنت فى طريقى إلى الهيكل فإذا ببقرة ناصع بياضها تمشى على مقربة منى ومن ورائها موكب عرس، ورأيت كأن ثور الإله آمون المقدس يأكل

فطير الحنطة. فالتفت بعـاكر إليها وقال: إن رؤياك هـذه لبشرى خير ويمن وبركة.
قـالت: هلم نقوم إذن بمفـروض الشكـر والحمد لـلآلهة على هـذه الآلاء المتتابعـة ونقضي، حق الطاعة الواجبة لهم. ولنقصـد في صبيحة الغد إلى منزل أختى راتوتى لنتصافى ونتصـافح ونغضى على مسافات من الأغـلاط والزلات ونوثـق فيما بيننا الروابط والعلاقـات.. وبعد أفلم نكن ابنتيّ أب واحد وأم واحـدة؟.. إن نظام الكون يتـوقف على تـوثيق الرابطـة بين أفـراد الأسرة الواحـدة، ولن يتطـرق الخراب إلى العائلات إلا بما ينبت فيهـا من الخلاف والمنازعـات، فى حين أن تمكين الروابط بين أفراد الأسرة الواحدة داع إلى إعلاء شأنها وتخليد ذكـرها... لقد مات ما فات، واعلم يا بنى أن بطيبـه غادات فى الجمال بارعـات يضارعن نيفـرت فى حسنها إن لم يفقن عليها. ولايـذهب عن بالك أن الأعيـان وذوى المقامـات الرفيعـة إليك طامحون وفى مصاهـرتك طامعون. فـوقف بعاكـر وأخذ يسير فى الحجرة مسبهـلا، بينما كانت والدته تتمم كلامها فى هذا الموضوع إذ قالت: لا أجهل أننى لمست بهذا الكلام جراح قلبك، ولكن أما لهذه الجراح التئـام بانقضاء الساعات وانطـواء الأيام!.. إذا لم يكن مرور الليالى كافياً لشفائك من هذا الداء العضـال فلابد أن تصبح يوما هنىء البال.. ألم تك أوفـر حظـا الآن من مينـا وأسعد جـداً؟ فعلى مَ جعلت لـه فى صـدرك دفين البغضاء والحقد؟.. أجل.. لا أنكر ما لنيفرت من الجمال الفاتن والقد الرشيق، ولكن ألا تدرى أنها ما برحت صغيرة السن عاجزة عن إدارة شؤون البيوت وللمعاشرة لا تحسن؟ ألا تدرى أننـى قد بلغت من الكبر عتيـاً ، وقريباً يـدرج جسمى الضئيل فى لفائف التحنيط وأودع فى القبـور إلى يوم النشـور، وأنك إذا دعاك داعى الحرب إلى الشام لتطعن الأعداء بالحسام، فلا تلبث أن تقع فى الحيرة حين لا تجد فى منزلك من يديره؟ إن إدارة البيـوت تستدعى التدبير الصائب والـرأى الثاقب!.. أما قلت لك إن

جـدك آسـا كـان يقول « إن البيت إذا استقـامت أمـوره دلّ على حسن تـدبير أهلـه وقيامهم بواجباتهم»؟.. إنى أبتهل لهاتـور أن تلقى فى أحضانك زوجة على ما يروم قلبى وتطمح إليـه نفسى. فقبل بعاكـر ما بين عينى والـدته قائلا: ليـس فى الإمكان أبدع مما كان..تريدين يا والدتى أن يكون النساء مثلك فى التدبير والإتقان؟ فتبسمت ستخم وقالت: أنت تطنب فى مدحى وتنشر مناقبى مـداهنة منك ورياء. ومع هذا فلا يخلو مدحك إياىَ من الصواب، فإن نسـاء اليوم اقتصرن على لبس الديباج المنسوج فى فينقيـا، وجاوزن القصـد فى التبرج والتـزين واقتديـن بنساء الشـام في لهجتهن السريانية، وأبحن للخـدم التصرف فى شؤون منازلهن على ما تسـوله لهم نفوسـهم الخبيثة، فى حين أن من أقدس واجبات المرأة صيـانة البيت من عبث الخدم بالمراقبة المستمـرة الحازمـة. وأسوق لـك مثلا على ذلك.. أختى راتـوتى وابنتهـا نيفـرت.. فقاطعهـا بعاكر قائلا: ليست نيفـرت كبنات هذا العصر، لأنك أحسنت تأديبهـا وما فرطت فى تهذيبها. ولو أنها بقيت فى بيتنا لكانت له كوكب سماء وتاج سعادة وهناء. فحدقت ستخمَ فى ولدها بعين تخامرها الـدهشة وقالت: نعم نعم هى غادة فاتنة إذا أصمت قلب عاشقها بسهام لحاظهـا أغضى على هفواتها وأقالها من عثراتها، وهل نسيت أننى كثيراً مـا غضبت عليهـا لتـواتر شكـواك من معـاملتهـا إياك بـالصـد والهجـران؟. ولكن حيث قـد أسبلت ستار التغـاضى على الماضى فإنـى أسامحهـا وزوجها مينا وأتجاوز عما ارتكباه من الأعمال التى أدت بك إلى اضطراب البال.

ما كـادت لفظة (مينا) تـدوى فى أذن بعاكرحتـى تربد وجهـه وتغضنت جبهته وقال بصوت جهير: نسامحه!.. نتغاضى عن سيئاته! هو.. كلا، بل ليهلك كما يهلك السفلة الطغام فى الصحـارى والقفار ولتمزق جثته الضـوارى، فلا يواريها التراب مدى الأحقاب. فسترت ستخم ووجها بكفيهـا ثم قبضت على التميمة المعلقة بعنقها

وقالت بصــوت خافت: إن فى صــوتك ما يلقى الفـزع فى القلوب ولا يعلم مقـدار ما روّعنى إلا علام الغيـوب.. أعلم أنك على وغر فى الصــدر دفين من زوج نيفرت. أعلم ذلك منذ شهـدت على وسـادتك السهام السبعـة التى كتبت عليها «ليهلك مينـا» وقد ظهـر لى منها أنك اقتـديت بأهل سـوريـا فى هـذه الحيلة التى يظنـون أنهم بها على أعدائهم يتغلبون.. أيها الآلهة أغيثـونى من رؤية هذا الوجه العبـوس الباسر.. حذار حذار يـا بعاكر، فإنك بتلك الفعـال المقوتة تغاضـب الألوهية وتعارض قضـاءها المبرم. لقد ربيتك أنا ووالـدك على احترام الآلهة وتعظيمهم فلمَ لا تكل إليهم شؤونك وتـدعهم يعـاقبون البـاغين بما بغـوا والمعتـدين بما اعتدوا؟ أمـا علمت يـا بنى أن أوزريس يسلب الذين يتخذون وليـاً ونصيراً من دونه ما أولاهم من النعم ويصب على رؤوسهم جام العذاب والنقم؟

قال بعـاكر: أو تجهلين أننى بمثـابرتى على تقـديم القرابين قـد خصتنى الآلهة بـالفــوز على المعتـديـن.. أو تجهلين أن مينـا إذ غصبنى خطيبتي قـــد أصبح من اللصوص الأشرار وهو لم يخجل حتـى الآن من هذا العار. وكيف تريـدين بعد هذا العناد ألا أسلط عليه روح الشر والفساد؟ إذا كان بقلبك يا والدتى ذرة من حبى فلا تسمعينى اسم هـذا الشيطان الـرجيم والعدو الأثيم. فهـزت ستخم رأسها قـائلة: أتدرى فى أى طريق نحن مسـوقون؟ إن حرب الشام لابد لها من نهايـة بعد شهور وأيام فيعـود مينا إلى طيبة فى معيـة الملك رعمسيس ويتبدل الصلح الذى نـرتع فيه الآن بأشد الأحقاد والأضغان.. ولست أرى لهذا الفتق رتقاً إلا بإصغائك لنصيحتى وعملك بمشورتى، ألا وهى التـزوج بامـرأة جديرة بمثلك. قـال بعاكر: لاتـذكرى الزواج.. إذ لا حاجة لى به الآن ولا تتعجلى فالعجلة من الشيطان. لقد اعتزمت السفر بعد أيام إلى بلاد الشام، أفتريدين إذا تزوجـت أن أقتدى بمينا فى فعله الذميم فاترك

زوجتي كالأرمل لا أنيس لها ولا عشيرة ؟ ثم لماذا أراك شديـدة الرغبـة في زواجي ؟ أما كفاك أن أخي متزوج وأنـه يقيم وزوجه عندك ؟ ألا تكفي معاشرتهما إياك لترويح نفسك وتسرية هموم الوحدة عن قلبـك ؟ أجابت : يعلم الله مقـدار حبّي لهما وشغفي بهما وأولادهما . ولكن أنسيت أن أخاك هوروس أصغـر سناً منـك وإنك أنت وحـدك الوارث لما تركه أبوك من المال . وهـذه ابنة أخيـك التي أبكيتها الآن قـد جمعت من الظرف والحسن ما يسر الخواطر ويقر النواظر ، إلا أن عنـايتي بها لن تحـرمني لذة السـرور بالقيـام على تربيـة ولد تـرزق به ليـرجع في المستقبـل إليه أمـر الأسرة ، وليكـون الوصلـة بين أصولهـا وفروعهـا . ثم لا تنس يا بني وصيـة أبيك لـك فإنهـا وصيـة مقدسـة يطلب من مثلك احتـرامها وعـدم الحيد عنهـا . أفلا تـذكر أنـه سرّ بطلبتـك لابنـة خـالتـك وتضـاعف سـروره حينمـا علم أن سلسلـة أسـا لن تنقطـع حلقاتها وأنه لا بدّ من بقاء هذه الحلقات متصلة بهذا الاقتران طول المدى ؟ أما الآن وقد تزوجت من غيـرك وآثرتـه عليك فليس ثمـة ما يحملـك على ألا تتخذ بـديلاً منهـا تحقيقاً للمقاصد الأبوية الشريفـة قال بعـاكر : إذا أكتلـأ رجائي المـرمى ولم تحقق الأيـام أمنيتي فليس ذا لذنب اقتـرفته .. دعيني أودعـك يا أمي لتـأخذي من النـوم حـاجتك فقـد إرتفعت الكواكب حتى كـادت تبلغ سـورت الـرأس وإني أسـألـك إذا توجهت في صحوة الغد لزيارة أختك ـ أن تؤكدي لها بـأن بيتي ما بـرح مفتوحـاً لها على السعة والرحب . وقد غاب عني أن أوافيك بخبر خطير ، وهو أن قيم منزل خالتي قد عرض على قيم منزلنا أن يبيعه قطيعاً من البقر ، ولست أدري لهذا سببـاً لا سيما وأن الماشية اللازمة لفلاحة أراضي مينا قليلة العدد ، قالت : أنت تعلم أن بيد خـالتك الآن زمام أملاك صهرها وأنها في عوز دائم لأمـوال تنفقها في التـزين والتجمل حتى لا تضـاهيها امـرأة من نساء طيبـة كلهن في زخرف الثيـاب وتـألق الحسن ولمعـان

الزهـرة، ولا تزاحمها على استهواء الأعيـان والعظماء إلى التردد على قصرها المنيف وفى مقـدمتهم وإلى هـــذه المدينــة. ثم لا تنس أن ابنهـــا لا يشق غبـاره فى الإسراف والتبذير، فلا عجب بعد كل هذا إذا كانت كل آن فى حاجة إلى الأصفر الرنان.

فهز بعاكر كتفيه مستنكفاً من سماع هذا القول وانصرف إلى مخدع نومه. وكان هذا المخدع خالياً من كل أثر يـدل على التأنق وحب الرفه والنعيم، إذ كانت جدرانها مـجصصــة بالجير ومجردة من الـرسوم والنقـوش ما خـلا بعض كتابـات تحيط بالنـوافذ والأبـواب وتتضمن طائفــة من الأمثال والقـواعد الـدينية. وكـان بصدر المـخدع سريـر يمثل أسداً رابضــاً وعليه فروة أسـدة سوداء، وعنـد رأسه متكأ من خشب السأسم مجلل بنقوش وكتابات كثيرة وإلى جـانبه كرسى قصير القوائم من هـذا الخشب يتخذه من يريد النوم سلماً يصعد فيه إليه. وكانت تحيط به أسلاب من الأسلحة ومجمرعـة سياط والسهام السبعة التى كتب عليهـا «ليهلك مينا». وكانت هـذه الثياب مثبتة بالجدار بحيث تتقــاطع فى جزء منه كتبت عليه حكمة فى الحث على إغـاثة الملهوف ومواساة الفقـراء وتفقدهم بالمطعم والمشرب والملبس ومعاملة الكبير والصـغير بالعدل والمواساة.

وكان عند رأس السرير مخبأ مغطى بستار من ديباج أحمر وبالقرب من زواياه الأربع أعمـدة تحمل تيجانها تماثيل تمثل ثـلاثة منهـا صورة الآلهة آمـون وموت وخون، والـرابعة صورة والـد بعاكر، وإلى جـانب كل منها مذبح لتقـديم القرابين وتجاويف لوضـع المواد العطـرية وخزانــات مدهونــة بألوان زاهية تحتـوى أمتعة نفيسة خاصة ببعاكر من ملابس وكتب وتماثيل وتمائم وجواهر، ومنضدة بوسط المـخدع حولها جملة من الكراسى الواطئة.

وكانت تضىء الحجرة مصابيح عديدة، فلما أن دخل بعاكر فيها و ثب فيها كلب هائل فاغراً فاه، لم يلبث أن عرفه وأخذ يحوم حوله ويثب فرحاً به، فأخذ بعاكر برأسه بين كفيه وقبله وكان شكله بحيث يدل على الذكاء والهمة. وكان إلى جانب السرير عبد طاعن فى السن بدين الخلقة وافى الذراعين مدمج المفاصل، فدفعه بعاكر بقدمه قائلا: لقد اشتد بى الجوع فانهض لتهيىء مائدة الطعام. فقام العبد متثاقلا وخرج لتنفيذ أمر مولاه وظل بعاكر وحده فتذكر الماء السحرى فاستخرجه من القطرميز المعلق بنطاقه وأخذ يتأمل فيه معجباً ثم وضعه فى صندوق خشب به قنانى كثيرة تحتوى الزيوت العطرية الخاصة بالقربان. وكان من عادة بعاكر فى كل مساء أن يملأ بهذه السوائل العطرية التجاويف المنقورة فى المذابح ويجثو على ركبتيه أمام الآلهة ويستغرق فى الصلاة زمناً. إلا أنه صرف عنهم فى هذه الليلة نظره وشخص فى تمثال والده زمناً أخذ بعده يقبل قدميه بخشوع واحترام قائلا: لابد لى يا أبت من قضاء لبانتك والرضوخ لإرادتك، فإن الغادة الحسناء التى تخيرتها لتكون قرينة ولدك سوف يُعقد له عليها. وأخذ بعد هذا يجوب أقطار الحجرة مقلقل الشخص مروع العين منزعج الضمير، لأنه كان يعرض على نظره حوادث الأمس فتنفعل نفسه بما طرأ عليها فيه من المؤثرات.

ثم وقف أمام الآلهة يرمقها بعين الاستهتار والاحتقار والتوى بعيداً عنها بجنبه منصرفاً نحو جهة أخرى، فنظر السهام السبعة فافتر ثغره باسما وتهلل وجهه بشراً وترنحت أعطافه سروراً وطرباً وقال: لابد لىّ هذه من الإجهاز عليه. ولقد كان فى أول أمره كالغريب الحائر يتخذ لنفسه دليلا يرشده إلى سواء السبيل، فإذا لم تعد له به حاجة أغضى عنه ولم يبال به وأعرض عنه احتقاراً حتى يعدل بنفسه عن ملازمته.

وكان الكلب يتابع مولاه بنظره فى حركاته فلما سمعه يقول « لابد ليدى هذه من الإجهاز عليه» خيل له أنه يناديه، فأسرع نحوه ووثب عليه مراراً فلم يسع بعاكر إلا أن زجره وقال: لقد اعتدت أيها الكلب مطاردة الضباع فى الصحراء واقتناصها قبل أن تصيبها رمية الرامى، وهذا فضيلة فيك يجوز لى أن أحرزها إذا لم تسعفنى الآلهة بمددها وتشد أزرى بقهر خصمى اللدود. ثم صعد نظره فى تمثال أبيه قائلا: وأنت يا أبت لمَ لا تشد أزرى وتشرح صدرى.. ألا تعلم أننى بحاجة إلى معونتك ودوم رعايتك؟ ثم أمسك عن الكلام لأن العبيد كانوا دخلوا فى الحجرة يحملون على رؤوسهم صحاف الطعام، فقال بعاكر: ألم أنبهكم مراراً إلى تهيئة لون واحد دسم ومحرض لشهوة الأكل، فلمَ جئتم إذن بهذه الأصناف الكثيرة، ثم أين النبيذ؟ أجاب أحد العبيد وهو متمدداً إلى جانب السرير: لم نأت به لأن مولانا لم يعتد تعاطيه. قال بعاكر: لكن أود احتساء كأس أو كأسين منه فى هذا المساء. كلا، بل عجل بخابية من نبيذ راسم العتيق. (١) فأخذ العبيد يتأمل بعضهم فى وجوه بعض ثم سارعوا إلى تنفيذ الأمر، وقال أحدهم وقت انصرافهم لأحد رفقته: جرت العادة أن يأكل مولانا كالأسد الأسيد ويشرب كالذباب ولكنه اليوم.. فقاطعه صاحبه قائلا: صن لسانك عن الزلل واسرع بنا إلى صحن الدار لنحسو الكؤوس ونزيل البؤوس، فقد أمر مولانا بتوزيع الجعة على جميع الخدم لأنه على ما يظهر قد فاز اليوم بمأمول أو وافاه نبأ ميمون.

كان لوقائع اليوم الماضى تأثير عميق فى عقيدة بعاكر أفضى إلى انقلاب عظيم فى عاداته. فإنه بعد إذ كان يبغض الشراب ويتجنب المخالطة ويرفض الدعوة إلى

---

(١) راقم بلدة بجوار هرم سقارة المدرج بالقرب من مقابر منفيس كانت شهيرة بزراعة الكروم وعصير النبيذ الذى ورد ذكره فى كثير من أوراق البردى.

الولائم تخلصاً من تعاطى المسكرات، مال فى هذه الليلة إلى الانفراد ليحسو من الشراب كأساً بعد كأس. ولقد ظل يتجرع حتى ثقلت رأسه وحجبت بصره غشاوة، فقام يتلمس سريره حتى إذا اهتدى إليه رفع الستار المسدول على المخبأ فاستخرج منه تمثالا من الحجر للإلهة هاتور مصنوعاً على مثال صورة نيفرت ومبرقشاً بأبهج الألوان، لأن رعمسيس كان قد أمر أحد مهرة المثالين بصنع تمثال لها يشبه نيفرت. فلما تم صنعه بذل بعاكر مبلغاً طائلاً من المال للحصول على صورة منه طبق الأصل ، وهى التى ما كاد يخرجها من المخبأ حتى أجال طرفه فى أنحاء المخدع لاتقاء الرقباء. فلما اطمأن خاطره وضع تمثال نيفرت أمامه وألقى بنفسه عليه وأخذ يقبل ثغرها الجامد البارد، ثم ترامى على السرير بدون أن يخلع ثيابه أو يطفىء السراج فنام نوماً ثقيلا.

غير أن بعاكر لم يذق لذة النوم فى الجنح الأخير من الليل إذ فاجأته الأحلام المزعجة، فأخذ يصيح صياحاً عالياً قام ذلك العبد فزعاً بسببه، وطفق الكلب يهرّ هريراً مستطيلا حتى هبّ بعاكر من نومه وتنبه من رقدته وأخذ يتلفت يمنة ويسرة، مكداً فكره فى تذكر الأحلام التى أزعجته ليعرضها على أحد المنجمين. وبينما هو كذلك إذا بأصوات الكهنة– الذين أزاحوا عن أعينهم غشاء الهجود ونهضوا لاستقبال الشمس بأناشيدهم الدينية فى هيكل آمون– قد استأذنت على سمعه، فلزم الصمت برهة خشوعاً ورهبة وأحس انفعالا فى القلب اعتقد معه أن الآلهة تنعى عليه سوء سلوكه، فخلا إلى نفسه وأخذ يحاسبها حساباً عسيراً ورماها بسوء النية وفساد السريرة وآلى ألية أن يترك السحر والسحار ويكل أموره إلى الأقدار.

قصد بعد ذلك إلى الحمام وبينما كان يحرك فيه الماء الفاتر الممزوج بأزكى الروائح العطرية تذكر نيفرت وتأثير الماء السحرى فى فؤادها ودهش لتردده فى

إعطائها إياه، ولعبت بنفسه الهواجس وساورته الأمانى التى تحجب عن البصيرة نور الحق والصواب وتزين الباطل بالتمويه الزائل، فجمح فى غوايته ومضى فى تيار عمايته حتى اعتقد فى الظلام الحالك أنه اسطع الأنوار وفى شوك القتاد أنه أنضر الأزهار. غير أنه شعر بالعشق، وقد أخذ عليه مشاعره، فكبر عليه أن يعجز عن مقاومته فبذل فى هذا السبيل كل جهوده. ولكنه لم يلبث أن وقع فى براثنه ورضخ لجائر حكمه فكان من شأنه—وقد نزلت به هذه الضائقة—ما يدعو إلى تشبيهه بمن تنزع به أمنية الربح إلى قطع أجواز الفلوات وجوب القفار، حتى إذا فاجأته العواصف وحاول الخلاص من شر ما تسفيه الرياح الهوجاء انهالت عليه وطمرته كما ينهال الثرى ويطمر جثث الموتى. غير أن الصبح ما كاد ينبلج وما كادت تطلع الشمس من خلف الروابى، حتى عاوده البشر وانشراح الصدر فلبس ثيابه المزركشة وجلس برهة يجيل فكره فى حادثات اليوم الماضى فازدرى بما كان ضميره يعيبه عايه ويسوقه ساعة الاستحمام من العظات إليه، وقال إنه لقادر على مكافحة الآلهة ومقاطعتهم وتحقيق مقاصده دون أن يفزع إليهم. وتطوح فى الإلحاد حتى أنكر عليهم القوة والقدرة والسداد .

الفصل التاسع

أخبار شؤم من الشام ويوم بؤس من أنكد الأيام

كانت الشمس فى سمت الرأس ترسل أشعتها إلى مدينة طيبة وترشقها من كنانة حرارتها بسهام حادة النصال، وكان المار بالطريق المستقيم المؤدى إلى قصر رعمسيس تصيبه لفحاتها فيحس أنه أصبح ناراً تلظى. وجرت العادة أن يكون هذا الطريق إذا توهجت الودائق معطلا من الأنيس والطارق. غير أنه كان فى ذلك اليوم يموج بأفواج من الناس يتدافعون فيه بالمناكب بين راجل وفار وراكب، وكانت جماعات من العبيد يحملون على متونهم قرب الجلد يطيرون منها رشاش الماء على الأرض لتسكين ثورة العثير وتلطيف حرارة الهجير، ومع هذا فقد كان الغبار يتطاير كالشرار فيغشى الرائحين والغادين الذين انحلبوا من جميع الأقطار لاستطلاع الأخبار التى وردت من ديار الشام. وكان كلما ذاع خبر بين المتزاحمين سرى بينهم سريان ريح الجنوب، إذ كانوا يهتمون به على السواء لتأثيره فيهم جميعاً باليأس تارة وطوراً بالرجاء.

وبيان ذلك أنه ما تمزق ستار الليل وأسفر من خلاله وجه الصبح الوضىء حتى وصل إلى طيبة من المعسكر المصرى ببلاد الشام ثلاثة برد يحملون خرائط مملوءة كتباً ومراسلات تتضمن أنباء القتال وما يكون قد أحرزه من الفوز أبناء مصر الأشبال[1]. وكانت جماهير الأهلين تنتظر وصولهم بصبر يخالطه الرجاء تارة واليأس أخرى، فكانوا –وقد أصبحوا نهباً للظنون والهواجس– كمن يرقب

(١) كان المصريون يميلون إلى انشاء الرسائل ولهم ذوق مشهور فيها ، وهم أول من أحدث البريد ورتب السعاة وكانوا يسمونه «فاتسعات»، وقد أفاض المؤرخ ماسبيرو فى هذا الموضوع فى كتابه الموسوم «إنشاء الرسائل عند المصريين فى عهد الفراعنة».

المزن إذا لاحت على أفق السماء فإما أن تهطل أراضيه غيثاً منبتاً أو صيباً فيه ظلمات ورعد وبرق.

وأغلب ما ورد من الكتب والمراسلات كان يحمل خبر السوء بقتل زوج أو شقيق أو جرح ابن أو صديق. وكانت تلوح على وجوه بعض المزدحمين عندئذ علامات السرور والبشر لأنهم- وقد وصلت البرد وتخلصوا من مرارة الانتظار والصبر- جعلوا لايحفلون بما تكون الكتب الواردة إليهم قد احتوته من أخبار الشؤم، لأن المرء فطر على التعلة برجاء الخير والتباعد عن مظان الضير.

وكان الناس يخفون سراعا إلى ساحة قصر الوالى ويحومون حول الأعوان المنوط بهم فرز المكاتيب وترتيبها لتوزيعها، الخاص منها على من وردت بأسمائهم وعناونيهم وتلاوة العام على ملأ الحاضرين. وكانت الرسائل العامة عبارة عن بيانات بأسماء القتلى والجرحى فى مواطن القتال، وكان الأعوان إذا شرعوا فى القراءة تطاولت إليهم الأعناق ورمقتهم الأحداق، لأن المستريب أشد الناس ألماً بما يداخله من الريبة فى أمر يمسه بذاته أو أحداً من أهله. وكان السامعون- إذا تليت عليهم تلك الرسائل- يعالجون الخلاص من هذا العذاب بإنصاتهم إليها واستكشافهم جانب سرها ليزيحوا الريبة عن ضمائرهم، سواء أكانت الأخبار الواردة صادقة أم كاذبة. وكثيراً ما كان اهتمامهم باستطلاع الضار منها أعظم منه باستطلاع السار. ألا ترى رسل السوء يجدّون السير فى أسفارهم وينشطون إلى إذاعة الأخبار السيئة، كما لو كانت مدعاة لإنشراح الصدور وتفريج الكروب؟

وكان بقصر الوالى (آنى) القريب من قصر فرعون أماكن خاصة بأولئك الكتبة والأعوان يتصل بعضها ببعض على هيئة إيوان مستطيل إلى جانبه فناء ينتهى إلى

غرفة كبيرة جُعلت للفصل بين الناس فى خصوماتهم. وكان الوالى يتصدرها متربعاً فى دست الحكم لإقامة الوزن بالقسط. وكان الموكلون بإدخال الخصوم عليه- وهم من الحرس- واقفين بالأبواب وبأيديهم المحاجن الطويلة يلقون بها الرهبة فى قلوب المتقاضين.

وكان منظر القوم بعد تلاوة الأخبار موجباً للدهشة والاعتبار، ودالا على انقلاب الأمور وتغير الأطوار. فإن المتعقبين للأنباء بعد إذ كانوا سواء فى اليأس والرجاء تعاكست أحوالهم وتناقضت أشكالهم فما كادت الكتب العامة تتلى على مسامعهم حتى أخذ البعض يصيح بصيحات السرور والطرب لتأكدهم سلامة أقاربهم فى الجيش من كل عطب، وطفق البعض الآخر يعول ويبكى لنعى قريب أو قتل حبيب. وكان النفر الأول تبدو على وجوه رجاله نضرة السرور والبشر لعلمهم أن لهم حصة فى أسلاب العدو، أما الرهط الثانى فكانت قلوبهم تقطر حزناً وتنال منهم الآلام فجالت الدموع فى عيونهم ثم هطلت كالمطر المدرار.

وكان الناظر يرى غير هؤلاء وأولئك جموعا من النساء يحثين التراب على رؤوسهن ويخمشن الوجوه بأظفارهن، نائحات صائحات يشققن الثياب مولولات: وا زوجاه! وا ولداه! وا أبتاه! وكان الشيوخ الذين وافتهم أنباء البريد بالبأساء يكتفون بإمرار أيديهم على لحاهم البيضاء. أما الأيامى فكن يتعلقن بأذيال الأعوان والكتاب يتوسلن إليهم أن يعيدوا تلاوة الأسماء إذ كن يعللن بالأمانى أنفسهن بأنهم يكونون قد أخطأوا فتطمئن خواطرهن لإصلاح الخطأ وتهدأ نفوسهن بزوال الريبة، وإلا استسلمن إلى مظاهر الحزن وعلاماته المحسوسة من لطم وخمش وحثو تراب، وغيره مما كان قدماء المصريين لا يستحيون من صدم الابصار به على

ملأ من الناس فى قوارع الطرقات وأعطافها.

وكان نيمو يغدو- خلال هذه الحوادث- ويروح بين جموع المزدحمين مستثبتاً فى وجه كل فريق ، كما لو نيط به استطلاع أسرارهم واستقراء ضمائرهم أو كما لو نكأته هذه المناظر المحزنة وآلمت قلبه فحفزت نفسه للعطف عليهم والرفق بهم. وكان يخص باهتمامه الجموع التى يكثر فيها النواح والعويل، فاتفق أن دنا من امرأة مثرية تنسكب العبرات من عينيها كوابل المطر، إذ عال من صبرها ونال من جلدها نبأ وفاة زوجها فى آخر واقعة فقال لها: إذا استطعت أن تقرئى السطور المنقوشة بين أفاريز هذا البناء وتميزى حروفها من خلال الدموع المنحدرة على خديك فلابد أن يدهشك معناها... إن تلك السطور تحتوى اسم رعمسيس مشفوعا بالألقاب السامية والنعوت العالية! أفتعرفين أية هذه الصفات تستدعى الاهتمام أو الالتفات؟.. هى التى ذكر فيها أنه «واهب الحياة ومفيض النعم»، نعم.. إنه بلا خلاف واهب الحياة ومفيض النعم، بل بارئ النسم وموجد الكائنات من العدم.. ولا عجب، فليس بعزيز على من يميت الأبناء والأزواج فى ميدان القتال أن يحيى بموتهم الثكالى وييتم الأطفال!

فظلت المرأة كالمنزول بها دهشة من ذلاقة لسانه وفصاحة بيانه، وما همت بمجاوبته حتى رأته متعلقاً بأذيال شيخ قوس ظهره الهرم ولاحت عليه إمارات الضعف والسقم، وسمعته يقول له:أرأى أحد فى طيبة كلها شاباً يماثل ابنك فى بارع الجمال ونادر الخصال، قبل أن تغتاله يد المنون فى ساحة القتال؟ كلا.. لو كنت أباه لخلقت لكل من أبنائى الباقين عاهة لا يصلحون بسببها للجندية التى هى أصل كل بلية.. فعليك إذن يا أبت بهذه الحيلة فإنها لجلاء الكرب عنك خير وسيلة. ثم اعلم أن

بلاد الشام قد أصبحت للشبان المصريين الضريح العام. وأنه ليبدو لى أن رعمسيس تعهد لنسور لبنـان بتغذيتها مدى السنين بأجسـام المصريين، لأنها أجسام سليمة ومن الأمراض عقيمة.

وكان الشيخ قبل أن يجاذبـه نيمو أطراف الحديث راضيـاً بالقضاء الـذى نزل مغضياً عما به قـد حل، فلما سمـع هذا الكلام هاج منـه الشجن وتولت عليه الإحن، فشبك أصابع يديه ووكفت الدموع من عينيه. ثم انتقل من البكاء إلى الأنين والرثاء، فلما شهد نيمو منه هذا الانفعال لفت نظره إلى الوالى وقال: لو كان هذا الشهم الهمام قابضـاً على أزمة الأحكام فى هـذه الأيام، لما سيق ابنك إلى ميدان الفنـاء حيث يتبدد جسمه أشلاء ، بل لما وجد فى وادى النيل كلـه من اليتامى والشحاذين والأيامى من ضاق بهم رحب الفضاء وارتفع أنينهم إلى عنان المسـاء. الحمد لله على أن ماء النيل لايزال حلـو المذاق، ولكن دوام الحال على هـذا المثال يجعل هـذا الماء العذب أجـاجاً كماء بحر الشمال لإنحدار دموع المنكوبين فيه على التوال.

وما سمـع الوالى هذه الكلمات حتى ترك منصة الحكم وأخذ يتعمل من الحركات والإشارات مـا أراد الايهام به أنه متأثـر من الحالة الحاضرة فى البـلاد وما يقع من الحيف بالعباد، فاستقر فى خلد الحاضرين أنه مشاركهم فى أحزانهم فطفقوا يعولون حتى دوت أصواتهم فى أركان المكان وطرقت آذان كل إنسان، وبهت لها سائر أولئك الذين كـانوا يملأون رحب الطـريق الموصل إلى القصر منتظرين نوبـة دخولهم على الوالى لاستطلاع الأحوال.

وشرع الحراس فى الآن نفسه يخرجون الناس من غرفة المجلس كى يحل محلهم غيرهم ممن لم يسمعـوا أسماء القتلى والجرحى، فأخـذ الكتـاب ينادون بها وعـاد

الوالى إلى منصة الأحكام.

وكانت تجمعه وفرعون لحمة القرابة، وكان معروفا بالعلم وكرم الأخلاق وشدة الطموح إلى الملك، ولكنه كان يكتم أصحابه هذا الطموح ويتظاهر بالقنوع بمنصبه وبما له من الحظوة عند فرعون. وكان رعمسيس الأول جدّ رعمسيس الثانى من أسرة سامية استوطنت مصر بعد نزوح عرب الرعاة (١) وامتازت بالشهامة فى قتالهم، على عهد تحتمس وأمينوفيس. ولكنه استعان فيما بعد بأمواله الكثيرة على إسقاط العائلة المالكة واغتصاب المُلك منها ودبر لذلك مختلف الوسائل والحيل.

ولما توفى رعمسيس الأول أراد ابنه سيتى الأول أن يوثق أركان عرشه فاقترن بتائى حفيدة أمينوفيس الثالث فرزق منها برعمسيس الثانى الذى لم يعارضه أحد فى ملكه على مصر، لأن قوانين البلاد فى ذلك العهد كانت تجيز للأنثى أن تتولى الملك وتحكم فى الناس ولذا اعتبر المصريون أن الحكم انتقل من والدته إليه فثابوا إلى الدعوة والسكون.

على أن سيتى كان قبل موته قد أصدر أمراً عالياً لـلأمة بمشاركته ابنه فى الحكم(٢) فانقطعت بذلك أسباب الفتن التى كان فى قدرة الناقمين والمتبرمين أن يضرموا نارها بعلة أن سيتى الأول لم يكن من الأسرة المصرية القديمة. وكان أنى

(١) عرب الرعاة أو الهكسوس أقوام تواردوا على مصر من جهة الشرق مع أقوام من آسيا كانوا يهاجرون إليها فاستولوا على وادى النيل وحكموا فيه ٥٠٠ عام، وقد اضطرت الأسرة الفرعونية المالكة وقتئذ أن تلتجىء إلى النيل الأعلى ولكنها دأبت على مقاتلة الهكسوس حتى طردتهم من مصر واستأصلت شأفتهم.

(٢) شارك رعمسيس الثانى والده فى الملك منذ ساعة ميلاده وتوجد في هيكل أبيدوس (العرابة المدفونة) نقوش فسرها ماربيت وماسبيرو بأن الملك رعمسيس كان يفتخر فيها بقوله «إنه كان ملكا وهو فى البيضة»، ورعمسيس هذا هو الذى كان يسميه اليونان سيزوستريس ويسمى على الآثار القديمة باسم (جيزورا)، وقد اعتاد اليونان فى كلامهم على رعمسيس أن يخلطوا أعمال والده سيتى الأول بأعماله.

ابن أخ تاثى أصغر سناً من رعمسيس فرباه والد هذا فى هيكل سيتى وعامله معاملة الأب الرحيم لولده البار، فأظله برعايتـه وحاطه بعنايته، بينما كان من جهة أخرى يشتت شمل الأسرة المالكة المغلوبة على أمرها ويصـادر أملاك أفرادها ويقصيهم إلى أبعد الآفاق.

ولقد أثبت (آنى) رغم ذلك صدق ولائه للملك سيتى وابنه رعمسيس. وكثيراً ما كان بعض أخصاء فرعون يتزلقون إليه بالسعاية فى حق آنى ويحذرونه عاقبة الثقة به والـركون إليه بقـولهم إنه من سلالـة الأسرة البائدة وأنـه طامح للملك ويسعى جهده لـلاستيلاء عليـه، فكان رعمسيس لا يفتح أذنه لـوشايـاتهم بل كان – كلما ازداد تـ ذيرهم إياه– يغمـره بنعمه ويفيض عليه غيوث كرمـه، إذ ما فائدة آنى من انتمائه إلى الألوهية وانتسابه إلى سلالةرع، بل ما فائدة قوله إن رعمسيس لا يلتحم بهذه السلالـة إلا من ناحيـة الأم فقط.. ألم يكن رعمسيس قـابضا فعـلا على زمام الأحكام ومتصرفا برقاب الأنام وبيده صـولجان الفراعنة العظام؟ ألم يرزق بثلاثة عشر ولداً حسبه وكفى أن يخلد أحدهم ذكـراه ويكفل بقاء المُلك فى أسرته إلى ما شاء الله؟

كل هذه الأسباب حدت برعمسيس قبل شروعه فى حرب الشام إلى تنصيبه واليا على طيبة لما بينهما من لحمة القرابة ولأنه قام فى بلاد كوش[1] بأعمال جليلة جعلته مكينا عند فرعون وأثيراً بثقته، فكان خليقا بتقلد ذلك المنصب الرفيع.

وقد جرت العادة أن من يكن حاد الطبـع عجولا ملولا يسكن ثائره ويهدأ روعه تجاه صاحب السكـون والتؤدة، بل ينظر إليه بعين الإجـلال والاحترام ويرضـخ لما يبديه من الآراء أو يقرره من الأحكام. وكان آنى ممن عُرفـوا بالرصانة والجلد عند

(١) بلاد كوش هى الحبشة

نـزول الملمات، وألف رعمسيس فيه هــذه الفضائل مـراراً فخصه من دون رجـال بطانته وأساطين حكومته بذلك المنصب الخطير مفضلا إياه على كل أمير.

ومـا كان لأحـد أن يجرؤ على اتهام آنى بـالطمع فى دست الملك أو يصمه بـدس الدسائس ونصب الشراك لتحقيق هذا المراد، لأنه كان مشهوراً بالعفة وعزة النفس والتصون عن الـدنايا، لاسيما وأن رعمسيس لما عـرض عليه النيابـة عنه في الحكم مدة غيابه أبى ولجّ فى الإباء، إلا أن الملك تمكن من اقنـاعه بأنه لا مفر له من القبول، فلما قبل كان هذا عنده غاية المأمـول. وليس من حرج عليه فيما فعل مادام يعتقد أن عـامة النـاس وخاصـة البطانـة الملكية لا يتهمـونه بـالتطلع لتلك الغايـة العزيـزة والتشوف لـذاك المرام البعيد، فهم يعلمون أنـه لم يتزوج ولم يكن لـه ولد وأن من جعل وكده تقلـد الرئاسـة أو الاستيلاء على الملك فإنما تخدعـه بوارق الطمع بحفظ العرش للأعقاب من ذريته تخليداً لذكراه وإحياء لسمعته.

وفى ذلك اليوم المشهـود تقدم إلى آنى– وهـو فى مجلسه– فـلاح يشكو إليـه ما أصابه من الأذى بهجوم الجند على أرضه ومصادرتهم ماشيته ومحصوله، فتلطف به وواسـاه ووعده بـالنظر فى دعـواه، فانصرف الـرجل قريـر العين معللا النفس ببلـوغ المرام، وفي غضون الجلسـة ذكره الكـاتب بما وعد من الأمـر بتعيين المحقق فاجاب: الـواجب على أفراد الأمة المصريـة التكاتف على دفع النفقات الحربيـة وسدّ حاجة الجند من ميرة وذخيرة وعلوفة لما فى التقصير فى أداء هذا الواجب من تعريض الجند للمعاطب. فشكوى الرجل باطلة ومن حلية الحق عاطلة.

تقـدم إليـه بعد الفـلاح مأمـور أسـوان من أعمال مصر الجنوبيـة، فطلب إليـه التصديق على صرف مبلغ من المال لصيانة شواطىء النيل من طغيان المياه، فاستمع الوالى لقـوله مبتسم الثغر طلق المحيـا ثم قال: إن نفقات الحرب استهلكت الميـزانية

حتى لم تبق فيها بقية تفى بإنجاز تلك الأعمال النافعة.. على أننى سوف أوافيك بجانب من مالى الخاص حتى لا تتعطل المصلحة العامة. ثم ودعه ورجا منه أن يبلغ إلى سكان أسوان تحيته. وما غادر المأمور المجلس مبتهجاً بما لقيه من الحفاوة والإكرام حتى أمر آنى له بمبلغ جسيم. وكان آنى أثناء إصغائه لما يُطرح عليه من الشكاوى يتعمل الحزن إيهاما للشاكين بأنه يحس آلامهم ويشاطرهم أحزانهم ليخفف وطأتها الشديدة عن كواهلهم.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب حينما طرق أسماع الملتفين بالكتبة صراخ فاستغاثة فنحيب، فلم يكن إلا مرور الطيف حتى تحولوا نحو مصدر الصياح واشرأبت أعناقهم لاستطلاع الخبر، بعد إذ كانوا منكسى الرؤوس حزناً وأسى. وأخذ الحراس يفرقون الحشود التى توردت على ذلك المكان فعلا صياحها وازداد أنينها حتى تجاوبت الآفاق بدوى أصواتها. وساقت فصيلة الجنود الليبية الصارخ الأول إلى السجن وألقته فى غيابته وأنفذ الوالى من عنده رسولا لاستجلاء الحقيقة، فعاد معه إليه ضابط الحرس ليخبره بأن قزم الأميرة راتوتى ما برح منذ ساعات يخترق صفوف الناس ليحرضهم على الثورة. قال آنى: إذا كان ما تقول مطابقاً للواقع فعجل بالقبض عليه وزجه فى السجن. ثم التفت إلى بعض خاصته موعزاً إليه أن يأتى له بذلك الرجل سراً مع تطفيل الشمس.

وكان المحتشدون قد لمحوا الكاهن الأعظم فى ملابسه الكهنوتية يحف به لفيف الكهان، فوقفوا صفوفاً ألوفاً على عطفى الطريق وركعوا إعظاماً وإجلالا، فمرّ بينهم مباركا فيهم وداعيا لهم. وما أبصر به الوالى حتى سارع إليه لاستقباله فى مظاهر الخضوع والخشوع، ثم صحبه إلى صدر المجلس وما كاد أمينى يستقر فيه حتى قال له: أيتأتى أن يكون المستحيل ممكنا.. وهل يجوز أن ينتظم رجال الدين فى سلك الجند؟. أجاب آنى: لابد من أبطال للظفر بالأعداء الأنذال. قال أمينى: ولابد أيضاً من

العمال لأداء ما تستدعيه الحياة من الأعمال. قال الوالى: قضت إرادة الملك بحشد فلاحي الهيكل وتوجيههم إلى محاصد الأرواح قبل أوان البذار. ولا مفر لنا من الخضوع لإرادته، فما نحن إلا عبيد جلالته نعمل بإشارته. قال أميني: تالله إنى لأراك أطيب منه مغرسا وأكرم محتداً وأولى على كل حال بالاستواء على أريكة الملك.. وبعد فهل يحسن بك تعطيل الزراعة وإلقاء الناس فى خطر المجاعة؟.. أما كان حقيقا بك أن توسع منها النطاق بل أن تفتح لها أبواب الصحراء لتبلغ إلى أقصى الآفاق؟[1] . فتجاهل آنى ما ترمى إليه هذه الكلمات من المغازى والمعانى وقال: إن أرضنا لا تبقى كلها فى حرمان من الزرع فإنه لابدّ لرعمسيس من الانتصار على عدوه بما يصل إليه من الامداد. قال أميني: وأى الآلهة يسعفه بالمعونة والمدد وقد جعل وكده إغلاق الهياكل وتعطيل الشعائر؟ قال آنى: لا تجزع يا أبت فعما قريب ينال الانتصار ويعود إلينا مكللا بالغار، فيجزل لكم العطاء ويضاعف القربان دفعا لغضب الآلهة واستنزالا للرحمة والغفران. ولا مراء فى قرب وصول أنباء الانتصار، فقد جاءنى من جلالته كتاب يذكر فيه اعتزامه عقد الصلح متى تمّ له الفوز فى المعركة المقبلة، وهل انتهى إليك ما تواطأت الراوية به من اعتزامه الاقتران بابنة (حيتسار) ملك الخيتاس؟ ثم حدّد بصره إلى أمينى باسما وقال: فما رأيك فى هذا الموضوع؟ أجاب : رأيى أن رعمسيس مازال يعتقد أنه غصن الدوحة الفرعونية وخلاصة الجنس المصرى، مع أننا لو تقصينا الحقيقة لأيقنا أن ليس فيه من المصرية إلا ما استمده من أمه عمتك التى لولاها لما خلص له هذا الملك الواسع المصون بوحدته من كل مساس إن شاء الله.

---

(١) قال نابليون الأول ما يوافق هذا المعنى «إذا حسنت الإدارة فى مصر واستقامت فإن خصب النيل يتناول أراضى الصحراء ويجعلها قابلة للزرع وإذا ساءت الإدارة فيها أوغلت الصحراء فى الأراضى الخصبة حتى تبلغ ضفاف النيل».

قال الوالي: إن يخطأ في زعمه فقد أصاب في انتسابه إلى الدم الملكي المستمد من دم إله الشمس. قال أميني: نعم لقد أصاب.. إلا أن هذا الدم يجرى في عروقه مشوباً بمختلف العناصر، أما دمك فملكي صريح لا يشوبه شوب. فأشار إليه الوالي أن يصمت، ثم سارّه في أذنه: صن لسانك واعلم أنا لم نكن في خلوة. قال أميني: ليس في هذا الجمع الحاشد من يفهم مغزاة حديثنا، على أن ما جهر به من الأقوال تداولته ألسنة الأطفال. قال آني: وماذا يكون المصير إذا اتصل بالملك أنك تحض الناس على المروق من طاعته؟ أجاب : إذا اتصل ذلك به فسيعلم أنه مما يخالف أصول السياسة والعدل الافتئات على حق من له وحده النظر فيما إذا كان دمه ملكياً صرفاً مستمداً من إله الشمس أم لا ، وإن أعجب فعجب أن يظل رعمسيس في منصة رع!. قال آني: أتودّ عدم إطاعة الأوامر، فقد قلت لك إنني عبد الأمر. قال أميني: كيف لمثلي أن يخلع الطاعة لمليك البلاد والمتصرف في رقاب العباد؟ غير أني لا أبت الآن في أمر قبل انعقاد مجلس الكهان الذي يرجع إليه حق النظر في مطالب رعمسيس والبت فيها بالرفض أو بالقبول. قال آني: إن الاستشارة تفضي إلى التأخير في تعبئة الرجال وإرسالهم إلى ميدان القتال، وأنت عليم بأن الحاجة ماسة إليهم إذ هي الحرب متعطشة للدماء وإرواء ما بها من لهب الظماء. قال أميني:إذا كان للحرب ملك مقدام، فللصلح غيره ممن يحبون السّلام.

أمسك أميني عن الكلام فوضع آني محجن الكهنوت كما يضعه أمام تماثيل الآلهة ثم تقدم إلى صدر الغرفة فتبعه الوالي باسما وقال: أما عندك حديث طريف؟ أجاب: بلى، فقد سقطت بنت أنات أمس في وهدة الخطيئة فأمرت بإقامة الصلاة في الهياكل وتقريب القرابين لتطهيرها من لوثها. فأطرق الوالي ملياً ثم قال: إذا كان الغد بكرت إلى بيت سيتي وأرى أن تؤجل الصلاة إلى أجل غير مسمى، فوعده أميني بإجابة طلبه ثم انصرف ، وبرح آني قاعة الجلسات عائداً إلى القصر.

فلما وصل إليـه وجـد بـه ملفـات تبادر إلى ذهنـه أنها تحتـوى أخبـاراً خطيرة فطرحها جانبـاً وتناول غيرها مما كان يعلم أنه لا أهميـة له وأنشأ يتلوه. وكان إلى جانبـه عبد يتسلم منه كل ورقة تليـت ليلقى بها فى أتون نار بينما كان أحـد الكتبة يسطر ما يمليه الوالى عليه من المذكـرات رداً على ما قرأه. فلما أتى على آخرها صرف الكاتب وتناول رسـالة وردت إليه من فرعون عنوانها هكذا «إلى أخى آنى» فأيقن أنه لا صلة لها بأعمال الحكومة بل بشأن خاص فعجّل بفض ختامها فإذا فيها ما يأتى:

« بعثت إليك بخط الكتبة طائفة من الرســائل ماسة بشؤون مصر إذ أعربت فيها عن عطفى الـدائم على أمتى المصرية، وأفصـحـت عن رغبتى فى إنهاء الحرب قريبـاً، واليوم أكتب إليك بخطـى هذه الرســالة أوافيك فيها بـأسرار ليس لسواك أن يطلـع عليها. ولقـد تعلم أن روح الألوهية السـاريـة فى جسدى طالما حفـزت لسانى للنطق بإحـدى كلمتى (نعم) أو (لا) تنفيذاً لمشروع أو عـدولا عنه، ومـوافقة على اقتراح أو رفضاً له. وإذ قد سألتنى الاقتران بابنتى المحبوبة بنت أنات فلن أكون فرعون مصر ان لففت عليك وكتمتك أنى مـا انتهيت من تلاوة كتـابك حتى انطلق لسانى بلفظـة (لا).

« ولا يرعك هـذا الأمر وقـد وردت دائما منى على ما تحب ، فإن لـه سبباً حـرياً بالاعتبار. ذلك أنى استطلعت النجوم واستشرت أحشاء الموتى فى موافقة هذا القران أو مخالفته فأجمعت الطـوالع على رفض طلبك. وقد كان مما يتحـرج له صدرى أن أفاجئك بهذا الـرفض، وأنت منى بالمكان الأثير بل وأنت الذى يسرى فى عـروقه من الدم الملكى مثل ما يسرى منه فى دمى، بل ما هو أطهر منه وأنقى كما أكده لى صديق ما برح يحذرنى منك ومن الثقة بك لطمعك فى عرش الملك.

«وإذا كنت قد خست بعهـدى لك فليس لرهبة منك، فلن أكـون ابن سيتى إن أثر

الخوف فى إرادتى أو ضعضع من همتى. وكل ما فى الأمر أن طلبك جعلنى في موقف اضطرنى إلى رعاية ما أبداه لى صديق حميم من حق الولاء، وإلا فمن غيرك أهل لبنت أنات وجدير به الطموح إلى أبعد الغايات، وهل يكون كفؤا لها إلا الطامح لاغتصاب زمام الحكم على مصر والاستيلاء على مايتبعها من الولايات؟ فعليك بالاستيثاق إذن من رضاها فإن مالأتك على طلبك ورضيتك لها بعلا فحبا وكرامة، ولا مناص فى هذه الحالة من إقامة الأعراس يوم عودتى من بلاد الخيتاس. ولايذهب عنى أنك من فتاء السن بما يضمن السعادة لزوجك وأن ابنتى العزيزة ستجد من خبرتك وحكمتك سياجا واقيا. ولك أن تخبرها بموافقتى على رغبتك وإنى لأبتهل إلى هاتور أن تفتح لك قلبها وتسلم إليك مقاليدها إن شاءت أن تكون بعلا لها، فإن إرادتها حكم يخضع كلانا له صاغراً».

كان آنى فى أثناء مطالعته هذا الكتاب يتربد وجهه ويتبين فيه الضجر والتنكر. وكان يقف تارة ويمشى مسبهلا تارة أخرى أو يستند خائر العزيمة إلى أحد أساطين الغرفة ضاربا فى بيداء الفكر والهواجس، فلما جاء على آخره تعبست جبهته وهمّ بالتلاوة مرة أخرى فما كاد يتمها حتى صاح: «هذا دواء مر ممزوج بالعسل فهل خامر لبّ فرعون أنني امرأة؟ (١)» ثم لزم الصمت هنيهة وقال: فهمت الآن كيف يجمع المرء- إذ اتجه إليه أحد بطلب- بين الرفض والقبول وكيف يرده بالخيبة بعبارة ظاهرها إجابة المأمول. يالرعمسيس فى دهائه وحيلته!.. يتعمل مظاهرتى على تحقيق أمنيتى وهو أدرى بأطوار ابنته وأنها كأخواتها فى السن لا تود الزواج من مثلى، وقد ناهز الأربعين ولو اقترن من قبل لرزق بمثلها!.. ثم

(١) جاء فى قراطيس البردى الطبية المحتوية شرح صناعة الحبوب الطبية أنها كانت تعطى للنساء ممزوجة بالعسل وللرجال كما هى

يكلفنى الخضوع لحكمها بعلة أنه سيعمل بإرادتها، وما هى إلا فتاة غير مسؤولة عن تصرفاتها!!

خامرت هذه الهواجس آنى زمناً لم يتمالك بعده من أن يطرح على الأرض كتاب رعمسيس فيلتقطه العبد ويعيده إلى مكانه. ومن أن يلقى كرة معدن فى طست فضة فيتقدم إليه بعض الأعوان ويأمرهم بإحضار القزم نيمو. وكان الوالى- وقد كاد مقراض اليأس يأكل خيوط آماله- مضطرباً ثائراً على رعمسيس لما يتصنعه من الرفق به. وهو فى أقاصى الشام. وكان يرى فى سلوكه معه ما ينطبق عليه المثل« إذا أهداك عدوك وردة فليس لتشم رائحتها بل ليؤذيك شوكها».

أقبل نيمو خلال ذلك فترامى على قدمى آنى فأمر هذا أعوانه بالانصراف من حوله، فلما انصرفوا أذن له بالمثول بين يديه وقال له: قضت الضرورة بإلقائك فى السجن اليوم. قال نيمو: شكراً لمولاى على هذه النعمة فإنه سيمد بها فى عمرى. فسأل آنى: وكيف يطول بها عمرك؟ أجاب: ذلك لأن ساعات السجين تعادل الأشهر والسنين. قال آنى: خلك من هذا المجون والهراء فإنه لا يليق سمعهما إلا بالنساء.. ولولا أن راتوتى هى التى حرضتك على هذه الفعلة لقتلتك شرّ قتلة أو بعثت بك إلى الليمان حيث تُضرب وتهان. قال نيمو: وكيف ترضى لى بالليمان ويدى الصغيرة لا تنقل شيئاً أكبر من الفرزان.. ولئن أكن قصير اليدين فلسانى يتجاوز فى الطول ذراعين، وهو إذا انطلق انساب كالأفعوان أو جرى كالسيل فى الوديان، فتارة يغمر المزارع الناضرة وطوراً ينكشف عن الأراضى الغامرة. قال آنى: إن سيلك مهما تدفق بالماء فمن الممكن إحاطته بالجسور وهو بهذه الوسيلة لا يجور. قال نيمو: مولاى أدرى بأننى لا أتعدى الحد خشية الوقوع فى الضد، وكل ما أتيته من الأعمال أننى أطلعت الناس على حقيقة الأحوال، وكشفت لهم الستار عن سبب ما عراهم من الأحزان والأكدار، ووصفت لهم وسائل العلاج ومن هو الطبيب الذى هم إليه فى

أشد الاحتيـاج. قال آنى: ولكن ما قـولك إذا كان هـذا الطبيب لم يكلفك بهذه المهمة؟ ومع هـذا فقد أحسنت إذ بفعالـك على كفاءتك قد بـرهنت ولأنت من يعـول عليه فى الأحـوال الخطيرة والمهمات الكبيرة فكن حكيما فطنـاً ومدبـراً لبقـاً، واعلم أنى قـد احتاج إليك وأعول فى بعض شؤونى عليك، فـالزم الآن بيت سيدتك حتى استقدمك وسارع إليه فى الحال وسلمها هذا الكتاب الوارد برسمها مقروناً بأزكى التحية. قال نيمو: سـلام على آنى بن الشمس.. وبعـد فهل عندك كتـاب آخر لسيدتـى نيفرت؟ أجاب: لم يـرد كتاب من مينا، ولكن علمت أنـه على ما يـرام فاذهب على عجل وصن لسانك من الخطأ والخطل.

توارى نيمـو عن الأنظار ونهض آنى إلى غرفـة مُدت له فيها مـائدة حوت شـهى الطعام ولذيذ المدام. ولكنه لم يتعاط منها لاشتغـاله ببنت أنات وما ستتلقى به طلبه من رفض أو قبـول. وبعد هينهـة أمـربالعبيـد فحضروا وأخـذوا يسوون شعـره ويفرغون عليه ملابسه فلما انتهـوا تناول المرآة وتراءى لنفسه فيها ثم ركب عجلته قاصداً إلى بنت أنـات. وكان فى أثناء سيره يزين له ابليس أنه صـار قرين بنت أنات وخليفة رعمسيس .

الفصل العاشر

قلة مال واضطراب بال

كان النـاظر إلى قصرى مينـا وبعاكـر من نقطة متسـاوية البعـد عنهما لا يفرق بينهما فى تنضيد بنـاء ولا فى احتفال تنميق. ولكن كان أولهما أقدم عهـداً من الثانى وأقل منه حظوة بالعنـاية والتعهد، إذ كانت نقوشه الجميلة تندثـر وأركانه المدعمة تتداعى إلى السقوط وحديقته الغنـاء يذهب ببهجتها الإهمال بحيث كان يكفى النظر إلى عدم تنـاسق أشجارها وانطماس مجاري الماء فيها للحكم بأن أصحـابها اغفلوا العناية بها لضرورة ماسة من الضرورات.

وكـانت الحديقة كلهـا فى هـذا الحال من الإهمال على اتساع أرجـائهـا وتباعـد أطرافهـا، اللهم إلا الطريق الموصل إلى مسكن راتـوتى ونيفرت فقد كـانت تحف به أشجار باسقة ذات ثمار يانعة.

وكانت حجرة راتـوتى مؤثثة بأجمل الأثاث وأحسن الريـاش ومنمقة بما يبهر الأبصـار ويحير الأفكـار من عجـائب الصناعـة ونـوادر الاختراع، فمن منـاضـد السأسـم الملتوية القوائم على شكل حلزونى يذكـر الناظر بالثعبان في تلويه، وأرائك يعلـوهـا الفـراش الـوثير من المخمل والاستبرق وأصص أزهـار يعبق أريجهـا فى الأرجاء وأكـواب للشراب وخزانات قام بتكفيتهـا على أبدع النقوش أحـذق الصناع وصحـاف مرمرية يسطع منها شذا السوائل العطرية وطنافس سميكة طرية بثت فى كل مكان، وما إلى ذلك كلـه من بواعث الراحة ووسائل الرفـه والنعيم اللذين تصبو إليهما نفس كل إنسـان، وإذا كانت ربة البيت قـد تعمدت إغفـال ترتيب هـذا الأثاث

الفاخر على قاعدة التشابه والتناظر فقد زاد هذا الإهمال فى حسن الرونق والجمال.

فى هذه الحجرة الباهرة الجاذبة بحسنها للناظر كانت نيفرت مضطجعة على إحدى الأرائك تلاعب بأناملها هرة بيضاء دون أن تنبس شفتاها بكلمة، بينما كانت إحدى الجوارى أمامها تروح لها بمروحة كبيرة لتلطيف الهواء إذ كان اليوم شديد وقع الشمس محتدم الهاجرة، وكانت والدتها تودع ستخم وبعاكر وكانا قد حضرا لزيارتها ثم انصرفا.

مضت أربع سنوات لم تطأ قدم بعاكر ووالدته عتبة بيت راتوتى لما كان مستحكما بينهما وبينها من النفور والجفاء على أثر تزويج نيفرت من مينا. وقد أبدت ستخم خلال زيارتها ما يدل على زوال الجفاء وحلول المودة والصفاء رعاية لحرمة القرابة وصلة الرحم، فلما توارى الزائران عن العيان خلف أشجار الرمان التى كانت أزهارها القانية كالنار المتأججة أقبلت راتوتى على ابنتها وسألتها: أو يخطر هذا ببال؟، أوَ يظن أحد أن يقيم بعاكر على حبك إلى الآن؟ فاحمر وجه نيفرت حياء وأخذت تضرب الهرة البيضاء بمروحتها ضرباً خفيفاً متداركاً، ثم تنفست الصعداء وقالت بصوت العاتب: دعينى يا والدتى الآن من هذا الكلام.

كانت راتوتى معتدلة القوام أملود الساقين ريا المعاصم متجانسة الأعضاء. كانت معروفة فى طيبة بجمالها الفتان ومحاسنها الغضة وبالتفنن فى التجمل والتزين والميل إلى التبرح بالأزياء الجديدة حتى كنّ فى ذلك لا يأخذن إلا عنها ولا يقلدن غيرها فى حسن الشارة وتنسيق الزينة وخلاعة المشية ولطف الحركات. وكانت يوم زارتها ستخم تحمل مطرفاً مسهما من الخز يزيدها التبختر فيه بقوامها اللدن رقة ورشاقة. وكانت عادتها ألا تتكلف فى التجمل ولا تتحرى شيئاً من أسباب

التصنع والتعلم إذ كانت لا تهوى التحلي بالعقود والدمالج والجواهر التى تصبو إليها نساء مصر عامة، بل كانت تجد خير معاض عنها فى تنميق الأزهار الطبيعية على جسمها ووضع أكليل ذهب مصفى على رأسها يحيط بغدائرها المنضمة ضفيرة واحدة مرسلة إلى كتفيها بما يدل على قصد الإهمال مبالغة فى التبرج والدلال.

وما كان لراتوتى مال تالد ولا طارف، وما امتلكت أرضاً للزراعة ولا دوراً للسكنى. لهذا وذاك لجأت إلى مينا وعاشت فى بيته مع نيفرت لتدير أملاكه وتتعهد شؤونها بالمراقبة. ولم يكن لها ملاذ -قبل هذا القران- سوى دار أختها ستخم لأنها كانت تزوجت من أخيها [1] وعاشرته زمنا أتلف فيه كل ما أفاضته عليه الأسرة المالكة من الهبات وما ورثه من وافر المال فى شهوات النفس وملاذها، فلما توفى لم تجد ما ترثه عنه فلاذت مع ابنها وابنتها بأختها ستخم التى استقبلتها بصدر رحيب ووجه مشرق وتنازلت لها عن دارها لتتخذها مثابة لها ولتستغل من إيرادها ما تنفقه فى بعض شؤونها ثم عهدت بالموهار زوجها القيام بتربية شقيق نيفرت، وكان فتى حلو الطلعة كثير الازدهاء بنفسه ميالا إلى دنايا الأمور وسفاسفها.

وكانت راتوتى لا تشعر بأعباء هذه المنن المترادفة على عواهنها، إذ كانت- بما جبلت عليه من الكبرياء والأنفة والاعتداد بذاتها- تعتقد أن ما تفيضه أختها عليها من المكرمات وتطوق به جيدها من المنن ليس إلا فرضاً محتوماً عليها وواجباً يطلب منها أداؤه، بل ديناً تقوم بوفائه نحوها، وأن ليس فى ذلك ما يحط بالقدر أو يذهب بالجاه وحسن الذكر.

(١) كان زواج الأخ شائعا عند قدماء المصريين، وقد نقل البطالسة عنهم هذه العادة التى كان يمجها المقدونيون. ولهذا انتحلوا حينما تزوج بطليموس فيلادلف بشقيقته أرسينوه سببا لهذا الزواج.. وهو اقتران الزهرة بزحل فى الحسابات الفلكية وقتئذ.

وكان مما يحرج صدر راتوتى أن يُسمعها ذوو الحجى من معارفها عبارات الحض على وجوب قيامها بتأديب ابنها وتثقيف عقله ليعتمد على نفسه متى نزل فى معترك الحياة، لأنها كانت لفرط حبها إياه لا تود أن تسمع فيه لوما ولا عذلا، ولو كان القصد منهما مجرد الإرشاد والنصح. وكانت لا يستولى عليها الحياء إلا إذا ضرب لها زوج اختها الأمثال بالمسرفين السفهاء وحذرها من التبذير وصور لها ما يستتبعه من ذل الفقر، فإنها كانت تمسك عن الكلام أو تتهم أختها بالزهو وحب الفخر وأنها لذلك وحده تكرم مثواها، لا لرعاية حق القرابة أو الحرص على صلة الرحم وأنه أصبح من ثمّ لا يحق لأحد مطالبتها بأن تقابل بالشكر والثناء صنيعاً مشوباً بالرياء. وقد جاء كفرانها بالنعمة على هذا الوجه مصداقاً لحقيقة ثابتة يتضمنها المثلان السائران «التحدث بالجميل حمل ثقيل» و «لايقابل صاحب الإحسان إلا بالجحود والنكران»

وكانت راتوتى لشدة عوزها ترتقب الفرص لتنفض غبار الفقر عن نفسها، فما أقبل مينا عليها فى طلب يد نيفرت حتى أجابته فوراً بالقبول، إذ كان فى مسارعتها إلى ترجيحه على ابن اختها ما يغنيها عن الاعتماد على أقاربها فى سد عوزها ورتق فتوقها ويطابق إرادة رعمسيس الذى كثيراً ما أعرب عن رغبته فى إتمام هذا القران.

ولما تم الزفاف أقامت راتوتى مع نيفرت بدارها الجديدة، ولكن لم تمض أيام حتى شب ضرام الحرب بين مصر والشام فرحل مينا فى جيش الملك لقتالهم، فتم لراتوتى ما كانت تتمناه من الاستئثار بالرقابة على أملاكه الواسعة وتسديد ديونها الخاصة من إيرادها والتصرف فى الباقى على مشتهاها . وقد ابتسم لها على الجملة ثغر الأمانى وأتت لها تلك النعمة الجزيلة من وراء الآمال، إذ أصبحت وفى

قـدرتها بـذل جـزيل المال فيما تميل إليـه من التجمل بـالمخمل الموشى والجواهـر النفيسة فتستدرك– فى بحبوحة ما أسنى لها من الرزق وأرغد عليها من العيش – ما فاتها من مظاهر الترف والنعيم فى أيام الحرمان إذ كانت عالة على غيرها .

ولم تقتصر على نفسها فى الإسراف من أموال مينا، بل أغـدقت على ابنها من هذه الخيرات ما استطـاع به الظهـور أمام الجمهور بمظـاهر العظماء فـاقتنى المركبات الجميلة والخيول المطهمة ونظم بمساعى والدتـه فى سلك ضباط البطانة الفرعونية. أمـا نيفرت فلم تـدع راتـوتي واسطة إلا اتخذتها لإرضـائهـا بقضاء مشتهيـاتها، فأصبحت من رفعـة القـدر وسموّ المكـانـة بحيث تنـاظر فى الترف والبـذخ أميرات الأقطار الأسيوية.

وكـان آنى يقيم فى أثنـاء الحرب بقصر فرعـون فأصبح بـذلك جـاراً لراتـوتى فـاغتنمت هذه فـرصة الجوار لاستـدارجه للتردد عليهـا، حتى انتهى الأمر بـه إلى الهيام بها واستشعـر بضرورة لقائها كلما أمكنته الفـرصة. وكثيراً ما كـانت هذه المقابلات تفضى إلى محادثات تتحرى راتـوتى خلالها استفزازه إلى الطمع فى عرش الملك. ولولا أنـه كان واقفا على صلتهـا بالأسرة المالكـة السالفة وأنها حُـرمت مثله الحقوق الملكية لما اختلف إليها للأنس بحديثها.

وهى التى حرضته فى أحـاديثها على خطبة الأميرة بنت أنات دهـاء منها ومكراً، فقد كانت على يقين ثابت أن فرعون سيرفض طلبه فيحنق عليه فتستدرجه بوسائل الإغـراء إلى العمل بما ترسمـه له من الخطط وتضعـه من القواعـد المطابقـة لمآربها والمحققة لأمانيها.

وكان نيمو آلة مطواعة فى يدها يؤدى بـالهمة والنشاط والأمانة كل ما توعز به

إليه، مع أنها لم تكاشفه بشيء من أسرارها ولكنه سرعان ما كان يتبين مرادها قبل أن ينطلق لسانها بكلمة أو تندفع يدها بحركة، فكان كمن يقرأ في وجهها ما ينفعل به قلبها من المؤثرات. وكانت عادتها إذا أرادت معاقبته على أمر أن تضربه بالمروحة ضربا يكاد يكون لمسا. وقد بدرت منه كلمة اليوم الغابر عاقبته عليها بهذه العقوبة، لأنه قال في خلال حديث له « لو سمي فرعون مصر بآني بدلا من رعمسيس لأصبحت راتوتي إلهة لا ملكة» فارتاعت لهذه الكلمة ونظرت إليه بعين المستفهم فقال: نعم لأنها حينئذ تكون منه بمنزلة المرشدة المشيرة لا الجارية الأسيرة.

وفي مساء ذلك اليوم لم تنتبه راتوتي إلى ما بدا من الاحمرار في وجه نيفرت بسبب ما سمعته من ذمها في بعاكر لأن نظرها كان منصرفاً نحو باب البستان ترتقب عودة نيمو، فلما عيل صبرها قالت: أين نيمو يا ترى؟ لا شك في وصول رسائل إلينا اليوم من معسكر الجيش بالشام. فتنفست نيفرت الصعداء قائلة: لقد مضى زمن طويل ولم يصل كتاب من مينا. ثم تهللت فرحا وصاحت: ها قد حضر قيم دارنا. فالتفتت راتوتي إليه وقد دخل الحجرة من باب عرشت عليه أغصان الأشجار وسألته عما يريد. فأجاب: إن التاجر (عبشا) قد لجّ في طلب ثمن المركبة السورية وأقمشة الخز. فأمرته راتوتي ببيع الغلال وتسديد ما عليها له من المال. فقال: البيع غير جائز ونحن لم ندفع حتى الآن الضرائب المفروضة للهيكل. ثم إننا سلمنا للمتعهدين بتوريد اللوازم من هذه الغلال ما لم يبق بعده إلا ما يفي بمؤونة البيت والبذار. قالت : بع بعض الثيران، وادفع له المطلوب من الأثمان. قال: وكيف العمل وقد بعنا منذ أيام إلى الموهار قطيعاً برمته فلم يبق إلا ما إذا بعناه أصبحنا لا ندري كيف تدور النواعير والطواحين؟ وهل نسيت يا مولاتي أنه لابد لنا من

استبقائها للبنها وزبدها وجبنها ولنتخذ من روثها ناراً للاصطلاء بها عند الحاجة[١]؟ فأمسكت راتوتى هنيهة عن الكلام ثم قالت: اذهب إلى هرمونتيس وقل لمباشر جياد مينا أن يبعث إلينا بعشرة منها. قال: لقد كلمته فى هذا الأمر فأكد لى أن مينا حذره من التفريط فى جواد واحد من جياده إلا ما يلزم لجرّ مركبة نيفرت. قالت راتوتى: يجب أن تطيعوا أمرى وهأنذه منتظرة وصول الجياد غداً. قال: إن مباشر الجياد رجل عنيد. فقاطعته قائلة: فليعلم هو ولتعلم أنت أننى صاحبة الأمر والنهى فى هذه الدار، فعليك بإحضار الجياد هنا بالرغم من أوامر مينا. وكانت نيفرت قد وقفت خلال هذه المناقشة على قدميها، فلما سمعت الكلمات الأخيرة من حديث والدتها قالت: كلا، بل يجب أن تكون أوامر زوجى هى التى يتحتم تنفيذها، وإذن فلا يبرح جواد واحد مربطه. وإذا كنتم فى حاجة إلى مال تسدون به ديونكم فهاكم الدمالج التى أهدانيها الملك أنزعها من معصمى لتنفقوها فى هذا السبيل أو فى غيره، وإن تكن قيمتها تعدل عشرين جواداً، وإذا فرطت فيها فلن أفرط فى جواد واحد لزوجى. فتناول القيم الدمالج وأخذ يجيل فيها نظره فاحصاً ناقداً فإذا بها مرصعة بالأحجار الكريمة والجواهر النادرة. ثم أرسل إلى راتوتى نظرة المستفهم فهزت كتفيها إشارة الرضى المصحوب بعدم الاكتراث وقالت: فليبقها عبثا عنده حتى تصل إلينا حصة مينا فى الغنائم التى نرجو وصولها قريباً فنوفيه كل حقه. ثم تحولت نحو ابنتها وقالت: لقد مضى عام يا عزيزتى لم يرسل مينا إلينا فى خلاله شيئاً يذكر. وانصرف القيم بعد ذلك، فطرحت نيفرت نفسها على فراشها كما كانت وقالت بصوت خافت: لقد كنت أعتقد أننا فى غنى ويسر. قالت راتوتى: كان فى

(١) كانت مصر كما لاتزال إلى اليوم محرومة من الغابات ، ولذا كان قدماء المصريين يتخذون نارهم من روث المواشى بعد تجفيفها كما يفعل الفلاحون الآن.

الوسع أن نصل إلى درجة لا تسامى من الثروة وسعة العيش، إلا أنه لما يجرى فى عروقنا من الدم الملكى أصبحنا تجاه واجبات ينبغى أداؤها. ولا يذهب عنك أن الأنظار متجهة إليك من أقاصى التخوم لأنك زوج بطل الأبطال فى الجيش. فلا يسمعن أحد أنه أهمل شأنك أو لم يتعهدك بما يحفظ مكانتك فى نظر الجمهور.. ياللـه. لمَ غاب نيمو حتى الآن؟ قالت نيفرت: إنى أسمع وقع أقدام فى صحن الدار فلعل الوالى حضر لزيارتنا. فصوبت راتوتى نظرها إلى البستان فإذا بخادم مقبلا نحوهما، فلما داناهما أنبأهما بوصول بنت أنات فى موكبها الفخم ودخولها من باب الدار مع شقيقها راميرى.

فتركت نيفرت مضجعها مسارعة هى ووالدتها إلى لقاء الأميرة وأخيها. وما كادت تلمحها حتى دنت من بنت أنات وحاولت لثم ثوبها إجلالا لمقامها فتنحت الأميرة وقالت باسمة: حذار يا نيفرت أن يسرى الدنس منى إليك، فإن الكهنة لم يطهرونى بعد. قال الأميرراميرى: أنت طاهرة رغم أنوفهم ونقية كعين رع.

كان الأمير فتى يعدّ من العمر سبعة عشر عاما، كان من طلبة هيكل سيتى وأوشك أن يتم دروسه ويتخرج. فقالت شقيقته هازلة وصارفة كلامها إلى نيفرت وراتوتى: سأبلغ الكاهن الأعظم خبر هروب هذا البرذون الذى أبى إلا مرافقتى هنا.. ولست أستطيع بيان حبه لقرينك يا نيفرت، فإنه يعتبره فريد العصر فى الشجاعة وآية مصر فى فنون الحرب، وهو الذى ألحّ علىّ فى زيارتك، والحمد لله أننا جئنا نحمل إليك أخبار اليمن والخير. فخفق قلب نيفرت خفقاناً شديداً وضعت يدها بسببه على قلبها سائلة: وهل هذه الأخبار عن مينا؟ أجابت: نعم يا صديقتى فإن والدى الملك بعث إلينا برسالة يخصه فيها بالمدح والثناء ويصف ما أبداه من ضروب البسالة

وأساليب النكاية بالأعداء. ولقد ذكر أنـه سيخايره فيما يريد أخذه من غنائم العدو وأسلابه.

فنظرت نيفـرت إلى والدتها وقـد تهلل وجهها بشراً وأشرق بهجـة وسروراً. أما راتوتى فتنفست، تنفس المكروب الذى انفرجت غمته وانفك عنه العناء ولاحظت بنت أنات منهما ذلك فربتت بكفها خد نيفرت، تلطفـاً بها وعطفا عليها. ثم خلت براتوتى وتمشت معها حتى وصلتا إلى الحديقة، وكان ممـا قالته لها إنها تحترمها احترامها لوالـدتها، وأنها لذلك جاءت تستمـد رأيها فى أمر خطير طالبة منهـا تحرى الصدق والإخـلاص فى نصحها. ثم سـارّتها بما اعتزمـه الوالى من خطبتهـا، إذ قالت: لقـد أخبرنى الملك والدى بأن الوالى طامح للتزوج منى وأنـه يشير علىّ بالقبول مكافأة له على صدقـه وأمانته للعـرش، وإنما أحب أن أنبهك إلى أن إشارتـه لم تكن حكما لأنه خيرنى بين الرفض والقبـول. سألت راتوتى: وماذا رأيت؟ أجـابت بنت أنات: رأيت أنه لا منـاص لى من رفض طلبه. سألت: وكيف ذلك؟ أجابت: نعم لابـد من الرفض، وهو السبيل الوحيد الذى ليس فى قدرة مخلوق أن يلزمنى الحيد عنه. قالت راتوتى: حيث إنك كنت مصرة على الرفض وتقولين الآن إنه ليس لأحـد أن يلزمك الحيد عنه فأنت فى غنى عن نصيحـة مثلى. قـالت بنت أنات: إن الآلهة أنفسهم لا يستطيعـون إلزامى القبول ولئن جئت اليوم لاستطلاع رأيك فما هو إلا لعلمى بأنك صديقة آنى وأن فى قدرتـك انباهه بـإشارة خفية إلى ضرورة رجـوعه عـن عزمه ليكفـى نفسه مؤونة الـرفض الصريح فى وجهه، وهو رجل جدير بـالاحترام والاجلال، وأود بعد هـذا ألا يعلم ما دار بيننـا من الحديث لكيـلا يتبين لـه منى- إذا التقينا فى يـوم من الايام- مـا يدل على معـرفتى بما بذلـه من السعى للاقتران بى. فأطـرقت راتوتى رأسهـا ثم قالت: نعم، إن الـوالى يختلف إلينا من آن إلى آن ويتجـاذب معنا أطـراف

الحديث ولكننى لست أدرى إن كنت أستطيع مفاتحته فى مثل هذا الأمر الخطير.
سألت بنت أنات باسمة: ألم تكن مسائل الزواج من اختصاص السيدات؟ أجابت راتوتى: نعم، ولكن زواج الأميرة من المسائل المرتبطة بأعمال الحكومة، ومع هذا فلا بد لى من أن أطلعك على حقيقة آنى.. إن الرجل رفيع القدر ملحوظ المنزلة.. فإذا ارتضيت به بعلا فلسوف ترين منه المبادرة إلى إجابة مطالبك والخضوع لرغائبك والعمل بما ترسمين له.

ثار فى بنت أنات ثائر الأنفة والكبرياء إذ سمعت هذا الكلام وقالت بصوت جهير: أتظنين يا راتوتى أنه مما يليق بكرامتى التماس السعادة الزوجية فى رجل سهل القياد لين العريكة مطواع لأمرى، رعاية لمكانة والدتى أو والدى من كرم المحتد وبسطة الملك ومطلق التصرف فى هذه البلاد؟ كلا.. إننى أربأ بنفسى عن هذه الدنايا، ولقد تبينت من كلامك أنك مازلت جاهلة حقيقة أمرى مع أنك تعلمين أن الخدم والحشم والضباط يتسابقون إلى تلبية ندائى وتنفيذ أمرى، وأننى لا أمرّ بطريق حتى يتزاحم الناس للركوع أمامى إجلالا لمقامى، بل إن منهم من يفتخر بلثم قدمى.. ولقد قابلت بالرفض الصريح طلب عشرين ذاتاً كانوا يصبون إلى الاقتران بى.. وما كان الرفض لأننى كنت أخشى أن يحط الزواج من مكانتى أو يذهب بشىء من مهابتى وكرامتى، بل لأننى كنت أحس بسموّ مقامى عليهم. إن ما أصبو إليه أن يكون بعلى أسمى منى همة وأمضى عزيمة وأقوى إرادة وأن أكون له تابعة ولقدمى فى مواطىء قدمه واضعة، وأن ألمس بيدى عجزى عن مدانـاته فى المواهب الفطرية التى خصّ الله بها من قضت حكمته بأن تكون له القوامة على الزوجة.

كانت راتوتى تسمع هذا الحديث وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة

الاستخساف، فما انتهت منه بنت أنات حتى قالت لها: إذا صح أن الله قد خلق فى العصور الخالية بعلا توافرت فيه هذه الصفات الفاضلة فلا أخالك تعثرين عليه، مهما يكن بحثك الآن عن بعل مثله، وإذا كنت لاتزالين مصرة على موالاة البحث عن هذا البعل الذى يتراءى لك فى الخيال فثقى بأن شعورك ستبقى مضفورة (١) حتى تشيب ناصيتك ويبيض فؤداك.. ثم أطرقت قليلا وقالت: ها قد حضر أخوك مع نيفرت. فسألتها: أفتتعهدين ببذل ما فى طاقتك لحمل آنى على العدول عن نيته؟ أجابت: إننى قيد أمرك. وحدقت بنظرها فى الأميرة وقالت: كان أمينى رئيس بيت سيتى- وهو فى نضرة شبابه- كالرجل الذى تصفينه. ثم التفتت إلى راميرى قائلة: أما أنت يا ابن رعمسيس .. أنت الذى ينمو بين الأشجار التى ستتفيأ البلاد بظلها يوما ما خبرنى أى أصدقائك يفوقهم شرف خصال وحدة ذكاء وشدة عارضة وثبات عزم؟ أجاب: نحن كافة كأسنان المشط فى هذه الفضائل. قالت: لم تصب بإجابتك المرمى.. إننى أسألك أتعرف ببيت سيتي شاباً امتاز على الطلبة والأساتذة بحدة الفهم والنبوغ فى العلم بحيث يشبه سنورو (٢) أو تحتمس أو أمينى؟ أجاب: كيف لا أعرف ؟ سألته: ومن هو؟ أجاب: إنما هو الشاعر بنطاؤر.

لم يستأذن هذا الاسم على سمع بنت أنات حتى احمر وجهها حياء واستشعرت بقلبها يخفق خفقاناً شديداً بينما كان أخوها يتابع حديثه مع راتوتى قائلا: لقد فاق هذا الشاعر سائر الأقران برجاحة العقل ورقة العاطفة وشرف النفس، فإذا تكلم خُيل لسامعه أنه ينطق بلسان الآلهة ويعرب عما فى ضميرهم. وكنا قبل التلقى عليه يأخذنا النعاس أثناء الدرس، بخلافنا وقد تتلمذنا له فإنا فى كل يوم يسحرنا ببيانه

---

(١) كان من عادة الأبكار وقتئذ ضفر شعورهن إلى أن يتزوجن.

(٢) سنورو مؤسس الأسرة المالكة وكان مشهورا بالفضائل والصفات العالية.

ويخلب عقولنا بفصاحة لسانـه، ولعلك رأيته رأى العين يا بنت أنات، فقد كان معك فى بيت بينم المحنط ومـلازمـاً لك فى فنـاء الهيكل حينما أعلن الكـاهن الأعظم أمينى تلوثك بـالدنس، ولاحظت ما لـوجهه المشرق من الشبـه بمحاسن وجه (مـوت) إله الحرب، وهو جمال إذا استطلعته الأنظار انطبع فى القلوب. ولقد سحرنا أمس، عقب رحيلك من الهيكل بسحـر بيانه وملك أفئـدتنا بفصـاحة لسـانه، وأضرم فينـا نار الشوق إلى استجلاء الحقـائق الدينية وأفادنا من زاخر علمـه بما يستهان فى سبيله كل تليد وطارف. ومازلت حتى الساعـة أحس بتلك النار المقدسة تنبث فى جوارحى وتلتهب بين جوانحى.. ولقد آسفنا فراقه صبيحـة هذا اليوم إذ قرر أمينى نفيه من الهيكل دون أن يسوغ هـذا القرار بسبب ، إلا أننـا وقفنا على الحقيقة لأن لنـا أعيناً ترى وآذانـا تسمع.. السبب أنه لم يعاملك بـالشدة والعنف بل أطاع أمـرك وعاملك باللطف.. ولما كان بعده عنا خسارة لا تعوض علينـا فقد اتفقنا على المطالبة بإعادته، ونعتقد أن طلبنا لن يقابل بالرفض فقد وقع اختيارنا على أنانا التلميذ الأول لتحرير الاحتجاج الـذى سنوقعـه جميعاً بـامضاءاتنـا. وإذ كنا نخشـى أن تنـزل صواعق غضبه بمن يجازف بـرفع الاحتجاج إليه فقد عقـدنا النية على تقديمهـا معاً لنتحمل جميعاً عاقبة عملنتا، فإذا ألفيناه مصرّا على اقصـائه إلى شاسـع الأقطار فلابد لنا من الشكوى إلى آبـائنا ولست أرى أن أمينى يمتنع عن إجـابة مطالبهـم ما دامت تتعلق بمستقبل أبنائهم.

قالت راتـوتى: هذه حركـة عصيان صـادرة عن نزق الشبان، حـذار يا بنىّ من أمينى وأعوانه، فإنهم لايحبون المزاح والمهازلة ولا يحتملون البحث والمجادلة. قال راميرى ضاحكاً: ونحن أيضاً نحب الاستقامة والجد، وعندى أنه إذا أصر على إبعاد بنطاؤر فلابد لى من ترك بيت سيتى لاتمام دراستى فى عين شمس، وإنى لواثق أن

جميع رفاقى سيحذون حذوى ويقتدون بى.. والآن هلمــى معى يا بنت أنات فلابد لى من العودة إلى الصــومعة قبل مغيب الشمس، أمــا أنت يا راتوتى فــاعذرينى ولا تعذلينى إذا قلت الصــومعة، فقد اعتــدنا - نحن معشر الطلبــة- أن نطلق هذا الاسـم على المدرسـة. ثم التفت إلى الباب وقال: ها قد جاء القزم نيمو.

استأذن راميرى وبنت أنات من راتــوتى بالانصراف، فخرجا من بــاب البستان وما ابتعـدا عنه قليــلا حتى صافحت الأميرة أخــاها بشغف وقــالت: إن طلبكم من امينى حق صراح، فاعملوا بجدّ على تحصيله واتركوا المزاح.

الفصل الحادى عشر

يحتاج الإنسان إلى أصغر منه فى غالب الأحيان

ما ابتعدت بنت أنات قليلا عن بيت مينـا، حتى دخل نيمو فى البستان يحمل كتاباً مختوما، فلما مثل أمام راتوتى ونيفـرت قدمه إليهما ثم قصّ عليهما حوادث اليوم الماضى بلهجـة لم يسعهما معهـا إلا الإغـراب فى الضحك. غير أن راتـوتى تصنعت الجدّ فأخذت تعيب عليـه تصرفه وتنحى بـاللوم عليـه ولكنها لم تلبث أن اطنبت فى مدحه لما يبـديه من الحذق والذكاء، وأمعنت النظر فى الكتاب فقـالت بصوت خافت: لعل فى هذا الكتاب بشرى تنشرح لها الصدور! قالت نيفرت: فضى ختامه فعسى أن أرى فيه شيئـاً عنه (أى مينا) .ففضت راتـوتى ختامه ومـرت به مراً سريعـاً. وما جاءت على آخره حتى طفقت تساهيها وتداعبهـا قائلة: الراجح عندى أن أخاك كتب إلى مينا لأنى لا أجد هنا كلمة بخطه.

فتأملت نيفرت فى الكتاب لا لتقرأه بل لتستوضـــح فيه خط مينا. وكانت كغيرها من نسـاء مصر فى ذلك العصر تلم بالقـراءة والكتابـة، وكان يلـذ لها أن ترى خطـه المتمـوج الأسطر لأنـه كان على نقيـض خطها الجميل الـواضح الحروف المستقيم الأسطـر، فلما لم تر لخط زوجهـا أثراً فيـه انسكبت عبراتها حتى أثرت فى جلبـاب خدهـا. وقالت بصوت متهـدج: حيث إن الكتاب خـالٍ مما يتعلق بى، فلا حـاجة لى بوجودى فى هذا المكان. فرضتها راتوتى وهدأت خاطرها بقولها: أما سمعت ما كتبه أخوك؟ فهزت نيفرت كتفيها كمن ينفض عن كاهله حملا ثقيلا ثم برحت المكان دون أن تنبس شفتاها بكلمة.

قلنا إن راتوتى كانت تتقلب فى نعم صهرها مينا وتمرح في خيراته، وكانت مع هذا لا تميل إليه بل تخص بميلها وإيثارها ولدها الذى اشتهر بين رفقته بالنزق والخفة وتوافرت فيه خصال والده من العكوف على مجالسة النساء ومداعبتهن، والنزوع إلى المظاهر الباطلة. وقد كتب هذا الكتاب إلى والدته يستحثها فيه على إقراضه مبلغاً باهظاً من أموال مينا التى تتصرف فيها على ما تشتهى. وكانت عادته -إذا حرر كتابا- الإقلال بالاقتصار على بضعة أسطر لعجزه عن الإسهاب فى التسطير وقلة بضاعته فى التحرير، ولكنه استرسل فى كتابه هذه المرة لأن الموضوع كان مما يستدعى الإلحاح والإسهاب وكانت كلما فكّت طلاسم خطه وحلّت ألغاز عبارته وانتقلت من سطر إلى سطر امتقع لونها وانقبض صدرها فطرحت ورقة البردى جانباً وسترت وجهها بكفيها. وقد ظلت فى هذا الاضطراب النفسى بينما كان نيمو جالساً القرفصاء أمامها يرشقها بنظراته وينتقد حركاتها ويتابع إشاراتها. وقد بدا على وجهه ما خامر نفسه من الدهشة حينما رأى من سيدته مالم يألفه منها قبلا، وشهدها- وقد وردت على آخر الرسالة- تثب من موضعها وثبة ارتاع لها قلبه، وتصرخ صراخاً استطار منه لبه وتتطامن بجبهتها بعد ذلك إلى جذع نخلة قريبة ملازمة الصمت والسكون العميقين. تجاه هذا المنظر الرهيب، لم يسع نيمو إلا أن يدنو منها قليلا قليلا وأن يكب بوجهه على قدميها يغمرهما بالقبل سائلا: مولاتى! مولاتى! ما الذى نزل بك، وأى سوء أصابك؟ فحاولت راتوتى أن تصلح من قواها الخائرة وتجمع من عزيمتها التى بددها ذلك الجزع الشديد وودت أن لو تجاوبه، لولا أن شفتيها اللتين بدلتا من لونهما العقيقى لوناً أصفر لم تطاوعاها إذ ظلتا متلاحمتين متلاصقتين. وكل ما انبعث منها من آيات الحياة ودلائلها أن صعّدت فى السماء عينيها ثم ارتجفت أعضاؤها رجفة المحموم. ولما أن يئس نيمو من سماع

الجواب على سؤاله وهى بهذه الحال أعاد كرة السؤال بصوت جهير: مولاتى! مولاتى! ما الذى نزل بك وأى سوء أصابك.. وهل تأذنين لى بأن أنطلق فى طلب نيفرت؟ فأشارت إليه ألا يفعل ثم تلعثم لسانها بهاتين الكلمتين: السفلة!.. الأوغاد!..

وترادفت أنفاسها بسرعة غريبة عقب نطقها بهاتين الكلمتين واحمر لون وجنتيها وعينيها وعمدت إلى ورقة البردى المتضمنة رسالة ابنها فداستها بقدميها، ثم أخذت الدموع تفيض من عينيها وتنحدر على خديها وعراها من الجزع ما ضاعف ارتياع نيمو وهلعه لاسيما وأنه لم ير سيدته من قبل فى مثل ما غشيها من الخواطر الرديئة وتمكن منها من المشقة والعناء. وقد كادت تقف ضربات قلبه من الخوف عليها حتى طوّح به إلى اعتقاد أنها أشرفت على الموت. فما وسعه إلا أن صاح مراراً: واسيدتاه!.. واراتوتيتاه!.. أجابته عندئذ بصوت متهدج وقد لاحت على ثغرها تباشير الابتسام: ويلك لمَ تنادينى بهذا الصوت المزعج وتنطق باسمى الذى تدنس بالعار والشنار؟.. لقد قضينا النهار فى سرور وابتهاج فما أقبل المساء حتى قضت ساعة نحس منه بأن يختم بالغموم والأتراح. وقد جاء فى الأمثال أن الواجب على المرء إفشاء الفرح وكتم الترح، وهو خطأ صوابه عكسه إذ الواجب كتمان السرور عن البشر والآلهة معاً لأنهم جميعاً من الحسدة الأشرار! قال نيمو: سمعت منك الآن كلمة (العار) ولم أسمع كلمة (الموت)، وفيما تلقنت من مبادئك وتلقيت من تعاليمك أنه لا يأس مع الحياة والقدرة على مجالدة الحوادث ومنازلة الأقدار. فارتاحت راتوتى لسماع هذه الموعظة التى قوّت عزيمتها وبدّلت من يأسها رجاء. ثم قالت لنيمو: عهدتك حاذقاً لبقاً أميناً.. فهل لك أن ترشدنى إلى طريق الصواب والسلامة وأن تجعل ما بيننا سراً لا تبوح به لأحد ولو كان الإله آمون؟ فحدق نيمو

فيها ببصره وقـال: أنا مازلت على ما تعهـدين فىّ من الإخلاص فى النصح والحرص على السر. قالت: حسنـا.. وإلا فلا نلبث أن نسمع الصبية فى الطرقـات يتحدثون بما حل بنا من النكبات، وإذا درى الناس بمضمون الكتاب فلن يجوز إيقاف نيفرت على شىء منه. ثم نظرت فى اتجاه الباب وقـالت: أسمع وقع أقدام زائر لعله الوالى آتى.. فعليك يا نيمـو بمقابلته والاعتـذار لى عنده بمـرض ألزمنى الفراش وحـرمنى لقاء الزائرين، وحذّر الخدم من الإذن لأحد بالدخول علىّ.

خرج نيمو لتنفيذ هذا الأمر ثم عاد فألفى سيدته فى قلق شديد، فلما نظرته قالت له: اصغ يا نيمو لما أذكره لك من الحوادث المحـزنة. سأبدأ بأخفها وقعاً على النفس ثم أتدرج إلى ما ترتعد منه الفرائص وتنقبض له القلوب.. لقد أغدق الملك رعمسيس على مينا الصـلات وأجزل لـه العطايـا والهبات، إذ جعل لكل قائد مـن قواد الجيش سهماً معلومـا ونصيباً محدوداً. ولكنـه استثناه فترك لـه الخيار فى أخـذ ما تطمح نفسه إليـه منها إيثاراً لـه عليهم.. فقاطعها نيمو قـائلا: هذه علامـات خير وبشائر بـركـة ويمن، فلمَ إذن هـذا الحزن؟ قـالت: حقـاً إن الخبر فى ذاتـه لمن دلائل اليمن والإقبال إلا أن مينا لم يفكر في زوجتـه ولم يتفضل عليها بسؤال ، بل إنه تنحى عن حصته فى الغنائم مقابل استئثاره بفتاة جميلـة هى بنت ملك الدنائم.. اختارها مينا جزاء لـه على بسالتـه فى الميدان وسار بها معجبـاً إلى الصيوان. قـال نيمو متلعثما: لاريب عندى فى أن هذا الامر الشائن يثير الأحقـاد ويوقظ الضغائن . قالت راتوتى: إن نيفرت سيئة الحظ بلا مـراء، إذ كان هذا جزاء ما أظهرتـه من الولاء. سأل نيمو بصوت الاكتئاب والحزن: وأين بقية الحديث؟ أجـابت:لقد كنت أود السكوت عليها ولكن لا مندوحـة لى عن الكلام.. انت تعلم أن ابنى مع طيشه وسـوء تدبيره وقصر نظره فى مصائر الامـور يحبنى ويحب أخته حباً جماً.. وقد بـدر منى لحظى العاثر

أننى حادثته فيما نحن فيه من شـدة العوز إلى المال، لا أقصد - علمت الآلهة-سوى حضه على الاقتصاد والتقتير خوفا من وخامة العاقبة وسوء المصير. وكانت الأنباء قد نقلت إلينا مـا ارتكبه مينا من تلك الجريمة ، فلما رأى منـه ابنى صده وانصرافه عنا أحب إسعافنا بما يخلصنا من مخالب الحاجة، وكانت حصته من الغنائم لا تفى وحدهـا بقضاء حاجـاتنا فلاعب أصحـابه عليها أمـلا فى كسب مبلغ طائل من المال نسدد بـه ديوننا فخسرها جميعـاً وها هو قد عـاد إلينا خاوى الوفـاض، ثم عاوده الأمل فى الربح إذا هو استأنف اللعب فـلاعبهم على مبلغ جسيم، كلا.. بل على شىء ثمين كان يبتغى به تفريج ضائقتنا وسد عوزنا.. وهل تدرى أى شىء هو يا نيمو؟ تابوت أبيه ويا للحسرة!(١) فكانت صفقتـه فيه خاسرة مثلها فى الغنيمـة.. وقد عاد إلينا كسير الخاطر كاسف البال احتواه اليأس وسدّت فى وجهه المسالك، وغير خافٍ عليك أن من أصول المقـامرة إذا لم يدفع المقامـر ما خسره بعد انقضاء ثـلاثة أشـهر صار عـرضة للتعـزير والتشهير، لأنـه مضطر بحكم هـذه الأصول إلى نبش القبر واستخراج التـابوت وتسليمـه إلى الرابح، فنعيش ما بقى من حيـاتنا مـوصومين بوصمة عار لا تمحى.

وما أتمت راتـوتى هذه الكلمات حتى انسكبت من مـآقيها العبرات، فقـال نيمو: وكيف يـرضى ابنك لنفسه أن يكـون مقامـراً ومزوراً؟ إن فى هـذا الأمر ما يـوجب الأحزان ويضاعف الأشجان. ولكن لا تيأسى .. فما مقدار ما عليك من المال؟ أجابت

(١) ذكـر المؤرخ هيرودت أن أزشين أحد ملـوك الأسرة الرابعـة كـان أول من أذن برهن تـوابيت الأجداد وجعلها الضمانة القصـوى لدفع الحقوق فمن لم يوف ديونه بعد هـذا الرهن كان نصيبه عقب موته الحرمان مـن الدفن فى القبور فتلقى جثته إلى بنات آوى نهشنها وتنـاولت هذه العقوبة أحفاده.

ثلاثون تلانا بابليا[1] فارتاع نيمو وصاح:ومن ذا الذى يجازف بهذا القدر من المال فى مقابل رهن لاقيمة له؟ أجابت: هو(أوتيف) بن السيدة (هاتور) وقد خسر بمدينة طيبة فى ليلة واحدة كل ما تركه له أبوه من المال. قال: إن مثله لايهمل ولاشك حقا له على الغير ولو كان حبة قمح.. ثم أين أنت من مينا؟ أجابت: لا أظنه بعد ما أتاه من الأعمال يبتز من أوتيف شيئا من المال. ولقد نصحنى ولدى أن استنجد بالوالى فى هذه الأزمة والملمة المدلهمة. قال بعد أن هز كتفيه: الرجوع إلى الوالى فى هذه الأحوال جهل بحسن التدبير وقصور عن النظر فى مصائر الأمور. قالت: نعم إنى أعرف أحواله الداخلية ولكن ألا ترى أن شهرته ومركزه.. فقاطعها قائلا: سيدتى لا تضحى المستقبل بالحال ولا تعللى النفس بسراب الآمال، نعم يحق لك أن تلتمسى منه المعونة والإسعاف اعتماداً على قيامك بتذليل ما يحول من المصاعب بينه وبين بلوغ المرام من استلام زمام الأحكام، وإنما أخشى أن تفقدى دلالك عليه ونفوذك عنده متى استشف من سعيك التعويل عليه فى استرداد ثروتك، وأنت أدرى الناس بثروته وأنه منغمس فى الديون لناصيته. قالت: أعلم ذلك جيداً. قال: لاغرابة إذا علمت فداحة ديونه فإنه لم يصرفها إلا فى سبيل استرضائك وقضاء شهواتك وأهوائك. ولعلك لا تنسين الحفلات الباهرة التى كلفته من الأموال مالايطاق الاحتمال، والمبالغ التى أتحف بها كهنة منفيس بصفته حارس العجل أبيس[2] والهدايا الفاخرة التى أتحف بها قواد الجيوش المصرية الظافرة، فى بلاد الحبشان

---

(١) يوازى التلان البابلى ٢٢٥ جنيها تقريبا.

(٢) لما مات العجل أبيس فى عهد بطليموس سوطر الأول المنطقى صرف الحارس المكلف بحراسته على تشييع جنازته جميع المبالغ المخصصة لهذا الغرض واقترض من الملك عليها ٥٠ تلانا (أى ١١٢٥٠ جنيها تقريبا)، وقال ديودورس الصقلى إن حراس أبيس كانوا ينفقون على تشييع جنازة هذا العجل نحو ١٠٠ تلان أى ٢٢٥٠٠ جنيه.

وكم وكم غير ذلك مما لا يعيه الجنان.. إن صادق الرأى عندى ألا تعتمدى على الوالى فى قضاء حاجتك، وكفى الرجل ما فيه من الضيق وخلو الكف والعجز عن إجابة مطالب العيون التى بعثها إلى معية الملك وبثها فى كل مكان لتنقل له الأخبار، وهو ما أدى به أخيراً إلى اقتراض ما يلزمه من المال من خزائن الأقاليم.. فانتظرى حتى يقبض على صولجان الملك لتطلبى منه ما تحبين وهو يبادر إلى إجابة مطالبك وتحقيق رغباتك.

أخذ بصر راتوتى ينهب وجه نيمو لما أدهشها من نجابته إذ قالت له: أراك خبرت الناس واستنبطت حقيقة أحوالهم. قال: نعم، ولخبرتى بهم رجوت منك ألا تواجهيه فى طلب مال والإ ساء بك المآل.. ثم لابد لك من التروي فى أمر ولدك وما ينبغى من السعى لرد شرفه إليه. قالت: وشرف زوجى ! وشرفى! آه لو علمت بما ملأ قلبى من الأحزان والآلام! الشرف كلمة يعرفها الأرقاء بمبناها دون معناها ويدرك الأحرار ما انطوت عليه من الأسرار.. أنتم معشر الأرقاء إن ضربكم أحد ضربا مبرحا فإنما يكفيكم تضميد جروحكم ومعاناة آلامها.. أما نحن فإن رفع السبابة نحونا قصد التشهير بنا يعمل فى قلوبنا مالاتعمل السهام المسمومة النصال.. أيها الآلهة المخلدون! من ينتشلنى من الهاوية التى فى دركها تنكست.. من يقذنى من بلائى وإخفاقى فى رجائى!

ثم سترت وجهها بكفيها فنظر نيمو بعين العطف إليها وقال: أتذكرين–سيدتى– حجر الماس الذى سقط يوماً من خاتم نيفرت وكم قضينا من الزمن فى البحث عنه حتى يئسنا من وجوده،وكيف أنى فى اليوم التالى بينما كنت أمشى صدمت قدماى جسماً صلباً فالتفتُّ إليه فإذا به ذاك الحجر الكريم؟.. إذا كان ما لا تهتدى العين إليه قد وجدته القدم أفتستبعدين على نيمو– وهو أحقر عبيدك وأجهلهم بمعنى كلمة

الشرف– أن توفقه محاسن الصدف لحيلة ربما غابت عن خاطر سيدته الواسعة العقل الشريفة «الأصل؟».. قالت: ماذا جرى لك.. هل خولط فى عقلك؟ أجاب: عقلى والحمد للآلهة فى سلامة واستقامة، وما بلغنى من زيارة أختك لك ومصالحتها إياك.. أصحيح هو؟ أجابت: جاءت لتصافحنى ورضيت عنها. قال: وأى مانع من أن تسأليها حاجتك.. إنها وقد صافحتك لن تتأخر عن إسعافك بالمال، لأن العدواة إذا خمدت نارها كالجرح إذا اندمل لابد فى لمسه من الحذر والاحتراس حتى لا ينفتح فيسيل منه الدم، ولا تستكبرى السؤال فى مثل هذه الأحوال، فإنك إنما تسألين أختاً يهمها أمرك ويعنيها شأنك. قالت: ولكن ثروتها ليست واسعة إلى حد تستطيع معه مساعدتى بما يقنعنى.. وجميع ما فى بستانها ملك لأبنائها. سألها: وهل حضر معها بعاكر هنا؟ أجابت: نعم ولكن بإلحاح من والدته لأنه كما تعرف يكمن الحقد لمينا. قال: وما رأيك إذا دعته نيفرت إلى الحضور؟

ما سمعت رتوتى هذا الطلب حتى كاد إهابها يتمزق من الغيظ ونهضت واقفة وقد تبادر إليها أنها أخطأت بالاسترسال فى مكاشفة تابعها بأسرارها، فلم يسعه عندئذ إلا أن تناول ذيل ثوبها بالقبلات مستعطفا وقال معتذراً: أتريد سيدتى أن أطرح أسرار هذه المحادثة فى زاوية النسيان أو أُعمل الفكر فى انتشال ابنها من هاوية الخسران؟ فترددت راتوتى ثم قالت: دعنى الآن وشأنى فلست أود استشارتك فى أمر مادامت الآلهة ستلهمنى الصواب فيما أنا إليه منصرفة. سأل: وهل سيدتى فى حاجة إلى خدمتى غداً؟ أجابت: إننى فى غنى عنك. قال: إذن تأذنين لى بالتوجه إلى المقبرة لتقديم القربان. قالت: لك ذلك إن أردته. ثم دخلت المنزل وبيدها الكتاب الذى صبّ عليها الهموم والأوصاب. وظل نيمو فى مكانه نهباً للهواجس ثم أخذ يناجى نفسه: «هم يخشون العار والمقت ويتمنون بسببهما الموت، ولكن ما هذا الشرف

الذى لاكته ألسنتهم ومضغته أفواههم ولم يولد أحد متحليا بوشاحه؟.. إن الناس طرًا يدرجون بعد مماتهم فى الأكفان وكانوا من الشرف مع هذا فى حرمان.. وغاية الأمر عندى أن الأغنياء من ذوى البطالة والجهالة ينتحلون الشرف ويتخذونه على أنفسهم دلالة، وهم فى هذا الادعاء كالحبشان الذين يطلون رؤوسهم بشحم الضان، فتنقلب سحنتهم وتتغير هيئتهم، ثم هم بهذه العادة يفخرون وعنها لايعدلون، وأفضل عندهم أن تقطع منهم الآذان من أن يتركوا هذا الدهان ، وعلى أى حال فلابد من استشارة والدتى فى كل أمر ذى شأن، فإنها أكثر خبرة من الكهان».

الفصل الثانى عشر

استشارة الساحرة الغادرة الماكرة

ما ولى الليل بركنه وأضاء الصبح بنوره حتى شوهد نيمو ممتطياً حماراً أبيض اللون يعدو به نحو المقابر كيلا يدركه القيظ إذا تعالى النهار. وكان عارفا بمنعرجات الطرق وتشعباتها فى هذه الجهة فلم يسلك النهج الواسع الذى يطرقه كل الناس، بل اتجه صوب الجبل الذى يعترض بين المقابر وسهول النيل.

وكان يرى أمامه صخوراً عالية فى شكل نصف دائرة ترتسم على سفوحها الصلدة معابد ضخمة شادتها الملكة حاتاسو التى نصبت وصية على اثنين من ملوك الأسرة البائدة. فلما دنا منها نيمو جعلها إلى يمينه وسار فى طريق منحدر تراءت له المدافن منه تتخللها المنازل والهياكل والتماثيل، ونظر فيما يلى ذلك كله نهر النيل ينساب نحو الشمال كأنه سبيكة مصهورة من اللجين، ولفت نظره الغسق الأحمر رائداً لأشعة الشمس وقد انطبعت على لونه الأرجوانى منازل طيبة وهياكلها بمنظرها الشائق وارتفاعها الشاهق.

كان بصر نيمو شاخصاً فى هذا المنظر البديع، إلا أنه كان لايميز جمال تصويره وحسن تأثيره لأنه - وهو على متن الحمار- كان هائما فى أودية الأفكار غير ناظر إلى ما يعترى دابته من التعب لصعوبة المرتقيات ووعورة المنحدرات. وبينما هو سائر فى مسلك ضيق بوسط الجبال إذ سمع همس إنسان يجدّ فى أثره حتى أدركه، فتبادلا السلام وظل الاثنان سائرين حتى بلغا إلى منعطف يتسع عنده الطريق، فانفتل نيمو إلى أحد عطفيه إذ لحظ أن السائر معه أحد الكهنة المحترمين وقال له:

عليك يا أبت بالسير أمامى لأنك بقدميك الاثنتين أسرع من حمارى بأرجله الأربع!. قال الكاهن،وكان نبسشت صديق بنطاؤر: حسناً فعلت.. إنى أغدو فى التماس علاج أحد المرضى.

هنا برزت الشمس من حجابها وتجردت من جلبابها، فأفلت الشفق الأرجوانى مولياً الأدبار خيفة أن تفتك به جيوش النهار، وطرق الآذان نشيد الكهان، فانكب نيمو من متن حماره لصلاة الصباح واقتدى نبسشت به ووقف كلاهما نظره على إله الشمس (فتاح)، وكان نيمو شاخص البصر إلى الشرق. أما نبسشت فبينما كان باسطا يديه بالدعاء ومصعداً نظره فى السماء، إذ حانت منه التفاته إلى اليسار فرأى صدفة من أصناف البحار وقد تجمدت كالأحجار.. فمد يده إليها واستولى عليها ونهض بعد ذلك واقفاً فاقتدى به نيمو ولأثره اقتفى، ثم قال: ما ألطف هذا الصباح! أرى فيه أن الكهان الذين سمعنا نشيدهم الآن قد انتبهوا من نومهم قبل الساعة المحدودة لقيامهم. فابتسم نبسشت وقال: نعم، ولعلك آت من المقبرة، ومن جاء بك إلى هذا الطريق الوعر المحفوف بالصخر؟ أجاب: جئت بنفسى، ولكن أتأذن لى بسؤالك عن فقراء السكان الذين يقصد إليهم طبيب بيت سيتى فى مثل هذا الآن؟ قال نبسشت: إن للفتاة التى نيط بى علاجها أبا فقيراً ، أما هى فمرضها خطير. فحدق نيمو فيه النظر وقال: لابد أنها الفتاة التى دهمتها مركبة الأميرة، وكيف حالها الآن؟ أجاب: متماثلة إلى الشفاء وعسى أن تحقق الآلهة فى نجاتها الرجاء. قال نيمو: حمداً للآلهة على هذه المنن وشكراً لهم على انكشاف المحن.

جدّ نبسشت بعد ذلك فى المسير، فلما بلغ من الجبل إلى ذروته انحط منحدرا إلى سفحه حيث يوجد وجار المحنط بينم، فلما هبطه تولى علاج الجريحة. أما نيمو فواصل السير حتى وصل إلى مغارة أمه نيخت الساحرة التى علّمت بعاكر كيف يستهوى النساء بالقدح المملوء بالماء.

وكانت هذه العجوز الشمطاء والداهية الدهياء بباب المغارة جالسة القرفصاء، وإلى جانبها لوح خشب جعلت بطرفيه عارضتين متصلتين بعدة لوالب إذا دارت اقتربتا أو ابتعدتا. وكان بين العارضتين طفل ممدوداً وقد لامست رأسه إحداهما والأخرى أخمصى قدميه. وكانت العجوز اللعين تستعين بهذه الآلة على تعطيل نمو الأطفال بمنع أعضائهم من الوصول إلى مداها الطبيعى، ليصيروا على مر الأعوام أقزاماً كابنها نيمو تبيعهم الأمراء والمثرين بالمال الجزيل، ليقطعوا بالتماجن والتملح معهم ساعات الفراغ. وما طرق أذن العجوز وقع قدمى نيمو وهو مقبل عليها حتى أسرعت برفع اللوح وطرحه بآخر المغارة وقالت للطفل: لا تتحرك وإلا أثخنت فيك ضرباً وأمعنت أذية أو شددت وثاقك فلا تعود تستطيع فى اللوحة حراكا. قال الطفل: دعينى ولا تربطينى، ولك أن أظل مطروحاً على اللوحة بإرادتى. فصاحت به: كلا.. ثم شدّت رباطه وهو يبكى ويستغيث، إلا أنها تكلفت العطف عليه وقالت: إذا لزمت الصمت ناولتك فطيرة بالعسل وأذنت لك فى ملاعبة الدجاج.

فسكت الطفل ولاحت فى عينيه بارقة السرور والاغتباط، ولكنه تعلق بأذيال العجوز وقال بصوت خافت: سأسكت سكوت الجرذان حتى لايعلم أحد أنى بهذا المكان، ولكن أود أن تأذنى لى بالذهاب إلى وردة لأعطيها الفطيرة الموعودة. قالت: وردة طريحة الفراش فلا حاجة لك بالغدو إليها. قال الطفل وقد اغرورقت عيناه بالدموع: أتمنى لو أعطيتها الفطيرة. فأخذت العجوز تداعبه وتسليه ثم مدت شفتيها لتقبله بين عينيه ولكنها سرعان ما تحولت عنه قائلة بصوت مزعج: أمرتك ألا تتكلم فالزم شأنك وسأرى إذا كان لك أن تزور وردة أو لا تزورها. ثم ألقت على وجه الطفل كيساً من القماش السميك وعادت إلى الباب. فلما أبصرت بنيمو تلقته بمظاهر الاشتياق وأكرمته بشىء من الخبز واللبن والعسل ثم طمأنته على وردة إذ

أنـه يكثر من ذكـرها وسألتـه عن سبب حضوره وعما إذا كـانت سيدتـه هى التى أرسلته فى حاجـة تريد قضاءها أم أنـه جاء من تلقاء نفسه. ثم ذكـرت له أن جماعة الأمـراء ولفيف الأعيـان والعظماء اعتـادوا ألا يزوروا الفقـراء ولا أعتـاب منـازل البؤساء لغرض يـرمقون إليه، وسألته عمّ يود منها الآن؟ أجـاب: لست أريد شيئاً ولكن.. قالت ضاحكة: ولكنك جئت إلى هنـا بإيعاز غيرك لا بمحض إرادتك فالنتيجة إذن واحدة، لأن الذى يطلب أمراً برسم الغير كمن يلتمســه لنفسه. قال: يدل كلامك على ثبات عقلك وحضـور ذهنك وأنه لم يتغير منذ زيارتى الأخيرة لك. وهـذا الأمر يسرنى ولا شك ملاحظته لأنى فى حاجة لنصائحك الرشيدة وآرائك السديدة. قالت: إنى أقدم لك نصائحى بثمن بخس، فقل لى ماذا جرى.

فقص نيمو عليها فى اختصار وصراحة كل ما اتفـق لسيدته راتوتى وذكر لها ما أوشك أن يلحق بابنها من العـار والفضيحة لرهنه جثة أبيه. فهـزت رأسها وتركته يسترسل فى حديثـه فما أتى على آخره حتى حدقـت فيه النظر وقـالت: وهل مازلت تعتقد إذ كـان رفع آنى إلى عرش رعمسيس، أى استبـدال الباشق من البـازى؟ قال: كيف لا وجيش الحبشــة معـاضـد لنـا وزمـرة الكهنـة متـذمـرون من الأحكـام ومستعدون جميعـاً لخلع ربقة الطاعـة ومبايعة آنى اعتماداً على نسبـه المتصل بدم رع؟ قالت: يبدو من كلامك أنكم أعددتم للكفاح عدته. قال: لا ريب، وأنت تعلمين أن الكلاب الكثيرة مهما تبطىء فى العدو تدرك الغزال وتفتك به. قالت: ولكن رعمسيس أسد أسيـد لا يستطاع إخضاعـه ولو كبل بالحديـد ، وأنتم إنما تجازفون بأنفسكم وتلقون بها فى الهلاك. قـال: نعم إننا نجازف ومـا مجازفتنا إلا بقدر سمو غـايتنا، وستقرن مسـاعينا إن شاء الله بـالنجاح. قالت: من ينشد النجـاح فليتوقع الفشل،

ومع هـذا فافعلـوا ما بـدا لكم فإنه لايهمنى من يســوق أبناءهـا إلى مواطن القتـال ويخطف الماشية من الـرجال، ثم قل لى ماذا تريـد منى؟ قال: جئتك بمحض إرادتى لتوقفينى على ما تصون راتوتى به شرف ابنها وأسرتها. فوقفت العجوز واستندت إلى عكازهـا وقالت بعد أن أطـالت النظر فى نيمـو كمن يحاول استطلاع سر كمين فى صدره واستقراء مضمـر فكره: مالى أراك أيها السقط الحقير كثير الاهتمام بأولئك العظماء؟ أجاب: إن سيدتى راتوتى من أكـرم السيدات سجية وأعزهن نفساً، فإذا أصبحت فى ثروة لائقة بها فلابد أن يصيبنى وإياك سهم منها.

فهزت نيخـت رأسها استنكاراً وقـالت: ربما أعطتك رغيف خبز وتصـدقت علىّ بفتـات رغيف آخـر.. الظـاهـر لى أن فى الأمـر سراً غير مـا أفضيت إلىّ، فإننى أنفـذ ببصيرتى إلى ما يكنـه فؤادك وببصرى إلى أحشاء الغربـان التى أشق بطونها.. إنك لمن ثقلت عليهم البطـالة فدبـروا التدابير واستنبطوا الحيـل للتدخل فيما لايعنيهم حتى ينفـوا عنهم معـرة الكسل والفـراغ من العمل. ليتك كنت يـا بنى أطـول منك بعشرين ابهاماً فقط، إذن لنظمتك فى سلك الكهـانة ولصعدت فيها إلى أسمى مكـانة، وعشت حتى تعلق بالمشنقة فيقول ناظروك «علو فى الحياة وفى الممات».

ثم ضـحكت ظهـراً لبطن فعض نيمو شفتـه غيظـا وقال: لـو كنت أرسلتنى إلى المدرســة ولم أكن قصير القـامة ولا ابن سـاحـرة لـدبرت للكبراء أنـواع التـدابير وقابلتهم بمثل ما يقابلوننى به من التحقير، لأنهم- وإن علت أقدارهم - لن يدركوا شأوى فى الـذكاء وسعـة الحيلة ولن يستطيعـوا أن يلتمسوا لأنفسهم مخرجـا من المآزق إذا زجتهم فيها حـوادث الدهر أو اندفعـوا فى تيار التهور، أمـا أنا فإنى ألبس لكل حال لبوسها وأروغ روغان الثعالب وأعمل عمل من حنكته التجارب. قالت: إذا

كنت كما تدعى بهذه المهارة فلمَ جئت للاستشارة؟ قال: لابأس بها فى هذا الزمان لأنها البصر لمن ليس له عينان، ثم لايذهب عنك يا والدتى أنك ملزمة بمساعدتى. سألته باسمة: ملزمة! ولماذا؟ أجاب: ملزمة لأنك السبب فى قصر قامتى. قالت: ولكننى بهذا الفعل فتحت لك أبواب الرزق وجعلتك فى غنى عن الناس. فهز نيمو رأسه قائلا: لا أنكر هذه النعمة التى تفيد كل من يولد فقيراً مثلى ولكنك زدت على تقصير قامتى أن افسدت منى خلقى وطبيعتى. ثم أطرق رأسه ووضع يده على قلبه كمن يحاول تسكين خفقان ألمّ به . فدنت العجوز منه وقالت فى رفق: ماذا جرى يا ولدى؟ لقد كنت أظنك فى حالة سارة ببيت مينا! فانسكبت الدموع من عينيه وقال: أمازلت على اعتقادك أننى لم أكن سيىء الحظ منكود الطالع؟ لقد أطلعتنى على مستقبل أمرى فأيقنته كما يوقن المرء حقيقة ذاته إذا تراءى فى المرآة، ولا تنسى أنك أنت التى علمتنى أساليب المكر والدهاء حتى أقوم بالمهام الدنيئة الموكو! ـة إلى عهدتى.. تذكرى جيداً... أنسيت أنك بعتنى للقيم على خزائن رعمسيس بمبلغ زهيد من المال، فأهدانى إلى صهره والد مينا؟ وها قد مضى على هذا الحادث خمسة عشر عاماً وكنت وقتئذ صبياً دون البلوغ ومتفوقا على أندادى فى حدة الذهن وخفة الروح ورشاقة الحركات. فلما انتقلت إلى البيت الجديد اتخذونى ألعوبة لمينا فكان يشدنى فى عجلته الصغيرة بعد أن يزوق جسمى ورأسى بالأشرطة والريش ثم يأمرنى بالركض فإذا تولانى التعب فخفضت السير أهوى بسوطه على جسمى الضئيل لأنشط. وكانت بالمنزل فتاة حنّت لها جوارحى وهي ابنة البواب، فكنت لا أمضى أمامها جارًا العجلة إلا وتغرب فى الضحك لشذوذ ملابسى، وكان لسان السوط متدلياً على أذنى ينذرنى بالعقوبة إذا توانيت فى الركض أو اعترانى الكلال، وكان العرق يتصبب من جبينى والدم يتقطر من قلبى الجريح.

فلما تـوفى والد مينـا دخل مينـا بيت سيتى للتعلم وتخصصت بخـدمة زوجـة الملاحظ الذى طـردته راتوتى إلى بلـدة هرمونتيس، فأصبحت فى شقـاء ونكد، لأن بنـات المنزل يتخـذننى وسيلـة للهوهن ومجونهن، إذ كن يضعننى فى مهـد صغير ويلزمننى البقاء فيه بلا حراك مع غمض العينين حتى أبدو لهن كمن يكون فى سبات عميق ويسترسلن بعد ذلك فى ضروب المزح والماجنة بينما كانت تنتاب قلبى عوامل الحقد والضغينة تارة وأسباب العشق والهيام أخرى. وكنت إذا مللت الاستقرار فى هذا الـوضع والتمست الراحة بالالتفـات أو التحرك الهين ظهرى ضربـا بالعصى، وحدث أن تملكنى الغضب يوما من هذه المعـاملة القاسية إذ ضربتنى إحداهن ضرباً مبرحاً أسال دمى، فأخذنى مينا وقد اشتد بى الغضب إلى مستودع الحبوب وعلقنى من نطاقى بمسمار مثبت بـالسقف وتركنى معلقا هكـذا فى الفضاء أيامـا معدودة، قاسيت خلالها من البـلاء والمحنة مالا أنساه أبـد الدهر، فقد تكـاثرت علىّ الفئران وأخذت تعضنى بـأسنانها الحادة وأنا لا أستطيع مقـاومة لما عـرانى من الضعف والجوع. وهـذه هى آثار العض مـا برحت ظـاهرة فى ذراعى بلـونها الأبيض ، فإذا زالت منهـا بمرور الأيام فلن تنمحـى من قلبى أبداً أبـداً.. وبعد أن عانيـت صنوف العذاب خلصنى مينا من مخالب الموت بعد أن اعتذر بأنه نسينى!

ولما تم اقتران مينا بنيفرت دعا إلى السكنى فى بيته والدتها راتوتى فجعلتنى هذه فى خدمتها. وقد أخلصت الولاء لها حتى تبينت منى الصدق فى القول والإخلاص فى النصح وأيقنت أنها لا غنى لها عنى فحملنى ذلك على إرادة الخير لها والجاه والعزة. ولا خلاف فى أنا إذا استوى آنى على عرش الملك فسأكون وإياها المديرين لسياسته.

كانت العجوز فى خلال هذا الحديث واقفة ومـلازمة الصمت. أما نيمو فقد اشتد

سعير الغيظ الكامن فى صـدره لمينا فأخذ يـرغى ويزبد ويقـوم ويقعد، حتى إذا أتم كلامه جلست العجوز على كرسى من الخشب وأخـذت تنتف ريش هدهد قائلة: لقد فهمت الآن مرادك، إنك تـريد الانتقام من خصومك لتصعد – فى أمـان من مكرهم– إلى أسنى المراتب وتلتمس منى العضـد والنصير. اجلس يا بنىّ واشرب هـذه القدح المملوءة لبنـا ليهدأ خـاطرك ويسكن روعك واسمع مـا سألقيه عليك مـن النصائح الرشيدة لا أبتغى منك جزاء ولا شكورا.. أما راتـوتى فلا أرى لها خلاصا من العار الذى لبس ابنهـا إلا بالأصفر الـوضاح وهو مـوفور بعتبة دارهـا، فما عليها إلا أن تخطـو خطوات لتحصل منـه على ما تشتهى.. وبعـد أفلم يكن الموهـار بعاكـر ابن شقيقتها؟ أجـاب نيمو: نعم. قالت: إن نيفـرت الجميلة ابنة راتوتى وزوجـة سيدك مينا قد اتصل بى أن رجلا من الأعيان يحاول اجتذابها إليه. قال: لعلك تريدين بهذا الرجل بعـاكر إذ هو السـابق إلى خطبتها فلم تشأ الاقتران بـه مؤثرة عليـه مولاى مينا. قـالت: لقد حضر بعاكـر عندى أول من أمس واشترى منى ماء سحـرياً ، وإذ كنت شديدة الرغبة فى استطـلاع قصده من شراء هذا الماء فقد اقتفيت أثره من حيث أراه ولا يـرانى، فنظرتـه يقدم الماء إلى امـرأة ذات جمال فائق علمت فيما بعـد أنها نيفرت. سأل: وهل شربت الماء السحرى؟ أجابت: نعم.. شربت ولكنه لايؤثر فتيلا فى فؤادها، إذ هو مزيج من ماء وخـل وعصارة لفت، وأرى أن فى قدرة نيفرت – لتزيد بعاكر افتتانـاً بجمالها الساحر– اقتراض ما يلزمها من المال لتسـدد به ديون أخيها وتكشف العار عنه وعن والدتها. قال: ولكن راتـوتى عزيزة النفس حمية الأنف، إذ سبق لى أن عرضت عليها هذا الاقتراح فـوبختنى وطردتنى. قالت: إذا كانت لا تحب أن تواجه نيفرت بعاكر فى هذا الطلب فلتذهب بنفسها. أما أنت فعليك أن تقابل بعاكر وتعللـه بأمنية ميل نيفـرت إليه وهيـامها بـه ثم تنفض لـه جملة حـال أهلها ومـا

أصبحوا فيه من الذلـة والمسكنة فإن رفض طلبك فافهمه أنك واقف على سرّ مسألة الماء السحرى. ففكر نيمو قليلا ثم التفت إلى العجـوز وقال: هذا هو التدبير الصائب والرأى الثاقب. قـالت: كنت بادىء ذى بدء أرى أن مساعيـك ربما لاتقترن بالنجاح ولكننى تأكـدت العكس الآن، واعتقـادى أنـه يجب على راتـوتى أن تشكـر لنجلهـا مقامرتـه على جثة أبيه. قال: أتقصـدين بهذا الكلام أن يشكر لراتـوتى من لم يقفوا على حقيقة الواقع من جمهور النـاس بذلها المال فى سبيل المحافظة على شرف اسم.. قالت: نعم هـو هذا والعلم أنك إن تقنع بعـاكر بحب نيفرت لـه وإعطاء راتـوتى ما تطمع فيه من مال فعقـدة الأشكال تنحل.. وعندئذ تتحرك عـوامل الانتقام فى صدر بعاكر فتحفزه لقضاء على مينا كى يخلو له الجوّ فيقترن بنيفرت وبذا ينتقم فى الآن نفسه ممن اذاقك مـرّ العذاب. وقد يحدث أن يصاب رعمسيس برميـة سهم توردة موارد الحتـوف. فيخلفه الوالى آنى على عـرش الملك فتتم السعادة وتنال راتـوتى ما كانت تتمناه وزيادة. قال: لاريب فى أنك مصـدر التدبير الصائب ومستودع الحكمة وصـدق النظر فى العـواقب. قالت: إنى على ثقـة من أنك ستبسط لسيدتيك راتـوتى ونيفرت وللوالى هذه التدابير الحكيمة منتحلا لنفسك فخار ابتكارها، ولكن لايذهب عنك انك إنما تتبع نصيحتى وتعمل بمشـورتى وأن لى وحدى فضل الابتكـار الذى سيقيلك من العثار. على أنه لا يمضى الغد حتى تنكر هذا الفضل الساطع وتدرجه فى طى النسيان كما لا ينقضى اليوم بعده حتى تعتقـد انك باشعة عقول 'الآلهة التسعة تستنير ومن فيـوض حكمتهم وصادق إلهامهم تستمـد القدرة على القيـام بجلائل الأعمال.. وهذا مـا أنا بـه واثقة ولكن لايغرب عن بـالك أنه لابـد لهذه النصائح من ثمن، فإنما أعيش من ثمن نصيحة أقدمها أو رأى أشير به أو اقتراح ابتكره.. أما أنت فلك من قصرك ما يكفل لك أرغـد العيش وأسنى الرزق كما يعيش غيرك بحـذقه فى

الصناعة أو جلده على أعمال الزراعة. وإذا التقيت ببعاكر وألقيت فى روعه أن نيفرت تحبه حباً جماً فبادر بمقابلة الوالى آنى وخبره بأن فى صدرى سراً مكنوناً يستطيع به استذلال بعاكر، وهو سرّ لا أبوح به إلا بثمن معلوم على شروط معينة. قال: ليس دون اخباره بمرادك عائق، ولكن ما الثمن الذى تطلبين؟ قالت: ثمنا زهيداً وهو وصية يكتبها بإعفائى من ضرائب الكهان والهياكل لأقضى ما بقى من عمرى فيما أشتهى ولأبتنى قبراً يليق بى بعد وفاتى. قال: أرجح ألا يوافقك الوالى على الطلب الأول لأنه يتجنب فى سياسته ما يمس بسلطة الكهنة، ميلا منه إلى مداراتهم ومحاسنتهم. قالت: .. ولأنه يخالف أوامر رعمسيس أيضاً. على أننى لا أكلفه أمراً جديداً فقد سبق أن زودنى رعمسيس وصية من هذا الطراز لقاء نجاحى فى علاج جواده المحبوب، ولكن النار أكلتها فيما أكلت من متاعي حين صدر الأمر بإحراق بيتى الحقير لاتهامى بالسحر وبأن ما لدىّ من الأدوات من عمل الشيطان، أما القبر فلا حاجة لى به الآن بعكس الوصية فإنه لا مناص لى منها بعد قليل من الزمان. قال: لا تجزعى فلابد لنا من الحصول على المأمول، وسأقصد إلى المقابر لتفقد القرابين ولأعلم هل قدمت فى الوقت المعين، فإذا لم تشتد وقدات القيظ ضحى هذا النهار فسأسلك هذا الطريق لأعود وردة وأزور جدها بينم وأبقى ساعة عنده.

الفصل الثالث عشر

العواطف الكريمة فى القلوب الرحيمة

كان نيمو يحادث أمه الساحرة حينما أخذ رجلان يغرسان أمام بيت المحنط أوتاداً طويلة نيطت بأطرافها خرق بالية. هذان الرجلان هما بينم وابنه الجندى الذى عاد حديثاً من الشام. وكان الشيخ يعزره لهذيه وثرثرته ويطلب الصمت منه حتى لايروعها صوته الجهورى. فلما قضيا عملهما وضعا تحت الظلة المركبة من تلك الخرق والأوتاد شيئا من قش القمح جلسا عليه ولبثا زمنا يحددان البصر فى مدخل البيت حيث كان نبسشت ينتظر بذاهب الصبر انتباه الجريحة من نومها لمباشرة علاجها.

ولقد سأل الطبيب جدّ الفتاة عن الجندى الجالس إلى جانبه، وهو شاب طويل شاحب اللون غزير شعر اللحية، فأجاب: هو ابنى، وقد ورد من الشام منذ أيام. سأل: لعله والد وردة. فهز الجندى رأسه علامة الإيجاب ثم قال بصوت خافت: إن بعض الناس لا يسلمون بأنى والدها لكونها بيضاء البشرة بينما لونى أقرب إلى السواد، ولكن فليعلموا أن أمها أجنبية أورثتها لونها الأبيض المشرب بالحمرة. ولقد كنت لشغفى بحسنها الفتان أخشى أن تمس جسمها اللطيف أناملى فقضى القضاء أن تمر العجلة على صدرها الناصع. وإن تعجب فعجب أن تبقى على قيد الحياة مع قوة الصدمة وما عانت من شديد الآلام! عندئذ دنا بينم من الطبيب وقال مشيراً إليه: لولا عناية هذا الأب المحترم لما عاشت ابنتنا، فجزاه الله خيرا تلقاء ما أجزله لنا من النعمة. فأبرز الجندى من نطاقه كيساً محشواً بالنقود وضرب عليه بيده قائلا: إنا وقد غنمنا الأموال الكثيرة من سوريا نستطيع أن نوفى الطبيب أجرته ونشترى

عجلا نقدمه قرباناً للآلهة. قال الطبيب: خير لك الاقتصار على تقديم مثال للعجل من عجين[1] وكفى به شهيدا على اعترافك بصنيعة الآلهة وصدق نياتك نحوهم. وما يبقى بالكيس بعد ذلك فسلمه إلى أبيك يقضى به حاجة ابنتك من غذاء ودواء.

فأخرج الجندى الكيس وأخذ يرمى بـه بين كفيه طرداً وعكساً كمن يعبث بأكرة اللعب قائلا: إنه ثقيل ومحشـو بالمال فياليتنى أنفقت ما فيه مع الإخـوان فى معاقرة بنت الدنـان.. وحيث إنى أخطأت هذه الفـرصة فخـذه يا والـدى لتنفقه فى العنـاية بوالدتى وابنتى وردة. وفيما كان الشيخ يبسط يده لتسلم الكيس ويقبضها مترددا، إذا بالجنـدى قد رفع يده إلى جبهتـه كمن يتذكـر أمراً غاب عنـه ففتح الكيس قائلا: دعنى يا أبت آخذ من المبلغ سبع أو ثمانى حلقات فإنى فى هذا اليوم- وأنا على موعد مع بعض الخلان للهـو والطـرب بأحد مجامع الجنـد- يجب أن أتـزود اليسير من المال. وما آخذه من الكيس الآن إن هو إلا نفقتى الليلـة وما يتبقى بعده فإنى فى غنى عنـه، فأشـــار نبسشت إشـارة الموافقـة على هـذه القسمـة وتلقـى الجنـدى هـذا الاستحـسـان بالشكـر وقـال لـه: وأرجو منك أيها الأب المحترم أن تـرالى الجريحة بعنايتك حتى يلتئم جرحها فقد مللت تقـديم القرابين وليس عندى من المال ما أنفقه فى هذا السبيل، واعلم أنى ما برحت متين القـوى وافى الذراعين فإذا كنت بحـاجة إلى من يسـاعدك على أعدائك فإنـى مستعد لدفع أذاهـم عنك ولو بلغوا العشريـن عدا.. حيـاة بحياة.. أنت أنقـذت من الموت حيـاة ابنتى وأنـا أبذل فى سبيـل الدفـاع عنك مهجتى.

---

(١) كـان فقراء المصريين ممن لايقـدرون على تقديم القـرابين من الحيـوانات الحيـة كالعجـول والخنازير يصنعون ما يشبهها شكلا من العجين ثم يقـدمونه إلى الهياكل بعد انضاجه. وتحتوى الآثار القديمة رسوماً عديدة تمثل تقديم هذه الحيوانات إلى الآلهة فى المعابد والمقابر.

قال هذا وتنـاول مدية كبيرة طفق يجرح بها ذراعه فيسيل الـدم منها على حجر قريب من نبسشت، ثم قال: هذا هـو برهان شكرى لك واعتراف بصنيعتك، وأود أن تعلم أنى قد أصبحت بعـد ذلك اتبع لك من ظلك، فمر بما أنت آمر فحيـاتى فداء لك.
قال الطبيب متلعثما: إننى رجل صلح وسلام لا رجل حـرب وحسام، وحسبى هذا الثـوب الكهنـوتى الأبيض ضمينا بـدفع شرور الأعـداء اللئـام.. والآن هل انتبهت مريضتنـا من النوم يا تـرى؟ ثم قام ودخل فى وجار المحنط فـوقع نظره على وردة مطمئنة إلى جـدتها، فلما تراءى لها حـدقت فيه النظـر بعينيها الـزرقاوين. فقـالت جـدتها للطبيب: إن وردة تشتهى الخروج وقد نـامت نـوما طـويلا هـادئاً. فجسّ نبسشت نبضها وفحص جرحها، وكانوا قد وضعوا عليه أوراقاً خضراء، فقال وقد بدت على وجهه عـلامات الفرح والاستبشـار: من أعطـاكم هذه الأوراق الطبية؟ فلم تحر جدة وردة جواباً ، فقالت وردة بتؤدة وسكون: وافتنا بها نيخت الساكنة هناك بالمغارة السوداء. قال نبسشت على عجل: نيخت الساحرة؟ لا بأس مع ذلك من بقاء هـذه الأوراق فى موضعهـا ، فإنها لا تضر إذا لم تنفع. قالت العجـوز: وقد تـذوقت نيخت أيضاً الشراب الـذى جهزته لـوردة فمدحته بقـولها إنه جالب للشفـاء. قال: حسن كل هـذا وخير منـه نقل الجريحة إلى خـارج البيت لاستنشـاق الهواء الطلق والتخلص من هذا الجو الثقيل فإنـه لا تحتمله الرئتان. قـالت وردة: إن تخرجونى من هـذا المكان نحسنـا تفعلـوا.. أيها الطبيب إننى مبتهجـة بحضورك اليـوم دون صاحبك الذى يعذبنى بصياحه حينما يتلو التعازيم والرقى.

قال لبسشت: لعلك تريـدين الأعمى تيتا، أما أنا فقـد اعتزمت ألا أسحبه فطيبى نفساً وقرى عينـا، غير أن الكاهن الذى كان يهدىء ثـائرة جدّك يوم زارتك الأميرة بنت أنات سيحضر ليعودك اليوم. وهو رجل صـادق النية حسن السريرة..فواجب

عليك.. فقاطعتــه قائلة: إذن سيحضر بنطــاؤر؟ أجاب: نعم قبل ساعــة الظهر.. ومن أين عــرفت اسمــه؟ أجــابت من زمن مضــى. فنظــر إليهــا الطبيب مندهشــا وقــال: أمسكى! لا تتكلمى إنى أرى خـــديك قـــد عـــلاهما الاحمرار وأخشى أن تعـــاودك الحمى.. والآن وقد جهزنــا لك ظلة أمام الباب فلابــد من حملك إليها. قالت: أمهلنى من فضلك ! يا جدتى أرجــو منك تسوية شعرى الذى ما عــدت لكثرته أطيق حمله. وما فاهت بهذه الكلمات حتى تناولت شعرها بملء يديها وشطرته غديرتين وأخذت تنقيــه من القش الذى اختلــط به لملامستــه الأرض. قــال الطبيب: الزمى السكــون والسكوت يا وردة، وتجنبى كل ما يسبب لجسمــك الاضطراب . قالت: أشعر بثقل هذا الشعر على رأسى. ثم رجت من جدتها أن تساعدها على تسويته، فدنت العجوز وأخــذت ترجلــه بمشط غليظ من القــرن فلما نقتــه من الشوائب جعلتــه ضفيرتين متســاويتين أرسلتهما إلى كتفيها. وكــان نبسشت يرى أن حــركتها-وهى لاتــزال مريضة – قد تفضى إلى الخطر. وكان يود أن ينبه إلى ذلك من حولها من النساء فلم يطــاوعه لســانه على الكــلام ، لما اعتراه من الدهشـــة حينما نظر إلى وردة فى روعــة جمالها فافتتن بها قلبه وطار لبه.

أما وردة فلم تكن ملتفتة إليه حينما انتهبته هذه العواطف، لأنها طلبت من جدتها أن توافيها بالمرآة فنــاولتها العجوز قطعة فخار مدهــونة بطلاء لامع فتراءت الفتاة فيها بعد أن جعلتها مقابل الضـــوء ولبثت برهة تتأمل فى ذاتها ثم قالت: مضــى زمن طويل لم أشم فيه أريج الأزهار. فقالت لها: عليك بالصبر يا ابنتى. ثم عمدت إلى إناء فانتشلــت منه الوردة التــى كانت بنت أنــات وضعتها على صدرهــا حينما سقطت لوجههــا وأغمى عليها وقدمتها إليهــا، فما مستها بأناملها حتى تســاقطت أوراقها الذابلة منتثرة حولها، فسارع الطبيب إلى التقاطها ورقة ورقة وقدّمها إليها. فنظرت

إليه مبتسمة وقالت: أشكر لك صنيعتك، وأخبرك أننى كهذه الزهرة أُسمى وردة وأحب الورد والنسيم العليل، فهل تخرجوا بى من هذا المكان؟ فأشار نبسشت إلى بينم أن يستعين بابنه على نقل الفتاة وأن يترفقا بها فى ذلك، فصدعا بأمره ووضعاها بالمكان المعد لها تحت الظلة وكان الجندى ترتعد فرائصه وتضطرب يداه المدمجتا المفاصل وهو يحمل ابنته خوفا عليها من أن ينتابها ألم، فلما تم وضعها بذلك المكان بدت عليه علامات الغبطة والارتياح، إذ لم يقع ما كان يخشاه. أما هى فتلفتت يمنة ويسرة حتى وقف بصرها على بعض الأشجار فقالت: ما أنضر هذه الأشجار وما أصفى أديم السماء! يظهر لى أن جدى قد عنى بريها وتشذيبها. وها هى الحمائم قد هبطت من الجو وأخذت تحلق حولى فائتنى ببعض حبات القمح يا جدتى لتلتقطها فى حضرتى فتضاعف بذلك مسرتى.

أخذت هذه الحمائم المطوقة الناعمة الريش تحوّم حول وردة وتتسابق إلى التقاط ما كانت تلقيه يدها السخية من الحبوب. وكثيراً ما كانت تمسك الحبة لها بشفتيها فتنحط الواحدة منها عليها لتخطفها من بينهما بسرعة ولطف. وكان نبسشت يجيل النظر فى هذا المنظر البديع فيروّعه حسنه وتترامى الآفاق أمامه إلى أبعد مدى فيستشف منها ما يهديه إلى الاعتقاد بوجود عضو فى بحبوحة صدره ينفعل بمؤثرات طالما غاب عنه إدراك كنهها، ثم استوى جالساً على الرمل وأخذ يفحص الثرى بطرف قضيب فحصاً تجلى عن صورة وردة زاهية بسوقها وأوراقها.

وكان السكون ضارباً فسطاطه على تلك الأرجاء، فأوت الحمائم إلى الظلة، وما هى إلا برهة اشتد فيها نباح كلب بينم إيذانا بقدوم قادم حتى طمح بصر وردة إلى

الطريق وصــاحت قائلــة: جدتي! هــا قد أقبل الكاهن بنطــاؤر. سـألت: ومن أخبرك بمجيئه؟ أجابت: إنى مــوقنة ما أخبرتك به. وما هــو إلا مرّ الطيف حتى طرق الآذان صوت قــائل يقول: «السلام والبركة عليكم.. كيـف حال مريضتنا اليـوم؟» . وكان بنطاؤر صاحب الصوت، فشرح نبسشت له حالتها، فدنا بنطاؤر منها متهلل الوجه. وكان يحمل طـاقة أزهار ســاطعة الأرج أخذهــا من مذبح الإلهة هاتــور التى جعله أمينى ﻓ اليـوم السابق كـاهنا لهيكلهــا فقـدمها إلى الفتــاة، وقد علت رجهــه حمرة الخجل، وقــال لها: إن الإلهة العظيمــة التى تــوليت خدمــة هيكلهــا بعثت إليك هــذه الــزهـور النضيرة، وهى لاشك ستمنحك الشفـاء والعـافيـة من فيض مكـارمهـا الضــافيــة، فتشبهى بها إذن وتحلى بخصـــالها الشريفة من طهــر وعفــاف ورقــة وانعطاف، ليكون لك من النفوذ ما لها. وكما أن أشعتهــا الساطعة تبدد المتكاثف من الظلمات على أفق الكائنات، ينبغى أن تكونى لهذا البيت الصغير سراجاً وهاجاً وبدراً منيراً. وكما أنها ما وطئت من الأرض مكـانا إلا ونمت فيــه الأزهار الطيبــة الشذى، فلابد لك من التحلى بمطرف العفاف والصون لتتفجر ينابيع الحب الطاهر الصادق من مواطىء قدميك(١)،وإنى استنزل عليك بركاتها واستهطل خيراتها ونفحاتها.

قال ذلك وأخذ يجيل النظــر فى والدها وجدها ثم تحفــز للانصراف فإذا بصوت استغاثة ارتفع من خلال أعواد الذرة المزروعــة على مقربة من المكان الذى ما كادت تردد جوانبه هذا الصوت حتى تجلى لأنظار الحاضرين شبح غلام صغير رافعاً يده إلى أعلى ما استطــاع، وفيها فطيرة يظهر من تقــوس جزء من أطرافهــا أن كلباً دهمه فقضمها، وأن هــذا هو علــة ارتفاع صوتــه بالاستغــاثة. فما رآه الحاضرون وتبين

(١) كان أهــالى دندرة يسمــون هاتــور بالإلهة ذات الأقــدام الذهبيــة، وهى تقابل أفــروديت إلهة الجمال عند اليونان.

لبينم أنه الطفل الـذى تعذبه العجـوز بوضعه فى الأداة الخشبية ليكـون من الأقزام حتى سأله: ما خبرك يا (شراعو)؟ ومن جاء بك إلى هنا؟، أجاب والدموع تنحدر من عينيه: جئـت بهذه الفطيرة لوردة، فقد وصلنـى خبر مرضهـا. وأنا أيضاً مـريض فقربه المحنط منه وقبّله بين عينيه قائلا: لك أن تهدى ما شئت إلى وردة. فتهلل وجه شراعو بشراً وطـلاقة ثم اتجه مسرعا نحـو وردة وقال لها بعد أن جثا أمـامها على ركبتيه: إليكِ هذه الفطيرة.. فإنها لذيذة الطعم سكرية المذاق.. وسأهدى إليك أمثالها كلما سمحت لى نيخت بذلك. قـالت: أشكر لك يا شراعـو هذه الرعايـة. ثم قبّلته بين عينيه، ونظرت إلى بنطاؤر قائلة: هذا الطفل المسكين قد مضت عليه أسابيع ولا طعام يقتات به سوى جذور البردى[1] والنيلوفر الأزرق[2]، ومع هذا فإنه يجيئنى اليوم بالفطيرة التى أهدتها جدتى أمس إلى العجوز نيخت.

فاحمر وجـه الطفل حياء ثم قـال متلعثما: لم أقدم إليك إلا نصف الفطيرة ولكن ثقى أنى لم أذق طعمها، لأن كلبكم هو الذى أكـل النصف الآخر بعد أن دهمنى وأنا مستتر بأعواد الذرة انتظر انصراف الأجـانب من بين يديك لأستطيع تقديمها إليك . وقد أراد بالأجانب بنطاؤر ونبسشت، قال ذلك وانصرف عائداً :فأمسك بنطاؤر به ورفعـه بين يديـه ليقبّلـه بين عينيه وقـال الطبيب لـه: بارك اللـه فيك أيها المسكين

(١) قال هيرودت وديـودورس الصقلى وبليناس المؤرخـون إن المصريين كانـوا يأكلـون جذور شجر البردى وسوقها بعد تجفيفها على النار.

(٢) كان المصريون يسحقون نـوى النيلوفر الأزرق الذى يشبه الخشخاش ويتخـذون منه خبزا غليظا يأكله فريق منهم (انظر تاريخ هيرودت). ويؤخذ من أقوال المؤرخين ومما هو مسطور على الآثار أن البردى والنيلوفـر الأزرق كانا من النباتـات الشائعة الزراعة فى مصر، وكـانا يصلحان لغذاء الفقـراء. وأكد ديـودورس أن الرجل يغـذى ابنه من هذين النبـاتين حتى يبلغ العشرين من عمره فلا يكلفه سوى عشرين درهما أى ٧٣ قرشاً.

وجـزاك خير الجزاء على حـرمانك نفسـك التمتع بما تشتهى. نعم إنك لن تصير من المثـريـن إذا دأبت على الخلق الكـريـم، ولكن قلبك سيصبح كنـزاً يحوى نفـائس الخصال ومحاسن الشيم، فألصق شراعو صدره بصدر بنطاؤر ووضع وجهه بين كفيه كالرجل الكبير يداعب الطفل الصغير وأغرورقت عيناه ثم انحدرت دموعه على صدر بنطاؤر الذى لم يسعه إلا أن أنزلـه إلى الأرض وتركه يركض حثيثاً فى الوادى نحو مغارة العجوز الساحرة، فما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى وقف بغتة إذ كـانت الشمس فى كبد السماء. فحـدثته نفسـه بأنـه إن ذهب إلى المغـارة وضعتـه السـاحـرة على خشبـة التعذيب، فـاستحسن أن يتعـداهـا إلى حيث مئـات العمال يشتغلون بإنشاء قبر للملك رعمسيس وأن يقضى فى التفرج عليهم بضع ساعات ثم يعود فيذوق آلام العذاب.

وكان على مقـربة من هـذا البناء الضخم كـوخ من سعف النخل اعتـاد النقاش الشهير (بتاؤ) أن يقضى فيه ساعات الفـراغ من العمل لالتماس الراحة، وكان هذا النقاش أصم، إلا أن شهـرته بإتقـان فن النقش انتشرت فى الآفاق فأصبـح فى عداد كبـار الرجـال الـذين تشد إليهـم الرحـال، فهـو الذى نقش الكتـابـات والرسـوم الهيروغليفية على المبانى البـاذخة التى شادها الملك سيتـى الأول فى أبيدوس وطيبة وأبدع فى تنميق قبر هـذا الملك الجليل القدر وابتكر الـرسوم الجميلة الممثلة لـوقائع الحروب ومناظر الأعياد والحفلات على جدار قبر رعمسيس الثانى.

ما بلغ شراعو إلى هذا المكان حتى أخذ يدخل الكوخ ويخرج منه ويكرر ذلك حتى لا يشعر به بتاؤ. وكان فى كل مرة يجيل النظـر فى أعماله ممعنا، ففاجأه هذا النقاش ذات يوم وهـو يصنع من الطين تماثيل بأشكال الـرجال والحيوانـات، فأخذ بعض

هذه التماثيل وأمعن فيها النظر ثم أعادها إليـه باسما بسمة الاستحسان. ومنذ هذا اليوم تأكـدت روابط المودة بينهما واشتد ميلهما بعضـهما إلى بعض، فكـان شراعو يتردد عليه كل يوم ويجتهد فى تقليد الأعمال الدقيقة التى يتمها بتاؤ فى الهيكل. وكان هذا النقاش يمسك عادة عن محادثته، وإنما كان إذا لاح له نقص فى عمله أصلحه له أو أتمه ثم سلمه إليه مبتسما ومستحسنا. وكـان إذا لم يحضر شراعو كعادته شعر بتاؤ بانقباض فى صـدره وقلق فى خاطره لما كان يحسه من الارتيـاح لوجوده عنده ساعة يتلقى عنه فيها علم ما لم يعلم من ضروب النقش والتصوير. وكان بتاؤ يقدم إليه كلما حضر قطعة من الطين الصـالح لصناعة التماثيل، فيأخذهـا معه إلى مغارة العجوز ويرتقب انصرافهـا عنه ليصنع من التماثيل أنواعاً شتى وأشكـالاً متباينة. وكان اشتغاله بها ينسيه ما يلقاه من العذاب فى آلة تقصير القوام ليكون من الأقزام.

الفصل الرابع عشر

لا تحُركْ الثعبان إذا نام.. ولا الكاهن إذا تناول الطعام

برح بنطاؤر بيت المحنط وسار مفكراً فى طريق الصحراء المؤدى إلى الهيكل الذى يتولى إدارته، وكان يضرب أخماسا فى أسداس ويتوقع الاحتكاك بصعوبات جمة فى سبيل إدارة هـذا الهيكل[1] الذى شادته حـاتاسو[2] للإلهة هاتـور. وكان للكهان القائمين عليـه امتيازات خـاصة يتنـاقلونها بـالوراثـة، من أهمها أنهم يـرشحون للريـاسة واحداً منهم. وكـان رئيسـهم السابق (رونى) فى نـزاع الموت فرأى أمينى صاحب الحق فى الإشراف على كهنة هذا الهيكـل أن يعين بنطاؤر رئيساً عليهم بدون أن يستشيرهم فى أمـره، فكبر عليهم هـذا التصرف وأصروا على منـاوأة الـرئيس الجديد، وعقدوا عليهـا نياتهم إلى حد أنه لما تسلم مقاليـد الرئاسة لم يلق منهم غير الإهانة والتحقير. وقد زادوا على ذلك أن استظهروا بمعصيتـه على طاعته وبباطلهم على حقه لاسيما وقـد أنسوا منـه الصلابـة فى الحق والميل إلى الإصلاح. وكـان من المفاسد الشـائعة بينهم والمنغرزة فى طباعهم التهاون فى العمل والركـون إلى البطالة والكسل حتى بلغ من أمرهـم فى ذلك أن ترخصوا فى فروض الدين وصاروا لايؤدون صلاة الصبح المفروضـة لفتاح إله الشمس، فقضى بنطاؤر لـرتق هذه الفتوق بأن

(١) لايزال هذا الهيكل موجودا إلى الآن بشكله الأول دون أن يعتوره خلل. وقد أورد دوميشن فى كتابه الموسوم (دوننمة ملكة مصرية) أهم رسـوم هذا الهيكل ونقوشه. وجاء فى كتاب لبسيوس شرح ضاف هذا الأثر القديم.

(٢) حاتاسـو هى ابنة تحتمس الأول وقد تزوجت بأخيها تحتمس الثـانى وعينت وصية لأخيها تحتمس الثالث، وقد اشتهرت بسمو الهمة ومضاء العزيمة. وفى عهدها انشئت أعمال كثيرة عادت على جميع الأهالى بالمنافع العامة. وقد أمرت أن يصورها النقاشون بلباس الرجل ولحيته.

يبكر صغيرو السن منهم بترتيل الأناشيد لينبهوا كبارهم إلى قضاء حق الواجب عليهم. وكانوا فيما عدا ذلك يتجرون بالتحف النادرة التي تهدى لهاتور فأصدر أوامره الصارمة بالحرص عليها وحفظها وعدم التصرف فيها، كما حال أيضاً دون احتكاكهم بالنساء اللائي يحضرن من أقاصي القطر أسراباً متتالية وشتاتا لزيارة هذا الهيكل والتبرك بصاحبته المعبودة ذات المناقب العديدة.

وكان بنطاؤر قويم الخلق عفّ النفس شغوفا بالترتيب والنظام شديد الوطأة على أهل الكسل مبغضاً للبهتان والكذب. فلما عُين كاهنا أعظم لهيكل حاتاسو ورأى في رجاله نقيض هذه الصفات الفاضلة على خط مستقيم انتوى إصلاح حالهم وتقويم المعوج من أمورهم وإيقاظهم من غفلتهم واستفزازهم إلى إحراز قصب السبق في ميدان الكد والعمل، لعلمه أنه لو نفض أولئك الكهنة غبار الدعة والسكون وقاموا بواجباتهم وأدوا أعمالهم الموكولة إليهم لنفعوا العامة وأصابوا الغرض الذي لأجله انتظموا في سلك الكهنوت، وهو تخفيف ويلات المنكوبين وايتاء الصدقة للفقراء والمساكين.

وما مر عليه اليوم الأول في رياسة كهنة ذلك الهيكل حتى تبين طباعهم واستبطن أخلاقهم وعاداتهم، بما تبجحوا أمامه به من الغطرسة والزهو والتيه وتعمدوه من الإغضاء والإهمال في حق امرأة ذليلة جاءت تشكو بثها من زوج عاملها بالحرمان والهجر وأخرى في عنفوان الشباب غررّ بها مغرر حتى أخرجها من عصمة ربها وثالثة تندب سوء حظها لما أصابها من العقم ورابعة انزعج خاطرها على ولدها وفلذة كبدها فجاءت تلتمس طمأنينة النفس وخامسة من الأيامى طلبت أن تطفيء لوعتها بالعزاء الجميل والسلوان. فقد رأى أن أولئك

الكهان بدلا من أدائهم مفروض الواجب يبـالغون فى احتقار تلك النسوة أو يهتمون بابتـزاز المال منهن أو يعهدون إليهـن ببيع الهدايا والتحف النفيسـة المقدمـة للإلهة هاتور ويختصون أنفسهم بأثمانها.

وكان بنطاؤر قـد دنا من الهيكل ، وملء رأسه الأفكار والهواجـس، فحانت منه إليه التفاتة صوّرت له هـذا المعبد فى شكل أنيق ومنظر بهيج، إذ كان عبارة عن أربع بنايـات تبدو لعين الناظـر متصلة بمنحدر الصخـور التى تناطح قممهـا السحاب ارتفاعا وعلى حافات سطـوحها تماثيل كبيرة من النسور تمثل الإله حورس وتشير إلى الاعتقاد فى الإلـه الحق الذى يحيى العظام وهى رميم ويبث فى الاغصـان الجافة ماء النضرة والحياة.

وكـانت كل بنايـة من البنايـات الأربع عبارة عن بهو فسيح الجوانب تستـوى سقوفـه على اثنين وعشرين عموداً [١] وتتغطى جدرانه بنقـوش تخلد ذكرى عهد الملكة حاتاسو وما امتـاز به من رغد العيش واستقرار الأمن وعزة الجانب وامتداد السلاطن، ومن إنفاذ الدوننمة المصرية إلى بلاد العرب لفتحها[٢]،وبيان ما قامت به من جليل الأعمال كجلبهـا من عجائب الشرق وتحفـه كل نادر ومستغـرب وأنواع سكانه وحيوانه ومساكنه وصنوف أسماك البحر الأحمر [٣] . أما البنايتان الثالثة

---

(١) هذه الأعمدة مضلعة، وقد صنعت فى الأصل لتزيين قبـور العائلة الثانية عشرة، تم استعملها ملوك العائلتين السابعة عشرة والثامنة عشرة فى مبانيهم الدينية والمدنية.

(٢) نقل ماربيت باشا من نقوش أعمـدة هيكل الكرنك أسماء الشعوب الذين قهرهم الملك تحتمس الثالث، ولاسيما فى الحملة البحـرية التى وصل المصريون فيها إلى شواطىء أفـريقية الشرقية أى أراضى بلاد الصومال.

(٣) وصفها الدكتور دونتز وصفا دقيقا فى كتاب له وأورد رسمها بدقة كذلك .

والرابعـة فمؤلفتـان من غرف أبـوابها من الحجر الأعبـل. وقد تم بنـاؤهما فى أيام حاتـاسو وأخـويها تحتمس الثانى وتحتمس الثـالث. وهما قريبتـان من البنايتين الأولى والثانيـة وكانتـا خاصتين بـالتطهير وعبادة التماثيل الممثلـة للإلهة هـاتور وبتقديم القـرابين لروح الملكة حـاتاسو، وبإحـداهما مكان الكاهن المنـوط به تلقى الاعتراف ممن يحرزون فضل الـدخـول لأداء فـروض العبادة فيهما. أمـا البقـرة المقدسة فكان لـها مكان خاص إلى يمين الداخل فى المعبد.

فلما وصل بنطاؤر إلى المدخل الأكبر للبناية الأولى من هيكل حاتاسو شـهد منظراً أزعجـه وأثار غضبـه. ذلك أن امـرأة كانت تستأذن فى الـدخـول إلى مكان الصـلاة لاستنزال الرحمات بصالح الدعوات على زوجها المريض، فانفتل إليها البواب وكان رجلا بدين الجثـة قبيح السحنة فدعها عن الباب بعنف ونهرهـا وقال لـها مستهزئا ومشيراً بإصبعه إلى الكتابة المنقوشة عليه: انظـرى هذه الكتابة، فقد جاء فيها أنه لا يتجـاوز عتبـة هذا الهيكـل إلا من كان طـاهـراً من الـدنس. والتطهير لا يكـون إلا بالبخـور. قالت المرأة المسكينـة ملحفة فى الطلب: حرك مبخـرتك وخذ هـذه الحلقة الفضية فى مقابل صنيعتك، واعلم أننى لا أملك سواهـا. صاح الكاهن مغضباً : هذه الحلقـة الفضـة!. أتـريـدين بها أن تهبط الآلهة من علوة مجدهـا وسـامى مكانتهـا لتقضى حاجـة بنفسك؟ أما علمت أن حبوب (الانتا) الصـالحة للتطهير تساوى من الثمن عشرة أمثال ما تعطينني من المال؟.. قالت المرأة. قلت لك إننى لا أملك غير هذه الحلقة لأن زوجى الـذى جئت لاستنزال الرحمات عليـه مريض ولا يستطيع العمل لأحقق بسـد مطالبك الأمل، دع أن أولادى.. فقـاطعها بقولـه: أتريـدين أن تسمنى أولادك على حساب الآلهة؟.. اعطنى ثلاث حلقات، وإلا أقفلت دونك هذا الباب. قالت المرأة باكية: كن رحيما بى.. لا أدرى ما أصنع إذا لم ترض هاتور عن زوجى العليل

وتمنحه رعايتها. قال الكاهن: أوتظنين أن إلهتنا سترسل إليه الأطباء لمعالجته؟ أوما علمت أن لديها من الأعمال ما يصرفها عن العناية بالمرضى الذين يموتون جوعاً؟.. اعلمى أن ليس من مناقبها شفاء المرضى، فيحسن بك إذن أن تقابلى (أمحوتب) و(خون) صاحب المشروعات أو (تيشوتى) المنوط بها مساعدة المرضى[1] وإلا فلسنا ممن يبيعون الأدوية والعقاقير. قالت وقد أخذتها العبرة : إن أقصى مرادى التعزى على مصابى وتخفيف آلامى وأوصابى. فتبسم البواب وأطال النظرة فى المرأة، وكانت على جملة من الحسن وريعان الشباب، فقال: أتريدين التعزى على مصابك وتخفيف آلامك وأوصابك؟ إن التعزية التى تريدين بضاعة لا تكلفك شيئاً من المال.

فما استأذنت هذه الكلمات على سمع المرأة حتى اصفر وجهها ودفعت البواب بعنف عنها. وكان قد أخذ بتلابيبها وشهد بنطاؤر فعله الذميم فثار فيه الغضب ولم تكن إلا طرفة العين حتى توسطهما، فاندهشا لظهوره على حين غرة ورفع هو يده ليبارك فى الزوجة الحزينة التى جثت أمامه على ركبتيها وقال: إن الإلهة هاتور تأذن لمن يستغيث بها ويبتهل إليها أن يدنو منها. واعلمى أيتها المرأة أنك طاهرة ولك أن تدخلى معبدها. فنهضت المرأة واقفة ثم انطلقت مهرولة إلى ناحية الباب بينما كان

(١) امحوتب بن فتاح، وكان قدماء اليونان يسمونه اسكليبوس، وكانت مدينة منفيس مقر عبادته، وكان يمثل جالسا وبيده كتاب وعليه ما يغطى رأسه، وتوجد جملة من تماثيله فى برلين ومتحف اللوفر ومتحف الجيزة، ويملك القس هاهرون الروسى تمثالا جميلا له

أما خون فأحد معبودات طيبة الثلاثة، وقد أُرسل تمثاله إلى آسيا فى عهد العائلة العشرين لينقذ من الشيطان ابنة أحد ملوكها، وجاء فى كتاب «الأثر الجليل لقدماء وادى النيل» بيان هذه الحادثة بالتفصيل (صفحات ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥)

بنطاؤر يلتفت إلى البواب ويوبخه على فعله بقوله: أبمثل هذا تخدمون الإلهة هاتور؟.. أبمثل هذا تخففون ويلات المنكوبين وتتصدقون على بنى الإنسان بالبر والإحسان؟.. أنت معزول عن عملك فاعطنى مفاتيح الباب، وبكّر من غدك إلى المرعى لحراسة أوز الإلهة هاتور.

فترامى البواب على قدمى بنطاؤر باكيا منتحباً ، فلم ينثن عن عزمه ولم يرث لحاله بل ولى عنه بكتفيه وصعد ببطء إلى المكان المعد لإقامته بأعلى البناية الرابعة. وكان كلما التقى بطائفة من الكهان أعرضوا عنه إما بغض الطرف أو الالتفات إلى ناحية أخرى، ذلك لأنهم تألبوا عليه وتحزبوا ضده لاعتبارهم إياه دخيلا فيهم. فلما وصل إلى حجرته المفروشة بأحسن الأثاث وأفخر الرياش، خلع ملابسه ولبس الحلة الكهنوتية. ثم أخذ يفكر فى مركزه الشاذ إزاء أولئك الكهان ويقيس حاضره بغابره ويبين مقدار الفرق بينهما، فاستنتج من المقارنة أن حكم أمينى عليه بالنقل إلى هذا المكان كان حكما صارماً، لأنه كان فى بيت سيتى مرموق المنزلة ومحترماً من الأساتذة والطلاب. أما فى هذا الهيكل فقد أصبح بين نارين: الضجر والضغينة، لأنه كان إذا سار فى فناء هيكل سيتى هرع إليه الطلاب من كل فج ومكان وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر وأخذ يطارحهم الحديث فى العلوم والمعارف فيزداد بهذه المطارحة رسوخاً فى العلم وسعة فى الاطلاع والفهم.

وكان يناجى نفسه بقوله « إن الإنسان ميال بطبعه إلى كل جديد طلّ إلا أنه يتعذر عليه التنحى عن العادات التى شب عليها». ثم سرح الطرف فى حوادث اليومين الماضيين فمثلت له بنت أنات بشكل أخذت حقائقه تبدو بما استهوى فؤاده وملك قياده. وكان قلبه فى هذه الأثناء مترادف الخفقان شديد التأثر والانفعال، كما

كان عقله محلقاً فى سماء التأملات الخيالية، فتذكر ما قالته الأميرة من اعتزامها سلوك منهجه واقتفاء أثره وتساءل عمّ إذا كان أهلا لأن يكون لها مرشداً ودليلا. ثم انتقل من هذه الذكرى إلى ما كان من إفشائه الأسرار الدينية وانكاره الطقوس والعادات الكهنوتية، ولكنه راجع نفسه بالتساؤل عن الذنب الذى جناه إذا كان الغرض الذى رمى إليه بإذاعة الأسرار جلاء المبهم من الحقائق وسطوع الأنوار؟ وأية إساءة تعاب على الإنسان إذا اعتقد بحقيقة يراها فى كفة الرجحان؟ ثم استرسل فى هذه التصورات استرسالا حمله على اعتزام الثبات فى عقيدته ومداومة السير فى طريقته، فلما هدأ باله وسكن روعه خرج إلى سطح الهيكل مرتاح الضمير مصراً على دعوة الكهان إلى تأييد الحق وازهاق الباطل، وأخذ يتناجى بقوله.. « ما هو الجنس البشرى؟ إن أمهاتنا تلدننا فنقبل على هذا العالم ورائدنا الآلام والاسقام، وندبر عنه تاركين خلفنا الأحزان والأكدار.. أفلا يكون من الواجب المحتوم علينا– ونحن بين المهد واللحد– أن نقوم بتسكين الآلام ومعالجة الأسقام وإزاحة الأتراح؟ وإذا رأينا دموعا تنهمل فلِمَ لا نبادر بتسلية الباكين وإيداع الفرح والرجاء فى قلوب العانين حتى يكفكفوا الدموع المنحدرة على خدودهم؟ إن هذا هو الوجب، وآداؤه علينا ضربة لازب».

لم يلتق بنطاؤر بأحد فى طريقه لأن الكهان كانوا قد احتفوا بالبواب ليسمعوا منه ما اتفق له مع رئيسهم على الباب وليتدبروا الوسائل لنكايته، فلما شهدهم ملتئمين تقدم نحوهم بقدم ثابتة وقال: لقد عزلت هذا الرجل عن خدمة الهيكل، إذ فى بقائه بيننا العار الفاضح والوصمة التى لا تمحى أبد الدهر. قال البواب بصوت المتبجح بعد أن تصفح وجوه الكهان بما يدل على ما بينهم من الاتفاق والتآمر: سأبرح على الفور هذا المقام قاصداً الكاهن الأعظم أمينى لأسأله أيجوز للمدنسين الدخول فى

الهيكل الطاهر المقدس. ثم دنا من الباب فـاعترضه بنطاؤر قائلا: ستبقى هنا اليوم والغد وبعـد الغد والمدة التى أريـدها، فإذا لم تسنـح فرصة للعفـو عنك فلابـد من صرفك لحراســة الأوز. فأرسل البـواب إلى الكهان نظـرة المستفهم الحائر فبهتـوا جميعاً ولم تبـد من أحدهم حركة كأنهم الخشب المسنـدة أو التماثيل الجامدة. وإذ رأى بنطاؤر ذلك منهم قال للبواب : عُد إلى مكانك. فلم يسعه إلا إطاعة الأمر. فأغلق بنطاؤر الهيكل وسلّم مفتاحه إلى بعض الخدم قائلا له: لقد جعلتك فى حراسة الباب بدلا من هذا الرجل، وكن عيناً عليه حتى لايفر من هذا المكان وإلا قضيت عليك مثله بحراسة الأوز.

ثم التفت إلى الكهنـة وقـــال: أنتم تـرون أيها الأصـدقـــاء أن الهيكل قـد غص بالعابدين وأنهم متجهون إلى الإله بقلوبهم، يستدرون بركاته بصلواتهم ، فاهرعوا إلى أداء واجباتكم الدينيـة. أما أنا فسأذهب إلى غرفـة الاعتراف لسماع بث الشاكين وتفريج هموم المنكوبين.

فتفرق الكهـان شتاتـاً فى كل مكـان، وصعد بنطـاؤر فى الدرج قـاصداً إلى محل الاعتراف الذى كانت صورة حاتاسو مرسومة على جداره تستدر لبن الحياة الأبدية من ضرع بقـرة هاتـور. وما كـاد يصل إليه ويسـدل على بابـه الستار حتى جـاءه النيكور (فـريق من الكهان) فأخبره بـوصول سيـدة تبدو عليهـا أمارات الحسب والجاه، وأنها تلتمس الدخول إلى محل الاعتراف وأنها وأتبـاعها متنكرون بحيث لا يستطيع التعرف عليهم أحد، ثم قدّم إليه العلامـة الرمزية التى أطلع الكاهن الأعظم هذه السيدة عليها لتستطيع بواسطتها الدخـول فى الهياكل المقدسة. فوقف بنطاؤر خلف الستار ولبث ينتظر الزائرة وهو فى قلق عظيم مع أن أمينى كثيراً ما كان يعهد

إليه وهـو فى بيت سيتى استقبـال الأميرات والأمراء العظـام لتفسير ما يرونـه من الأحلام.

ولم تكن إلا جولة الخاطر حتى أقبلت سيدة رشيقـة القوام سارت مندفعة نحو غرفة الاعتراف ولزمت الصمت، ثم جثت على ركبتيها أمام المعبودة هاتور فى وضع يدل على الطـاعة والخشوع. أما بنطـاؤر الذى كان وقتئذ خلف الستـار، فقد بسط يديه بالدعـاء إلى فاطر السماء أن يؤيده بروح منه ويثبته على الطهـر والنزاهة. وما أتم دعـاءه حتى رفعت السيـدة رأسهـا فخيل للنـاظر أنهما سـواء فى التجـرد عن المحسوسات الكونية والتوجه بقلبيهما إلى المقاصد العلوية، ووقفت السيدة بعد ذلك حاسرة النقاب عن وجهها فاذا هى بنت أنـات جاء بها إلى هيكل المعبودة هاتور قلق تسلط على الفؤاد فسلبها لذة الرقاد، وقد خاطبت المعبودة بقولها: يا ملكة السموات يا زاهية الطلعة يا صاحبة الأسماء العديدة.. المعبودة هاتور.. أنتِ المطلعة على أسرار السعـادة والشقـاء والأفـراح والاتـراح، أنت التى أحـاط علمك بحـوادث الحال والاستقبال، اقتربى مـن ابنتك واهدى عقلها الحائر إلى قصـد السبيل والمثل الأعلى للحق والصواب. إنى أكرم ابنة لأكرم أب فى هذه الديار، بل أقرب الناس عند المقارنة إلى مكانة الربوبية. دعانى هـذا الوالد الكريم إلى الاقتران برجل لا يهواه فؤادى ولا تحن إليه جوارحى، ولم يكن طلبه هذا لزاماً إذ خولنى حق الرفض والقبول وكانت محاسن الاتفاق قد ساقت إلى طريقى رجل اخر، إن يكن وضيع الأصل خامل الذكر فهو رفيع الهمة رحيم القلب متوقد القريحة..

وكان بنطـاؤر منصرفاً عنها بتلاوة الـدعاء، فلما بلغت من المناجـاة إلى هذا الحد وأدرك أنه هو المقصود بها، أخذ يفكر أيجوز لـه البقاء فى مخبأه لاستقصاء ما يكنه صدرها من الأسرار أو البروز من خلف الستار حتى لا تفـوه بعد الذى أبدته بما لا

تود إطلاع الغير عليه، فآثر البقاء قليلا حتى تنطق باسمه أجمل أميرة وأشرف امرأة فى الأمة المصرية، غير أنه هتف به هاتف يقول له «خذ حذرك يا هذا ولا تدع تلك التى أوليتها خالص حبك تفوه بكلمة تفضى بها إلى الاستحياء منك إن فهمت أنك كنت آذنا لمناجاتها من وراء ستار» فاتبع نصيحة الهاتف إذ بادر فى الحال بفتح الستار والتقدم نحو بنت أنات بقدم الحزم والثبات.

ما وقف نظر الأميرة عليه حتى عراها ولهٌ فتراجعت إلى الخلف قائلة: يا لله.. من أنت؟ ومن أين أنصببت علىّ؟ أنت بنطاؤر أم إله من آلهة هذا الهيكل؟ أجاب: كلا بل أنا بنطاؤر.. أنا المحب لخير الناس وبرّهم على ما بى من ضعف وعجز.. أنا الراجى منك البقاء فى هذا المكان حيث لا أثر للمخاوف والأحزان.. افتحى قلبك للإلهة هاتور وثقى أننى سأقضى حياتى كلها فى الدعاء لك واستمطار غيوث الرعاية الربانية عليك. وكان بنطاؤر يتناولها بنظره وينصرف إليها بلبه وفؤاده، وإنه لكذلك إذ حانت منه التفاتة إلى باب السر، لمكان الاعتراف فذهب مهرولا نحوه كما لو توقع خطراً على نفسه، فصوتت به بنت أنات فاقبل عليها متباطىء فقالت: لا أريد وأنا ابنة رعمسيس الجهر بحقيقة ذاتى ولا المطالبة بالمفروض من احترامى، وإنما باعتبار كونى الفتاة بنت أنات أخبرك بأننى لم أتوقع رؤيتك فى هذا المكان بدلا من الشيخ رونى الذى جئت أسارّه فى أمرى وأفضى إليه بما فى صدرى. وحيث إنه من هنا قد مضى فدعنى أتم صلواتى وأوجه إلى الإلهة دعواتى.

ثم جثت على ركبتيها وخرج بنطاؤر ، فلما أتمت الصلاة برحت المعبد. وكان قد طرق أذنيها دوىّ شديد وجلبة عظيمة من ناحية الجنوب فأطلت من الشرفة لاستطلاع السبب، فسمعت أفواج الشبان ينادون: ليحيا بنطاؤر! ولم يكن إلا مرّ الطيف حتى أقبل الشاعر مسرعا ووقف إلى جنب بنت أنات، فما بصرت به جموع

المتظاهرين حتى ضاعفوا الهتاف قائلين: بورك فى بنطاؤر! يقوى بنطاؤر! هو مولانا وسيدنا! عُد إلى بيت سيتى! ليسقط الظالمون! ليهلك المعتدون!

وكان راميرى شقيق بنت أنات فى طليعة الطلبة المتظاهرين الذين لم يكن احتشادهم نتيجة اتفاق سابق بل جاء من طريق المصادفة، لأنهم ما كادوا يقفون على خبر نفى أستاذهم من لسان الأمير حتى تسللوا من الهيكل بعضهم فى أثر بعض وتركوا الدرس بتحريضه وإغرائه ثم تدفقوا بقضهم وقضيضهم إلى فناء الهيكل للقيام بتلك المظاهرة الولائية الدالة على مكانة بنطاؤر من نفوسهم. ولما وصلوا قبال الشرفة أشار راميرى إلى أخته إشارة الفرح بالانتصار والفوز، ووقف الشاب أنانا أمام زملائه الطلاب فألقى خطبة فصيحة العبارة بليغة المعانى أبان فيها أنه ورفاقه قد عقدوا النية على مغادرة بيت سيتى إذا لم يلغ أمينى أمره الأول القاضى بإبعاد أستاذهم وحرمانهم الاستفادة بثمار معارفه اليانعة. قال هذا بذلاقة لسان لم تتمالك معها بنت أنات من أن تصفق بيدها على اليد الأخرى إعجابا واستحساناً. أما بنطاؤر فقد كان وجهه يتربد ويكفهر حينما أوشك أنانا أن يتم خطبته، فلما أتمها نشب يعنفه على مروقه عن الطاعة الواجبة للكاهن الأعظم، وذمم إليه وإلى زملائه عدم الأخذ بالتؤدة والحيطة فى الأمر وقال: إنه لجدير بى أن أحزن إذا كان ما لقنتكم إياه من الدروس لم يثمر إلا تشجيعكم على مخالفة النظام واحتقار القوانين. إن القصور الشاهقة والدور الرفيعة الذرى كانت مساقط رؤوسكم، فإن أنتم لم تشبوا على الطاعة فبم تسودون غيركم وتحكمون؟ عجلوا الأوبة إلى مدرستكم فإن ترددتم فإنى مرغمكم على ذلك بقوة الحراس، ولايذهبن عليكم أن مظاهرتكم إيايّ بالميل لى على هذا الوجه لن تتفق مع سموّ مكانتكم، كلا بل ولا تطابق الأصول التى نقشتها فى صفحات صدوركم.

لم يجرؤ المتظاهرون أن يردوا بكلمة على هذا الاعتراض ، ولكنهم تداولوا ملياً فانحط رايهم على العودة إلى المدرسة، وقد وخز الندم ضمائرهم. أما بنت أنات فقد مدت نظرها إلى راميرى وهو يهز كتفيه ضجراً وتبرماً فاغضت عنه الطرف ثم التفتت إلى بنطاؤر وقد تنازعها عاملان: الخجل والاحترام. وفيما هى ترشقه بنظراتها إذا بالوادى وقد امتلأ ضجيجاً وعجيجاً، ولاح من بعيد غبار كثيف وطرق الآذان صهيل الخيل ووقع حوافرها وفرقعة المركبات التى تجرها، وانجلت الجلبة عن قوم وقفوا أمام الهيكل فإذا بهم سبتاح رئيس المنجمين ونفر من الحراس يحفون به.

نزل سبتاح عن مركبته وعلامات الغضب بادية على وجهه وأخذ يعنف الطلبة الهاربين من المدرسة بأشد الألفاظ وقعاً فى النفس. وبعد أن أمر أعوانه بسوقهم إلى هيكل سيتى، دخل المعبد فاستقبله الكهان بمظاهر الاحترام والإجلال وأنشأوا يعرضون عليه شكاياتهم فأصغى إليهم وتلطف بهم. وبالرغم مما ناله من الإعياء والتعب صعد مسرعاً فى درج الهيكل فالتقى فى طريقه ببنت أنات، وما كاد يقع نظرها عليه حتى أسدلت النقاب ومرت بجواره. وكانت موقنة أن بقاءها فى الهيكل قد يفضى إلى تأويل أسبابه على غير ما تحب ، إلا أنها لم تعبأ فى بادىء الأمر بسبتاح بل صعّدت فيه النظر، والغيظ محتدم فى صدره. فلما وقف على خبرها أحنى رأسه أمامها إجلالا دون أن يبارك فيها. ثم استأنف الصعود فالتقى ببنطاؤر فأمره بإخراج المصلين على الفور من المعبد، فنفذ أمره فانتشر السكون بأرجائه، وإنما اتفق أن وقع حادث جلل لم يقع مثله بساحة المعبد منذ أنشىء وأقيمت فيه صلاة للمعبودة هاتور.

ذلك أن سبتاح كان خصما لدوداً لبنطاؤر، وكان كثيراً ما ينتقد الكاهن الأعظم لإبقائه إياه فى سلك الكهنة ناعياً عليه أنه زلزل أركان الدين وضعضع جدران التقاليد القديمة التى كان فى مبدأ أمره من أول المتمسكين بها والمتعلقين بأهدابها. ونسب اضطراب الطلاب فى هذا اليوم إلى ما يكون قد بثه من الدسائس ، فما كاد يقع نظره على بنطاؤر حتى أنحى عليه باللائمة ولم يراع له كرامة إذ قال: لقد ألقيت بأبنائنا فى مهاوى الوبال وأغريت بنت أنات بالتمادى فى الضلال ولا أدرى كيف أجزت لنفسك الاتفاق معها على التلاقى بهذا المكان الأقدس مع تلوثها بالدنس؟ وكيف زدت الطين بلة بأن جعلت موعدك بلقائها فى معبد الإلهة هاتور البريئة من العيوب والنقائص؟.

إذا كان الثناء يبدل من ضعف القلوب قوة بما يبثه فيها من الثقة ويحييه من ميت الأمل فإن اللوم الجائر يكون فى طريق القوى الثابت الجنان كالحجر الذى تزل فيه أقدام الشجعان. فإنه ما كادت ترن فى أذن بنطاؤر عبارات التأنيب التى وجهها سبتاح إليه حتى هاج غضبه وقال: إن ما رشقه به من سهام التنديد والتبكيت لم يكن على شىء من الحق والعدل، بل هو مما لا يليق بمثله منزلة وسنا وشهرة أن يلفظه. وقد اقتصر على هذه الملاحظة دفعاً لسوء العاقبة إذا هو مضى مسترسلا فى إدحاض التهم التى وجهها إليه، ثم ولى بجانبه عن سبتاح فجأة فتعلق هذا الشيخ بأذياله وأمسك بتلابيبه وصاح بكهان الهيكل فهرعوا إليه وسألهم عن سيرة بنطاؤر فتطابقت شهاداتهم على ما يؤيد إدانته قائلين: إنه لم يكتف بفتح باب الهيكل على مصراعيه لبنت أنات، بل أدخل فيه امرأة أخرى ملوثة بالدنس مثلها، وزج بالبواب فى السجن لأنه أقام الحجة عليه إزاء هذا الخروج على الأنظمة الكهنوتية.

أمر رئيس المنجمين بإطلاق سراح هذا السجين فـاهتاج بنطاؤر لذلك واحتج، لا لأنه ستطاع أن يدحض التهم المسندة إليه، بل لأنه المسؤول وحده عن إدارة شؤون الهيكل، ثم طلب إلى رئيس المنجمين -وقد تهدج صوتـه- الخروج من المعبد، فأبرز له سبتاح خاتم أمينى الذى يثبت نيابتـه عنه فى إدارة الأعمال الكهنوتية أثناء غيابه وقال إنه بمقتضى السلطة المخـولة له قد قرر عزلـه من منصبه الكهنوتى وأمره فى الآن نفسـه ألا يبرح الهيكل إلا بإذن، وقصـد بعـدئذ هيكل سيتى ليرفع إلى الكـاهن الأعظم نتيجة المهمة التى عهدها إليـه. أما بنطاؤر فمذ وقع بصره على الخاتم أحنى رأسه احتراماً وطاعة وانقلب من فوره إلى الغرفة التى اجتمع فيها ببنت أنات. وكان يحس اضطـراباً فى ضميره وخفقـاناً بقلبـه وأنـه في متنازع العـواطف المتناقضـة والأفكار المتباينـة، واختلط عليه حتى صور له أنه يرى الكهـان وهم يسخرون منه ويحقرونـه والبواب وقـد تجاوز فى مخاطبته حدود الأدب، إذ أخـذ يرشقـه باللفظ البذىء ويعيب عليه صرامته فى معاملتـه ويذكره بما تمّ لأهل الهيكل من الغلبة عليه فى كيدهم له. وقد كان فى سماعه لهذه الأقوال يرعد وينتفض كما لو أتى ذنباً يسجل عليه العار ويقبحه فى الأنظار.

ولكنـه ما لبث أن هـدأ روعه شيئـاً فشيئاً بعـدما بـرح الغرفـة ونصد إلى أحـد مستشرفـات الهيكل. فإن شعـاعـاً من الأمل انبعث إلى فـؤاده فصبره على تجرع الغصة وقـوّاه على كظم الغيظ. ولقد حانت منـه، وهو واقف، التفاتـه إلى ما يلى نهر النيل من ناحية الشرق فابصر قصر الملـك رعمسيس مسقط رأس بنت أنات ومعهد انسها، فدبت فيه روح الهمة وتضـاءل أمامه بأس أعدائه حتى تلاشى، وتضخمت فى نظره خسـاستهم وضعة قـدرهم فازدرى بهم وتـرفع عن منـاوأتهم، ولكنه لم

يـذهب عليه أنـه أصبح محفوفـاً بخصـوم الداء وأن قـد حانت السـاعة للنضـال والمقارعة فى ميدان النزال.

الفصل الخامس عشر

ربما أرشد الكبيرَ صغيرٌ ..وقاد ذا العينين ضرير

كانت الشمس مؤذنـة بالمغيب حينما وقفت الأنظار على مركبـة يجرها اثنان من الجياد الصافنات، تجرى فى النهج المؤدى إلى هيكل حاتاسو، يتبعها كلب كبير الجثة يلهث بلسانه. وكـان بعاكر يقود هذه المركبة ويتبعهـا العبد الحبشى الذى سبقت الإشـارة إليه فى بعض الفصـول المتقدمـة، فما دنت من جدران الهيكل حتى طـرق الآذان صوت يصيح صاحبـه مناديا « يا بعاكر!». فاتـأد بعاكر فى سيره لاستجلاء الخبر، وبينما هو يتلفت يمنة ويسرة كالمرتاب فى أمره إذا برجل قصير القامة يهرول مقبلا من مخبأ اختبأ فيه كما لو كان يتوقع مـروره واللقاء به. فما وقع نظر بعاكر عليه حتى عرف أنه القزم نيمو، فقـال له: أمثلك من يعترضننى فى طريقى.. ما تريد إذن منى؟ .. فأطرق نيمو رأسه إعظامـاً وإجلالا وقال: إنى أبتهل إليك بما عز عندك أن تأخذنى إلى طيبة متى عدت من قضاء ما لأجله قد جئت. قال بعاكر: ألم تكن قزم مينا؟ أجـاب: كلا، إنما أنا خادم نيفـرت قرينته المهجـورة المنسية.. وإذا رفعت إليك هذا الملتمس فما هـو إلا لأن قدمىّ الصغيرتين لا تستطيعان أن تقطعا هـذا الطريق الطويل الكثير الرمل والعثير، بخلاف جيادك الصافنات فإن أقدامها تنهبه نهباً. قال بعاكر: دونك والركوب معى! ولمَ جئت ماشياً إلى هذا المكان؟ أجاب: ما جئت ماشياً بل راكبا حماراً فأصابه مس من الشيطان فهوى إلى الأرض بلا حراك. والراجح أن بنات أوى ستجعل اليوم منه غذاءها فتكون أوفـر منا حظا. قال بعاكر: المتبادر من كلامك أن الخير عند سيدتك غير موفور. قال نيمـو: أما الخير فلا يزال عنـدنا منه

بعض الرغفان، وأما الماء فالنيل طافح به، وأما اللحم فمن عادة النساء والأقزام ألا يميلوا إليه. ولقد تشكلت آخر بقرة بقيت فى حوزتنا بشكل جديد إذ صار لحمها جامداً وكان طريا، فلم يفهم بعاكر معنى هذه النكتة، فالتفت إلى نيمو بعين المستفهم فقال هذا له، وقد تبين سبب حيرته: نعم، إنها بيعت فاكتسبت شكل النقود، والنقود جامدة. على أن النقود أوشكت أن تنفد من عندنا فنضطر إلى التغذى بالطين والماء وأوراق النخل. أما أنا فلا يهمنى أحضر الطعام أم غاب لأن معدة القزم صغيرة يملؤها الشيء اليسير، بخلاف مولاتى المسكينة الرقيقة الحواشى.. عندئذ أهوى بعاكر بسوطه على غاربى جواديه حتى آلمهما فأخذا يثبان ويجمحان، وعجز عن إذلالهما وكبح جماحهما إلا بما بذل من الحيلة والسياسة وما إليهما من مختلف الوسائل. واطلع على حقيقة الأمر العبد الحبشى فقال لمولاه ربما أودى بحياتهما ضربك بهذه القسوة، ومن الخسار أن نفقد هذين الجوادين الكريمين. فتبرم بعاكر بهذا الكلام وقال: وهل يسألك أحد ثمنهما إذا ماتا؟ ثم التفت إلى نيمو وقال متأثراً: وكيف يهمل مينا شؤون بيته فيتركه بلا مؤونته من الطعام؟ أجاب نيمو: لأنه يكره نيفرت قرينته وقد طلب إليه الملك بعد الفوز الأخير أن يختار ما تصبو إليه نفسه من الغنائم فانتخب من بين السبايا مَن راقه جمالهن وسار بهن إلى صيوانه. ولا أعلم كيف أقدم على هذا الفعل وليس فى نساء مصر من يدانى نيفرت فى حسنها الفاتن. سأله: أتحبها يا نيمو؟ أجاب: كيف لا وهى أعز عندى من إنسان عينى.

كانت المركبة فى أثناء الحديث قد بلغت إلى باب المعبد فألقى بعاكر بأزمة الجياد إلى العبد الحبشى ثم نزل عنها وأشار إلى نيمو بالانتظار فيها حتى يعود. وسأل بعاكر البواب فى الدخول لمقابلة رئيس الكهان ثم وضع بضع حلقات من النقود فى يده فأخذ الرجل يطوف بالبخور حول بعاكر وفتح الباب قائلا: عسى أن تجده

بـالقسم الثالث من الهيكل، ولكنــه لم يكن الآن رئيسنا. سـأل بعـاكر: وكيف وهـو المعروف فى هيكل سيتى بأنــه الكاهن الأكبر لهذا المعبد؟ فهز البـواب كتفيه مبتسما وقال متهكما: قد يريد الإنسان رأس النخلـة فيجد فى البلوغ إليها بعض العناء ثم لا يلبث- إن سقط- أن يصل إلى أسفلها بأسرع مما وصل إلى أعـلاها، والحجر الثقيل رفعه عسير وحطه يسير. قـال هذا وصحب بعاكر إلى مكـان بنطاؤر. فما وقع عليه نظر الشاعر حتى عـرفه وسأله عمّ جاء به إليه. فأجـاب : إنه جاء فى استفسار حلم رآه.. وقبل أن يقص رؤياه عليه قـال إنه لا يسأله التفسير بالمجـان بل إنه اعتزم أن يرسل فى مقابله هدية فاخرة إلى الإلهة هاتور، إذا جاء التفسير مطابقا لمشتهاه. سأل بنطـاؤر: وما كنت تفعـل لو جـاء على غير مـرادك؟ أجاب: اكتفى منهـا بـرأس من الضـأن. قـال هذا دون أن يفهم المراد من سـؤال بنطاؤر، لأنــه كان اعتاد فى تقـديم القـرابين والهدايا إلى الآلهة أن يجعلهـا بحسب أهمية التفسير ومطـابقته لمشتهـاه، وكـان من جهـة أخـرى يجهل أن بنطـاؤر لايكترث لما يقـدمـه الـزوار من الهدايـا والقرابين. ولقـد تذكر بنطـاؤر ساعتئذ مـا سمعه من الكاهن جـاجابو وهـو يزن الموهـار ويبـدى رأيه فيما اتصف بـه من الجهـالـة والضعف والاغترار، فأحب أن يختبره ليقيس حكمه عليه بحكم ذلك الكاهن فسأله: وإذا فسرت رؤياك بما لا يكون طيباً ولا خبيثاً ،فماذا أنت فاعل؟ أجاب: أقـدم غزالا وأربعاً من الأوز. سأل بصوت شديـد: وماذا تفعل إن امتنعت عن قضاء حاجتك ورأيت أنــه لا يليق بشرف الكاهن الإتجار بوظيفته، وتعريضها للتحقير والامتهان، وقلت لك إنه لايجوز له قبول هدية فى مقابل ما هو ،مكلف به من قضاء مصالح الناس؟.. إنى أعرفك مذ كنت معنا تلميذاً بالمدرسـة وأريد تعـريفك الآن بأن من الأشياء مـالا يصلح للشراء ولا للبيع، مهما تكن ثروة المشترى من مال طائل تليد وطارف.

فتراجع الموهار إلى الـوراء مبهوتا، إذ لم يسبق له أن رأى من كـاهن مثل هذا الشمم وهذا الإباء. ولم يحر جوابا على كلامه، فـاستأنف بنطاؤر حديثه قائلا: لم أكن هنا إلا عبداً خـاضعاً وخـادماً حقيراً لـلإلهة هاتـور، وقد بدا لى مـن وجهك أن صدرك ممتلىء بـالغضب والحقـد علىّ وأنك على وشك المضى فيما جبلت عليـه من الشـدة والعنف. ولكن فلتعلم أن القـدرة الرّبـانية لم تبعث إلينـا بالأحلام فى المنـام لتعليل النفس بفـرح أو لصيانتهـا من همّ وترح، وإنما هى وسيلـة تمهد للنفس السكـون والطمأنينة بالتوكل على الإله فى حالة الهم والترح وبـالشكر له والثناء عليه فى حالة السرور والفرح. والـذى أراه وأذهب إليـه هو أن يكـون بكاؤنـا وضحكنا مـرآة ما وصلت إليه نفوسنا من درجات الكمال، ومن ثمّ أرفض رفضاً قاطعاً تفسير رؤياك، على أن لك أن تعـود إلى هنا مرة أخـرى صفر اليـدين من الهدايـا والهبات وممتلىء القلب بالصدق والخشوع، فأسأل المولى عندئذ أن يفيض علىّ من نوره ما اهتدى به إلى تأويل الرؤيا بما يدعو إلى التفاؤل بالخير ولو كانت مما يدعو إلى التفاؤل بالشر، وأرجو منك بعد هذا أن تتركنى وشأنى وأن تبرح الهيكل. فحـرّق بعاكر الأرّم غيظا ولكنه غلب على نفسه فكظم غيظـه وانصرف مدمدماً بقوله: لـو لم تعد إلى الصواب بنفسك لعـاقبتك على تبجحك ووقاحتك، ومع هـذا فلسوف أريك كيف يكـون تأثير الثروة ولو كانت آتية من طريق الميراث. أما بنطـاؤر فقد قال فى نفسه: هذا عدو آخر ولكن من غير طراز أولئك الأعداء!

كان نيمو فى خلال محادثة بعاكر وبنطـاؤر، قد استدرج البواب إلى الايغال معه فى مناجاة افضـى هذا إليه أثناءهـا بكل ما وقع من الحوادث فى المعبد صبيحة اليوم، فلما خرج بعاكر وركب العجلة كاد نيمو يتميـز من الغيظ لأنه لم يركب معه فجذبه العبد الحبشى من نـاصيته ورفعه حتى ألقـاه بالقرب من قدمى مـولاه حينما كان

يزمجر قائلا: هذا الحقير! هذا الوغد الدنيء! هذا الكلب لسوف يرى ! لقد علمت أن اسمه بنطاؤر! فلما سمع نيمو اسم الشاعر قال لبعاكر: يظهر أنهم عينوا لرياسة هذا المعبد لصاً يقال له بنطاؤر كان ببيت سيتى ثم نُفى منه لقبح سيرته وسوء سمعته. ومن أفعاله الشائنة أنه حرّض طلاب المدارس العليا على العصيان وادخل فى هذا المعبد نساء بالدنس ملوثات. وقد نقل لى البواب الآن أن رئيس المنجمين فاجأه اليوم مع بنت أنات فعزله عن وظيفته الكهنوتية. فبهت بعاكر وقال متعجبا: مع بنت أنات!.. وسكت هنيهة ثم قال: نعم مع بنت أنات، وهو الذى لابد قد قضى معها فى بيت المحنط تلك الساعات وقتما كنت أحادث نيفرت وأجلب الماء إليها من مغارة الساحرة. قال نيمو: إنى لا أتمنى أن أكون فى موقف بنطاؤر لأنه إذا كان رعمسيس بعيداً عن هذا المكان فإن آنى قريب منه. ولست بمنكر أن آنى بطىء الحركة فاتر الهمة، ولكنى أعتقد أنه لايود أن تدرج تلك الحمامة من عشه أو تفلت من يده. فرمق بعاكر القزم بعين الحيرة، إذ لم يدرك المراد بهذا الكلام، فقال نيمو الماكر وقد تبين سبب حيرته: إن الوالى آنى التمس من رعمسيس أن يزوجه من ابنته فلم يجاوبه سلبا، لأنه حفظه الله ممن يحبون البسط والانشراح بإقامة الأفراح. ولعلك تعلم ذلك أكثر مما يعلمه غيرك. سأل بعاكر: أنا.. أجاب نيمو: ومَن غيرك؟.. وهل ذهب عليك أن مليكنا هو الذى أكره راتوتى على تزويج فتاتها من مينا.. لقد أفضت إلىّ بهذه الحقيقة وهى على ما أعتقد لا تنكرها إن حادثتها فى موضوعها. فهز بعاكر رأسه استنكاراً، ولكن القزم استرسل فى الحديث بصوت المقتنع بصدق ما يقوله إذ قال: ومع هذا فقد كان من أحب الامانى إلى راتوتى أن تكون زوجا لابنتها، وإنما قضت الإرادة الفرعونية بتزويجها من غيرك. والسبب فى ذلك على ما أيقنته أنك لم تكن محمود السيرة فى الباب العالى بدليل ما يعيبه رعمسيس عليك ويذكّرك على

الدوام به مما لايرضيك سماعه، ولا يدهشنك علمى بهذه الأسرار فإنما أنا أشبه بالفأر المختبىء وراء الستار يرى كل شىء ويسمعه دون أن يراه أو يسمعه أحد.

هنا أوقف بعاكر مركبته ونزل عنها وأشار إلى نيمو بالنزول بعده، فلما صدع بأمره دعاه إلى مسايرته حتى يبلغا النهر ليستطيع أن يسمع منه كل ما يعلمه منذرا إياه بأنه إن تبين له كذبه تركه فريسة للكلاب تمزق جسده شر ممزق. قال نيمو: أعتقد أنك على فعل ما تقول أقدر منك على قول مالا تفعل ، غير أنى أرجو منك أن تمشى الهوينا فقد ابتدأ التعب ينال من قدمىّ.. وبعد ففى وسعك أن تستقصى من راتوتى ما وقع من الحوادث بينها وبين رعمسيس، وأنا ضمين بأنها لن تتراجع عن الجهر لك بأن فرعون أكرهها على تزويج نيفرت من مينا. وما أشقى حظ سيدتى المسكينة التى آمنت بأكاذيب ذلك الأحمق وأباطيله فكان نصيبها أن تواصل الليل بالنهار فى الأحزان والأكدار. ولطالما مررنا أنا وراتوتى أمام منزلك فكانت إذا رأته حددت إليه نظرها وتنفست الصعداء وأخذت نفسها بالتعزير والتعنيف لسقوط عزها وامتهان كرامتها ولأنها أوشكت أن تضطر إلى السكنى مع أمة الآمو (١) النازلة فى البلاد الواطية، لأن الأشراف والعظماء سيفرون منها ومن ابنتها فرار السليم من الأجرب.. ويحق لمثلك فى الواقع أن يهنىء نفسه لأنك لم تخلط حظك بحظنا، وإلا لمسك بعض ما مسنا.. هذا ولا مناص لى من ملازمة سيدتى الفاتنة للعقول بجمالها إذ ينبغى لى كما شاطرتها أيام الفرج والرخاء أن أشاطرها أيضا

(١) الآمو قوم من أبناء سام كانوا فى عهد حوادث هذه الرواية يقطنون الجانب الشرقى من الوجه البحرى. راجع كتاب (المصريون وكتاب موسى) لجورج ايبرس مؤلف هذه الرواية والفصل الخاص بالساميين فى مصر من كتاب (تاريخ مصر) تأليف بروكش. وذكر ماسبرو أن لفظة آمو أو (بى- أمو) انقلبت فيما بعد بتواتر الاستعمال (بياميت).

أيام الشدة والضيق. فقاطعه بعاكر: لمَ تكثر من الألغاز والأحاجى، وما معنى هذا الهذر والهذيان اللذين لا أساس لهما ولا أركان.. أفتخشى أذى إن أنت أفصحت وللحقيقة أوضحت؟..

أخذ نيمو عندئذ يقص عليه ما اتفق لأخى نيفرت من مقامرته على جثة أبيه وخسارته إياها وأنه أصبح مثقلا بالديون وأن راتوتى ونيفرت أصبحتا من ذلك فى غم شديد لانثلام شرفهما وسقوط جاههما وتلوث صحف تاريخهما على مدى الأيام. ثم سكت هنيهة واستأنف الحديث بصوت المتوجع: ولكن لابد لهذا الداء من دواء إذ مازال بالإمكان انقاذهما من وهدة الذل والامتهان.. إنى أرى زوج نيفرت يبعثر ماله التليد والطارف وما انضم إليه أخيرا من حصة وافية فى غنائم الحرب دون أن يفكر فى زوجته. وليس فى قدرة راتوتى أن ترتق هذه الفتوق لأنها إن دعت الناس إلى معاونتها انفضوا من حولها وتفرقوا بدداً كالدجاج الذى تهوله رؤية النسر منقضا عليه من السماء. سأل بعاكر: ما مبلغ الدين؟ أجاب: الدين فادح ولا أدرى فى هذه الأيام التى عمّ العسر فيها وطمّ حتى أصاب الناس جميعا كيف تدفع سيدتى عنها العار بتسديده للدائنين. ولقد أنست من نيفرت العزم البات على هجر زوجها والبعد عن مخالطته، بعد إذ عهدت منه الكذب والتراخى فى أداء حقوقها المفروضة شرعاً عليه، ولعلها الآن لهذا السبب تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه.

فتصفح بعاكر وجه نيمو تصفحاً ينمّ عن ارتيابه فى صدق أقواله وتنبه نيمو لذلك فابتدره بقوله: نعم تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه، لأنها ما برحت- منذ التقيت بها فى المقبرة- تذكر اسمك وتحدث بأمرك. وكثيراً ما أفاضت فى مدحك وذكر مناقبك وإيثارك الجد على المطايبة والمهازلة. وهذه المزايا لم تتوافر قط فى

زوجها الذى عهـدت فيه الخفة والنزق. ولقـد بدا لى منها ما أيـد عندى الظن فى أنها وقعت فى شرك حبك. فأحس بعـاكر حينما سمع هـذه الكلمات قشعريـرة اختلجت بشدة تأثيرها أعضـاؤه فمشى مغذًا فاضطر نيمـو إلى الرجاء منه ثـانياً أن يتئد فى سيره ويتباطأ، فأجـابه بعاكـر إلى طلبه وظل الاثنان يسيران الهوينـا حتى بلغا إلى ضفة النيل دون أن يلتقيـا بأحد، إذ كـان السكون سائداً على جميع الأرجـاء. وكان زورق بعاكر المزخـرف بأبدع النقوش والـرسوم راسياً عند الضفـة ليستقله لدى عودتـه إلى طيبة، فنزل إليه مع نيمـو والحشم والمركبة وجواديها وجلس فى غـرفة بمقدمه وإلى جانبه نيمو. فلما استقرا فى مكـانيهما، قال بعاكر لنيمو بصوت خافت: أنا من قرابـة راتوتى.. كنا فى خصام ثم تصالحنـا أخيراً ،فلمَ لم تقصد إلىّ فى قضاء حاجتها وتفـريج كربتها؟.. أجاب: لصلفها وعزة نفسهـا وتجافيها عن كل ما يحط من قدرها.. ولاعجب مادام الدم الذى يجرى فى عروقها هو عين دمك. ولقد سمعتها ذات يـوم تقول إنها تفضل الموت مـع أبنائهـا على أن تبـذل ماء وجههـا فى التماس النجدة من رجـل تعتقد أنها أساءت إليـه. وقد اتبعت فى ذلك المثل القـائل « لا تطلب الإحســان ممن أسأته». قـال بعـاكر: يـؤخـذ من قـولك أنها فكرت فى الاستمـداد بمعونتى»؟ أجاب: نعم فكرت فى ذلك من بادىء الأمر، وإن ترد أن أبوح لك بالأسرار كلها فـإنى أؤكد لك أنها لم تشك لحظـة فى كرمك وسعـة جنابك وما رأيـت منها إلا الاحترام لاسمك والتعظيم من شأنك، فإن سـاعدتنا الأقـدار وأصيب مينا بسهم فى الحرب أو غيرها يصمى فؤاده فإنها ستعد نفسهـا ولاريب سعيدة بأن تضع ابنتها العزيزة بين يـديك، وأعتقد أن نيفرت لن تنسى ذكرى رفيق الطفـولة والحبيب منذ نعومة الأظفـار، بدليل أننا حينما عدنا ذاك المساء من مـدينة الأموات وقبل أن يُفتح الخطاب الوارد من ميدان القتال كانت ملآنة منك(١). ولقد اخبرتنى خادمتها بأنها

(١) كان قدماء المصريين يقولون فلان ملآن منك أى ممتلىء بحبك، وباللغة المصرية القديمة (يه).

سمعتها تهذى باسمك أثناء نومها. فاطرق بعاكر برأسه وقال: إن هذا لمن أعجب العجب!.. فى الليلة التى ذكرتها رأيت فيما يرى النائم أن نيفرت برزت من خدرها تتهادى فى أحسن مظهر وأجمل رواء، وقد أبى كاهن الهيكل ذاك الجبان الوقح أن يفسره لى. قال نيمو: إنه لرجل مجنون.. ومفسرو الأحلام هنا كثيرون، وإنى لمن أوسعهم خبرة بتفسيرها، وقد ذهبت لى بذلك شهرة يعرفها الجمهور وفى مقدمتهم أتباعك، نسلهم إن لم تكن من المصدقين. وكثيرا ما جاءت الوقائع مؤيدة لصدقى فى التأويل. فقص إذن علىّ ما رأيته فى المنام. فأنشأ بعاكر يرسم بمقبض سوطه على البسط خطوطاً ملتوية متعرجة ثم قال: رأيت أننى كنت على مقربة من النيل وأنى أرى الماء راكدا والسماء صافية الأديم، فلمحت نيفرت بالضفة الأخرى تناديني باسمى، فأشرت إليها باصبعى فهرولت نحوى جرياً على وجه الماء، كما لو كانت تجرى فى السهل. فلما تدانت حتى صارت منى على قيد شبرين مددت إليها يدى لتمسك بها، فما هو إلا مرّ الطيف حتى غاصت إلى قرار الماء واختفت عن الأنظار. عندئذ لم أتمالك أن ألقيت بنفسى إلى الماء ونزلت فيه هابطا فإذا بى قد أدركتها وأخذتها فى ذراعى، غير أنى لم ألبث أن شهدت صورتها الجميلة تتلاشى قليلا قليلا، كما يتلاشى برد جبال سوريا إذا جُعل فى قبضة اليد وتأثر بحرارتها فاستحال إلى ماء، ورأيت شعرها الفاحم وقد انقلب لونه إلى أبيض ناصع ناعم كزهر الزنبق، وعينيها وقد انبعثت منهما سمكتان اختفتا فى عجاج الماء، وشفتيها وقد أصبحتا فرعى مرجان هويا إلى قاع النهر، وجسمها وقد تشكّل بشكل تمساح رأسه كرأس مينا، وقد أخذ هذا التمساح يرشقنى بنظرات الازدراء ويبتسم ابتسامة التهكم. ولذلك استولى الغضب علىّ فلم يسعنى إلا أن جردت سيفى وانقضضت على ذلك الوحش الهائل الخلقة. ولقد أحسست أسنانه الحادة تنفذ فى

جسمى فمكنت السيف من حلقه فجرى دمى ودمه ممتزجين كالسيل فاصطبغ بهما ماء النيل. وكانت المناجزة بيننا شديدة مديدة قمت عقبها من النوم مرعوبا يتصبب جسمى بالعرق الغزير وترتعد فرائصى ويتركنى صوابى.

وما انتهى بعاكر من قص رؤياه حتى تنفس الصعداء، وبدا لمن يراه أن هذا المنام الذى أقلق راحته وأحرج صدره قد تجدد فى ذاكرته فأثر فى نفسه تأثيرا وحرك فى قلبه لواعج العشق والغرام. وكان نيمو يمعن فيه النظر فلزم الصمت دقائق معدودة حالها بعاكر بقدر عددها سنوات، ولكنه قال متثاقلا فى الكلام: حقا إنه لحلم من أغرب الأحلام ، ولكن ليس من العسير تفسيره على العارفين بأسرار التأويل. إن رؤياك تفيد فى القرب منك ولكن يحسن ألا ترى الوصول إليها سهلا.. إذ لابد أن تحبط امالك وتتحلل كما تتحلل دقائق البرَد إذا تأثرت بحرارة اليد إن لم تقض قضاءك الأخير على التمساح الحارس للأمنية التى تريد الظفر بها.

وما انتهى من تفسيره إلى هذا الحد حتى وصل الزورق إلى ضفة النهر ورسا إلى جانبه، فوقف بعاكر وقال: ها قد وصلنا. قال نيمو متفائلا خيرا: نعم وصلنا إلى الغرض المطلوب ويا حبذا لو اجتزنا الآن القنطرة الضيقة التى بين هذا المرسى والساحل. فلما اجتازها كلاهما قال نيمو لبعاكر: إنى أشكر لك إكرامك إياى وحفاوتك بى. وإذا كنت ترى أنى كفؤ لقضاء حاجة لك فمرنى بما تشاء. قال بعاكر: تعال هنا. ثم جذبه إليه ووقف معه فى ظل شجرة ، وكانت الشمس على وشك الغروب فسأله: ما معنى قولك هذه القنطرة الضيقة واجتيازها.. أنت تستخدم المجاز كثيراً فى كلامك ولهذا يغيب عنى معناه. فأطرق نيمو مليا ثم صعد نظره فى بعاكر وقال: أتود أن أصارحك على شرط ألا يؤلمك كلامى؟ قال بعاكر تكلم ولا

تخف. أجاب: التمساح فى رؤياك هـو مينا فابدأ بحذفه من الـوجود لتجتاز القنطرة وتظفر بمـرادك.. فإن تتبع نصيحتى تصبح نيفرت فى قبضـة يدك. فأشار بعـاكر إشارة أراد بها إفهام نيمو أنه سمع قولـه وعقد النية على تنفيذه. ولكى يوقن حسن طالعه وصدق فأله، خصوصاً وقد أفضى بعزمه إلى غيره وقف بحيث يصير الهلال إلى يمينه تيمناً واستبشـاراً. أما نيمو فنظر إليـه حين بدرت من بعاكـر هذه الحركة وقال له: تحرز يا هذا من أن تتلاشى نيفرت قبل أن تقضى منها أربا كما تلاشت فى المنام، واجهد نفسك بانتشالها هـى ووالدتها من وهدة العار، لأن فى دخولهما دارك وقد تلوثتا به سبة لك باقية فى الأعقاب. وكان بعاكر مطرقا رأسه يفكر، فختم القزم حديثه بقوله: أتأذن لى فى أن أزف إلى سيدتى بشرى ما انتويته من نجدتها وانتشالها من وهدتها.. أأفعل ذلك؟.. إن تأمر بذلك فقد جاءت العاقبة طبق مرامك لأن من ينفق المال عن سعة ليرى من يحبها يهن عليه بذله جميعاً لصيانة شرفها وصيتها.

الفصل السادس عشر

ما وقع من الحوادث والأحوال لأحد الأبطال

آذنت الشمس بالمغيب فلبست مدينة الأموات جلباب النوم والتمست الراحة من عناء اليوم، وطلع القمر من ثنيات وادى المقابر الملكية ساطعا بأشعته اللجينية، وارتسمت ظلال الصخور والجبال على صفحات الرمال، ومد السكون على الآفاق أوسع الأوراق، وسبحت طيور الليل فى الأجواء فشاكلت فى طيرانها أسلاك حرير سوداء يلاعبها الهواء، ونشر البوم أجنحته وتنقل من جدار إلى جدار لينذر المتشائمين بالويل والدمار، وراغت بنات آوى بين القبور بسكون وسكوت تتحرى ما سيق لها من الرزق والقوت، غير أن ذلك السكون لم يكن مستمر الاتصال بل كانت تتخلله ضجة مغالبة الضباع والرئال.

على أن سكان ذلك الوادى لم يتمتعوا جميعا بلذة الرقاد، إذ شوهدت أشعة ضوء منبعثة من مغارة نيخت الساحرة ووميض نار أمام بيت بينم كانت تذكيها جدة وردة– من وقت إلى آخر– بأقراص الروث المجففة. وكان يعشو إلى هذه النار رجلان أخذا يتأملان أشعتها المدنسة الضوء، وقد بهتتها أشعة القمر الزاهية الطاهرة الضياء. وكان والد وردة عاكفا على سلخ كبش ذبحه، فقال له بينم: أسمع الآفاق تدوى بعواء بنات آوى. ثم أفرغ على كتفيه رداء ممزقا من القطن ليقيهما رطوبة الجو. فقال نبسشت: متى انتهيت من السلخ فألق إليها الأمعاء. أما الفخذان والظهر فاجعل منها شواء لذيذاً وانتزع القلب بلطف أيها الجندى.. أى نعم هكذا. فما وقع نظر نبسشت على القلب حتى تناوله وعنى بفحصه. وكان بينم يرقب

حركاته مضطرب الخاطر منزعج الفؤاد فسارّه بقوله: وعدتك أن تعمل ما تشتهى ولكنك الآن تطلب منى محالا. فرد الطبيب عليه قائلا: المحال! المحال! ما سبب هذا المحال؟ لقد قضيت عمرك تشق جثث الموتى بدار التحنيط التى أجزتك بالدخول فيها والخروج منها على هواك. ولابد أثناء قيامك بعملك أن تكون الآنية (١) معك، فعندئذ لا يبقى إلا أن تضع هذا القلب فى إناء منها ثم تبدّله بقلب إنسان ولا خوف عليك أن يراك أحد أو يشي بحقك. واعلم أنه سواء عندى أقمت بهذه المهمة غداً أم بعد غد فإن لك اختيار أنسب الوقت لقضاء حاجتى. وما على ابنك إلا أن يشترى كل يوم كبشا أدفع إليه ثمنه من مالى فتأخذ قلبه بعد ذبحه تبدّله بقلب إنسان وهكذا حتى أوفق للنجاح فى عملى.. وهل تستريب بعد ذلك فى أن حفيدتك العزيزة ستحرز بفضل هذا الغذاء الصحة والشفاء.. هيا .. هيا.. لا تخف. قال الشيخ: لست أجزع من الخطر بل من سلب الموتى عضوا عليه قوام حياتهم فى الآخرة. إنى قد عشت فى الدنس والفاقة سنوات طويلة، فبم أجاوب يوم الحساب إن سئلت؟ ولايذهب عليك أنى مازلت طامحا إلى المقام فى (عالو) وفى زورق الشمس استدراكا لما فاتنى من ملاذ الدنيا، ولست أدرى كيف تريد أن يحرم مثلى سعادة الآخرة قضاء للبانتك وتحقيقا لأمنيتك؟!.

قال الطبيب: أنت عاجز- ولك العذر- عن فهم المراد من طلبى، وإدراك ما أرمى إليه بالحصول على ذلك القلب. ولكن ثق بأنك إذا جئتنى به ستشاركنى فى فضل

(١) يريد بها آنية الأموات التى تتخذ من الطين أو الحجر لتحنيط أحشاء الموتى فيها. وكانوا يعتقدون أن هذه الآنية الأربعة مشمولة برعاية شياطين الموتى المسماة أمست ونابى ويومنترد وييسنود، وكان لكل واحد منها غطاء يمثل مقبضه شكل الشيطانة التى يعزى إليها أى رأس إنسان ورأس قرد ورأس ابن آوى ورأس كلب.

عمل جليل جزيل النفع للناس. وما كان إلحاق عليك أن تنجز طلبى لغرض ذاتى أو شهوة ثار فى النفس ثائرها بل لمقصد خيرى سيعم نفعه الناس جميعاً ولست -والحمد لله- ممن تطيب نفوسهم إلى الفراغ المفسد للطباع حتى أصبح تواقاً إلى قضاء المنافع الذاتية والتماس الشهوات النفسية.. أما ما اعترضت به من خوفك على سلامة روحك فى الحياة الأخرى فكل ما أسألك أن توقنه أنه لا خوف عليها وأنه لاداعى لحزنك واسترابتك.. وحسبك أن تعلم أنى من طائفة الكهان، وبالتالى من أدرى الناس بما إذا كان عليك فيما أدعوك إلى فعله تبعة فأقيلك من العثار بها، وإن لم يكن فيه تبعة فأحضك كل الحض على القيام به، لاسيما إذا قُصد به الخير والإحسان والنفع العام. على أنه إذا سألك قضاة الموت فى الآخرة عن أخذك قلب الموتى من الأوانى المعدة لتحنيطها وراموا محاسبتك على هذا الفعل فلك أن تجاوب بأننى أنا الذى أمرك به والذى أخذ تبعته على نفسه. فأطرق الشيخ رأسه مفكراً حائراً، فلما شهد الطبيب ذلك منه قال: لك تلقاء مبادرتك بقضاء حاجتى أن أضع الأحجبة على جثتك بعد وفاتك، وسأكتب برسمك منذ اليوم كتاب الخروج (١) وأضعه تحت اللفائف والأكفان التى سيدرج فيها جسمك فتتساوى فى هذا الامتياز بالأمراء والعظماء ولا تكون لهم عليك ميزة، وبذا يتوافر فيك من القوة ما تصد به الشياطين إذا حادوا بك عن الصراط السوى، دع أنك ستستطيع بفضل تأثيره الدخول فى معهد الاحكام الزوجى الذى توزع فيه المثوبة والعقوبة على فاعلى الخير والشر فتستمتع بالحياة الأبدية بين الأخيار والأبرار فى عليين. قال الشيخ متنهداً: ولكن ربما خففت سرقتى لقلوب الموتى فى موازينى وضاعفت ذنوبى. فأطرق

---

(١) توجد الفصول المستخرجة من كتاب الموتى مع المومياوات أو تحت اللفائف وفى طيات الأكفان.

نبسشت هنيهة ثم قال: إذا أخذ الخوف منك والحذر هذا المأخذ فإنى مزودك منذ الآن كتابة أعترف لك فيها بأننى أنا الذى أمرك بالسرقة ولك أن تجعل هذه الكتابة فى قطعة قماش وتضعها على صدرك لتدفن معك متى انقضى أجلك، وإذا سألتك تيشوتى المنوط بها أمر الدفاع والمرافعة عن الروح أمام أوزريس وقضاة الموت (١) فقدم إليها هذا الكتاب ومتى قرأته بصوتها الجهورى فإن القضاة سيحكمون ببراءة ساحتك.

قال الشيخ: من أين لى علم مضمون الكتاب إذا كنت أجهل القراءة والكتابة؟ أجاب نبسشت: أقسم لك بالآلهة التسعة أننى لكاتب فى الورقة ما ذكرته لك وهو أننى أمرتك بنزع قلب أحد الموتى وأنه إن يستتبع هذا العمل تبعة فإنما تقع علىّ لا عليك. قال الشيخ: لا باس الآن.. هات الكتابة. فبدأ الطبيب أولا بمسح العرق الذى كان يتقطر من جبهته ثم مد يده إلى بينم وقال له: غدا تكون الكتابة بين يديك واعلم انى سأباشر علاج حفيدتك حتى يتم شفاؤها.

وكان والد وردة مازال عاكفا على سلخ الكبش الذى ذبحه فلم يفهم مادار من الحديث بين والده وبنسشت، فلما اتم هذا العمل انفذ قضيبا فى فخذ الكبش ووضعه

---

(١) يحتوى الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من كتاب الموتى رسم مجلس العدل الذى يحاكم فيه الفارون من الحياة، وقد مُثل فيه أوزريس جالسا تحت ظلة مستديرة وإلى جانبيه اثنان واربعون قاضيا وامام أوزريس قرد براس كلب وهو حيوان توت المقدس الذى يقيم الوزن ويضع على إحدى كفتيه قلب الميت وعلى الاخرى صورة الهة الحقيقة التى ترشد الروح إلى دار الاحكام، ويحرر توت صورة الحكم فتقيم الروح الدليل على أنها لم ترتكب ٤٢ جرما توجب حرمانها، فإذا سلم القضاة بزعمها سميت مياشروا(اى الحقيقة المتكلمة) وجُعلت في عداد السعداء والابرار ويرد إليها قلبها فتنمو فى حياة جديدة وتصير شبيهة بالآلهة.

فوق النار فامتلأ الجو برائحة الدهن المحترق ونفذت هذه الرائحة فى خياشيم بنات آوى، فأخذت تتوارد تباعا من كل فج مهتدية بحاسة الشم إلى مكان الشواء. ونسى الشيخ ثقل المسؤولية على عاتقه مـذ رمق بعينه الشواء، لأنه لم يكن ذاق اللحم منذ عام. وكـان نبسشت يرسل إليـه وإلى ابنه وقـرينته نظرات الحنـان والعطف وهم يفترسون اللحم كـالوحوش ويتعـرقونـه بشراهة ولاسيما والد وردة الـذى كانت تبدو عليـه علامات الغبطـة لازدراده ذلك الطعام الشهى. وقد كـان سريعا فى اللقم والقضم والمضغ والابتلاع والتمطق بشكل تربد له وجه الطبيب وتقززت منه نفسه فتحولت رأفتـه على القوم اشمئزازا منهم، وحـدّث نفسه بأنهم حيوانـات مفترسة ولكنها ذات ضمائر وقلوب. وأنهم يقدرون على الخلاص مـن عالم المحسوسات إلا أنه أنـس منهم الطموح إلى السعـادة الأبدية فى العـالم الباقى.. ولا يبعـد أن يتحقق متمناهم دون غيرهم من النـاس. وقد رأى الجندى الطبيب تضطرب شفتـه إذ كان يناجى نفسه، فصاح به قائلا: ألك فى قطعـة لحم من هذا؟ ثم انتزع بأسنانه نسيرة مما بيـده وقدّمهـا إليه، فتراجع نبسشت إلى الخلـف وقد غثت نفســه حينما شهد بعينى رأسه أسنان الـرجل مصبوغة من الدم بلـون أحمر داكن، وقارن بين وجهه الـدميم ووجـه وردة الســاجيـة الطـــرف الـوضـاءة الجبين، فلم يتمالك أن سأل العسكرى: أأنت صدقا والد وردة ؟ فضرب الرجل صدره بيديه وقال: لاريب فى أنى والدها صدقا كما لا ريب فى أن سيتى والد رعمسيس. وما أتى الرجلان على الكبش قضما وازدراداً حتى همّا بمسح أيـديهما بخبـز رقيق ابتلعـاه بعد. وكـان سـؤال نبسشت لايزال يدوى فى أذن الجندى فتنفس الصعداء وقال متمما إجابته: أم الفتاة أجنبية وليست بمصريـة، وقد وُلدت هـذه الأيكة البيضاء فى عش الغـراب الأسود. سأل الطبيب: ومـا هو وطن امرأتـك؟ أجاب: لا علم لى بوطنهـا. سأل: كيف .. أولم

تسألها عن أصلها ووطنها لما تزوجت بها؟ أجاب: سألتها، ولكن من أين كان لها أن تجاوب؟ إن شأنها غريب وتاريخها طويل. قال: أرجو منك أن تقص هذا التاريخ علىّ لأقطع بسماعه الوقت وأسلى الخاطر فالليل طويل والفؤاد جريح، ولكن تريث قبل البدء بالكلام حتى أتعهد المريضة واتفقد أحوالها. ثم دخل وجار المحنط وأكب على فراش القش والقصل الذى كانت وردة مطروحة عليه. فلما تأكد من نومها وانتظام حركة أنفاسها عاد إلى الجندى وجلس إلى جانبه وأخذ بينم يرقب القمر فاغراً فاه فانشأ ابنه يقص حديث امرأته حيث قال: «ماأقصه عليك من الوقائع يرجع إلى عهد سيتى الأول وأوائل حكم رعمسيس. وكنت ببلاد الشمال مع الجيش الذى سير إليها لتحصين مدينة رعمسيس الشهيرة باسم (زوان). وكان تحت إمرتى ستة من الأمو العبرانيين الذين اضطهدهم رعمسيس وكبلهم بقيود الاستعباد. وكان فى العمال جملة من أبناء العظماء والمثرين لم يسألهم أحد حينما سيقوا إلى العمل عن أصلهم ولا عن ثروتهم. ولم تكن أعمال التحصين وحفر ترعة الاتصال بين النيل والبحر الأحمر قد تمت، فسخر رعمسيس أولئك الناس الذين هم سلالة أعدائنا بشرق مصر فى إتمامها. وماذكرت تلك الأيام إلا وعرتنى هزه السرور وأخذتنى نشوة الفرح لما أمضيته من أوقات الهناء والصفاء فى أراضى (غوشن) المعروفة بخصبها وجودة تربتها وحسن مناخها ووفرة خيراتها من حبوب وبقول وأسماك وطيور.

« وكان بين الستة الرجال الذين تحت قيادتى رجلان كان أهلوهما يبالغون فى الرفق بهما والعناية بأمرهما، إذ كان لا ينقضى يوم إلا ويتحفانى فيه بحلقات الفضة حتى لا أقسو فى معاملته. على أن محبة المرء ولده وذوى قرابته أمر طبيعى ولايختاف اثنان فى أن العبرانيين فاقوا فيه على غيرهم من أمم الأرض فوقا عظيما.

وكان المقرر علينا أن نورد كل يوم عدداً معينا من الآجر، فإذا احتدم حر الهاجرة ساعدتهم على العمل فكنت أصنع منه فى ساعة واحدة قدر ما يصنعونه جميعا فى ثلاث ساعات، ما ذلك إلا لوثوق عضلى ومتانة قوتى، ولاسيما فى ذلك الوقت الذى كنت فيه أقرب عهداً بعنفوان الشباب وقوة الساعدين منى الآن.

وفيما كنت قائما بالعمل على ما يرام، إذ صدرت الأوامر باستدعائى إلى طيبة لأكون من مراقبى أسرى الحرب الذين تقرر تسخيرهم فى تشييد هيكل (آمون). وكان لدىّ من المال الشىء الوفير ففكرت فى الزواج. وكنت قد أقصيت النساء المصريات عن نظرى ومحوتهن من صحيفة صدرى، إذ لم يكن لى بد من التزوج من إحدى بنات المحنطين. وكثيراً ما كنت أتمنى على الله المنى أن ينقذنى من هذه الطائفة اللعينة، فاتجه خاطرى نحو بنات البلاد الواطية من أقوام (الآمو) و(الشازو) الشهيرات بالجمال الفاتن. وكانت السبايا اللائى أتى بهن الجيش معروضات للبيع، فلم يرق أكثرهن لعينى، وأما الباقيات فكانت أثمانهن غالية بالقياس إلى جمالهن الباهر. وكانت نقودى تنطلق من كيسى انطلاق الماء من الإبريق لكثرة ما كنت أنفقه فى الملاهى والملاذ، ومشاهدة الراقصات فى حى الأجنبيات.

واتفق لى عندئذ حادث اتجهت بسببه معيشتى على نظامها المألوف عندى إلى غاية غير التى كانت منصرفة إليها. ذلك أن جماً غفيراً من أسرى الحرب جىء به إلى طيبة والحفلات فيها قائمة بعيد (آمون شم) فأقيمت سوق كبرى بالقرب من الأسكلة كان ضمن ما يباع فيها عدد عظيم من السبايا. وكانت البارعات منهن فى الجمال يبعن بثمن فاحش، فلم آنس من نفسى القدرة على اشتراء إحداهن. وفى ذات يوم جىء بامرأة عمياء وأخرى خرساء رشيقة القوام، وكانت العمياء بدينة الجسم

ملساء البشرة فاشتراها صاحب حانة وهى لاتزال عنده حتى اليوم تطحن الحبوب على الرحى. أما الخرساء فكانت تحمل طفلا على ذراعيها، وكان من يحاول استطلاع الخفى من أمرها يتعذر عليه تقدير عمرها أو تعيين منزلتها جمالا أو قبحاً، إذ كان يبدو للناظر أن سحابة تحول بين عينيه وحقيقة وجهها. وكل ما كان يستطيع أن يبديه من الرأى فيها أنه لم يكن بينها والموت إلا ساعات معدودة، وكذا ابنها فقد اعتراه من النحول ما كان يخيل للرائى معه أنه صار فى عداد الموتى. وكان شعرها يشبه الجمر لونا كما كان وجهها يشبه الثلج بياضاً، إلا أنه كان خلواً من كل أثر للجمال، وإن تكن القلوب تحن إليه والأنظار تحوم عليه. وكانت شرايينها الزرقاء فى ذراعيها المكشوفتين ترى من خلال بشرتها الشفافة وأديمها الصافى، ولولا اضطرارها إلى حمل طفلها لاساقطت يداها إلى الجنبين كما لو سلبتا نعمة الحياة. وكان يخيل لى أن النسيم إذا هبّ لابد أن يكتسح المرأة والطفل ويسفيهما كما تسفى الرياح الرمل. ولقد طالما صاح المنادى بملء فيه لترغيب الناس فى شرائها فلم يقدم أحد على اقتناء هذا الشبح الخامد الجامد الذى هو أقرب إلى خيال الموتى منه إلى أشباح الأحياء. وما كان أثقل عبئها لو ماتت ، إذن لكلفت صاحبها ما لا قبل له عليه لكى يوارى جثتها.

« ثم مرّت بالدلال فترة من الزمن لم يكفّ فيها عن الصياح دون أن يلقى لندائه آذانا واعية، وعيل صبره واشتمله اليأس فتناول سوطا وأهوى به على جسم المرأة المسكينة لتتحرك فتوقظ فى الحاضرين الرغبات النائمة وتنبه الميول الساكنة، فتلوّت أعضاؤها لشدة ألم الضربة وضمت طفلها إلى صدرها وسرحت النظر حواليها دون أن تنبس شفتاها بكلمة، كأنها كانت تلتمس لنفسها ناصراً ومغيثاً من هذا البلاء. وقد وقع نظرها آنئذ علىّ فاضطرب ضميرى وحدث بقلبى ما لم أعهده فيه قبلا من

التأثير الشديد ورأيت عينيها تلمعان على صورة استهوت فؤادى إليها وألقتنى فى حبائل حبها، فقلت للدلال: إنى راغب فى شراء هذه الخرساء بكل ما معى من مال. وكان فى وسعى اشتراؤها بثمن بخس دراهم معدودة، لولا أننى كنت أجهل الحساب. فلما سمع زملائى هذا الكلام سخروا بى وتهكموا علىّ وأكثروا من لومى به له بل دفعت النقود التى استولى عليها بائع السبايا بلهف بعد أن وتعنيفى، فلم آ هز كتفيه، وأخذت أنا المرأة والطفل وقصدت بهما إلى شاطىء النيل حيث استأجرت زورقا ًوصلنا إلى الضفة الأخرى. وهناك اكتريت مركبة وضعت المرأة والطفل عليها كما أضع الحجر الصلد لاحراك به وذهبت بهما إلى أهلى.

« وما وقع نظر والدتى عليها حتى هزت رأسها، أما والدى فالتفت إلىّ ممعناً النظر ليعلم إن كان بى مرض أو مس من الجنون، لأننى اخترت امرأة لا تصلح لشىء، غير أنهما لم يسخرا بى ولم يوجها لوما إلىّ كما فعل أصحابى، بل أخذا بتحضير فراش لها. أما أنا فقد اجتهدت الليالى التالية فى بناء هذا المكان الذى تراه الآن أنقاضا مكدسة بعد أن كان عامراً بالسعادة والهناء. على أن والدتى لم تلبث أن شغفت بالطفل حبا، لما رأته عليه من ملامح الجمال والحسن. أما أنا فعدلت عن التردد على حى الأجانب حيث تقام الملاهى وتنفق الأموال ضياعاً فى سبيلها فاقتصدت مالاً اشتريت به رأساً من المعز وقضيت به حاجات البيت. وكانت المرأة مع بكمها تسمع الكلام ولكنها لم تكن تفهم بلغتنا. وأرى أن أكثر الكهان رسوخا فى العلم كان يعجز عن تفسير ما ترسمه حركاتها من آيات شكر صنيعتى معها، وما كانت ترغب فى شىء أو تعرب عن أمر إلا وكنت أعرفه بمجرد التحديق فى عينيها، فهما كانا جنانها ولسانها. وفى أول ما عشنا معاً كانت تنفد منى جملة الصبر وتضيق الدنيا فى وجهى إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها

الضعف، أو قمت منزعجـا من نومى على بكـاء الطفل فكانت تكفى النظرة الـواحدة منها لإراحـة خاطـرى ومحو آثار الكـراهية من قلبـى وإيداع الـرحمة والحنان فى فؤادى، بحيث كان يخيل لى أن ذلك البكاء غناء يلذ للأذن وعى نغماته المطربة. وكان (بينو) وهو هذا الطفل يبكى أكثر مما اعتـاد الأطفال أمثاله فى العمر، ومع هذا فكنت أراه جميلا وأرى غيره من الأطفـال قبيحا رذيلا. وكـانت أصابعه صغيرة نـاصعة البياض، فحدث يـوما أن أكثرمن الصياح فـانكببت عليه لأرفعه عن الأرض فقبض على لحيتى، فسرنى فعله سروراً يفوق الوصف. ومنذ هذا العهد كان سلوانه الوحيد القبض على لحيتى والعبث بها، وأدركت والـدته بسكـوتى عنه أننى مغتبط بفعلـه ومحظـوظ بمزاحـه. وكنت إذا اشتريت شيئاً من الحلـوى أو أية حـاجة يتفكـه بها كبيضة أو زهـرة أو فطيرة كانت تأخذ الولـد بين ذراعيها وترفعـه حتى تلمس يده لحيتى. وكنا قضينـا فى هذه الحال أشهراً متتابعة كسبت المرأة فى خـلالها من القوة والصحة ما استطاعت به بذل هـذا المجهود. وكان عمرها وقتما اشتريتها لايتجاوز العشرين عامـاً. ولم أكن عرفت اسمهـا فكنا نطلق عليها اسم «المرأة». وبعـد ثمانية أشهر هلالية من مخالطتـى إياها توفى الطفل بينو فبكيته مع أمـه بكاء مرّا وطرحت نفسى على جثته وأخذت أصيح: لقد قضى الأمر وحم القدر وصارت هذه الأصابع الرقيقـة اللطيفة لا ترتفع إلى لحيتى ولا تـلامس خدى وجبهتى. وبعد انتهـاء دفنه وقعت المرأة في حبـائل المرض فعنيت بأمـرهـا والـدتى حتى استقـامت صحتهـا وتحسنت أحوالها. وكنت أعاملها معاملة الـوالد الرؤوف ابنته البارة، وكان شأنها يعظم كل يـوم فى نظرى بتوافـر أسباب الـرقة والـدلال فى ذاتها، حتى إنها كثيراً ما همّت بإظهار عطفها علىّ وميلها إلىّ ولكنها كانـت تجد من شيطان عينيها ما يقعدها عن بلوغ القصد ونيل الوطر. ولما وقع جمالها من قلبى هذا الموقع ازداد شغفى بها

وحرصي عليهـا. فحجبتها عن الأنظـار رجاء التـزوج بها. وكانت يـداها من الـرقة واللين بحيث لا تمكنـانها من مباشرة الأعمال المنزليـة حتى حلب الماعـز وغيره مما كانت تقوم به والدتى خير قيام، إلا أنها لم تضع وقتها عبثاً بل كانت كثيرة الاهتمام بالتطريز وتشبيك أسلاك الخيط على شكل يحاكى فى رقته نسيج العنكبوت. وكانت والـدتي تشترى لها بأثمان ما تنسجـه على هذا المثـال كل مـا تحتاج إليـه أو تحب اقتناءه من عطر أوأزهار. وكانت إذا جن الظلام وغادر الزوار مدينة الموتى ترتاض فى الوادى وتمعن النظر فى بدر السماء. ففى ليلة من ليالى الشتاء كنت عائداً إلى المنزل بعـد هدأة من الليل فسمعت الآفـاق تـردد عواء بنـات آوى على مقـربة من مغـارة السـاحرة نيخت، ففهمت على الفـور تواصل عـواء هذه الحيـوانات أنها قـد دهمت إنسانـا وافترسته. وكنت ساعة وصـولى إلى المنزل لم أجد المرأة ببابـه كما عودتنى الانتظار عنده، فانقبض قلبى وضـاق صدرى إذ وهمت أن تلك الضوارى افترستها وأنها لخرسها لم تستطع التماس النجدة بالاستغاثـة. وقد شعرت كأنما قد خولط فى عقلى فأخذت الوتـد المربوطة به المعزة وجذوة نـار وسارعت إلى منبعث الصوت حيث وجدت بنـات آوى متكالبـة على المرأة فأجليتها عنهـا، ثم عدت بها بين ذراعى مغشيا عليها. وقد ساعدتنى والـدتى على إفاقتها ثم انصرفت فلما انفردنا بالغت فى ملاطفتها ومواساتها ومزجت دمعى بدمعها وحسبت نفسى سعيداً باستخلاصها من مخالب تلك الحيوانات الضارية. وتـزوجت منها عقب الحادثة، ففى ختام العام الثـالث من تـاريخ شرائى إياهـا وضعت لى أنثى سميتهـا (وردة) وهى التى طلبت تسميتها بهذا الاسم بإشارتها إلى زهر الورد فأدركنا مرادها.

« وقد تـوفيت المرأة عقب الوضع بيسير، ولاريب فى أنه إذا دعـانى داعى المنون ومثلت بين يدى أوزريس فجعلنـى فى عداد السعداء والأبـرار فلابـد لى من السؤال

عنها، فإن أجابنى حارس الأبواب بأنه لا وجود لها فقد هانت علىّ مغادرة هذه الدنيا للحظوة بها واستجلاء محياها الزاهر النضير، ولو كان مقامها فى السعير».
فسأله الطبيب نبسشت: ألم يطلعك أحد على اسمها؟ فوارى العسكرى وجهه بكفيه وأكثر من الانتحاب والعويل حتى صار لايعى شيئاً مما يسمع. فقال الشيخ بينم: لابد أن تلك المرأة كانت ابنة أحد من الأعيان أو ملك من ملوك هذا الزمان فقد وجدنا فى ثيابها مصوغا من ذهب مرصعاً بالأحجار الكريمة ومنقوشا بحروف عجيبة تدل على أنه من أندر التحف وأغلاها قيمة، ولهذا حرصت عليه زوجتى حرصها على إنسان عينها لتسلمه إلى ورده فى السن التى يبلغ المرء فيها رشده.

الفصل السابع عشر

انقلاب المناقشة الفلسفية الدينية إلى مناجاة غرامية

فى فجر اليـوم التالى بـرح نبسشت بيت المحنط بعد إذ أيقن أن المريضـة تماثلت للشفاء وأن لا خطر عليها من جراحها، ومضى فى طريقه إلى هيكل حاتاسو تعصف به الهواجس. وكان يرجو أن يلتقى بصديقه بنطـاؤر ليستمد من معلوماته الدينية ما يستطيع أن يلفق بـه التعهد الذى وعد بينم أن يجريـه له مقابل ما سيتحفـه بهـ كلما لاحت له الفرصة- من قلوب الموتى. وكـانت الشمس فى ساعة وصوله إلى ذلك المعبد المقـدس قد سطع نـورها بتمزق حجـاب السحاب دونها فعلل نفســه بأمنية تشنيف الآذان بسماع ترنيم الكهـان نشيد الصبـاح تكريماً لإلـه الشمس فتاح. ثم اندفع نحو الباب فألفى البواب قد أخـذته سنة من النوم، فأيقظه وسأله عن رئيس الهيكل. فأجاب متثائباً: تـوفى الليلة. فهلع قلب الطبيب لسماع هذا النعى وسأل غير مصـدق: ما تقـول! من ذا الذى مـات؟. أجـاب: رئيسنا الشيخ رونى، ذلك الـرجل الشـهم. فاطمأنت نفس نبسشت وأنبهـه إلى أنه إنما يسأل عن بنطاؤر . سأل : كيف .. أتكـون من بيت سيتـى ولا تعلم أنـه عـزل عن وظيفتـه؟.. أمـــا علمت أن الآبـاء المحترمين كهان هذا المعبد أبوا مشاركته فى إحياء مولد (رع) بنشيده المعلوم؟.. لعله يترنم الآن وحده بهذا النشيد فى أعلا المنار فاهرع إليه أو عليك بالانتظار.

صعـد الطبيب فى السلم مسرعـا، فلما شهـــده بعض الكهنـة أخـذوا يترنمـون بالأناشيد الدينية فلم يلوِ لهم عنقه، بل أمعن صاعدا حتى التقى بصديقه على سطح

الهيكل متفرغا للتحرير والتحبير ووقف منه على ما اتفق له من الحوادث فصاح قائلا: إنك باستسلامك إلى كهان هيكل سيتى قد وضعت الثقة فى غير موضعها وعرضت كرامتك للامتهان وشرف نفسك وعلو همتك للتهمة والتظنى بين رجال معبد حاتاسو الذين عجنت ضمائرهم بماء الخسة والدناءة. وقد كنت أتوقع هذه الحوادث ويحدثنى بها وسواسى حينما أطلعوك على الأسرار الدينية. ومن كان فى مثل عقليتنا وثقافتنا لا مخرج له من المأزق إلا بأحد أمرين: إما الكذب وإما السكوت. قال بنطاؤر: لم توفق للحق فى قولك، فإنا نعلم أن الألوهية واحدة لا تتعدد سواء أسميناها بالكل [1] أم بغلاف الكون [2] أم بـ (رع). إلا أننا معشر الكهان نعرف أن مدلول الرمز رع غير ما يعتقده العامة، إذ نقول إن الكون هو مظهر الألوهية الصحيحة وأن ألوف الألوف من الحادثات التى وقعت وتقع في كل زمان ومكان ليست إلا مظهرا محسوسا وحجة بالغة على أن مقدوراتها لا تحصى وعظمتها ومعلوماتها لا تتناهى، وأنه لا أول لوجودها ولا آخر لأبديتها، وأنها

(١) تطلق الكتب المصرية المقدسة على الألوهية اسم الواحد أو الأحد. وقد ورد تفسير مذهب مقارنة الألوهية بالكون فى النقوش المشهودة على جدران مداخل قبور الملوك بطيبة وهو يحتوى مدح (رع) والاستغاثة بمظاهره الأصلية البالغ عددها ٧٥ مظهرا. وقد شرح ذلك المذهب والتعاليم الدينية السرية المتعلقة به عند قدماء المصريين العلامة (أرنست لافيل) فى كتابه (الأغانى والدعوات الشمسية)، وتتضمن نصوص كتاب الموتى فى الفصل المعنون «نشيد الشمس» المحفوظ بمتحف الجيزة وترجمه غريبو واسترن ونقوش توابيت وجدران هيكل بطليموس وكتاب «أيزيس واوزريس» لبلوتارك وكتاب «أسرار المصريين» تأليف جامبليك وخطبة هرمس تريماجست فى الروح البشرية التفاصيل الاساسية التى غذى بها موضوع الفصل السابع عشر من هذه الرواية.

(٢) غلاف الكون معناه باللسان المصرى القديم (تب تم)، وهذه التسمية هى منشأ الاعتقاد بأن شكل العالم كدائرة فى وسطها نقطة.

منزهــة عن أن يحدها زمان، ومقـدسة عن أن يحيط بها مكان.. فقـاطعه نبسشت: أرغب إليك الاسـترسال فى موضوع الكليـة ولا عليك منى. قال بنطاؤر: لست أخشى أحـداً حتى أكتم الأسرار فى أعمق قرار، ومـا أنـا بضان بها إلا على من أعتقـد فيهم العجز عن إدراك الحقـائق واستقراء كنههـا، وهل أكذب إن قلت إننى أتكلم بـدلا من قولى إن لسانى يتكلم أو إن قررت أن بصرك يرى فى حين أن بصيرتك هى التى ترى بوسيلـة هى أداة العين؟ إنا إذا تلألأت على صفحـات الوجود أشعة الأنـوار الإلهية فبهرت الأبصـار وحيرّت فى كبرياء ذاتها العقول والأفكـار لا تلبث ألسنتنا أن تلهج بـالثناء عليهـا لما أولتنا من النعم وأفـاضته علينـا من غيوث الكـرم.. إن رع أسطع مظهر من مظـاهرها المحســوسة، فإذا راق لى الاعتبار بمشـهـد المزروعات النضيرة والثمار اليـانعـة والأزهار الـدانيـة القطـوف فإنى لا ألبث أن أدعـو من حـولي من المؤمنين إلى القيام بمفروض الحمد لرينـوث إلهة المحصولات.. أعنى الصفة الإلهية الموكول إليها إنداء النبـات وتكوين سنابله وابلاغه إلى النضـج الـذى يجعله صـالحا لغذاء الإنسـان، دام حمدها وجل ثناؤها وتعالى ذكرها، وإذا تأملت فى القوة المخصبة فى هذا النهـر الذى عـز على الباحثين الاهتـداء إلى ينبوعـه علت همتى إلى أداء واجب الشكر لمن أمطـر علينا سحائب فضلـه ألا وهو الإله الـواحد الذى غـرس الأشجار وشق الأنهار وجنى الثمار، هـو الإله (هـابى الخفى) كثـرت آلاؤه وجلت نعماؤه.. ولتطمح أحداقنـا إلى اللامع العلوى بل إلى ما يسبـح فيه من كرة الزمهـرير ولننعم النظر فى هذه النباتات، وقـد زهت فى ثوبها السندسى ولنبعث الطرف كرة إلى النيل المفخم فإنا لا ننشـب أن نرى فى كل ما أبـدع وصنع وفطر وقـدر، وفى كل ثنية من ثنيات هذه الموجودات وطية من طيات هذه الكائنات دليلا على أنه الإله الظاهر بآياته

الباطن بذاته.. هـو الذى أنشـأنا من العدم إبداعا وجعل كل مـاق العالم تحت قدرته وتسخيره واستخلفنا على الأرض دون مخلـوقاتـه وآثرنـا بإلهامه لنـدرك حقيقته ونعلم السر وما خفى من كنه نفوسنا. قـال نبسشت: إنا معشر الكهان غير مباح لنا أن نكاشف الشعب من أسرار معلوماتنا القدسيـة بأكثر مما يعطى الطبيب مريضه من كسر الخبز المرطبة بحساء اللحم، لكيلا تعوق هضمه إذا أكلها. قال بنطاؤر: إنما الواجـب علينا أن نخفف الأشربة القـوية بشىء من الماء. إذ لايجوز مثـلا أن تعطى الطفل مـالا تقـوى عليه سـوى معـدة الجندى. وبعـد، فقـوة الإدراك فى الشعب لا تتجاوزها فى الطفل الرضيع. ولقد كـان الحكماء والفلاسفة فيما انقرض من الدهر يكسـون الحقائق الجليلـة بثوب الـرموز والكنـايـات ثم يصنفون من أوضـاعهم قصصاً وأسـاطير تدنيها من أذهان العـامة دون أن تنال من كـرامتها، ولكن مهما يسترها من ذلك الكساء ويخفها من هذه الأساطير لابد لشعاعها الباهر من السطوع ولسرها الخفى من الشيـوع. سأل نبسشت.. السطوع .. الشيوع.. ومـاذا كان إذن الغرض مـن الكساء؟ أجـاب بنطاؤر: أظننت أن أفنـاء الناس يستطيعـون النظر إلى الحقيقة مجردة من لباسها [1] دون أن يردوا موارد اليأس ويلم بهم البأس. سأل: وهل لمثلى أن يراها، بل هل منا من هو متصف بالصدق المحض ليعترف بأن الحقيقة لم تنحدر قط بـه إلى غيابـة الهموم والأحـزان؟ ألسنا نعلم أيها الصـديق أن أحوال البشر لا تراها العين فى صورتها الصحيحة وقـالبها الحقيقى، بل يرى هذه الصورة

---

(١) يوجد على تمثال نيث ببلدة (صا) نقوش هذه ترجمتها «أنا القديم فى الأزل والموجود فى الحال إلى أبد الاباد لا يستطيع احد من المخلوقات ان يدرك كنه حقيقتى أو يرفع جانبا من ستارها» وقد ورد ذلك أيضا فى كتاب ايزيس واوزريس لبلوتاوك.

منعكسة فى مـرآة الأهواء النفسية.. إنى مثلا أرى أسـود ما أظنه أسـود وأبيض ما أخالـه أبيض ولكنى أسمو دائما إلى استقصاء الحقيقة الكفيلـة بإدراك الأشياء على وجهها الصحيح وفى قـالبها الـذى صُبت فيه وأروض نفسى على اعتيـاد ألا يكون لآرائى الشخصية دخل فى تحديد أشكال القـوالب ولا فى تقرير الحقائق. وأنت مثلى تجرى وراء تمحيص حقـائق الأشياء بـالنشاط وصـدق العزيمـة، غير أن الأفكار سرعـان ما تتحـول حقائقهـا فى نفسك. ذلك لأن فى قلبك عمالا لا تدركهم الأبصـار همتهم منصرفة إلى تقويم المعوج وإصلاح الفاسد وتحسين القبيح والتبديل من كل شىء بضده. ومـا هو إلا لأنك شاعـر يمضى به الخيـال فى تيار الوهم، ومـا هو إلا لأننى ممن يجدون فى البحث عـن الحقيقـة يلتقطـونها حيث يجدونها، تـدركهـا أبصارهم وتلمسهـا أصابعهم. قال بنطـاؤر: طموحك إلى الحقيقـة لما يضاعف لك احترامى ويـرفعك إلى أسنى المراتب وأشرفهـا، غير أنك عليم بأننى مـا طـاردت فى حياتى ولن أطارد إلا الحقيقة الشـاردة، فهى مطمحى وضـالتى فى كل زمان ومكان. قال نبسشت: أجل إنـى لذلك موقن ولكن مـا أشبهنا الآن ونحن نجـرى فى طريقين متوازيين بفرسى الرهان فى الميـدان، نبقى- مادام الجرى- متوازيين لا نتلاقى أبداً وجهـا لوجـه مع وحدة الغـايـة التى نسعى لإدركها، وهى حل مختلف الأحـاجى والمعميات العلمية والأدبية. ولقـد يجول بخاطرك أنك تستطيع التمييز بين صحيح الأشكال وفاسدها مع ما فى قدرتنا من تعرف الصحيح منها. قال بنطاؤر: خليق بنا الاقتصار على الشكـل الأجمل الذى يوافـق مشتهانا. صـاح نبسشت: الأجمل.. إذا كان السر العجيب الذى تسميه الألوهية جميـلا وينبغى أن تكون القوة المتولدة من تواتر تلاشيها وزوالها جميلة أيضاً فعلى الدنيا العفاء.. تقول إن الربوبية هى الكون

وأن الكون مظهر الـربوبية وأنها دائمة أبداً لا تعطى ذرة من الـرمل ولا شعاعا من الضوء ولا نسيما من الهواء إلا وتسترده وتـؤلف منه وجودها، وتقـول إنها خفية عن الأبصار وبينهـا وبين المدارك العامـة ستار وأنها تعلم كنـه ذاتها علمها بجميع المعلومات لايعزب عنهـا مقدار ذرة فى الأرض والسموات.. إذا سلمت لك بهذا القول جدلا فـلا أخالك تقصد بكلامك سـوى القوة القاهرة التى لا مصـدر لها إلا العماية والجزاف. قال نبسشت: إن مـا تقولـه لمن شر الكفر والإلحاد اللـذين تقشعر منهما الأبدان.. أوَمـا دريت أننا بـالعقل بلغنا إلى تعليل الكلية وعـرفنا أنها فـاعلة الأرواح والأشباح ومحركة الأفـلاك المدبرات ومقررة الأرض وممهدتها للحيـوان والمعدن والنبات؟ سأل نبسشت: لكن ما قولك فى تطـور الأشياء والكائنات وما يعتريها من السقوط والنهـوض والخفاء والظهـور.. أفى هذه التقلبات ذرة مـن الحكمة والعقل وهل ترمى إلى غرض كائن وغاية معينة؟ إنك بإسناد العقل إلى الكلية العظمى تخدع نفسك بالأبـاطيل التى أخشى أن تذهب بك إلى ادعـاء المشابهة بينك وبين الألـوهية لمجرد تـوافر المشـابهة بين هذه والآلهة الرحيمـة التى تمثلونها فى الهيـاكل تمثيلا. أجاب بنطاؤر: المشابهة التى تحدثنى بها خيالية لا حقيقية وظنية لا قطعية، إذ لبيان الحقـائق وتفهيم الأسرار يجب إبرازهـا فى مظاهـرها المحسـوسة ليسهل إدراكهـا والاقتناع بها. ونحن لا نسمى الألوهية بالكلمة إلا إذا تجلت لعقيدتنا فى مظهر العلة المبدعـة للكون الـواهبة للعقـول، وإنها كما ورد فى النصوص المقـدسة القـوة التى أحكمت صنع كل شىء وسبكتـه فى شكلـه الـذى عليـه قـوامـه ولا يصلح إلا بـه، فالجعل[1] الذى نذهب إلى أنه ولدها يذكرنا بالقوة الفكرية للكلمة الموجدة من العدم

---

(١) الجعران

كل شيء والمتجددة من ذاتها بذاتها على الدوام. ولقد جاء اختيار هذا الرمز حكيما لصلوحه من كل الوجوه، فأنت أدرى بأن ليس للجعران أنثى وأنه يتولد من ذاته بذاته. قال نبسشت متبسما: إن تكن القواعد التى تقيمون عليها أسراركم الدينية من طراز اختيار الجعل ابنا للألوهية لأنه لايتناسل من أنثى فما أوهاها من قواعد وما أقربها إلى التداعى والانهيار. انقضت سنوات عديدة ولا رفيق لى فى أبحاثى ودراستى سوى الجعل الذى وقفت على أسرار حياته ونظامه العضوى. وأقل ما عرفته من هذا النظام أن منه الذكر والأنثى كما هو من القرود والسنانير وبنى الإنسان. ولو أنى أمعنت النظر فى قواعدك الدينية لما وجدت بداً من التمييز بين أمرين: العنصر الطيب والعنصر الخبيث. فإذا تقرر هذا عندك فقد وجب أن تجاوبنى عن: الأسئلة الآتية: هل الكلية هى الألوهية؟ هل الكلية طيبة وليست بخبيثة كما جاء فى تعاليم أجدادنا وتقايرهم؟ هل هناك - فيما عدا الألوهية- ما يمكن وصفه بالكلية؟ وأين مكان الشر فى هذه الأحوال؟

فتربد وجه بنطاؤر غضباً وتذمراً إذ ثقلت هذه الأسئلة على سمعه وقال: صاحِ إن كلامك ككلام صبية المكاتب ولكنى أرد عليه بأن كل موجود حسن ومعقول فى ذاته إلا أن الإله الواحد الأحد القادر القهار ملهم الشرائع ومناهج الحق وواضع أساسها على قرار مكين هو الذى يعطى الزائل صفة الدوام بما يسوقه إليه من أسباب التجدد المستمر، فتراه يتشكل بمختلف الأشكال. فما نسميه الآن الشر أو المصيبة يرجع إلى سبب ربانى حسن فى ذاته ومعقول فى وسعنا إدراك غايته الحقيقية إذا ألهمنا الرشد والصواب على غير انتظار، إلا أننا تعودنا النظر إلى الأشياء من وجهها القبيح، لأنه لما كانت الروح الإنسانية يعيبها النقص كان ديدنها

الانصراف إلى الوسائل لا إلى الغايات والنظر فى الجزئيات لا فى الكليات، فأصبحت أشبه ما يكون بالجهلاء الذين ينتقدون الموسيقار لأنه لا يجيد أداء لحن من الألحان مع أنه لم يفاجىء الأسماع بما يخالف القواعد الواجبة الابتاع إلا لتهيئة السامعين للتمييز بين الغث والسمين. وإنك لترى الطفل يسب الأشجار السامقة ويعيب أفنانها الباسقة لا لشىء إلا لعجزه عن اجتناء ثمارها اليانعة. وهو يجهل ما أودعته الطبيعة هذه الثمار من بذور لو غرست فى الأرض لأتت بنبت نضير لا يلبث أن يصبح من أكبر الأشجار. على أن الشر الظاهرى ليس هو الذريعة إلى السعادة الحقيقية كالموت ليس هو إلا عنوان حياة جديدة ورقدة يستريح المرء فيها بعد السهاد. وهذا ضياء الشمس فى آفاق الغرب، ألا تلاحقه جنود الظلماء ليصبح فى الغد متألق السناء؟

قال نبسشت ساخراً: أعتقد كل ما تقول لأن كلامك- مع ما فيه مما تعافه النفس وتحتج عليه العواطف- لا يكتسب بمروره بين شفتيك الذهبيتين إلا رقة وانسجاما فيتلقفه السمع وتسيغه المدارك،غير أن فى قدرتى إدحاضه بالأدلة القاطعة والبراهين المقنعة فأثبت مثلا أن الشر هو الحاكم المطلق على الكون والمتصرف فيه بإرادته الجائرة وشهواته المتحكمة. حقا قد تغفل عنا عينه أحيانا فيدعنا نستمتع بشىء من السعادة والهناء، ولكن ما هذه السعادة إلا تعساً وشقاء بل صدقة كاذبة جرت على يد بخيل برحت به آلام الحياة. وما أراه الآن صواباً هو أن الحياة ثمرة الشهوات النفسية، وأنها مازالت فى معترك دائم يذهب المغلوب فيه فريسة الغالب.

قال بنطاؤر: أنت لا تحس - إذن- جمال العوالم الخفية، بل لا يتطرق الخشوع والاعجاب إلى نفسك إذا تأملت فى النواميس المدبرة لحركة الكائنات لا يعتورها تغيير ولا تبديل؟ قال الطبيب: الجمال الذى تشير إليه لم آنس من نفسى ارتياحاً

لرؤيته، ولعل سبب ذلك نقص فى بعض مشاعـرى كان حقا عليها أن تلقى هذا الميل فى روعى. على أن هذا لم يحل قط دون تمتيعى الطرف بالنظر فى الجمال الخفى كلما جاذبتنى أطراف الحديث فيه لأن براعتك فى تصويره على ذلك الوجه الرائع يكفينى مؤونـة التنقير عنه والجرى وراءه، ومع هـذا فإنى ممن يقدرون نـواميس الطبيعة وهى قوام الكون وروحه المتشعبة فى أرجائه حق قدرها، فأنت تطلق لفظة (تم) أى الأحديـة على ما يفيد معنى المجمـوع أو الوحدة التى تتألف من تضـامّ آلاف الآحاد بعضها إلى بعض وهو تخريج جميل يـؤخذ منه أن نامـوس الأعداد هو المهيمن على الكون إذ به يتيسر حساب المقاومات وتحديـد مجموعة القوى المطردة والمنعكسة فى الطبيعة، ولكن ليس فى هذا الحساب ما يشير إلى جمال أو يدل على رحمة.

قاطعه بنطـاؤر: هذا القياس إنما هو نتيجة أبحاثك الغـريبة. فإنك تواصل الليل بالنهار فى القتل والذبح لاستبطان أسرار الحيـاة وكان خليقاً بك أن ترمى إلى غايتك من طـريق البحث فى الكائنـات الحية المنتشرة على وجـه الأرض. افتح عينيك وتحرّ بهما أسرار الحياة نفسها لا فى الموت، يكن لك عـن مثلى غنى للشعور بجمال العالم. واعلم أن الألوهية التى إليها ترفع صلواتك وتوجه دعواتك لا حول لها ولا قوة. قال نبسشت : أنـا لا أصلى ولا أدعو لأن النواميـس المدبرة لهذا الكـون والمسيطرة على حركته لاتشعر بصلواتى ودعواتى. ثم من ذا الذى أخبرك بأنى لست ببالغ مرادى من استكشـاف أصول المخلـوقات واستبطان أسرار الكـائنات؟ ألم أكـن الآن أكثر وقوفـاً منك على سر حياة الجعل؟ لقد قضيت على حيـاة حيوانات لا حصر لعـددها واستقصيت بالبحث حقائق أنظمتها العضوية وأطوار نموها منذ ساعة ميلادها إلى حين موتها.. وجـائز أن يكون هذا العمل قد طمس فى قلبى معـالم التفكر فى الجمال،

ولكن ثق بأن البحث فى أسباب الولادة والوجود كالبحث فى أسباب الموت والعدم كثيراً ما يفضى إلى حبوط الآمال وتثبيط الهمم.

حدق بنطاؤر فى الطبيب بعين المستفهم، فاستأنف هذا حديثه قائلا: أرى من الأفضل لتفهيمك مرادى الاستعانة بالأمثال والتشابيه. أنظر إلى هذا النبيذ ألم يكن عطرى الرائحة شفاف المادة، ومع هذا فلم يستخرج إلا بعصره من قطوف العنب دهساً بالأقدام الملوثة بالتراب؟ ثم انظر إلى هذه السنابل التى تنوء بحمل ما تحتويه من الحبوب كيف تلمع كالعسجد مع أنها لو وضعت بين شقى الرحى لاستحالت إلى دقيق أبيض كالثلج ذى رائحة زكية تتحراها الخياشيم، ومع هذا فقد أخرجته حبة وضعت فى الأرض فتعفنت فيها بما سيق إليها من الماء ومواد النماء، ولطالما سمعتك تعجب بالردهة الكبرى في هيكل آمون(١) الذى سيبقى مدى الدهر المثل الأعلى لمتانة التذجيد وحسن التنضيد، هذه الردهة شهدت البنائين يرفعون منها القوائم ويلقون الأساس بعينى رأسى. وكانت الأحجار مبعثرة حولها شذر مذر، يتطاير العثير بينها إلى عنان السماء فيسد مسالك التنفس ويعمى الأبصار، وكان أغلب العمال يمرتون بحر الشمس وتفتك بهم الحميات الحاصدة للأرواح، فلو أنى كنت شاعراً مثلك لصورت هذه المناظر القبيحة فى صورة ينبو عنها النظر وتشمئز منها النفس ولما قلت عنها قط إنها جميلة دون أن أقف على أسباب حدوثها.، ومع هذا فيكفينا البحث الآن فى الحياة والقوة الخفية المسببة للوجود أو العدم.

---

(١) بدىء بناء هذا الهيكل فى عهد رعمسيس الأول وتم فى عهد سيتى الأول ورعمسيس الثانى، ولا يوجد على سطح الأرض بناء يضاهيه فى الفخامة والدقة والمتانة لاسيما القاعة الكبرى منه التى كانت محمولة على ١٣٤ عمودا ضخما منقوشة بأبدع وأدق نقش.

قال بنطاؤر: ما كنت حتى الآن أدرى أنك ترمى من أبحاثك إلى غاية معينة. وليتك كنت تفرغت لدراسة علمي النجوم والمواقيت لأسألك إن كان لما يطرأ على الحيوان والنبات من التطورات ارتباط بقانون ثابت أو كمية معينة أو اتساع محدود كحركات الكواكب. قال بنسشت: ما أبدع هذا السؤال وأجمله.. ألا تكون اليد القوية القديرة التى نثرت هذه الكواكب فى الفضاء وجعلتها تجرى فى أفلاكها قادرة أيضاً على تقدير طيران العصفور واحصاء خفقان قلب الإنسان.. قال بنطاؤر متبسما: ها قد طرقنا باب المعضلة معضلة القلب، وهل بذلت من المساعى ما يبلغك إلى الغاية المطلوبة؟ قال نبسشت: من المرجوّ أن أحصل غداً على ما أطمح إلى معرفته. وإنى أرى فى دواتك مدادين أحمر وأسود، أفتسمح لى بقرطاس لأدون فيه ما خطر بالبال من الخواطر والأفكار؟ أجاب بنطاؤر: خذ ولكن خبرنى قبل أن تكتب. قال نبسشت: لا تسألنى شيئاً مادمت لا تستحسن مشروعى، وربما جرّ الكلام إلى الجدال والخصام. فأهوى بنطاؤر بيده على كتف صديقه وقال: إنى موقن أن الخلاف بيننا لن يخش ى منه على ما يربطنا من المودة الوثيقة العرى. وهل لم يكن ما ثار بيننا حتى الآن من ثائرات الخلاف والتعارض فى الآراء ممتناً لعقدة هذه المودة بيننا؟ قال نبسشت: كان ومازال كذلك مادام أنه لم يتعدّ الآراء إلى الأفعال. قال بنطاؤر: وهل مازلت باقياً على إصرارك على البحث فى قلب الإنسان؟ تفكر قليلا يا أخى وصديقى من الناس كلهم وتأمل فيما أنت عليه الآن مقبل.. إن القلب يحتوى مبدأ الحياة وعنصرها الأول وهو العضو الربانى الذى يزيح لنا الستار عن العوالم الخفية التى تسبح فى أجوائها الأرواح. سأل نبسشت مغضباً: أوأنت واثق مما تقول؟ إن تكن واثقا فهات برهانك، إذ مَن من الأطباء اجترأ حتى اليوم على تشريح القلب؟ أما

دريت أن الكهان إخواننا يحسبون القلب من أقدس أعضاء الجسم وأحقها بالصيانة والاحترام، ولو كـان قلب أشقى الأنام؟ وإذا كنـا بحضرة مريض وأخـذنا الشك فى حقيقة دائه وتولتنا الحيرة فى تقريـر دوائه، ثم أسقيناه من بعض المركبات الدوائية جرعـة لم يحصل له بها المرجـو من الفائدة والمنفعة، أفـلا يكون ضررهـا أكثر من نفعها؟ وهـلا يجب أن تقع مسؤولية هـذا الخطأ وهذا الاعتلال على من يسـوقنا فى طريق الغواية والضلال، ألم نكن الآن أشبـه بعلماء النجوم الذين يطلب إليهم رصد الأفلاك من نـافذة مغلقة؟ لقد رجـوت وأنا بمدرسـة عين شمس من الكاهن الأعظم (أور مارع حوتب) وهو من أساطين العلم وجبابـرة الفكر وأركان المبادىء القويمة أن يأذن لى بتشريح قلب أحـد الآمو فـرفض طلبى بعلة أن الإلهة (سخت) تقـود إلى دار السعادة الأبدية والرضوان كل من اشتهر فى حياته من الساميين[1] بالفضائل ومكارم الأخلاق. ولقد أقمت على مضض الـرفض طويلا حتى عيل صبرى وعلمت أن وساوس القوم تحول بينى وتحقيق أمنيتى، وذلك لاعتقادهم أن استئصال قلب الحيوان يزج بالعابث به مهـواة الخطيئة. وهم يذهبون فى ذلك إلى احتمال أن يكون هذا القلب سكنـاً لروح بشرية لاذت بـه، لايبعد أن تكـون روح شـخص من المحكوم عليهم فالزمت قبل التمتع بـاستجلاء وجه الأحـدية أن تقضى العقوبة المفـروضة عليها وتطهر نفسهـا من أدناس الخطايا وأرجاسـها بـالعيش زمنا فى جسم حيوان دنىء، غير أن هذا الاعتقاد لم يقع عندى موقع القبـول فقلت للكاهن الأعظم إنه لابد

(١) تؤيـد ذلك الكتابـات التى نقشت فى عهد سيتى الأول والـرسوم التى تمثل الشعـوب الأربعة وهى شعوب المصريين والساميين والليبيين والأوتبوبيين

أن يكون جدى الطبيب نبسشت قد فحص هذا العضو قبل تأليفه رسالته المشهورة فى القلب(١) فأجاب بأن ما دوّنه جدى فيها لم يكن ثمرة فحصه وبحثه بل نتيجة الوحى والإلهام، ولهذا أصبح كتابه ضمن كتب توت المقدسة(٢). ثم أخذ الكاهن الأعظم يلطف بى ويكسر من حميتى ويلوينى عن متابعة البحث والتقصى قائلا: إن الأخلق بى مزاولة مالا يجلب من الأعمال قلق الخاطر وتعب الضمير، وأن أنتظر ريثما تتجلى لى الحقائق عن طريق الإلهام الربانىّ.. وكنت آنئذ فى عنفوان الشباب ولى شعف بالبحث فى العقائد الدينية وميل إلى أداء الصلوات فى أوقاتها فلم أشأ مخالفته ، إلا أنى كنت من جهة أخرى أحس نار الميل إلى البحث والتحقيق تتوقد فى قلبى فاجتهدت فى إخمادها وانقضى بعد ذلك أمد لاحظت بعقبه أن سحابة مظلمة قد غشيت عقلى فحالت بينى والحقيقة الساطعة، فعقدت النية عندئذ على البحث فى قلوب الحيوانات بأنواعها فبدأت بالطيور ثم ثنيت بالجرذان والأرانب فكنت بعد ذبحها أشق قلوبها وأمعن النظر فى قنوات الدم المتصلة به فلم يزدنى هذا علما، لأنه كان يجب لتقرير الصواب وتحقيق الحق فحص قلب الإنسان لا قلب الحيوان. قال بنطاؤر: عياذاً بالله.. ماذا تقول؟ أتريد مغالبة الألوهية باستطلاع الأسرار الخفية؟ سأل نبسشت: أقرأت رسالة جدى فى القلب؟ أجاب الشاعر: تصفحتها لأننى كنت كلما قلبت فيها النظر لا يقع على شىء سوى لفظة «القلب»، وأن القنرات الدموية المتشعبة فى الرأس واليدين والمعدة متصلة بالقلب لأنه المركز الذى يندفع الدم منه

(١) هذه الرسالة هى أهم قراطيس ايبرس وأعظمها فائدة. وقد نشرها المسيو انجلمن بمدينة ليبسك.

(٢) كان يسميها قدماء اليونان كتب هرمس.

إليها. وقد فهمت منها أيضاً أن الحالات المختلفة التى تطرأ على النفس من غضب وألم واحتقار إلخ، تؤيد آراءه فى القلب. قال الطبيب: نعم هذا هو موضوع الرسالة وقد دارت بيننا المحادثة فيه وأرى أن جدي أصاب فى كلامه عن الدم وعلاقته بالمشاعر وما أخطأ. أما الإدراك فمركزه غير مركز القلب. ثم رفع يده إلى جبهته وقال: هنا.. ولقد بحثت فى مئات الرؤوس ونزعت أغشية جماجم الحيوانات وهى حية (١) ولكن دعنى أكتب قبل أن يجىء أحد فيزعجنا. ثم تناول اليراع فغمسه فى دواة المداد الأسود المتخذ من فحم البردى وكتب بالحروف الهيراطيقية الجميلة(٢) التذكرة التى وعد المحنط أن يزوده إياها. وقد ضمنها أنه هو الذى كلف هذا الشيخ أن يوافيه بقلب إنسان وأنه يتحمل عنه تبعة هذا الجرم إن ثبتت إدانته أمام أوزريس وقضاة الأموات.

وما أتم كلامه حتى مد بنطاؤر يده لتناول الكتاب، فعجل نبسشت باخفائه فى مخلاة صغيرة كان يحفظ فيها الأحجبة التى علقتها والدته فى رقبته وهى تعالج

(١) جاء فى قرطاس ايبرس الطبى ما يشير إلى فائدة معالجة العيون بنخاع الإنسان، وكان نبروفلس أحد كبار العلماء فى مدرسة الاسكندرية (رواق الحكمة) يستعمل فى تدريس فن التشريح أجسام المجرمين الذين صدر فيهم حكم الإعدام وهم على قيد الحياة، وكان يذهب إلى أن مركز الروح فى التجاويف الأربعة للرأس.

(٢) كان للمصريين فى عهد حوادث هذه الرواية كتابتان: الهيروغليفية ، وكان غالب استعمالها فى النقوش المنقورة أو المرسومة على الآثار وكانت حروفها عبارة عن إشارات ورموز اتفاقية، ثم الهيراطيقية وهى خاصة بالتسطير على الورق، وفى القرن السابع بعد الميلاد كانت هذه الكتابة شائعة الاستعمال فى التجارة وسميت بالديموطيقية. ولاتزال الكتابتان مبدأ للكتابات القديمة المقدسة أو الرسمية «انظر فى هذا الموضوع مصنفات دوروجيه وبروكش وماسبيرو وايبرس»

سكرات الموت. وقال متنهداً: هكذا أفعل معك يا بنطاؤر، وإنى لأستودعك الله. فاعترضه الشاعر ومنعه من مزايلة المكان ملحاً عليه فى العدول عن نيته ومبينا له سوء مغبتها، فلم يعبأ الطبيب بقوله. وكان بنطاؤر ممسكا بيده يشدد عليها الضغط لئلا يتمكن من الإفلات، فقال بصوت المتسجير: ماذا.. لقد عصرت أصابعى عصراً آلمنى. قال بنطاؤر: عفواً يا صديقى، فإنك تعلم قوة يدى وعذراً فإنما شدة ضغطها على أصابعك بقدر مخالفة مشروعك للصواب والعقل. قال الطبيب ضاحكا: نعم إن مشروعى مخالف للصواب والعقل، ولكن ألا تعلم أن بنا –معشر المصريين– ميلا إلى الجنون ومحبة للنزق والطيش فنبيع منازلنا وأراضينا ونضيع أموالنا فى الملاذ والترف؟ قال الطبيب: إذا جازت إضاعة المنازل والأراضى وبعثرة الأموال فلا يجوز أن تعرض للهلاك حياة ربما كانت ينبوع سعادة وآمال كبار. قال نبسشت: أكرر لك يا صديقى أنى لا أسلم بأن يكون القلب مركز الإدراك.. ومع هذا فلابد لى من متابعة البحث لتمحيص هذه الحقيقة. ولا يهمنى إذا مت أن أُدفن بقلبى أو بقلب شاة.قال الشاعر: لا أقصد بكلامى الميت الذي تنزع قلبه من بين جنبيه ليبدل به قلب حيوان، بل أقصد الأحياء، لأنه إذا فضح سر الشيخ بينم وثبت أنه اعتاض عن القلوب بقلوب غيرها مرضاة لك فإنه يجر على نفسه عقوبة الإعدام، وعندئذ لا تكون أنقذت وردة من غائلة المرض إلا لتلقيها في هاوية الفاقة والأحزان.

فحملق نبسشت بعينيه إذ لم يخطر بباله قط أن يؤذى جد وردة فكان فى هذه الآونة كالنائم الذى يهب من نومه فيكون أول من يلتقى به مخبراً بشؤم أو نذيراً بسوء ثم قال: انى أقاسم وردة وجدها بينم كل ما أمتلك. سأل الشاعر: ومن

يحيمها ويدفع أذى الناس عنها؟ أجاب الطبيب: والدها الجندى. سأل الشاعر: وهل لرجل مثله- غليظ الطبع ديدنه السكر ليل نهار- أن يتعهد تلك الوردة النضيرة بما ينميها ويصـون نضرتها؟ وإذا سافر إلى مكان سحيق للقيام بفروضه العسكرية فماذا يكون الحال والشأن؟ أجاب الطبيب متلعثما: أما الرجل فشهم كريم وقد خبرته بنفسى، ولكن من ذا الذى يجرؤ على الإساءة إليها وجمالها رائع وحسنها كضوء القمر ساطع؟

فاه بهذه الكلمات واحمر وجهه حياء كما يحمر وجه الأوانس الخرد ثم استأنف الحديث فقال: لقد وافقتنى على أنها جميلة ولئن أكن عاجزاً عن الافصاح عما يجول بضميرى ووصف ما استحسنه من الصور والمرائى، فقد شعرت بأن ما قصر عنه لسانى قد تملك جنانى وأثار فى نفسى من العواصف وحرك من السواكن ما أسكرنى بخمرة الحب والهيام. وهذه أول مرة عطفت فيها على مريضة، ولكم قضيت من الوقت إلى جانبها ولا همّ لى غير التأمل فى شعرها وتعداد أنفاسها بينما يقصد الناس إلى الهيكل فى طلبى لأعالج مرضاهم، وأخشى أن يدفعهم حب الاطلاع إلى الدخول فى غرفتى واستكشاف أسرار أبحاثى التشريحية، فقد نسيت هذه القاعة وما فيها منذ جئت إلى هنا لأن وردة الفاتنة بحسنها الغض قد جذبتنى إليها وكبلتنى بقيود حبها. ولو كنت كالعامة في أوهامهم لقلت إن بى مساً من الشيطان أو عقلة من السحر، ولكن الحقيقة غير ذلك لأن الميول البهيمية قد اضطرمت فى قلبى منذ رأيتها طريحة الفراش فتغلبت على عاطفة الطهر والعفاف التى مقرها الدماغ. ومنذ هذا الوقت الذى تجددت فيه الرغبة عندى فى استطلاع الأسرار الإلهية أيقنت

أن تلك الميول غالبة فى نفسى على هذه العاطفة التى تقول أنت إن مصدرها الألوهية.

وكان قد بلغ التأثر من نبسشت أثناء حديثه ما لفت نظر بنطاؤر الذى حدق فيه بعين تخامرها الحيرة والرفق ولبث الاثنان ساكتين فترة من الزمن تناول بنطاؤر بعقبها يد صديقه وقال له: إننى أحس فى نفسى انفعالا كالذى تشعر به ويجب عليك ألا تجزع، فما الانفعال الذى يحس به كلانا إلا أثر من آثار الرفق الذى يعلو فوق الشعور العادى، وإن يكن من نوعه. واعلم أن الذى حرك فيك الساكن ليس هو ما تسميه الميول البهيمية وإنما هو سر ربانى كنار يذكيها دوام تفكرك فيما يتأثر به قلبك من العواطف الكريمة كالحب والأمل وغيرهما. ولقد ذكرت لك أن الخير من أجل ما يتحلى به سكان السماء من الصفات. فإذا كنت لاتزال على ما عهدته فيك من الميل إلى الخير بفطرتك ومحض إرادتك فلا ريب فى أنك تتمنى أن لو تحولت البحار إلى سعادة وهناء لتهديها من تحب.. أفلا تشعر فى نفسك الآن بنزعة إلى تضحية كل نفيس عندك لإرضاء وردة ودفع الأذى عنها؟

لم يستطع نبسشت الإجابة عن هذا السؤال لما عراه من الدهش والذهول فأومأ بالإيجاب. أما بنطاؤر فقد استأنف حديثه قائلا: إذا كان الأمر كما ذكرت فلم لا تخضع للتأثير الربانى الذى ألبسك الآن ثوب الذهول والحيرة ولم لا ترأف بوردة وتحب الخير لها وتضحى فى سبيل هذا الحب الأمنية المستحيلة التى أزعجت خاطرك وأقلقت بالك؟.. وكيف تبحث عن أسرار الحياة والروح دون أن ترى دلائلها ومظاهرها العديدة فيما برأ الله من الكائنات التى جعلها لك كتاباً تقرأ فيه ما شئت بدون تكلف عناء ولا شقاء؟ .. أما فكرت فيما يصيب وردة لو حرمت جدها حارس

خدرها ـحامى ذمارها، وهى كما تقول أحب الناس إليك وأسماهم مكانة في نفسك؟ ألا ترى أن هذه الفتاة التى تفتن النساك بجمالها الساحر وحسنها الزاهر تصبح عرضة للسقوط فيما ينصبه لها من شباك المكايد مئات الذين استعبدت نفوسهم النزعات الشهوانية فعكفوا على الملاذ والملاهى؟ وهل ترضى بما تزل فيه قدمك من الهفوات أن تكون سبب انضمامها إلى الراقصات فى حى الأجانب فتخلع ثوب العفاف والصون لتلقى به فى مهواة العار؟ بل أتود أن تقذف بتلك الوردة النضيرة من حالق لتعبث بها أقدام المارين؟ وهل يستوى عندك قلب الميت وروح وردة؟ أما لهذه الروح فى نظرك رجحان وفضل على هذا القلب؟ اتق الله وانصرف إلى بيتك ثم عد فى الغد إلىّ أنا صديقك الذى كان من أجل نعم الألوهية عليه علمه بجميع ما مر وما يمر بخاطرك ويخفق به قلبك ومشاطرته إياك ما ينتابك من الآلام. واعلم أن مكاشفتك إياىّ بسرك قد زاد عقدة المودة بيننا وثوقاً، فثق بإخلاصى واعتمد على محبتى فى كل حين.

ثم مد بنطاؤر يده إلى نبسشت فتلقاها هذا بين يديه ثم زايل المكان دون أن تنبس شفتاه بكلمة واحدة وأخذ يسير رويداً رويداً غير متأثر بحرارة الشمس التى كانت ترسل أشعتها الحادة كالسهام النافذة إلى طريق مهجور يفضى بسالكه إلى الجبل ووادى المقابر الملكية ومنهما إلى دار المحنط بينم حيث رأى والد وردة جالساً إلى جانبها فدنا منه وسأله عن والده الشيخ فأجابه: انطلق إلى بيت التحنيط بعد أن كلفنى بتذكيرك بالعهد الذى عاهدته عليه إذا وقع له ما لا يود من الحوادث. وكان مكفهر الوجه منزعج الضمير حينما انصرف عنا لأنه كان قد وضع قلب الشاة فى

مخلاة يحملهـا وأسرع إلى ذلك البيت دون أن يخبرنا عن سبب أخـذه إياه. وهـا هى ابنتى وردة تريد منك الجلوس إلى جانبهـا حتى يعود أبى أو تتم والدتى عملها. أما أنـا فسأذهب إلى هرمـونتيس [1] التى يعـانى بها أسرى القتـال ضروب الإهـانـة والإذلال.

---

(١) هى أرمنت الآن وكانت واقعة جنوبى طيبة على مسيرة يوم منها

الفصل الثامن عشر

هبات وعطايا سنية ..لأغراض ذاتية

.

بينما كان نبسشت يتحدث إلى بنطاؤر ووالد وردة وقع من الحوادث فى حديقة دار مينا ما يستحق أن يؤثر. فقد كانت راتوتى تروح وتغدو فى ظل أشجارها وعلى وجهها من علامات الانزعاج والقلق ما يسهل على المتصفح أن يتبينه. وكانت كلما طفرت فى سيرها بخطوة وثب خلفها هرّ أبيض ظريف الشكل وثبة عنيفة وتعلق بذيل مطرفها الخز الذى كانت تميس فيه دلالا وزهواً ، ثم التفت وراءه حيث كان القزم نيمو جالساً على عمود صغير يحمل تمثالا من الفضة اضطرت راتوتى منذ أيام إلى بيعه لتسد عوزها بثمنه. وكان نيمو يحب الجلوس على ذلك العمود ليتمكن من مواجهة محدثه، لأنه كان إذا وقف على الأرض اضطر إلى جعل رأسه فى الوضع الذى يجعل رأسه فيه من يتصفح السماء ليدعو الله أن يغفر عما تقدم من ذنبه.

تحولت راتوتى بغتة نحو نيمو وبعد أن هرولت إليه قالت له: إن تبين لى أن ما نقلته إلىّ من الكلام غير صحيح وأنك خدعتنى فالويل ثم الويل لك! قال: إن ثبت عندك أنى خدعتك فلك أن تلقينى إلى النهر لتلتهمنى التماسيح. وعلى أى حال فسأحاول الوقوف على الطريق الذى سيتبعه بعاكر فى تقديم النقود إليك.. سألته: أوَ تقسم لى مرة أخرى أنك لم تذكر اسمى حينما طلبت إلى بعاكر أن يهم بإسعافنا وإخراجنا من مأزقنا؟ أجاب: أقسم لك بأيمان الأرض جميعاً أننى لم أذكر اسمك، أما الرجل فقد أنست منه ميلا صادقاً إلى مساعدتك خيل لى معه أنه ربما استصغر ما سيعرضه عليك من أمواله الكثيرة فجعل تحت تصرفك مزارعه الواسعة وقصره

الباذخ الشامخ فى مقابل نظرة يستحلى بها طلعــة نيفرت. فتنفست الصعداء وقال
ليت مينا كان يحبهــا كابن خالتها. قالت هذا واستــأنفت السير رواحــا وغدواً. وكـ
نيمو لا يكف عن الشخوص فى باب الحديقة، فوقفت راتوتى بغتة وقالت له بصو
مزعج: إنى أفضل بقاءها عزبة. فهبط نيمو من علــوة مكانه قائلا: لقد وقفت بالب
مركبة لعلهــا مركبة الموهار، ومــا هذا الذى أسمعه إلا نبــاح كلبه الكبير. أفتأذنين
باستدعــاء سيدتى نيفرت؟ قالت بصوت خافت: كــلا.. ثم سقطت فى كرسى قر
منهــا واستلقت على ظهرهــا كمن تخور قوتــه وتتفكك مفاصلــه، فاختفى نيمــو
الأشجار وأوغل بعاكر فى الحديقة وقصــد إلى مكان راتوتى بعد إذ وقع عليها بص
فــاستقبلته بجنــان ثابت وجأش رابــط وحيته بما لايخرج عن المعتــاد من مظاه
الحفاوة، وقالت له: تفضل اجلس فقــد كنت على يقين من حضورك، وإنى لأرجو
تزول آثار البغضاء لتحل بيننا محلها المودة القديمة الوثيقة العرى.

وكان حضــور بعاكر بنفســه ليعرض على خالتــه كل ما هى فى حاجــة إليه
الأموال لاستخــلاص تابــوت زوجها. وكــان قبل أن يهمّ بــالحضور متردداً بين
يكلف والدته بهذه المهمة أو أن يؤديها بذاته فجنح بعد طول الموازنة بين الأمرين
ثانيهما ليظهر أمام خالته بمظهر الــرفعة والثروة والاقتدار، وليجعلها تشعر بـ
خسرت فيه زوجــاً لابنتها متدلهاً فى حبها مسرعــاً إلى قضاء أوطارهــا واضعاً تـ
إشارتها كل مــا يملك من مال كثير وخير وفير. ثم خطــر له بعــد ذاك أن يبعث إ
بحاجتهــا من المال عن يد بعض الأرقــاء كما يفعل الأمراء المغلوبــون على أمرهـ
أدوا الجزيــة صاغــرين إلى الملوك القــاهريــن، فلم تقع هذه الفكــرة عنده فى مـ
الصواب بل رأى أن أبلغ ما يقيمه من الحجج على ثــروته وقدرته أن يتختم بالـذ

المرصع بالماس الذى أهداه الملك سيتى الأول إلى والده وأن يزين جيده ومعصميه بقلادة ودمالج من الذهب الإبريز المرصع بالأحجار الكريمة.

تحلى بعاكر بهذه المصوغات والجواهر فارتاح قلبه وانشرح صدره ثم نظر فى مرآة من الصلب الثقيل فحدّث نفسه بأن هذه المصوغات وحدها تفوق قيمتها ما ورثه مينا عن والده من مال ونوال. وكانت الأمانى تخامر قلبه وتداعب فؤاده منذ أن التقى فى اليوم الماضى بنيمو الذى رسم له خطة الاستحواذ على نيفرت بانيا إياها على إنقاذ والدتها من العار أولا ثم الفتك بمينا، فأخذ وسواسه يحدثه بأن أكبر عون له على بلوغ غايته ثلاثة أمور؛ قوته الوحشية التى يسميها الهمة والنشاط ودهاء القزم نيمو والماء السحرى الذى جهزته العجوز نيخت. فلما دخل في بيت راتوتى ودنا منها فى زى العظماء المتجبرين وهيئة من يود شراء شىء نفيس يأنس فى نفسه القدرة على دفع قيمته أضعافاً مضاعفة تلقته بمظاهر العلوّ والكبرياء. وكان فى بادىء الأمر يعتقد أنها بمجرد وقوع نظرها عليه ستلقى بنفسها على قدميه مستميحة العفو عنها وملتمسة المعونة لها. ولقد سأل عن نيفرت مراراً ورطب لسانه بذكرها فلم تدعها والدتها إلى الحضور ليطفىء نار هيامه بتسريح النظر فى محاسنها الفتانة.

وكان بعاكر يمنى نفسه بأن خالته ستطارحه الحديث فيما يطابق هواجسه، ولكن الزمن الطويل انقضى بينهما فى أحاديث تافهة ضاق منها صدره وعيل صبره فبغتها بقوله إنه وقف على ما وقع فيه ابنها من التفريط فى حقوق والده فجاء لإنقاذها من العار وإعلائها إلى قمة المجد والفخار. فشكرت له راتوتى هذا العطف وقالت له إنه بهذا العمل المبرور والسعى المشكور إنما يصون كرامة أبناء خالته

وهم جميعا لايزالون في عنفوان الشباب وغضـارة العمر. أما هى فلا تبغى شيئاً ما لنفسها بعد إذ قارب نجم عمرها الأفول ولم يعد لها من مطمع فى الحياة. قال بعاكر: لست يا خـالتى بالطـاعنة فى السن كما تـذكرين، فأنت من رونق الشبـاب وطراوة الحسن على قسط وافٍ وطلعتك لا تمل أبداً. قالت: الحمد لله إذ أمتعنى بهذا الشباب النضير الذي لولاه لأصبحت الحياة عبئاً لا يطاق حلمه. قال: لعل إدارة هذه الأملاك المثقلة بـالديـون هى التى جلبت عليك الهموم. فأومأت راتـوتى بإيماءة الموافقة ثم قالت بصوت الحزن: لقد كنت أستطيع التغلب على هذه المصاعب لو لم أكن مضطرة إلى مـواساة نيفـرت التى أضنـاهـا الحزن وأصبحت بلا نصير ولا مجير. ولطـالما تمنيت أن تكـون لها بعلا، فأنت أليق الـرجال بها وهى أليق النسـاء بك.. نعم وإنى لموقنة أنك لم تـر فى مدينة طيبة على سعتهـا وكثرة الفتيات فيها من يـدانيها جمالا ورقة ودلالا.. وهى بـلا شك جديره بـأن يتهالك على عشقها الشبـان.. وبعد أرأيت أنها تستحق من زوجهـا هـذا الهجـران المتلف والصـد المؤلم.. بل أرأيت أنـه كـان لايجوز له أن يفضـل عليها تلك الجارية التـى أخذها إلى سرادقـه ليحتظى بها حتى ذهب الناس إلى الظن بـأنه طلق زوجته؟! آه إنى استشف مـن عينيك الآن ما يجول بخاطـرك من الرغبة فى معـاتبتى وتحميلى تبعة هـذه الحالة الذميمـة التى أثرت فى نفسى بقدر مـا أثر فيهـا البرهان الـذى أقمته على حبك وصـدق ولائك لنا وحسن استعدادك لتضحيـة ما تملك فى سبيل إسعـافنا وتفريج ضـائقتنا.. لـو أن نيفرت اقترنت بك لكان حظها اليوم موفوراً وحيـاتها هنيئة وعيشها رغداً ومكانتها فى أوج العزة والشرف والصون.

ثم تناولت يد بعاكر ولزمت الصمت زمناً كان في خلاله يحدق فيها النظر فقالت:

لقد برزت اليوم لى فى مظهر المحسن العلىّ الهمة السريع النجدة وقابلت إساءتى لك بإحسان لا متجاوز بعده لذى مطمع. ولا عجب، فقد كان والدك شديد العطف علينا أنا وأبنائى. ولكثرة ما أغدق علىّ من نعمه ووافر كرمه كنت أطوع له من بنانه وأسرع مبادرة إلى تنفيذ أمره. أما والدتك -شقيقتى- فكنت أتحرى ما يرضيها ويسرها وأتجنب ما يسوءها. وهى لم تدخر جهداً ولمَ تضنّ بمال فى تثقيف ذهن نيفرت وتربيتها على أقوم المبادىء لتكون فى يوم ما قرينة الشاب البطل الذى أقام الدليل على بسالته وإقدامه فى الحروب الأسيوية، وهو أنت يا بعاكر لا سواك.. ولكن جاء القدر هادماً لصروح الأمانى إذ توفى والدك ففقدت فيه أقوى عضد ونصير و..قاطعها بعاكر: إنى ملمّ بتفاصيل هذه المسألة. قالت: لم أغلقت والدتك باب دارها في وجهى وقطعت علاقتها بى قبل أن تطالعنى ببيان أسباب تلك الحوادث؟ بل لماذا كتمت علىّ أسماء من سعوا عندها فى حقى وبذروا بذور الضغينة فى صدرها ضدى حتى أثمرت ما نحن فيه من التقاطع والتنافر؟ ولمَ لم تفرض أنهم لم يفضوا عمداً إليها بحقيقة عذرى وبأن الملك هو الذى حتم علينا تزويج نيفرت من مينا، إذ قال إنه أعز عليه من ولده وأننى لما ذكرته بخطبتك إياها وبعدم قدرتى على فصم عروة هذه الخطبة لما يجمعنا من أواصر القرابة ولحمة النسب، قال مستبداً: إن تلك إرادتى التى لا مفر من تنفيذها. فهل كان في وسعى والحالة هذه مخالفة أمر ملك الخافقين وابن الشمس؟.. ولقد قلت بمناسبة هذا الحادث إن الملوك يجحدون الجميل وينسون الفضل، إذ كم من الوقائع تعرّض فيها والدك للموت الأحمر باقتحامه صفوف الأعداء في مواطن القتال، وكم أصيب بالجراح البالغة ذوداً عن حمى الوطن والملك فنسى رعمسيس هذه الفعال كلها وجعل نصيبك الحرمان من التمتع

بريحانة فؤادك وقرة عينك وأوقعنى أنا فى هاوية لا قرار لها من الهموم والأكدار.

وكان الدم قد صعد فى رأس بعاكر فاكتست وجنتاه بلونه تأثراً وانفعالا فاندفع يقول: وأنا.. وأنا أما خدمت الملك أيضاً كما خدمه والدى؟ أجابت: نعم خدمته ولكنه لم يكن يعرفك وقتذاك معرفة تامة، ولست أدرى لم يكرهك وينفر منك. فأرعد بعاكر لسماع هذه الكلمات من شدة الغضب وقال: ما تقولين؟ أجابت: لندع الكلام فى هذا الموضوع فإن رضاء الملوك وسخطهم كرضاء الإلهة وسخطهم أمر ليس منه مفرّ، والعاقل من ينتفع بالأول ويحتمل الثانى بالأناءة والصبر. قال: وكيف يجهر الملك بعدم ارتياحه منى ويتظاهر بالإعراض عنى؟ قالت: إنه بذلك يجحد فضلك لكى يستميل مينا إليه ويحمل نيفرت على الرغبة فيه دونك. وكان جبين بعاكر فى خلال هذا الحديث يتصبب عرقاً بارداً، وكانت عيناه شاخصتين وفمه فاغراً. فلما طرقت سمعه الكلمات الأخيرة صاح: ثم ماذا قال فى حقى؟ فارتاعت راتوتى وتراجعت إلى الوراء، فأمسك بذراعيها وكرر قائلا وقد بحّ صوته: خبرينى ماذا قال فى حقى؟ فعاتبته على قسوته فى معاملتها وقالت: إليك عنى يا بعاكر.. إننى إن أمسك عن الإفضاء إليك بسرّ ما قاله فرعون فيك ليحمل نيفرت على كراهيتك فما هو إلا رفقاً بحالك وعطفا عليك.. فخلِ إذن عن ذراعى واعلم أن التى آلمتها بقوة يدك إنما هى خالتك. فلم يصغ بعاكر لقولها بل زاد ذراعها ضغطاً بأصابعه وكرر قوله: ماذا قال فرعون فى حقى؟ فصاحت راتوتى بملء فيها: حذار لنفسك يا بعاكر! إن من أفضح العار وأقبح الشنار عليك أن تعاملنى بالشدة، وإذا كنت لاتزال راغباً فى معرفة ما قاله فرعون فيك فهاكه:« لولا ما أعهده فى والدته من العفاف والصون لقطعت بأنه لا يمتّ إلى والده بحسب ولم يلبس له جلدة، كما هو ظاهر من الفرق

بين سحنتيهما. فإنــه لا يشبهه إلا بقــدر ما يشبــه البوم النسر» فما استقــرت هذه الكلمات فى أذن بعاكر حتى اصفرت شفتاه غيظاً ودمدم بعبارات الاستياء، ثم أطلق يد خالته وأخذ يمعن النظر فيها فاستأنفت حديثها قائلة: عندئذ حاولت أنا ونيفرت الدفاع عن كرامتك لإزالة ما علق بذهن فرعون من الأوهام فذهب عبثاً ما بذلناه من الجهــود فى هذا السبيل. على أنــه لا محل لاغتمامك بافتراء فـرعون الكـذب فى حقك فكفاك فخراً أن والدك كان من صفوة الأمة وعظمائها. والراجح عندى أن فرعون لم يجهر بما جهر بــه إلا لحقد فى نفسه، فإنه لم يذهب عليه بعـد أننا من الأسرة الملكية القديمة وأن هذا الانتساب يمضه أشد المضض ويقلـق باله. وكان خليقا به أن يأخذ حــذره ويعمى علينا أمــره، فليس هو ووالــده سيتى إلا دخيلين فى الملك لا يسقط إلى الملوك المتقدمين بحسب ولا يلتحم معهم بنسب، وكان أجدر منه بالحكم رجل نسبه صريح محفوظ وحقه في الاستواء على عـرش الملك واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار.

سأل بعاكـر: أتريـدين بهذا الغمز الوالى آنى؟ قــالت: بلى. ثم دنت منه وســارّته بقولها: لست أكاتمك بنات صــدرى ولا أوارى عنك مضمون سرى، ولست بخائفة ولا وجلة إذا فعلت، لأنك كما تعلم ابن أختى وصــهـرى.. وأود أن تفهم أن ما أسيت له كل الأسى حتى طار الرقاد عن عينيك استفزنى إلى ممالأة الوالى آنى والعمل معه على تحقيق أمنيته فى الملك. ولم يكن لى من هذه المناصرة بد إذ من واجب المرء إذا كرم أصله وزكا فـرعه المسارعة إلى تلبية نـداء الضمير إزاء ما يلقاه من ظلم ذلك الجائر رعمسيس وتجبره وتغشمره، وسلبــه إياك خطيبتك على الوجه الـذى أوغر صدرك وأنزل بقلبى الألم والحسرة على السعـادة المفقودة.. ولايغيب عنك أن دم حاتـاسو

مـازال يجرى فى عـروقى وأرانى قادرة مثلهـا على الأخـذ بيـد الرجـال فى طـريق الصواب. ولقد هبّت فى فـؤاد الوالى عواصف الأمانى والمطامع بعد أن كـانت ساكنة فطوحت به فى تيار الطموح إلى الأريكة المصـونة المكلوءة بعيون الآلهة.. وهناك أمر ذو بال وهـو أن الكهان الموكلين بخدمة القـدرة الربانية قـد أعوزتهم تلك الحال إلى الانحياز إلينا فوافقوا على مشروعنا واستعدوا لتلبية ندائنا فى أوفق الأوقات وأنسب الفرص.

وهنا طـرقت الآذان جلبة نفـر مقبلين فأمسكت راتوتى عن الكـلام وما هى إلا صرة الحالب حتى أقبل عليها أحد العبيـد مهرولا ليخبرها بوصـول الوالى آنى وأنه بالباب . وكـان لايزال بعاكر واجماً كـاسف البال مقلقل الضمير، فهمّ بالانصراف ، ولكن راتوتي قالت لـه: قف مكانك فإننى غادية إلى استقبـال الوالى الذى ستسره– ولا شك– رؤيتك لما أعلمـه من حبـه واحترامـه لك، كما كـان يحب أبـاك من قبلك ويحترم . ومازايلت راتوتى بعد ذلك مكانها ومضت قدماً فى طريقها حتى برز نيمو من مخبأه ووقف أمام بعاكر سـائلا: أما رأيت أن الصواب فيما قلته لك؟ فلم يلتفت بعاكـر إليه بل أقصاه عنـه بقدمه، ثـم أخذ يجوب أقطار الغـرفة تتقاذفـه الخواطر والهواجس. وقابلت راتوتى الوالى وسط الحديقة وكان يحمل قرطاساً من البردى ، فحياهـا من بعيد تحية المبتهج، فنظرت إليـه باهتة متحيرة ثم سلمت عليه بـاسطة يديها إليه كما يحُيّى من يجلس على عرش مصر ويوضع التاج الثنائى على مفرقه(١) ثم قالت: السلام عليك، هل قابلت الآلهة التسعة(٢) وهل شهدت الالهة هاتور فيما

(١) التاج الثنائى هو تاج الوجهين البحرى والقبلى.

(٢) كان المصريـون يمثلون آلهتهم ثلاثا ثـلاثا وفى رواياتهم القديمـة أن الآلهة التسعة العظمى كانت ذات يوم تسير مجتمعة فوجدت «بتال» وحيداً فريداً فخلقت له المرأة ليانس بها.

يرى النائم فقبّلتها؟ إن هـذا اليوم ليوم نور وسعادة من يتوسم فيـه وجهك الزاهر النضير يفز بالخير والهناءة والنعيم.

قال آني: قلت حقاً، وإليك هذا الكتاب فاقـرأيه. فتناولت راتوتى قرطاس البردى وقرأته ثم ردته إلى آنى قائلة: إنه لخبر خطير، إذ يؤخذ منه أن الجيش الذى حشدته قهر الحبشـان وأسر عشرة آلاف من رجالهم سيصلون قريبـا إلى طيبة مع أميرهم والغنـائم والأسلاب فحمـداً لـلآلهة وشكراً على مـا أظلنـا من فضلهم وأغنانـا من رفدهم. قال آنى: حمداً لهم أيضاً إذ حفظوا حيـاة القائد (ششنك) أخى فى الرضاعة وصديقى الحميم وردّوه إلىّ سالما غانما. ويلوح لى من بـوادر هذا النجاح يا راتوتى أن آمالنا ستقرن بـالفلاح. قالت: هذا ما لاريب فيه أيها الأمير. أما شعـرت بالعناية الإلهية وقد نفحتك بأنعمها وكلأتك بعينها التـى لا تأخذها سنة ولا نوم؟ أما علمت أنك كلما سرت إلى جـانبى خلت أنك ابن رع وأن بـوارق الشجاعـة تنبعث من عينى (منث) كما أن ثغرك يفتر عن الابتسام كما تفتر عن الزهر الأكمام، أو أنك (حورس) وقد سر بالانتصـار وكلل بتاج الفخار؟ قال: كلامك أيتها الصديقة كالشهد بل أعذب منه مـذاقا، ولكننى مـازلت مصراً على رأيى من أنه ينبغى للمـرء أن يحسب حساب عدوه، ولا عليه إذا بالغ فى تعظيم شانه وتحقير شأن نفسـه ليكون له من هذا الوهم منبهـاً لوجـوب التحرز والحذر واتخاذ مـا يتقى بـه الخطر، وكثيراً مـا اتفق لى أن نجـوت من الاخطـار والمصـاعب التى كنـت أخشـى منهـا سـوء العـواقب لحذرى وتيقظى. قالت: لست بمعارضـة فيما عنّ لك من الرأى، ولكن أبقى فى ذهنك أثر من الريب فى أن السعادة مقرونة بـالشقاء وأنها لا تأتى المرء إلا وهو لها تبع؟ قال: إنى مشايع لرأيك فيما قلت، لأن حادثـات الحياة تسير مثنى مثنى، فلكل سعادة مماثل

ولكل شقاء مشاكل. وهل أتاك حديث آخر من حوادث الفوز تخبرينى به؟ أجابت باسمة: لا ،لأن النسوة لا شأن لهن في الحروب، وإنما عرفن بالحذق واللباقة ولطف الحيلة فى حشد الجنود واستمالة القلوب إلى مشايعة الأحزاب، يشهد بذلك الحليف الذى ساقته لك المصادفة والذى لا يختل اثنان فى بسالته وعلو همته. سألها: ومن هو.. إله أم جيش؟ أجابت: لا هذا ولاذاك، وإنما بين بين.. هو بعاكر الذى حالفنى على التفانى فى نيل المرام وتحقيق الأمانى.

ثم أنشأت راتوتى تشرح ما جرى لها مع بعاكر وأنه ما برح متدلها فى حب نيفرت فاستمع لحديثها ووعته منه أذن واعية. قال لها: لكنى عهدت هذا الشاب مخلصا لرعمسيس وسيعود قريباً إلى معسكره وإنى لأخشى أن تأخذ الناس ريبة في حقيقة الأغراض التى نرمى إليها فيسعى الخونة منهم بالوشاية فى حقنا فلا يكون إلا ما نكره. والذى أراه أنك تستعجلين الحوادث وتستدنين المستقبل لتجنى ثمار المشروع الذى وضعنا لإنجازه الخطط، ولهذا أرى أو أوصيك بالتؤدة والاتئاد، فعندى أن ألف عدو يجاهروننى بعداوتهم خير من حليف واحد يعمل ضدى فى الظلام. قالت: طب نفساً فبعاكر شاب أمين، وأنا واثقة من أمانته وإخلاصه. قال: ومن أين لك هذه الثقة دون أن يكون هناك ما يضمن لنا بقاءه على ولائنا واستحسانه لمشروعنا؟ أجابت:إنه سيمكنك من يده ويعطيك قياد نفسه، ذلك لأن القزم نيمو قد وقف على أسرار له إذا انزاح عنها الستار فسيكون جزاؤه عليها الإعدام. قال: إن كان الأمر كما تذكرين فلا بأس .. وهل قتل نفساً ليستحق هذا الجزاء؟ أجابت : لا.. وبما أن القزم نيمو قد أقسم ألا يفضى بجملة سره إلى غيرك فلك أن تثق به وتركن فى مهام الأمور عليه. قال: قد يكون الصواب فيما رأيت إلا أن

نيمو طـائش العقل خفيف الحلم لا يصح الركون إليه فى معضـلات المسائل، ونحن الآن معه كفارس الرهان يـدفع بفرسه إلى الميدان غير مكترث بما إذا كان يجرى على بسيط من الأرض منجـاب أو على أسنة الـرمـاح، فإذا كبا الجواد ونفق اضطـر أن يقطع بقيـة الشوط سيراً على الأقـدام. قـالت: لقـد تلطفت فى العبارة إذ كـان ينبغى القـول بأن تلك الأسنـة تنفذ فى جسم الفـارس كما نفـذت فى جسم الجواد ويُصرع الاثنان، ولكن هل ذهب عليك أنك إلى الربح والفوز أحوج منك إلى التعرض للخسارة والفشل وأن أحقـر الناس تـدفعه الغـريزة إلى الحرص على ذاتـه والضن بحياتـه؟ ولايغب عنك أننى بمعاونتى إياك على إصابة غـرضك لا أجرى وراء غاية، وإنما أنا امرأة أحبك كما تحب الأخت أخاها، دع أنك الآن تمثل من حقوق الأجداد ما انتهكته الأسرة القابضة على صولجان الحكم فى هذه الأيام.

فمد آنى يـده إليها وقـال: أرجو أن تكـون المفاوضة انتهت بينـك وبنت أنات فى موضوع الزواج. وهل لى يا تـرى أن استبشر بسكوتك فأعده فألا حسناً على قضاء الوطر؟ لم تجاوبه راتوتى على هذا السؤال بل هزت الرأس ثم أطرقته. أما آنى فقال: لقـد مر ببـالى أمس أن أعـدل عنهـا للتزوج من غيرهـا إلا أننى آنس من نفسـى مـا يشجعنى على متـابعة هـذا الرأى، ولـو أسعفتنى الإلهة هاتـور بمددهـا وشملتنى برعايتها لفزت بما يتجاوز المأمول. قال هذا وتقدم نحو الغرفة التى كان فيها بعاكر مروّع القلب منزعج الضمير، فلما توسطها نهض بعـاكر واقفاً وأحنى رأسه إجلالا واحتراماً فحيـاء آنى مصافحة، على وجـه تستشعر منه دلائل الغطـرسة والصلف والتجبر ملطفة بشىء من تعمل المودة ورفع الكلفـة. ولما جلس بعاكر جاذبـه الوالى الحديث فى شؤون جعل وكده فيها إظهار الميـل إليه والعطف عليه والتذكير بما كان

بينه ووالده من الـود القديم ولحمة القرابـة. ومما قاله فى مدحـه: « لقد خصك الإله بالشجاعة التى تزول بها العقبات وتذلل الصعوبات وأرى أنه يندر من يضارعك فى الفضائل والسجـايا من شبـان هذا العصر، وقل من اعتمـد عليه منهم تحت إدارتى فليس عجيباً أن يكون من أعز أمـانى مشاركتك إياى فى أعمالى، ولكن ماالعمل وأنت لا غنى لرعمسيـس عنك بحكم منصبك عنده فإنـه بحاجة إلى من يثـق به من ذوى الإلمام الـواسع بمختلف العلـوم والفنـون بل إلى رجل يجمع بين فضيلـة الجنـدى الباسل والكـاتب البارع والعالم النـابغ. أما البسـالة فأنت بلا خـلاف القابض على زمـامها وأمـا التحـرير فلئن لم تكن فيـه ممن يشـار إليهم بـالبنان لـرداءة خطك وقصـورك عن ابتكار المعـانى فكثيراً مـا عجزت يـد عن تحريك اليراع وبـرعت فى الخطـران بالسيف على مثـال يبهر الأبصـار ويأخـذ بالألبـاب. وحركـة القلم على القرطاس تستدعى لين الأنامل ومرونة الأصابع بخلاف خطران السيف يتطلب من اليد الصلابة والقوة. وإذا انتقد الملك رعمسيس تقاريرك وعابها وضرب بها عرض الحائط فلا لوم عليه ولا تثريب.

قال بعاكر: إن أخى (حورس) احذق منـى فى فنون التحرير والتحبير وهو الذى يرافقنى فى رحلاتى وجولاتى. قال الوالى: لو أننى رئيسك لجعلت معك خمسة كتاب أو ستة لا كاتبـاً واحداً وعهدت إليك من جلائل الأعمال مـا يستغرق كل أوقاتهم فى تحبير تقاريرك عنها، وأنت فى منصبك بحاجة إلى الرصانة والشجاعة وهما صفتان قلما اجتمعتا فى شخص واحد. أمـا الذين يدعون العلم بالكتابـة والتحرير فكثيرون امتـلأت بهم الهياكل. قـال بعـاكر: حق مـا تقول. ثـم سكت آنى برهـة واستأنف الحديث: لا أدرى لأى سبب لا يفتأ رعمسيس يقارن بينك ووالدك فيقول فى كل حين

إن والدك الذى صار فى صفوف الأبرار والقضاة والعادلين كان فيما عدا ما تحلى به من الفضائل النادرة شجاعاً مقداماً وكاتباً أريبا، وقال غير هذا مما خيل لى معه أنه يريد الإساءة إلى سمعتك بالحط من قدرك، وهو ما يستدعي الأسف والحزن لأنك أحد أعضاء أسرتنا الشهيرة التى ذهب الحكم من يدها وبودى لو أتاحت لى الفرصة إيثارك بمنصب سام جدير بفضلك وكفاءتك. وبعد، فهلا ترى أن الملك قد غض من جنابك وقصد إرهاقك وإحراجك، إذ ما كدت تقيم بطيبة زمنا قصيراً هو بعض ما ينبغى لالتماس الراحة من عناء الحروب التى أبديت فيها من ضروب البسالة والإقدام ما هو جدير بالثناء حتى بعث فى تعجيل رحيلك إلى الشام. أما كان خليقا به- وقد قمت بما لايُعد من جلائل الأعمال- أن يدعك تتقلب زمنا فى بحبوحة نعمتك وتتمتع بلذة الانس بزوجتك. فبُهت بعاكر دهشا وقال: لست بمتزوج على ما تعلم بل أعيش وحدى. قال آني: وحدك! ولم لا تطلب من راتوتى أن تخطب لك أجمل بنات مصر؟ حقا إن التى لا تفتأ تتراءى لنفسها فى المرآة أعرف الناس بمحاسن النساء.

قال هذا ثم حيا بعاكر بمثل ما تصنعه قبلا من العطف والمحبة ثم قال لراتوتى وهو يصافحها مودعا: أرسلى المنديل إلىّ اليوم.. مع نيمو. ثم خرج إلى البستان وأومأ إلى بعاكر من بعيد قائلا: سيتناول طعام العشاء عندى هذا المساء لفيف من الأصدقاء فهل لك فى تلبية دعوتى إياك إلى مائدتى؟ فأحنى بعاكر رأسه شاكراً له هذا الالتفات. ولما غاب الوالى عن نظره وخلا إلى نفسه تأمل مليا فى موضوع المحادثة واخذ يضرب اخماسا فى أسداس وشعر كأنه وقع فى أحبولة لا يدركها البصر، وعرض على رويته ما نقله الوالى إليه من ازدراء الملك به وتهكمه عليه

وتنقيصه من قدره بالقول المقذع وقوله إنه لم يبقه فى منصبه المحفوف بالمكاره إلا لإكرام سيرة والده واعترافا بما له من سالف الفضل فى خدمته وكثر عليه أن تكون هذه منزلته من أمير البلاد مع أنه ضحى فى سبيل الإخلاص له كل شؤونه الخاصة، إذ أهمل العناية بفلاحة أراضيه الواسعة وانصرف عن العيش فى بحبوحة الهناءة والنعيم مؤثراً احتمال المشاق فى سبيل مرضاته. ومما فتّ فى عضده أن يفهم أنه سخر بخطه وإنشائه مع أنه البطل المقدام الذى طالما أرهب العدو ببطولته وبسالته وأورده بطعنات سيفه موارد الحتف، وزاد على هذه الصفات الشريفة أن كتم أسرار منصبه فلم يرض بما عرضه الوالى عليه من تعيين طائفة من الكتبة لتدوين التقارير ضنا بأسرار الحكومة من الاقتضاح وأن تلوكها ألسنتهم واستغنى باتخاذه أخاه عونا له على تحرير تقاريره وإلزامه إياه ملازمته تحرزاً من شيوع الأسرار. وبالغ فى الحذر إلى حد أنه بعد زواج هذا الأخ فرض عليه ملازمته ملازمة الظل للشبح وناط بوالدته القيام على شؤون زوجته وأبنائه. ولقد أقامه مقامه فى الشام ريثما يقضى بطيبة ردحا من الزمن ثم يعود فيسترد منه زمام أعماله.

قضى بعاكر فترة من الزمن تتقاذفه الهواجس والوساوس حتى نسى المكان الذى هو به ولم يشعر براتوتى إذ دخلت عليه وجلست إلى جانبه وأخذت تحدق نظرها فيه. وكانت عيناه أثناء ذلك شاخصتين فى غير ما تدركه المشاعر ودون أن تستقر على شىء، لكثرة ما غلبت الهواجس نفسه حتى ملكتها. ولعله كان يتخيل الملك رعمسيس يسومه سوء العذاب ويمعن فى التنكيل به وينكر عليه حقه وفضله، ويتنقل بعد ذلك من هذا الخيال إلى وجوب الانتقام من خصومه حرصاً على شرفه ومواساة لفؤاده المكلوم. وكان يخيل له أن الظلام قد غشى نظره فلم يعد يرى

شيئاً ثم فكـر فى نيفرت وحاجته إلى الظفر بها وراجـع بالفكر ما قدمـه بسببها من القـرابين إلى الآلهة فيضيق رحب الفضـاء فى نظـره ويخفق قلبـه بعـاملى الحب والضغينة ويعتقد أن الآلهة عمدوا إلى أذاه وخيبوا مسعاه وقابلوا بـالتغاضى عنه مظاهر عبادته وتقواه.

لم يبق له– وقد أساء الظن بالآلهة– إلا اعتماده على نفسه وركونه إلى سداد رأيه وحسن تـدبيره، ولكن كيف كان يستطيع تصريـف أموره بمقتضى هـذه القواعـد الحكيمة إذا كانـت الغيرة قد أنشبت فى قلبه أظفارها وإذا كـانت قد عبثت بآمـاله يد الخيبة فسلبته نعمة الطمأنينة وصار من نفسه فى حرب عوان؟ ولم يسعه وهو من هذه الحالة فى أشد الضيق والحرج إلا أن يعتمد رأسـه كمن يهب فزعا من نومه على أثر حلم مزعج رآه. ثم أجال النظر فيما حواليـه فرأى أنه لم يكن وحده بالغرفة بل إن إلى جانبه بها خالتـه راتوتى فعاد إليه صوابه وتذكر مـا أسرّه إليه نيمو وما دار بينه وخـالته والوالى من المحادثـات وما ذكرتـه هذه من قدرتها على حشد الـرجال والتحكم فى مشيئتهم بما تشتهى ثم قال: لعلها تعطـف علىّ وترأف بى فإنى لم أعد أجد نفسى قادراً على الإدراك والتصـور، بل ولا على العمل بما يوحى إلىّ ويلقى فى روعى، واتجه بعدئذ نحوها قائلا: قد اتفقنا على التحالف والتناصر. أجابته: أى نعم ضد رعمسيس ومع آنى . قـال: سأسافـر إلى الشام بعد أيـام ، فعليك بالتفكير قبل سفـرى فيما تـودين أن أحضره لك منهـا. أمـا المال المطلـوب لتسـدي ديـون ابنك فسيصلك مع تطفيل شمس اليـوم. ثم أتسمحين لى بالسـلام على نيفرت؟ أجـابت: نيفرت بالهيكل تؤدى فروض الصلاة. قال: إذن أحييها غداً . أجابت: بلا ريب، وأنها لتحسب نفسـها سعيدة إذا قابلتك وشكـرت لك معى صنيعتك – قال: استودعك الله

يا راتوتى. قالت: لا تدعنى باسمى، وقل يـاوالدتى. فلما ابتعد عنها أومأت بردائها
إيماءة الوداع مغتبطة بما يبشر به الحال من حسن المآل.

الفصل التاسع عشر

حيث يدور الكلام على زوج محظوظ.. لا من ذوى الأفهام

ما كـاد يتوارى بعاكر خلف الأشجـار المثقلة الأفنان بألوف الأزهـار وصنوف الثمار حتى دقت راتوتى إطاراً معدنيا لم يلبث أن ملأ بدوى رنينه أركان الدار، فلم تكن إلا غمضة الطرف حتـى برزت إحدى الجوارى وتقدمت إليها لتتلقـى أوامرها، فسألتها راتوتى: هل عادت نيفرت مـن الهيكل؟ أجابت: عادت منه إلى الباب الصغير فى محفتها . قالت راتوتى: إننى بانتظارها فى هذا المكان. فانصرفت الجارية وما هى إلا لحظة حتى دخلت نيفرت وخاطبت أمها: أتسـألين عنى يا والدتى؟ وبعد أن قبلتها طرحت نفسها على فراش وثير ثم التفتت إلى نيمو فأمرته بتحريك المذبة ليطرد عنها الذبـاب فدنـا القزم منهـا وأخذ يحرك تجاه وجههـا مذبة كبيرة مـن ريش النعام، فالتفتت إليـه راتوتى وقـالت له زاجرة: دعك مـن الترويح وانصرف على الفور فإن بيننا حديثاً لا ينبغى لمثلك أن يسمعه.

فهـز نيمو كتفيـه وهمّ بالانصراف. أمـا نيفرت فتأملت والـدتها بعين الذهـول وقالت: دعيـه يا والدتى فقد عـال صبرى ازدحام الذباب حولى، وأمـا الحديث الذى أشرت إليه فنيمو مستودع أسرارنا وسيكون أحـرص عليها منا. ثم مرت بيدها على رأس القزم كما تفعـل عند ملاطفـة الكلب الصغير والتفتت إلى الهر الأبيض فـدعته بالنداء المألـوف فأقبل نحوها مسرعا. عنـدئذ قالت راتوتى: يـا نيفرت إن ما أردت الإفضاء إليك بـه سر خطير أخشى إن تجاوزنا شـاع وملأ الأسماع. قـالت نيفرت: مـازلت متمسكة بـرأيى فإن كنت تريـدين.. فأنشـأت راتـوتى تدللهـا وتواسيهـا كالطبيب إذا لاطف عليلـه بمظاهر الرفق والعطف، وقالت: فليبـق نيمو هنا. فتهللت

نيفـرت فرحـا رقبّلت رأس الهر ووضعت المذبـة فى يد نيمـو ثم شكـرت لوالـدتها مسارعتها إلى إجابة طلبها. وكانت راتوتى ترسل إلى نيفرت من حين إلى آخر نظرات الرفق والعطف، ثم دنت منها وأخذت تطيل التأمل فيها كما لو كانت تعجب بجمالها وقـالت متنفسـة الصعداء: كنـت أريد أن أكتم عليـك ما أردت إيـراده من الأخبـار المحزنـة ولكن لم أجد مفـراً من إبلاغها إليك، فـدعى اللهو واللعب جـانباً وأنصتى لقولى. قـالت نيفرت: تكلمى يا أمى فإنى متجهة إليك بكل جـوارحى ولا تخافى أمراً فلن تنال من نفسى الأخبار مهما احتوته من بواعث الأكدار. وعندى أنه مادام طالع مينا فى برج السعـادة فقد كفانى هذا الفوز وزيادة. أقـول هذا لأن الهواتف جاءتنى بأنباء تفيد وفور الخيرات عنده فدعـوت وصليت ابتهاجا بما نبأتنى به. وقد علمت فوق هـذا أن الكتاب الذى أرسلـه أخى إليك لا يتضمن من الأنباء مـا يشرح الصدر بدليل أننى شهدتك بعد تلاوتـه تهطل الدموع من عينيك ورأيت على وجهك علامات الغم والاكتئاب نهار أمس كله. قالت راتوتى: حقا فإن أخاك قد جر إلينا من الهموم ما لا قبل لأحد بحمله، وأتى من قبيح الفعال ما لطخ شرفنا بالعار. قالت نيفرت: وما الذى ارتكبه من الآثام؟ أجابت: خسر فى المقامرة مبلغاً طائلاً كان يرجو ربحه فقامر على جثة أبيه رجاء الربح فكان نصيبه الخسران أيضاً. قالت نيفرت: ما أشنعه خبراً سيلصق بنا العـار إذا لم نلتجىء إلى الملك ونستنجد بكـرمه، ولقد عقـدت النية على مكاتبته فى أمرنا وهو بلا شك لا يتوانى في نجدتنا وإنقاذنا من ورطتنا، إكراما لمينا. ورعمسيس من علو الهمة بحيث يأبى تعريض شرف أسرتنا للامتهان بسبب سقطة سقطها شاب طائش الفكر خفيف الحلم كأخى. نعم لا مفر لى من الكتابة إليه فى هذا الموضـوع. قالت ذلـك بعبارة تنم على وثـوقهـا التام بنجـاح سعيهـا. فلما سمعت راتوتى هذا البيان ساءها أن ابنتها لم تحفل بـالكارثة كما كانت تنتظر وظهر عليها

الامتعاض، إلا أنها لم تلبث أن ذهب ما فى نفسها من الغيظ وقالت فى سكون وتؤدة: إذن ما رأيك فى نجدة ساقتها إلينا الأقدار على غير انتظار؟ قد وجدت الرحمة إلى قلب بعاكر سبيلا فأقبل على انتشالنا من وهدة العار مدفوعاً إلى ذلك بصلة الرحم وعاطفة الرفق التى مازجت دقائق قلبه. قالت نيفرت: بعاكر رجل كريم بلا ريب.. ألا تذكرين افتتانه بى منذ صباه؟ لا يختلجنى شك فى أنه لم يعرض علينا معونته إلا حبا فى، اذ ما زال هذا الحب متأججا فى فؤاده. قالت هذا وأغربت فى الضحك وجعلت رأس الهر بين يديها وأخذت تشخص فيه بعينيها ثم أدنته من رأسها وقالت بصوت الطفلة الصغيرة: أترى يا ماؤ[1] كيف يخلص أصدقاء صاحبتك الولاء لها ويقيمون حتى النهاية على حبها؟

كادت راتوتى حينما رأت من ابنتها هذه الخفة تتمزق غيظا فقالت: عجبا كيف تكبين على اللعب واللهو بينما يجب عليك الأخذ بناصرى للخلاص من هذا المأزق ومحو ما لصق بنا من العار؟ إنه ليسوءنى أن أراك قليلة الاكتراث بما يرفع من قدرنا بين الناس، ومع هذا فلست أدرى على مَن تعتمدين وبمن تلوذين إذا كان زوجك.. فما طرقت الكلمة الأخيرة أذن نيفرت حتى وثبت من مكانها وثبة الهر إذ تلوح له الفريسة وأخذتها العبرة وكادت تقف ضربات قلبها من اليأس، فأسفت راتوتى لمفاجأتها إياها بقول كان يجب عليها فيه التنقل من العتب اللطيف إلى اللوم فالتعنيف، فخفضت من حدة لهجتها إذ قالت لها بصوت يخالطه الحنان: كنت منذ برهة تفتخرين بأصدقائك لافتتانهم بك والتماسهم رضاءك، وهو مالم يكن بمستنكر عليك، فكفى أن ترشقى قلوب الشبان بسهم من كنانة لحظك لتأتى إليك

(١) اسم الهر باللغة المصرية القديمة

صاغـرة منقادة. ولست أجهل حب مينـا لك وتدلهه فى عشقك، ولكـن أما سمعت فى الأمثال قولهم «الفراق عدو الحب» «والبعيد عن العين بعيد عن القلب» وأن زوجك.. فقاطعتهـا نيفرت للمـرة الثانيـة وكان مـارن أنفها يـرتجف لما عراهـا من الغضب والاستنكار وقالت: ما فعل مينا من المنكرات؟ قالت راتوتى بصوت تمازجه الشدة: لم يقم لك بواجب الأمانة والوفاء، بل هتك.. فلمعت عينا نيفرت غيظا فألقت الهرّ من يديها ووثبت من مكانها وقاطعت والدتها للمرة الثالثة قائلة: مينا.. أمثله من يخون العهد؟ قالت راتوتى بصوت التأكيد: نعم! فقد شرح أخوك فى كتابه ما أتاه من قبيح الفعل وشائن التصرف، وذكر أنه لم يأخذ حصته من الغنيمة مالا أو متاعاً بل امرأة جميلة من السبايا يقال إنها ابنة ملك الـدنائم، وهى الآن فى سرادقه، فياله من دنىء خائن! قالت نيفرت وقد روعها هذا البـلاغ وجالت في عينيها الدموع: يا له من دنىء خائن! ثم كررت هذا القدح مرتين ضاع من بعدهما وعيها وذهب رشدها.

ولقد تمكن الغضب من نفس نيفرت فغيرّ من سحنتهـا وبدّل من حسنها الفاتن بما يصورهـا للناظر كأنها تمثـال يمثل شيطان الانتقـام. إذ كانت عيناهـا تلمعان كـالبرق حتى كـادتا تخرجـان من الحجـاجين وأنفـاسها تترادف فى حلقهـا زفيراً وشهيقا بسرعة مضطربة وجسمها يرتجف ارتجافا. وقد أمسكت بيد نيمو وزجت به في غرفة فتحت بابها بعنف ثم أغلقته عليـه وعادت إلى والدتها فى حالة كانت فيها أشبه بالأسدة اضطرابا وضراوة منها بغادة هيفاء، وقالت بصوت مبحوح: تقولين عن زوجى إنـه دنىء خـائن! فهل هـو دنىء خـائن حقـا؟ اسحبى كـلامك يـا أمى اسحبيه وإلا فاصفـر وجه راتوتى ولكنها عـالجت التغلب على عواطفها والتروى فى كلامهـا فقالت: يبـدو لك من قولى مـا يقرب من الشـدة ولو أمعنت فى الأمـر نظرك لأيقنت أن زوجك خان عهدك وترك ودك وفضحك بقبيح فعله وسوء تصرفه. قالت

نيفرت هازئة: هذا كذب لا أسمعه ولاسيما إذا كان مفتريه ذلك الشاب المتشرد الذى قامـر على جثة أبيه وشرف أسرتـه. أما زوجى مينـا فإشارة منه تكفى لايـراد مثله موارد العـدم، وماذلك إلا لـحسن سريـرته واستقـامة أحـواله.. إنى إذا فـرضت يا والدتى أن هذا العمـود الذي ترينه أمامى عمـود سرادق مينا وأنك هو وأننى رأيتك تجذبين نحو هـذا السرادق امرأة فى نهاية الحسن، فـلا يسعنى إلا تكذيب مـا رأيته رأى العين أو تأويلـه بأن بينك وتلك الغـادة مناجـاة فى أمـر خطير. إذ لا أسلم بأن يدخل مينا فى سرادقه ابنة ملك الـدنائم لسبب يصدف به عن محبتى وينسيه واجب الولاء لى..كـلا.. وما أخى إلا خـائن مائن أراد بـافترائه بذر الشقـاق بينى وزوجى لغاية فى نفســه. ولو قيل لى إن أوزريس يخون عهد ايزيس وتأكـد لى هذا القول فلن اعتقد أن مينا يقتفى أثره ويسير على سنته، ولو حفت به مائة من الحسان تستميله كل منهن إلى نفسها بسحـرها الفـاتن ولطفها الجاذب، بل أثق الـوثوق كلـه أنه لن يفضلهن علىّ ولن يتخذ إحداهن بديلة منى.

قـالت راتـوتى: أسلم جـــدلا بأن الحق فيما تقـولين إلى جـانبك، ولكن لم أراك تسفهين رأيى مع أن لى من صدقه آيـات دالات وشواهد قائمات؟ قـالت نيفرت وقد بدت عليها علامات الغضب: لست أعـارض فكرك ولا أقبح رأيك وكل ما أريده منك الكف عن اغتيـاب رجل أبىّ النفس زكىّ الخلق، أخـذ على نفســه تسـديد الـديـون الفادحة التى اقترضتهـا أنت وولدك وانفقتها وإياه فيما ضر ولم يفـد. وما خطر لى ببال قط أننا سنصير إلى حالة من الضيق والفقر يرثى بها الشامت. ولطالما فكرت فى هذه الحالة وسـألت نفسى أين ذهبـت خيراتنا الوفيرة من زرع وضرع فلم أقف على سبب زوالها بعد أن نشأنـا بها فى عيش ناعم رقيق الحواشى إلا حين علمت أن أخى السفيه هو الذى بددها فى الميسر.. ولن أستحق أن أكون زوجة مينا الشريف النفس

إذا سمعت النمائم والوشايات فى حقه وأنا تظللنى سقوف داره.. إن مسّ السماء لأهون علىّ من النزول إلى هذا الدرك.. أما إذا أقمت عاى رأيك فيه فليس هنا من يستنزلك عنه، ولكن فلتعلمى منذ الآن أنه لا مفر لأحدانا نحن الاثنتين من مزايلة هذه الدار على ألا تعود ثانياً إليها.

ما انتهت نيفرت إلى هذا الحد من كلامها حتى أخذتها العبرة وانحدرت الدموع على خديها النضيرين وجثت على ركبتيها أمام فراشها وأكبت بوجهها على الوسادة واسترسلت فى البكاء والنحيب، بينما كان قوامها اللدن يتلوى ويضطرب لشدة ما غشى نفسها من التأثر. فلما رأت راتوتى هذه الحال جزعت فلم تستطع التفوه بكلمة أو القيام بعمل لأنها لم تعهد من ابنتها مثل هذه الجرأة وأخذت تسائل نفسها هل أخطأت أم أصابت فيما أفضى إلى هذا الحادث. ومع هذا فقد دنت من نيفرت وضمتها إلى صدرها وقالت بصوت المشفق: أيتها الفتاة القاسية القلب اصفحى عن والدة أجدر بحنانك وبرك من سواها، ولا تضاعفى أحزانها. فوقفت نيفرت وبعد أن لثمت يد والدتها انصرفت إلى حجرة أخرى تاركة إياها فى خلوة شعرت معها كأن يداً باردة انحصت على قلبها. وتذكرت فى الوقت قول الوالى إن الإنسان لا يصيبه الخير إلا من حيث يخشى الشر فرفعت يدها إلى جبهتها شبه المتفكر وظلت هكذا هنيهة عرضت فيها على ذاكرتها ما اشتهر عنها من التؤدة والإقدام والثبات فطرحت جانباً عواطف الرفق والحنان التى كانت تحبب إليها التساهل مع ابنتها وتضخمت فى نذلرها عبارات اللوم التى وجهتها هذه إليها واشتد وقعها فى نفسها وتوسعت فى تأويل معانيها توسعا تحول معه لطفها الوالدى إلى شدة ورفقها إلى عنف ، ثم أنشأت تحدث نفسها: ما العمل وقد ظهر لى أنها ما برحت مقيمة على وده بالرغم من بعده، وتحقق عندى الآن أنها لا تضحى والدتها فحسب بل الكون كله فى

سبيل الوفاء له؟ إن رعمسيس يحب مينا ويعضده ويتفقده برعايته العالية، فإذا اطلعت نيفرت على ما دبرته من الوسائل وأحكمت عقدته من الدسائس مع بعاكر فليس بعزيز عليها أن تمهد لهما سبيل الانتقام منا.. كنت حتى اليوم أكاشفها بأسرارى فتضرب بها عرض الحائط وأنسج شباك الحيل على مرأى منها فلا تبالى بها. أما الآن فإذها لابد واعية لأقوالنا ومتعقبة لحركاتنا وسكناتنا وسيكون شأنها معنا شأن الأبكم الأصم الذى يزول عنه البكم والصمم فجأة بقوة فوق طاقة البشر فيسمع كل شىء ويتكلم بكل شىء. فلأكن منذ الآن على حذر ! لم تبق نيفرت ابنتى المحبوبة بل خصمى الممقوت ورقيبى العنيد!

ما لفظت رانوتى بهذه الكلمات وإنما كانت تناجى نفسها بها، وكانت إذ تناجت بها تشعر بخوف امتلأ به فؤادها ففتحت الغرفة التى كان بها نيمو وأمرته بتحضير المحفة لأنها اعتزمت التوجه إلى الهيكل وزيارة الجنود المصريين الأسرى الذين فُك أسرهم وحضروا أخيراً من الشام، فقال نيمو: أنسيت يا مولاتى المنديل الذى طلب الوالى أن أحمله إليه؟ قالت: لم يرد آنى بالمنديل إلا انتحال سبب يحملنى على إنفاذك إليه. والحقيقة أنه لايرغب فى غير الاطلاع على أخبار بعاكر والوقوف منك على أسراره وهو أمر عليك هين. قال نيمو: أود ألا يسألنى عن بعاكر لأننى لا أجرؤ على إفشاء سره، والأحسن عندى نسيها أو تناسيها. قالت: حقيقة إن ما وافيتنى به من الأخبار كاف بحاجة اليوم، فانصرف من فورك إلى آنى وابذل معه قصارى الجهد كيلا يفلت بعاكر من يده، وأعتقد أننى لن أجحد معروفك الذى سأكافئك عليه بتحرير رقبتك من ربقة الرق وإغداق الخير الكثير عليك، ولاسيما إذا تحققت الأمانى والآمال. فلثم نيمو طرف ثوبها وسأل: وما موضوع هذه المنى والآمال؟ أجابت: علمت ما يطمع آنى إليه ويتمنى الحصول عليه، أما ما أتمناه أنا

فشيء واحد ليس غير.سـأل:وما هو؟ أجـابت: أن يحل بعاكـر من الملك محل مينا.
قال: إذن فأمـانينا كلنا واحـدة. ثم همّ بالخروج. فقالت راتـوتي: نعم لا مناص من ذلك، وإلا فإن دامت الحال على هذا المثال وعاد مينـا من ميدان القتال وألزمنا بعمل الحساب.. آه.. لا أود أن تفضي الحال بنا إلى هذا الأمر وإلا فقـد لعقنا ما هو أمرّ من الصبر.

الفصل المتمم للعشرين

مناجاة بالأسرار عند الراقصات بالإطار

برح نيمـو دار الوالى وفيما هو فى طـريقه إلى دار راتوتى إذا بطفل قـد أقبل عليه وطلب إليه أن يصاحبه إلى حى الأجانب قـائلا إن امرأة تنتظره فيه، فتردد فى إجابته إلى طلبه. فلما بدا للطفل منه هذا التردد أبرز خاتما علم نيمو بمجرد الاطلاع عليه أنه خاتم السـاحرة نيخت، وكـانت قد جـاءت إلى المدينة لقضـاء حاجـة لها فرغبت فى مشاهدته لمحادثته فى بعض الشؤون.

كان نيمـو قد احتواه التعب وأعيـاه النضب لضيق خطواته ولأنـه لم يكن اعتاد السير طويلا على القدمين ولا استعاض من حماره الذى نفق فى الطريق بحمار غيره يخفف عليـه متاعب النقلـة، ولاوجد بـاسطبلات مينـا دابة يركبهـا بعد أن بـاعت راتوتى كل ما كانت تحتويه من الدواب إلا ما رأته ضروريا لها ولابنتها. نعم، إن فى الأسواق وعلى قوارع الطرقـات أولاداً يؤجرون حميرهم المسرجة(١) بأثمان هينة لمسافات معلومة أو لسحابة النهار كله، ولكنه لم يكن يحمل فلساً واحداً ، وقد أنفق كل نقوده في اقتناء ثياب جديدة يليق أن يمثل بها بين يدى الوالى. وكان جيبه لايخلو عادة من المال، إذ كان مينا يلقى إليه كلما وقـع نظره عليه حلقة فضة كما يلقى المرء بعض الحبـوب إلى الطير. ولكنه لم يأسـف على انقضاء ذلك العهـد- عهـد الرخـاء والرفه والنعيم- بل فضّل عليه ما يكابده من الفقر والشقاء إذا اقترنا باحتياج الغير

---

(١) جاء فى الآثار القديمة ما يدل على أن اغنياء قـدماء المصرين كانوا يحصون ضمن ما يمتلكونه من المواشى عدد ما عندهم من الحمير. وأورد لبسيوس فى كتابه (الجزء الثانى ص ١٢٦) صورة رجل جالس على كرسى معلق بين حمارين

إليـه واعتمادهم في المشـورة عليه، خصـوصـاً وقـد أصبح من المطلعين على أسرار الحكـومة والمتفـوقين على كثير من العظماء والأثريـاء الذين لايمتـازون على عامـة الناس وأفنائهم إلا بالتجبر والزهو. دع أنه فوق هـذا وذاك كان حظياً برعاية الوالى يجلس ليحدثه بأحوال بعاكر ووقائع عشقه لنيفرت ويصب حديثه فى قالب يستفز السامع إلى الضحك. ولقد أفضى إليه بأحاديث أخر كان إذا همّ بإلقائها يشبه صغار البط تنـدفع إلى الماء بحكم الفطرة أو العصفـور إذا انطلق فى الفضـاء بعد أن عـاش محبوساً فى القفص منذ نفقت عنه البيضة.

ولقـد أخذ يـزن بميزان الفكـر مشروعاتـه الخطيرة ويـدبر لنجـاحها التـدابير ويحسب لحوادث المستقبل ألف حساب فعـدل عن بعضها إلى البعض الآخـر وبدل من تدبير بغيرها لترجيحه نجـاح هذه وفشل تلك. وأمعن فى التفكير وأطال فى الأخذ والرد حتى بلغ إلى المدينة وسمع ضوضاء المارة فأحسّ بجلالة قدره وأنه من ذوى الشأن الذين يفحصون أعمال الحكومة ويتدخلون فى شؤونها. وكان فى أثناء مسيره قد مرّ بهيكل استارتة[1] التى كان يعبدها أفـراد الجالية الفينيقية فى طيبة وبمعبد ست[2] ملتقى المؤمنين بديانة (بعل) دون أن يتلفت إلى ما كان ينبعث منه من صياح

---

(١) كانت الإلهة استارتة التى عبدهـا الفينيقيون تمثل على الآثار بشكل يشبه شكل الإلهة سخت وهى فى آثار إدفـو ممثلة بـرأس أسدة تسـوق عربة تجرهـا الخيول، وقـد ورد اسمها فى أوراق البردى التى كُتبت فى عهد حوادث هذه الرواية مع اسم رعمسيس وجواده وكلبه المحبوبين عنده.

(٢) اتخذ أحد ملوك الـرعاة المسمى أبابى أو أبا تـوبس ست إلها له وتظاهر بـأنه لايعبد غيره في مصر. وسمى المصريون بعد ذلك بعلا إله الساميين بـاسم ست كما يظهر من نص المعاهدة المبرمة بين رعمسيس الثانى وقبائل الخيتـاس فقد احتوت هذه المعاهدة التى وُجـدت فى الكرنك صحيفة منها فيها دعوات لـلإلهين ست واستارته وصحيفة ثانية لآلهة مصر. وتـوجد التفاصيل المتعلقة بالديانة الفينيقية فى مؤلفات بليت وشاباس وبروكش وميير وجورج ايبرس.

الصائحين ووقع أقدام الراقصين ورنين الصنوج. وعبر بعد ذلك الميدان الفسيح الذى تحيط به مساكن الراقصات الأجنبيات المزينات الصدور بالحلى الأجنبية، وقد أقبل على مشاهدته أهل البطالة والكسل الذين كانوا ينثرون أموالهم فى هذه البؤرة ذات اليسار وذات اليمين وكانت تلك الراقصات يغلقن أبواب منازلهن الخشبية فى النهار التماساً للراحة من عناء الليل. وكانت بيوت المقامرة تبيت مفتوحة الأبواب فيُسمع منها قهقهة الضاحكين ومجون المازحين وتشاتم المتنابذين، وكان همّ رجال الشرطة طول النهار الفصل بين المتخاصمين من المقامرين، وكانت الحانات غاصة بالسكارى يحسون الكؤوس تلو الكؤوس من غير حساب ولم يكن ليرى بينهم أحد من جماعات المحترفين بالحرف الدنيئة كالموسيقيين المتنقلين والمشعوذين وآكلى النيران والمجان المطايبين والمقلدين وحواة الثعابين والسحرة والنخاسين وغيرهم من المحترفين على اختلاف مللهم ونحلهم.

واعتاد نيمو رؤية هذه المناظر فلم يعبأ بها لاسيما وأنه كان ينفر من الملاهى الخشنة والمناظر المبتذلة ويعاف شرب النبيذ ويميل عن كل ما يجنح إليه الهمل والمتشردون بطباعهم الخسيسة من العشق الوقتى الذى لا يكلفهم جهداً فى استمالة المعشوق وغيره مما يكون عليهم فيه الغرم ولغيرهم الغنم. ولم يعبأ فى مروره أمام تلك البيوات المدنسة بما كانت الراقصات يرشقنه به من عبارات التهكم والتحقير كما لم يصغ أيضاً إلى ما كان المتفرجون المعجبون بخلاعتهن يصوبونه نحوه من سهام التبكيت ازدراء به وحطاً من أقداره، لأنه كان يعلم منهم العجز عن مجاراته فيهما. ولقد كان معروفا فى طيبة كلها بالبراعة فيهما حتى أن قيم بيت بعاكر قال ذات يوم لبعض صحبه: «إذا كانت ألسنتنا عصياً ،فإن لسان القزم نيمو سيف عضب ماضى الحد».

قصد نيمو إلى خباء كبير مخروطى الشكل فرفع ستره البالى وانساب فيه، وكان هذا الخباء مفروشا ببُسط عتيقة جلست عليها غادات فاتنات أسبغن على قدودهن حللا مبرقشة بالألوان. وكانت إلى جانبهن عجوز شمطاء تلطخ أظافر أيديهن وأرجلهن بمعجون الحناء وتكحل عيونهن بالمستسم وتدمم(١) خدودهن وتدهن شعورهن بالزيت المعطر. وكان الهواء فى الخباء ثقيلا يكاد لثقله يحبس الأنفاس، وكانت البنات صامتات ساكنات لا يتحركن أحيانا إلا لتناول آنية من الصلصال فيها الماء الزلال، أو ذر الكحل بين شفاههن المدممة. وكانت الدفوف وآلات العزف والطرب على مقربة من أركان الخباء ، ومنها إطار ثبتت فيه صنوج فضة صغيرة، كانت هرة صاحبة الخباء وجراؤها تداعبها بأطراف مخالبها فتسمع لها وسوسة خفيفة تغرى تلك الحيوانات الأليفة بتحريكها. وكان تجاه باب الخباء شق تدخل منه وتخرج جارية حالكة السواد، تحيط برأسها كلما دخلت أو خرجت أسراب الذباب، فترفع ما فوق البُسط البالية من الصحاف المكسورة الحافات ممتلئة بفتات الخبز وقشور الرمان والثوم وغيره مما تركته الراقصات من المأكولات بعد أن اكتفين شبعا ورياً.

أما العجوز نيخت التى كانت جالسة على صندوق مبرقش بالألوان الزاهية بجوار تلك الراقصات فقد أخرجت من طيات ثوبها صرة صغيرة ثم صاحت بالجارية وكانت تحرك يديها حولها لتذب الذباب عنها قائلة: خذى هذه الحبوب العطرية واحرقى منها ثلاثاً فيخرج الذباب حالا، ولى معرفة واسعة بطرد الجراذن من المنازل واستخراج الأفاعى والصلال من أوكارها ترفعنى درجات فوق الكهنة

---

(١) أى تطلى خدودهن بالأحمر والأبيض

والأطباء. قالت إحدى الفتيات : دعينا من هذه الأرجاس فإنك منذ نطقت بالرقى على جسمى وأعطيتنى الشراب الذى يجعل المرأة رشيقة القوام لدنة العود أصابنى سعال شديد يكاد يمزق صدرى وينهك قواى إنهاكا يمنعنى عن الرقص. قالت العجوز: ولكن لا خلاف فى أن جسمك الآن ضامر وقوامك رشيق بعد إذ كنت بدينة الجسم لا تستطيعين لسمنتك وترهلك حركة. أما نازل السعال الذى نزل بك فلسوف ينصرف عنك. قالت الجارية: نعم يزول بموتها كما مات غيرها من قبل.

فهزّت الساحرة كتفيها مستنكفة ثم وقفت فرأت نيمو مقبلا عليها وكانت الراقصات يعرفنه فالتفتت إليه إحداهن وقالت: به !به! يا نيمو، لقد نما جسمك فصار أضخم منه يوم زيارتك الأخيرة. فلفت قولها أنظار صويحباتها إليه وأخذت كل منهن تبث صيحة الذهول: هو! هو! فلما دنا نيمو من تلك الراقصة قال: وأنتِ أيضاً لقد كبرت وطال لسانك. فقالت له: ما أعظم خبثك وأقصر جسمك! قال: كيف يتفق عظم الخبث مع صغر الجسم؟ السلام عليكن يا ربات الجمال.. لتساعدكن الإلهة (بيزا) على إتمام زينتكن.. وأنتِ يا والدتى مبارك يومك وسعيد نهارك هأنذا جئت بناء على طلبك. أشارت العجوز إشارة الموافقة على أنها دعته إلى الحضور ثم جذبته إلى صندرق كانت تجلس عليه وأفضت إليه بسر ثم قالت: يظهر أن التعب قد أضناك، فهل جئت ماشياً وحر الشمس محتدم؟ أجاب: نعم لأن حمارى نفق وما كان معى من المال مايكفى لشراء غيره أو تأجيره. قالت مازحة: هذا بشير بسعادة جدك وحسن مستقبلك، وماذا ربحت بعد؟ أجاب: لقد انتشل بعاكر مولاتى من وهدة الإفلاس، وكنت منذ ساعة أفاوض الوالى آنى فى موضوع طويل عريض. سألت . ماقال لك وما قلت له؟ أجاب: قال إنه سيعفيك من الرسوم على أن تمهدى لتحقيق أمنيته وبلوغ مراده من بعاكر. قالت: أحب أن يأتى عندى ولو متنكراً. قال:

لا أكون داهية فى السياسة إن طلبت إليه ذلك، وهو رجل خؤوف شديد الحذر. قالت: أصبت لأن المرء إذا تشعبت مطالبه قلما يستطيع تحقيقها، بل كثيراً ما يحول أحدها دون انصراف أريحية المجسن إلى قبولها جميعاً.. ثم ماذا بعد هذا؟.. أجاب: لقد قهر الوالى بجيشه الأحباش الاثيوبين، وها هو عائد إلى طيبة تتبعه الغنائم من أموال وأعلاق. قالت العجوز: هذه بشرى ما أحسنها ثم ماذا؟ قال نيمو: لقد شحذ بعاكر غرار سيفه وأرهف حده.. أما مولاى مينا فلست أوافيك من أخباره إلا بقدر ما معى من النقود. وأنتِ تعلمين أنى جئت إليك ماشياً.. قاطعته العجوز: ليسكن روعك وليهدأ بالك فلسوف تعود إلى مكانك ممتطيا حماراً. ثم أتحفته بحلقة فضة وسألته: أعاد بعاكر فالتقى بنيفرت؟ أجاب : اتفقت لهما حوادث عجيبة. ثم أنشأ يقص على أمه ما وقع بين نيفرت وراتوتى من الجفاء على أثر ما بدا لهذه من وفاء ابنتها لمينا مع بعده عنها. فأصغت العجوز إليه ثم أخذت تقول فى نجواها: آه.. إن هذه الوقائع غريبة تدل على اشتراك طبقات الناس في الشعور، بحيث أن ما يقع فى ظلال الأكواخ والأخبية يحدث مثله فى سامخة القصور، وكل ما هنالك من الفرق أن الأم تشبه القردة التى يعذ بها صغارها فتستحلى هذا العذاب وأن الزوجات يصغين إلى ما ينقل اليهن فى حق أزواجهن من الوشايات ويقبلنه قضية مسلمة، ولكن الحال غير ذلك بالنسبة لسيدتيك، لقد فنيت راتوتى فى محبة ذاتها وآثرت نفسها على ابنتها بدليل ما أخبرتنى به من مبالغتها في التجمل، حتى إنها لتنضد الأزهار فى شعرها كلما برزت لحضور الأعياد العامة وتراعى التناسب والتجانس بين ألوانها وألوان ثيابها ولا يهولها أن تضحى كل غالٍ ورخيص فى سبيل الغاية التى تجدّ لتحصيلها. ألم تحرض بعاكر على قتل مينا وهو زوج ابنتها نيفرت؟

قال نيمو: ليتك رأيت نيفرت وقد هاج هائجها على أمها، إذن تعتقدين أنها ليست

تلك الأيكة التى ألفنا منهـا السكون والرفق بل أسدة لا تـدركها الآساد فى ضراوتها وفروسيتها. قالت العجوز: لا غرابة مادامت هذه الغادة الفاتنة الحسن تحب زوجها مينا بقـدر ما تحب أمها نفسها. ألم يقل الشعـراء فيما نظموه من الشعر فى مـدحها «إنها ملآنة بزوجها» و«إنها لاتروم سـواه»؟ قال نيمو: لقد شهدت نساء بلغ منهن التـدلـه فى العشق ما يتجـاوز حـدود العقل، لكن.. فقهقهت العجـوز ضحكـا حتى استرعت أسماع الراقصات حـولها ثم قالت: إلا أن من تحدثنى عنهن من النساء لم يسلكن مسلك نيفرت، وقل أن تـوجد فى الألف واحدة تضـاهيها إخلاصاً لـزوجها وهياما به.. إن العشق داء عضـال ليس فى قدرة طبيب أن يستأصله من فؤاد كما لا قـدرة له على استئصـال جرثـومـة الكسل من نفس الفتاة التـى تفغر فـاها هنـاك للتثاؤب. ويـاليت شيطان الـداء يذهب بحياة المعشـوق فيصبح العاشق إمـا تعساً ومغضوبـاً عليه وإما سعيـد الجد. ولقد كنت فى شبيبتى ممن سطـا عليهم سلطان العشق وما برحت حتى اليوم.... قاطعها نيمو: ما برحت كيف؟ قالت وقد تمددت فى وضع من يلتمس تبديـد الكسل عقب النهوض من النوم: لقـد كان ذلك من ضروب الجنون، والجنون فنون.. إن المعشوق الذى ألمع إليه مات من عهد بعيد. وعلى فرض أنه مازال حياً فقد كان واجبـا ان أبقى بحالتى الحاضرة لأن الرجال أشباه ونظائر وليس مينا بمستثنى منهم. سأل: لكن ألم يكن لشيطان الداء الذى ذكرته الآن نفوذ على بعاكر وسلطان؟ أجابت: ولمَ لا ، ولكن بعاكـر اعتاد الاستمساك برأيه ولو أدت هذه الخصلـة به إلى الجنـون.. ألم يقتحم الأخطار ويستسهل الصعب ليـدرك المنى والأوطـار؟ وعسى إذا استحـوذ على نيفرت أن يكسر من حـدتـه ويطفىء من نـار غيرته. لقد جريت فى محادثتك شوطـاً بعيداً فدعنى أذهب إلى السرادق الذى امتلأت بالـذهب أكياس المتفرجين فيه على الـراقصات، فلى كلام مع صـاحبته. سأل: وأى

شأن لك بها؟ أجابت: تعلم أن وردة ذات جمال يفتن النساك فأنا أريد مفاوضة تلك المرأة فى مكافأتى إذا جئتها بالفتاة لتعلمها الرقص وتنظمها فى سلك الراقصات.

فامتقع وجه نيمو جزعا وقال للعجوز: لابد لك يا والدتى من العدول عن هذه النية. سألت: ولمَ وتيار النقود يسيل من أيدى القادرين على شرائها. أجاب متلجلجاً: لا أجيزك شراءها. فضحكت العجوز بطنا لظهر وقالت: ما معنى هذا النهى. أتريد التشبه بنيفرت فى دلالها على أمها فتقفنى تجاهك موقفها تجاهها.. أم تطمح إلى الاقتران بوردة؟ أجاب: نعم، فتلك غاية شريفة أرنو إليها ولقد وعدتنى سيدتى راتوتى بفك رقبتى وإغداق الخيرات علىّ إذا نجح مشروعنا وتحقق مأمولنا. وعندئذ لا أتردد فى شراء وردة من جدها فأتخذها قرينة لى أعيش معها فى هناء ورغد. ومتى تم القران أشيد داراً بجوار دار العدل للمرافعة عن المتقاضين فيها. ألا تذكرين الأقتب(سوك) الذى أقدم على هذا الفعل فأصبح من الأثرياء والأعيان، لا يتنقل من مكان إلى مكان إلا فى مركبة خاصة؟ قالت العجوز: حبذا الرأى، ولكن أما سمعت وردة حينما اعترتها الحمى لا يلهج لسانها بغير اسم الشاب الذى حضر من بيت سيتى لزيارتها؟ والمفهوم- بصرف النظر عن ورود اسمه على لسانها- أنها ترضى به بعلا وتؤثره على سواه لسمو مركزه ورفعة قدره، وليس ذاك الشاب إلا الشاعر بنطاؤر. صاح نيمو: بنطاؤر ذاك الذى يمشى الخيلاء ويلبس جلدة الفهد السابق لشدة شبهه به؟ حقا لمثله أن ينشد المعالى ويطمح إلى غايات المجد، ولكن فى الإمكان مع ذلك كسر شوكته والحط من كبريائه وشموخه. قالت العجوز: نجح الله مسعاك فإنه أحب إلىّ أن تصبح وردة قرينة لك لما اتصفت به من الجمال البارع.. ومن يا ترى يعلم أصل.. فقاطعها نيمو: عم تسألين؟ أجابت أسأل عمن يعلم أصل والدتها فإنه لا خلاف عندى فى أنها أجنبية بدليل الخاتم النفيس الذى وُجد معها

منقوشاً بحروف لم يستطع أحد حل رموزها. ورجائى أن نبذل عقب قرانك بوردة الجهد فى ترجمة هذه النقوش بمعرفة أحد أسرى الحرب، والراجح عندى أنها من أسرة طاهرة المنبت كريمة المحتد لما يبدو على وجه ابنتها من أمارات الشرف والمجد.. لمَ أراك تضحك يا نيمو، ألا تدرى أيها الغرّ أن ألوفا من الأطفال عرضوا علىّ فكنت أعرف بالتأمل فى أقدامهم وبصرف النظر عن ملابسهم إن كانوا من أسر رفيعة أو وضيعة؟ فإن شكل القدم يا بنى يدل على الأصل، وهناك سمات أخرى توصلنى إلى معرفته. فاعلم ذلك ولا تهزأ وكل ما أتمناه أن تبقى وردة حيث هى الآن دون أن يعرفها أحد لاساعدك على الاقتران بها. وعليك أن تنصرف الآن وأن توافينى بما يجدّ من الحوادث الخطيرة جهد الإمكان.

الفصل الحادى والعشرون

فيما دار من المحادثات بإحدى الشرفات

عاد نيمو إلى منزل مينا ممتطياً حماراً اكتراه ببعض ما أتحفته به العجوز من النقود ، فلم يجد به دياراً ولا نافخ نار، لأن راتوتى كانت فى أثناء غيابه قصدت إلى الهيكل ثم إلى المدينة. أما نيفرت فكانت خرجت لزيارة صديقتها بنت أنات.

وكان قصر فرعون أشبه بمدينة صغيرة منه بقصر عالى الذرى وثيق البناء منيع الأركان. وكان الجناح الخاص منه بالوالى آنى يشرف على الخلوات والمزارع، أما الجناح الخاص بسكنى فرعون وأسرته فكان يمتد على ضفة النيل ويبدو للنوتية والمسافرين بحراً فى أحسن رونق[1] ولم يكن البناء فى ذاته متناسق الأوضاع ولا متجانس الأجزاء، إذ كان عبارة عن بنايات متفرقة فى ثلاثة صفوف تفصل بعضها عن بعض أنهار تتدفق المياه فيها دوماً فيُسمع لها خرير لطيف، وتتدفع فى مجارٍ أُعدت لها تعلوها قناطر وطيدة البناء تيسيراً للمواصلات من ضفة إلى أخرى. وكان يحيط بتلك المبانى الجليلة أشجار باسقة ناضرة الأزهار يانعة الثمار تنحط على أغصانها الطيور فتجلو صدأ الهم بتغريدها من الصدور.

وكان يتخلل أسوار الحديقة على مسافات متفاوتة أبواب عالية يقف دونها الحراس من الجند مدججين بالأسلحة، ويلزمون مواقفهم فيها ليل نهار. وكان تجاه كل باب منها أدقال ساريات فى الجو إلى علوٍ سامق، فإذا كان فرعون فى قصره

(١) يرى بعض المؤرخين أن الفراعنة كانوا يسكنون الهيكل وهو رأى تأكد بطلانه، إذ تبين بالبحث فى الهياكل التى مازالت باقية على حالتها الأولى كهيكلى دندره وإدفو أنها كانت خاصة بإقامة شعائر الدين ليس إلا. أما الفراعنة فكانوا يسكنون بيوتا واسعة مشيدة بمواد البناء الخفيفة فى وسط حدائق كانوا يعنون عناية تامة بغرسها.

رُفعت عليها أعلام حمراء وزرقاء وإن لم يكن موجـودا ثبتت بأطرافها العليا نصال حديد لجذب الصواعق إليها أو صرفها إلى ناحية أخرى(١).

وكانت مقصورات الأميرات من هذا القصر الفسيح إلى يمين القسم المتوسط منه تظللها أشجار باسقة الأفنان وارفة الظلال فيها من كل فاكهة زوجان، وينطبع مرآها البديع فى صفحات الماء المنساب تحت جدرانها انسياب الأفعوان. وكان يليها من الجهة الأخرى مخازن القصر ومستودعاته متراصة متراكنة، بعضها إلى جانب بعض. وتلى القسم المتوسط الخاص بالملك أبنية عديدة وثكنات واسعة للجند والضباط المنوط بهم حفظ القصر وصيانة ساكنيه من الأثمة المعتدين وإلى يسار الثكنات منازل الحشم والخدم والعبيد وسائر الأتباع، على اختلاف وظائفهم وتباين أعمالهم.

وكان هذا القصر- بالرغم من غياب رعمسيس فى حرب الخيتاس- مظهر حركة دائمة تُوقع فى يقين الناظرين أن الملك ما برح مقيما به وموجوداً فيه، فقد كان مئات العمال فى الحديقة دائبين على تعهد الأشجار بالتقليم والريّ وغيرهما من وجوه العناية بها، فإذا أتموا هذا العمل انكبوا على غرس أشجار جديدة أو حفر مسارب وقنوات عديدة لجر المياه إلى المواضع التى لم تكن وصلت إليها. وكان الجند فى إحدى الساحات يتمرنون- بقيادة قوادهم- على أداء الحركات العسكرية فيبهرون الأبصار بلوامع أسلحتهم ويسحرون الألباب برشاقة حركاتهم، وكان الخدم فى ساحة غيرها يدربون الخيول ويكبحون من جماحها. أما الأميرات فكانت حجراتهن أشبه بخلايا النحل، دوام حركة وطنين أصوات، إذ كان الواقفون بأبوابها من

---

(١) يشهد بذلك النقش الذى عثر عليه العالم دوميشن فى هيكل دندره

ضباط وعبيد وموسيقيين وتجار وزوار لا يحصى عددهم.

وصلت نيفرت إلى باب القصر المفضى إلى حجرة بنت أنات فلم يتعرض لها أحد المتولين للحراسة بتفتيش محفتها، كما يجرى مع غيرها من الزوار، إذ اشتهر أمرها بينهم بأنها رفيقة الأميرة وصديقتها الحميمة. بل كانوا يسارعون إلى التنحى عن طريقها وإفساح المجال لها. وكانوا يطرقون رؤوسهم احتراماً لها وإكباراً. وقد أقبل عليها أحد الحجاب مهرولا بداخل الحديقة لاستقبالها وصحبها إلى ديوان كبير الأمناء الذى أحسن لقاءها وصحبها إلى مقصورة بنت أنات.

وكانت بنت أنات آنئذ بحجرة والدتها، وهى عبارة عن بناية جميلة مؤلفة من طبقة واحدة جامعة أسباب النظام. وكانت مقصورة بنت أنات تشرف على النيل وبها نوافذ تفضى إلى شرفة يحيط بها حاجز نحاس دقيق تلتف بأجزائه فروع النباتات المتسلقة. فلما دخلت نيفرت على بنت أنات أمرت هذه بعض جواريها بإزاحة الستار المسدول على تلك النافذة. وكانت الشمس آخذة بالأفول، والنسيم يحمل شذا عطور الأزهار والوقت من أوفق الأوقات لما اعتادته بنت فرعون من التأمل فى (رع) الذى أمسى باختفائه وراء ستار المغرب، فيما يلى القبور المنطبعة مواقعها على الأفق الغربى بحىّ الأموات متسربلا بسربال (طوم)، تاركا مصر من خلفه إلى الأصقاع الخفية من العالم السفلى، حيث مقام الأبرار والأخيار، ينيرهم بشعاعه الساطع اللامع فيبهر منهم الأبصار.

ولم يكن بمقصورة بنت أنات من وسائل الزينة والزخرف ما توافر منها فى حجرة نيفرت التى صرفت راتوتى ومينا عنايتهما فى فرشها بالبسط المطرزة الحواشى بالحرير اللازوردى تتخلله أسلاك الفضة، والكراسى المكسوة بالنسيج

الدقيق الموشى بأنامل الحبشيات توشية تُرى الناظر فيه صور الطيور ناشرة أجنحتها فتخيلها له مخترقة طبقات الجو صعداً، وزينتها بدميات الإلهة هاتور المرصعة بأحجار الزمرد ترصيعاً تحار فيه الألباب، وبالموائد الحاملة مختلف التحف والطرف، فمن صناديق صغيرة صنعت من العاج أو حجر اليشب إلى أكواب نُحتت فى المرمر الناصع البياض، إلى غير هذا وذاك من الأعلاق والنفائس التى زادت بهجة المكان فأصبح خليقا بصاحبته ذات الحسن الفتان

أما مقصورة بنت أنات فلم تكن بهذا التأنق البالغ، بل كانت ببساطة مفروشاتها وسذاجة أثاثها تنم على طباع صاحبتها وعاداتها وميولها. فقد كان البهو الكبير مرتفع الأزج تخفق فيه الرياح ولم يكن فيه من آثار الزينة والتنميق إلا ما كسيت الجدران به من مربعات الخزف المتعاقبة الأوضاع بحسب لونها، الأبيض فالبنفسجى فالأبيض وهكذا، وبوسط كل مربع منها شبه النجمة من لون المربع الآخر. وفيما يلى صفوف هذه المربعات بسط قماش أخضر من نسيج مدينة (صا) يتدلى من أطرافه ما يستر الكراسى والآثاث المحيطة بالغرفة التى كان تتوسطها منضدة كبيرة صُفّت كراسى الخشب من حواليها بكشل الدائرة.

وكانت مفروشات الغرف الأخرى المجاورة لهذا البهو كمفروشاته جامعة بين البساطة والحشمة، إذ لم يكن بأركانها سوى أصص غرست فيها النباتات النادرة وقوائم من خشب السأسم تحمل مباخر يتصاعد منها الدخان العطرى، إلى غير ذلك مما يشير إلى شغف الأميرة بالمناظر الطبيعية والتحف النادرة أكثر منها بما يغلب فيه حب الترف على الذوق السليم.

وكانت حجرة نوم الأميرة تليق بإقامة أمير من المغرمين بمشاهد الطبيعة

ومناظـرها البـديعة، أو أميرة جمعت إلى الكمال ضروب الحسن والجمال. ومـا كان ميلها إلى البساطة عن عجز فى الإنفاق فهى أميرة ابنة أمير يقبض على زمام أمة كبيرة بل عن إيثار للهـواء والنور يتخللان حجـرتها دون أن يعوقهما عائق من الـزخرف الباطل. وكـانت الستائر مضروبة على نـوافذ غرفتها، وهى لم تعتـد إسدالها إلا فى حمارّة القيظ فتكون خالفت بذلك نيفرت التى اعتادت أن تحكم غلق نوافذها.

تحفـزت الأميرة للقاء صـديقتها وكـانت بباب المقصـورة فى موقف الخضـوع والاحترام، فوقفت ولمست ذقنهـا بأطراف أناملهـا إشعاراً بعطفها عليها ورعـايتها إياها كما كان يفعل قدماء المصريين. ثم قبّلتها بين عينيها وقالت وهى باسمة الثغر: لقد أتيت اليـوم لزيارتى وتفقد حـالتى بلا دعوة منى، وهو مـا تستحقين من أجله الشكر، لاسيما وأنت منذ سافر الجيش إلى ميدان القتال لم تتخطى لى عتبة . وفى هذا الدليل النـاهض على هجرك وإطراحك إيـاىّ فى زوايا النسيان. فرفعت نيفـرت إليها الطرف وأجالت النظـر بعينين مغرورقتين بالدمـوع، فكانت نظراتها أبلغ فى التعبير عن المراد من البيان باللسان وأدل على مـا يخالط القلب من الهموم والأحزان. وقد اضطرت بنت أنات إلى قطع كـلامها، وبعد هنيهة أمسكت بيـديها وقالت: أتعلمين يا صديقتى أن لا مثيل لعينيك المتلوزتين وطرفـك الساجى سوى عيون الآلهة التى إن رشقت الأرض بسهامهـا نبتت فى مراميهـا الأزهار الجميلـة؟ فاحمرّ وجـه نيفرت خجـلا وقالت بصـوت متهدج: أود أن يأخـذ الكـرى بمعاقـد أجفانهما حتى الأبـد فأرتاح من شقائى وأخلص من ذلى وعنائى. ثم تساقطت الدموع على نهديها كلآلىء العقد إذا انفرطت، فجـذبتها بنت أنات إليها جذبة عطف وحنـان كمن يرفق بالطفل الصغير وقالت: ماذا وقع؟ فالتفتت نيفـرت بعين يخامرها القلق إلى السيدات اللائى لزمنها حتى بـاب المقصورة ، فأشارت إليهن بنت أنات بـالانصراف كما أشارت به

إلى ضابط التشريفات. ولما استوثقت من انفرادها بصاحبتها وأنه لاثالث لهما أقبلت عليها قائلة: خبريني.. مادهاك من الأحزان التى غيّرت معالم جمالك الفتان، خبرينى كيلا أدخر وسعاً لتخفيف هذه الآلام. أجابت: من أين لمثلى بلذة السرور والظفر بالمآرب إذا كنت أصبحت ألعوبة بأيدى الأجانب والأقارب.. قالت: لقد أنكرت هيئتك وغابت عنى معرفتك بما نالته الآلام منك.. فأى مصاب دهاك وبغدره رماك؟ خبرينى! فمن ذا الذى رآك قبل اليوم ولم يخل له أنك فى منام تتمتعين بلذيذ الأحلام! أجابت: صدقت ، فقد كنت حقاً غارقة فى بحار الأحلام حتى أيقظنى مينا، فلما تركنى عدت إلى النوم، وها قد مضى علىّ عامان وأنا فى سبات عميق ولكن القوم أطاروا اليوم النعاس من عينى فأصبحت ولا سبيل إلى الراحة والسكون.

وكانت بنت أنات فى إصغائها لهذه الكلمات ترى قطرات الدمع منحدرة على خدىّ نيفرت فأشفقت عليها كما لو كانت من فلذات كبدها إذ أجلستها على الأريكة القريبة منها وقعدت هى أمامها تربتها بيديها وتلاطفها، ثم سألتها عن سبب ما دهاها وكدّر صفاءها.

وكانت نيفرت- لما وقع لها من تلك الحوادث المزعجة- تغيّرت معالمها فاكفهر وجهها وكمد لونها حتى لم يعد أحد ممن عاشوا فى أفقها وخالطوها مخالطة قرابة أو مودة يتعرف عليها. ذلك لأنها وقد فوجئت بتلك الحادثات كانت تشبه من يخْلق كفيفاً ثم تنفتح عيناه للضوء على غير انتظار منه فتؤثر أشعته فى عينيه تأثيراً يؤلمها، ثم لا يلبث أن يتبين له أن الأشياء التى وقع عليها نظره تختلف شكلا وحجما ولونا وكيانا عما كان يخمنه لهما من الصور فى عمايته، وتبدو له حقائق الأشياء فى أقبح المظاهر وأبعدها عما كان يخيله لها من الحسن والاكتساء بغير الثوب الذي برزت له

فيـه وسـاء بصره، فـلا ينشب أن يتلمس بعينيـه منظـراً عليـه مسحـة من البهـاء والحسن. وما أصـدق انطباق هذا المثل على نيفـرت! فإنها لم تجل النظر فيما يحيط بها من الكـائنات إلا بعـد إذ وقعت تلك الحادثـات. وقـد فكرت آنئـذ فيما يمكن أن يفضى إليـه الطـريق الـذى تسير فيه، وجـددت فى نفسهـا ذكـرى مـا وقع لها مع والـدتها، ثم راجعت نفسها متسـائلـة: لم لا أستلم بيدى زمـام بيت أنـا صاحبتـه وسيدة من يأويه من الخدم والحشم، إذ أنـه بيت زوجى؟ ثم سكتت هنيهة خُيل لها فيها أن هـاتفاً ينـاجيها جـواباً على هـذا السؤال: السبب أن هـذا الزوج لم يـرَ فيك الكفاءة للتبصر والعمل. وكـان مينا يقتصر فى ندائها بقـوله: «ياوردتى»، ومـاكانت نيفرت فى الحقيقة إلا وردة زاهية يحسن بالمرء أن يطيل النظر فيها إعجابا وسروراً، أو يسـتروح رائحتهـا الزكيـة. ولكن أيكفى المرء أن يقضى حياتـه تأملا فى الـورود واستنشاق أريجها المعهود؟ ثم التفتت إلى بنت أنات وقالت: لا ريب عندى أن والدتى تحبنى حباً جماً ولكن لا تمر بى خلجة شك فى أنها أساءت التصرف بأموال زوجى. ولقد كنت وهى تنفقهـا من غير حساب لاهيـة عنها لا يسأمنى إسرافهـا، بل لا أكاد أشعر بـه، وهأنذه أراهـا الآن تخاف مغبة عودة زوجـى وتحسب لها ألف حساب. ومخافة امـرىء تحمل الخائف عادة على كراهيتـه والنفور منـه ثم على تقبيح فعله وتسوئة سيرته ولو لم يكن عليهما غبار. وعلى هذه القـاعدة حقدت والدتى على مينا لأنها كانت تخشى عاقبة اطلاعـه على تصرفها الضارّ، فسلمت بكل ما نُقل إليها من الوشـايات فى حقـه. وليس فيما يسنح للواشـى من الفرص مـا هو أوفق للسعـاية والدس كغيـاب المقصود بالوشـاية. اعتقدت والدتى بمفتريـاتهم التى رموا زوجى فيها بأنه خـان أمانة الزواج إذ جعل فى سرادقه سبيـة من سبايا الحرب ذات جمال رائق وحسن فائق.. فهـلا ترين أن هذه المزاعم تلفيق؟ إنى لا أريد مخاطبـة والدتى

بعد الآن لما سببته لى من الأحزان وعملت عليه من سلب راحتى وسعادتى.. ألا ترين أنها- بإثارة الشكوك فى نفسى نحو مينا- أرادت أن تسلبنى كل شىء حتى الهواء الذى أستنشقه والدم الذى يجرى فى عروقى وعليه مدار حياتى؟ أما علمت تلك الأم الخشنة الفؤاد الغليظة الكبد أن هيامى بزوجى هو سبب وجودى وعلة كيانى فى هذه الدنيا؟

كانت بنت أنات تنصت إلى هذا الحديث فلم تقاطعها مرة حتى إذا أمسكت عنه قالت: تعالى بنا إلى الشرفة لأفضى إليك بما عنّ لى من الأفكار ومرّ بخاطرى من الهواجس. وأرجو أن يلهمنى توت الحقيقة ويهدينى إلى الصواب، فإن نصيحتى لك وأنا التى خبرت أحوالك وسبرت طباعك بما يجمعنا من روابط المودة أقل ما أفرضه لك على نفسى فى هذه الأونة.. يسندون إلىّ النزق والتهور وعدم التروى، ولكن لى أحيانا نظراً صائباً وحكما جازماً فثقى بى أيتها الخليلة الوفية وهيا بنا نسير الهوينا وإنى لخير معين لك على المسير.

وكانت خطرات النسيم تمر مراً خفيفاً على سطح الماء فتبعث فيه قشعريرة تستحيل إلى موجات صغيرة تتعاقب فى توازن وانتظام على القرطاس كأسطر الكتابة فى استوائها. وكانت المبانى الكبرى ومنازل الخاصة تنطبع صورها على وجه الماء، والزوارق الكثيرة تعود من مدينة الموتى مقلة المئات من الزوار، والنيل تتدفق مياهه نحو الشمال كالحسناء تسير فى جلال واختيال، والشرفة تطل على أبهج المناظر من نهر يتيه عجباً وحديقة أشجارها نواضر، وكان النظام مستكملاً لا يستريب العاقل فى أن المهندس المتقن الذى وضع رسم هذه الحديقة فى عهد الملكة حاتاسو قد أودعه من المبتكرات البديعة ما تعجز عن تنسيقه يد الطبيعة، فإن هذه

الحديقة التى تحسر اللب بجمال وضعها وحسن تنسيقهـا كانت إذا رؤيت من قمة لاحت له كالسجادة الفارسية فى تشعب فـروعها واشتباكها وانفصالها واتصالها. وكان من بين أشجارهـا ما جلب فى السفن الكبيرة من بلاد اليونـان وسواحل بلاد العرب وأنفقت فى سبيله الأموال الباهظة. وهى لغرابة أشكالها وأنواعها تلفت النظر وتحير الفكر.

وكانت بالقرب من هذا المكان جزيرة آمون ذات الغابات المقدسة وفيما يليها على الضفة اليسرى من النيل مدينة الأموات بما احتوته من التماثيل المتراصة على صفين متـوازيين بين النيل وتمثـالى أمينـوفيس الثـالث الكبيرين ومـداخل بيت سيتى وسطوح هيكل حاتاسـو وأماكن جثث الموتى، إلى غير ذلك من المبانى الخاصة التى ترى مبعثـرة من بعيد على ثرى النـاحية الغربيـة، وينطبع على الآفاق فيما يلى تلك المدينة خيال جبال (لوبيا) وقد شقت الأخاديد فيها لدفن جثث الموتى فازدادت تلك الجهة بسكونهم سكونا.

كانت بنت أنـات ونيفرت تمعنان النظر فى هذا المشهـد العجيب المؤثر مع تطفيل الشمس بعـد أن تذبـذب قـرصها العسجـدى فوق الأفـق فترة من الزمن. وكـانت السحب الخفيفة تجرى فى بحبـوحة الأثير غير باديـة للأنظـار، فلما غابت الشمس وانعكست الأشعة عليها برزت من خدرها مكتسية بألوان زاهية يخيل معها للرائى أن يد القـدرة الربانية نثـرت على بساط السماء حفنة من النيلم والعقيق واليـاقوت فجاءت فى وضعهـا على تمام التناسب والنظـام. ولما شهدت نيفـرت وابنة فـرعون كوكب الشمس وقد آذن بالأفول بادرتا بالجثو على ركبتيهما بحيث يحجب نظرهما عن رؤيته تلك النباتات المتسلقة الملتوية الفروع على حاجز الشرفة، وتفرغتا للصلاة

والعبادة. وكان النسيم يحمل إليهما صدى الأناشيد الدينية التى يرتلها الكهان فى هذه الساعة على سطوح الهياكل، فتؤثر فى السامعين تأثيراً يحرك فيهم عواطف التقى والورع. وما أتمتا الصلاة حتى كان الليل أرخى سدوله وخيم على الآفاق، لسرعة زوال الشفق فى جهات مصر العليا بالنسبة للبلاد التى تليها شمالا. وكان كل ما التقى ببصرهما من المرئى سحباً يشبه لونها الورد أخذت تختفى بعضها تلو بعض كلما ازداد كوكب المساء علوا فى الفضاء.

قال بنت أنات: إنى أشعر بطمأنينة وطيب نفس عقب ما أديناه معاً من فروض الصلاة وأقمناه من شعائر العبادة فعسى أن تشعرى بما شعرت به. فهزت نيفرت رأسها فدنت بنت أنات منها. وبعد أن أجلستها مالت إليها لتكاشفها بما فى صدرها وتمحضها النصح إذ قالت: أرى يا نيفرت أن قلبك أصيب بجرح أرجو له سرعة الالتئام.. لقد صوروا لك الماضى فى أشنع الصور وأوقعوا فى فؤادك الرهبة من الحال والاستقبال، فدعينى أخلص لك القول وإن يكن فيه ما يؤلمك.. وإن كنت مريضة وأنا الطبيب الذى يتوقف على علمه شفاؤك فهل تعى أذنك نصيحتى وهل تأتمرين بأمرى؟ أجابت نيفرت: كيف لا أصغى ولا أطيع وأنا رهن إشارتك وما مقادتى إلا بيدك؟ قالت: تعلمين شغفى بممارسة الأعمال واعتقادى أنها أيسر عندي من الأقوال، ومع هذا يخيل لى أنى وقفت على حقيقة حالك وما يجول من الأفكار ببالك. أنت تحبين زوجك الذى أقصته عنك الحاجة إليه فى قهر الأعداء، فلما غاب محياه عن نظرك أحسست بآلام الوحدة تنتاب فؤادك.. وهذا أمر طبيعى لا شك فيه ولا مراء .. ولكن ألا تدرين أن لى مثلك والداً وإخوة فى ميدان القتال يحاربون الأعداء إلى جانب زوجك، وأن والدتى قبضها الله إليه منذ زمن بعيد، وأن السيدة النبيلة التى وكل الملك إليها ملازمتى وتسليتى فى وحدتى قد لحقت بها فى السماء

فأصبحت مثلك ملقاة فى زوايا النسيان والهجر؟.. سرحى الطرف فى أرجاء هذا القصر أفتجدين به أحداً غيرى.. ألم أكن مثلك وحيدة، وأن الوحدة أثقل وطأة على نفسى منها على نفسك؟

قالت نيفرت: المرأة المهجورة هى التى تنتظر عبثاً عودة محبها الذى أطال أمد حرمانها استجلاء طلعته. سألتها الأميرة: أوتعتقدين بحب مينا وصدق ولائه؟ فلم تحر نيفرت جواباً لما أخذها من الذهول والحيرة فرفعت يمناها إلى قلبها وأشارت بإشارة الإيجاب. قالت بنت أنات: ثقى أيتها الصديقة بأنك لسوف ترينه هنا فيسعدك القرب منه. قالت نيفرت بصوت منخفض: أود لو تتحقق هذه الأمنية. قالت الأميرة: مادام الرجاء ملء فؤاد المرء فلا يسوغ القول بأنه ملك زمام السعادة المستقبلة وجذبها من ناصيتها.. أثق بأنك لو خيرت بين الدخول فى عداد الآلهة والتحلى بالمزايا لعديدة التى اختصوا بها وبين البقاء مع مينا لفضّلت ثانى الأمرين، ولكن ألا تملكين الآن مع بعده عنك كنزاً ثمينا هو تذكار السعادة الماضية والهناء السابق معه؟.. أناشدك المودة ألا أنبأتنى ما هى السعادة التى أشعر بها لو تذكرت حوادثى الماضية وما هو الهناء الصحيح الذى أزعم أنى عشت فى بحبوحته؟.. قالت نيفرت. إذا كنت لا تشعرين بالسعادة الآن ولابذكراها فى الماضى فما هو إلا لأنك سلمت من الحب وتأثيره الشديد فى القلب.. أنت تشبهين البدر مجدا فى السير غير حافل بما حوله من ساطع الكواكب ولا تعلمين ماهية السعادة فى الحياة ولا سر ما يعتورها من الشقاء. سألت بنت أنات: وأى شقاء تقصدين؟ أجابت نيفرت: أقصد به آلام الانتظار فى قلب تذكى (سخت) فيه ضرام النار.

هنا أمسكت بنت أنات عن الكلام واسلمت نفسها للخواطر والهواجس ثم رفعت

رأسها فجـأة وبعد أن أجـالت النظر فى صـديقتها قالـت: لا صواب فيما تقـولين يا نيفرت، فإنى أعرف الحب كما تعرفينه، وكل ما هنالك من الفرق بيننا أنك تنتظرين يوماً تتحلين فيه بحلية هى فى قبضـة يدك، وليس بيدى شىء من الحلية التى يطمح فؤادى إلى التحلى بها. وما هذه الحلية الثمينة بـالنسبة لى إلا كلؤلؤة فى قاع البحر لا أراها ولا أستطيع اقتناءها. قـالت نيفرت: إذن أنت تحبين! الحمد لهاتور أن أودعت قلبك الحنان والشفقـة.. ولكن لمَ لا تأمر ابنة فـرعون غواصاً خبيراً بـالغوص على اللؤلؤة التى حازت إعجابها والمجىء بها إليها، بل لم لا تشيرين بطرف بنانك إلى تلك اللؤلـؤة النفيسة فلا تلبث أن تطفـو من قاع البحـر على سطحه ثم تدفعهـا الأمواج فتلقيها عند قدمبك؟

تبسمت بنت أنـات سروراً بهذه الاستعـارات فعمـدت إلى نيفـرت وقبّلتهـا بين عينيها وقالت: لقد ترامى بنا الحديث إلى مـوضوع نبه خاطرك وأيقظك من سباتك. ولله در أستاذى فى الموسيقى إذ كثيراً ما قال «إذا اتفق وتران وجسّ أحدهما إنسان اهتز له الثانى» والذى أراه أنـه إذا داومت على الكلام فى هذا الموضوع حتى الصباح فستصغين إليه حتى يتم، ولكنـى أود ألا يذهب الوهم بك إلى اعتقـاد أن هذا هـو ما حبب إلىّ ترك الشرفة. وعليه فلتعِ قـولى منك أذن واعية.. إننى الآن أعيش فى الوحدة والعزلـة مثلك وأحب كما تحبين ولكنى لست بواثقـة إن كان من أحبـه يقابل حبى بمثلـه، ومع هـذا فما يزال السرور أليفى والـرجـاء فى المستقبل حليفى، فبم تعللين ذلك؟ قالت نيفرت: ما أبعد مسـافة الاختلاف بيننا! قالت الأميرة: نعم نحن الاثنتين على طـرفى نقيض ميولا ونـزعات، ولكن أغـاب عنك أننا مـا زلنا فى نضرة الشبـاب ومقتبل العمر وأننا نميل إلى الخير؟ لقد توفيت والدتى وأنا طفلة جاهلة فلم أجد من اعتمد عليه فى تقـويم طبعى وتثقيف عقلى، فشببت بين أناس لا همّ لهم إلا الخضوع

لأمـرى والمبـادرة إلى تلبيـة طلبى، فى حين أننى كنت إلى إرشـادهم أحـوج منى إلى امتثالهم. أما أنت فقد قامت والدتك على تربيتك وعنيت بتهذيبك ووجهت خطواتك فى سبيل الحياة الكثيرة المعاثر، ولاعجب فليس فى الفتيات أحق منك بهذه الحياة الهنية والسعادة الـرضية، حياة الشمس المنيرة التى تملأ الكون بأشعتهـا المحيية. إلا أنها مع هذه العنـاية البالغة لم تفكر قـط فى أن تصد ميولك بعزيمـة التحرز والاحتياط للمستقبل. فقد جنح فؤادك الخلى إلى مينا فانفتحت لحبه أبوابه فاستقر فيه وتمكن منه بحيث لاتزحزحه عنه قوة بـالغة ما بلغت. ولقد انقضت أربعة أعوام لم تظفرى فيها من قربه والتمتع بمخالطته إلا بأشهر معدودة.. لزمتك والدتك فى هذه المدة ولم تفارقك فكنت تتخيلين أنها أخذت على عهدتها إدارة شؤون منزلك وأنها كفتك بذلك مؤونة التعب وأفسحت لك المجال للانكباب على أمر واحد وهوالتفكر فى حبيبك الذى طال غيابه عنك.. أعرف هذا يا نيفرت وإذا لم يتصل بعلمى من قبل فقد اتصل به من عهد قريب.. والذى فهمته أن كل ما وقع تحت مشاعرك فى العشرين شهر الماضية لا يرجع إلا إليـه ولا ينحصر إلا فيه، ولا عليك من ذلـك. إلا أنه خليق بك إمعـان النظر وإطالة التأمل لـلاعتبار والاستبصـار.. تأملى فى شجرة الـورد تلك التى تسر الناظر وتشرح الخاطر فهى لولا ما يتعهدها البستانى به دواماً من الرجب والتقليم والرى والتقويم لما نمت هذا النمو الذى اضطرنا إلى إغلاق النافذة وحجب الضوء عن النفاذ فى هذا المكان.. إليك يـا عزيزتى هذا الرداء استرى به كتفيك فقـد نزل الندى ولم أتم حديثى معك بعد... إن الهيام بمينا قد مـلأ قلبك وخطف لبك، وهو ما استعيذ بالآلهة منه، فإن العشق يشبه على ما أظن شجرة طيبة المغرس ممتدة الأفنان وارفة الظلال لا شجرة تنبت من أى بـذر أودع أرضاً مـا.. ولست بمنحية عليك بلـوم ولا محيلة بتعزيـز، لأن من تعرض لتهذيب خلقك وتثقيف طبعك فـاته الالتفات إلى مـا فطرت

عليه من شدة المراس وسرعة الجماح.. ولقد كنت مثلك أيام كان شعرى مرسلا إلى جبينى، إذ لم أطع لأحد أمراً ولم أفعل إلا ما رسمته لى الأهواء الصبيانية بيد الطيش والنزق وإنما يميزنى عنك أننى لم انخدع بما كانت الأحلام تزينه لى من الأوهام، بل كنت أميل إلى الحقائق المحسوسة فشاركت إخوتى فى ألعابهم التى كانوا يمرحون فيها ويهوشون، وعنيت بتربية الكلاب والخيل والطيور الجارحة حتى كان أهلى وذوو قرابتى وخلطائى ينعون علىّ هذه الميول التى اختص بها الذكور دون الإناث. وكانوا كلما غالوا فى نعيهم وتعبيرهم ضاعفوا في نفسى الميل إلى التشبه بالرجال والاقتداء بهم فى جميع الأعمال.

ما استقرت هذه الأقوال فى أذن نيفرت حتى هبّت قائلة بصوت الاستنكار: أما أنا فلن أروم لنفسى ما رمت أنتِ لنفسك. قالت الأميرة: إن تنكرى علىّ هذا الميل فما هو إلا لأنك زهرة جميلة ووردة نضيرة، أما أنا فما ناهزت الخامسة عشرة من العمر حتى شعرت بالسأم من الحرية التى كان مجالها منفحساً أمامى بحكم مركزى، وزادنى ضجراً أن أكون على الدوام مظهراً لأداء الفروض الواجبة لى من مسارعة إلى قضاء مطالبى وتنفيذ لكل رغباتى، وما سبب تحولى فجأة عن هذه الأحوال إلا أن والدى دعانى منذ أربعة أعوام- أى قبل زواجك بقليل- إلى ملاعبته بالضامة(١) وكان من أمهر الناس فى هذه اللعبة وأكثرهم تفوقاً فيها، فاتفق يوماً أن غلبته دفعتين، وبدا لى أنه كان يفكر فى أمر ذى بال ففرحت لفوزى عليه وقلت له بعد أن قبلت رأسه ويديه: عجباً أن تقهر فتاة صغيرة الإله العظيم الجبار الذى صرع

---

(١) يرى فى مدينة آبو رسم غريب يمثل رعمسيس الثالث لا رعمسيس الثانى يلعب هذه اللعبة مع ابنه

لأجانب وطرحهم عند قدميه(١). فابتسم ثغره وقـال: تغلب الإلهات الآلهة أحياناً...
أو لم تكن إلهة النصر عندنا امرأة وهى نيخت(٢). ثم انتقل من الهزل إلى الجد فقال:
يقولون عنى إننى أحد الآلهة وهو وصف أراه غير مطابق للواقع، فإنى لم أشعر قط
بزنـاد الربوبيـة يقدح فى قلبى إلا إذا قمت بعمل كبير ثـواباً كان أم عقـاباً(٣) ففيم
أشبـه الآلهة إذن إلا فى القدرة والمثـابرة على العمل.. وقعت هـذه الكلمة من فـؤادى
وقـوع البذور السليمـة من المغرس الطيب إذ تنبهت لما ينقضى من صفـات الكمال،
فلما سافر والدى وزوجك إلى حومة الوغى يتبعهما مائة ألف مقاتل عقدت النية على
الاقتداء بهذا الوالـد الرحيم فى القيام بجلائل الأعمال لأستحق نعمـة الانتساب إليه
فاسكنت تلك المنازل التى ترينها وراء الأشجـار هناك ثلاثمائة فتاة وأمرتهن بغزل
الكتـان ونسج اللفـائف الـلازمـة لتضميـد الجرحى. وهن يعملن بإدارتى وتحت
رقـابتى، وعهـدت إلى طـائفة من الغلمان وفـريق من الشيـوخ انتقـاء الحشـائش
والنبـاتات الطبيـة من الجبـال واصطناع العقـاقير والمراهم منهـا، بناء على أوامـر
الأطباء وإرشاداتهم. وقـد كفَّ الطهاة فى مطابخ القصر عن تجهيز الأطعمـة اللذيذة
والمآكل الشهية للمآدب الرسمية، إذ أمرتهم بتجفيـف اللحوم للعساكر كى يتمكنوا
من اجتياز الفلـوات بلا كبير عنـاء، كما أمرت المتـولى حفظ الأنبذة بنقلهـا من دنان

(١) تكرر هذه الجمل عادة فى رواية حوادث الانتصار

(٢) كان اليـونان يسمـونها (إيلتيا) وتسمى أيضا إلهة الجنـوب المضادة لإلهة الشمال (بـوتو)، وكان قدمـاء المصريين يعتقدون أنها تطير فى صورة نسر كاسر أمام الجنود المصريـة التى يقودها فرعون

(٣) إن الرموز التى تُرى بأيدى الفـراعنة وبعض الآلهة فى النقوش والتماثيل هى المجن والكرباج، وهما إشـارتان رمـزيتـان معناهما أن واجبـات الملـوك تنحصر فى المثوبـة والعقـوبة وفى العفـو والقصاص.

الفخار إلى القرب الجلدية ثم يفرغها فى قنانى تسد فوّهاتها بفدامات مدهونة بالقطران أو القار، صونا لها من تطرق الفساد إليها أثناء نقلها وتوزيعها على الجند لتروى زناد الحمية والغيرة فى قلوبهم. كنت أتولى هذه الأعمال فوق اشتغالى بمراقبة البنائين فيما أمرت بتشييده من الأبنية أو ترميمه أو توسيعه، وبهذه الطريقة تنقضى الأيام فى صالح الأعمال، فحجبت الآلهة عنى الأحلام المرعبة ومنعتها من التحويم حولى بينما أذوق لذة المنام، بل كنت كلما طرحت نفسى على الفراش فاجأنى النعاس وأظلنى بجناحيه الهادئين فلا أنتبه إلا فى الصباح. ماذلك إلا لأنى رُضت نفسى على أداء ما فرضته عليها من الفرائض ومارست الاقتداء بوالدى الذى كان كلما خُيلت لذهنه وتمثلت لخاطره سرّته رؤيتى وافتخر ببنوتى.. فهل لك يا نيفرت أن تشاركينى فى العمل النافع ليذكرك مينا فيفتخر بك ويعظم قدرك؟!

لزمت نيفرت الصمت وأطرقت رأسها رويداً رويداً حتى لمس نهدى بنت أنات ثم عانقتها وأخذت تذرف من عينيها دموعاً غزيرة كالطفلة الصغيرة، وعالجت بعد ذلك الجلوس فى مكانها الأول قائلة بصوت شبه المبتهل: نعم خذى بيدى إلى المدرسة.. إلى دار الصناعة، أرشدينى إلى العمل النافع لأقوم بالفرض الواجب. قالت الأميرة وقدابتسم ثغرها: لقد كنتُ من قبل عالمة بأنه لا ينقصك إلا الاعتماد على يد صادقة أمينة تأخذ بك إلى الغايات الشريفة والمقاصد العالية، ولا تنحرف عن جادة الصدق. أما الآن وقد وُفقت لهذه اليد وأرادت بك الآلهة خيراً ، فلسوف تعالجين آلام الانتظار بمرهم الصبر وتعلة النفس. وعليك الآن أن ترجعى إلى والدتك ، فقد أزف الليل وكاد يبذر بظلمائه جيش النهار، وأن تعامليها بما فرضته الآلهة عليك من

الاحترام. وسأحضر فى الغد لأرجو منها أن تفوض أمرك إلىّ، فهل رضيت يا حبيبتى أن تقـو ـى فى هـذا القصر مقـام صديقتى التى اختطفتهـا المنيـة من بين يـدىّ؟.. لا يمضـى يـومان حتى أكـون أعددت لك هـذا المكان لتشاطـرينى فيه مـن الأعمال ما سـوف تشعرين بلـذة إنجازه. وإنى لألتمس من الآلهة أن يباركوا فى هـذه المشاركة وأن يغدقوا عليها الخير والبركة.

الفصل الثانى والعشرون

زيارة للأموات.. وتعظيم للرفات

كان نبسشت فى أثنــاء المحادثة بين نيفـرت وبنت أنات جـالساً تجاه بيت المحنط ينتظر عودته بـذاهب الصبر، وقد تنازعته الهواجس لقلقه عليـه وشوقه إلى تعرّف نتيجة المهمة التى عهدها إليه ولكن هذا القلق لم يلبث أن زال تجاه ما كان يعتقده من فـائدة تلك المهمة للمجمـوع، لما ينبنى على تشريح القلب من بيـان حقيقة وظيفتـه العضويـة. وقد ظل هادىء الروع مطمئن الفـؤاد فترة من الزمن عاوده من بعـدها القلق بما ضاعف هواجسه وروّع نفسه وقلقل شخصه.

وكانت وردة طريحة الأرض على مـرأى منه، فمّرت به فى ذلك الانتظـار ساعات طويلـة كان يجيل خلالها النظر فى محاسنهـا الشائقة ويمتع النفس بـآيات جمالها النادر ريفكـر تارة فى والـدها الجنـدى الذى ذهب إلى بلـدة هرمـونتيس وطوراً فى جدتها التى لم تستطع التخلى بعـد عن حرفة الندب والعويل على الموتـى. فقد كانت -وهو غارق فى تيـار هذه الهواجس- ترسل شعرهـا الشعث حول جسمها وتلطخ صدرهـا وجبهتها بالطين وتبعـث فى الفضاء صيحات الشجـو والحزن فى انسجام وترادف، مع نحو المائة من العجائز يستثرن بذلك كوامن الأشجان فى النفوس حزناً على الموتى الذيـن كانت تأتى بهم الزوارق إلى وادى المقـابر ليـدفنوا فى بطـونها أبد الآبدين.

وكانت وردة، والشمس آفلة، لاتزال ملقـاة على ظهرهـا تحت المظلة التى أقيمت لتقيها حـرارة الشمس. وكانت تبدو على وجههـا الزاهر علامـات السأم والضجر، وانفكت ضفـائرها التى تخللتهـا قطع القش. فلما دنـا منها الطبيب ليجس نبضـهـا

ألوت عنـه وجهها فانصرف عنهـا، ولكنه عندمـا غابت الشمس خلف الجبل اقترب منها وقال: لقد بدأنا نحس البرد أفتريدين أن أحملك إلى داخل الكوخ؟ أجابته بصوت الحانق: دعنى وشأنى وابتعـد عنى، فمازلت أشعـر بـالحر وقـد زال الألم المبرح وصرت أقدر على القيام والـدخول وحدي. على أن جدى وجـدتي لايلبثان أن يصلا الآن إلى هذا المكان.

ماكـاد يرن صدى هـذه الكلمات فى أذن نبسشت حتى تراجع إلى الخلف وجلس على قفص الدجاج، وقـال متلعثما كعادته، إذ أخذتـه ثورة الغضب: أتحبين أن ابتعد عنك أكثر من هـذا؟ أجابت: ابتعد أو لا تبتعد فـالشـأن شـأنك. قال: لا أرى فى لهجتك شيئـاً من الرقـة واللطف. أجابت: لست أطيق شخـوصك فىّ ودوام اتجاهك إلىّ مع شدة قلقى على جدى الذى رأيته صبيحة اليـوم على غير عادته، إذ كان يناجى نفسه بكلمات فهمت منها أنه يشكو مر الشكوى من فـداحة الثمن الذى تريد أن تتقاضاه لمعالجتى. وقد ردّد لسـانه أنه سيموت، وسألنى ألا أنساه أبـداً وألا أمحو صورته من صحيفـة قلبى.. فأين هو الآن يـا ترى، ومـاذا هو صـانع؟.. لقد مضى ميعـاد حضوره وأنا تائقة إلى رؤيته.

قـالت وردة ذلك وأجهشت بـالبكـاء فانقبض صـدر نبسشت ووخـزه ضميره حينما فكـر فيما طلبه من الشيخ مقـابل معـالجته حفيـدته.. وقـد كان واقفـاً على نصوص القـانون وموقناً أنـه إذا فوجىء بينم وهو يسرق قلب إنسان أو يستبـدله بقلب حيوان فلا مفر له من العقوبة إعداماً بالسم.

وكـان الليل قد أرخى سـدولـه، فكفّت وردة عن البكاء وقـالت للطبيب: أظن أن جدى قصد إلى طيبة فى إقتراض المبلغ الجسيم الذى طلبته أجرة علاجك إيایَ. ولكن

لمَ يحمل نفسه هذا العناء وهذا الشقاء ولدينا الخاتم الذهبى الذى تفضلت علينا به الأميرة بنت أنات ونصف الغنيمة التى جاء والدى بها من الشام وما ربحته جدتى من المال من مزاولة الندب والعويل فى العامين الماضيين؟. ألا يكفى كل هذا لدفع أجرة الطبيب؟..

فاهت وردة بهذه الكلمات بصوت المعنف الأسف الحزين، فلم يحر نبسشت جوابا بل لزم الصمت. ومن أين كان له أن يجاوب، وهو لو قال (نعم) لخالف الحقيقة التى يحترمها ويصون كرامتها وتعدى حدود واجباته التى تحرم عليه التماس مال فى مقابل عمله. ومع هذا فقد اقتضى ما هو أغلى منه وأعلى. عندئذ تجاوب فى أذنيه صدى نصيحة الشاعر بنطاؤر، محذراً إياه من الاجتراء على سلب قلب الإنسان لتشريحه، فتضاعفت أشجانه وتراكمت أحزانه واشتد الحرج على صدره وضاقت الدنيا بما وسعت فى وجهه.

وقد سمع وهو فى هذه الحالة عواء بنات آوى، تردد صداه الآفاق فعمد إلى قضيب النار[1] فاشعل به قطعة من القار، ثم لم تلبث الهواجس أن انتابته فأخذ يسائل نفسه عن وردة ومصيرها لو مات جدها وجدتها ولم يبق من يعنى بأمرها. ولزم الصمت برهة ثم قال مناجياً نفسه بأنه إذا لم يعد الشيخ بينم فسيطلب من المحنطين[2] قبوله فى طائفتهم. فإن أجابوه إلى طلبه– وهو مالايرتاب فيه بسبب ما اشتهر عنه من المهارة والحذق فى علم الطب– اقترن بوردة وكفاها مؤونة الحاجة.

---

(١) تتضمن الإشارة الهيروغليفية (سام) صورة قضيب خشب جاف إذا حك حكا شديداً بجسم آخر تطاير منه الشرر واشتعل.

(٢) كانت هذه الطائفة باقية فى عهد الامبراطورية الرومانية وتحتوى أوراق البردى المكتوبة باليونانية بيانات مفيدة عن أنظمتها.

وظل هذا الخاطر يساوره حتى استمكن من نفسه وعقد النية عليه، وقال إنه بهذا القران يعيش فى عزلة عن الناس لايهمه من شؤون الحياة إلا أن يتحرى رضاءها ويتفرغ للبحث فى تركيب القلب، بتشريحه قلوب من يكلف بتحنيط أجسامهم من الموتى. ولم يكن نبسشت طموحاً إلى المعالي ولا منصرفاً إلى التماس الرتب ولاطامعاً فى اجتياز الثروة، ولهذا كان يعتقد أن ما سيعترضه من الشدائد والمحن فى طريق الحياة سيمهد له نيل بغيته من أبحاثه الطبية التشريحية التى ما فتىء يشتغل بها ويفكر فيها ليل نهار.

وعدا هذا فإنه لم يكن ميالا إلى الوعظ الدينى ولا إلى العمل لإعادة المنشقين والخارجين إلى حظيرة الدين. دع أنه لم يكن من أصحاب الكبرياء الذين لا يبتغون من وراء أعمالهم إلا الظهور بالباطل على أهل أفقهم.. ولهذا كان يرى أن ابتهاج المرء بالحياة ينبغى أن يقوم على أمرين: مزاولته أعماله الشخصية، وقيامه على شؤون أسرته. ولقد قضى ثلاثة أيام فى جوار وردة نسى فيها فروض الدين وواجبات الكهان، فلم يغير ثيابه ولم يسوّ شعر رأسه ولحيته، ولم يتوضأ بالماء. وكثيراً ما أحس كأنه أصبح من شذاذ الآفاق والمتوحشين أو من المحنطين الذين يضع الجمهور من أقدارهم ويرون أنهم من أفناء الناس وأحطهم قدراً فى المجتمع الإنسانى، فكانت ترتاح نفسه لهذا الانحطاط وهذه الضعة مادام أنهما هما الوسيلة إلى وردة، تلك الحسناء التى ظلت طريحة الأرض أياماً شعثاء الشعر تبث الشكوى من الألم الذى ذ بها. ولقد سألته هذه الفتاة فجاة: ألا تسمع صوتاً يا طبيب؟ فأعار نبسشت بأذنه إلى مصدر الصوت فإذا به هرير كلاب ووقع أقدام على الصخر الصلد. وما كاد الظن فى نفسه يتحول إلى يقين حتى ظهر له الشيخ بينم وامرأته وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التى كانت التقت بهما فى طيبة فرافقتهما فى

العودة منهـا. فتنفس الطبيب تنفس من زالت عن صدره العلة وصـاحت وردة: لقد غبتما زمنا طـويلا حتى أزعجنى الخوف. قـالت العجوز: كيف ولست وحـدك؟ ثم دخلت الوجار لتهيئة الطعام بينما بينم يجثو على ركبتيه بالقرب من وردة لملاطفتها ومداعبتها. ولما نهض واقفاً سلم نبسشت كيساً من القماش الخشن كان يحمله على كتفه وقـال: القلب الذى طلبتـه ستجده فى هـذا الكيس فخذه ثم رد الكيـس إلىّ لأنه يحتـوى جميع أدوات الجراحـة وآلاتها مما أستعين بـه على صنـاعتى وأقضـى بها حاجتى.

فدسّ نبسشت يده فى الكيس وأخرج منه القلب فوضعه فى علبة العقاقير الطبية. وقد كاد يطير فرحا بفوزه فدنا من الشيخ وقـال: خذ هذه الورقة المكتوبة وعلقها فى عنقك، فإذا فاجأتك المنون آجلا أو عاجـلا فسأضع كتاب «خروج الأيام» فى لفافات الكفن الذى سيـدرج فيه جسمك فتغدو ولا فرق بينك وبين الأمـراء والملوك. وقد لا أقتصر على هذا الاحتياط للآجل فأرسل إليك عاجلا كل ما ورثته عن والدى من المال الذى ما برح أخى الخبير بالمعاملات الدنيوية يدفع لى أرباحه منذ عشر سنوات.

فتسلم بينم منه الورقة فلما أتم الطبيب كلامه– وكان يسمعه في روية وسكون– قال له: أمـا أموالك فخلها لنفسك، ومتى شفيت وردة لا يدين أحـدنا الآخر بشـىء. قال الطبيب: هى الآن على وشك الشفاء، ولكن لمَ ترفض هديتى؟ أجاب: إنى إلى هذا اليوم من حيـاتى الطويلـة لم أبذل مـاء وجهى فى اقتراض مال أو التماس صـدقة، أفتريـدنى الآن– وقد قـوس ظهـرى الهرم– على فعل مـالم أفعل فى الشباب. حيـاة بحياة. ذاك كـان شرطنا الذى عليـه اشترطنا. واعلم أن خـزائن رعمسيس لن تعدل جزءاً مما وافيتك به اليوم.

فأطرق نبسشت رأسه عجزاً عن الإجابة عن هذا القول، وبرزت العجوز من الوجار فوضعت على الأرض طبقاً من العدس وشيئاً من الفجل والبصل (١) ثم دخلت بوردة فيء. وعادت العجوز بعدئذ فرجت من الطبيب أن يتناول ذلك الطعام. فأجابها إلى رجائها لأنه لم يكن ذاق منذ أمس الدابر ما يحفظ به الرمق ويمسك النفس. أما العجوز فدخلت عندئذ الوجار، فقال نبسشت لبينم: وقلب من هذا الذى جئتنى به؟ ثم كيف انتزعته من بين جنبى صاحبه؟ أجاب بينم: خبرنى قبل كل شىء، لمَ أكرهتنى على ارتكاب هذه الجناية؟ قال نبسشت: سببه أنى أحب البحث في قلب الإنسان للوقوف على سر تركيبه لأننى متى وقفت على هذا السر استطعت معالجة القلوب العليلة. فوجم بينم لما انتابه من الهواجس ثم سأل: أوما تقول صحيح؟ أجاب الطبيب: نعم إنه لكذلك. قال بينم: لقد ارتاح الآن ضميرى واطمأن قلبى، ومما يزيدنى اطمئناناً أنى أراك تعالج الفقراء. قال نبسشت: أبذل فى علاجهم نفس العناية التى أعالج بها العظماء والأغنياء.. وهل لك أن تخبرنى الآن أين وجدت هذا القلب؟

التقط بينم قطعة من الحجر الصلد وأخذ ينحتها بحذق ليتخذ منها مدية ماضية الحد، ثم شرع يحدث الطبيب بما يأتى: وجدت فى بيت المحنطين ثلاث جثث نيط بى عمل القطوع الثمانية المقررة فيها بالمدى الحجرية. ومفهوم أن الموتى إذا جُردوا من ملابسهم وطُرحوا أمامى على المائدة الخشبية ولم يبق بهم حراك ولا أثر للحرارة يدل على كمون الحياة فيهم فقد تعذر علىّ التفريق بين الأمير منهم والحقير، ذلك لأن

(١) هكذا كانت أطعمة المصريين فى الغالب، يثبت ذلك النقوش التى تمثل الفجل والبصل والثوم على الآثار القديمة. وقد أكد هيرودت (فى الجزء الثانى من كتابه) أن ثمن ما استنفده العمال الذين بنوا أهرام كيوبس فى الجيزة من هذه النباتات يبلغ بنقود عصرنا ٣٦٠ ألف جنيه مصرى.

جثة الشحـ اذ كجثة الكاهن الأعظم يعتريها الهمود والخمـود فلا تبدو منها حـركة. ولكنى كنت مع هـذا عارفا بحقيقـة الأجسام الثـلاثة المطـروحة أمامـى، فالجسم الضخم الأوسط كان لـ (رونى) نبى هيكل حـاتاسو لأنى قبل مماته شهـدته أكثر من مائة مرة وهـو فى محفته المدجلة بالذهب. أما الجسمان اللـذان إلى جانبيه فكان أحـدهما لـرجل مسكين من نـاحتى الأحجـار فى المقـالع، والثـانى لامـرأة من حى الأجانب توفيت بالسل الرئوى.

فلما أتممت القطـوع الثمانية فى الجثث الثـلاث، بـدأ الناس كـالعـادة يرمـوننى بالأحجار. فلما نتهوا من فعلهم استأنفت العمل مع زملائى فى تحضير باطن الجثة فوضعنـا أحشاء النبى رونى فى إناء مـرمر نـاصع البياض، وألقينا أحشـاء الرجل والمرأة فى بطنيهما. عندئذ أنشأت أسائل نفسى: قلب مَـن من الثلاثة أسرق، وبأيهم ألحق هذه الخسارة الكبيرة؟ فاتجه خاطـرى طبعاً فى بادىء الأمر إلى الرجل والمرأة الفقيرين، لأن الفقراء كبش الفـداء فى كل زمان ومكان، وسرعان مادنـوت من جثة المرأة التى قضت حياتها في الموبقات. الا أننى سمعت هاتفـا – بل شيطانا– يصوت بى: «لقد كـانت هذه المرأة منكودة فى حلها وترحـالها على ظهر سب،[1] فلا تسلب قلبها فتسلبها معـه نعمة السعادة والهناءة فى العـالم الباقى». وما استقـر نداء هذا الهاتف فى قـرارة سمعى حتى تراجعت عن جثـة المرأة وانصرفت إلى جثة الحجّـار، فأول ما وقع بصرى كان على يـديه النحيفتين اللتين جعلهما إدمان العمل أقسى من يدىّ. وما كدت أصل إليهـا حتى سمعت ذلك الشيطان يودع أذنى مثل ذلك الكلام،

---

(١) سب إله الدهر والزمن، وكان قدماء المصريين يعتقدون فى دوام المادة وتجددها بدون انقطاع، ولذلك كانوا يرمزون بإله الدهر (سب) للدلالة على الأرض أيضا.

فتقهقرت إلى الخلف فإذا أنا تجاه جثة النبى رونى، وكان قد مات بالسكتة لتدفق الدم فى رئتيه. وخيل لى آنئذ أننى أراه ماراً أمامى فى محفته الذهبية أو متفرغاً لاستقبال المدعوين إلى مآدبه الشائقة، وتذكرت ما تمتع به من نعيم الحياة الدنيا. وحينما رأيتنى وحيداً بعيداً عن أعين الرقباء فما أسرع ما أخذت قلب الخروف الذى فى مخلاتى وجعلته فى مكان قلبه.. وقد أكون بهذا العمل أثقلت كاهلى بالذنوب، ولكنى موقن أن له فيما سيعلق بجسمه من ألوف الأحجبة والتمائم وما سيوضع فى مكان القلب من الجعلان والكتابات المقدسة التى ترشده إلى الجهات الخفية خير معاض له عن قلبه. وبعد فما نسيت قسمك الذى أقسمت، فهل أنت له ذاكر؟

فمد نبسشت يده إلى الشيخ قائلا: نعم خذ هذا الدواء وأعطه وردة على أربع دفعات، فإنها تشفى سريعاً. ولسوف أعودها وأتفقد حالتها. أما أنت فانصرف الآن لتلتمس الراحة بينما أقضى خارج الكوخ ردحاً من الزمن ثم أزايله قبل اختفاء كوكب ايزيس [1] لأن القوم فى بيت سيتى ينتظرون عودتى.

لما خرج الشيخ فى اليوم التالى من كوخه لم يجد الطبيب بل رأى فى موضع النار خرقة ملوثة بالدم، ففهم على الفور أن نبسشت لم يطق الصبر فانكب على تشريح قلب الكاهن رونى والبحث فيه، فارتاع فؤاده وارتعدت فرائصه وبكّته ضميره لانتزاعه هذا القلب من جوف صاحبه. ولبثت تنتابه الهموم حتى أشرقت الشمس فى زورقها الذهبى، فجثا على ركبتيه وأخذ يصلى ويبتهل إليها أن تقى وردة وإياه شرور العالم، ثم همّ واقفاً رابط الجأش بالإيمان مطمئن القلب بما وعده إياه الطبيب. وبعد أن استأذن من زوجته ووردة بالانصراف تناول مديته الحجرية

---

(١) هو كوكب سوتيس أو الشعرى اليمانية.

ومشبكه النحاسى [1] وانصرف قاصداً إلى دار التحنيط.

وكان هذا المكان سحيق البعد عن كوخ المحنط، إذ كان بسفح الجبل على مقربة من الصحراء جنوبى بيت سيتى. وكان قائما على منبسط فسيح من الأرض تحيط به أسوار عالية بأحدها باب يواجه النيل، وكان خاصاً بدخول الجثث. أما المنوط بهم التحنيط والتمليح ونسج اللفائف وتحضير الماء فكان لهم باب آخر يدخلون منه ويخرجون وبداخل الأسوار بيت خشبى أعد للكهان يقضون فيه النهار لتلقى طلبات أهل الموتى والطاعنين فى السن الذين يرغبون- قبل أن يدركهم الموت- فى إعداد التوابيت التى ستودع أجسامهم.

وقت ما وصل بينم إلى هذا المكان كان نحو خمسين رجلا وامرأة مزدحمين به، يقدمون إلى الكهنة تلك الطلبات أو يشترون ما يختارونه فيه من المصنوعات، فقد كان به عدد كبير من التوابيت المختلفة الأشكال والألوان المتفاوتة الدرجات من الساذج الرخيص الثمن الخالى من كل أثر للنقش إلى المنقوش بالألوان الزاهية البديعة، وغير هذا وذاك الشىء الكثير من اللفائف الدقيقة الناعمة أو الغليظة الخشنة مصفوفة على الرفارف لتتبينها الأنظار ويفرّها المشترون أدق فرار. وكانت اللفائف تُنسج فى طيبة مبصومة بطوابع آلهات النساجين الثلاث وهن (نيث) و(ايزيس) و(نفتيس).

وعدا هذا كله فقد كان معروضاً للبيع الشىء الكثير من التمائم والأحجبة وأدوات الزينة للموتى كالعقود والجعلان والمناطق والمساند والمثلثات والحلقات

---

(١) أكد المؤرخ هيردوت أن قدماء المصريين كانوا يستخرجون نخاع الموتى من أنوفهم بمشبك نحاسى، ولاحظ العالم زرماك بالبحث فى المومياوات المحفوظة بمتحف براغ أن غضروف الأنف منتزع منها وهو ما يؤيد قول هيرودت.

المكسورة والمدرجات الخشبية والمعدنية والصور الرمزية التى تناط بالمومياوات أو تُدرج فى اللفائف المقدسة . وكان الناس يشترون غير ذلك قطعاً من الفخار مخروطية الشكل يصفّونها حول الموتى لتكون حداً وأرفة بين كل مدفن أو قبر ومجاوره من المدافن والقبور الأخرى، كيلا يقوم نزاع بين الأسر فى ملكية الأراضى التى أقيمت عليها هذه المدافن والقبور. وكانوا يشترون منه التماثيل الصغيرة الضرورية فى تطهير ثرى المقابر وإبعاد أرواح الشياطين عنها، وكانت هذه التماثيل فى صور أناسى تحمل أكتافها فؤوساً ومحاريث وأكياساً للبذور رمزاً إلى مساعدتها الموتى على القيام بأعباء الأعمال فى الأخرى!

* * *

وكانت أرملة النبى رونى وقيم بيتها وأحد كبار الكهنة منصرفين إلى اختيار أجود التوابيت وأفخمها لجثة فقيدهم، يساومون صاحبه على الثمن. وقد اشتروا مقداراً كبيراً من التمائم والأحجبة المصنوعة من الأحجار النادرة كاليشب واللازورد. ونقشوا اسم الفقيد على قطع من شمع العسل وإلى جانبه أسماء زوجته وأولاده وذوى قرابته، وذكروا رتبه والوظائف التى تولاها ونقشوا مالم يكن بد من نقشه فى خشب التابوت وأوراق البردى.

أما النقوش التى كان يراد رسمها وحفرها فى جدران القبر وقاعدة التمثال فقد أُجل النظر فيها إلى يوم آخر لكثرتها وصعوبتها، ثم نيط بأحد كهنة بيت سيتى حصر ما تركه الفقيد من الثروة وفرز ما يخص الهياكل منها قبل توزيعها على مستحقيها. وكانت العادة أن تبلغ هذه الحصة مع النفقات – ما أُنفق من المال على إنشاء القبر ونقشه– الشطر الأوفى من التركة (١).

---

(١) ذكر المؤرخ ديودورس أن عملية التحنيط من الدرجة الأولى كانت تكلف ما يوازى من عملة العصر الحاضر ٢١٣ جنيها ومن الدرجة الثانية ٦٥ جنيها.

وكانت أرملة رونى بثياب الحداد معفرة الجبين بـالتراب، وكانت في وجودها مع أتباعهـا بذاك المكان تساوم الكهـان تارة على الأثمان وتقول لهم مستنكـرة هازئة: إنها أثمان غالية، وتبكى تارة أخرى ثم تصرخ صرخة عـالية تردد صداها الأودية. وكان الأهلـون من الطبقة الوسطـى لايساومون فى الأثمان، بل يـدفعونها فى الحال كتقدير الكهـان. وكانت نفقات دفن رب الأسرة منهم تستغرق إيرادها أحيـاناً مدة عام، أما الفقراء فكان لايكلف تكفين موتاهم إلا النذر اليسير من المال.

وكان العـامة يرون فى المكفنين أنهم لم يكـونوا أحطّ قـدراً من المحنطين بل أعلا منهم درجات، ولهذا كـانوا يسيرون مـرحا فى الطرقـات لايخافون اضطهـاد أحد بعكس المحنطين فقد كانوا إذا اجترأوا على السير فيها جعلـوا أنفسهم هدفا للإساءة غالباً وللهلاك أحيانا.

وكـان المكـان المعـد لبينم وزمـلائه يـؤدى إلى الغـرف الخاصـة بتمليح الجثث وتحنيطها ومخازن الأدوية والعقاقير. وكان إلى جانب هذه المخازن فناء فسيح تظله سقيفة من سعف النخل حجباً للأشعة الشمسيـة من النفاذ إليه، ويتوسطه حوض ممتلىء بمحلول النطرون فكانت توضع فيـه الجثث زمناً ثم تُستخرج منه لتجفيفها فى مكان تحت الأرض بتيار من الهواء الحار يسلّط عليها بوسائل الصناعة.

وكان بجوار المكان الذى تباع به حاجات الموتى أسطر من بيوت خشبية صغيرة هى بيوت النسـاجين والنجارين والنقـاشين. ويليها على مسـافة منهـا بناء ضخم فسيح جيـد التنجيـد بحجـر النحت، يعلوه سقـف محكم هو المكـان المعـد لتـزيين المومياوات بالتمائم والأحجبـة لمساعدة الموتى على النقلة الربانيـة فى العالم الثانى. وكان لايجوز لأحد أن يستطلع ما يحدث به، إذ لم يكن مأذوناً لغير الكهان أن يدخله

(١) ذكر المؤرخ ديـودورس أن عملية التحفيظ من الدرجـة الأولى كانت تكلف من مـا يوازي من عملة العصر الحاضر ٢١٣ جنيها، ومن الدرجة الثانية ٦٠ جنيها.

فاستقر في أذهان العامة من جراء ذلك وشاع بينهم أن هذا المكان معبد للآلهة يهبطونه كي يمهدوا للموتى طريق الوصول إلى الآخرة ويرشدوهم إلى أصول الحياة المستأنفة فيها. وكان الناس في كل ساعة من الليل والنهار يسمعون من نوافذه وكواته المطلة على الطريق العام أصوات الكهان يترنمون بالأناشيد الدينية والصلوات الجنائزية، وقد تنكروا بما يسترون به وجوههم من وجوه صناعية تمثل آلهة السماء السفلى[1] ولاسيما أنوبيس ذى الرأس الشبيه برأس ابن آوى. وكان يـ اونهم على أداء الصلوات وبث الدعوات غلمان تنكروا بوجه حورس. وكان عند رأس كل مومياء نائحة تنكرت بصورة نفتيس وأخرى لدى قدميها بصورة ايزيس. وكانو؛ يقربون إلى كل إله عضواً مبيناً من أعضاء الفقيد. وكان في التمائم من الأمثال والعظات ما يراد به الحض على التقوى والورع. وكان كل عضو في كفن خاص به، كما كان لكل عقدة عقدت لتثبيت اللفائف مزية لابد من توافرها حرصاً على راحة الميت والتماساً لسلامته في أخراه. وكان هذا المنظر العجيب - بما يضاف إليه من جلوس النائحات والنادبات في الأوضاع السابق بيانها وتضوع الروائح العطرية واشتداد الحرارة بالمكان - يؤثر في النظارة تأثيراً يصرفهم عن الحياة الدنيا بزينتها إلى الحياة الأخرى بمثوبتها وعقوبتها.

وكان هذا القسم من مدينة الأموات تسطع فيه دوما رائحة زيت الورد والمسك والنتر، فإذا هبت ريح الجنوب الغربي حملتها إلى مدينة طيبة على الضفة اليمنى من النيل، فإذا شموا الناس تحرجت صدورهم وتشاءموا، اعتقاداً منهم أن رياح الصحراء تجف على أثرها كل خضراء وغضراء، وتضعضعت بسببها قوى الإنسان، فضلا عن أنها تدرج قوافل برمتها فيما تسفيه من الرمال.

***

(١) تدل على ذلك نقوش وكتابات عديدة ولاسيما ورقة البردى الثالثة المحفوظة بمتحف الجيزة، وكان للمصريين حذق خاص في صناعة الوجوه من الورق المطبوخ. وترى هذه الوجوه على كثير من المومياوات ممثلة وجه الميت كما كان في حياته.

وكان بعض أهالى طيبة ممن جاءوا إلى سوق الأكفان والتوابيت يترقبون أهالى الموتى لتعزيتهم وتسرية الهموم عن أفئدتهم. وإنهم لكذلك إذا بمفتش قرابين هيكل آمون، وقد احتواه الخوف واستمكن من قلبه إلى حدّ لم يحفل معه بما كان يقوم له الناس به من مظاهر الاحترام ولم يسلم على أرملة النبى رونى التى كان يعرفها بالذات، بل كان كل همه أن يتوسط جموع الناس لينبئهم بحادث خطير وقع فى طيبة بالمكان المقدس أى هيكل آمون ملك الآلهة. فما كاد يستقر هذا النبأ فى آذانهم وتعيه صدورهم حتى اشرأبت إليه أعناقهم وحوّمت عليه أنظارهم تطلعا لمعرفة الواقع بحذافيره، فنبأهم أن جناب الوالى قد ابتهج بظفر الجنود المصرية فى بلاد الحبشة فوزع على حامية طيبة وحراس الهيكل مقداراً وافيا من الخمر فأدمن هؤلاء الشراب وأهملوا حراسة الباب فانسابت منه الذئاب[1] إلى حظيرة الأكباش المقدسة[2] فافترست بعضها وتركت البعض الآخر. إلا أن الجند تنبهوا فى آخر الأمر للحادث، فلما ذهبوا بجملتهم لدفع السوء عنها رأوا أن الذئاب فتكت بالحمل الذى أهداه رعمسيس لآمون قبل تحرك ركابه لقتال الأعداء. وكان أرسله إلى بلدة منديس[3] فوا أسفاه على هذا الحيوان المبارك الشريف الذى اختص آمون نفسه به فاستودعه روحه الحياة الدنيا.[4] ولقد انتشر خبر الفاجعة بأرجاء طيبة بأسرع من البرق الخاطف ووقف عليه الخاص والعام. وبينما كان الناس طرّا فى الحيرة متخبطين إذا برسول من مدينة منفيس يوافينا بنبأ ضاعف الأحزان، ألا وهو موت العجل أبيس.

---

(١) كانت الذئاب بمصر كثير عددها ، وقد أقام المصريون لها هيكلا فى ليكوبوليس «أسيوط الآن». وكانوا يدفنونها بمظاهر الاحترام والتبجيل إذا ماتت. وفى هيرودت حكايات غريبة فى ذلك.
(٢) كان المصريون يقربون الأكباش والثيران للإله آمون
(٣) وجدت آثار هذه المدينة فى الدلتا بجوار بلدة المنصورة، وفسر العالم الأثرى بروكش أغلب ما شهده فيها من النقوش وهى تتضمن معتقدات القوم وقتئذ فى الكبش.
(٤) كان الكبش يسمى باللغة المصرية القديمة(با) وهو نفس الاسم الذى يطلق على الروح، وكان المصريون يعتقدون أن با أو الكبش هو الغلاف الحافظ لروح الإله رع فى الأرض.

مـا كاد المفتش ينتهى من إعـلان هـذه الفواجع على مـلأ السـامعين حتى صاحـوا صيحات الجزع واليأس واندفعوا ينعـرون ويشقهون حتى التقت أضلاعهم فهرع النـاس من كل فج وتواردوا من كل صـوب إلى مكـان الزحـام، إذ ترك المحنطـون والنساجون والنجـارون والنقاشون والسقاءون أعمالهم لاستجـلاء حقيقة الخبر وتبين أسباب الضير والضرر، فما كادوا يقفون عليهـا حتى اندفعوا مع الآخرين فى العويل والأنين وأخذوا يخمشـون الوجوه وينزعـون الشعور ويحثون التراب على الرؤوس، وظلوا كذلك مدة سـاد بعقبها السكون فانصرف العمال لمزاولة الأعمال، إلا أنهم مـا فتئوا أن سمعـوا صـدى أصـوات بعيدة اتضح أنها منبعثـة من طيبـة فأيقنوا حلول المصائب ونزول الكوارث والنوائب.

وكان مفتـش القرابين أشار فيما قـال إلى أنه ينتظـر أخباراً غير سـارة عن الملك والجيش. ذلك لأنـه لم يكن بد أن يشمل الحزن رعمسيس لموت الكبش الـذى سُمى باسمه وأن يشجيه هذا الحادث أكثـر من نعى العجل أبيس، وحسبه أن يكون موت الكبش دليلا على شـؤم طالعـه ونكد حظـه. قالت أرملة رونـى: إن زوجى المرحوم أوزريس رونى قد تـوقع هذه الحوادث من قبل. ولـو أن فى وسعى الكلام لانبأتكم بنبأ يهد أركـانكم ويثير أحـزانكم. فتبسم مفتش القرابين لعلمـه بـولاء نبى هيكل حاتاسو للأسرة الملكية السـابقة وقال: لربما تغشى سحب المحن والكوارث شمس الملك رعمسيس فتحجب ضياءهـا الساطع، ولكن أحداً من أعدائه لن يكـون على قيد الحياة عند أفول هذه الشمس المتألقة الضياء.

ثم ودع الأرملة بفتـور وذهب قاصداً إلى بيت الحائك لقضاء حـاجته، واستوت هى فى محفتها التى كان يحملهـا الخدم بالباب ومضت لوجههـا. وكان بينم فى هذه

الأثناء يشاطر زملاءه الحزن والبكاء جـزعاً على موت الحيوانين المقدسين، وظل في نحيب وعويل حتى أثرت الدموع على خديـه وبح صوته. وكان الوقت ظهراً فأحس الجوع يحفـز أحشاءه فجلس القرفصـاء في غـرفة التشريـح الحالكة الظـلام، لأن الشمس لا تنفـذ أشعتها اللجينية إليهـا إلا من ثقب ضيق بـالسقف، فتبدو للـناظر كتيار ضوء تتلاطم فيه ربـوات الجراثيم وذرات الهباء، وترسم على البلاط الرطب دائرة متساوية الأقطار يخالها الرائي صحفة من اللجين. وكانت توابيت المومياوات مرصوصة بعضها إلى جانب بعض بطول الجدار، وجثث الموتى مطروحة على موائد كبيرة مغطاة بقماش خشن. وكـان الناظر يـرى من آن إلى آخر فأراً يخرج من ثقب بأسفل الجدار فيمر في الغرفة مرور الطيف، وعقارب تدب ببطء على مربعات البلاط لا تعلم أين وجهتها وفيمن تنفث سمها الزعاف.

لم يهلع قلب بينم لمنظر هذه الغرفة ولم يخف خوف الداخل فيها لأول مرة، لأن اعتياده التردد عليهـا بضـع سنوات قـد محا من فؤاده سـورة الخوف. ولهذا تأهب مطمئناً لتناول الطعام فغطى ركبتيـه بخرقة بالية وضـع عليها مـا هيأته زوجته له من الغذاء، وهـو كسرة خبز وشيء من الملح ونبتـة فحل ثم أبرز من كيسـه قطعة لحم ملفوفة بـورقة كرنب وهي جزء مـن فخذ غزال جاءت به نيخت السـاحرة من طيبة هدية لوردة، فاحتفظت النسـاء للشيخ منها بتلك القطعة ووضعنها في مخلاته على غير علم منه. فلما وجدها أبى أن يرفعهـا إلى فمه اعتقاداً منه أنها من حق وردة حفيدته وأنه لابد من حفظها لها. ولقـد جعلها أمامه واقتصر على أكل الخبز والفجل غير أنه كـان من حين إلى آخر يـرسل إليها نظـرة إعجاب كما لـو كانت مـن نفائس الاعلاق أو نوادر التحف التي تثير في الخاطر ذكـرى أمر خطير. واتفق أن دنت منها ذبـابة ففـاجأها بضربـة أودت بحياتها، وانتهى الأمـر به- بعـد تردد طـويل- إلى

تذوقها. وكانت عيناه تجودان بالدموع كلما تذكر صنيعة وردة إذا جلس إلى الطعام من تنسيقها الأزهار والرياحين ووضعها إياها أمامه لتشرح صدره بمرآها.

وإذ ذاك حانت منه التفاتة إلى المائدة المعدة لجثث الموتى فارتعدت فرائصه وسقط فى يده، إذ خُيل له أنه يرى بدلا من جثة رونى الملقى عليها جسم وردة فناجى نفسه بقوله: إن الطبيب الذى تولى علاجها وأنقذها من مخالب الموت لم يكلف نفسه هذا العناء طمعاً بالجزاء، وأنه لو كان طلب منه قلبه لا قلب غيره تلقاء عنايته بها لما تردد هنيهة فى انتزاعه من بين جنبيه ليعطيه إياه. حدّثه وسواسه بذلك ولزم السكون فترة من الزمن استخرج من طيات ثوبه بعدها تعهُّد الطبيب نبسشت وبسط به يده مستشهداً السماء على برءاته وطهارة ذمته. ثم طفق يصلى ويبتهل إلى الآلهة أن يغفروا له ما فرط من الذنوب ويتقبلوا رونى أمام مجلس العدل الإلهى فى الأخرة، وإن يكن قلبه انتزع من بين جنبيه.

وهنا سُمعت فجأة جلبة تصمّ الآذان وطرقت مسامع بينم أصوات تلهج باسمه. ففيما هو يتحفز لاستطلاع الخبر إذا بأحد الشرطة قد بدا له وأمره باقتفاء أثره. وكان بفناء غرفة المحنطين الممتلئة الجو بعبير الروائح الزكية ثلة رجال يتدافعون بالمناكب حول شىء وُضع فى إناء من حجر النهاء، فما وقع نظر بينم عليه حتى ارتعدت فرائصه إذ أيقن أنه قلب الكبش الذى بدّله بقلب الكاهن رونى. وقد سأله رئيس الشرطة أهو الذى شرّح جثة هذا النبى واستخرج منها القلب، فأجاب متلعثما بالإيجاب. سأله: هل القلب الذى بالإناء قلبه، فأجاب كالأول. وعلى أثر هذا الاستجواب القصير تفاوض رجال الشرطة مليا بينهم، ثم خرج أحدهم لاستدعاء رئيس المشرحين ومفتش القرابين فى هيكل آمون. وما أقبل به حتى سأل: وأين هو

القلب؟ فلابـد لى من معرفتـه ولو فى الظـلام الحالك.. إنى أفحص فى اليوم الـواحد المئات من قلوب الحيوانات فائتونى به سريعاً!.. أقسم بآلهة السماء أنه قلب حيوان لا قلب إنسان. فأومأ أحد الشرطة الحاضرين إلى بينم وقال معترضاً: إن هذا الرجل شق الجثة أمـامنا بالأمس واستخرج القلـب منها. قال كاهن آمـون: إن هذا لعجب عجاب! وهل فى لفـرق بين قلبى الإنسان والحيـوان شبهة أو ارتيـاب؟ أذبحتم هنا كبشاً؟. قـال رئيس المشرحين: كلا ، فإنا منـذ عشرة أيام ممسكـون عن أكل اللحوم احتفالا بأعياد الوادى، فمن أين لنـا أن ننحر بهذا المكان كبشاً أو أى حيوان؟. ثم إن مذابـح الحيوانات بعيـدة عن هنـا لوقوعهـا بعد حى النسـاجين، فلا سبيـل قطعا لوصول قلب الحيـوان إلينا. قال الكاهن: فى الأمر مـا يستوجب العجب.. ولكن لابد من الاحتفاظ بالقلب حتى يُعَرض على الكاهن الأول بهيكل آمون ليحقق أمره، فربما كـان إحدى المعجـزات فى عصرنـا هذا الـذى امتـاز بخـوارق العادات. قـال رئيس المشرحين: الأولى عندى عرض هذا القلب على الكاهن الأكبر فى بيت سيتى. قال كاهن آمون: ها نحن أ ـلاء طوع أمرك ورهن إشارتك فلنذهب!..

قصـد مفتش القـرابين ورئيـس المشرحين إلى الـوادى محمـولين على الأعنـاق، كلاهما فى محفته الخاصة به ومن حوله أعوانه وغاشيته. وتلاهما على مقربة منهما أحد الشرطـة فى هودج يحملـه حماران ومعه صنـدوق عاج وضع فيـه قلب الكبش المستخرج من جثة رونى. وكان بينم يتبعهم بنظره وهم يتوارون عنه خلف أشجار الأثل، ولا يصدق فى ذلك عينيه. وكان هذا الرجل من المطبوعين على التقوى والورع، فلما أيقن ما فى فعله من الشناعة وبّخه الضمير وأظلمـت الدنيا فى عينيه وأحاطت به الشكوك واحتوى فؤاده الهلـع الشديد من سوء العاقبة، إذ كان أقـل ما فيها شيوع الأباطيل والبدع بين الناس. وقد انتـابته الهواجس بما أدى به إلى الاعتقاد بخطيئته

وأنه أهل للعقوبة عليها. وبرز له شبح الحقيقة- التى كان من أحرص الناس على مبادئها السامية البريئة- فى هيئة المعرضة عنه احتقارا، الناحية عليه بأشد اللوم، فلم يأخذه بعدئذ شك فى أن قاضى الموت سيحرمه الاندماج فى هيئة مجلس الحقيقة والصدق، والانتظام فى سلك العدول والمنصفين، وأنه أصبح على الجملة من المغضوب عليهم الضالين عن صراط الحق ومحجة السداد، وأن هذه العاقبة السوأى ستكون خاتمه حياة قضاها فى الطاعة للآلهة والتوكل عليهم فى أموره والمثابرة على إقامة الصلوات اعترافا بفضلهم. فظل يسكب العبرات حتى شعر بطنين فى أذنيه وسحابة تغشى عينيه وأحسّ الأرض تميد من تحته كما لو زُلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها أو نسفت حتى أخطأتها قدماه. ولما استأنف العمل كان لايزال مضطرب الفؤاد لأنه عالج انتزاع مشط القدم فى إحدى الجثث(١) فارتجفت يداه وارتعدت فرائصه وكاد يقع منها مبضع التشريح.

(١) بحث العالم كزمرك فى جثتين محنطتين من جثث قدماء المصريين ومحفوظتين بمدينة براغ، فوجد مشط قدم إحداهما موضوعا بتجويف الصدر. وجاء بالفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الأموات شرح معنى هذه العادة وهو أن الغرض من نزع مشطى القدمين أن لا يدنس الإنسان بهما قاعة المحاكمة إذا استقدم بعد الوفاة للمثول بين يدى الإله أوزريس

الفصل الثالث والعشرون

كيف استغلّ الكهّان قلب الضان

أصبحت مدينة طيبة وأهلها في ذهاب وإياب وحركة واضطراب لما فاجأهم من أخبار السوء. وسرت عدوى هذا الانزعاج إلى بيت سيتي الذي توالت عليه الحوادث وهاجمته الكوارث كما تهاجم الذئاب قطيع غنم لا رعاة له ولا أرباب. ذلك لأن أميني– رئيس كهنة هذا البيت– كان منذ ثلاثة أيام في طيبة، وكان تلاميذه ومرؤوسوه ينتظرون أوبته بذاهب الصبر. وكان رئيس المنجمين تواقا إلى فضح ما وقع بين بنطاؤر وبنت أنات ومعاقبة المتمردين من الطلبة الذين نزعوا إلى الفتنة فبادر بحبس هؤلاء في صحن الهيكل لضيق مكان السجن عن احتوائهم جميعاً بعد إذ قضوا ليلتين بمستودع الغلال نائمين على حصر رقيقة. وقد هالهم وأقلق بالهم ما اتخذ قبلهم من التدابير الشديدة ووسائل القمع القاسية وحسبوا لمغبة عنادهم وتمردهم على أساتذتهم ألف حساب. وظهرت على كل منهم علامات الأسى والأسف بما يتفق مع مزاجه ويلائم فطرته، إلا راميري– شقيق بنت أنات وزعيم تلك الاضطرابات– فإنه مع مشاركته زملاءه في ندمهم ومقاسمته إياهم العقوبة التي وقعت عليهم ظل ثابت الجنان رابط الجأش لم ترعه العقوبة على قسوتها كما راعتهم، بل نشط لتحريضهم على العصيان والتمرد، بينما كان الطالب أنانا الفائز بحظوة الالتفات من بنطاؤر معتمداً رأسه في إحدى زوايا المكان، مفكراً يشحذ رأيه بالتأمل في المصائر وتقدير العواقب ويلتمس لنفسه مخرجاً من هذا المأزق. ولقد شهده راميري وهو مختلٍ بنفسه فقصد إليه في خلوته وبغته بضربة خفيفة على

الكتف وقال له: لقد ركبنا متن الشطط ووقعنا فى هوة الغلط، وكان هذا أمراً مقدوراً ما هجس لنا فى ضمير ولاتحرك به خاطر، وما كان مقدوراً فهو لا محالة واقع. فلمَ تجعل للخوف مسرباً إلى فؤادك؟ .. إنى أراك وقد احترقت مآقيك من شدة البكاء فما داعية ذلك؟... كن يا صاحِ ماضى العزيمــة جلداً فى المحن، واعلم أنك الآن قد ناهزت الســابعة عشرة من حيــاتك النشيطة وأنــك بعد بضعــة أشهر وأيــام ستصبح من الكاتبين الكرام.

صعد أنــانا بصره فى راميرى، وبعد أن كفكف الـدمع قال: ألم أكن أنا الـذى دبّر هذه المؤامرة والذى ستقع تبعتها على عاتقه فيبادر أمينى بطردى من الهيكل قبل أن أتم الـدراسة وأنقلب إلى والـدتى المسكينة الحزينــة التى تبتغى أن أكون لها سنــداً وعماداً فيما بقى من حياتها، ضــائع المستقبل مسربلا بسربال الـذل والخجل؟ قال راميرى مترفقاً ومواسياً: حقا أيها الرفيق الصــديق لقد حبط تدبيرنا وساء مصيرنا وذهبت جهودنا هباء أو كطعنة فى ماء، ومع هذا فلم نفد بنطاؤر وتلك عاقبة الغرور. قال أنانا: ليت الأمر وقف عند انعدام الفائدة بل إنه تعداه إلى الضرر ومعظم النار من مستصغر الشرر، وإن من دقيق الأمور مــا يهيج به العظيم. فأمسك راميرى هنيهة ثم قال: ألا تدرى يا أنانا أنه لا ضلع لك فى المؤامرة وأن المدبر لها والمسؤول عنها هو أنا؟ فليطمئن إذن خاطرك وليهدأ بالك، فإنه لا ينبغى أن يؤخذ أمرؤ بجريرة غيره.. ولا مفر لى مــن مبادهة الكــاهن الأعظم بهذه الحقيقــة. وهو كما أعتقد سيجــر ذيل الإغضــاء على هفوات ابن رعمسيس أكثــر منه عليهــا لو كــان الذى سقط فيهــا من العامــة أو أفناء النــاس. قال أنانــا: ولكن أنسيت أنه سيحصرنــا فى نطاق ضيق من تحقيقــاته ويــزج بنــا فى مأزق لا تجد معه منـدوحــة من الاعتراف بالحق والجهــر

بالصــدق؟ فاحمر وجه راميرى وصــاح بصوت جهير: أسمعت منى منـذ عاشرتك وصرت من رفقتك سباً أو هجـواً فى حق ابنة رع ذات الشعاع الساطع؟.. أنـاشدكم الحق أنتم معشر الرفقـاء، أنت يا (أنتيف) وأنت يـا (نابى) وأنت يـا (سانت) وأنتم كافـة أيها الزملاء والاصدقـاء، أناشدكم- بل أضرع إليكم- أن تقولـوا من ذا الذى استفزكـم للثورة والهياج، أنـا أم أحد ســواى؟ ومن ذا الذى نصحكم بـالبحث عن بنطاؤر؟..ألم يكن أنا الذى تهدد رئيس الكهان بالخروج من هيكل سيتى؟!.. ألم يكن أنا الــذى حرّضكم على رفع لواء العصيـان وامتشاق حسام التمرد على الأســاتذة؟ لست أخالكم تنكرون هذه الحقائق الساطعة إذا حانت ساعة الاعتراف بها.. لقد ثبت لك الآن يا أنانا أنى صاحب الشأن فى هـذه المؤامرة، فإذا استاقونا للحكم علينا فيما وقع منا فدعونى فى المقدمـة ولا يأتِ اسم أنانا على ألسنتكم. فإن صدر الحكم علينا بالجزاء ضربا بالمقارع أو إمساكا عن الطعـام فلايتوان أحدكم عن إلقاء التبعة كلها علىّ.

قال ابن النبى الأول لهيكل آمون وقد اخذ من راميرى بإحـدى يديه وتناول أنانا اليـد الأخـرى شكـراً وامتنـانـاً: مـا أشرف نفسك وأعلى همتك وأصــدق ولاءك!.. فاستخا ص الامير يـديه منهما باسم الثغر وقـال لأصحابه: الآن وقد 'تفقنـا على ما سيكون فعليكم بـالاتحاد قلباً وقالبا وحـذار أن تحيدوا عن نصيحتى، وأقسم لكم بأنى ما دمت أدعى راميرى فلا مفر لى من مطـالبة والدي بإخراجى من هذا الهيكل لأدخل هيكل (خينو) احتجـاجاً على حرماننـا التلمذة لنبطاؤر. قال أصغـر التلاميذ المتمردين: لكن أنسيتـم يا صحبى الكرام مـا عزرنـا به من وصفه إيـانا بـالأطفال المتشردين وإلصــاقه بنـا تهمة الخفـة والرعـونة؟.. أجـاب راميرى: ما قـال فى هذه

الأوصــاف إلا حقا، فإننـا من نزق الشبـاب وغرة الحداثـة لعلى شـىء كثير، وليس يسعنى إلا أن أمجده وأشيد بذكـره لوصفه إيانا بتلك الأوصـاف. ولعلك ترتاب فى أمـرى أيها الصـديق فتتهمنى بـالتحيز لـه.. لهذا أود أن تقف على مـاهيـة رأيى فى الموضوع. ثم التفت إلى أحد أقـرانه- وهو يتكلم- التفاتة توخى فيهـا تقليد الكاهن الأعظم أمينى حينما يهمّ بـالكلام وقـال: بمَ يمتاز صاحـب الهمة العاليـة والنفس الأبية على السوقـة والأخلاط، إن لم يكن بالترفع عن الدنايـا والسفاسف واجتناب المظاهر المبتذلة؟ الرجل الذى تلك سماتــه هو الذى يمر مرّ الكرام بما لايسمو به إلى أشرف الرتب وأعلاها، وينصرف عما يحيد به عن الصراط السوى.. ولقد تلقيت عن والدى هذا المبـدأ الذى أثبتت صحته التجربة.. فإذا استقر هـذا فى أخلادكم، فلننظر الآن فيما إذا كان يسع بنطـاؤر المعروف بعزة النفس ورقة الشعـور أن يعمل معنا أكثر ممـا عمله. قـال أنانا: لاتغـُرب يا صديقى الأمير عما يشعـر به وجـدانى فلقد سلكنا- والحق يقال- مسلك الأطفال ولم نتبع خطة الرجال.. أردنا أن ننفع بنطاؤر فألحقنا به السوء والشرور.. وما أتم حديثـه حتى سُمعت قرقعة مركبة وقفت أمام الباب فصاح راميرى: ها قد قـدم أمينى فتجلدوا واثبتوا ولا يذهب عنكم أنى المذنب وحدى. وإنى لـواثق أنه متى أيقن ذلك لا يجرؤ على معـاقبتى . وكل ما أتوقعـه أنه سيعبس فى وجهى ويُعـرض عنى، ولكن غضبـه علىّ سيكـون سحـابـة صيف ثم تنقشع.

هبط أمينى من مركبتـه فقيل له فى الـوقت إن رئيس المشرحين ومفتش القرابين يبغيان مفاوضته فى أمر خطير، فأجاب: لينتظرا بالحديقة وأين هو زعيم المنجمين؟.. وما أتم سؤاله حتى أقبل هذا الأخير مهرولا ليطلعـه على ما وقع أثناء غيابه. وكان أمينى قد أحيط علمه بذلك وهو فى طيبة لأنه قبل مزايلته للهيكل أمر بموافاته بتقرير

شامل لأحوال بيت سيتى. ولهذا قاطع رئيس المنجمين بقوله: لقد ألمت بجميع هذه الحوادث التى لايدعو وقوعها إلى الدهشة، ولا يعزب عن الخاطر مع ما شب تلاميذى عليه من الميل إلى بنطاؤر والتعلق به إلى حد استفزهم لركوب متن الشطط. واتصل بعلمى غير هذا أنه التقى بالأميرة فى هيكل حاتاسو حين همت بدخوله قضاء لفروض الصلاة، وساعدها على تنفيذ مرادها وهو عالم بأنها لم تتطهر من الدنس بعد.. نعم إن هذه الحوادث وأشباهها تستوجب اللوم والتعنيف ولابد أن يجُزى مرتكبوها شر الجزاء.. ولكن فى غير هذه الأوان.. وثق بأن بنطاؤر لن يفلت من يدى قبل أن يذوق عذاب العقوبة، إلا أنى أطلب حضوره هنا لحاجة ماسة بحفلة عيد الوادى، وأود الآن ألا يكاشفه أحد بدخيلة قلبه ولابما يبطنه من العداء والكراهية له، فبلّغ إلى جميع الكهان إرادتى وليعملوا على طاعتى وامتثال كلمتى.

حاول رئيس المنجمين عبثاً أن يقنع أمينى بالعدول عن نيته مصوراً له دهشة الناس واستنكارهم إذا عامل الشاعر بالتسامح، فلم يتمالك الكاهن الأعظم أن تناول خاتم المهمة من رئيس المنجمين وعهد به إلى أحد صغار الكهان وأمره بالانصراف فوراً إلى هيكل حاتاسو للعودة ببنطاؤر إلى بيت سيتى. فلما رأى رئيس المنجمين ما حلّ به من الخزى استجمع قواه الواهنة وقال: وأولئك الخائنون الأشقياء أيبقرن فى منجاة من العقوبة والتاديب؟ أجاب أمينى: لسوف أعاملهم معاملة بنطاؤر. ومما لا ينفسح له مجال فهمى اعتبار ما ارتكبه أولئك الأطفال من مغادرتهم المكتب وهجرهم الدرس جريمة لا تغتفر . فخلِ عنك هذا العناء ودع أولئك الأطفال فيما هو طبيعة سنهم من نزق الشباب، فإنه إذا لم يغض المربى الطرف عن زلات كثيرة من زلاتهم فقد أساء وما أصاب. والواجب عليه أن يحيط بالأمور كلها كبائرها

وصغائرها، ولكن لا حاجة بأحد إلى العلم بأنه أحاط بها ووقف عليها. وأحرى الأمور بالتجاهل والتغاضى ما يبديه الأطفال من نزق الشباب والانحراف عن جادة الصواب. أنسيت أن ما يرتكبه الأطفال دليل على مايجنحون إليه بطبيعتهم فى الاستقبال.. لقد عزمت على مؤاخذة طفل واحد بخطيئة زملائه جميعاً. ولولا أن هناك من الأسباب الخاصة ما يضطرنى إلى إبعاده من الهيكل فى غضون أعياد الوادى لأعفيته من العقوبة.

فسكت رئيس المنجمين مفحما، لاسيما وقد رأى عينيه تقدحان بشرر الغضب وشفتيه مضطربتين بما ينم على ما انتاب نفسه من شديد التأثر. ولقد أدرك الكاهن الأعظم حقيقة ما خالج فؤاده فقال له: إنك لا تستطيع فهم مقاصدى ولسوف أكاشفك بها مساء اليوم متى عُقدت جمعية العارفين بالأسرار الدينية. إنا نتأهب الآن لتنفيذ جملة من المشاريع الخطيرة، فإنه لم يذهب عليك ما أصبح زملاؤنا كهان هيكل آمون فيه من الضعف والخور، وهذه فرصة متاحة لنا معشر الكهنة أصحاب الجلابيب البيضاء لنقدم الدليل دونهم إلى الآلهة على إخلاصنا وصدق نياتنا. وستجمعنا الأعياد وإياهم وجها لوجه فلا محيد لنا عن الاتحاد والتعاضد.

وسيعتلى بنطاؤر فى الغد منبر الخطابة فيقرع الأسماع ببديع لفظه ويسحر الألباب ببلاغة وعظه. وإن من بين التلاميذ المتمردين مَن يمكن التعويل عليهم فى النشيد لرخامة أصواتهم ولاسيما التلميذ أنانا. فدع عنك الاشتغال بأمر هؤلاء المغرورين.. ثم قل لى وهل كان راميرى بين الثائرين؟ أجاب رئيس المنجمين: نعم، وكان من أشد زعمائهم حماساً وتطرفاً. فالتفت أمينى إلى الشيخ باسما وقال ساخراً: لقد تجلت الأسرة الملكية بجلباب الشرف والفخار.. فبينما تنتهك كريمة الملك

حرمة القوانين وتضع من قدرنا فى نظر العالمين، يثور أخوها راميرى علينا ويعصى ما ينبغى أن يُطاع من أوامرنا.. والواجب فى هذه الحالة طرده من المدرسة وأقسامها؟ لمَ أرى بوجهك دلائل الخوف والوجل؟ أترى أن أبناء الملوك والسلاطين لا تسرى عليهم القوانين ولو كانوا خاطئين؟.. كن رابط الجاش هادىء البال فقد حان أوان العمل وفات زمن التوانى والكسل.. ثم قل لى: أوافاكم نبأ الحمل المقدس الذى كان رعمسيس أهداه إلى الإله آمون بعد أن أسماه باسمه؟.. لبئس الفال النذير بخيبة الآمال.. قال رئيس المنجمين وقد بسط يديه إلى السماء قانطا: نعم، جاءنى هذا الخبر الذى ملأ أفئدتنا بالحزن والكدر، وقد نفق أيضاً العجل أبيس وفاضت منه النفس، فهل انتهى إليك هذا الخبر النحس؟ قال الكاهن مكتئباً: نعم، صعدت روحه الربانية إلى السماء للاستمتاع بالسعادة والهناء. وقد أصبحنا بموته تلقاء واجبات لا مفرّ من أدائها، وسيعترضنا فى ممارسة هذه الواجبات مالا حصر له من الصعوبات. ولكن ما الحيلة، ومثلنا مَن ينهض بالأعباء ويهون عليه العناء.. يجب علينا فى ذلك الاحتفال الوقوف عند حسن ظن الناس بنا فنعرض على أنظارهم ما نخلب به عقولهم، ولا ننسى أن الوالى قد أجرى علينا باهظ المرتبات ووافر الأرزاق و... فقاطعه رئيس المنجمين قائلا: يدرك القادرون من أصحابنا معنى الواجب عليهم، لا كما يدركه كهنة هيكل آمون، لأنهم بينما يأدبون المآدب ويعاقرون بنت الدنان نقوم نحن بشعائر الأعياد فى هذا الهيكل للملك الديان. فقال أمينى باسما: لكن ألم نفد الأمة مثلما أفادوها؟ وهل لم تكن الأمة أشد احتياجاً منهم إلينا؟ وإذا كانوا هم مرشديها فى الحياة الدنيا، أفلم نكن نحن المرشدين إلى الطريق الأخرى؟ والحياة نور والموت ظلام، والحاجة إلى الدليل فى الظلام أشد منها إليه فى النور . أفلا

نستطيع بعد ذلك مناهضتهم ومقاومتهم؟ قال رئيس المنجمين: نستطيع مقاومتهم والغلبة عليهم مادمت أنت رئيسنا، وصاحب الكلمة النافذة فينا. التفت أمينى هنا إلى الكاهن سبتاح والنبى جاجابو وكان مقبلا عليه، وقال بعد أن رشق ببصره رئيس المنجمين: ومادام أن بهذا البيت ضيوفا كراماً مثلكما. ثم قصد الثلاثة جهة الحديقة حيث كان ينتظر أمينى الكهنة ومعهم القلب العجيب الذى وُجد بجثة رونى.

فلما دنا من مكانهم حيا مفتش قرابين هيكل آمون بأحسن تحية ورمق رئيس الشرطة بعين الرعاية والعطف. وبعد أن اطلع على ما أودعاه تقريرهما من نتيجة بحثهما فى الحادثة التى حضرا من أجلها، أمر بفتح الصندوق الذى سطعت منه الروائح العطرية، فتناول القلب منه بأنامله النحيلة وأمعن النظر فيه فترة من الزمن، ثم قال فى تأنٍ وسكون: إذا لم يكن هذا القلب قلب إنسان كما تقول أنت يا رئيس الشرطة ، بل قلب كبش وُجد فى حنايا ضلوع أوزريس رونى كما يقول به أخونا مفتش قرابين هيكل آمون، فقد أصبحنا تجاه معميات لايقدر على حلها غير الربوبية صاحبة المعجزات. فاقتفوا إذن أثرى وطئوا مواقع قدمى حتى نصل إلى الساحة الكبرى وعليكم بدق الطبل النحاسى أربع مرات إيذاناً باجتماع الإخوان للمداولة فى الأمر، فعسى أن نهتدى بمشكاة آرائهم إلى الصواب.

فطفق الحاضرون يدقون الطبل تنفيذاً لأوامر الكاهن الأعظم فرددت أركان الهيكل صداه، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تدافع نحو مصدر الصوت مسرعين جميع من كانوا به من أنبياء وآباء وغاشية وطلاب، ذلك لأن الطبل لا يُدق أربع مرات إلا لأمر جلل وشأن خطير. وكان نبسشت الذى اعتاد العزلة فى أيام الحفلات والمظاهرات فى مقدمة المتقاطرين شتاتاً وزرافات، واهماً أن النار قد شبت

فى الهيكل واندلع لهيبها إلى الأركان وتداعت له الجدران. فلما تكاملت جموعهم أوقفهم أمينى فى الأماكن المعينة لهم. ثم أنشأ يروى على مسامعهم الأمر المريب والحادث الغريب، وقال إنه اعتزم ازاءهما استيحاء الآلهة ليقف من وحيهم على جلية الأمر. وكان الصندوق الصغير بين يديه، فوقف هنيهة فى مقدمة المجتمعين ثم سايرهم نحو صدر الهيكل، فلما بلغ إليه توارى خلف الستار المقدس. وكانت جماهير الناس تزدحم أثناء ذلك فى ساحات الهيكل وحواليه لاستقصاء الخبر واستطلاع نتيجة التجليات الإلهية والإلهامات الربانية التى استنزلها أمينى على نفسه. وقد انقضت ساعة ولا من يسمع صوتاً أو يدرك همساً، وكل ما في الأمر أن دخان البخور كان يتصاعد من المجامر فيتكاثف تحت الآزاج أو يتبدد فى أجواز الفضاء. ثم برز أمينى من وراء الستار مرتديا أمساحه الكهنوتية الثمينة التى كانت تزيده فخامة وجلالا وأبهة وكمالا، يتقدمه كاهن يحمل بين يديه إناء من الذهب المرصع بالجواهر ، وقد رفعه إلى ما فوق ليراه الحاضرون. وكان الكاهن الأعظم وهو يتهادى خلف هذا الكاهن متكئاً على المحجن لا ينفك عن النظر إلى الإناء والجثو بركبتيه من آن إلى آنٍ. وكان الحاضرون، من كهنة وطلاب وغاشية– حينما برز من مخبأه– يخرّون إلى الأذقان سجداً. أما هو فقد واصل السير فى أثناء ذلك إلى المذبح الذى كان الكاهن وضع عليه الإناء ثم وقف فوقه وقال بصوت جهير وعبارة تحرى فيها التفخم فى جلال وتؤدة ما يأتى:

«هلموا إلى السجود أيا معشر الحاضرين! وحىّ على الصلاة! حىّ على عبادة الإله! ما أخطأ مفتش قرابين هيكل آمون فى قوله وما غوى وما نطق قط عن الهوى. فقد ثبت بالدليل المقنع والبرهان وتايد بمشاهدة العيان، أن القلب الذي احتواه صدر

نبينا المحترم رونى لمن قلوب الحملان. تجلت لى هذه الحقيقة بالإلهامات الربانية وأيقنته أنا بما أطربنى من كلماتها اللدنية التى هى آية الآيات ومعجزة المعجزات.. خبرتنى هذه الإلهامات بأن هناك على الضفة الأخرى من النيل، وفى هيكل آمون مزقت الذئاب الخاطفة أحشاء الكبش المقدس وفتكت به الفتك الوبيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لم تشأ الآلهة أن يلحق بهذا القلب شىء من الأدناس، فأودعته صدر أحد كبار الكهان ولا مساس. تلك هى المعجزة الكبرى وآية الآلهة العظمى ! تبشر بوقوع حادث جلل مريب فى المستقبل القريب، وإن ذلك القلب الإلهى لما ضاق به جسم الكبش التمس الرحب من أجساد الأبرار، فنزل فى صدر رونى النبى مبارك المختار.. وسيبقى عندنا فى هذا الإناء ليتبرك به المريض والمكروب فيُذهب الأمراض ويجلو صدأ القلوب. فهلموا جميعاً إلى الصلاة والابتهال، وحىّ على عبادة ذى الجلال، وأبصروا كرة ما تقذفه مجامر البخور من الدخان لتروا فيه ما سطر بحروف النار مما هو ظاهر للعيان. ثم انهضوا وقوفا على الأقدام وضعوا بينكم القلب الربانى تحيط به الصور المقدسة وتقدموا إلى الأمام لنطوف به أرجاء هذا الهيكل مترنمين بأناشيد الحمد والثناء، لباسط الأرض ورافع السماء. أما أنتم أفواج الرسل والغاشية، فاحملوا عصيكم وانتشروا بالأنحاء الدانية والقاصية، لتذيعوا فى الأهلين، بشرى معجزة بيت سيتى القائم على أساس متين من عقائد الدين».

ما أتم الموكب طوافه بالهيكل وتفرق رجاله فوجاً إثر فوج حتى استأذن كاهن هيكل آمون فى الانصراف بعد إذ قام بالتحية الكهنوتية وقال لأمينى فى فتور يشف عما يبدءُنه من الحقد : ولسوف يقابل كهنة هيكل آمون ما تزعم أنه وحى أُوحى إليك

بما هو أهل له من التقدير. ومن الممكنات وقوع ما أعلنته من المعجزات ولكن سوف يقف جلالـة الملك على سر وقوعهـا وطريقة إبـلاغها لـلأهلين. قال أميني: إنما تمت المعجزة بإرادة الملك الواحـد القهار. ثم أحنى رأسه واندس فى أخـلاط الناس الذين كانـوا فى ساحة الهيكل يتحدثـون بما وقع من خوارق العادات وأُعد لـلاحتفال من المعدات. واستدعى إليـه بعد هذا فى ساحة المدرسة التلاميـذ المغضوب عليهم، فكان أول القادمين منهم سبتـاح، فلما مثل بين يديـه أخبره بوصول بنطـاؤر، ثم عاد إلى أقرانه الذين كانت تصل من بعيد أصوات ضـحكهم سروراً بهذا النبأ السعيد. وكان راميرى بن رعمسيس يمحضهم النصح وقتئـذ فيما لو عـوقبوا عليـه بالجثـو على الركب فوق حبات الحمص الجاف لعنوا قبل ذلك بإنضاجها حتى لايشعروا بشدة إيلامها. قال تلميـذ آخر كانت بيده هليونة يضرب بها كتفـه وهو مولٍّ إليهم ظهره: الأحسن أن تستبدلوا من الحمص بالهليون. وهو مجون أراد به الإشارة إلى الضرب بالسوط أو الدرّة. وبينما التلاميذ فى هذا الهرج إذ طرق أسماعهم وقع أقدام أمينى، فثابوا جميعاً إلى السكون والصمت. وليس هذا بغريب لأن أمينى كان منظره يُشعر بـالـوقـار والهيبـة. فكـان مجرد وجـوده بين الطـلاب– منصبـاً عليهم من حيث لايعلمون– داعياً إلى وقوفهم عند حدود الأدب والنظر إليه بعين الإجلال والاحترام.

غير أنهم لم يلبثوا أن عـرتهم الدهشـة حينما شهدوا أمينى يتقـدم إليهم باسم الثغر منشرح الصدر محبذاً عواطف ولائهم لبنطـاؤر وتعلقهم به. إلا أنه أخذ عليهم في عطف ورفق التسرع فى الولاء لهذا الرجل الفـاضل الحكيم ووصف حركتهم هذه بأنها جاءت قبل أوانها، ثم تحوّل نحو راميرى وقال: هب أيها الأمير أن رعمسيس والدك الكريم أمر بنقل أحد قواد جيش الشام إلى جيش (روش) فتمرد جنده تذمراً

من مفارقته، فماذا عسى أن يكون حكمك عليهم؟.. أيحق لك فى هذه الحالة تناول أمر الملك بالنقد والتجريح؟.. أظن لا.. ومع هـذا فإنى أعفو عنكم وأغضى على سيئاتكم، لأن جرائكم كانت محمودة الأسباب شريفة المقـاصد، وإكراما لمعجزة اليوم التى لم يُسمع بمثلها فى سالف الحقب.. لكن لايذهبن الغرور بكم إلى توهم أنكم أصبحتم فى منجاة من العقـاب، فإن تطبيق القانون على محرضى الطلاب وقـائديهم إلى التمرد والاضطراب ليس عنه منصرف. فمن أغرى منكم أصحابـه بانتهاك حرمة القوانين عليه أن يبرز من بينكم ويعترف بما قدمت يداه.

فبرز الأمير راميرى وأقبل نحوه خاضعاً خاشعاً وقال: أيها الأب المحترم! اعترف لك بأن ما أتينـاه من الأعمال كان من غـرور الأطفال ولم يكن من أخلاق الـرجال.. لهذا نعـرب لكم عن صادق الأسـف والندم ونعطيكم مـوثقـا علينا بسلـوك سبيل الرشاد والإقلاع منذ الآن عن هـذا العناد. ومما يضاعف فى نفسى الأسى والأسف أنى كنت الزعيم الذى أغرى رفاقـه بالنزوع إلى الفساد والعصيان، وما حملنى على هذا الغرور إلا شدة تعلقى بالشاعـر بنطاؤر الذى أحرز قصب السبق فى كل ميدان. فبدت على وجه أمينى علامات الغضب، إذ تربد وجهه واكفهر ونمّ على ما فى صدره من الحقد والشر. فقال بصوت جهير: ليس لطـالب أن يوازن بين الأساتذة ويفضّل بعضهم على بعض، ولو رمى بذلك إلى إعلان فضله والإشادة بذكره. ولقد تصديت أنت ورفـاقك إلى مــا لم يكن من شأنكم الاشتغـال بـــه ودخلتم فيما لايعنيكم من الأمور، فقد صرتم إزاء المسئولية سـواء. ثم سكت هينهة وقال: لو لم تكن ابن ملك مصر الذى يحكمها كما يحكم (رع) لأنزلت بك من العقـاب على جرأتك ووقاحتك ما أنت له أهل، ولكنى رغبة فى صون الطـلاب من عدوى الاقتداء بك أرى من الصواب

معاقبة المذنب منهم بما يردعه عن غيه. قال راميرى: إنى مقر بذنبى وراض بالعقاب واحتمال شديد العذاب مادام حكمك به مطابقا للعدل والنظام. فرمقه أمينى بعين الرفق، وكانت نفسه تحدثه بأن يتناول يده ويصافحه إعجاباً بصراحته ومروءته، غير أن العقاب الذى انتوى توقيعه عليه كان مما تفتق عنه احتياله لتحقيق أمانيه ونيل مطامعه. وما كان أمينى بالرجل الذى يضحى بفائدة آجلة أو يضع العقبات لنفسه فى الطريق الذى آلى عليها اتباعه لاقتناص فرصة سانحة، لمجرد إمتاع العين بشهود شيء جميل أو الاعجاب به. لذلك عاد فقال لراميرى بصوت يشف عن صدق العزيمة: إذن سأنزل بك عقوبتى وهى الطرد منذ اليوم من بيت سيتى والحرمان من تلقي العلوم فيه. فامتقع لون الامير فزعاً واستنكاراً لصرامة العقاب ونسج الخوف على وجهه طبقة من الاكتئاب ولحظ أمينى ذلك منه فقال بصوت لطيف: لايذهبن الفزع بك إلى اعتقاد أنى طردتك من بيتنا. وكل ما فى الأمر هو أنى مع توديعى إياك مازلت حريصاً على محبتك حرص المرء على حدقة عينه. والآن وقد أمرتك بمزايلة بيت سيتى والبعد عنه فلا مناص من مفارقتك إيانا بأمر الملك الذى نسأل له البقاء والصحة والقوة. ولست أقف منك– ومكانتك معروفة للجميع – موقف من يؤثر عقوبة على غيرها أو يتخير أسهلهما احتمالا وأخفهما وقعاً ليطبقها عليك، فإن الواجب يقضى بتنفيذ القانون على مخالفيه أيا كانوا.. والآن ناولنى يديك لأصافحك.. وإنى لمبشرك بأنك ستكون في يوم ما من الأبطال والشجعان المشار إليهم بالبنان. ام يقدم راميرى يده ولم يصافح الكاهن الأعظم لما وقع فيه من الدهش والاختبال، ولبث صامتاً واجماً حتى طلب آنى منه أن يصافحه بقوله: ما الذى أرى منك الآن مما يخالف قولك إنك راض بعاقبة خطئك؟ ألا تعلم أن من أقدس

الواجبات على ابن فرعـون البر بالوعد والإقامة على العهـد؟.. هلمّ يا بنى! خذ عدتك لمزايلة هـذا الهيكل المقدس قبل غـروب الشمس. قال الكـاهن الأعظم ذلك وولى عن الطـلاب بظهره فبـدت عليهم جميعاً عـلامـات الجزع والحزن. وقد اجتـاز صحن الهيكل فشيعـه راميري بنظـره حتى غاب عنـه، وكـان قـد علا وجهـه الاصفـرار واضطربت شفتـاه، ورأى أقرانه هذا الجزع فتركـوه وشأنه وأمسكوا عن حـديثه مكتفين بـالنظـر إليه فى سكـون وانكســار واستخـزاء. ولحظ منهم ذلك فعمل على امتلاك مشاعره والأخـذ بعنان عواطفه، ثم بسط يده لأنانا فلبقية أقـرانه مصافحاً بعضهم تلو بعـض وقال: هل أنا شقى عـابث حتى يقضى علىّ بالطـرد من الهيكل؟ سيحنق والدى علىّ بلا ريب إذا بلغ إليه هذا الخبر وذاع سره بين الناس وانتشر. قال أنانا: لعلك لم تنتبه إلى أنه بسط لك يده لمصافحتك فلويت عنه عنقك وهى بادرة غير حكيمة لا يصلحها ولايردها إلى مكانها من الصواب سوى المسارعة إليه لمصافحته والاعتذار له وطلب الصفح منه. قال راميرى وقد غلب عليه العناد: كلا ثم كلا!.

وقبيل غـروب الشمس غـادر راميرى بيت سيتى فبـارك فيـه أمينى وقـال لـه معتذراً عن شـدته فى معاملته: ستعلم حينما تـأخذ بزمام الحكم أن معـاملتى إياك بالشـدة لم تكن مما ينـافى العدل والحق فى شىء.. ثم أذن لـزملائه بمـرافقته حتى ضفة النيل ووداعه عنـدها. أما بنطاؤر فسايـره حتى باب الهيكل وزوده النصائح الحكيمة وشيعـه بألطف العبارات وأرقهـا. وما استوى راميرى فى زورقـه الذهبى حتى اغرورقت عيناه بالـدموع، فقال له مربيه وكان جالسـاً إلى جانبه: لعل مولاى الأمير يكف عن البكـاء. سأل راميرى، وما تعنـى بهذا الكلام؟ أجـاب: أظننى لمحت دموعـا تتلألأ فى مـآقيك. قال راميرى وقد حـاول أن يكظم ما بـه: إن ما لاح لك من

الدمـوع إنما هو دموع الفـرح بترك هذا الهيكل الذى حلّ فيـه الغضب مكان الحلم.

خلال الحديث بينهما كان الزورق قـد بلغ إلى الضفة الأخرى، فهبط الأمير منه البر، منشرح الصدر، ولم ينقل على الضفة بضـع خطوات حتى التقى بشقيقته بنت أنات.

الفصل الرابع والعشرون

خيالات زائلة.. وأوهام باطلة

لاعجب أن نزلت بطيبة الأحياء الكوارث بعد ما وقع بطيبة الأموات ما رويناه من الحوادث. فإن راتوتى استيقظت من نومها بعد أن أمضت الشطر الأكبر من ليلها، لا يلتقى لعينيها جفن بجفن لما انتابها من القلق والحزن. ولقد دخلت نيفرت عليها بعد هدأة من الليل فاعتذرت عن تخلفها بما قطعته من الوقت الطويل فى مناجاة الأميرة بنت أنات. ثم وضعت جبهتها على ثغر والدتها لتقبلها قبلة المساء. وقصدت هذه بعد ذلك إلى حجرتها حيث كان نيمو يشعل المصابيح لإضاءتها، فمر بخاطر راتوتى وقتئذ ما أفشاه هذا القزم من أسرار بعاكر وتسلط الوالى عليه واتخاذه إياه آلة يتصرف فيه على ما يهوى، فأمرته بأن يكشف لها الستار عما خفى من الأسرار فأبى، ولكنها ألحت كثيراً فقال لها: إن بعاكر حفظ عنده ما بقى من الماء السحرى الذى كانت نيفرت شربت نصفه الآخر على اعتقاد منها أنه ماء قراح. ولو أن نيمو كاشف راتوتى بهذا السر من قبل لطارت شظايا نفسها غضبا وسخطا، ولكنها استلت من قرارة نفسها ما كان كامنا فيها من الحقد، فلما وقفت على جلية الخبر قبّحت فعل الموهار، ثم سألت نيمو عن الشراب السحرى وقوة تأثيره فى نفس شاربه فأجاب: أما تأثيره يا سيدتى فهو أشد ما يكون فى الأفئدة، ولنحمد الإله على أن نيفرت لم تفرغ فى جوفها سوى النصف منه.

اكتأبت راتوتى ولبثت إلى ما بعد منتصف الليل لا تستقر على حال لما انتابها من الشجن، فكانت تغدو فى حجرتها وتروح مفكرة فى هيام بعاكر بابنتها وخيانة مينا موثق الوفاء لها، وفيما شهدته بعينيها من تغير أحوال نيفرت فى أقوالها وأفعالها.

ومـا اكتحلت عينـاها بـالتهـويم بعـد هـذا الأرق حتى فاجأتها الأحـلام المزعجـة والخيـالات المرعبـة والمرائى المكدرة، وكـان جـزعهـا منها يشتـد كلما تـوارد على خاطرهـا ما شهدته من جفاء نيفـرت وقسوتها عليها ومعاملتها إيـاها بما يدل على تأصل جذور الحقد فى نفسها.

وما لاح الصبح حتى قصدت إلى الهيكل ثم عـادت فلم تجد ابنتها فى المكان الذى اعتادت تنـاول الطعام فيـه معها. وكـانت راتوتى شـديدة الميل إلى العـزلة فى وقت الصبح، فلما رأت أن ابنتها لم تستيقظ بعد من النوم استحسنت أن لا تنبهها منه ثم جلست إلى المائدة وحـدها. ولكنهـا ما كـادت تأخـذ مجلسها حتى انتصبت واقفـة وأخذت تستر خبز الحنطة وأكواب النبيذ الفضية بقطعة من نسيج الكتان، وانطلقت بعد ذلك نحو مخدع نيفرت فما كان أشد جزعها لما لم تجدها فى سريرها ! ولقد ثابت إلى السكينة وهـدأ بالها بعـد ذلك فقصدت إلى الخدم تسألهم عن سـاعة خـروجها، فأجـابوهـا بأنها ذهبت إلى الهيكل قبل طلوع الفجـر، فتنفست الصعداء ثم عـادت وجلست تحت الظلة.

لم تمض ساعـة بعد هذا الحادث حتى أقبل بعاكـر يطأ مواقع قدميـه اثنان من أرقائه يحمـلان باقتين مـرصعتين بالأزهار الـزاهية الألـوان، وخلفهما كلب هائل الخلقة من كلاب والده. فتلقته راتوتى بمظـاهر العطف والإيناس، اذ خرصت عليه أن الماء السحرى الـذي وافاهـا نيمو بخبره قد جـاء بالأثر المرجـوّ منه، وهـو حبه لنيفرت حباً يتجـاوز الظن ويحقق ما فوق المأمول. حقـاً إنها تبينت أطواره ووقفت على ميوله منـذ كان طفلا وعرفت عيـوبه ونقائصه، ولكن استعـانته بذلك الماء على استمالة نيفـرت، مهدت عندهـا لحسن الظن فيه وأوقعت فى وهمها أن لـه مع رذائله

الموقتة، ما يلطفها من المناقب الكثيرة. دع أنها رأت فيه- بعدما تبين لها من هيامه الأكيد بابنتها- صديقاً مخلصاً لها ينصرها على أعدائها ويبذل مهجته في الذود عنها وكانت راتـوتى تنظر إلى بعاكـر محددة فيه البصر كما لو أرادت أن تقارن بفكـرها بينه ووالده، فـرأت أنها قد وقعت مما أرادته فيما لم يكن فى حسـابها، ولم توفق لما كانت تحب استنتاجـه من حسن الظن به وصدق الأمل فيه. وثبت عندهـا ما حملها على تفضيل والـده عليـه لاستئثاره دونـه بـالكثير من المنـاقب العاليـة والصفـات الفاضلة، فقـد كان جميل الطلعة معتدل القوام حسن الشـارة بعكس ابنه، فإنه مع قوة عضلاته ومتانة أساطينه كان قصير القامة يظنه الرائى إذا مشى كرة تتدحرج. ومما أنبه راتوتى ولفـت نظرها بصفة خاصة شكل يد بعـاكر، رأتها وهو يبحث فى نطاقه عن شيء يظهر أنه كان أخفاه فيه من قبل. وقارنت بينها ويد الموهار السابق فرأت أن الفارق بينهما عظيم. لأن يد بعاكر كـانت شثنة غليظة ينصرف النظر عنها لقبحها بخلاف يد والـده فقد كانت تشبه يد المرأة فى حسنها وانفتـال أصابعها، مع قوتها وصـلابتها إذا امتشق الحسـام وخطف به رؤوس الأعـداء وأوردهم موارد الحمام. ولقـد حيل لها وهـو يفتش فى نطـاقـه أنها رأت قنينـة صغيرة ربما كـانت تحتوى ما أعده لابنتها من الماء السحرى، فعلا الاحمرار وجهها وارتعدت فرائصها ولحظ ، حاكـر منها هذا الاضطـراب الذى احتـار فى تعليله، فسـألها فى ـفق: أبك الم، هذا الذى يزعجك؟ هل ورد إليك من رئيس اسطبلات مينا فى هرمونتيس نبأ لايسر؟ أجابت: كـلا.. لا هذا ولا ذاك، ثم إنـه لم يحضر بعد ولم يعـرفنى بخبره. قال: لقيت هذا الـرجل أمس فالتمس منى أن أدرجه فى سلك جنـودى المسافرة قريبـاً إلى بلاد الشام. وقد استخلصت من الحديث معه أنه ناقم عليك لإكراهك إياه على بيع أفراس مينا، وهى الأفـراس التى كنت حظياً باشـترائها لأنها من أفضل الخيل، وعنـدى أنه

يريد اللقاء بمولاه لتحذيره منك.. ماذا عراك يا خالتى ولمَ امتقع لونك.. ماذا دهاك؟

حاولت راتوتى أن تكظم ما كان مستكنا فى صدرها من الغيظ وتصنعت الابتسام ثم قالت مغضبة: أيظن ذلك الأبله أن بيت مينا لايستقر له ركن ولا تقوم له عماد إلا ببقاء الجياد؟.. ثم أترضى أن تجعله في صحبتك وضمن غاشيتك ليحذر مينا منى ويحمسه ضدى؟ لم يكن مينا والحمد لله أعشى أو أعمى حتى يستعين بالناس على فتح عينيه. نطقت راتوتى بهذه الجملة بصوت خافت. فلبث بعاكر فى دهشة هنيهة من الزمن ثم قال: إذا أبطأت نيفرت ولم تعد فليس لى من الانصراف بد. قالت راتوتى: لا لا.. أرجو منك انتظارها فإنها لا تلبث أن تعود ، لاسيما وهى لم تتناول طعام الفطور الذى بقى كما ترى- على مقربة منك- مؤلفا من نبيذ وخبز سميذ. على أننى سأدعك وحدك هنا حتى استعلم أعادت أم لا.

ما تحقق بعاكر من خلوته حتى اغتنم هذه الفرصة لقضاء وطره، فإنه عمد إلى المائدة التى عليها الخبز والنبيذ وأخرج من نطاقه القنينة التى تحتوى الماء السحرى، ثم بسط يده بها نحو السماء مستشهداً أباه أوزريس على ما هو فاعل وأفرغ مشمولها فى الكوب حتى كادت تفيض حافاته بالشراب. وما كاد ينتهى من هذا الكوب حتى دخلت نيفرت ووالدتها فطمح بصره إلى الأولى وهى تتبختر في تيه ودلال لم يعهد لهما مثيلا من قبل. ولقد راعه حسنها فلم يتمالك أن تناول باقة الأزهار وقدمها إليها وهو يتعثر في أذياله خجلا وتأثراً بعوامل الهيام في قلبه. ومما ضاعف الانفعال فى نفسه مشاهدته نيفرت الجميلة مادة يدها إليه لمصافحته. فلما صافحها أشادت بذكره وغالت فى مدحه وحمدت له تفانيه في محبتها وإخلاصه الميل إليها وإعطائه المواثيق بالمحافظة على عهده معها، فخُيل لصاحبنا وقتذاك أن

هـذا الانقلاب السريع هـو نتيجـة تأثير الماء السحرى الـذى يلين القلـوب القاسيـة وينقش على صفحاتها آيات الحب والهيام.

وبعد المصافحة والسلام دنت نيفرت من المائدة لتناول طعام الفطور وأومأت إلى بعاكر بالجلـوس إلى جانبها. وكان هو وراتوتى يـرقبان حركاتها ويعيران السمع بتعجب واستغـراب إلى كلماتها، وقـد انتظر أن تشرع فى عمـل ما فأول مـا أتتـه أن رفعت الكأس إلى فمها، ولكن لم تكد تلمس شفتيها حتى أعادتها إلى مكانها لما عراها من الخجل ، حينما لاحظ بعاكـر عليها أنها تفطر فى غير الموعد المألوف ، فقـالت له: لقد كنت تعـودت الكسل فأحببت أن أخلع عنى شعاره وأمحو عـاره، فقمت مبكرة من النوم لـزيارة الهيكل صبيحـة اليوم وأظنك لا تجهل المصـاب الجلل الذى دهم الأفئدة بمـوت الحمل! فيالعظم هـذا المصاب الـذى أقلق رجال الكهنـوت وسبحان الحى الذى لايمـوت. على أنه بـالرغم من هذه البـلايا العظـام قد استقبلنى المحترم (بك– ان – شونسو) وفسر لى ما قصصت عليه من الرؤيا فطابت نفسى لذلك وثلج به صـدرى. قالت راتوتى عاتبـة بلفظ تسبق إلى مخارجه الرقة والعـذوبة: وكيف أقبلت على زيارة الهيكل دونى؟ أجابت: أنتِ عنـدى أعز علىّ من نفسى، وأنتِ فرحى من الناس كلهم. ومـا تفردت بـزيارة الهيكل إلا ضناً بـراحتك وحتى لا أزعجك من نومك. ثم قالت بعد أن أمسكت هنيهة: ومع هذا فإنك لم تسمحى لى قط بمصاحبتك فى جولاتك الكثيرة بمدينة طيبة ولا فى زياراتك لهياكلها الفخمة الضخمة.

قالت نيفرت ذلك ثم رفعت بأنـاملها كأس النبيذ وأخذت تجيل فيه النظـر قائلة: أتدرى يا بعـاكر ما الرؤيا التى رأيتها فى نـومى؟ إنها وحق ولائك لجديرة بالعجب والدهشة. فألحّ بعـاكر أن تقصها عليه، فـوضعت الكأس فى مكانها دون أن تمسها

شفتاهـا وقالت: إن لهذه الرؤيـا مساساً بـالشجرة التى تـراها مغروسـة هناك فى الصندوق الكبير والتى أهـدانيها من بلاد آسيـا المرحوم والدك وأنا مـازلت طفلة.. أطل فيها التـأمل ترها قـد صارت ممتـدة الأفنان وارفـة الظلال، لأننى مـا برحت أتعهدهـا بما يكفل نماءها وصونها من الآفـات. وهى واقعة الآن من نفسى مـوقعا اعتبرها معه الشـجرة المباركـة التى استأثرت بحبى وجدد حسن منظرها فى نفسى ذكرى والدك، زوج خالتى. فلقيت هذه الكلمات عنـده استحساناً لم يعبر عنه بأكثر من إيماءة الرضى والموافقة، غير أنها لم تلبث أن أمسكـت عن الحديث إذ رأت خديه قد خـالطتهما حمرة الخجل وسمعته يقـول: لقد احتـدم الحر أفلا تطيب نفسك إلى ارتشاف كأس نبيذ مشوب ببعض الماء؟ فتقبلت منه الكأس التى قدمها وما أصابت منها جـرعة حتى أقصتها عن فيها وتقلصت شفتـاها تقلصاً دلّ على ما عـراها من الاشمئـزاز والنفور، وإن سطعت بهجتهـا وازداد حسنها بهذه الحركـة الفجائيـة. وكانت راتـوتى جالسـة من ورائها فألوت نيفـرت إليها عنقهـا وقدمت لها الكأس قائلـة: إن لى فى النبيذ شرطا من طعمـه، ولقد أحسست الآن بمرارة فيـه جفلت منها نفسى.. ولتوقنى ذلك فإليكِ الكأس تذوقى منهـا قطرة. فأخذت راتوتى الكأس من يد ابنتها ووضعت حافتها بين شفتيهـا متصنعة الشرب منها، دون أن تذوق شيئاً. وبدا فى وجهها من الأمـارات ما نمّ على ميلها إلى الضحك مما مرّ ببـالها وهو أنه إذا شربت من هذا انتبيذ الممزوج بالماء السحرى فلا يبعد أن تصبو إلى بعاكر وتهيم به، وهى تعلم أنه لايريد عن نيفرت بديـلا. وكانت عادتها إذا غلبها الضحك عجزت عن مقاومته وصـون النفس منه. غير أنها رأت لتعزيز مكانتها وحفظ كـرامتها في نظر ابن أختهـا أن تملك نفسهـا وأن تحول بقـوة إرادتها دون انبعـاث الضحك منهـا فأعادت الكأس على الفور إلى ابنتها قائلة: كان ينبغى أن يكون هذا النبيذ أحلى مذاقا

وأجود نوعا، على أن حموضته ترطب الجسم فيما يعانيه من الحر الشديد. قالت نيفرت: صدقت. ثم استوعبت الكأس بجرعة واحدة وعادت إلى قص رؤياها على بعاكر إذ قالت: رأيت أمامى هذه الشجرة، فيما يرى النائم ، كما أراها الآن وهأنذه أستنشق رياها العطر، فدنوت منها. وفيما أنا معجبة بمنظرها المونق، إذا بألف سكين تمسكها أيد خفية قد لاحت لى فى فضاء الجو وهى تهوى على أغصان الشجرة وأفنانها فتفتتها، ومازالت بها حتى سقطت على الأرض برمتها واجتثت من بعدها جذعها الضخم الذى كنت أحسب أن طعنات تلك السكاكين لن تعمل فيه. ولم يفزعنى هول هذا المنظر، كلا، بل إنه أبهجنى بما كنت أشهده من لمعان الأسلحة وتطاير شظايا الأغصان، وهو ما خيل لى معه أننى أرى فوارة لايكف الماء عن الانبثاق منها. وما تلاشت تلك الشجرة المباركة ولم يبق منها إلا الجذور المتأصلة فى الأرض حتى أخذنى العجب، إذ شهدتها تنمو من جديد نمواً يقع تحت الحس. وقد تواصل هذا النمو حتى بلغت إلى حجمها الأصلى، فأخذت عندئذ جرة ملأتها بماء المستنقع ثم جئت فرويت به الجذور وقضيت ساعة فى جلب الماء على هذا المثال حتى أجهدنى التعب. غير أنه مما أثلج صدري وملأ بالغبطة والسرور قلبى أن رأيت الأغصان قد تكامل نموها واخضرت أعوادها، وأن طلعاً طلع انبثقت منه ورقة خضراء تلتها ساق لينة أخذت تنمو وتمتد وتتضخم حتى صارت جذعا كبيرا تفرعت منه أغصان صغيرة تحمل أوراقا ناضرة وأزهاراً زاهرة، بين بيضاء وزرقاء وحمراء. ولما تفتحت أكمام هذه الأزهار انحطت على أغصان الشجرة أطيار كثيرة أخذت تغرد تغريداً جميلا وتترنم بصوتها طويلا، إلا أن ترجيع فؤادى لصدى هذا التغريد كان أجلى ووقعه فى السمع أعذب وأحلى، ما هو إلا لأننى كنت سبب إنقاذ تلك الشجرة من مخالب الفناء واستمتاعها بنعمة الحياة والنماء.

قالت راتوتى: ما أحلى هذه الـرؤيا!.. إنها تجدد فى نفسى ذكرى أيام طفولتك، إذ كنت تقضين الليل فى ابتكـار القصص اللطيفـة والنوادر المستملحـة، ولكن خبرينى كيف فسر الكاهن لك هـذه الرؤيا؟ قـالت نيفرت: قال بصوت شبـه اليقين إننى بعد الذى لقيته وألقاه من المحن سيبتسم لى ثغر الـزمن وأدخل دوراً جديداً من السعادة أحظى بالحسنى فيه وزيـادة. فهمّت راتوتى بالوقـوف للانصراف وقالت فى تكلف وتعلم: لا تنسى يا ابنتى أن أبا بعاكر هو الذى أهداك الشجرة التى رأيتها فى رؤياك. وقد أمن بعاكر على ذلك بقوله: لقد جاء بها والدى المرحوم من أقاصى الشرق. قالت نيفرت: فى هذا مـا يزيدنى غبطة وانشراحاً لأنى كنت من والدك بـالمكان الأثير، وقد أولانى من بره وعطفـه أكثر مما يـولى الوالد ولـده منهما. وبعد فهل مازلت تـذكر اليوم الذى انقلب الزورق بنا فيه ونحن نحاول عبور المستنقع فخلصتنى من الغرق وعدت بى إلى الشاطىء مغشياً علىّ؟ إن أنس لا أنسى فى حياتى ذلك اليوم الذى وقع نظـرى فيـه عليـك– بعـد أن أفقت من غشيتى– وأنت تـرمقنـى بنظـرات الحنـان والعطف. آه! ما وجدت فى حياتـى مثلك رجلا جمع إلى سمو الإدراك التحلى بمكارم الأخلاق.

أثار هذا الكلام فى نفس بعاكر ذكرى تلك الساعة التى كان يحسب فيها أنه أحرز السعادة كلها بوجود نيفرت بين ذراعيه وتقبيله إياها قبلة الهيام الذى استمكن منذ الصغر من فؤاده وقـال: صدقت ، فقد كان والدى يحبك كأحب النـاس إليه. قالت: إنـه لمما يبهجنى، ويسرّى همى أن يتاح لى الكـلام فيـه بما يدعـو إلى تمجيد سيرتـه والتحدث بفضـائله. هذا وممـا آلم قلبى وأمرّ عيشى أن أرى الرابط بين أسرتينا على غير ما يبغـى لذا الصديق مـن الوثوق والتـوفيق. ولكن الآن وقد انقشعـت الغيوم وانقطعت أسباب الهموم وعرفت فيك ما كنت أنكره عليك قبلا من أدب ولطف ورقة

وظرف، فإنى أحمد الإلـه على هذه النعمة كلما خطـرت ببالى أيام الطفـولة وتمثلت لناظرى بمظهـرها الحقيقى الذى ما علمت منـه إلا الآن فقط أنك سبب هنائى، وهل أوثق دليلا على اتصال المودة بيننا من أن كلبك الأكبر (ديكر) لم ينسنى وأنه ما برح كعادتـه يحوم حولى ويـداهننى ويتملق إلىّ؟ فنظر بعاكـر إليها نظـرة عطف وهيام وقال: نعم!نعم! قـد كنتِ ومازلت فى شغاف قلبى. قالت : مـا أجمل حديقتك وأنضر أزهارها وأينع أشجارها! إننى أعطيك عهد المحبة وميثاقها أن اتعهد باقتك النضيرة التى أهديتنيها اليوم بما يكفل بقاءها ناضرة مزدهرة أياما عدة.. ذلك لأنها تذكرنى -ما بقيت- ذلك العهد السعيد وما كنا نعلل أنفسنا به فيه من تعلات المنى والأحلام بمستقبل زاهر لا انقضاء له ولا انصرام.

قالت هذا ورفعت الباقة إلى شفتيها فلم يتمالك بعاكر وقد هزته عوامل الهيام أن ألقى بنفســه عليها وأخذ يلثـم أناملهـا فرابتها منـه هذه المفـاجأة وعملت جهـدها للخلاص من بين يديـه ولكنه مد ذراعيه يبغى عنـاقها، وكان عندمـا لامس عودها اللدن قد ارتجفت يداه لشدة ما أحس به من السرور والغبطة . وإنه لكذلك إذا بجلبة بلغ صداها إلى أذنه فتسمع لها الاثنان، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أقبل نيمو مهـرولا ليخبرها بـوصول بنت أنـات، ولم تمضِ لحظة بعـد ذلك حتى لاحت راتوتى تتلوها ابنة رعمسيس.

أما بعاكر فرأى أن يركن إلى الفـرار كيلا تجد نيفرت من الوقت مجالا للاستياء منـه. وما اعتلى مـركبته حتى ســار بها متيامنـا تارة ومتيـاسراً أخرى، كأنـه ثمل بنشوة الخمر. ولعله اعتقد أن نيفرت أصبحت بتأثير الماء السحرى ، متدلهة في حبه فعقد النيـة على موافاتها بـالذهب الكثير والخير الوفير. وفى منتصف الطـريق ألوى عنان جياده نحو دار الوالى ليتلقى الأمر منه بالرحيل إلى الشام، ولسوف يعلم فيها أيهما سيحظى -- هو أم مينا - بنعمة الرعاية من الآلهة العظام.

الفصل الخامس والعشرون

مذكرات الأمراء ..ومحادثات العمال الأجراء

بينما كان قلب نيفرت يتحفز من هول ما شهدته ولسانها يعجز عن الترحيب ببنت أنات والإكرام، كانت هذه الأميرة تحدث راتوتى فيما اعتزمته من اتخاذ ابنتها وصيفة لها وأخذها إياها إلى قصرها لتقيم فيه معها على الدوام. وقد وضح لراتوتى من أقوال الأميرة وإشاراتها أنها لم تعد تميل إليها كما كانت قبل أن تبث لها نيفرت الشكوى منها. وخشيت أن يفضى هذا الجفاء إلى حرمانها الرعاية الملكية وساورتها من أجل ذلك الهموم والأحزان، وزادها هماً على همّ افتكارها فى فراق ابنتها، فلم تتمالك من البكاء ثم جاوبت الأميرة: إنك يا مولاتى تريديننى على أن أنزع قلبى من بين جنبى، ولكن لاحيلة ولا حول إذ علينا الطاعة ولك الأمر والطول.

أومأت بنت أنات بإيماءة الموافقة على هذا القول، واتخذت فى أثنائها أوضاع الشمم والكبرياء، غير أن نيفرت ما كادت تقف على موضوع المحادثة حتى ألقت بنفسها فى أحضان والدتها واسترسلت فى البكاء على وجه هيّجت به بكاء بنت أنات، خصوصاً عندما تقدمت راتوتى نحوها وسلمت إليها نيفرت بعد أن قبلتها على جبينها قبلة الوداع، عندئذ صافحتها الأميرة وحيتها بأجمل تحية وظلت معها حتى فرغت من تسليم ما كان عندها لابنتها من الثياب وأدوات الزينة والتجمل إلى اتباعها. ولقد قالت نيفرت لوالدتها فى أثناء ذلك: لا تنسى الصندوق الذى يحتوى الأزهار المجففة والأحجبة ودمى الآلهة ، وسأحمل معى أيضاً الشجرة التى أهدانيها زوج خالتي. وكان الهر الأبيض فى خلال هذه الحوادث واقفا عند قدميها يعبث بباقة الورد التى جاء بعاكر بها وكانت سقطت من مكانها. فلما أحست نيفرت

فتاة فى مقتبل العمر تناظر بقوامها اللدن أشجار الأثل مترنحة بخطرات النسيم. وكانت فى بادىء الأمر تبدو الحقائق لها متضاربة يغشاها اللبس والاشتباه، ثم وضحت لها محجة الطريق فسارت فيه بقدم ثابتة وجأش رابط إلى الغاية التى ترمى إليها. ولذا ناجت نفسها بقولها: نعم، لقد تحسنت الأحوال وابتسم لى ثغر الزمان وانقادت الآمال، فلابد لى من العمل بلا خوف ولا إمهال.

ووصل فى هذه الأثناء أرقاء الملك فتولت راتوتى توزيع ما طلبته نيفرت برسمهم عليهم وأمرت نيمو أن يدعو الوالى إلى مقابلتها فى أمر ذى بال. فما مضى القزم قدما فى سبيله حتى لاحت له طليعة ركاب آنى مقبلة على دار راتوتى، ولم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى كان الاثنان يروحان ويغدوان فى الحديقة. وقد أخذت راتوتى تفضى إليه بما تم من «خطف» ابنتها نيفرت، وما عقدت النية عليه من تنفيذ المشروعات التى ابتكرتها بما دبرته من الوسائل الناجحة . قال آنى: لاعجب فقد عرفنا عنك من شهامة الرجال وثبات الأبطال ما لم تتحلَ به امرأة سواك. وثقى بأن تحريضك إياى اليوم لن يذهب عبثا، فالكاهن الأعظم على أهبة العمل لأول إشارة منى وكذا بعاكر الذى بدأ منذ اليوم بحشد جنوده والتحرك بها بعد غد إلى الشام عقب انقضاء الأعياد. سألت راتوتى: وهل حضر إليك بعاكر؟ أجاب: نعم، حضر عقب خروجه من عندك، وكان خداه يتقدان ناراً ففهمت منه أنه لن يدع جهداً إلا بذله لإصابة غرضه وتحقيق أمنيته.

وفى غضون الحديث بلغ الاثنان إلى الظلة التى كان نيمو عاد إليها وتوارى خلف بعض الشجيرات ليرقب حركاتهما ويتسمع لحديثهما، وجلسا على مقربة من منضدة، وما استقر بهما المقام حتى سأل الوالى راتوتى إن كان نيمو كاشفها

بأسرار الساحـرة، فتصنعت الجهل بهذا الأمر وتمادت فى إنكاره على وجـه اضطره إلى سرد مسألـة الماء السحرى، فلم يـرق لها هذا القـول بل خرج بها إلى مـا لا يليق بمثلها فى حنانها ورفقها من الغيظ والغضب. فأخذ الوالى يهدىء روعها ويلطف بها ذاهبا إلى أنه ربما كان الماء السحرى الذى ورد ذكـره على لسانه عديم التأثير. قالت راتوتى: وقفت الآن على سر مـا تناول ابنتى من التغير والانقلاب، إذ لابـد أن يكون بعاكر صب الماء السحرى فى كأس نبيذهـا، فلما جعلت تشرب منها تحولت كراهتها إياه إلى محبة وذئورها منه إلى ميل وأخـذت تحدثه بما كان يحب سماعه من ألفاظها العذبة وعبـاراتها الطلية، وكان لابد لمن هـذا شأنها أن تعتقد أن عاشقهـا الذى كان ممقوتا منها ومن أبغض الناس إليها أصبح محبوبا وأهلا للكرامة. وهو ما يستفاد منه أن الماء السحرى كان له من صادق الفعل والأثـر مالم يخطر قط له ببال. سأل أنى: وهل لشراب أن يأتى بمثل هذا التأثير..؟ المرجح عندي أن تأثيره أشـد ما يكون في الشبـان. فإذ أصاب حـدسى شـاكلـة الصواب فلست أفهـم كيف تستفيد منـه الساحرة تلك الأربـاح الوافرة. إن الشباب وحـده كفيل ببث العشق فى القلوب. آه.. آه.. ألا ابت الشبـاب يعود يـوما لأكون كبعـاكر فى فتـاء السن وميعـة الشباب.. لا تسخـرى منى لأسفى على مـافـات، فإنـى شيخ جعلت تعلتى الأمـانى المستحيلـة وأرجو منـك أيتها الصديقـة أن تفسرى لى أمراً أشكـل فهمه علىّ، وهو أنـى فى عهد الشبـاب كنت من جمال الصـورة بحيث كـان النسـوة يكبرن من شأنى ويلهجن بذكـرى ويتسابقن إلى التماس رضائى. وقـد اتخذتهن آلة لتنفيـذ مشيئتى وقضاء حـاجتى ولم استثن منهن واحـدة حتى زوجتى التى لبت نـداء ربها وهى فى مقتبل العمر. وهأنذا اليوم أجاهد فى سبيل الاقتران بآنسة لطيفة وخريدة عفيفة تكون من السن بالنسبـة إلىّ كالابنة من والدهـا. ولقد اهتديت فى آخـر الأمر إلى طلبى وبلغت

والحمد للآلهة إلى غـايتى إذ طلبت الاقتران بآنسة من نشاط الشباب وحـدة الذكاء بما كنت أرجو معـه الاعتماد عليها والركـون إليها، ولكنهـا وا أسفاه لم تجبنى إلى طلبى دون أن أقف على سبب. وأغرب ما فى الأمر أنى مـا برحت- منذ اتصل بى نبأ هذا الرفض – أشعر بقلق بالى واضطراب حالى، إلا أننى من الأمر قد عقدت النية على أن لا أقتـدى ببعاكـر فى شراء المياه السحـريـة لأستميل بها من نأت بجابنهـا عنى وقاطعتنى وهجرتنى.

سألت راتـوتى: لعلك فـاوضت بنت أنـات فى الزواج. أجـاب: نعم فعلت، وقـد رفضت فى وجهى وأخيلك لا تجهلين استيائى وحزنى. سألت: ولأى سبب نبذتك .. ألست لها كفئا؟ أجاب: لأى سبب نبذتنى؟.. وهل بنت أنات بحاجة إلى تعليل أوامرها وهى على ما تعرفين مـن كرم المحتد ورفعة القدر والعيش فى ظـل (ما) إلهة الصدق التى ترمقها على الدوام بعين رعايتها.. ما أسوأ حظى وأجل مصابى! إنى ما قارنت بينها وبينـى حتى تضاءلت فى نظـرى جلائل أعمالى وتصـاغرت أمانـىّ وآمالى. إن محن الحيـاة وتجاربها قد علمتنى الخشـوع والاستكانـة بـالرغم من سريـان دم تحتمس فى عروقى. إلا أنـى مازلت أرى الهوان والذلـة عذابا.. لم أقـض من حياتى يوما كنت فيه قانعاً بحظى ولا مغتبطا بعملى، لأن المناصب التى توليتها كانت دونها قـدرتى على الاضطلاع بها.. تـرين من هـذا أنى مقـر بعجزي وتجردى من حليـة الكفايات، ولا يغرنك ابتسام ثغـرى فإنى أتكلف السرور لا لقصد سوى إخفاء النار المستعرة فى فـؤادى. وقد أصبحت اليـوم لذلك غيرى بـالأمس، إذ صار التصنع لى عادة مألوفـة وطبيعة معروفة غيرت بهما معالم وجهى. ألم أكن مضطـراً إلى خدمة ذلك الذى ما بلغ إلى ذروة السيادة والعـز إلا من طريق أصلى الملكى.. إننى لأبغضه وأكمن له من الحقـد فى قرارة نفسى مـالا تستطيع أن تستله منهـا قوة. رعمسيس

يـدعونى بيـا أخى ولست أدرى أهـو صـادق فى زعمه أم كـاذب. رعمسيس الـذى أخلفنى على ملكه فعملت جهدى لهدمه ومحوه.. لقد أصبحت حياتى سلسلة صيغت حلقاتها من مادة الكـذب والزور والبهتان. قالت راتوتى: سـوف ينقلب هذا الكذب صدقا متى أرادت الآلهة أن يراك الناس على ما ينبغى أن تكون.. أى سيد هذه البلاد وولىّ أمـرها. فتبسم آنى وقـال: من اتفـاق الخواطر أن تمنـى الكاهن الأعظم هـذه الأمنيـة بما عبرّ ت به الآن عنهـا من اللفظ ، لكن لاعجب فالكهـان والنسـاء فى اتفـاق الخواطر سواء.. وهل سلاح الفريقين إلا واحـد وهو سهام الكلام لا حد الحسام؟.. قالت راتوتى: لا أدرى ما إذا كان ما تقـول مدحاً أم ذما. على أن قوة النسـاء والكهان لا يجهلها إنسـان، وهما إذا تعاهدا على أمر وفيـا بالعهد. قال آنى ضـاحكا: أصبت! فإنه لم تنحـدر دموع من عين لسرور أو حزن إلا وكان المسبب لها كـاهنا أو امرأة. ولست ياراتوتى بهذا الكلام أطلب المزاح، فـالمرأة هى السبب المحدث لتسعة أعشار ما ينزل بالناس من المصائب والمحن. أسوق على ذلك مثلا مسألتنا الحاضرة.. ألست أنتِ سبب ما يتهيأ لها الآن من المقـدمات والمقومات، ولـولاك لعدلت عن مطمعى فى عرش الملك منـذ ساعات بزواجى بتلك الفتـاة المعجبة بنفسها. قالت راتوتـى: تريد بكلامك هذا إقـامة الدليل على أن المرأة أصلب عوداً وأشد مراسـاً وأمضـى عزما من الرجال؟ إن يكن هذا ما تبغيه فهـو الصواب الذى لا أعارضـه ولا أنفيه، لأن المرأة إن زوجت من أحد سميت ربة البيت والرجل إن قوس ظهره الهرم أو انقطع عن العمل لعاهة لزمته أو لمرض طال عهده لايحل الفتية محله فى عمله ولايدفعون الغوائل عنه فى شيخوخته وعجزه، بل الفتيـات يقمن بهذا الواجب المقدس. ونحن معشر النسوة مازال يعيبنا الشىء الكثير من النقص كضعف الجانب والنزق والشغف باستبطان كـوامن الأسرار واستقـراء أسبـاب الحوادث.. لـذا اسـألك عن عـذر بنت آنـات فى

الامتنـاع عن قبـولك بعـلاً لها؟ أجـاب آني: أنت من أحـوالها على علم كفيل بكشف الغطاء عن الأسرار والـوقوف على دفـائن الحقائق. ومع هـذا فلقد التقيت بها عقب عودتها من الهيكل الـذى كان يطهرها فيـه من الدنس نبيه الشيخ الخائر العـزيمة، فإنها فى ذلك اليوم أقبلت على تتهادى فى مظاهر جمالها وعزتها وشممها فكان لذلك منها روعة شـديدة فى نفسى جعلتنى استشعر بما تلاقـى فى ذاتها الشريفة السنية من مزايا الإمارة وصفات الملكية وأحسست قلبى يخفق كما لو كنت فى العشرين من عمرى. ولقد أخذت يـومئذ تعرض على نظرى أزهارها الـزاهية فحدثتنى وسواسى بأنى ما طمحت إلى الاقتران بها إلا لنيل مطمع وتحقيق مـآرب، ولكنها إذا لبّت ندائى وحققت رجائى فلا مناص لى من إخلاصى الولاء لرعمسيس والدها كصديق بل أخ وأن أكون عـونا له فى السراء والضراء. وحسبى هـذا باعثا على انحيازى إلى جـانبه وانضوائى تحت لوائه، أما إذا لم تجنبى إلى طلبى ولم تحقـق أمنيتى برضائها عنى بعلا لها، فلا منـدوحة لى من إثارة حرب استرد بها حقوقى المغصـوبة وامتيازاتى المنهوبة. ولقد رأيت فى يوم لقائى بها أن الفرصـة مواتية، فكاشفتها بدخيلة نفسى، فما كـان منهـا إلا أن قـاطعتنى بقـولها: أنت فى عشيرتك نجمهم الثـاقب وبـدرهم الطـالع، ومن الشرف وعظيم الخطر فى أرفع منـزلة، وأنت أنت الكفء لـلاقتران بى ولكن.. فابتـدرتها بالسـؤال عن سر هذا الاستدراك. فقـالت :لا تسل . ورجت منى الاقتصار على العلم بأن طلبى منها مرفوض قطعاً. فاستعطفتها كثيراً وابتهلت إليها طويلا فقـالت: لا تطل الحديث فيما لايجدى فإننى أحب غيرك. سـألتها عن اسم من تحب، فأمسكت عن الجواب. وكنت آنئذ أحس بخفقان شـديد فى قلبى واضطراب فى جسمى مصدرهما بلا شك الحب الذى استعبد نفسى واستأثر بلبى. قالت راتوتى: أراك غيوراً يـا آنى، ولكن أتدرى على مَن؟ أجـاب: كلا ، ولهذا أحب أن تطلعينى على

الحقيقة، وثقى بأنى إن دخلت قصر بنت أنات حائرا متردداً غير مستقر على أمر، فقد خرجت منه والحزم رائدى والعزيمة فيما أنا ماضٍ فيه قائدى، ولا شك فى أن الآلهة ستعاوننى على بلوغ المراد. ولقد قابلت فى عودتى إلى بيتي الكاهن الأعظم أمينى والموهار فتعهد أحدهما بتنفيذ تدابيرنا فى مصر والثانى فى ديار الشام. وإذا كان الغد دخلت جيوشى العائدة من الحبشة مدينة طيبة بمظاهر الانتصار وأعددت لاستقبالها من الحفلات وأقمت من الأعياد مالم يسبق له نظير فى الأبهة والجلال.. وستشرك تلك الجنود غدا فى الاحتفال بأعياد الوادى فترفع من شأنها وتبدى من حسنها مايأخذ بالألباب ويقضى بالعجب العجاب. ومتى انتهت تلك الأعياد وانشرحت بها صدور العباد أنفذتها إلى الشمال لاحتلال حصون مدائن (تانيس) و(دفنه) و (بيلوز) و(مجدول). ولايغيب عنك أن رعمسيس قد أثار فى صدور الكهان كوامن الأضغان، إذ نظم فى سلك جيشه من اعتادوا من الأهلين موافاتهم بالنذور والقرابين. فإذا أرسلت إليه بنصف الجيش وحجزت هنا الآخر ألقيت بينه وبينهم بذور الأضغان والحزازات فجنيت من ذلك تحقيق الأمانى.. وقد اعتزمت تسفير حامية منفيس– وهى على ما تعلمين من المظاهرة بالعداء لى– إلى بلاد النوبة لأتقى شرها وآمن خطرها. ولما كان سكان طيبة راضخين لأوامر الكهان عاملين دائماً بما يرسمونه لهم من الخطط فسيغتنم الكاهن الأعظم فرصة اجتماعهم فى الغد للمقارنة بين الأسرة الملكية التى انتزعت من يدها أزمة الأحكام وبين الأسرة المالكة الآن. ولايبرح عن بالك أنه طرد من الهيكل الأمير راميرى ابن رعمسيس. وهو لن يأذن لبنت أنات فى شهود ما سيقام فى الغد من الحفلات ، وبهذه المعاملة التى تحط من مقام الأسرة المالكة تثور خواطر الأهلين وتنفض القلوب من حول هذه الاسرة. ولنا فى موت بعض الحيوانات المقدسة أخيراً خير معين على قضاء مآربنا، اذ

ما برحت النفوس تحت تأثير الأسف والحزن لهذا الحادث المكدر، ومعناه أنها قابلة للانفعال بغيره من المؤثرات. ولا تنسى أن رعمسيس لن يستطيع الاخناء على أمة الريتاس لتذمر جيشه من استطالة الحرب، وها قد كاد التذمر يتحول إلى تمرد ومروق عن الطاعة، فإن نجح فى سعيه تحققت الآمال بلا معاناة قتال. ولكن لا مندوحة لنا فى ذلك من الإسراع بالجزم والثبات على العزم.

قالت: لم أعد أراك الآن على ما ألفيته فيك من البطء والتوان.

قال: إنى إذا طلبت السرعة فما هو إلا لأنى لا أرى من الحكمة إعمال الروية فى مثل ما نحن فيه.

قالت: وماذا تفعل لو درى الملك بما تدبره له من الدسائس؟

قال: هذا ما لا أحب النظر والروية فيه، خلافاً لعادتى. قالت: لا يسعنى إلا موافقتك على المبادرة والعجلة، ولكن لا مناص من إتخاذ الحيطة التى من أهم وسائلها الاستيثاق من وصول رسائلك إلى معسكر الملك فى الاسابيع السابقة على اليوم المضروب لإنفاذ مشروعنا.

قال: ها قد وافق خاطرك لثانى مرة خاطر الكاهن، وهو ما يدل على سداد رأيى وصواب حكمى، فلقد أوصانى أمينى بما توصيننى أنت به الآن، لأنه ما من كتاب يُرسَل من خط الحصون الممتد بين (بيلوز) والبحر الأحمر إلا ويصادر بأمر الملك رعمسيس. وحيث كان الأمر كذلك فإنه لا يصل إلى فرعون من رسائل سوى التقارير التى تتضمن الشكوى من تعديات أهل الصحراء وسلبهم القوافل ومهاجمتهم حملة البريد والعساكر المنوطين بحراستهم.

قالت: إذا كان الأمر كما تقول، فماذا يمنعك من مراقبة موانى ا حر لاحمر

وملاحظة حركات الكتاب ومحررى الرسائل، حتى إذا جلست على تخت الملك ميزت بين أوليائك وأعدائك؟.

قال: إن الحيطة التى تحضيننى على اتخاذهـا تحرج موقفى، ولذا كان الأولى ألا أكلف نفسى استقراء أحوال من يخدمون أميرهم بالأمـانة المطلوبة منهم.. ألا ترين أنه من المتعـذر التماس المنفعة ممن لم يستحوذ على تمام الثقـة أو استعباد من على شاكلته؟.. لا تخجلك يا صديقتى هذه الملاحظة فإنا قد ربطتنا ببعضنا آصرة القرابة ورابطة المصلحة. وإذا كشفت لك عن ضميرى فليس فى ذلك ما يبعث على العجب .

قالت: أصبت ولست أطلب من الجزاء لنفسى ما يعدو أن تسترد أسرتنا الكريمة حقوقها الشرعية الموروثة وأن تجلس على عرش الملك من جديد.

قال آنى: لعلنا نوفق للنجاح فى مشروعنا، ولكن نجـاحنا تعوزه السرعة مقرونة بالثبـات وإلا.. أعيننى ببصرك واسعفينى بتأييـد نيفرت ابنتك على معـرفة هـوية عاشق بنت أنـات. فارتعدت فـرائص راتوتى لسماع هـذا الكلام لأنها لم تأنس من آنى مجاوزة الحد فى الجرأة، ولكنهـا تعملت السكون وأخـذت تسرد أسماء أشراف شبان طيبة. وقالت: أفلا يكون حبيبها أخاها (ساموس)؟.. ولكنه بالمعسكر الآن..

ما بلغت هذه الكلمات إلى أذن نيمو وهو قـابع فى مخبأه حتى برز منه مقبلا على راتوتى وأقبل بيدو عليه من السكينة والاطمئنان ما يوقع فى وهم الناظر أنه آتٍ من الخارج وأنه يجهل ما دار من الحديث بينهما. ثم قال بعد السلام: أتأذنين لى بالكلام يا سيدتى؟ إن عندى من الأخبار ما يقضى بالعجب. قالت: هات ما عندك. قال نيمو: ذاع على ألسنـة العـامـة أن الأميرة بنت أنـات شغفـت حبـاً بشـاب من كهنـة بيت سيتى.فما كاد نيمو يتم كلامه حتى تحركت فى آنى عوامل الغضب وقال: إنك لدنىء

وقح!.. وهل عندك من الدليل ما تعزز بـه دعواك؟ ان يكن عندك فاذكره وإلا سللت لسانك من قفاك. قال نيمو: لسانى ملك يمينك فـافعل به ما بدا لك، بل قطعه إرباً إذا لم يتأكد لك قولى.. بهذا تقضى القوانين والخضوع لها فرض واجب.. اتصل بك من غير شك ما قرر، الكهـان من تلوث بنت أنات بالدنس لـدخولها بيت المحنط.. فى هذا البيت دارت المحادثة الأولى بينها وذلك الكاهن. أما الثـانية فكانت فى هيكل حاتاسو حيث فاجأهما سبتاح رئيس المنجمين.

لزم آنى الصمت عامداً ثم سأل: ومن هو ذلك الكاهن؟

أجاب نيمو: فقير لا حسب له ولا نسب، وقد نظم فى سلك طلبة بيت سيتى رحمة بـه فحذق العلـوم واشتهـر بالنبـوغ والتفـوق فيها، ولا سيما فى تاويل الأحـلام وقرض الشعـر، أما اسمه فبنطـاؤر. وهو شاب جميل الطلعـة تلوح عليه عـلامات الشرف والرفعة. ويقول الكثيرون إنه بوالد بعاكر أشبه من هذا به، أفنظرته؟

أجاب الوالى وقد أحفظه هذا القول وغاظه: نعم.

قالت راتوتى: إن ما رواه نيمو هو الصحيح، فقد رأيت بنت أنات قد علا وجهها الاحمرار إذ حادثها شقيقهـا راميرى فى أمر احتوى ذكر الشاعـر بنطاؤر، فلا ريب أنها كانت تفكر فيه.

قال آنى: لسوف يبرح الخفاء وتحل المعضلات. ثم خرج مهرولا.

ما اختفى آنى عن الأنظار حتى خاطبت راتوتى نفسها بصوت جهير: لقد نهض الـدليل اليوم على مضـاء عـزيمته وشـدة عـارضته ولكن صبراً ، فلن تمضي أيـام معـددوة حتى تدب عقـارب الغيرة إلى فؤاده فيضطـرب بـاله ويلجأ إلىّ ويعـول فى أموره علىّ.

أما نيمو فقد انطلق راكضاً فى اثر الوالى فأدركه بالقرب من أشجار التين وأطرق رأسه احتراما وبادر مسلما تكريما وإعظاماً، ثم قال بصوت خافت: أيهذا الأمير الماجد.. إن لوالدتى دراية تامة بأسرار ذات بال ليس لها بما كاشفتك به أى اتصال، وإذا كان اللقلق[1] المقدس لايعوقه مانع عن خوض المستنقعات الراكدة لالتماس الحشرات المائية يتغذى بها كما لا يعترض الرجل الشريف ما يحول دون التقاطه الذهب الملقى فى القمامة، أفلا تود أن تتنزل لسؤال العجوز عن تلك الأسرار دون أن تراها ولا تراك؟

قال آنى: قل ما فى نفسك وأوجز.

قال نيمو: أدخل العجوز السجن، فإن أفادتك فائدة فيها خيرك ومصلحتك فاجزها بعض المال واطلق سراحها، وإن لم تفعل فأوجعها ضربا حتى تكاشفك به لأنه سر غريب فى بابه. فاعتلى آنى مركبته وقال لنيمو بعد إذ ألقى عليه بضع حلقات من الذهب: لسوف أنظر فى هذا الأمر.

وكان الناس يتواردون زرافات وشتى فى الطرقات المؤدية إلى قصر الوالى حتى غصت بجموعهم. فلما رأى آنى ما هم فيه من هرج ومرج واختلاط واختباط ظن أنهم هبّوا للثورة فسار بالمركبة سيراً وئيدا وأنفذ بعض الحراس ليوافوه بالخبر وينحوا الناس عن طريقه. فما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى عادوا وأخبروه أن لا اضطراب ولا ثورة ولا أخبار تثير الحزن، إنما هى مظاهر سرور أقامها الأهلون بمناسبة ما سارت به البشائر من ظهور معجزة بيت سيتى، وهى انتقال

(١) يسمى باللاتينية (أيبس ريليجيوزا)، وقد اختفى هذا الطير من مصر وكان منه بها نوعان كانا يقدمان قربانا للإله توت. وقال بلو تارك إنه بالنظر لفائدة هذا الطير فى إبادة الحشرات المضرة أقام المصريون الهياكل لعبادته.

قلب آمون الـذى مزقـه الذئب الخاطف إلى صـدر النبى رونى الذى ختم أنفـاسه فى اليوم السالف.

ما استقـر هذا الكـلام فى أذن آنى حتى هبط من المركبة وجثـا على ركبتيه بينما كـانت الجماهير يصفقـون ببعض أيديهم على الأيـدى الأخـرى استحسـاناً لفعلـه ويقتدون بـه، وبسط نحو السماء يديـه ليحمد الإله ويثنى عليـه، ثم وقف بعد ذلك وانصرف متجهـا صوب القصر الـذى خـرج منه فى هـذه الآونـة برهط من العبيـد يحملـون خبزا على صفحـات كبيرة وأخـذوا يـوزعونـه على الأهلين الـذين لهجت ألسنتهم بالثناء على الوالى وتحدثوا بكرمه وسخائه.

فقال نجـار من طيبة لواقف بجواره: حقـاً إن والينا رجل كريم . فقد أجـزل لنا العطاء من الخبز الطرىء والطعام الناعم.

وكان طفل عـارى الجسد من المتشردين قـد سمع هذا الكـلام فوثب على رغيف الخبز الذى كـان صاحبنا يطيل فيه التأمل إعجـاباً بطراته وصفاء مـادته، فخطفه وراغ بين الناس روغان الثعلب، ثم ظهـر فقال: اعطنى منه كسرة صغيرة وأنا أرده إليك. أجاب النجار: آه يا ابن التمساح ويا سلالة البله والحمقى.. إن وقاحة الأطفال من أمثالك قد أخذت بالزيادة في هذه الأيام.

قالت امـرأة شهدت الحادث : دعه يـا ولدى، فـالأطفال قد عضهم الجوع بنـابه لبقاء آبائهم بميدان الحرب، ومن أين للأمهات القدرة على إعالتهم وهم لا غذاء لهم ولا قوام لحياتهم غير نخاع شجر البردى وبذور النيلوفر الأزرق؟

قال النجار ضـاحكاً: ولم لا يداومون على التغـذى بها؟ انظرى لترى الصحاف مملوءة بها.

قال صانع أحذية: لابد أنه قد بات قرير العين مبتهج الفؤاد سروراً بنبأ المعجزة، لأننى رأيته يجود بالعطايا الكثيرة على وجه لم نألفه من قبل. والمحقق أن هذا السخاء كلفه مالا طائلا.

قال خباز: لم نسمع بهذا ولم نره منذ زمان، ولعل الباعث عليه الابتهاج بما كان من اختيار قلب آمون لجثة النبى رونى مستقراً له، وكان رونى نبياً لهيكل حاتاسو وحاتاسو جدة الوالى آنى. قال النجار: نعم وقد فهمت الآن أن الكهان أنصار للأسرة الملكية القديمة.

قال صانع الأحذية: هذا لا يحتاج إلى دليل .. واعتقادى أن الأحوال فى العهد السالف كانت خيراً منها الآن، لأن الحرب غيّرت معالم كل شىء حتى أصبح أشراف الناس وأتقياؤهم يسيرون حفاة لأنهم لايملكون ثمن حذاء. أما أسلاب الحرب وغنائمها فهل رأينا منها الشىء الكثير؟ إن رعمسيس ابن رع من أبطال الحروب، إلا أنه لايبرم أمراً ولا ينقضه إلا إذا استشار الآلهة. وقد وضح لى الآن أنهم يكرهون طيبة لأن قلب الحمل المقدس تخطى النيل وحلّ صدر كاهن من أنصار الأسرة الملكية السابقة.

فقاطعه خوّاص كان حاضراً: حذاريك! فقد حضر أحد الحراس. قال الخباز: استودعكم الله أيها الإخوان فإنى عائد إلى مخبزى لتهيئة الخبز، وليس بعازب عليكم ما سأعانيه من جراء الاحتفال منذ الغد بأعياد الوادى.

فتنهد الحذّاء الصعداء وقال: إنى راحل لممارسة حرفتى وأسأل هل منكم من يطيق السير بلا حذاء فى طرقات مدينة الموتى، وكيف بغيره يقتفى أثر إله الآلهة ورب الأرباب؟

قال الخواص: يبدو لى أنك كثير الربح.

أجاب الحذاء: هو كذلك كلما اتقن صناعنا عملهم وعجلوا به.. وإنى لاسف لوجود المتقنين منهم بميدان القتال ولبقاء الاغبياء العاجزين عن أداء واجباتهم. أما النساء فقد طمحت زوجتى إلى اقتناء ثوب جديد للعيد وعقود تحلى بها أعناق الأطفال وسيعززنا الإنفاق على القرابين نقدمها للموتى لنستحق عنايتهم إلى غير ذلك مما يربو كثيراً على ما أربحه.

قال الخباز: لما توفيت زوجتى أخذت على نفسى موثقاً بتقديم قربان صغير كلما طلع هلال ، وقربان كبير على رأس كل عام، ولكنى لم أحسب حساباً للمستقبل ولم أنظر إذا كنت أستطيع الوفاء بهذا النذر، فلما رأيتنى عاجزاً عن الوفاء به والتمست من الكهان إعفائى منه لم يحققوا رجائى فما برحت متقلبا فى عنائى. وزاد الطين بلة أن زوجتى الشقية مازالت وهى فى عداد الموتى تجحد فضلى كما كانت تفعل وهى على قيد الحياة. فإنى كلما رأيتها فيما يرى النائم ألفيتها عابسة الوجه تريد بى السوء وتنحى على باللوم.

قالت امرأة الخواص: لعلها في الآخرة أبعد نظراً فى العواقب منها فى الأولى، أو لعلها عرفت من سابق معاملتك إياها أنك لم تكن لها وفياً صادقاً، ولا عجب فأرواح السعداء والأبرار تحيط بشؤون الحياة الدنيا.

قال صانع الأحذية: أقسم بأنوبيس صاحب السماء السفلى لئن خيرت لأطلبن الموت لنفسى قبل أن تموت زوجتى العجوز التى أوليها الحب والاحترام، لأنها إذا انتقلت إلى الآخرة قبلى وروت على مسامع أهلها كل ما أتيته فى الدنيا ثم تقمصت بشكل مما أميل إليه فستوافيننى كل ليلة لتذيقنى كأس العذاب وتلقى على من

الأثقال مالا طاقة لى بحملـه، فلا يكون من الموت بدّ. قالت المرأة: وإذا قُبضت روحك قبلها، أفتظن أنها تربأ بنفسها عن اقتفاء أثرك لتعلم ما ينتهى إليه أمرك؟

فتبسم الحذّاء وقـال: إن يكن الأمـر كما ذكرت فـلا بأس من النظـر وقتئـذ فى أحوالها الماضيـة. وإنى على ثقة بـأن فيها ما يـذممها إلىّ ، إلا أننى أخشـى- إذا أنا فاتحتهـا فى الأمر فحنقت ثم حلمت علىّ بحـذائها تريـد أن تهوى به على رأسى -أن أقابل هذا الاعتداء بمثله.

فأخذت امـرأة الخواص بيد قـرينها وقـالت: هلم بنا إلى المنـزل، إذ لا شـىء هنا يفيدك سماعه. فضحك الحاضرون جميعاً لكلامها.

وقال الخبـاز: لقد حانت ساعـة الارتحال فإنى أود الوصول إلى المقـابر قبل أن يولى النهار لأعد مكانا للبيع فى عيد الغد. وقد تركت بضـاعتى فى مدخل الوادى ولابد لى من نقلها. وأرجو منك أن تبعث لى بأولادك لأتحفهم بالحلويات والفطائر. فهل لك فى مرافقتى إلى ذلك المكان؟ قال الخواص: إن أصغـر أخوتى هناك يحرس البضـاعة. وأرى أن أبادر بـالانصراف لأعد المعدات التى ألفت بها نظـر المشترين والمشتريات. ولكن أفى النية أن يعرضوا فى الغد قلب الكبش الذى تواطأت به أحاديث الناس؟.

أجاب الخباز: لا خلاف فى ذلك ولا التباس.

وردة مصر

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء فى ماضى الحقب إلى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة، فيحس إذ يتلوها كأنه يحيا بحياة المصريين فى عصر رعمسيس الثانى، وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية فى العلوم والفنون والآداب، ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارهم الكهنوتية ويلم بالأسباب التى علت بهم فوق شعوب الأرض طرا فى زمنهم

أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى

الدكتور ايبرس الألمانى

ونقلها إلى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجـــزء الثـــانى

مكتبة مدبولي

القاهرة

الجـــزء الثـــانى

من روايـة وردة مصر

الفصـــــل الأول

«مكائـــد ومصائـــــد»

كانت المدينـة فى هرج واضطراب والأهلـون فى ذهاب وإياب ينصبـون منها إلى المرفأ فينزلـون فى الزوارق ويشقون بها سطـح الماء، قاصدين إلى الضفـة الأخرى حيث المنظر أجدر بـالاعتبار وأحرى، وكان البـاعة وأعيان التجار بمـدينة الأموات يتنافسون فى نصب السرادقات وتزيينهـا من الزينات، بما يلفت النظر ويحير الفكر. ذلك لأنه كانت ستقام فى الغد شعـائر الاحتفال وتخصص الزوارق لنقل المتفرجين من رجال ونسـاء وأطفال. وكـان الهرج داخل بيت سيتى مثله خـارج الباب، ولئن تكن معجزة قلب آمون قد انصرفت نحوها العيون، وصرفت الهمم عن إعداد معدات الاحتفال بعيد الوادى، إلا أن الكهان والطلاب أتموا بـالليل ما أغفلوه من هذا الباب، فكنت ترى فريقاً يتمرنون على إنشاد الأغانى الدينية وآخرين يمثلون فوق البحيرة المقدسة رواية هيراطيقية[1] وجماعة غيرهـم يُفرغـون على تماثيل الآلهـة الحـلى

---

(١) كان فى كل هيكل لقـدماء المصريين بحيرة مقدسة. وذكر هيرودت فى الجزء الثـانى من تاريخه مارآه فى بلدة (صا) من تمثيـل الكهان للروايات ليلا بالقرب من بحيرة (بيـت) المقدسة وقال إنهم كانوا يسمون الروايات بالأسرار الواجب كتمانها

والحــلل[١] وطائفة يدهنون بالالوان الرمــوز المقدسة التى تقادم عليها الزمان، ثم يعرّضــون للهواء جلود الفهــود وثياب الكهــان، ويخرجون من الخزانات المجــامر والمحــاجن والشــارات والـرموز وزورق الاحتفــالات المقــدس والمشــاعل والآلات الموسيقية وينسقون كل هذا فى المواضع اللائقة به[٢].

وكان الأطفال يضفرون الأغصان لتزيين الجدران، ويرصعون بالزهر الأكاليل لتتحلى بها التماثيل، ويرفعــون الرايــات إلى أعلا الأدقال والســاريات، ويفــرشون الأرض بالبُسط الفــاخرة وينثرون فوقهــا الأزهار الزاهرة. وكــان مفتش القرابين وبعض الكتّاب يحصون فى السجلات ما قدمه أهالى طيبة والأقاليم[٣] لهيكل سيتى من الهدايا والهبــات، من حبوب وماشيــة وما إليهما مما لا حصر لعــدده. أما أمينى فكان يشرف على هذه الحركة مراقباً ومــرشداً ولم يهمل شيئاً، فكان تارة يُرى بين المنشدين ورجال المعجزات الذين يبهتون الناس بغريب الأعمال، وطورا بين المنوط بهم تدبير الأماكن لجلــوس والى مدينة طيبة وأنبيائها ووفــود الأمة المصرية الآتين من قاصى أنحائها . ولم يغفل على الجملة شيئا حتى مصابيح الزينة ومجامر العطر

---

(١) يدل على أن قدماء المصريين كانوا يكسون التماثيل بالحلل الفاخرة ويزينونها بالحلى النفيسة ما وجد على بعض هذه التماثيل من المسامير التى كانوا يثبتون الحلل بها عليها ، وكانوا يكسونها بها ثم يجردونها منهــا بطقوس واحتفــالات خاصــة مــوضحة فى قــانون الاحتفــالات الدينيــة. وتحتوى نقوش هيكل أبيدوس (المرابة المدفونة) التى نشر مارييت باشا ترجمتها معلومات كثيرة تتعلق بتلك الاحتفالات لكل منها معنى رمزى خاص به.

(٢) يؤخذ من الـرسوم والنقوش البارزة المحفوظة إلى الآن فى بيت سيتى (هيكل القــرنة) أن هذا الزورق المقدس كان يسميه قدماء المصريين بسفينة سام.

(٣) تدل النقوش التى بالجانب الشرقى من هيكل القسونة على أن الــوفود كانوا يأتون من أقاليم الوجه البحرى إلى طيبة لشهود الاحتفال بعيد الوادى.

الموضوعة فى كل مكان لتعطير أرجاء الهيكل . وإذ تـأكد من حسن النظام واستقامة الأمور استدعى إليه فى الحال الشاعر بنطاؤر.

وكان هذا الشاعر اللبيب قصد غرفة نبسشت الطبيب بعد أن ودع الأمير راميرى على أثر طرده من الهيكل،فالفاه بها فى قلق وانـزعاج لم يسبق له مثلهما، لأنه كان لا يكف عن السير فيها حائراً من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، يتأمل فى قنيناتـه تارة وطورا فى أقفـاصه، وينحى بقدمه آنيـة بعض حزم النباتـات الجافة ويضرب المناضد أحياناً بكفيه ضربا مسرفا. فلما شهد بنطاؤر ذلك أنشأ يقص عليه ما رآه فى غرفتـه من الفساد والاختلال، إذ ألفى الطيور المحبوسـة فى الأقفاص ميتة والقـرد قد التمس لنفسـه مخرجاً من محبسـه والأفاعى والحشرات الأخـرى التى جعلها موضوع أبحاثه العلمية قد ذهبت بددا. ثم شرح حادثة القرد فقال:

ما أخبث هذا الحيوان! قلب الآنية التى تحتـوى الجعلان وصندوق الدقيق المعد لغـذاء الطيور، وألقى من النـافذة مـا وجده من المدى والمجسـات والإبر والأقـلام والبركارات. ولما دخلت الغرفـة أتعرف أين رأيته..؟ رأيته بأعلى هـذه الخزانة، وقد استحال لونه إلى أبيض ناصع، لأنه تمرغ فى الدقيق فصار كعبد الطاحون. وأمر من هذا وأدهى أننى وجـدت فى يده كـراسة كنت أدوّن فيها مشـاهداتى، ومـلاحظاتى واستكشافـاتى فى تركيب أعضـاء الحيوانات ووصفهـا. وهى خلاصـة أبحاثى فى بضع سنـوات. وقد حـاولت أن أقبض عليه، وكـان يقلـد حركـاتى فى تلاوتـه تلك الكراسة، فما كان منه إلا أن اندفع بوثبة شـديدة خارج النافذة ووقف بحافة البئر وأخذ يمزق ورق الكراسة ويلقى به فيها، فاشتد غيظى وطار عقلى فوثبت خلفه من النافذة للقبض عليه، فما كان منه إلا أن استقر فى إحدى دلوى البئر وأخذ يهوى بها

الى القاع فجذبت الحبل لأرفعه فيها إلى ظاهر الأرض، ولكنه وثب منها وهوى إلى القاع، وفى يده بقية الكراسة المكتوبة بخطى.. قال بنطاؤر: إذن مات غرقا ذلك الحيوان المسكين؟ قال نبشت: كلا ،لأننى رفعت الدلو ثانياً إلىّ وهو فيها وعرّضته لأشعة الشمس، فلما جف أكل بعض العقاقير والأدوية فمات ظهر هذا النهار، وماتت معه الحقائق العلمية التى قيدت فى كراستى أوابدها. نعم، إن جملة من تلك الأبحاث والملاحظات ما برحت عندى، ولكنى أرى أنه لا غنى لى عن تكرار التجارب والأبحاث التى سبق لى القيام بها، وإنك لتستخرج من هذه الحادثة أن القرود كالرجال يعارضوننى فيما أقوم به من الأعمال.

طابت نفس بنطاؤر إلى سماع هذه النادرة اللطيفة، إلا أنه شاطر صديقه الحزن على فقدان الكراسة الفريدة فى بابها، ثم جال بضميره خاطر جعله يقول: إذا كانت جثة الحيوان لا تزال موجودة فلم لا تضعها فى مصلى توت بالقرب من خزانة الكتب؟ ألا تدرى أنه من القرود المقدسة التى يشبه رأسها رأس الكلب؟.. ثم إن أمين خزانة الكتب ما أودعك القرد إلا لتعالج له عينيه، فهل ذهب عليك أنه سيطالبك به[1]؟ قال نبسشت: أما العلاج فقد تم وشفى القرد. قال بنطاؤر: أين جثته.. ألا تدرى أنه ربما طالبك بها؟ قال نبسشت، وكان فى كلامه كالطفل الذى يحاسب على تفاحة أكلها: أو ترى أنه يطالبنى بها..؟ قاطعه بنطاؤر: يلوح لى وهو الأرجح أنك شرحت الجثة. قال نبسشت: نعم شرحتها وقطعت القلب للبحث فيه. قال بنطاؤر: أنت فى جرأتك على فحص القلوب كالمرأة التى تغزو قلوب الرجال.. أوَ تستطيع أن تخبرنى بما آل إليه قلب الرجل الذى أعطاكه الشيخ بينم؟ فروى نبسشت كل ما

(١) كانت القرود توهب للإله توت، وقد وجدت فى مومياوات طيبة(وهرموبوليس) صور هزلية تمثلها وهى مشتغلة بالقراءة وعلى جدار هيكل إيزيس (انس الوجود) صورة منها .

حصل ولم يكتم شيئاً ، إذ ذكر ما كان من مجازفة الرجل بنفسه واعترافه بأن البحث الدقيق فيه لم يوصله إلى حقيقة علمية جديدة ثم قال: ولعله قلب حيوان لا إنسان. على أنه لابد لى من درسه وفحصه من إحدى نواحى العلم الأخرى، ومقارنته بغيره من القلوب. واعلم يا صديقى أنى انتويت مغادرة هذا المكان للدخول فى طائفة المشرحين. وليس فى قدرة مخلوق أن يرهقنى بالعدول عن هذه النية، مع ما فيها من بواعث السقوط إلى الدرك الأسفل من الاجتماع الانسانى. قال بنطاؤر: لاشك عندى فى أنك تهذى ولا تقول حقا. قال نبسشت: لك أن تعتقد ما تريد وليس فى اعتقادك ما يرجع بى عن تنفيذ ما اعتزمته. قال بنطاؤر: إن فى شغفك بتشريح القلوب وشق الجثث ما تشمئز منه النفس وينبذه الذوق ولا يقره الطبع. وحيث إنك لم تستفد شيئاً جديداً من بحثك فى القلب كما تقول، فلمَ تكلف نفسك عملا لا خير فيه؟ قال نبسشت: ليست نتيجة بحثى– حسناً وقبحاً خسارة أو ربحاً– مما يهمنى شأنه. لأنى لا أقصد بأبحاثى وتحقيقاتى إلا الحقيقة المجردة وما يمكن أن ترمى إليه من فائدة للنوع الانسانى. قال بنطاؤر: من قولك هذا يؤخذ أنه لا يعصمك من العبث بالأمن والإضرار بالناس عاصم من ضميرك، ما دمت معتقدا أنك بالطموح إلى استبطان خفيات الأسرار ترضى شهوات نفسك. بل بلغ من أمرك أنك – مع إضرارك بالناس عامدا– تلحق الضرر بذاتك، فتطلق مهنتك الشريفة لتمارس عملا ليس من ورائه إلا السفال والهوان مضحيا فى ذلك بما نسميه نحن الحقيقة والضياء والطهر. هش نبسشت لسماع هذه الكلمات بينما كانت تبدو على بنطاؤر علامات الغيظ والغضب، إذ أصفرّ وجهه ووشجت عروق جبهته أنفة وكبراً، وقال للطبيب بلهجة حادة: أيها الغافل المغرور.. أخطر ببالك أنك ترى بعينيك وتلمس بيديك تلك الحقيقة الخفية، بل السر المكنون الذى عزّ مرامه منذ الأجيال على

فحـول الـــرجــال؟.. ألا تـــدرى أنك بإصرارك على الفحص فى الثـــرى- كما يفعل المعتوهــون- تهبط بنفسك إلى درك الأغبياء والبلداء؟. أمــا كان خليقــاً بك أن توسـع نطاق معلوماتك بدلا من أن تحصرها فى أضيق الدوائر.. حذاريك وأنت تجرى وراء الحقيقة الوهمية- التى لاح لعينيك بريقها فـغرّك سناؤها- أن تزل قدمك فى مزالق الخطأ والغرور، فتتعذر عليك الإقالة وتصير الى أسوأ حالة..

قال نبسشت: ما الخبر يــا صديقى.. أرأيت لو أننى ملكت الحقيقــة من ناصيتها أكنت أكلف نفسـى مـؤونة البحث عنهــا وتتبع آثارهــا..؟ إننى كلما أمعنت فى البحث وأدمنت المراقبة أحست نفسـى ضرورة التـوسع فى العلوم. قــال بنطاؤر: لست كما تعلم من تخدعه ظواهر تواضعك وحلمك، لأنى عالم بماهية الغرض الذى ترمى إليه بوضعك من خطورة الأبحاث التى تفرغت لها وتـوفرت عليها. أنت لا تسلم بوجود شىء ولا تقر بحقيقته مالم تلمسه يداك وتنظره عيناك. رسخ هذا الاعتقاد فى نفسك فلم تجعل لاعتقاد غيره سبيلا إليها، وملك عليك إرادتك فأصبحت منه كمن يرضى البقاء ما عاش فى سجن جدرانه المشاعر الخمس، ولكأنى بك قد غفلت عن حقيقة من أمهات الحقائق وهى أن من وراء المادة الواقعة تحت هذه المدارك ما يسمونه «ما بعد الطبيعة». قال نبسشت: ولكن هاأنذا أراك لا تحيط علما بشىء منه. قال بنطاؤر: أوَ تجهلنى وتجهل نفسك ونحن من المطلعين على الأسرار الكهنوتيــة؟ .. انه منذ صنع قائم الذات ومفيض الخيرات هذا الوجـود بباهر حكمته أدرك الإنسان طبيعة المادة التى تجحد علىّ وعلى نفسك العلم بسر تدبيرها وقـوتها المحدثة. ولست فيما أسوقه اليك من أسرار ما بعد الطبيعة مبتدعــا ولا مخترعاً ، بل ناقلا ومعلناً على الملأ نتيجة بحث الأمم الغابــرة، وهى ثمرة جهـودهم التى توارثتها الأعقــاب على مر الـدهور والأحقاب.. حقا إن علومنا ما برحت ضيقة الدائرة ولكن ألم يظهر فى الشعوب أنبياء

صفت طبائعهم وسمت أحوالهم وولهت أذهانهم فاطلعوا على صحيفة المستقبل وأحاطوا بأسرارها من غير قياس على الحاضر المشاهد أو الماضى المعروف؟ ألم يبرز من بين الهمل وأفناء الناس من أتوا بمعجزات أدهشت العالم وامتدت نحوهم بسببها الأعناق؟ كل هذه المعجزات وما أشرنا إليه من الأنباء بمستقبل الحادثات مخالفة فى ذاتها للنواميس الطبيعية، إلا أن خروجها عن طور النظام المألوف لا يستدعى إنكار وجودها. وليس أقبح فى نظرى ممن ينكر وجود ما لا يقع تحت المشاعر والإدراك.. إن روح الألوهية منبثة فينا انبثاثها فى الوجود، فاذا اعتُبر الإنسان من ناحية الجثمان فقط فلا يكون كفؤًا لإحراز قصب السبق فى العلوم العالية، أما إذا انفك من قيود الجثمان وحوّم فى مسابح المرئيات الإلهية وتسامى عن أوطان الحدثان لسماع صوت الوحدانية فقد تجاوز الشأو وبلغ من المدى غايته القصوى. واعلم أن الأنبياء وأصحاب المعجزات لم يسطع عليهم سوى شعاع واحد من ذلك الضياء الأقدس، بل قطرة واحدة من عميق بحار العلوم اللدنية والقوة السرمدية التى لا حد لها ولا نهاية.. قال نبسشت: خلنا من هذا الكلام ودعنا من الأنبياء والمعجزات. قال بنطاؤر: كنت بادىء ذى بدء أعتقد أن نواميس الطبيعة التى أخذت نفسك بالبحث الدقيق فيها تكشف لك أوجه عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات، فلم إذن تجحد مظاهر الوحدة الربانية فى هذا الكون؟ ألم تكن نفس الانسان بحراً بعيد القرار، ألا تتعرض أجسامنا لما لا يخطر فى الوهم والخيال من شواذ الحادثات؟ أما رأيت اليوم رأى العين قلب الكبش المقدس؟.. قاطعه نبسشت وقد احتدم غيظا: اعلم يا صديقى أن هذا القلب إنما هو قلب كبش هزيل اشتراه جندى ثمل بل رجل دنس بثمن بخس دراهم معدودة، ثم وضعته سراً يد محنط حقير فى صدر نبيك المقدس رونى.. أعلمت وأدركت؟

قال هذا وعمـد إلى الخزانة ففتحها وأخرج منهـا جثة القرد وطرحهـا أرضاً، ثم تناول آنية من حجر النهاء كشف عنها الغطاء وقال: رأيت رأى العين هذه العضلات المغمـوسة فى الماء الملح.. هـذه المادة التى لا حـراك لها كانت نـاعمـة بنعمة الحيـاة والحركة، وكـانت فى صدر رونـى متأثرة بمختلف المؤثـرات لما كان سيـال الحياة ساريا فى جسمه.. وإن تعجب مع هذا فعجـب أن تقوم الأمة وتقعد غداً لقلب الكبش وأن يحمله السذج والبسطاء فى الموكب بأطراف الأنامل كما يُحمل على الأكف القائد المنتصر. ولقد كان بوسعى أن أبثك هـذا السر من قبل لولا ما وعدت الشيخ بينم من الكتمان.. ولكن ما ذا عراك وبمصابه دهاك؟

كان بنطاؤر فى حـديثه مع صديقه موليـا بجانبه يئن أنين الثكلى، ففهم نبسشت أنه تأثر بما سمع من قوله فدنا منه بحـركة الغلام الذى يحس بوقوعه فى هفوة ولا يجسر على طلب الصفح لنفسه، ثم ظل واقفاً خلفه متردداً حائراً حتى نهض بنطاؤر وبسط يديه نحو السماء وقال:

«إلهى أنت الواحـد المتفرد بـالبقاء المتـوحد بـالعزة والثنـاء، أنت مسير النجوم والكواكب فى مسابحها الأبدية بمقتضى ما وضعت لها فى سابق علمك من النواميس الثابتة والقواعـد السرمدية، فلا تلجأ إلى الراحـة والسكون أبد الآباد[1]. أنت تلقى الشهب– ليـالى الصيف – من أوج الفضـاء الـذى لا نهاية لـه وتعلم أسرار الكـون وتضع أمامى من الأمثـال ما أستجلى منه الصدق والكـذب، أحدهما فى أحسن رواء والثـانى فى أقبح الاشكـال، فتجنح نفسى إلى الحقـائق وتميل عن المفتريـات. أفض نورك على نفسى وابعث شعاعاً منه إلى فؤادى اهتدى به إلى الرشد فى عملى والحقيقة

(١) كان يقرن ذكر الكواكب فى النصوص المقدسة بأنها لا تلجأ إلى الراحة والسكون .

فى قولى فأكون دائما سالكا مسلك الحقيقة الأبدية ساعياً إليها بجميع قوايّ».

قال الشاعر ذلك بعبارة شديدة التأثير فى النفس، وكان نبسشت يصغى إليه كما لـو أنصت لصوت منبعث من مكـان يجهله أو لـوسواس هـاتف لا يدركـه البصر، فتجلت لنفسه به محاسن ما بعد المادة فدنا مـن صديقه ومدّ إليه يده فضغط عليها بنطاؤر بعد إذ تناولها ضغطا شديداً وقال: ما أشد لفحات الحزن الذى أحرقت ناره فؤادى! أنت تعلم مكانة الكاهن الأعظم أمينى من نفسى.. أما الآن فآه.. وقبل أن يتم كلامه سمع وقع أقدام، فلم تمضِ برهـة حتى طلع على الصديقين شاب من الكهان طلب اليهما أن يجيبا الكـاهن الأعظم ويتـوجهـا إلى المكـان الخاص بـالمطلعين على الأسرار الكهنوتيـة فهرع الاثنان إليه، وكـان قد تكامل فيه عـدد الأعضاء وأضىء بأنوار متألقة السناء.

وكـان أمينى فى هـذا الاجتماع جـالساً على أريكـة خـاصـة أقيمت تجاه مـائدة مستطيلـة الشكل والى يمينه ويســاره أساطين الهيئـة الكهنـوتية، كل واحـد منهم بحسب رتبته. وجلس تجاهه بقية الكهان الذين كانوا يرتدون ثيابا من التيل ناصعة البيـاض فُصلت على مثال نصفى دائرتين متحـدتى المركـز. وقد أقيم فى بهرة هـذا الجمع تمثال إلهة الحقيقة والعدل ونُصب خلف العـرش الكهنوتى تمثال الإله توت وصورة أخـرى تمثل إلهة طيبة وأمامهما رعمسيس الأول وسيتى يقـدمان إليهما الضحايـا والقرابين. أما بنطـاؤر فجلس فى أخريات القـوم لحداثة عهد انتظـامه فى سلك المطلعين على الأسرار الكهنوتية.

وكان البحث بينهم دائراً على احتفال الغد. فشكا الكهـان قلة القرابين هذا العام، وقـالوا: لعـل الحرب استنزفت معين الثـروة فلم تعـد الأمـة بقادرة على أن تقـوم

بفروض الدين. ولاحظ غيرهم أن بهجـة الاحتفال لا تكون بالغـة قصارى درجات الكمال لغياب الملك وأسرته فى الحرب، فقال آخرون ساخرين: ولكن له فى طيبة ولدا وابنـة يكون من الخرق فى السيـاسـة طردهما من هيـاكلنـا فأسكت أمينى الجميع وقال: لا يمكن لسبـب ما أن يعود راميرى الى هـذا المكان، لأننـا طردنـاه نهائياً من مـدارسنا. أمـا بنت أنـات التى رأى كاهن هيكل آمـون فى تكسر وذلـة وكعاعـة أن يطهرهـا من الدنس فلابـد لنا من معاملتهـا بشىء من الشدة ، لأنه إذا خُـلق أبناء الملوك ليطلبوا فى ظلال القصور ورفاهـة العيش الاستمتاع بملاذ الحياة، فقد خلقنا بـارىء النسم لإعداد النفـوس للحياة السرمـديـة. على أنه لا محل للخـوف من أن يشوب بهجة الأعياد نقص أو فساد لأن الوالى آنى من سلالة الأسرة الملكية السالفة سيبرز للجمهـور فى مـوكب فخم وزى عظيم، بل فيما ينـاسب نفوذه وقـوتـه من مظاهـر العظمة ومجالى الجبروت. ولا يـرعكم قولى هـذا أيها الأصدقـاء والإخوان فأنتم الآن فى ليلة حبلى من عجيب الحوادث بما المستقبل وحده كفيل بإظهار مكنونه وكشف مستوره فى يوم واحد. ولست أخـالكم تنقمون، إذا بزغت على الأفق فى ذلك اليـوم شمس تجمع إلى تألق الضياء لطـف الحرارة فتطرح على أفـراد أمة أضنتهـا أثقال الحروب أشعة ساطعة لطيفة. ولقد تمت معجزات جمة ترتبط بتلك الحوادث، إذ رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا حلو الشمائل مكللا بالتقوى والصلاح قد جلس على عرش (رع) وأنه كان يصغى لنصائحنا ويوفينا حقوقنا ويرد إلينا العبيد الذين انتُزعوا من مـزارعنا انتزاعا حتى أصبحت معطلة، بل كادت تصير خـرابا لقلة من يفلحها من عمال الحقول، ويهدم الهياكل التى شُـيدت للآلهة الأجنبية ويطرد من أرضنا المقدسة جميع الدخلاء والمدنسين..

قال رئيس المنجمين: لعلك بكـلامك هذا تشير إلى الوالى آنى، فما طرق هـذا القول

مسامع الحاضرين حتى هاجوا وماجوا واختلط حابلهم بنابلهم. قال أمينى بصبر وتؤدة بعد أن ثابوا إلى السكون والصمت: إذا لم يكن هو فلعله يشبهه. وليس بعازب عليكم أن رونى كان من الموالين للأسرة السالفة، ولهذا حل قلب الحمل المقدس فى صدره. وما هو إلا الغد حتى تقف الأمة المصرية على سر هذا الأمر الدال على عناية الربوبية بها ورعايتها إياها. وقد اتصل بى منذ ساعة أن قد وُجد عجل جديد فى قطعان الوالى آنى بمدينة هرمونتيس ليقوم مقام العجل أبيس.

ما أتم أمينى قوله حتى لاحت على وجوه الحاضرين علامات الدهش ولبثوا متحيرين فى أمرهم زمنا استأنف أمينى الحديث بعده، إذ قال: لقد عهدت إلى بنطاؤر مهمة الخطابة فى عيد الغد، ولأنتم تعلمون أن الشيطان استفزه بغروره فصرفه عن الرشد وزين له قبيح عمله فأضله عن سواء السبيل، ولكنى رأيت الصفح عنه لحسن ماضيه فى خدمة الدين وتفانيه فى إعلاء كلمة اليقين. ولا يبعد علينا مع هذا أن ننظر فى أمره متى تم الاحتفال. فإن كنتم لا تخالفون رأيى– وهو ما أرجوه منكم– فقل يا ولدى ماذا فى استطاعتك أن تشنف به غدا مسامع القوم، وماذا اخترت من الموضوعات لتعالجه أمامهم بما ألفناه من فضلك ورجاحة عقلك ومتانة حجتك وعذب ألفاظك وشرف معانيك؟

فأقبل بنطاؤر على الكاهن الأعظم وأنشأ يسرد الموضوع الذى وقع عليه اختياره. وكان الحاضرون يصغون إليه فأُخذوا بسحر بلاغته وفى طليعتهم شانئوه. فإنهم لم يسعهم إلا التنويه بفضائله والإطراء فى مدحه بعبارات ساهمهم فيها الكاهن الأعظم، إلا أنه قال: ولكن خطبتك تكون بتراء وغير مستوفية لشروط الكمال كلها إذا لم تتناول معجزة قلب الحمل بالشرح المستفيض. فلابد لك من

الإسهاب فى موضوعه بعبارات الإعجاب والحماس والإطناب. قاطعه بنطاؤر وحدق بنظره فى عينيه اللتين كثيراً ما نظم عقود الأشعار فى وصف ما يتشعع منهما من بريق الهمة ومضاء العزم وقال بجهير الصوت: ولكن أرجو منك أن تخلينى من مهمة إعلان المعجزة على ملأ من الأمة. فبهت الحاضرون لاستدراكهم وحاروا حتى أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض متسائلين بالإيماء عن سبب هذا الرفض. ثم وجهوا أنظارهم جميعا إلى بنطاؤر الذى كانت تبدو على وجهه علامات الثبات والعزيمة، ثم إلى أمينى الذى كانت تحف به هالة من الوقار والسكينة، فتبين الكاهن الأعظم من لهجة الشاعر أن الشكوك خامرت عقيدته وأخذ يضرب لذلك أخماسا فى أسداس. ثم لزم السكوت زمنا رمق عقبه بنطاؤر بعينى المستثبت وقال له: لقد أصبت باعتراضك كبد الحقيقة يا صديقى، إذ الواجب التطهر من الدنس قبل الكلام فى موضوع المظاهر الربانية والتجليات الإلهية، وأنت لكونك لم تكفر حتى الآن عن سيئاتك لا يجوز لك الكلام فى هذا الموضوع، فاقتصر إذن على البحث فى الفضائل وحث الناس عليها. أما المعجزة فقد عولت على الإفاضة بنفسى فى موضوعها.

تلقى الحاضرون هذا الحل بالرضاء والارتياح، فختم أمينى الاجتماع موصيا بكتمان سر الرؤيا التى رآها ومستبقيا عنده من الحاضرين جاجابو وبنطاؤر. ولما خلا بهم المجلس قال أمينى للشاعر: قل لى لمَ رفضت البحث فى المعجزة الكبرى التى ملأت أفئدة الكهان بالسرور والرضى؟ أجاب بنطاؤر. رفضته لأنك فيما لقنتنى من المبادىء والتعاليم أوصيتنى بالحرص على الحقيقة، فأنا لا أجهر بغيرها. قال: أنا مازلت أوصيك أن تستمسك بها، ولكنى أناشدك بابنة (رع) هل تسرب إلى ضميرك الشك فى المعجزة التى رأيناها رأى العين؟ أجاب: نعم خامر ضميرى الشك فى أنها حقا من المعجزات. قال: اشرح كيف استربت فيها، وكيف تلبدت فى سماء إيمانك

سحب الأوهام، وظنى بك أنك من المخلصين فى خدمة الحقيقة؟

فرمق بنطاؤر الكاهن بعين يخامرها الأسف والإنكار وقال: إنى على يقين من أن القلب الذى ستحمله الأكف غدا ويُحتفل به احتفال الظافر على مرأى من جماهير الناس ومشهد منا نحن معشر المطلعين على الأسرار الكهنوتية ونؤدى إليه إتاوة التبجيل والاحترام إن هو إلاقلب حيوان دُس فى الآنية التى وُضعت بها أحشاء النبى رونى ساعة تشريح جثته.

ما كاد أمينى يسمع هذا الاعتراض حتى تخبل فى أمره وتراجع إلى الخلف منزعجاً كالمنزول به. أما جاجابو فقد أرعد ارتياعا وحملقت عيناه دهشا وقال أمينى بعد أن رجع إليه صوابه: من هو الزاعم بهذا الادعاء وأين دليله على صوابه؟ لابد أن يكون المرء ممن قوس الهرم ظهورهم وأكل الدهر عليهم وشرب لكى يسمع مثل هذه المقولة ويسلم بها كأمر واقع. أجاب: إن ما سمعتماه منى هو الحقيقة التى لا ريب فيها، ولن أبوح مادمت حيا باسم من سارّنى اياها. فواجب الأمانة يقضى بالكتمان. قال: لعل مشعوذا محتالا استدرجك حتى أوقعك فى شباك ختله وغدره، فإن كان الأمر كذلك فلسوف يظهر أمره ويلقى من الجزاء أشده. إن الذين يضعون من مقام الألوهية ويصغون للأكاذيب يرتكبون إثما غليظا ويكونون من الضالين المضلين كمن ضلوا وأضلوهم. اعلم يا أعمى البصيرة ويا سيىء السريرة أن القلب الذى سيعرض غدا على أنظار الشعب قلب مثلث التقديس. أسمعت؟ وستلزم- إن اختيارا أو اضطرارا- بالركوع له. والآن أودعك وأتركك فى خلوة إلى نفسك لتفكر فيما ينبغى أن تقوله موافقا لميول سامعيك. وأعلم أن الحقيقة درجات متفاوتات ومنازل مختلفات، وأن للألوهية أشكالا لولا تباينها لعسر على العقول إدراك كنهها.

الم تر كيف تقطع الشمس والكواكب فى مسابحهـا خطوطا هليلجية لا منتهى لمداها مع ظهورها لعين الرائى مستقيمة لاعوج فيها؟ إن العلماء القائمين بإرشاد العامة فى طريق الدين يذهبون أحيانـا إلى الإتيان بأعمال قد لا تصل إلى فهمها مدارك الجهلة مع أنها لا تتعـدى حدود الأعمال المرضيـة لـلألـوهية، وهم مأذونـون بعملهـا بل المتحتم عليهم القيام بها. أما علمت أن الغاية تبرر الوسيلة؟.. لعلك تعتقد أن الوسيلة إذا حادت عن الطريق المستقيم تعوج بنـا عن محجة الصواب، والحقيقة هى أنها لا تفضـى فى الواقـع إلا إلى الحق وتنكب بالمرء عن المزلات والمغالـط. ولعلك تكون الآن ادركت بون ما بيننا وبينك، فنحن نقيس الأشياء بأشبـاهها ونعرضـها على أصولها فتتجلى لنا أحوال المستقبل فى ثوبها الناصع الـذى لاشية فيه. أما أنت فتقصر فهمك على إدراك الحاضر دون ســــــواه فيضيق على العقـل مجال التصرف، ولا ينفسح للادراك مدى القياس الصحيح. فواجب عليك الآن أن تسلم بصدق ما تعتقد صدقا وتجهر بـأنه صدق لا ريب فيـه. واعلم يا بنـى أن الكذب يدنس الـروح وأن الشك يسطو عليها ويأكلها كما يأكل المبرد الحديد.

فاه أمينى بهذه العبارات وقد أخذ التأثر منه كل مأخذ، فلما انصرف بنطاوَر من حضرته سأل جاجابو: ما معنى هذا.. مَن أفسـد علينا هذا الشاب بعد أن كان كريم الخلق مهذب النفس؟ أجـاب: هو الـذى أفسد نفسه بـانحرافـه عن طريق التقـاليد القديمـة وشذوذه عن الأصول المرعية رضـوخا لشهوات النفس ومضيـاً مع تيار الباطل. قال أمينى: إن يكن هذا اعتقاده الذى يتمسك بأهدابه فقد أخطأ، لأن القوانين لم يستأثر بوضـعها مقنن واحد، بـل اشترك فيها الجم الغفير من الاساتذة الفطاحل والثقات فى العلوم الشرعية بعد صبر وأناة فى التروى والملاحظة والمقارنة والتجربة. فالقوانين فى اتساع نطاقها وانفساح مجال حقـائقها أشبه ما تكون بأشجار الآجام

تبدأ صغيرة ثم تكبر حتى تصير بتوالى الأعوام أشجاراً باسقة ذات أغصان ممتدة وظلال وارفة.. إننى أحب الشاعر بنطاؤر وأميل إليه، ولكن حبى وميلى يدعوانى إلى كسر شكيمته وكبح جماحه، وإلا فلا نلبث أن نراه كالنيل يعلو ماؤه شيئا فشيئاً فيطغى على الجسور ويفيض على الأرضين، ثم إن ما قاله الآن فى معجزة..

قاطعة جاجابو: لعلك أنت الذى أثار غبار الشكوك فى نفسه. قال أمينى: كلا. قال جاجابو مفكراً: ومع هذا فإنى أعهد فى بنطاؤر علو الهمة والصدق. قال أمينى: وأنا مثلك أعرف فيه هاتين الفضيلتين. ولذا سلمت من غير مناقشة بصحة ما نقله إلىّ من الأخبار، ولكن لا أدرى مَن الذى ارتكب الفعلة النكراء، وهى الإفضاء إليه بسر ذلك الحادث.

سكت الاثنان هنيهة بعد ذلك فقال الكاهن الأعظم: رأيت بنطاؤر ونبسشت داخلين فى هذا المكان، وليست بالسر الكمين صلات المودة بينهما، فأين كان هذا الطبيب أثناء وجودى بطيبة؟ أجاب جاجابو: كان يعالج فتاة المحنط بينم وهى التى دهمتها مركبة بنت أنات فاصابتها بجرح أليم وقضى فى العناية بأمرها ثلاثة أيام. قال أمينى: بما أن هذا الشيخ هو الذى حنّط جثة النبى رونى فقد فهمت الآن كيف غشيت الشكوك عقيدة بنطاؤر.. لابد أن يكون الشاب الطبيب هو الذى أفسد عقيدة صاحبه ولسوف يقر بهذه الحقيقة. والآن لا تنصرفن خواطرنا إلى غير الاحتفال بالعيد، فإذا كان يومان أو ثلاثة أيام بدأنا بسؤال المجرمين وأوقعنا بهم العقاب المهين. قال جاجابو: الرأى عندى أن تسأل الطبيب فيما تعزوه اليه من التهم. ولا تنس أنه ممن رفعوا الهيكل إلى ذرى المجد والشرف بسعة العلم والحذق والكياسة فى العمل. قال أمينى: خلنا من هذا الآن فإن لدينا من الامور الخطيرة ما هو أولى

بالبحث والاستقصاء. قال جاجابو: أرى فى تأجيل البحث فى المسائل المهمة ضرراً بالغاً بل مصاباً فادحاً، إذ لا يغيب عنك أننا بتنا على قيد أنملة من الهلاك. حقا إنى شيخ قد تضعضع بالهرم ركنه ورقّ بالضعف جانبه، ولكن الخطر لا يروعنى وإن جل، وكفى أن أذكّرك بسلطان رعمسيس وجبروته وأحذرك التخبط فى تيار الانتقام، فإنك لن تجنى منه غير الغمط من حقك والنيل من حميد سيرتك وإلصاق تهمة القسوة والصرامة بما سرى مسرى الأمثال من رفقك وسلاستك.

قال أمينى: لم أبغض رعمسيس قط ولن أبغضه أبد الآباد. ولولا أنه القابض على صولجان الملك اليوم لكنت أقرب الناس إليه والحظى من دونهم برعايته.. لقد تبينت أطواره واستقصيت أحواله وأسراره فما وسعنى إلا احترامه لشرف صفاته ونادر فضائله وواسع إدراكه. غير أنه قد كاشفنا بالعداء والبغض لا كراهية فى ذاتى أو حقداً على شخصك، بل كراهية فى مبادئنا وغيظا مما تطمح إليه نفوسنا. ولو كان أقل شوكة ونفوذاً مما هو فى الحقيقة لما تعذر علينا الخلاص منه بوسيلة ما. أما الآن وقد علمت ما له من قوة ونفوذ فلا بد من اتخاذ التدابير للفتك به.. ولا يفزعنك ذلك لأنه انصرف عنا فاستغنى عن مشورتنا وأنكر علينا حقوقنا وانتهك حرمة امتيازاتنا وغض من كرامتنا بما يستفزنا للدفاع عن حقوق طائفتنا. أما الوسائل التى سنتذرع بها لنيل هذه الأمنية فجائزة لا يحرمها شرع، لأنه لما كانت حقوقنا مستمدة من حقوق الآلهة فالكذب فى سبيل الدفاع عنها يجب اعتباره صدقا. واعلم انه إذا أفلتت أزمة الحكم من أيدينا ولم تكن لنا سيطرة فيها ولا نفوذ فقد سقطت مكانتنا إلى حيث تتساوى مع العبيد والأرقاء.

وافق جاجابو على هذا القول بإيماءة منه واستأنف أمينى حديثه متخيلا أنه

يخاطب الشعب فقال: لقد كنت مـولاى وسيدى فاحترمتك وأحببتك، فقف إذن على الأسباب التى دفعتنى إلى هذه الحرب.. لقـد رُبيت مع رعمسيس فى هذا الهيكل الذى قضت حكمة أبيه الملك سيتى أن يختلط فيه بسـائر أبناء طبقات الأمة. وكنا فى الآن الـواحد صـديقين وخصمين، ففى الدرس واللعب كنـا كفرسى الـرهان فى احـراز المكافـآت المقدرة للفائزين بالسبق. وكـان من أخص فضائله قـوة الإدراك وسرعة الخاطر، ولكنى كنت أمتـاز عليه بالمثـابرة على الإصغاء. وكـان محبا الحركة نـزقا بينما كنت ميالا إلى السكـون والرصانـة، وظل كل منا فى مدة التتلمـذ متصفا بهذه الصفات التى امتاز بها على نده. فلما أُلقيت أزمة الأحكـام إليه دفع بالبلاد إلى حرب الفتوح والتوسع فى الملك، فـأظفرها الإله بأعدائها إذ فازت فوزاً مبيناً فى وقائع كثيرة كان هــو بطلها المشــار إليه بالبنــان. فتفرغت للدرس والبحث فى التقـاليد القـديمة وأحـوال الأمم الغـابـرة فى أخلاقهم وسيرهـم، فثبت لى أنه لـولانـا معشر الكهـان لأصبحت مصر خرابا يبابا، إذ من هم الكهان؟ هم كل شىء فى العالم. وما هى المهمة التى وُكّل إليهم أداؤها؟ تسكين كل ثـائر وإرشاد كل ضـال. فالملك ذاتـه ليس هو فى الحقيقة إلا فرعـا من روحنا وقبسا من نارنـا وشعاعا من ضيائنـا، وإن يكن شيئا فبكونه الواسطة بيننا والأمة التى يحكمها بسلطان القهر والإرهاب. وهو إذا قاومنا فى أمر أو اعترض علينا أو عدل عن التماس مشورتنـا فى سياسته فليسقط من علياء عرشه. هذا ما كان يجب أن تكـون عليه الروابط بيننا والملك، وهو من الأصول التى حافـظ عليها سلفنا الصـالح من الكهـان. أما الآن فقد تبـدلت الحال غير الحال، إذ أصبحنا بأيدى الملوك آلة يتقـون بها شر الأمة، ولا سبيل الى أن تحترم الأمة أميرها القابض على زمـام الامور مالم تحترم الآلهة قبلـه. فإذن يكون الكهّان قـوام الملوك وعمادهم فيما يجرونه من الأحكام على رعاياهم. ولقد كان سيتى ملكا جريئا عزيز

الجانب مرهوبا ومحترما، لأنه كان موفقا للنجاح فى أعماله ولأن محاسن الفرص جاءت إليه منقادة فهمّ بانتهازها، وجرى رعمسيس على منهاجه فتراه شديد المحافظة على الصلوات وتقديم القرابين، حريصاً على صيانة الطقوس والتقاليد فلا يكف عن التنبيه على إشعال المصابيح وإحراق البخور فى المجامر والترنم بالأناشيد الدينية وتفسير الأحلام، إلى غير ذلك مما لا يسع سرده المقام. ولكن مع هذا كله أرايتنا ولاشىء عند الناس كلها أكبر منا قد صغرنا عنده حتى صرنا كلا شىء؟.

أرأيت كيف تهاون بنا وأصبح لا يعدنا شيئا ونحن نحن؟ أما ينبغى أن نكون منه بمنزلة المشير والناصح، بل أن نملى عليه أوامره وأحكامه! ولقد حاول الكاهن المحترم الذى حللت محله أن يفرض على سيتى الأول الأخذ برأيه من العدول عن ايصال بحر الشمال بالبحر الاحمر المدنس الماء[1] وجاهد عنده فى ذلك جهادا لم يقتنع معه بأن ذلك المشروع لا يعود بالفائدة على غير الآسيويين. وأنا.. هل تمكنت من حمل خلفه رعمسيس على إبقاء تقسيم مصر القديم إلى أقاليم كما هو والعدول عن تعديله، مع ما بذلت من شتى الوسائل لإقناعه بضرر التقسيم الجديد؟ وهل ازدجر بنصائحنا المتعاقبة حينما أثبتنا له ضرر تجهيز المعدات للقتال وتسيير الحملات لمحاربة كبار الأمراء والأفيال؟.. ألم يذهب به تجاوز الحد فى العدوان الى حشد عبيدنا وعمال أراضينا مخالفاً بذلك التقاليد القديمة والقوانين النافذة؟ ألم

---

(١) كان الفينيقيون قابضين على أزمة الملاحة فى البحر الاحمر الذى كان معروفا فى ذلك العهد باسم «البحر المغطى بنبات الديس»، وكانوا يتجرون فيه بالمواد العطرية المستوردة من بلاد العرب وبالذهب الذى كانوا يستوردونه من بلدة زفر(كان يقال إنها بلدة فى اليمن)، وقد خطر ببال الملك تيخؤس أن يجمع بين البحرين بترعة توصل أحدهما بالآخر ولكنه عدل عن هذا المشروع لان الكهان قالوا إن الهواتف أخبرتهم بأن فائدته ستكون مقتصرة على الأجانب دون المصريين، إذ يمكنهم من الايغال فى مصر والاستيلاء عليها «انظر الجزء الثانى من تاريخ هيرودت».

يخرج به الشطط فى الاعتقاد الدينى الى تشييد الهياكل لآلهة الشرق الكاذبة السفاكة للدماء، بعضها على سواحل البحر والبعض الآخر فى منفيس وطيبة! قال جاجابو: أصبت فما نحن الآن إلا كهانا بالاسم، يدل على ذلك ما قاله رعمسيس من أن مهمتنا دينية محضة يجب أن تقتصر على إعداد الناس للحياة الأخرى وأن عليه هو إرشادهم فى الحياة الدنيا. قال أمينى: أعلم أنه قال ذلك وهو بهذا القول قد أثم واعتدى. وهل نسيت أنه وأركان أسرته قد اعتدوا على حقوقنا وامتيازاتنا التى يتوقف على صيانتها مستقبل هذه البلاد، وهل أنا بحاجة إلى تذكيرك أن رعمسيس مدنس الأصل قذر الجرثومة؟ ألم يكن من سلالة أولئك اللصوص الذين انقضوا على بلادنا انقضاض النسور الكاسرة وانتشروا فيها انتشار الجراد الفاتك؟ ولقد صد أجداد أنى غارتهم الشعواء، ولكن جد الأسرة القابضة الآن على زمام الأحكام من أولئك العرب العمالقة أستأذنهم فى المقام مع أبنائه بوادى النيل فأذنوا له، فما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى فاز هؤلاء الأجانب المعروفون بالبسالة ولين الجانب، بالزلفى من الأمير الحاكم فتوجه الايثار منه إليهم وانبسط له الجاه عندهم، ومازالوا به حتى استقر نفوذهم على أسس متينة واستمالوا رجال الجند إليهم بإفاضة الأموال فيهم وسن الجوائز والصلات لهم فتمكنوا بواسطتهم فى النهاية من ثل عرش الاسرة الملكية السالفة وإلقاء سمائها عليها.. ولست بمنكر عليك أن جماعة الكهان الصادقين كجدك وجدى أخذوا بناصرهم وحوّموا عليهم لما جال فى ظنونهم من أن الأسرة الجديدة التى خلقت بهم ستعيد ما انطمس فى عهد سالفتها من معالم التقاليد القديمة. وليس هذا بالأمر المستغرب، فإن لنا فى غضون الأجيال المنصرمة أجداداً يفوقون المائة عداً أحرزوا جانباً كبيراً من النفوذ والسلطان فسارت بذكرهم الركبان، وأشير إليهم فى وادى النيل بالبنان.. وأن كهانا كثيرين غيرنا قد كرمت أحسابهم ورسخت أنسابهم.. ولكن كم لرعمسيس من الجدود يسمو بهم إلى ذروة الشرف؟. هب أن له عشرة جدود، ولكن بأى أصل يتصل أولهم

وأية دوحة هو غصنها؟.. ألا ينتسب إلى جرثومة (الآمو) تلك القبيلة المعروفة عندنا بخبث الطبع ودنس الأصل؟.. ألا يكون الأمير القابض على زمام الحكم الآن وهو ذلك المتهاتر الجزوع سليل الساميين.. إنه يسمينا بالفلاحين استخفافا واحتقاراً ونحن لا ذنب لنا ولا عيب علينا إلا أننا نقوم بأشرف الأعمال التى قام بها آباؤنا من قبل فى سكون ورضاء وصبر.. أما هو فليتماد فيما هو فيه من الحركة والانتقال ومتابعة الهوى بإضرام نار الحرب والقتال ومد الأيدى للنهب والاغتيال.. ومن غريب شأنه أنه كلما أشرفت خصوبة الأرض على النفاد لامناص له من مغادرة البلاد وانتجاع الوهاد والنجاد، مقتدياً فى ذلك بأبيه سيتى الأول.. يقيم فى طيبة يوما أو أياما أو شهراً أو عاماً ثم يفاجئك بشد الرحال قاصداً إلى قارة آسيا محط الآمال.. حقا قد كان الأجنبى ومازال سبب ما تعانيه مصر من صنوف البلاء، يعبد الأصنام والأوهام.. فليسقط ذلك الغاصب وليذهب هباء!

بادر جاجابو بمصافحة أمينى وصوّت: ليسقط الغاصب وليذهب هباء. قال أمينى: لا يذهب عليك أن آنى رُكّب من طينة مصر، فهو بيضة بلده وفتى قومه بل سلالة ملوكها الأولين. ولقد اشتهر بالدهاء والحيلة، ولكنه يحبنا ويحترمنا، وإذ كنت أدرى الناس بما يجعله من القيود وثيق الارتباط بنا، فقد عولت على تنفيذ ما عقدت النية عليه لتأييده. فهل لك فى مشاركتى لتحقيق أمنيتى؟ قال جاجابو: إنى مشارك لك قلباً وقالباً وسراً وجهراً. قال أمينى: هذا ما كنت أتوقعه من ودك القديم فعليك إذن بإضرام نار الحمية والحماس فى أفئدة أصحابنا، وتفهم الطلبة والمطلعين على الأسرار الكهنوتية أنه إذا أجيز لهم فهم ما يتهيأ الآن من الحوادث فليس لهم أن يفشوا سرها وإلا نزلت بنا وبهم الكوارث.

الفصل الثانى

«كيف كان الإله يعبر النيل.. فى عهد رعمسيس الجليل»

بزعت شمس اليوم التاسع والعشرين من الشهر الثانى التالى لفيضان النيل(١) فشوهدت عند أبواب أحياء مدينة طيبة وربوعها جموع من النساء بحلاهن متحليات، وأفواج من الرجال والأطفال والجند والعبيد ينتظرون بذاهب الصبر ساعة بزوغ الشمس. وكان الكهّان يتأهبون للتغنى بالأناشيد المقدسة وعامة الأهلين يستعدون للسير فى الموكب الدينى والطواف حول أسوار الهيكل المقدس وعبور النهر فى الزوارق والسير بعد ذلك صفوفا منتظمة فى الطريق الذى أقيمت على جانبيه تماثيل أبى الهول، مفضياً بسالكه إلى هياكل المقبرة. وكان من العادات المرعية فى هذا الاحتفال أن يُحمل آمون إله طيبة إلى مدينة الأموات ليقدم القرابين إلى آبائه الآلهة ويجعل نفسه قدوة لعابديه فى احترام الحياة الأخرى ومحبة الآباء. ولا عجب إذا رُتب الاحتفال على هذا المثال، فإن هذا الترتيب يشير إلى معنى جليل لا يعزب عن الأفهام. فقد جعلوا الضفة الغربية من النيل مستقراً للموتى يلتمسون فيه الراحة الأبدية، لأن الغرب تستتر وراءه الشمس الأفلة، تسبقها إليه فيه شموس وتتلوها شموس، كلها بنات الليل ومستحدثات الظلام. فالضوء الجديد يلبث

---

(١) هو يوم ٢٩ من شهر بؤونة وكان المصريون يقسمون السنة إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة أشهر وهى: فصل الفيضان وفصل البذور وفصل الحصاد، وتسمى باللغة المصرية القديمة (شا) و(بر) و(شيمو)، وكان الشهر الثانى من أشهر الفيضان يدعى بؤونة. وكان فى التاسع والعشرين منه يوم الاحتفال بعيد الوادى وهو يوافق ٨ نوفمبر من السنة الشمسية الميلادية

مغموراً بما انعكس من أشعة الضياء المستتر الذى استمد منه سناءه المتالق، وإنما يؤدى آمون فروض التمجيد والتكريم للشموس الآفلة كى يتعظ الأحياء به ويقتدوا بفعله فلا يمحو من صحيفة قلوبهم ذكرى الموتى الذين استمدوا منهم الحياة وفازوا بنعمة الوجود فى هذا الوجود.

على أن النصوص المقدسة صريحة العبارات واضحة المعانى فى هذا الباب، فقد جاء فيها أن الواجب تقديم القرابين لروحى الأب والام اللذين دُفنا فى القبر، لأن تمجيد الآلهة يقترن بتمجيدهما. وجاء فى تلك النصوص أيضاً أن الواجب على المرء أن يزور موتاه إذا أراد أن يحفظ أبناؤه ذكراه.(١)

هذا العيد السنوى للموتى لم يكن فيه شىء من شارات الحداد كما يوهم مدلول اسمه، إذ كان المحتفلون لا يبثون صيحات الحزن ولا يبكون. بل كانت وجوههم ناضرة ومخايل السرور على شمائلهم ظاهرة، لا تلهج ألسنتهم إلا بترديد آيات الحمد وإحياء ذكرى من طوتهم الأرض، بالمطارحة فى محاسن سيرتهم. وكانت الأسر تمد الموائد أمام المدافن والطرقات غاصة بالجموع، حتى كنت ترى الآباء والامهات والأطفال من الأسرة الواحدة متماسكين بعضهم ببعض، خيفة أن يضل أحدهم فلا يُعلَم له مستقر فى هذه السيول المتدفقة من الخلق. وكان العبيد يتبعون مواليهم حاملين على رؤوسهم ما يعوزهم من الغذاء وأدوات الاستصباح يسيرون على ضوئها فى كهوف المقابر ويهتدون بها فى الطريق لدى العودة. وكان لسراة المدينة وأغنيائها زوارق خاصة بهم نمّقوها بما يعجز القلم عن وصفه من

---

(١) انظر ملحوظات المسيو ماسبيرو على أوراق البردى الموجودة بمتحف باريس، وانظر أيضا ورقة البردى نمرة ٣ المحفوظة بمتحف مصر.

الزخـرف البديـع والتنسيق الإنيق. أما الفقـراء فكانـوا ينزلـون جماعات كثيرة فى القـوارب متـزاحمين مترا كبين بعضـهم على بعض حتى يبلغوا إلى الضفـة الأخـرى فينسابوا منها انسياب الماء من الجدول على بسيط الأرض.

وكان المحتفلون على تفـاوتهم فى المراتب وتباينهم فى الدرجات ينتظـرون بذاهب الصبر مرور الزورق المقل للإلـه آمون. ونذكر هنا أنه كان لا يـوجد فى أطفال طيبة طفل لا يقضى ليلـه مفكـراً فى جـلال هذا الـزورق وجمالـه معلـلا النفس بأمنيـة مشاهدته فى الغـد. ما ذلك إلا لأن العناية بزخرفته كـانت تتجاوز حد الإتقان، حتى كان يماثل الزورق الذهبى الذى يعبر عليه إلـه الشمس ورفاقه فى كل نهار أقيانوس السماء ذات اللون اللازوردى.

وكان على مدرج هيكـل آمون- المفضية درجاته إلى نهر النيل وتـرتطم بالأخيرة منها ميـاهه المشبعة بـالطمى- جم غفير من الكهان، وفى المسـالك المؤدية إلى الهيكل وعلى ضفة النهر أقوام لا يحصى عديدهم، شاخصة أبصارهم صوب جهة واحدة، كما كـان غيرهم ينسلـون إلى السـاحل مقبلين من كل فج وحـدب، لشهـود الموكب خارجاً من الهيكل فى جلال أبهته وعزة فخامته فلا يفوتهم هذا المنظر البديع المنقطع النظير، فخلت المدينـة من سكانها وكـادت الطرق تصبح قفـاراً والديار معطلـة من الأنيس. فلما أزف الموعد الموعـود والأجل المحدود لتحرك الموكب ولم يتحـرك بعد، أخذ الناس يتسـاءلون عن السبب لا سيما وقد كـانوا يرون فى الكهان قـوماً موفين بالعهد محافظين على الوعد، وأخذ الضجر يشملهم شيئاً فشيئاً حتى إذا لم تعد لهم طاقة على الصبر انتشر بينهم الخبر بأن سبب تخلف الموكب عن المسير غياب أعضاء الأسرة المالكة، وكـان من عادتهم فيـه الحضور للانبثـاث بين الجماهير والاختلاط

بأفناء النـاس والسير على الأقدام من القصر الملكى الى الهيكل الـربانى. وأُضيف الى ضجرهم ومللهم الانتظار التخبط فى تأويل غياب بنت أنـات عن الاحتفال وقد كانوا يرون حضورها من بواعث الكمال له والجمال.

وبينما القوم فى حيرة التساؤل إذا بأصوات الكهان يرن صداها فى الآذان، منبعثة من فناء الهيكل المقدس خلف الاسوار العالية. ولم تمضِ برهة على ختام هذا النشيد حتى اجتاز آنى بـابه فى موكب تحف به المهيبـة ويعلوه الوقار، لأنه مـا كاد يبلغ إلى هـذا البـاب حتى انشق سريعـاً عن مئـات من الأطفـال على صـدورهم الميـادع[1] وبأيـديهم الأزهار ينثـرونها فى كل اتجاه وصـوب أى نثـار، ليطأها السـائرون فى موكب الإله آمون. أما الروائح العطرية فكان يضوع شذاها فى جميع الانحاء يحملها إليها النسيم فيكـون لها فى الأنوف أحسن شميم. وكانت الآلات الموسيقيـة تصدح بألحان تهز النفـوس هزاً. وإن القوم لفـى مرح وحسن تطـريب وإذا بدوى شـديد تردد الآفـاق صداه من بعيـد، إعلانـا بتحرك مـوكب آمون فهـاج الناس ومـاجوا وأخذوا للقائه يستعدون ولم يظهر لبنت أنات أثر ولم يقع على موكبها نظر.

وتداولت الألسنة فى خلال ذلك عدة إشاعـات ذهبوا فى تأويلها مذاهب مختلفات، وأيّد خدم الهيكل صحـة إحداها، إذ أكدوا للسائلين أن الكهّـان قرروا منع بنت أنات من التطلع إلى تلك الاحتفالات. وما قرع دوى هذا الخبر آذان المزدحمين حتى تبرموا وعبسوا الوجـوه. وما هى إلا خلجة الخاطر حتى شهـدوا الأميرة بشرفات قصرها وإلى جـانبها الأمير راميرى ونيفـرت ينتظـرون سـاعة خـروج الآلهة للتفـرج على جماعات الناس وأفواجهم وهم بين غادٍ ورائح فى الطرقات المجاورة لمساكنهم.

---

(١) الميادع جمع ميدعو، وهو الثوب يُلبَس ليكون وقاية لغيره.

أما حـرمان الأميرة شـهـود الاحتفال فسببـه أن (بك آن شونسو) كـاهن هيكل آمون تعهـد بتطهيرها من الدنس، غير أنـه فى مساء اليـوم الذى جاء إليهـا فيه بهذه البشرى أخبرها أن الكـاهن الأعظم أمينى لا يسلم بدخول المقابـر قبل الحصول على العفو والغفران من آلهة الغرب. ثم اعتذر بأنه فى مركزه لا مفر له من إطاعة أمر هذا الرئيس، لأنها بـدخولها هيكل هـاتور فى حالـة دنس قد أثقلت أوزارهـا وضاعفت خطاياها. فلما سمعت بنت أنات هذا الكـلام استنجدت بالوالى آنى وسألته أن يلبى نداءها فـوعدها بذلك. غير أنـه تلكأ فى إنجاز وعده وظلت تنتظر حتـى إذا كان آخر الوقت أخبرها بأن أمينى ما برح وطيد العزم على حرمانها الحضور فى الاحتفال، ثم نصحها أن تذعن لأمره ولا تثير ساكن غضبه. ودنا القزم نيمو من نيفرت فى الوقت نفسه ليبلغها رجـاء والدتها راتوتى أن تحضر لزيـارتها، فأجابته بأنها لا تستطيع -بل لا تريد- مفارقة صديقتها الأميرة فى مثل هذه الظروف الخطيرة.

وكانت بنت أنات أذنت لكبار حاشيتها بزيارة المقابر وشهود الاحتفال وسألتهم أن يخصوها فى هذه الزيارة بصالح الـدعاء وطيب الذكر، وبعد أن قضت حصة من الـوقت فى استشراف الجماهير فى حـركـاتهم واختـلاطهم، عـادت من الشرفـة إلى حجرتها وأنحت على شقيقهـا راميرى باللـوم والتأنيب لأنه بسـوء تصرفه وطيش عمله جعل الكـاهن الأعظم يضطهدهـا ويتابعها بعـدائه الفادح، ثم أحـالت على هذا الكاهن بالتعنيف واستطالت فى سيرتـه وأساءت غيبته، غير أنها مع هذا قبضت على يدى أخيها وقالت لـه وهى تحنو عليه بقوامها اللدن: أى أخيـه! حيث إننا ركبنا معاً متن الشطط وسقطنا فى هاوية الغلط، فلنكفر عما فـرط منا بقبول ما حكم أمينى به علينـا. والرأى عنـدى الآن أن نمسك عما لا يجدى نفعـاً من الكـلام وأن تنتهج من الخطط والمسالك مالا يحيد عما كنت تنتهجه منها لو كان والدنا حاضراً.

فاجهش بالبكاء واندفع يشهق ثم صاح عالياً: لو كان أبى هنا لما اجترأ أمينى على هذا الهذيان وأفاعيل الصبيان، بل لخلع عن كتفيه فروة الفهد وأخلى منصبه لمن يصون كرامة الملوك ويحفظ العهد.. سوءة له! كيف يعاملك بهذه الإهانة؟ قالت هدىء روعك يا أخى، وقل لى أتذكر أنك كنت لاتزال طفلا لما شهد والدنا هذا الاحتفال لآخر مرة؟ أجاب: نعم أذكر، وما كان أجملها من صبيحة قضيناها فى سرور وابتهاج! قالت بنت أنات: وأنا كذلك مازلت أذكرها بما جمعت من أسباب السرور والاغتباط. لقد كنا آنئذ أطفالا وكانت الزينة التى أقمناها مما يبهر الأبصار ويأخذ بالألباب، وكنا جميعاً جلوسا فى البهو الملكى الكبير فدعانا والدنا ثم أخذ بيدنا إلى حجرة والدتنا المغمورة برحمة الآلهة، وكان لم يمض على وفاتها زمن طويل، فقال لنا بصوت الحنان والرفق إنه قد عفا عنا وتجاوز عن سيئاتنا تلقاء ما أظهرناه من الندم على ارتكابها والحذر من السقوط فيها مرة أخرى. ثم قبّلنا بين عينينا وجذبنا إليه بيديه الكريمتين قائلاً بصوت الشفقة: لا أكون ذلك الملك الجبار العظيم رعمسيس إذا ألحقت بكما ذرة من أذى ولم أسلك معكما مسلك العدل.

وما سمعنا منه هذا القول حتى ألقينا بنفسنا عليه وأخذنا نقبّله قبلات الاعتراف بالجميل، فدفعنا عنه بلطف وهو باسم الثغر وقال لنا: لقد كنت ولازلت احبكما حباً جماً وأسوى بينكما فى هذا الحب، وإنى لموقن أنكما تقابلانه بمثله لى. ثم جاذبنا الحديث فى والدتنا ونوه بذكرها وأطرى فضائلها وحثنا على الاقتداء بها وانتهاج طريقها ووعدنا باصطحابنا لزيارة قبرها وتقديم الهدايا والقرابين إليها. وتكلم بعد ذلك على ندرة الفرص المتاحة للمرء يقيم بها الدليل على براعته وشجاعته، وعلل ذلك بقلة الحوادث الجليلة والأخطار الجديرة بالاقتحام، وبأن الحياة سلسلة حلقاتها الحوادث المألوفة، تتألف منها كما تتألف السنوات من

انضمام الشهور والساعات، والساعة بالساعة والشهر بالشهر أشبه من الماء بالماء، فإن اتخذتم لتافهات الحوادث من ثبات وجلد تلقيتم كبارها من غير خوف ولا اكتراث. ولما جاء والدنا على ختام أقواله الحكيمة تصافحنا وتعانقنا متعاهدين على اتخاذه إماماً لنا فى أعمالنا. وأذكر أنى ما كنت فى وقت أرحب صدراً ولا أهدأ بالا منى حينما شنف والدنا آذاننا بهذا الوعظ البليغ على مقربة من قبر والدتنا.

فشخصت نيفرت فى بنت أنات بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت: إنه لهين على المرء كسب المحامد والفضائل إذا بلغ والده مثل هذا المبلغ من الرفق واللطف فى النصح. سألت بنت أنات: ألا تذكرين يا نيفرت أن والدتك أطربت سمعك بمثل هذا القول فى صبيحة تلك الأعياد؟ أجابت وقد علت وجهها حمرة الخجل: كلا ،لأنها كثيراً ما كانت تخطىء موعد الاحتفال لقضائها الوقت فى تسوية شعرها وزينة نفسها فلا يكون لها هم ولا وكد إلا سرعة الوصول إلى الهيكل. سألت بنت أنات: أتأذنين فى أن أحل اليوم منك محل والدتك.. وأنت يا راميرى هل تعلم أن والدنا كان يعفو عن ضباط جيشه، ويصفح عن حاشيته وخدمه وعبيده، ويحضهم – كما كان يحضنا – على الاستمساك بعروة التقوى والصلاح واستلال الضغائن والأحقاد من القلوب؟.. ألم يكن من كلمه المأثورة قوله «لا يكفى المرء لبس الثياب الناصعة البيضاء، بل يجب أن يكون قلبه أرق من النسيم وأصفى من الدمع»؟.. فواجب عليك يا شقيقى أن تكف عن لوم أمينى وسبه والحنق منه، فإنما هى القوانين والأنظمة تطالبه بالشدة فى تطبيقها. ولا يغيب عنك أن والدنا سيقف على ما دار بيننا وبينه من الحادثات، وله وحده حق الفصل بآرائه السامية وحكمته البالغة فيما شجر من الخلاف.. آه.. إنى يا عزيزى راميرى ويا عزيزتى نيفرت أشعر بقلبى يفيض حنانا ورأفة، فليأت كلاكما ليقبلنى ولنذهب بعد ذلك إلى المصلى حيث نمتع النظر

باستجلاء تماثيل موتانا الأعزاء الذين لم أحظ بتقديم القرابين إليهم فى هذا اليوم النير المقدس.

قال راميرى: سأصحبك إليه يا شقيقتى. قالت بنت أنات: أما أنت يا نيفرت فالزمى مكانك لتجنى من هذه الأزهار الزاهية النضرة باقة جميلة نعهد إلى بعض الأتباع وضعها على قبر والدة قرينك مينا. قالت هذا وانطلقت نحو المصلى مع أخيها، ثم عاد الاثنان بعد ساعة فوجدا نيفرت قد ضفرت أكليلين من الزهور انتوت إهداء احدهما لوالدة مينا عملا بإشارة نبت أنات والثانى لوالدة الأميرة. فلما علم راميرى بقصدها قال: سأتولى أنا وضع الأكليلين على القبرين. فسألت بنت أنات: وكيف تكون الحال لو شهدك أمينى وهو الأمر بمنعنا من دخول الهيكل؟ أجاب راميرى: لن أذهب إلى ذلك المكان بزيى وشارتى الحاليين، بل متنكراً بزى صبى بستانى. أتسمعين صوت البوق المؤذن بخروج الإله من الهيكل؟ قال هذا وهرول نحو الشرفة فاقتفت نيفرت وبنت أنات أثره، وتمكن الثلاثة من شهود الاحتفال كما لو كانوا فيه حاضرين.

قال راميرى: إن هذا الموكب لطالع شؤم ونحس مادمنا نحن ووالدنا غير موجودين به.(١) ولاريب أن تجرده من مظاهر الأبهة والجلال عزاء لنا عن عدم مثولنا فيه بأزيائنا الجميلة يحيط بنا الحراس والغاشية، ولكن عزف هذه الموسيقى جميل جداً.. وها أنذا أرى هناك حملة الأقلام والمنشدين والنبى الأول للهيكل الأعظم وهو الكاهن (بك آن شونسو) الذى تحف به المهابة ويحدوه الوقار، غير أن

(١) استدل الدكتور ايبرس فى وصف هذا الموكب بالنقوش الممثلة للاحتفال بعيدالدرجات فى مدينة آبو.

علامات التذمر بادية على وجهه، وهـا قد أوشك الإله أن يظهر لأن رائحة البخور قد بلغت إلينا محمولة على أجنحة النسيم.

قال الأمير هذا وجثـا على ركبتيه فاقتدت به الأميرة ونيفرت، وكـان نظرهما قد وقع على ثور تنعكس أشعة الشمس على جلده الأملس البراق، وبين قرنيه إطار ذهب خالص يعلـو حافته ريش النعام الأبيض وتـلاه حملة المراوح فالإله آمـون، لا يكاد النظـر ينفذ إليـه لكثرة مـا كـان يحول بينهما من المرواح المتخذة من ريش النعـام الأبيض والاسـود مثبتة بأطـراف قضبان من الـذهب. وكان مسـتـويا على عـرش منصوب على مصطبة مفـروشة بقماش مسدول وموشى بأسـلاك الذهب ومزين بأكـاليل الأزهار الغضـة، يحمل ذلك كله على أعنـاقهم جماعة من الكهـان يسيرون الهوينا بخطـوات مقدرة، ينبعـث من المجامـر حولهم دخـان البخور فينعقـد فوق رؤوسهم. وما وُضع الإله فى وسط الزورق -الذى بلـغ الغاية من الزخرف- حتى وقفت جموع الجماهير عل الأقدام بعد إذ جثوا طويـلا. ثم توارد بقية الكهان يحمل بعضهم فى صندوق مبرقش بالألـوان شجرة آمون المقدسـة التى لا تذوى. وجاءت بعقبهم فرقـة موسيقية ثم جماعـة من الكهان يحرقون البخور فى المجـامر فتنتشر ريحه فى أرجاء الفضاء.

تنفست بنت أنات الصعـداء عندئذ وقالت: لـو كان والدى حـاضراً لبرز للنظارة بعد الإلـه فى موكب حفيل جليـل. قال راميرى مكملا: ثـم لتلاه موكبك يـا شقيقتى العزيزة، فموكب مينا ورجـال الحرس. ولكن هاأنذا أرى الآن بدلا من ذلك كله العم آنى سائراً على القدمين! وما أغرب الزي الذى بـرز فيه يريد أن يحاكى به أبا الهول. فسألته نيفرت: وما تعنى بهذا القول؟ أجاب باسما: إن أبا الهول حيوان بجسم ليث

وراس إنســان، ولكن عمنا آنى قــد تدثــر بأمساح الكهــان التى هى رمز السكــون والسلام، ثم غطى رأسه بخوذة الجند. قالت نيفرت: ليت الملك حاضر، إذن ما اجترأ أحد أن يحرمك المشاركة فى هذا الاحتفال. قال راميرى: الحق أولى بأن يُتبع، لو كان والدى حاضراً لتغيرت معــالم هذا الاحتفال، إذ كان لابد له من الجلــوس على عرشه الذهبى وخلفه تمثــال الحقيقة والعدل حفيظين عليه، وفوق رأسه الظلــة المزخرفة. انظـرى يا شقيقتى هــذا الجم الغفير من المنجمين والكهّان الــذين يحملون الأعــلام وتماثيل الآلهة، انظرى قطعــان الماشية التى تتبعهم لتُقــدَم قربــاناً. أفلــو كان الملك والدنا حــاضراً ،أما كان يتجاوز عدد هــذه القطعان أضعاف ما هــو عليه الآن؟ وأما كانت الوفــود تترادف من أقصى الأقاليم لأداء ما يجب لمقامــه السامى من التبجيل والتعظيم؟.. إنى لم يغب عنى شىء من دقائق الاحتفــال حتى الشعار المرسوم على الأعلام[١] ، وهل تعــرفين من هم جــدود الملك والــدنــا الــذين تمثلهم تلك الصــور والأشكــال؟ أظنك لا تستطيعين التمييز بينهــا لبعــدهــا عنك.. أما أنــا فأعــرف من تمثلهم.. أرى أن الصورة الأولى تمثل (أحمس) الأول الذى طرد من أرض مصر قوم العمالقة الــذين يُمُت إليهم والدنا بصلــة، ولا تمثل جدى سيتى الأول تمثيلا تــاما. أرأيتِ الجنود؟.. لعلهم ممن عادوا من الحبشة ظافرين ودخلوا بالأمس مدينة طيبة فرحين مستبشرين.. ما أجمل هــذا الاحتفال! ما أحسن هذا الاستقبال! مــا أشد هذا

---

(١) كان لكل مركز من مراكز مصر شعار خــاص به يُرسم أو يطرز على الأعلام التى كانت ترفع فى الاحتفــالات والمواكب العموميــة، وكانت تُــرى فى عهــد سيتى الأول ببلدة آبيــدوس «العرابــة المدفونــة» خافقــة تتضمن أسماء المراكز والأقــاليم . وتحتوى النصوص التى كــانت تستعمل فى هياكل دنــدره وانس الوجود لتفسير قــوائم الأقاليم ببيانات مفيــدة تتعلق بالأنظمة السيــاسية والدينيــة لكل إقليم. وقد وصــف مــاريس وبروكش ودوميشن ودى روجيــه وادى النيل وصفا جغرافيا دقيقا.

التصفيق! إن الجيش لجدير به وحقيق! لأنه سلك مسلك الشجعان وثبت فى مواطن الجلاد والطعان. وإذا كان استقبال الأهلين له على هذا المثال من الفخامة والجلال فكيف يكون استقبالهم إذا عاد والدى الهمام وحوله من أسرى الملوك مائة بالتمام، وكان يدبّر سير موكبه المنيف قرين نيفرت مينا ذو الأصل العريق الشريف؟ إنى أرى من هذا المكان جميع أصدقائى والخلان ، وأكابر رجال الدولة تبدو على وجوههم أمارات العز والصولة .

ما سمعت نيفرت ذكرى قرينها حتى تنهدت وقالت: وا أسفاه! وا حر قلباه! ما برح ميعاد عودتهم إلينا بعيداً . وكان الموكب لا يزال يمر فى مجال أنظار الناظرين كأن لا نهاية له ولا ختام، إذ كانت الجنود تتلو الجنود بأشكالها المتباينة تتخللها الفرق الموسيقية وتتبعها الحيوانات النادرة(١) ، يمسك بأرسانها وأزمتها العدد العديد من العبيد. أما زورق الإله آمون فكان فى هذه الاثناء بلغ إلى منتصف النهر ، فبدا لانظار الجموع المتزاحمة على الضفتين كالعروس تتهادى فى أبهى حلة وتختال فى أجمل زينة، لأنه كان مصنوعا من الخشب المصقول المطلى بالذهب ومرصع الحافة بكرات بلور(٢) لونها كلون الزمرد والياقوت. وكانت سارياته مموهة بالذهب وشراعه من الحرير القانى ومقاعده من العاج المصقول بلونه الجميل

(١) وصف يونانى يدعى راليكسونوس شاهد هذه الاحتفالات الحيوانات الأجنبية التى كان يجلبها المصريون من الخارج ليتزين بها احتفال أمر بإقامته (بطليموس فيلادلف) أو (فيلو ذوفوس بن سوط)، وهو بذلك قد أحيا عادة سابقة تشهد بوجودها كتابات ونقوش الأسرة الثامنة عشرة فى قبر (رش مارا)، انظر صفحتى ٤٦ و٤٧ من كتاب «المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية» تاليف معرّب هذه الرواية.

(٢) وجدت فى المتحف المصرى ضمن مجموعة (مينو تولى) ومجاميع أخرى غيرها أنواع كثيرة من الأحجار التى صُنعت تقليدا للأحجار الكريمة. ويقول العارفون إن أمهر الصنّاع فى العصر الحاضر يعجزون عن صناعة مثلها فى إتقان التقليد.

وأكاليل الـورد والزنبق متعانقة متـزاوجة فى حبال السـاريـات بشكل جميل ومثال أنيق. أما سفينة الوالى فكانت تتلألأ بانعكاس أشعة الشمس على رسومها ونقوشـها الذهبية. وكانت مفروشة بالطنافـس البابلية الثمنية النادرة، وفى مقدمها رأس أسد من الذهب، فى موضـع العينين منه حجران كبيران من الياقوت كسفن الملكة حاتاسو. وما كـادت السفينة المقـدسة المقلة لـلإله آمـون والكهان– الـذين أخذوا مجالسـهم فيها– تصل إلى الضفـة الأخرى حتى تهافت أخـلاط الزمر على النـزول فى القوارب والزوارق الأخـرى التى غصت بهم ، إلى حـد كان يخشى معـه عليها الغـرق . وقد بلغت هـذه الـزوارق عـدداً لا يُـحصى وانتشرت فـوق سطح النهـر حتى لم يعـد الراؤون يرون مـاءه من خلالها ولا أشعة الشمس تنعكس عليـه لاتصالها بعضـها ببعض واختفاء سطح الماء تحتها.

فلما شهد راميرى هذه الجلبه قال: لقد تهيأت لى الفرصة فلابد من اغتنامها. لقد اعتزمت التنكر بزى بستانى لاجتياز النهر ولترصيع قبور الأجداد بأكاليل الزهر . قالت بنت أنـات: أوَ يرضيك أن أبقى وحيدة مع نيفرت ؟ أجـاب بصوت المبتهل : لا تملئى فؤادى حزنـاً وشجواً يا شقيقتى، فقد كفانى مـا لقيته . قالت الأميرة : اذهب أنى شئت، ولو كـان والدى هنا لاستطعت مرافقتك. قـال راميرى: وما الذى يمنعك منها مادام لا يعوقك أنت ونيفرت عن التنكر مثل عائق قاطع؟

فنظرت بنـت أنات لنيفرت بعين المستفهم وقـالت: إن هذا لضرب مـن الجنون. فهزت نيفرت رأسهـا بما يفيد اقتداءها بها فى كل عمل. فـادرك راميرى مغزى هذه الإشارة وقال وقد تهلـل وجهه فرحاً واستبشاراً: هيا بنا ، فإنـه لم يبق أحد– ولو كان ابن شحاذ– إلا وقد برح داره اليوم ليلقى أكاليل الازهار فى الهاوية التى غُيبت

فيها جثة والده، فكيف يليق بأولاد رعمسيس وقرينة مينا الطاهرة الذيل التقصير فى أداء هذا الفرض المقدس؟ وكيف لا يحق لهم وضع الأزهار على قبور موتاهم الأعزاء؟ فما سمعت بنت أنات هذه الكلمات حتى احمر وجهها خجلاً وقالت: إن فى وجودى بجوار القبور ما يدعو إلى تدنيسها . فمد الأمير راميرى ذراعيه لعناق شقيقته وقبّلها بين عينيها قائلا : أمثلك مَن يدنس القبور! ... أنت التى خلقها الله لتخفيف ويلات المنكوبين وتجفيف دموع الباكين بحسن العزاء ومقبول الدعاء ! .. أنت التى بصورتها الفاتنة ومخايلها الطاهرة تذكّرنا بصورة والدنا الكريم ؟.. أممكن أن يكون مثلك – أنتِ أيها الملاك – مدنساً ، يقذر بلوثه ويلطخ برجسه الموتى؟ .. إذا سلمت بالمستحيل فقلت إن البجعة الناصعة البياض التى أراها هناك حالكة السواد كالليل البهيم أو الغراب الفاحم اللون، وأن هذه الورود الزاهية الألوان التى نُمقت بها شرفة القصر وامتلأ بعبقها كل مكان ليست ورودأ بل هى نبات الشكران، فأهون على نفسى التسليم بهذا الزعم من أن تتخيل لحوق الدنس بك . وبعد فهل أنت مدنسة ؟ .. ألم يطهرك الكاهن (بك ان شونسو)؟ وإذا كان أمينى.. قاطعته بنت أنات: لقد أصاب أمينى الحق فى فعله . وأولى بك أن تفكر فيما نحن فيه لا أن تذمه . قال راميرى ساخراً : نعم أصاب أمينى وأجاد وأتى بما فوق المراد، وإنى لمالئه على القول بدنسك وبأنه لا يجوز لك غشيان المقابر ولا الهياكل ، ولكن أهناك ما يحول دون امتزاجنا بأخلاط الزمر؟ أم هل للطرقات فى تلك الجهات حاسة شم تتبين بها طهر الإنسان ودنسه ؟ أما هى نفس الطرقات والمسالك التى تطأ ثراها صباح مساء أقدام المحنطين وغيرهم ممن ضُربت عليهم الذلة والمسكنة لدنس حرفتهم؟ .. زنى كلامى يا أختاه بميزان العقل واعرضيه على محك النقد الصحيح واعدلى عن عزم البقاء فى هذا المكان وتعالى معى إلى حيث ترمى بنا ظروف

الحدثـان .. تعالى نتنكـر ، فإذا انطلت الحيلة ولم يتعـرف علينا أحـد جعلت نفسى مرشداً لك وهديتك السبيل . عندئذ نضع أكاليل الزهور على القبور ونصلى للموتى، ثم نتبع الموكب فنسمع الخطب ونمتع الطـرف بعجائب أصحاب المعجـزات ، ولابد لبنطاؤر بالـرغم مما دهى به أن ينبرى للخطابة . ولا يـذهبن عليك اعتقاد أمينى أنه متى تكلم خلب المسامع بسحر بيـانه وأطرب الأفئدة بالأناشيد المقـدسة. فهيا بنا.. هيا يا أختاه لشهود الاحتفال. قالت بنت أنات فجأة : هلم بنا إلى الامام؟

مـا سمع راميرى هذه الكلمـة حتى اعترتـه دهشة السرور لاجـابـة أخته طلبـه وتحقيقهـا متمناه. أمـا نيفرت فنظـرت للأميرة بعين المستفهم المستثبت ثم حـولت وجههـا إلى جهة أخـرى، بعد إذ أيقنت تـوله فـؤاد بنت أنات وأنها دخلت فى زمـرة العشاق المستعرة قلوبهم بنار الأشواق.

الفصل الثالث

«وقائع أميرتين وشاب اقتحم الأهوال.. فصار من الأبطال»

لم تمضِ ساعة من الزمان حتى كان ثلاثة أشخاص متنكرين بثياب خالية من الزخرف يجتازون نهر النيل، امرأة معتدلة القوام تبدو على محياها سمات الهرم إلا أن فى رشاقة قدها ولين أعطافها ما يدل على فتاء السن. وشاب أسمر نيفرت وغلام يناهز الخامسة عشرة من العمر. وكان يتعذر على المتوسم فيهم التسليم بأنهم بنت أنات ورراميرى ونيفرت الذين أتقنوا التنكر بتغيير أزيائهم وألوانهم حتى لا يرتاب أحد فى أمرهم.

فلما بلغوا إلى الضفة اليسرى من النيل أشارت بنت أنات إلى اثنين من أتباعها أن يدنوا منها. فلما فعلا سارّتهما بكلام ثم صرفتهما فذهبا بعيداً عنها وأخذا يقتفيان أثرها بحيث لا يتوهم أحد أن لهما علاقة بها. ولم يكن الثلاثة قد تمكنوا من عبور النهر إلا بعد ما ذاقوا من المشاق ما لا يذوقه عادة غير العامة والافناء، ذلك لأنهم لم يكونوا التمسوا دليلا ليفسح لهم الطريق كالمعتاد أو يمنع الزوارق الأخرى من مسابقة زوارقهم ومزاحمتها فى الوصول قبلهم إلى الضفة الغربية من النيل. ولم يكن على أحد فى ذلك حرج لأن الظروف قضت بأن يجهل الطرفان أحدهما الآخر بهذا المثال. وما نزل الثلاثة هذه الضفة حتى كان الموكب بلغ الى هيكل سيتى ودخل فيه.

وكان الكاهن الأعظم واقفاً على ضفة النيل لاستقباله، يحف به الكهان والمنشدون وأنبياء مدينة الأموات الذين سارعوا إلى وضع الإله آمون فى سفينة سام

المصفحة بالفضة والذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة . ثم تقدم ثلاثون خادماً فحملوا السفينة على الأعناق لينقلوها إلى صدر الهيكل حيث تقام الصلوات الدينية. وكان المشرّحون يركعون أمامهم وينثرون يمنة ويسرة فى الطريق شذور الذهب[١]. وكان نواب الأقاليم ووفود المراكز أفواجاً وشتاتاً فى فناء الهيكل يستعدون للقاء الإله وتقديم ما جاءوا به من الهدايا والقرابين إليه. وبعد أن قاموا بهذا الفرض المقدس تحرك الموكب من الهيكل سائراً فى الطريق التى اعتاد السير فيها كل عام وهى الآخذة من الشمال إلى الجنوب. فلما دنا من مدخل هيكل أمينوفيس الثالث الذى نُصب أمامه تمثالان هما أكبر تماثيل وادى النيل حجماً وأعظمها روعة، قصد إلى هيكل تحتمس الأكبر[٢] ثم قفل راجعاً ، مقتفياً فى سيره السفوح الشرقية من جبال ليبية، وهى السفوح الصخرية الصلدة التى نُقبت فيها القبور على شكل يجعلها شبيهة بخلايا بيت النحل[٣] ثم صعد إلى سطوح هيكل حاتاسو وانحدر منها إلى السهل المجاور لقبور الملوك السابقين[٤].

ولما آذنت الشمس بالمغيب كان الموكب قد بلغ مقر الاحتفال بالقرب من مدخل الوادى المؤدى إلى مقابر سيتى، وفى نهاية قبور الأسرة الملكية التى اغتصب زمام الحكم من يدها . وكانت العادة فى زيارة هذه القبور الاستضاءة بالمصابيح والمشاعل قبل رجوع الإله إلى الهيكل وأن يبدأ بالتمثيل قبيل نصف الليل فوق

---

(١) هى المعروفة اليوم باسم قرنة موارى.

(٢) هى المعروفة اليوم باسم الأساسيف ودار أبو النجا

(٣) انظر صفحات ٨٨،٨٥،٤٣،٤١ من الجزء الأول من كتاب بابرونى المسمى «ايبرى جركس رجى تورنن سيس»

(٤) هى أقدم جزء من هيكل مدينة آبو، ولا تزال محفوظة لم تعتد عليها عوادى الدهر.

البحيرة المقدسة جنوبى مدينة الأموات. وكان قلب الحمل المقدس، أثناء سير الموكب، فى إناء من البلور مثبت بطرف قضيب طويل يحمله رجل يتبع زورق الاله ، وقد روعى هذا الترتيب لتقع عليه أنظار الجموع المحتشدة لشهود الاحتفال.

أما بنت أنات ورراميرى ونيفرت ، فقد تهيأت لهم بتدابيرهم الأسباب لوضع الزهور على قبور الأجداد دون أن يتنبه لهم أحد، ثم اندمجوا فى الجماعات التى كانت تقتفى أثر الموكب، وظلوا سائرين حتى بلغوا إلى كهف جدود مينا الذى شاده والد جده (نفر حوتب) وقتما كان نبياً لهيكل آمون. وكانت رحبة ذلك الكهف غاصة بالناس يتسمعون فى سكينة وخشوع صوتاً منبعثاً من الداخل ، هو صوت شاعر ينشد نشيداً نظم لآلىء ألفاظه ودرر معانيه شاعر ممن عاصروا ذلك النبى، تعظيماً لمقامه وترفيعاً لقدره ، لأنه أوقف قطعة أرض لينُفق من ريعها على من يقوم بترتيل ذلك النشيد فى كل عام لمناسبة الاحتفال بعيد الموتى ، وحتى لا يعتور معانيه تحريف نُقشت عبارته على الصخر لتدوم بدوامه ما كرّ الجديدان وتعاقبت النيران.

وكان مينا يترنم فيما مضى بأبيات هذا النشيد الحسنة الانسجام، وكانت نيفرت تتابع نغماته بالإيقاع على العود . وليس فى هذا ما يستدعى العجب لأن المصريين كانت تدفع بهم الفطرة إلى مزج الأفراح بذكرى الموتى، وهذا الدافع الغريزى نفسه هو الذى حمل بنت أنات ونيفرت ورراميرى على الوقوف لسماع النشيد الذى نورده هنا بمعناه.

«أيها الميت الشريف ذو المقام المنيف! لقد لجأت إلى الراحة الابدية والسعادة السرمدية ، وتجلت لك حقيقة الأشياء بأسبابها بعد أن عزّت على طلابها ، وتأكد أن أحداً من البشر لا مفر له من يد القدر ، بل لا مناص له من محتوم القضاء لأن

الارض طـريق السماء. لقد آذنت الشمس بـالأفول وأمست فى دنـو أجلها كـالشيخ الكهول، فيا أيها الكوكب البهى السـاطع والجرم العلوى اللامع: لقد أقمنا لك شعائر الاحتفال على أحسن مثـال. فلا غرو إذا تعـاقبت الأعياد على توالى العصـور تعاقب الليل والنهار، وأطرقنا الرؤوس برهانـاً على الخشوع والوجل لتودع قلوبنا الامل، وسكبنا مـا عندنا من الـزيت وزيادة تفاؤلا بـالحسنى والسعادة، وطرحنـا أكاليل الـزهور على هـذه القبـور، التى غُيب فيهـا خير الأهل والاقربـاء وأعـز الأصدقـاء الأوفياء، فتقبل إلهنـا هذه الروائح العطـرية التى تسطع إجـلالا لقدرتك الربـانية، واطرح على وجـوهنا شعاعاً من ضيـائك المتألق ليظهر ما عليها من الـدمع المتدفق، واجعلنا فى موئل من صواعق غضبك والانتقام فإنها تمحق القلوب الضالة فى حالك الظلام. أيها الآلهة السـاكنون فى منـازل السلام والسكـون تقبلوا دعـاءنا حققـوا رجاءنا، كـونوا لنا أدلاء وأصدقـاء أوفياء، يوم السفر إلى المحشر، يـوم الرحيل الى الحظيرة الربانية بالضفة القدسية» .

فلما أمسك المنشدون عن النشيد أخذ جمهـور السامعين يلقون على المصلى نثار الأزهار، إشارة إلى ما يداخلهم من الفرح والاستبشار. أما راميرى ونيفرت فنزلا الى كهف الموتى، فأخذت نيفرت تصلى وتلتمس من أرواحهم أن تصـون حياة مينا من غـدر الزمـان وطوارىء الحدثـان. ثم وضعت بـرفق ولطف أكليلا من الـورد على التابوت الذى يحتوى جثة والدته. وحدث فى غضون ذلك أن فريقا من رجال البطانة الملكية مروا بالأمير راميرى والأميرة بنت أنات دون أن يعرفوا منهما أحدا وازدحم الناس ازدحاماً اضطر الأميرة ونيفرت مراراً إلى اللوذ بالكهوف الموجودة بالطريق. وكان أغلبهـا سـاطعـاً بالأنوار يتهـافت الناس على غشيـانها أفواجـاً حاملين معهم الشواء والفواكه والنبيذ والجعة. وليس فى تقديمهم هذه الهدايا ما يستدعى العجب،

فليس الموتى بحسن العقيدة المستكنة فى نفوسهم إلا قوما رحلوا الى بلد مجهول، هم فيه أحوج من سواهم إلى الزاد اللازم لصيانة حياتهم وحفظ دمائهم فى هذه الرحلة الطويلة.

كانت الشمس تهوى إلى الغروب حينما مُدت على مشارف الساحة التى أقيمت بها الحفلات الموائد ورُصت عليها ألوان الطعام وما تشتهيه النفوس من الحلويات اللذيذة على اختلاف أشكالها والفواكه الطريئة من تين وأعناب وتمر ورمان، وصُفت على موائد غيرها ألوف الصنوف من الأحذية والأنسجة والعطور والمراوح ومواد الزينة والزخرف وأدوات القرابين ووسائل التجمل والتزيين ، فما هى الا ساعة حتى خلت الأوعية الشاملة لتلك المعروضات مما فيها لإقبال الناس على شرائها وتنافسهم فى اقتنائها، وتهافت الناس حول موائد اللعب وبيع السوائل المخمرة والمشروبات المخدرة. وكانوا يتلاقون فى الطرقات فيسوق أحدهم للآخر مثلا من أمثال الحض على التقوى أو حديثا من الأحاديث الموضوعة للحث على الاحسان والخير . أما الأطفال فكانوا يتبعون والديهم ويشيرون إلى ما يروق لهم من الحلوى المعروضة والأحذية التى كسبت فى اللعب ، ويتكاثرون بما معهم من الحلقات النحاسية التى وُزعت عليهم للإنفاق والتنعم. وكان أرباب المعجزات فى بيت سيتى يستهوون الجموع ويستدرجونهم إلى الالتفاف بهم بما كانوا يعرضونه عليهم من غرائب الحيل. وكانت حلقة الجمع إذا صفقت استحساناً لمعجزة، توارد المارة حولها لاستطلاع الخبر. فلما مرت بنت أنات بهذا المكان كانت الحفلات الدينية قد انتهت، وبدت لأنظار الناظرين الظلة التى اعتاد الملك وأعضاء أسرته الجلوس فى ظلها أثناء الاحتفال. ولكن لم يكن أحدهم جالساً تحتها، وإنما الذى اغتصب حق الجلوس فيها هو الوالى آنى تحف به هيبة الملوك، غير أن الكراسى التى صُفت إلى

جانبى عرشه كانت خالية من الجلساء فضاع منها الرونق والرواء.

فى هذا المكان المعظم وتحت تلك الظلة الملكيـة الجليلة نهض أمينى الكاهن الأعظم واقفاً وأعلن للشعـب معجزة قلب الحمل والاهتـداء إلى عجل أبيس جديـد فى قطعان ماشيـة الوالى آنى. وقد تـداولت الألسنة الخبرين وأخذ الـوف الناقمين على الأسرة المالكة يفسرون خطبته كلمة كلمة ويحملونها على معانى كثيرة ويذهبون فى توضيح غوامضهـا مذاهب شتى ، ولكنهم أدركوا بالـرغم من هذا التباين مغزى قـوله «إن معجـزة قلب الحمل وسهولـة الاهتـداء إلى عجل أبيس فى قطعان الـوالى آنى فالآن مبشران بدخـول مصر فى دور جديد من السعـادة والطمانينة اللتين حُـرمتهما منذ عهد بعيـد» ، إذ حولوا أنظـارهم جميعاً نحو الـوالى وقد أدركوا أنـه المقصود بهذه الإشـارة المبهمـة. أمـا بنطـاؤر فكـان انتهى من إلقـاء خطبتـه لما بلغت بنت أنـات ورفيقاها سـاحة الاحتفال، وقد صـدمت فى سيرها شيخا قـوس الهرم ظهره كان يحدّث ولده الواقف إلى جانبه بقوله: مـا أمر علقم هذه الحياة! .. كثيراً ما خطر لى أن أطـرح هـذا العبء الثقيل الذى أرهقت الآلهة بـه عـاتقى، وهـا هى المرة الاولى التى سمعت فيها الكـاهن الشاب يقول مـا فهمت منه أن الآلهة يعـاملوننا بـرفق يوجب علينا لهم جزيل الحمد ووافر الثناء.

ثم سمعت زوجـة كاهن تقـول لابنهـا: أرايت يا (هـور أونـزا) بنطاؤر الكـاتب الحصيف والشـاعر الجيـد الشعـر الحسن الانتزاع لـه، وهل سمعتـه وهو يقـرع الأسماع بجواهـر لفظه؟ .. إذا نظـرته وعرفتـه فإننى مخبرتك عنه بأنـه مع ضعة أصله قد سبق فحـول الرجال برجاحـة عقله وسعة علمه وصـدق فراسته وحسن تصرفه فى الاسـترسـال ووفور حظه من صياغـة المعانى الشريفة فى الألفاظ العـذبة

اللطيفة ، وإنى لأتمنى له مستقبلا حسنا ومكانة علية بين رجال هذا العصر. وكانت غادتان واقفتين بالقرب من منبر الخطابـة فلما شهدتا بنطاؤر أعجبهما حسن مرآه وجمال محياه فقالت إحداهما للأخـرى: إن خطيب اليوم قد برع فى الجمال كما برع فى البلاغة وحميد الخصـال، وما أرق صوته الذى يدخل الآذان بلا استئذان ! فقالت الأخرى: لقد رأيت علامات الهمة والنبل بادية على وجهه حينما طرق باب البحث فى الحقيقة والفضيلـة ، لهذا لا أستبعد أن يكون قلبـه ممتلئاً بـالمنح الربانيـة والهبات الإلهية، وما الوجه إلا مرآة القلب.

ما طرقت هذه المدائح سمع بنت أنات حتى احمر وجهها خجلا وتمنت لو أرخى الليل سدولـه لتعود الى قصرها مع رفقتها ، غير أن أخـاها راميرى أبى إلا أن تقتفى معـه أثر الموكب والاسترشـاد فى طريقـه بنـور المشاعل ليـوغل فى الوادى الغـربى ويزور قبر جده سيتى، فوافقته الأميرة بالرغم منهـا لأنه كان يتعذر عليها الرجوع بـلا رفيق فى الطريق المؤدى إلى ضفـة النيل لتدفق النـاس فيه وتـدافعهم بالمنـاكب ابتغاء السبق إلى هذه الضفة . وكان لا مفر لها إذا هى خالفت أخاها ، من أحد أمرين: إما الانحـدار مع تيار الجموع، أو الـرضاء بمصـادمتهم فى معارضتها هـذا التيار الجارف ومقاومة حركته.

ما بلغت الأميرة ونيفرت وراميرى إلى الـوادى حتى أرخى الليل سدوله ولم يبق للضباع وبنات آوى من أثر لما أجفلها من ضوضـاء الناس وتألق الأنوار وهو ما لم تألفه فى بطن الصحراء، بل ومن تحول غمغمة أصوات هؤلاء القوم وهم فى طريقهم إلى الوادى إلى ضجـة عالية وصياح مـرتفع، وذلك بعد إذ انسابـوا فيه وانتشروا فى نواحيـه يحملون المصابيح التى يحيط بلهبها ورق البردى ملـونا بالألوان الـزاهية

ويتصاعد من بينهم العثير والدخان فيصير فوق رؤوسهم كالسحب المتكاثفة.

وكانت بنت أنات قد بلغت من سيرها مع رفاقها إلى نقطة تجاه الكوخ الحقير الذى يسكنه الشيخ بينم، فوقفت مع من وقف من الناس، لأن الحراس المنوط بهم صون النظام كانوا يدفعون الجموع المزدحمة بعصيهم الطويلة إلى جانبى الطريق، ليمكّنوا الموكب من المرور. فأومات الأميرة عندئذ الى بيت بينم وقالت لأخيها: أترى هذا المنزل الحقير؟ إن فيه الأيكة البيضاء التى دهمتها جياد مركبتى وأصابتها فى صدرها بجرح بالغ. ثم نظرت من خلال الحاجز إلى الضوء الضعيف الذى يلقى أشعته على محياها السنى، وقالت: ها هى تلك الجالسة إلى جانب جدها.. أفتراها؟..

فوقف الأمير على أطراف أصابع قدميه حتى استمكن من رؤيتها وما كادت تقع عيناه عليها حتى بُـهت وصاح: إن جمالها ليأخذ بالألباب، ولكن ماذا تراها تعمل لهذا الشيخ الهرم..؟ يبدو لى أنه يؤدى فريضة الصلاة وأنها تضع منديلا على مكان والقلق يساور فؤادها. قالت الأميرة: لعل جدها الشيخ أصيب بعارض مرض. قال الأمير ضاحكاً: المرجح عندى أنه أفرط فى شرب النبيذ فتوهم أن نفسه تسيل معه، وإلا فماذا أرى؟ إنه يحرك شفتيه وعينيه على وجه ترتاع منه النفس، ولعل بالرجل مساً أو طائفاً من الجنون. قالت نيفرت: كل ما فى الأمر أنه من المدنسين. قالت الأميرة: ولكن دنسه لا يحول دون اتصافه بالتقى والاستقامة. ولقد تقصيت أحواله واستبطنت أسراره فعلمت أنه رجل قنوع محب للصلاح والخير متفرغ للعبادة ومن ثم ترانى أرجح أنه مريض لا سكران. وما كادت الأميرة تتم هذا الكلام حتى ألقى راميرى المصباح من يده وصاح قائلاً: إنى أراها تقف على قدميها.. هلمى انظريها يا بنت أنات.. أفلا تكون فى حاجة الى معاونة أحد.. ما رأيت قط فى

حياتى فتاة فـاقتها فى بياض البشرة ورشاقة القـوام وحلاوة المنظر، غير أنى أتبين اضطراباً وتخلخلا فى مشيتها لعل منشأهما ضعف قـوتها على أثر مرضـها.. ها قد عـادت فجلست إلى جانب الشيخ وأخـذت تعـرك جبهته بكفهـا ما أشقى حظ هـذه الغادة الفـاتنة! فإنها بـدأت تئن وتبكى.. أود أن ألقى إليها بكيس نقـودى لعلها بما يحتويه تصرف الشجن عن فؤادها. قالت بنت أنات: حذاريك هذا الأمر، لأننى كثيراً ما أرسلت إليها الهدايـا فكانت تأبى قبولها، وليست نقودك هـى التى ستجلو صدأ الحزن عن نفسهـا، لأن المال وان كثير لا يكفكف الدمـع ولا يستل الحزن من ثنايـا الصدر. وقد اعتزمت أن أرسل إليها فى الغـد العجوز (أسنات) لتقف على سر ما برح بها من الحزن ، فتعمل عندئذ على تسرية همها وإجلاء كربها.. أجيلى يا نيفرت النظر فى الموكب واحتشاد الناس فيه ومضايقتهم إيانـا بتدفقهم.. ولا مفر لنا عقب مرور الإله من الأوبـة إلى القصر. قالت نيفرت: وأنـا الأخرى أود أن لـو سارعنا بـالعودة إليـه، فقـد استطير لى وملأ الـرعب قلبى. ثم دنت من الأميرة والتصقت بها فـزعـة مضـطربة.

قالت بنت أنـات: أخشى أن يقع ما لم يكن فى حسابنا من التأخـر فى العودة. قال راميرى: ما أجمل هذا المنظر!.. فإنى أرى قلب الحمـل يلمع فى إنائه لمعان الكوكب فى السماء. وكان النـاس خروا على الأذقان سجـداً إجلالا لـه، فاقتدى بهم أصحـابنا الثلاثـة. وحدث أن وقف الموكب فترة من الـزمن تجاههم، لأنه كـان كلما قطع ألف خطوة وقف ليلتمس السائرون فيه الـراحة من عناء السـير، لاسيما وأن عددهم بلـغ الألوف ومنهم الضعيف وذو العاهـة، وهم أحوج الناس إلى تزويـد أنفسـهم بالقوة لاستئنـاف المسير. ولقد سمعـوا البشير فى مقدمـة الموكب يـزف إلى جمهور الأمـة بشرى المعجزة ويفسر لهم أسبابها، وكان صوتـه الجمهورى يرن فى أركان الفضـاء

فيرجعـه الأفق ترجيعـاً واضحـاً صريحاً ، بالـرغم من غمغمـة الجموع المتـزاحمة والافواج المتراكمـة . ومما ضاعف اضطـرابهم وضجيجهم عند تطفيل الشمس أن القلب الإلهى كان يسطـع فى إنائه البلورى، كأن لـه شعاعـاً ذاتياً ينبعث منـه فيكاد نوره يضيىء الاقطار ويخطف سناؤه الأبصار.

أما (بينم) فكان لم يذق الطعام منذ برح – فى اليوم السابق– دار المحنطين عائداً الى كـوخـه الحقير، بل ظل الـوقت كلـه واجماً صـامتـاً لما أُلقى فى روعـه من القلق والانـزعاج، وبلغ من ذهـوله أنـه لم يجاوب على سـؤال واحد ممـا كانت زوجتـه وحفيدته توجهانه اليه. وكل ما شهـدتاه منه أنه كان دائب التحديق بنظره فى نقطة واحدة، وأنه كان يتمتم بكلمات لا يفهم السامع لها معنى ويرفع يده من وقت لآخر إلى جبهته بحيث كـان يخيل لهما أنه مصاب بألم شديـد فى رأسـه أو ان بهذا الرأس أفكاراً وهواجس رديئة سلبته الطمأنينة وصبت عليه جام الهموم. وتمادت به هذه الحال حتى ضـاع رشده وأخذ يهذى تارة ويضـحك أخرى من غير سبب ظاهر، فلما خشيت زوجتـه عاقبـة أمـره عجّلت بالـذهـاب إلى هيكل سيتى لاستدعـاء الطبيب نبسشت.

ولقـد سبق إلى نفس وردة – لما رأته فى هـذه الحال– أن تضع على جبهتـه بعض الحشـائش الخضراء التـى جاءت بها الساحـرة نيخت معتقدة أنها إذا لم تشفـه من علته فلا أقل من أن تخففهـا عنه. وما وقف الموكب الذى كـانت تحف به الألوف من حملة المصابيح أمـام بيت المحنط حتى قال رجل لآخر: هذا قلـب الحمل، أفلا تراه؟ فلما سمع (بينم) سؤالـه ارتعدت فرائصه، بيـد أنه ملك جأشه ووقف على قـدميه وأخذ يمعن النظـر فى القلب وهو يتلألأ فى إنـائه البلورى الشفاف ويتصعد الـدخان

حوله من مجامر الطيب فحفز الخوف أحشاءه وتطاول عنقه للاستطلاع، ثم أخذ يتسمع أقوال الناس ليعى طرفا من حديثهم ويعير أذنه لكل صوت، فسمع المبشر يعلن بشرى المعجزة بصوت جهير وأخذ يتفرس فى الوجوه فرأى الناس وقد لزموا الصمت والسكون خشوعا واجلالاً، وكان لهذه المظاهر أثر شديد فى نفسه فلم يتمالك أن دفع بنفسه بينهم ومضى فى تيارهم ونفذ فى صفوفهم مغطياً بكفه وجهه وجبهته، واستمر يزاحم الناس حتى إذا صار على مقربة من القلب المقدس ضحك ظهراً لبطن وعلت قهقهته حتى خيل للسائرين فى الموكب أن من وراء الآكام والصخور رهطا من المجانين يضيعون فى التماجن والتطايب الوقت الثمين.

وقف الناس لهذا السبب، وقد أخذ الهلع من نفوسهم كل مأخذ، فحدد الكاهن الأعظم نظره فى بينم، ولم يكن يعرفه من قبل. وتصفح وجهه ثم وقع بصره على الضوء الضعيف المنبعث من بيته ففهم على الفور أن الرجل تسلل إلى الموكب من هذا الوكر الحقير وأيقن أنه لابد أن يكون من طائفة المحنطين اللعينة وعالما بسر القلب، فمال على ضابط كان يسير إلى جانبه ليتلقى منه أوامره وهمس فى أذنه بكلمات مومئاً إلى بينم المجنون ثم استأنف السير كأن لم يحدث حادث ولم يضحك ضاحك.

أما الشيخ فكان لايزال يضحك ضحك من أصابه خبل المجاذيب حتى ألقى بنفسه على حامل القلب اللامع فانفتل إليه بعض الأعوان وأدركوه قبل أن يُلحق به أذى ثم قبضوا عليه، فحاول التملص من أيديهم فضربوه ضرباً مبرحاً ثم تركوه. وما كادت الزمر التى تتألف منها مؤخرة الموكب تمر بمكان الواقعة حتى كان مطروحاً أمام كوخه الحقير يتخبط فى دمه الذى كان يسيل عزيزاً من جراحه الفادحة. ولقد برزت وردة فرأته فى هذه الحالة، فلم تعرف بادىء ذى بدء أنه جدها

لحلكة الظلام.. وكان فريق ممن أخذتهم نعرة الدين اقتفوا أثره وهم سكرى بحماة الغضب والنبيذ وأخذوا ينعقون: ألا فاسرعوا الوثبة إليه.. اقتلوا هذا الدنيء الحقير، سواة له! .. قطعوه إرباً، أسخن الله عينه!.. احرقوا وكره المدنس.. القوه فى النار مع هذه الفتاة التى برزت من هذا الوكر اللعين لترى ما حلّ به.. فإلى لعنة الآلهة كلاهما وحر سقر!..

وكان فى الجمع امرأتان نزعتا المصابيح من أطراف قوائمها ورمتا بها الرجل المسكين، ودنا جندى حبشى من وردة فجذبها من ناصيتها وسحبها على وجهها. ولكن لم تمض برهة حتى أقبلت زوجة بينم ومعها بنطاؤر ، لأنها لم تجد الطبيب نبسشت فخبرت الشاعر بأن الشياطين حلّت فى زوجها فحضر من فوره للاطلاع على هذا الحادث. وكان ساعتئذ بلباس العمل لأنه لما ألقى خطبته وعاد إلى الهيكل لم يتجرد من الثياب البيضاء وهى شوار الكهان وشارتهم التى يُعرفون بها وأفرغها على جسمه حتى لا يقف أحد على حقيقة أمره.

ولقد مرّ بنظره حينما وصل إلى بيت المحنط أمر هائل ومنظر رهيب. ذلك أن أخلاط القوم وساقطهم كانت صدورهم تغلى بحزازات التعصب الدينى فطرحوا ذلك الشيخ الضعيف أرضاً وامسكوا بتلابيب وردة – كما قلنا– وأسرفوا فى الإساءة اليهما، فما وسعه عندئذ – وقد أحفظه هذا العدوان الذى لا مبرر له –إلا الانقضاض على الحبشى وإشباعه ضرباً. وقد أمسك به من نطاقه ورفعه فى الجو بكلتا يديه ثم طرحه بعيداً عنه كما يطرح العبء الثقيل، وشهد القوم منه هذه البسالة فارتاعوا وتقهقروا متراجعين ، بيد أن الحقد الذى ملأ صدورهم حفزهم للوثبة على بنطاؤر والتنكيل به وتناصروا فى هجومهم عليه. وكان من شأنهم معه فى

ذلك ما يـرى من الذئاب الخاطفـة حينما تهم بالهجوم على فـريستها للفتك بها، فما تمالك أن اقتلع أحد أعمدة الظلة التى كان أقامها بينم لوقاية حفيدته من حر الهجير. وكان هذا العمود مـن خشب الحبشة المعروف بشدة الصلابة فأخـذ الشاعر يدور على نفسه وهـو قابض على أحد طرفيـه فيرسم فى دورانه بالطـرف الآخر دائرة لم تُـحدّث نفس واحد من أولئك الناقمين باقتحامـه إياها لما كان يصيبه من الأذى لو أقـدم على هـــذا الفعل، وبهذه الطـريقـة استطـــاع أن يستخلص وردة من مخالب عدوانهم، ثم قال لهم: إن من يجرؤ منكم على إصابة هذه الغادة بأذى فليوطن نفسه على الاعتقاد بـدنو أجلـه.. تعساً لكم وسـوأة أيها الأنذال! أفـلا تخجلون وقـد بلغ عـددكم المائة أن تسيئوا الى شيخ قـد وقع على الأرض مغشيـاً عليه وفتـاة لا تملك لضعفها الذود عن حيـاتها؟ لاحياكم الله ولا حيا أباءكم، فقـد دنستم هذا الاحتفال بارتكاب جريمة لم تُنسج فى الشناعة على منوال.

فظل المعتدون تجاه هذا التقريع مبهوتين فترة من الزمن لا يدرون ماذا يعملون، ولكنهم مالبثوا أن أعـادوا كرة الهجوم على الشاعـر والفتاة والشيخ، بإغراء من لم يشهدوا الحادث من أصلـه بل كانوا ينسلون من كل فج وحـدب لاستطلاع الخبر. وقد اختلط حابلهم بالنابـل فلم تُسمع إلاهمهمة تتخللها صيحة: فلنحرق المدنسين، فلنضرم النار فى وكرهم اللعين؟ .. ودنا من الشاعر بنطـاؤر فريق من صنّاع مدينة طيبة وأخذوا عليه الآفاق وضيقـوا النطاق، دون أن يتمكن أحدهم من تبين حقيقته أو يعلم أنه من الكهان، بسبب تنكره من جهة واحتدام الفتنة فى ظلام الليل من جهة أخرى، وتناول غير العمود عصا كبيرة أخذ يهوى بها ضرباً مسرفاً على كل من يدنو منه ويتقى بواسطتها لكمات المعتدين وضربات عصيهم، ولبث هكذا فى جهاد عظيم وبلاء شديـد حتى اصطدم وهو لا يدرى بحـاجز ضعيف خلفه، فجـاء سقوط هذا

الحاجز هدية، إذ اغتنم بقية الثائرين هذه الفرصة لمهاجمته من الخلف والقاء جذوة نار على بيت المحنط، فسرعان ما شب فيه ضرامها. وكان مبنياً بسعف النخل الجاف فاكله عن آخره وجعله رماداً تذروه الرياح وأضاء القوم لهيب النار فاستأنفوا كرة الهجوم، وكان بنطاؤر قد خارت قوته وتلاشت، بيد أن ذلك لم يثنه عن مواصلة الدفاع عن وردة التى كانت لائذة به لا تفارقه، غير أن رجلين اختطفا العصا من يده على غرة منه فأمسى أعزلاً من سلاح يذود به عن حوضه ويدفع شر العدوان عن وردة، وصاح الناس لذلك صيحات الفوز والانتصار. وكان اليأس آنئذ يدب فى قلبه ويحل منه محل الرجاء، فإذا بشاب قد اخترق الصفوف وبيده سيف مصلطاً قدمه إلى بنطاؤر، وتراكن الاثنان ظهراً لظهر فاخذ بنطاؤر يجيله متهدداً به القوم حتى تراجعوا بعيداً عنه لما تولاهم من الخوف. ثم حمل عليهم حملة صادقة صارخاً فى وجوههم فكان فى حركاته ووثباته وصيحاته أشبه ببطل كمى رأى مع ضعف قوته أن الغلبة له على أعدائه الكثيرين أو أنه ليث العرين أُريد به السوء فخرج للذود عن حوضه مزمجراً مكشراً عن أنيابه فملأ قلوب مريدى السوء به هلعاً وفزعاً. وكان الأمير راميرى وهو ذلك المجهول الذى حمل السيف إلى بنطاؤر ممسكا بخنجر يدفع به عن نفسه، فقال للشاعر: .. إن هؤلاء الجبناء يلقون علينا جذوات النار. ثم ترامى على وردة فاطفأ النار التى بدأت تشب بأطراف ثوبها. ورمى بعض الناس بنطاؤر بالأحجار فأصابه أحدها بإصابة تزعزع منها ركنه وخارت قوته ثم تدفق القوم كتلة واحدة على بنطاؤر فسقط حاجز كان قائما هناك وظهرت فى الحال منه غادة سمهرية القوام لم تنشب أن توسطتهم قائلة: قفوا مكانكم أيها القوم! .. إننى بصفتى بنت أنات فتاة رعمسيس آمركم بالكف عن هذا العدوان الخسيس..

فما سمع المعتدون هذه الكلمات حتى بُهتوا وتولتهم الحيرة ووقفوا صامتين

واجمين، فرفع بنطـاؤر رأسه وود أن لو جثا على ركبتيه أمـام ابنة رعمسيس التى ساقها القدر فى أنسب وقت لإنقاذه من مخالب الموت شكراً لها. ولكنه تذكر ما تلقاه من الدروس عن الكاهن الأعظم وما بناه عليها من الحكم بخطأ الأميرة فى مخالطتها جموعاً تسمو على عظماء أفرادها سمواً عظيماً، فبدلاً من أن يجثـو على ركبتيه قال بصـوت جهورى: مهما يكن من أمـر هـذه الغادة التى سـاقهـا القدر لإنقـاذى من مخالب الموت، ومهما يكن بينهـا وبنت أنـات من قـرائن الشبـه الكثيرة فليست هى حتما بابنة رعمسيس. أما إن أردتم معرفتى فإنى منبئكم بأنى بنطاؤر كاهن هيكل سيتى وخطيب الاحتفال فى هذا اليوم وبصفتى هـذه وباسم وظيفتى المقدسة آمرك أيتها الفتاة بمغادرة هذا المكان فى أقرب آن.

خضعت الأميرة لإشارته وظل الناس سكوتاً زمناً قام بعقبه شاب أصيب فى يده بجراح خطيرة فقال: هـذا الرجل جندى لا كاهن كما يـدعى، فلابد لنا مـن قتله لأنه غاش والغـاش غير خليق بالحياة . ولكن سُمع صوت آخـر منبعثا من وسط الجمع يقول صـاحبه: تنحـوا للكهان.. دعـوا بنطاؤر صديقى وخطيـب الاحتفال فى أمن وسلام.. أمـا من أحد بينكم يعرفنى؟ أجـاب نوتى من الحاضرين: أنـا أعرفك، أنت نبسشت الطبيب.. أنت الـذى عالجنى من كسر فى سـاقى. وأجـاب آخر: أنت الـذى عالجنى من رمد فى عينى كاد يذهب بنورهـا. وقالت غادة هيفاء مومئة إلى بنطاؤر: أما هذا الشاب الجميل الطلعة فكان خطيب الأعياد اليوم.. فلما سمع الشاب المصاب فى يده بالجرح هذا القول ثار فيه ثائر الغضب وحاول الوثوب على الشاعر قائلا: إن يكن خطيباً أو لم يكن فهذا لا يعنينى . فجذبه بعـض الحاضرين من ناصيته وحالوا دون اعتدائه على الشاعر، ثم أفسحوا الطريق لنبسشت الذى مال على بينم هنيهة لم يلبث أن رفع رأسه بعـدها وقد ظهـرت على وجهه علامـات اليأس والغضب وقال:

لبئس القـوم هؤلاء الـذين قتلـوا الشيخ المسكين. قال بنطـاؤر: وهذه أول مـرة فى حياتـى لوثت يـدى فيها بدم الغير فى سبيـل استخلاص وردة النضرة الزكيـة من مخالب الموت الذى انتاب جدها العاثر الحظ.

ما كادت كلمة وردة ترن فى أذن نبسشت حتى أخذ يروح ويغدو مجداً فى البحث عنها واستطلاع حقيقة أمرها. ثم أخذ يستطيل فيمن اعتدوا عليه بالسب الشائن، إذ كـان يقول بصـوت عالٍ: يـا ذوى القلوب المشـوبـة بالسمـوم ! يا أولاد الافـاعى والعقارب ! يا قطّاع الطرقات! ومازال يسترسل فى هذا السباب، حتى عثر على وردة ريحانة فؤاده جالسة بالقرب من نيخت السـاحرة، فزفر زفرة المكروب الذى زالت كربته وصُـرفت غمتـه ثم عاد فاهتم بالجرح، وسأل الشاعـر عما إذا كان هو الذى صرع وحده كل الـذين اعتدوا عليه. فتبسم بنطـاؤر ابتسامة الحيـاء والتواضع لا الاستكبار والعلـو والزهـو ، وكان فى حـالته هـذه تجاه الشاب الـذى جُرحـت يده كـالطفل الذى يجرح عصفـوراً بعـد صيده ثم يبكى حـزنـاً عليه مع أنـه السبب فى مصابه. أما نبسشـت فقد حدق بنظره فى بنطاؤر، وقد أخذ منـه القلق والذهول كل مأخذ وسألـه : لمَ لم تجهر باسمك فى الحال ؟ أجاب بنطـاؤر : إن روح الإله (منث) سرت فى عروقى حينما شهدت هـذا الرجل الحقير وقد جذب إليـه وردة من شعرها المرسل على كتفيها، فلم أعـد قادراً على ضبط نفسى... قـال نبسشت: لقد أحسنت، ولكن قل لى كيف نخرج سالمين مما دخلنا فيه متورطين؟

طرق الآذان دوى طبل كـانت تردده أركـان الوادى، فما هى إلا فترة قصيرة من الـزمن حتى وفد الضـابط الذى انفـذه أمينى للقبض على المحنط ومعه شرذمـة من الجند. فأمـر المجتمعين حول بيت هذا الـرجل أن ينصرفوا فأذعن بعضـهم وعصى

الآخـرون فحمل عليهم وشتّت شملهـم حتى لم يبق فى مكـان الحادث أحـد سـواه وأعوانـه وبنطاؤر ونبسشت. أمـا الأميرة وأخوها ونيفـرت فقد زايلـوا المكان من بادىء الأمر مع الممتثلين لأمر الضابط، إلا أن راميرى كان كثير الاهتمام بوردة فلم يبرح المكان إلا بعد أن استوثق من سلامتها وأيقن أن لا خوف على حياتها. واستولى الجزع الشـديد على نيفـرت فلم تستطع السير على قـدميها فحملهـا رؤساء حملـة المحفات على أكفهم متشـابكة الأصابـع وسـاروا بها أمام الأميرة لتشملهـا بسامى التفاتها . ولـم يفتر راميرى لحظة واحدة عن التفكر فى وردة وما عسى أن يؤول اليه أمرهـا فى هذه الليلـة، فقال لأخته: لقـد أصبح بيت المحنط أثراً بعـد عين، فأين يقى أولئك المساكين أنفسهم من طوارىء الجو وأعراض الحياة فى الخلاء ؟ ..

أما الضابط وجنده فإنهم بعد أن أجلوا الناس عن الوادى عادوا إلى مكان الشيخ بينم فـوجـدوا بـه السـاحـرة نيخت ووردة وبنطـاؤر ونبسشت، فشرح الشـاعـر للضـابط مـا عاينـه من الحوادث ثم عرّفه بنفسـه فمد إليه الضـابط يده مصـافحاً وأمعن النظر فى ذاته معجباً ، وقال: ما أشد هـذا الساعد وأمتن هذه العضلات !. لو كـان حول رعمسيس أعـوان مثلك لما طال بمحـاربتـه أمة الـريتاس الأمـد .. ومن الأسف أن يكـون الذيـن صرعتهم هذه السـاعـد من أبنـاء طيبة لا من الآسيـويين. ويـزيـدنى أسفـاً أن أكـون مضطـراً بحكم المهمـة التى نيطت بى إلى القبض عليك والذهاب بك إلى الكاهن الأعظم أمينى..

فأومأ بنطاؤر برأسه إيماءة الامتثال وقال: أفعل ما بدا لك، فلست بمعارضك فى شىء. فأمـر الضابط أعـوانه بحمـل جثة بينم إلى بيت سيتى ثم التفت إلى بنطـاؤر ونبسشت وقـال لهما: أرى من الواجب القبض على هـذه الفتاة. قـال الشاعـر: إنها

مـريضة وليس لها شأن. قـال الطبيب: والـراحـة لها لازمة وإلا ضـاع كل أمل فى نجاتها من الموت.. وعندى أن الصواب فى تركها حيث هى، لا سيما وأن الأميرة بنت أنات كريمة ملكنـا قد خصتها بمحبتها وجبتها برعايتهـا منذ أصابتها الجراح التى كادت تودى بحياتها. قالت نيخت: سأحملهـا إلى بيتى للعناية بصحتها، ولقد بعثت إليه بجدتها لأنها كادت تختنق بدخان الحريق، إلا أنها قد أفاقت من غشيتها وعادت إلى سـابق حـالتها. قـال الطبيب: كل مـا أسمح لها بـه أن تقيم فى بيتك بين عشيـة وضحاها، أى ريثما أهتدى إلى مكان يليق بهما. فتبسمت السـاجرة وقالت ساخرة: إنى أعرف كثيريـن غيرك يودون أن لو تقيم هـذه الغادة فى بيـوتهم وأن لو يتـولوا العناية بأمرها والمحافظة على حياتها.

كان الجند فى خـلال ذلك أتموا وضـع الجرحى على الأسرة المعدة لنقلهم فأمرهم الضابط بالمسير فساروا ومعهم بنطـاؤر وجثة الشيخ بينم أما بنت أنات وراميرى ونيفـرت فـوصلـوا فى غضون هـذه الحوادث إلى شـاطىء النيل بعـد أن لقـوا من الصعـاب ما يقصر عن وصفـه القلم، وكانـوا انفذوا أحـد حملة المحفـات ليبلغ الى النوتيـة الأمر بإعـداد الزوارق واستعجـالهم فى ذلك، لأن نغمات الآلات الموسيقية وأصوات المغنين كانت تصـل إليهم من بعيد، كما كانت المصابيح السـاطعة الأنوار تتحرك فى الأفق فيتخيلها النظارة جذوات متحركة من النار. وفى هذا الدليل على أنهم إذا لم يبادروا باجتياز النيل قبل عودة الموكـب فى هذا المظهر الجليل فقد تعذر عليهم عبـوره، إذ من العادات المتبعـة فى ذلك الوقت أنـه مادام زورق آمـون يشق خيالـه صفحة النيل الـلامعة فليس لـزورق آخر أن يجرى عليه ولـو كان لأمير أو عظيم . ويجوز بمثل هـذا الانتظـار أن تنمحى آيـة الليل ويسفـر النهار فـلا يعـودون إلى مساكنهم، بل يلبثون فى أماكنهم.

وكانت بنت أنات وشقيقهـا ينتظران فى الظلام -بذاهب الصبر- عـودة الرسول الـذى أنفذاه لإعـداد الزورق ، وإلى جـانبهما نيفـرت وقد تـلاشت قوتها وخـارت عزيمتهـا . فالقت بنفسها على الأميرة فأحست هذه بـارتعاد فرائصهـا واضطراب سائر أعضـائها. وعاد الرســول فى الأثناء فأخبر الأميرة بعودة الـزورق من الضفة الأخرى وانه سار منها بهدوء وتوازن حتى رسـا تجاه المكان الذى كانت تقف فيه مع أخيها ونيفرت فأسرع راميرى إليه ونزل فيـه وأمسك بالمجداف . وكان ضابط حراس هيكل سيتى آنئـذ فى طوافه يتعهـد رجاله وأعوانـه، فدنا من الـزورق وقال لراكبيه: ليكن فى علمكم أن هذا آخر زورق يرخص له بعبور النيل إلى الضفة الأخرى قبل أن يتم زورق الإله اجتيازه إياه.

فما سمعت بنت أنات هـذا الانذار حتى همت بـالنزول فى الزورق وكـانت تبذل قصارى همتها للمحـافظة على نيفرت ووقايتها من الطـوارىء. وكان يضـىء مكان النزول من الشاطىء نور باهت منبعث من بضعة مصابيح، فما كادت الأميرة تصل إلى حافة النهر وهى على ما وصفناه من العناية بنيفرت حتى شعرت بيد شديدة قد هوت على كتفها وصوت أبح يدوى فى أذنها، عرفت على الفور بنبراته أن صاحبه إنما هو بعاكر وكان يقول: مكانك أيها الحقير! .. تراجع بزورقك إلى الوراء ليحل زورقى محله ، وعندك من الوقت متسع لتعبر بمن معك بعد انقضاء الاحتفال.

فلم تنبس شفتا ضـابط الحرس حينما سمع هذا الأمر بكلمة بل تـركه يهتر بما يشاء علما منه بجفاء طبعه وخشونة خلقه، ولم يعارضه بعد ذلك فى صفيره الشبيه بزئير الأسد أو هرير الكلاب، ولم تكـد تردده الآفاق حتى سمع اصطدام المجاديف بالماء من زورق أخذ يتقدم متهـاديا نحو الشاطىء. وقد رآه بعاكر فصـاح برجاله:

ادنوا الزورق منى. أما هؤلاء الناس فعليهم بالانتظار حتى يمر موكب الإله.

وكان زورق بعاكر أكبر من زورق الأميرة وأمتن، ولصدمة خفيفة منه تكفى لتحطيمه. فلما رأى راميرى من بعاكر ما رآه أوعز لأخته أن تعجل بالنزول إلى البر، فأجابته إلى طلبه مسرعة وبالغت فى التنكر والتخفى حتى لا يعرف رئيس الطلائع هويتها. إلا أن هذا الأخير استوقفها ثانياً وصاح بها: أما أمرتكم أيها المتشردون بملازمة هذا المكان؟ ثم أمر نوتيته بدفع الزورق إلى وسط النهر. فخشيت بنت أنات سوء العاقبة لاسيما وأن الخلاف بين أخيها وبعاكر اشتد واحتدم، لأن قائد الطلائع أمعن فى مهاتراته وحماقاته حيث قال: كيف يجرؤ هؤلاء المتشردون العرايا على معاندتى ومخالفة إرادتى؟ .. لابد لى من تأديبهم وتقويم المعوج من أخلاقهم.. عليك يا ديكر(١) بهذه المرأة وهذا الغلام !.. احمل عليهما واطردهما قصياً عن هذا المكان . قال هذا وأومأ الى الكلب فوثب عليهما نابحاً. فلما رأت نيفرت هذا الأمر صاحت صيحة المذعور فعرف الكلب صوتها فعدل عن توثبه ونباحه وتمسح بها مداهنا متملقاً. وكان بعاكر على وشك النزول فى زورقه فلما شهد الكلب يحوم حول نيفرت ويتمرغ عند قدميها أخذه الدهش واتجه نحوها وصاح بها مغضباً: سوف أعاقبك أيها الشاب المفتون لأنك استعنت بالسم والسحر على إذلال هذا الكلب لطاعتك. ثم رفع سوطه وأراد أن يهوى به على نيفرت فسقطت على الأرض رعباً وهلعاً . ومما لا ريب أنه فيه لو لا بنت أنات التى كانت آنئذ خلفه واستطاعت أن تجذب يده لمزق السوط خدها تمزيقا بدلا من الأثر الخفيف الذى تركه فيه وكان سبباً لذعرها ووقوعها مغشياً عليها. وما وقع نظر راميرى على هذا العدوان حتى برح الزورق

---

(١) اسم كلب بعاكر ، وقد سبق الكلام عليه فى الجزء الأول.

وبيده المجداف وابتدر المعتدى الأثيم بقوله: إنك لجبان سافل!!

أما بعـاكر فلم ينبض له منذ سمع هـذا القول نبض لاعتياده مكافحـة الأنداد فى ميادين الجلاد، بل نظـر إلى كلبه ديكـر وصفّر له صفيراً خـاصاً يفيـد معنى الامر بالهجـوم على الأمير وتمزيقه جلده بأسنـانه. ففهم راميرى هـذا المعنى، وكان ثبت الجنان جريئـاً كما كان صياداً حاذقـاً حاضر الذهن طالما تفـرغ مع رعمسيس أبيه للصيد فى الآجام العامرة بالـوحوش الكاسرة، فضرب الكلب بطرف المجداف ضربة أصابته فى أنفه فصرعته. ولم يكن لبعاكر صديق أوفى له عهدا من هذا الكلب، إذ كان رفيقه الأمين فى جـولاته وأنيســه فى سكونـه وحركـاته والصديـق الذى لا يمل فى وحدته واجتماعاتـه. فلما شهده طريح الثرى يتمرغ فى دمه وتنـازعه عوامل الموت والحياة غلب عليه التهور واستمكن من نفســه الغضب فرفع السوط يريد أن يهوى به على الأمير انتقاماً منه على فعلته.

أما راميرى فقد كانت تلك الحوادث المتتابعـة بما تخللها من المصاعب والأخطار قد نبهت فى نفســه عزة الملك وكرامـة الإمارة فكبر عليه أن يجرؤ مثل بعاكـر على ما ارتكب من اعتداء شـائن وقذع مهين فى حق أختـه ونيفرت. وكان يحس كـرجل أنه المسؤول عنهما، وأن الواجب عليه منع الأذى من الـوصول إليهما. ودبت فيه نخوة الرجـال وشجاعة الابطـال فضرب بعاكر بالمجـداف ضربة نثرت من يـده السوط وجعلته يئن من شدة الألم ويعـول كالثكلى، غير أنه جرّد من نطاقه خنجـراً ماضياً وحاول أن يضرب به الأمير فسرعان ما تـوسطت بنت أنات بينهما وجهرت باسمها ولقبها، فما طرق صوتها سمعه حتى تـراجع إلى الوراء خشوعاً وخجلاً. ولم تنبس شفتاه بكلمـة، بل وقف منها مـوقف العبد الخاضـع يتلقى من مولاه الأمـر. ولقد

أمـرت النوتيـة بأن يدنـوا الـزورق من الشاطىء ورآهـا تجذب إليها نيفـرت التى روّعتها هذه الحوادث وتأمر أولئك النوتية بالاتبعاد عن الشاطىء فتم كل ذلك طبق إرادتها، وأخذ الـزورق يشق وجه النيل بمقـدمته فما هى إلا دقـائق معدودة حتى وصل إلى الضفة الأخـرى فغادره ركابـه جميعاً إلى القصر الملكى تتنـازعهم عوامل الوصب والقلق والارتياع.

وكـانت(ستخم) مضطجعـة فى محفتهـا بـأعـلا الجسر، فـوصلت إلى سمعهـا ضـوضاء المعـركة التى نشبت بين الأمير وابنهـا. وقد تـاقت نفسها إلى استطـلاع الخبر، فلما جـاء هـذا الأخير فى زورقـه سألتـه عنـه فلـزم الصمت وكفت هى عن السـؤال، وظل الاثنان كـذلك إلى أن تم عبور الموكب للنهـر، وعبره بعض المتخلفين بأمره . وكان يلقى فى خلال ذلك نظرات الأسف والحسرة على كلبه العزيز الذى قتله راميرى ثم إلى يـده التى أصابها المجـداف بضربة مسرفـة فجُرحت جـرحاً فـادحاً فيمتلىء صـدره حقـداً ويتأجج بضراوة حب الانتقام ويقـول: هذه البـذرة الشريرة التى غـرسـها رعمسيس.. هـذا النسل الخسيس! لسوف يعلمـون من أنا.. إن مينـا ورعمسيس بالمعسكر متجاوران فهما لا محالة هالكان.

الفصل الرابع

«وليمة فى هيكل.. والكهان بين المشرب والمأكل»

بعد أن ظل بعاكر واقفاً طويلا على ضفة النهر عاد إلى طيبة مصطحبا والدته ورمة كلبه ليرسلها إلى كينوبوليس[1] وقصد بعدئذ إلى طيبة الأموات لحضور مأدبة الليل. وإذ كان يحس فى يده آلاما شديدة من جراء الضربة فقد ضمدتها له والدته كيلا يعوقه عائق عن حضور تلك المأدبة التى دُعى إليها لأول مرة بعد وفاة أبيه، ثم كان لا مفر له من الذهاب إليها، وقد أبلغه أمينى أن الوالى راغب جدّ الرغبة فى مقابلته ومحادثته.

كان بعاكر من أسرة اشتهرت بالأصل العريق والمحتد الكريم والنسب الراسخ، بل عُرفت بين العموم بأنها بزّت أسرة فرعون شرفاً ومجداً، غير أنه إذا رمت به المصادفة فى جمع من علية القوم ووجهائهم ظهر عليه فى الحال من الأمارات ما يوقن المتفرس فيه أن فى أمره سراً خفياً لا قدرة لأحد على استجلائه . وكان حائزاً على لقب «كاتب» وإن لم يكن فى الواقع من الكهان الكاتبين، كما كان جنديا وإن لم يُدرج اسمه فى ديوان الأبطال المحترمين. فهو إذن لم تتوافر فيه فضيلة ولم تتحلَ نفسه بمحمدة من محامد الخصال. وكل ما أُثر عنه أنه كان حريصا على أداء

---

(١) هى سملوط الآن، وكانت مقر عبادة الإله (أنوبيس)، وكان الكلب من بين آلهتها المحترمين. روى بلو تارك معركة حصلت بين أهالى (كينوبوليس) و (أوكسر نكوس) التى كان أهلها يعبدون السمك المسمى بهذا الاسم. وسبب هذه المعركة أن أهالى المدينة الأولى أكلوا سمكة من السمك الذى يعبده جيرانهم فانتقم منهم هؤلاء بأن أدبوا مادبة تناولوا فيها ما أمكنهم الحصول عليه من الكلاب.

واجباته فى المواعيد الموقوتة لها، وأنه كان من الهمة والنشاط بما لا يجاريه فيه أحد متى كان الغرض الذى يرمى بهما إليه تحقيق أمنية أو قضاء وطر أو نيل مطمع. وبالجملة فقد كانت أطواره وطباعه تناقض ما عُرف عن أفراد الطبقة الرفيعة التى حشرته الظروف فى زمرتهم، وكان والده الموهار فى مقدمتهم فضلا وشجاعة وكرما.

ولم يكن بعاكر بخيلا بل كان بما أُسنى له من الرزقُ عليه من العيش رخى اللبب كثير البذل. ومما يؤثر عنه أنه أنفق أموالاً طائلة مما أخلفه له والده فى سبيل الخير والبر، غير أن نقائصه الشائنة وعيوبه الفاضحة أفقدته الصواب فلم يعد يستطيع وضع الأشياء فى مواضعها أو يقدرها قدرها. وكان إذا أجزل لأحد العطاء تقاضى منه فى مقابل إنعامه عليه إتاوة الثناء على شمائله وضريبة الإطراء فى كرمه وسخائه، وربما تعسف فى الطلب فركب المركب الخشن وأتى من قبيح الفعل ما لعل سببه أنه كان يرى حقاً لنفسه الظهور بالصرامة والعزم على مرأى من الناس جميعا حتى من أسداهم الجميل ووصلهم بالمنح. لذا كان لا يجنى من غراس فعاله الحميدة غير العداء له والحقد عليه. وكان أخص ما يعرف به من الخصال الكبرياء والصلف، الا أن غباوته كانت تبدو من خلال هذه النقيصة واضحة كالشمس بين السحب الكثيفة. ومما يُعرف من صفاته المحسوسة خشونة صوته وصلصلته فى رداءة تجزئة عند الكلام، واتساع وجه فى انبعاج يشوهه، وقصر جسم فى اختلال تناسب وانعدام تجانس وضيق عقل لا يدرك معه لطف الإشارة ولا حسن الإنباه. ولقد كان يفضل الإقامة فى المعسكر عليها فى المدينة لأنه فى المعسكر غير مقيد بما يصده عن جماحه فى غوايته وتخبطه فى أباطيله واسترساله فى شهواته. أما المدينة فإنه فيها مضطر إلى مخالطة أمثاله فلا ينعم بينهم باله، بل يشعر أنه دخيل فيهم

وأنه أدنى منهم مرتبة. تلك هى علة إيثاره العزلة عن الناس وتجنبه مخالطتهم، فاذا أجاب يدعوة أمينى فما هو إلا ليظهر فى مظهر العاتى المتجبر المتغشمر.

وجرت العادة بأن لا يمد السماط إلا فى منتصف الليل ليشهد المدعوون ما يعرض على البحيرة المقدمة من المرائى العجيبة وليسمعوا الأناشيد والمدائح التى صاغ الشعراء قلائد نظامها وافترعوا أبكار معانيها تمجيداً لإيزيس وأوزريس. ومع هذا فإنه ما ولج مكان الاحتفال الذى بلغ بزينته منتهى الأبهة والجلال حتى رأى المدعوين مجتمعين وتجلى لـه (آنى) مستوياً على العرش إلى يمين أمينى وأمامهما المائدة الكبرى، وقد صُفت حولها كراسى خالية من الجالسين، وكانت مخصصة لبعض كهنة هيكل آمون الذين دُعوا لشهود الاحتفال ثم امتنعوا عن إجابة الدعوة معتذرين. وما كان لتخلفهم عن الحضور من سبب صحيح سوى إخلاصهم الولاء لرعمسيس وارتيابهم فى صدق نيات أمينى على وجه ألزمهم اعتبار حكاية المعجزة حيلة مبتدعة لدس دسيسة وتدبير فتنة انتقاماً منه فيما أظهره من الإيثار لكهان طيبة الاموات(١).

لما دخل يعاكر هذا المكان واتجه نحو المائدة كان يجلس إليها القائد العام للجنود

---

(١) تبرع جميع ملوك الدولة الحديثة بالأموال الطائلة لهيكل الكرنك، وأقدم اسم نقش على جدرانه هو اسم أوزرتسن الأول من الأسرة الثانية عشرة. وقد عُطلت أعمال العمارة فيه فى عهد الهكسوس أى عرب الرعاة ولكن ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة اهتموا بتوسيع نطاقه اهتماما عظيما فبلغ من السعة والفخامة وحسن التنميق مالم يبلغه هيكل آخر. فإن القاعة الكبرى منه التى بُدىء بإنشائها في عهد رعمسيس الأول وتمت فى عهد سيتى وزينت بالنقوش والرسوم فى أيام رعمسيس الثانى كان تحتوى ١٣٤ عمودا وكان يبلغ طولها ١٠٢ متر وعرضها ٥١ مترا. وقد ضم رعمسيس الثانى هيكل الأقصر إلى هيكل الكرنك وأتم نظامهما بمبان بلغت الغاية القصوى من الإتقان والفخامة. وكانت الهدايا والقرابين والتبرعات تنصب فى خزائن ذلك الهيكل الجليل كالسيل الغزير وكان كل فرعون يلى الحكم يجارى أسلافه فى العناية به.

الظافرة العائدة من الحبشة وفريق من عظماء الضبـاط، فرأى بجواره مكاناً خالياً فسارع إليه وما تاهب للجلوس فيه حتى رأى هذا القائد يوعز إلى جالس على مقربة منه أن يسبقـه إليه ففطن بعاكر لهذا الايعـاز وفهم منه أن القوم لا يتقبلون مثـوله بينهم فولى عنهم مدبراً واخذ يتلفت يمنة ويسرة ويمد بصره أمام وخلف للبحث عن مكان يليق به، بينما كان ذلك القائد يتمتم لسانه بالكلمات الآتية: «إن نبيذى يحمض إذا نظر إليه هذا الفظ الغليظ» أى أن مجاورته إياه تفضى إلى غضبه وتذمره منه.

انصرفت الانظار نحـو بعاكـر وحومت عليه دون أن يـدعوه أحـد إلى الجلوس، واحس أنه دخيل فاحتدمت نار الضغينـة فى صدره وبدت أمارات الغيظ على وجهه وعنّ لـه أن يفضـح من قامـوا بترتيب الاحتفال، فـاتجه إلى الباب من فـوره، غير أن الوالى شهده وهو عائد ففطن فى الوقت الى حقيقة قصده وسارّ أمينى في أمره فدعاه هذا إليه ورجا منـه أن يجلس إلى جانبه مؤكداً له أن المكان الـذى يدعوه إلى الجلوس فيه كان معداً برسمه ومحجوزاً له، والحقيقـة انه كان مما خلا على أثر رفض انبياء هيكل آمون وكبار كهنته إجابة الدعوة إلى الوليمة. فما استقرت هذه الكلمات فى أذن بعاكر حتى انجلى كربه واهتزت نفسه سروراً، فاحنى راسه شكراً وإجلالا وجلس فى الكرسى مطرقا براسه خشية أن يـرى حوله من يرمقه بعين الاحتقار ويستكثر ما لقيه من مظاهر الحفاوة والإكبار.

غير أن الهواجس لم تلبث- وقد استقر فى مكانه- أن خامرته فأنشأ يقول جلس والدى مراراً فى مثل هذا المكان وكـذا جدى ومن قبله أجدادى الأولون، فلمَ لا أجلس فيـه مثلهـم وأنـا غصن دوحتهم ووارث مجدهم؟.. ألم يكن لأسرتنـا الفضل على رعمسيس بإخلاصها فى خدمته؟ وبينما كان تائها فى بيداء هذه الهواجس إذا بخادم

أقبل عليه ووضع غصنا منضداً بالأزهار على كتفه وتلاه آخر سكب فى قدحه النبيذ ووضع أمامه من ألوان الطعام ما يسيل له اللعاب، فرفع عندئذ رأسه فكان أول من أبصر به النبى الثانى جاجابو وهو يرشقه من نظرات السخر والاستخفاف بسهام حادة، فعاد إلى الإطراق حياء واستخذاء وأحس بنفسه الصغار والهوان. ولقد حانت من الوالى التفاتة إليه وهو فى هذه الحيرة فهمّ بتخليصه من هذه القيود، إذ أخذ يطيب نفسه برقيق اللفظ وعذب المؤانسة وقال للحاضرين: إن الموهار سيرحل غداً إلى البلاد السورية لأداء مهمته الخطيرة. وأردف هذا القول بالإطراء فى مدحه والثناء عليه، فلم يجاوب بعاكر بكلمة على هذه التحية الجميلة ثقة منه بأن الوالى كان يتكلف الظهور بهذه الرعاية ليبرر للحاضرين إجلاسه إياه الى يمينه أى فى أشرف مقام وأسنى مكان، ولكن صمت الموهار لم يمنع الوالى– حينما حان أوان تعاطى الشراب– من تمنى الفوز لبعاكر فى كل ما نيط به من جلائل الأعمال.

وأردف الكاهن الأعظم هذا التمنى بالثناء على بعاكر بالنيابة عن كهنة هيكل سيتى، لأنه كان فى اليوم السابق تبرع للهيكل بقطعة أرض جيدة التربة(١) وما ختم أمينى ثناءه حتى ارتفعت من السامعين أصوات الاستحسان والتصديق وثلج صدر بعاكر ورضيت نفسه ونعم باله، إلا أن علامات الألم من الجرح الذى بيده كانت ظاهرة على وجهه وفهم الوالى ذلك فسأل: أبيدك جرح؟ أجاب: نعم بها جرح ولكن لا خوف منه، وسببه أنى كنت أرافق والدتى إلى الزورق فسقط على يدى.. فقاطعه أحد كبار ضباط حامية طيبة مازحاً، وكان من رفاق بعاكر فى المدرسة:

(١) توجد وثائق كثيرة تتضمن بيان تبرعات الملوك والكبراء بالأراضى الزراعية للهياكل. وكان الأغنياء من الأهلين يقتدون بالملوك إذ كانوا يتبرعون بمبالغ جسيمة لترميم المعابد وتوسيع نطاق الهياكل كما فعل الغنى (أمن أم أبت) فى هيكل مدينة أبو.

سقط على يده مجداف أم عصا؟ فسأل الوالى: أو هذا من الممكنات؟ قال الضابط: نعم، وقد وصلت إلينا تفاصيل ما وقع فى تلك الليلة ومنها يفهم أن الذى جرحه شاب فى مقتبل العمر وأنه قتل كلبه قبل أن يجرحه فى يده.

فسأل متولى أمور الصيد بصوت الآسف: أوَ قُتل كلبك ديكر!.. إن والدك كان كثيراً ما يحضر به للصيد والقنص وكنت أصيد معه جنبا لجنب، فصادق بعاكر بإشارة على هذا القول. وكان يود أن لو ينتهى الحديث فى الموضوع لولا أن قائد الحراس الذى له من سمو المرتبة ما يبيح له الكلام قال ساخراً منه غير مكترث بما بدا على وجهه من علامات الحياء والاستخذاء: نعم ، وما صرع الفتى الكلب حتى قهرك وجردك من سلاحك. سأل آنى: وهل أفضت المعركة إلى هرج بين الناس؟ أجاب قائد الحراس: كلا، فإن الاحتفال انقضى على ما يرام من السكينة والسلام. ولو لم تعرض حادثة المحنط بينم الذى بما اعتراه من الخبل والجنون أخل بنظام الموكب فترة من الزمن لساغ لنا القول بأن هذا النظام بلغ من الإتقان أقصى حدود الإمكان. وقد أصبح لزاماً علينا الآن أن نشكر للمحتفلين حرصهم على النظام أجمعين. ولكن قل لى يا بعاكر: ماذا استلان فؤادك واستل من قرارة نفسك كمين الحقد حتى تنازلت عن الانتقام من ذاك الشاب الذى أصابك بيدك وصفحت عنه هذا الصفح الجميل؟ قال جاجابو: أصحيح ما تزعمه من صفحه عمن اعتدى عليه وما عرفنا عنه الا الغلظة فى معاملة الناس والغدر فى التشفى منهم لأقل حادث؟

تحول أمينى نحو جاجابو ورشقه بنظرة فهم منها مراده، وأنه كان لا ينبغى له نقل الحديث إلى هذا الوضع فسرعان ما تحوّل من هذا التهكم على بعاكر إلى الظهور بمظهر المهتم بأمره المشفق عليه إذ سأله عن أسباب المعركة وعن الفتى الغر الذى

تعدى عليه بالضرب والإهانة. أجاب: إن طغمة من الاشرار الأغرار راموا أن يحولوا دون رسوّ الـزورق الذى أعددته لكى تعبر والـدتى به النهر على الشـاطىء يبتغون بذلـك المرور قبلنا فأفهمتم أن تقـدمنا عليهم حق ثـابت لنا، وبينما كنت مـاضياً فى حديثى إذا بفتى شريـر توثب علىّ فصرع كلبى ديكر ثم.. ولكن قسماً بـرأس والدى الاوزريسى الذى طالما أكرم هـذا الحيوان الأمين الشريف أنه لو لم تقف بينى وذلك الفتى المغرور امرأة قالت إنها ابنة رعمسيس، ولولا أنها بهذا الاعتراض منعتنى من الانتقام لنفسى لكانت التماسيح الآن تنتاب فى قـاع النيل جثة ذلك الغر الذى يخيل لى أنه راميرى المنبوذ منذ أمس من مدارسكم نبذ النواة.

فلما سمع متولى الصيد والقنـص هذا القول قال: قف مكانـك يا حضرة الموهار، فلست أنت بـالثمل حتى تخبط فى حـديثك خبط عشواء. كيف تجرؤ على ثلب أبنـاء رعمسيس والنيل من كرامتهم بمثل هـذا التلبيس؟ وكان بعض الضباط الحاضرين من الموالين لـلأسرة المالكة قـد ساءهم سماع هـذا الافتراء، فمال أمينى على بعاكـر وسارّه أن يلزم الصمت ثم قـال بصوت جهير مخاطباً متولى أمـور الصيد: بدا من خلطلك فى كلامك وعدم تدبرك مصـائره ما أوقع فى روعى أنك مصاب بحمى، تعال يا جاجابـو لنفحص جرح بعاكر ولنقرر ما يحتـاجه من علاج.. أرى فى الاعتداء من أمير كراميرى مـا يحط من كرامة المعتـدى عليه ويزرى بشرفه. فأخـذ جاجابـو يد بعاكـر وبعد أن نزع عنهـا ما حولها من الضماد صـاح: رباه!.. لقد كـانت الضربة شديدة تكسرت بسببها عظام ثلاثة أصابع.. انظر يا بعاكر زمردة خاتمك.

ما ألقى بعاكر نظره على الجرح حتى ساد على عقله إيمانه بالأوهام الباطلة، ولم يعد يشعـر بالألم. وما كـاد يوقن أن فص الخاتم قـد شدخ، وهو الفص الـذى كان

رعمسيس أهداه إلى والده لا الذى أهداه إليه تحتمس الثالث حتى زفر زفرة الاغتباط والرضاء وأحس بالهموم وقد انجلى صداها عن صدره. وزاد اغتباطه أن أجزاء الخاتم تطايرت حتى لم يبق به أثر من كلمة رعمسيس المنقوشة فيه. واضطربت شفتاه بعد ذلك وسمع هاتفاً يقول له: لقد رسمت الآلهة لك الخطة التى يجب عليك اتباعها، لأنه وقد انمحى اسم الملك من الفص وذهب هباء فلابد أن يخسر صولجان الملك. قال جاجابو: يحزننى بل ويكمدنى أن يضيع الفص دون اليد التى كانت تتحلى به.. ولكن حمداً للآلهة أن جعلت الإصابة باليد اليسرى.. والذى أراه أنسب بحالك الكف عن الشراب والبحث عن نبسشت فإنه هو الذى يستطيع دون سواه معالجتك واعادة العظام المرضوضة إلى مواضعها طبقاً لقواعد العلم، فهمّ بعاكر بالانصراف واعداً الكاهن الاعظم والوالى بالعودة نهاراً لمقابلتهما. وما كاد الباب يُغلق من خلفه حتى قال أمين صندوق الهيكل وكان يشيعه بنظره: لقد لقى الموهار اليوم من شؤم طالعه ما ينبغى أن يكون له العظة الزاجرة. وهو ما زال مصراً على إرادة الجهل بها حتى الآن وهو أن المرء فى اختلاطه بالناس واحتكاكه بهم ينبغى أن يعاملهم بغير ما يعامل به الجنود فى المعسكر. وإن تأذنوا لى فإنى أقص عليكم حادثة وقعت له ليس فيها ما يرتاح له الفؤاد أو يثلج منه الصدر. فصاح المدعوون جميعاً: نعم! نعم! هات ما عندك هات. قال أمين الصندوق: أتعرفون الشيخ سينى؟.. هذا الرجل المعروف بثروته الواسعة تبرع للفقراء بكل ما تملكه يمينه، لأن أولاده السبعة لبوا نداء الآلهة وهم فى مقتبل العمر إما فى ميدان القتال وإما مرضوا بمختلف الامراض. ولم يحتفظ لنفسه من تلك الثروة الطائلة بغير حديقة وبيت صغير. يعتقد هذا الشيخ أن الآلهة دعوا أبناءه إلى السماء فلبوا دعوتهم فرحين مستبشرين وأنه لم يبق عليه بعد مفارقته إياهم إلا إسعاف المنكوبين ومواساة

البائسين ومراعاة أوامر الدين القاضية بإطعام الجائعين وإرواء العاطشين وكسو العرايا والمقرورين. ولقد استنزف فى هذا السبيل كل ثروته فلم يبقَ عنده منها ما يدفع عادية الجوع والعطش وطوارىء الجو عن نفسه، وهو لذلك ما برح يقطع أقطار المدينة ويجوب أنحاءها جائعاً عاطشاً عارياً يستندى أكف السابلة، فإن تصدقوا عليه بشىء بذله للفقراء كيلا تنقطع عنهم سلسلة إحسانه. وقد عرف الناس منه هذه الشيم العالية فتراهم يتسابقون إلى الصدقة عليه، وشهدته اليوم حاملا زقه يسأل المارة إحساناً ناظرا إليهم بعين الابتهال وخص بالسؤال من بينهم بعاكر، فسرعان ما نأى عنه بجانبه وصاح فيه قائلاً: إليك عنى.. واخساً لا تتعلق بأذيالى. ولكن الشيخ لم يعبأ بهذه الإهانة بل اقتفى أثره طمعاً فى إحسانه وألحف فى السؤال، فدار بعاكر على كعبه وضربه بسوطه ضربا مسرفا وقال: ها هى الصدقة التى تلح فى طلبها، فتلقى الشيخ الضرب بالاحتمال والتجلد ومدّ يده بالزق إلى بعاكر وقال له وهو يذرف الدمع غزيراً من عينيه: إذا كان ضربك إياىَ نصيبى من صدقتك فأين نصيب الفقراء..؟

وكنت ساعتئذ مارا بجوار بعاكر فرأيته يتسلل كالحرباء حتى دخل كهفا معدا لجثث الأموات. فاغتنمت والدته البائسة فرصة اختفائه فأفرغت ما معها من النقود فى زق سينى. فما لمحها الناس مقبلة على الصدقة حتى سارعوا إلى الاقتداء بها فى التصدق عليه، إذ بسطوا له الأيدى بالإحسان إليه، فاجتمع عنده من الصدقات والمبرات مالم يخطر له ببال.

وكان الجالسون إلى المائدة مقبلين على سماع هذا الحديث بطيب نفس لأن الإنسان مفطور على حب سماع الذم فيمن اشتهروا بالتجبر والصلف والطموح الى

مـالا ينـاسب حـالهم من المعـالى وشريف الـرتب. وكـان أمينى وآنى فى أثنـاء ذلك يتناجيـان إذ كان الأول يقـول للثانى: لقد شهـدت بنت أنات الاحتفـال من بدئه الى نهايتـه. قال آنى: لعلهـا كانت تـود أن تتحين الفرصــة للقاء الكـاهن الذى شملتـه برعـايتك.قال أمينى: لا بأس من سـؤال بنطاؤر عن هذه الامـور. قال آنى: أرى فى الظروف الحاضرة أن استـدعاء الشهـود لسماع أقوالهم تـدبير سابق لأوانـه. قال أمينى: وهل أنت بحاجـة إلى شهود وقد عهدت فى شـاعرنا الصراحة والصـدق ولو أحرقه الصــدق بنار الوعيد. قال آنى بـاسما: لنبرح هذا المكان فإنى أحب أن أراه فى متنازع بين الصــدق والإنكار.. وهل نسيـت يا صـديقى أن للمرأة فى هـذه الحادثة ضلعاً؟ قال: صدقت فإن الحوادث بلا نساء كالطعام بلا ملح.

ثم دعا إليه جـاجابو وعهد إليـه برياسة المادبة بـالنيابة عنه ووصـاه بمجاملة المدعوين وتحريضهم على الشراب ومنعهم عن الخوض فى أحاديث الملك أو الحكومة أو الحرب ثم قـال له: ولا يـذهب عليك أننـا اليـوم فى قوم مـن الأجانب وأن النبيـذ فاضح للأسرار هاتك للستار، وأن أس التدبير أن يتلفت الإنسان يمنة ويسرة فى كل خطوة يخطوها ليتقى شرور من يترسمون أثره لتسمُع ما يقول وتربص السوء به، فلا تنس هذا ولا يبرحن عن بالك.!

فضرب آنى بكفه كتف الكاهن امينى كما يمزح الصـاحب مع صاحبه وقال: أما أن المدعوين سيستنزفون فى هذه الليلة ما ادخرته من النبيذ العتيق فهذا ما لا خلاف فيـه. ولقـد اتصل بى أنك لا تهتم بامـر الشراب وأنك لا تفـرق بين الكاس ممتلئـة بـالشراب والقدح فـارغا منـه ولكنى انصح إليك إذا طـاب لك الشراب أن تطلب من

تابعى ذلك الواقف هناك ليملأ قدحك بنبيذ ببلوس(١) فإنه خير الأنبذة طعما ولونا على الإطلاق.

وكان مما جرت به عادة أمينى أن يبرح مـائدة الطعام عندما يهم القوم بالشراب فلما ترك مع آنى بهو الاحتفال علت ضوضاء بين المدعوين، وجاء الخدم والحاشية باغصـان الأزهار يطـوقـون بها أعناقهم وتبعهـم غيرهم يحملون أبـاريق الشراب ليملأوا بها الأقـداح الفارغـة، وسُمعت فى أثناء ذلـك ألحان موسيقيـة تهز النفوس لحسن صنعتها وصحـة تجزئتها، فما هى إلا فترة من الـزمن حتى وصلت إلى بهو الاحتفال جوقـة من الموسيقيين يصدحون بالأنغـام المطربة وفى طليعتهم رئيسـهم موجها وجهـه إليهم ضارباً بأطراف أصابعه اليمنى على كفـه الأيسر لوزن الأنغام وضبط الإيقـاع وأدائه الأداء الصـالح فى تطـابـق تـام وحسن انسجـام، وأخـذوا يطوفون حول المدعوين ويـواصلون العزف حتى دب الحماس فى نفوسهم فأخذوا ينقرون على أقداحهم البلورية مراعين فى الضرب والتلحين موافقة الموسيقيين.

تلألأت وجوه الكهنة عندئذ وأبرقت أسرتهم ومضى الضباط فى المطايبة والتملح بعضهم مع بعض بينما كان جـاجابو يشير إلى شاب من خدمـة الهيكل فأقبل عليه مكلل الهامة بأكليل من الأزهـار وبيده مومياء صغيرة مـذهبة طفق يطوف بها على المدعوين قائلا لكل مدعو «كل مريئاً واشرب هنيئاً واطرح الهموم ظهريا فعما قريب تصير مثل هذا»(٢) ثم دعا النبى جـاجابو بتابـع الوالى الذى كان يحمل ابـريق نبيذ ببلوس فشرب منه كأساً دهاقا بعد كأس حتى انتشى واتقدت فى قلبه نار الغيرة على

(١) بلدة فى فينقيا كانت شهيرة فى ذلك العهد بكرومها.

(٢) أشار هيرودت إلى هذه العادة فى الجزء الثانى من تاريخه.

آنى فأخذ يطربه ويتبسط فى تعداد مناقبه. وكان بين الحضور كاهن معروفاً بالوقار وحسن السمت فلما لعبت الخمر المعتقة بعقله خرج عن أفقه وانطلق لسانه من عقاله فقال: ما أطيب هذا النبيذ وما أجود طعمه وما أشبهه بالصابون! قال جاجابو: هذا تشبيه غريب فى بابه فاخبرنا عن أسبابه. قال الكاهن: إن النبيذ يطهر القلب من أدران الهموم والأكدار فهو من هذه الجهة كالصابون الذى يطهر الجسم من الاقذار. قال جاجابو: لله درك أيها الكاهن، ولا فُض فوك. ثم التفت إلى بقية الكهنة وقال: ليأت كل منكم بمثل سائر وقول معروف فى مدح هذا الشراب والتنويه بحسن أثره، ثم التفت إلى النبى الأول لهيكل أمينوفيس وقال: هات ما عندك، هات فأنت أول من يشنف سماعنا بتلك الآيات البينات. قال النبى: الحزن سم ترياقه النبيذ. ثم تلاه المستشار الخاص فى معية الملك فقال: لكل شىء سر، وسر النبيذ الفرح. وانبرى أمين الأختام بعده فقال: النبيذ يطرد الهم من عتبة البيت ويوصد دونه الباب. واقتفى أثره حاكم هرمونتيس وكان من المعمرين فقال: النبيذ ينعش أفئدة الشيوخ ولا يفيد الشباب.

هنا صاح الحضور: هذا قول مبهم يحتاج إلى بيان فضحك الشيخ حتى بانت نواجذه وقال: أى بيان تبغون والقول من البداهة بمكان؟ ألا تدرون أن النبيذ يبعث الهمة والنشاط فى نفس الشيخ ويكسب الشاب أخلاق الصبية؟ قال جاجابو ملتفتاً للمدعوين الشبان: لا تنسوا هذا البيان معشر الشبان. ثم قال لرئيس المنجمين: وأنت هات ما عندك من الأمثال. قال: النبيذ سم ناقع وشراب يستل من الرأس العقل النافع. قال جاجابو ضاحكا: إذا كان الأمر كما تقول أيها الصديق فليس لمثلك أن يخشى عاقبة الإدمان فدونك والشراب!. ثم التفت إلى ضابط الصيد والقنص وسأله: وأنت هات ما عندك من الأمثال قال، إن الكأس تشبه حافتها الحسناء فمن

احتساهـا كان كمن ارتشف الرضـاب من ثغر الاحبـاب. ثم التفت إلى قائد وسأل: وأنت يا حضرة القائد؟ أجاب: أود أن يجرى فى النيل بدل مائه الدافق مثل هذا النبيذ وأتمنى أن يضخم جسمى حتى يصبح كاحـد تمثالى أمينـوفيس، وأن تكون بيـدى كأس يبلغ ارتفاعها مسلـة حاتاسو[1] لاجـرع بها ذلك الشراب وأسكـر حتى لا يهمنى أحضر عقلى أم غاب. وإذ قـد جاد كل منـا بما فى نفسه من الأقـوال فعليك أن تتحفنا أيها النبى المحترم بما فى خزانة ذا كرتك من الحكم والامثال.

رفع جاجـابو رأسـه رويداً رويداً وأدنى الكأس منـه وأخذ يحدق فيهـا بنظره مستثبتا كما يفعل العـاشق المتولـه إذا رمق معشوقه الكثير الصـد، وبعد أن شرب منها متمهلا أرسل إلى السماء نظرة من نظراتـه الحادة كأنه يستنزل وحيها وقال: إن منزلتى لا تخولنى النهوض بمفروض الحمد والشكر لـلآلهة تلقاء ما غمرونا به من جزيل النعم. قال الوالى آنى وكان داخلا من الباب دون أن يشعر به أحد: أصبت أيها الكاهن، ولـو كان لنبيذى لسـان لما عجز عن أداء حق الشكر لك تلقـاء تنويهك بـذكره على هـذا النسق البـديع. فما بلغ صوتـه إلى مسـامع الحاضرين حتى هموا واقفين وقالـوا: السلام على الوالى. فسلـم عليهم واستأذنهم فى الانصراف، ثم قال: ادعو إلى تناول الطعام غدا كل من طاب لـه تعاطى هذا النبيذ حتى إذا سرّه شرابه فى الغد كما سره اليوم فتحت لـه باب دارى فى كل مساء ليتعاطى مـا شاء من الشراب. وليكن خير وافد وأكرم ضيف وأجدر بالإكرام والترحاب.

مـا كـاد يتم آنى هـذه الكلمات حتى دوت أركان المكـان بـالتصفيق وصيحـات السرور وتضاعف دوى الهتـاف له حينما دنا من الباب وشيعتـه الأفئدة والألباب.

(١) هى المسلة التى مازالت قائمة فى هيكل الكرنك، ويبلغ علوها ٢٣ مترا. ويبلغ ارتفاع المسلة التى نقلت من الاقصر إلى باريس وأقيمت بها فى ميدان الكونكورد ٣٢ مترا.

ولبث المدعوون فى تعاطى شراب وهرج واضطراب ولم يزايلوا مكانهم إلا بعد أن تنفس الصباح وكلل هامات الجبال بتاج لجينى من ضيائه المتالق. وكانت العادة فى مثل هذه الظروف أن السواد الأعظم من المدعوين يقيمهم العبيد من الجانبين أو يحملونهم من الذراعين والقدمين ليضعوهم فى المحفات ثم يسيرون بهم إلى دورهم شتى وزرافات، ولكن الكاهن الأعظم أمر بإعداد الأسرة لهم داخل الهيكل لهبوب العواصف المريعة وهياج عناصر الطبيعة.

وبينما كان المدعوون مقبلين على الشراب لا يكفون عن الضحك والاسترسال فى التطايب والممالحة بلطيف النكات، كان الشاعر بنطاؤر فى غيابة السجن جاثياً على ركبتيه باسطاً إلى السماء كفيه لا يفتر عن الدعاء والصلاة، وقد تجرد لهما حتى لم يشعر بالرسول الذى أنفذه الكاهن الأعظم يستدعيه إليه ليستجوبه فى حضرة الوالى عن حوادث اليوم الماضى. ذلك لأن بنطاؤر كان يجهل حقيقة الحب ومقدار سلطانه على القلب فأصبح من نفسه فى حرب عوان، إذ كان تارة يتغلب عليه بقوة الإقناع وطورا يذل له بما فُطر عليه من الميل وسرعة الاندفاع. وكانت عادته فى كل مساء قبل الاستسلام إلى الراحة من العناء أن يعرض على ضميره صحيفة سلوكه وأعماله فى اليوم الماضى ويحاسب نفسه حساباً عسيراً ويوازن بين حسناته وسيئاته، فإن خفّت موازينه ولو بمثقال ذرة انحى عليها باللائمة. ولكنه فى تلك الليلة لم ينظر أمامه غير الظلام الحالك ولم يوجه إلى ضميره كلمة لوم قارص ولم يتمثل لخاطره غير صورة خيالية واحدة هى صورة بنت أنات التى كانت تتجلى له فى أجمل المظاهر فتسلبه المشاعر وتحيطه بسياج متين لا منفذ فيه للخلاص.

وزاده اضطراباً وحيرة فى تلك الليلة انه لم يعتدِ على أحد بالضرب من قبل ولم

يسفك قط دما فأخذ يقرّع نفسه على سوء فعلها ودبت الوساوس فى ضميره. ولكنه كان كلما استمكنت هذه الخيالات من نفسه أحس بالجند الموكلين بحفظ الأمن يهوون بأيديهم الجافية على ناصية وردة ولمح كأن بنت أنات تحدق فيه النظر تستحثه على إنقاذ الفتاة وتستنهضه إلى تخليصها من أيدى الظالمين فلا يسعه إلا تلبية ندائها بالمبادرة لتنفيذ طلبها. وكان يخيل له فى أثناء ذلك أنه يراها تتابع حركاته بنظرها فتبث فيه الإقدام على القيام بالمهمة الخطيرة التى عهدتها إليه. وما كان له أن يتخلى عن تنفيذ أوامرها لأنه كان -فضلا عن انصياعه لميوله القلبية- يشعر بأن ما عمله يطابق الواجب تمام الانطباق، وأنه لا لوم عليه ولا تثريب على الإطلاق.

على أنه ما نشب أن تبين مما مرّ به من الحوادث أن مستقبله فى الحياة قد أخذ سبيلا أخرى أجدر بالاعتبار وأحرى.. ألم يخالف التقاليد التى رسمتها عليه النصوص الكهنوتية.. ألم يرسخ فى عقيدته أن التقيد بالقيود السابقة وحصر النفس فى دائرتها الضيقة أصبح مستحيلا، وإن توافرت فى هذه الدائرة أسباب الراحة والهناء والبعد عن الهرج والضوضاء..؟!

لما عبثت به لجات الحيرة وقذفته على ساحل الشكوك والريب مدّ يد الضراعة والابتهال إلى الإله الواحد ذى الجلال أن يكلأه بعين رعايته ويسبل عليه ستر حمايته، ثم حلّق بأجنحة الفكر فى سماء الهداية والتمس من والدته التقية الرحيمة أن تشد أزره فى التماس الطمأنينة لقلبه والراحة لضميره والقناعة بحاله، غير أن إخلاصه فى التوكل لم يعصمه من الوقوع فيما قدّر له منذ الأزل. لأنه كان كلما بالغ فى الإنابة والطاعة وبذل فى ذلك جهد الاستطاعة شعر فى نفسه بدافع لا يقوى على

رده يلقى به فى تيار لا غاية له من الأمـانى والآمال. ثم يتولاه الذهول فيقع فى وهدة اليأس من الـرشـد والقنـوط من الهداية إلى سبيـل الصواب يضرب صـدره أسفـاً وحسرة معتقداً أنه ارتكب جرمـاً لا يغتفر وذنباً لا شفاعة فيه، وعض أنـامله حزنا وندما.

كان بنطاؤر فى هذا النزاع الشديد بين أهوائه النفسية ووازع الضمير حينما وفد عليه رسول الكاهن الأعظم. فلما وقف على مهمته قـام من فوره تلوح عليه علامات البشر والاغتباط لا علامات الخوف أو الامتعـاض . فلما صار فى حضرته روى عليه الحوادث بتفاصيلهـا وشرح كيف أنه نـازل طغمة الأشرار، ثم وصف الخطـر الذى أحدق بوردة من تعديهم عليها وتضافرهـم على الفتك بها حتى اضطر إلى الإقدام على حمايتها. وذكر ما كان من جهاده فى ذلك حتى تمكن من خـلاصها وفاز هو بالنجاة من أيدي أولئك الطغاة.

فقـال أمينى: ولكن أجهلت أنك للوصـول إلى هـذه الغايـة قتلت أربع أنفس ممن حرّمت الآلهة قتلهم وجرحت ضعف هذا العدد من أنفس أخرى؟ وما الذى عاقك عن مكاشفة القوم بأمرك وأنك من الكهان ليكفوا فى الحال عن العدوان .. لِمَ لم تخبرهم بأنك أنت الذى قام فيهم خطيباً فخلب ألبابهم ببلاغته وملك أفئدتهم بفصاحته.. لِمَ لم تجتهد فى تسكين الخواطر الثائرة بما اشتهر عنك من شدة التأثير فى الحث وقوة الحجة فى الإقناع.. لمَ عدلت عن هذه الوسائل كلها مؤثراً عليها القوة الجائرة؟ أجاب بنطاؤر: لم أكـن ساعتئذ فى مـلابسى الكهنوتيـة. قال أمينـى: هذه غلطة فـوق تلك الغلطـات وذنب أشـد وأنكى من تلـك الـذنـوب.. أنسيت أن القـوانين تحرّم عليك مبارحة الهيكل فى غير زى الكهان المعروف بلونـه الأبيض من قديم الزمان..؟ أتتنكر

أنك لو كنت على الاقل لابساً ثياب العمل لكفت كلمة منك لصد المعتدين، أم كنت تجهل ما خولته من نفوذ الكلمة بين أفراد الأمة؟

قال بنطاؤر: لا أنكر أنه كان باستطاعتى أن أصد الناس عن التعدى لو لبست ذلك اللباس، ولكنهم كانوا قد اندفعوا فى تيار الغضب والانتقام فلم ينفع معهم غير انتضاء الحسام، على أنى لم أجد من الوقت ساعتئذ فسحة للتفكير فى ذلك الأمر، لاسيما وقد رأيت أحد الهمل المتشردين قد انقضّ على الفتاة المسكينة كالذئب الخاطف وجذبها من شعرها فلم أتمالك من الاندفاع لإنقاذها غير مفكر فى انه ربما عرّضت للموت حياتى، وسرى فى عروقى دم الغيرة والحمية بحيث كان فى قدرتى أن أقتل ألف نفس بدون أن أحسب حساباً أو أخاف عقابا.

قال أمينى: أرى فى عينيك لمع البرق الخاطف ، ولربما كنت الآن تعتقد أنك جئت بما عجز عنه الأوائل من آيات البسالة فى حومة الوغى.. أما علمت أن الذين قاتلتهم وأصبتهم هم أبناء وطنك البررة وأنهم كانوا عزلا من السلاح كما لم يكن معهم من يدفع عنهم السوء، وأنهم إذا استشاطوا غيظاً فما هو إلا للغيرة على الدين حينما رأوا أن الدنس كاد يلحق به بسبب ذلك الشيخ الدنىء.. من أين جاءتك تلك الحمية العسكرية والحماسة الحربية وأنت لم تخرج عن كونك ابن بستانى يتفانى فى خدمة الربوبية فى اخلاص وسكون؟. قال بنطاؤر: لما رأيت القوم قد تكاثروا من حولى وأنى تأهبت للدفاع عن نفسى شعرت فى قلبى بما يشعر به الجندى أو البطل الكمى إذا أحس ضرورة الدفاع عن الراية التى عُهدت حراستها إليه. نعم لم أخرج عن كونى كاهناً وإنى بهذا الوصف اعترف بذنبى وأكفر عنه بقبول العقوبة عليه دون تذمر ولا مقاومة. ولقد شعرت بما طرأ على نفسى من العواطف فلم يسعنى إلا

العمل بمقتضاها. قال أميني: وتريد بعد هذا أن تكفر عن ذنبك بقبول العقوبة! ولكن لمَ أغفلت فى سياق كلامك الحادثة التى ترتبت عليها نجاتك..؟ أتريد أن تعلم ما هى.. هى وصول بنت أنات فى خلال تلك الحادثات وتدخلها بين الجموع وهو ما لم يكن منتظر الوقوع.. وتكذيبك للأميرة أمام القوم بأنها ليست بنت أنات، مما دل على معرفتك اياها بالذات وأنك عمدت إنكار ذاتها لغرض فى نفسك.. فجاوب على هذه التهم جاوب أيا من جعل نصب عينيه الترفع عن سفاسف الأمور ورفع بيمينه لواء الحق المنشور.

ماطرقت هذه الكلمات أذن بنطاؤر حتى تربد وجهه واكفهر وشخص بعينيه إلى أنى الذى كان عند سماعه هذه الأسئلة يلزم الصمت ثم قال: لا أرى مجال القول ذا سعة إذ لسنا هنا بمعزل عن الناس. قال أمينى بفتور: الحقيقة واحدة لاتتعدد وماتريد الإجابة به عن سؤالى يجوز أن يسمعه جناب الوالى، فهل عرفت بنت أنات وأنها كريمة فرعون. إن الحق لاينكره إلا الخاسرون؟. قال بنطاؤر وقد تخبل فى أمره وارتاع: حقاً إن المرأة التى انقذتنى من الخطر تحاكى بنت أنات، ولكن أوجه الشبه بينهما لم تكن متوافرة فى نظرى، ولو أنى نظرتك وأنت أستاذى ومهذب روحى ومثقف عقلى، الذى طالما أكرمنى ورفع مكانتى، ثم قذف بى من حالق فى درك المهانة، أقول لو أنى نظرتك كما نظرت بنت أنات لعاملتك بما تؤاخذنى به بلا وجل ولاتردد.. ألم يكن من واجبى إزالة الشبه فى نفس الأميرة وصون كرامتها المستمدة من الألوهية والتى تسمو بها درجات على العناصر البشرية..؟ ألم تهبط من عرشها الملكى لتنقذ من الخطر رجلا مثلى منحوس الطالع؟ أما كان فرضاً محتوما علىّ بعد ذلك التفانى فى حمايتها ودفع الأذى عن ذاتها؟..

قال: أمينى لاعجب، فأنت فارس الميدان فى البلاغة والبيان. ثم تكلف العسف والتجبر فى كلامه وقال: إنى أطالبك بأجوبة سهلة خالية من التعقيد. نحن موقنون أن بنت أنات كانت متنكرة بزى نساء العامة، وقد كاشفت بعاكر بحقيقة أمرها، وهو الذى أخبرنا بأنها شهدت الحفلة من أولها إلى آخرها وأنقذتك من مخالب الخطر.. فهل كنت تعلم أنها كانت معتزمة عبور النيل؟.. أجاب بنطاؤر: ومن أين لمثلى الاطلاع على مكنونات الصدور؟ قال أمينى: لاريب أنك حينما تدخلت فى الأمر، كنت تعلم أنها بلا اشتباه ولا تلبيس فتاة الملك رعمسيس. أطرق بنطاؤر رأسه وارتعدت فرائصه ثم قال: نعم كنت أعتقد أنها هى. قال أمينى: إن طردك إياها مع اطلاعك على سرها وإلصاقك بها الغش والادعاء لنفسها بما ليس فيها لمن الوقاحة والجرأة بمكان. قال بنطاؤر: لست أنكر هذا الفعل إلا أننى رأيتها جازفت بكرامة والدها، إذ تقدمت لإنقاذى من الخطر، فأردت أن أفدى هذه الكرامة بحياتى وحريتى وسمعتى. قال أمينى: كفى! كفى.. قال آنى: وماذا تم فى أمر الفتاة التى أنقذتها؟ أجاب بنطاؤر: أخذتها الساحرة نيخت إلى مغارتها كما أخذت جدتها زوجة الشيخ بينم.

انتهى الاستجواب هنا، فأعيد بنطاؤر إلى سجن الهيكل وما كاد يتوارى عن العيان حتى قال الوالى: حق لنا أن نخشى هذا الرجل لما يبديه من التحيز لجانب رعمسيس. قال أمينى باسما: بل لجانب كريمته بنت أنات.. إن تشيعه إليها هو ما يُخشى منه، وأما ميوله فيما بقى من أحواله فأنا من أعرف الناس بها. قال الوالى: ولكن راعنى منه جمال منظره وسعة مخبره وطلاقة لسانه وثبات جنانه.. إنى أريد سجنه عندى لأنه قتل واحدا من جندى. فعبس وجه أمينى وقال بتؤدة: إن لهيئة الكهان وحدها الحق فى محاكمة الخارجين عن القوانين من رجال الدين. وهو امتياز

ممنوح لها، فكيف تطالبنـى بذلك وأنت باعتبار كونك مليكنـا والقابض فى المستقبل على زمام أمـورنا أقسمت بالمحافظـة على هذا الامتياز، لاسيما وقد نصبنـا أنفسنا للدفـاع عن حقوقك المقـدسة؟ فتبسم آنى وطمأن الكاهـن الأعظم قائلا: سأستبقى امتيـازاتكم مصـونـة دائما، ولكنى أرى الخطر سيتهـددنـا بهذا الـرجل فملت إلى الصرامة فى معـاقبته. قـال أمينى: أما الصرامة فهى مـا لابد منـه، ولكن ليس لأحد سوانا أن يحاسبه على ما قدمت يداه. قـال آنى محتدما غيظا: ارتكب الرجل جريمة القتل بسفكـه دم أربعة أنفس كـان حرامـا قتلهـا بغير الحق فهو لعقـوبة الإعـدام مستحق. قال الكاهن الأعظم: متفق معك على أنه قتل أكثر من واحد، ولكنه كان فيما اجترمه مسوقا بحقه فى الدفاع عن نفســه. ولست أرى ما يدعو إلى التفريط فى حياة شاب أفـاضت عليه الآلهة أسمـى المواهب، لمجرد أنـه لم يجد سوى التجبر مـركبا فركبه فى ظروف غير ملائمة. وإنه ليلوح لى من قولك وحركاتك أنك تضمر له الحقد، وهو مـا يحملنى على الريبـة فى نيتك نحوه ويـدعونى إلى الخوف على حيـاته منك، فعدنى وعداً صـادقاً إن كنت لى محـالفـاً ولمشروعى مؤازرا ألا تغدر به. فتبسم الوالى وقال: أعدك هذا الـوعد. ثم مدّ يمينه مصـافحاً، فقـال الكاهن الاعظم: أشكر لك هذه المنن. إن بنطـاؤر مقدّم على تـلاميذى كلهـم وهو أحقهم بـاحترامى ومحبتى رغم غلطاتـه المتكررة، وأناشدك الحق، أمـا لحظت وقتما كان يشرح لنا أسباب منـازلته القوم تلك الشمائل التى كان يتجلى فيها فلا يسع الناظر إليه معها إلا القول بأنه آسا أو ابنه الموهار السابق الوالد الأوزريسى لبعاكر رئيس الطلائع؟

قال آنى: لابد مع توافر الشبه بينهما أن يكون وضيع الأصل خامل الذكر.. وإلى أى أصل تمُت والدته؟ أجاب أمينى: أمه زوجـة بواب الهيكل، وهى معروفة بحسن الخلق وسلاسة الطبع ولين العريكة. قال آنـى بعد أن أطرق رأسه مفكراً: إنى عائد

فوراً إلى المدعـوين ولكن لى عندك حاجة أروم قضـاءها، ذلك أنى كنت أشرت إلى سر يجعل بعاكر فى قبضتنا وآلة فى يدنـا. وإذ كان لايعرف هذا السر سوى ساحرة آوت وردة عندها فمن صواب الرأى استدعـاؤها هنا لاستجوابها فى أمور أروم تحقيقها بشرط ألا يصرف هذا الأمر الخواطر إلى مشروعنا. فوعده أمينى بقضاء هذه الحاجة إذا بادر بإنفـاذ الجند ليأتـوا بالعجـوز وأمر أحد أعـوانه بإعـداد قاعـة الجلسات وإضاءتها بالأنـوار الساطعات ووضـع كرسى لـه فى الحجرة المجاورة لها ليتسمع من وراء الباب ما يدور بين الوالى وبينها من السؤال والجواب.

الفصل الخامس

يبكى إحدى حسان طيبة الفاتنات.. وليلة التجليات

بينما كـان ضيـوف بيت سيتى يعـاقر بعضهـم النبيذ ويـدبـر البعض الآخـر الدسائس على مـا يوافق أطماع الوالى، وبينما كان حـراس الكاهن الأعظم يقطعون وادى المقابر ركضاً على الأقدام فى طلب السـاحرة، هبّت فى وادى النيل ريح عاصفة اقترنت من ناحيـة الجنوب الغربى بريـح السمائم التى كانت تطارد أمامهـا سحباً قاتمة اللون وتثير رملا أسود فتذروه فى جميع الأنـحاء وتلوى أشجار النخل العظام فتجعلها كالقوس إذا أُرسلت منها السهام، وتقوّض أعمدة الخيام وتقذف فى واسع الفضاء قماشها فيبدو كالخيال الأبيض فى حـالك الظلام، ثم تصدم وجه النيل فبعد أن يكـون فى استـواء المرآة يضطـرب كـالبحـر الخضم فيلتمس راكبـوه النجـاة، وتصطدم موجاتـه ضفّافة بالتواتر كصفـوف جيش انتضى جنده من السلاح كل حسام باتر.

وكان بعـاكر أنئذ فى زورقـه فأخذ يحث النوتيـة عل بذل الجهود لبلـوغ الضفة الأخرى. وكثيراً مـا أشرف الزورق على الغـرق ولكنه تـلافى الخطر منـذ قبض على الدفة وسيّر الـزورق بنفسه حتى وصل فى أمان إلى الضفة الأخرى. وكـانت الرياح لشدتها أطفأت المصابيح المعلقـة بأطراف الأدقال إيذاناً بالرجـوع، فلما هبط بعاكر البر من الزورق لم يجد بانتظاره أحدا من الخدم وحملة المشاعل فاضطر إلى اختراق الطريق الموصل إلى بيته فى حالك الظلام تعبث بـه الرياح المحرقة وتسفى على وجهه الرمـال وتثير العثير. وكان إذا صار على مقـربة من داره وسمع البواب نبـاح كلبه

بادر– وقد أيقن أنه عاد– بفتح الباب وقابله بالترحاب، غير أنه لما قتل الكلب اضطر النوتية الذين صحبوه لحراسته ومؤانسته فى وحشة الطريق إلى طرق الباب ولبثوا يطرقونه بكل ما أوتوا من قوة زمناً طويلا فتنبه البواب من نومه وهمّ بفتحه خائفاً مذعوراً.

وكان صحن الدار حالك الظلام لأن المصابيح كانت أطفأتها الرياح ولم يكن بها كلها غرفة مضاءة سوى مخدع ستخم. فلما أحست الكلاب همسه هو ومن صحبه من الحراس عوت عواء طويلا فانقبض لسماعه صدر بعاكر إذ لم يتبين فى هذا العواء هرير كلبه المحبوب. ولشدّ ما تألم قلبه وكسف باله لما أبلغ الشيخ الحبشى القائم على حراسة مخدعه قتل كلبه فبث أنين الحزن والشجو، لأنه كان شريكه فى الحياة وقسيمه فى السراء والضراء. وتغلب اليأس على بعاكر فألقى بنفسه على كرسى وسأل الحبشى ماء بارداً يضع فيه يده الجريحة عملا بإشارة الطبيب نبسشت. فلما شهدها الخادم الأمين والدم يسيل منها صاح صيحة الجزع سائلا: من الذى جرحك وقتل كلبك؟ أمازال هذا المجرم الغادر على قيد الحياة؟ فأومأ بعاكر بإيماءة الإيجاب ثم أطرق رأسه وعجّل بوضع يده فى ركوة ماء جاء أحد الخدم بها خلال ذلك الحديث.

وكان بعاكر يحس بضعف فى قوته وانحطاط فى مكانته وجرح فى عزته. وكان يود أن لو تنشق مياه النيل كالاخدود فتبتلعه أو يعود طفلا ليسترسل فى البكاء دون أن يلومه لائم. واتجه خاطره بعد ذلك صوب غاية أخرى واشتد خفقان قلبه وجحظت عيناه وازداد تقلبهما فى حجاجيهما كما يفعل الذى به طائف من الجنون. وكانت نفسه ساعتئذ متأثرة بعامل التشفى والانتقام وإرادة السوء لمن صبوا عليه

جام الرزايا والآلام. ولقد بدا بعد مـن أمره أنه أطرح الهوى ولم يتخذه شفيعاً لدى من جنوا عليه، وظل تنتابه الهواجس ردحـاً من الزمن ثم قال: أيا شـأفة رعمسيس لسوف استأصلك وأمحوك من الوجود فلا يبقى لك من أثر. وسأعمل معاول الهدم والاستئصال فى حاشيته المقربين فلا يكـون فرق فى الاندثار بين الملك فى سماء المجد والعلياء ومينا والأمراء الذين أخذتهم الكبريـاء.. لابد لى من إبادتهم جميعا والتعفية على آثارهم. وإنى لعالم بالسبيل إلى تحقيق هذه الأمنية فصبراً صبراً! وما انتهى من مناجاة نفسه بهذا الكلام ورفع يده كمن تأخذه حدة الغضب فيهم بضرب من حوله حتى انفتح باب الغرفة، وإذا بستخم داخلة تسير على مهل. ولم يكن بعاكر سمع لها همساً حينما أقبلت على مخدعه لشدة قصف الرعود وعصف العواصف فرأته وهو فى ذلك الوضع الغـريب، فدنت منه وصاحـت باسمة وقد تـولاها الذعر إذ كـان ما خمنتـه أنه أصـابه من الشيطـان مس فما أبصر بـوالدتـه حتى أرعد ولكنـه تكلف السكون وضبط النفس وقـال: يا والدتى! ها أنت ذه! لقـد أوشك الصباح أن يسفر وينتشر ضياؤه فى الخافقين. وهى ساعة ما أحلى النـوم فيها، فلم جئت هنا؟ أجابت: اعترانى سهاد لأن الرياح اشتد عصفهـا فخيل لى أنها تدك جدران الدار دكا وصرت من الفزع فى حالـة لايماثلها إلا حالتى يوم توفى أبـوك. قال مشفقاً: أفضل أن تبقى هنا وتنامى فى فراشى. قالت: لم آت هنـا للنوم، بل لما وقع بضفة النهر فإنه ألقى فى فؤادى الهلع والقلق. وليس هـذا لأنك أُصبت فى يدك بجرح بالغ ولا لما تعـانيه الآن من الآلام، بل لأنـك سلكت مع ابن الملك مسلكـا يستثير عليك غضبـه ونقمتـه.. لا يفوتنى أن جلالته لا يحبك كما كان يحب والدك، بل مقتك المقت كله، ولذا ترانى على خـوف من أن يفتك بك. ثم إننـى لم أفهم معنى لضحكك الـذى سمعتـه.. ونبراتـه بلياتها وعطفاتها ومداتها تدل على خبث الطوية وقصد السوء.. وما رأيتك عليه من

الأوضاع الشاذة.. أفلا يكفى أن يملأ قلبى رعباً وترتعد له فرائصى فزعا؟

لزم بعاكر ووالدته الصمت بحيث كان يتوهم الناظر إليهما أن قصف الرعود قد استرعى سمعهما فأصاخا إليه. ولقد ظلا فى هذا الوضع الجامد زمناً قالت بعده ستخم: أحس بعاطفة غريبة تتملكني هى غير التى تظن أننى متأثرة الآن بها.. ما برحت أفكارى متولية شطر ذلك الشاب بنطاؤر الذى خطب الناس فبهرهم بفصاحته وعواطفى نزّاعة إليه لأنى أرى قرائن الشبه متوافرة بينه ووالدك يوم خطبنى من أهلى.. أوجه الشبه بينهما تحملنى على الاعتقاد بأن الآلهة لما دعوا إليهم المرحوم زوجى قضت إرادتهم النافذة بأن تُبقى على وجه الأرض صورة حية من ذلك الأصل العريق المليح. قال الشيخ الحبشى: أصبت!.. إنى أرى بين سيدى المرحوم وشاعر القوم قرائن شبه كثيرة. ولقد أمعنت فيه النظر أمام بيت المحنط وهو ينازل المتعدين عليه فعرفت فيه الشهامة، وكان يرفع بيد واحدة عمود الخيمة ويجيله بها كما كان سيدى المرحوم أسا- إذا نزل فى حومة الوغى- يشهر سيفه ويخطر به بين الأعداء. وما سمع بعاكر هذه الآراء حتى اندفع يقول: دعك من هذا الهذى يا مجنون، أين وجه الشبه بين واحد من الكهان ووالدى زعيم الشجعان؟ ولو أن هناك جامعة شبه تربطهما لما منعنى ذلك من المضي فى أخذ الثأر ممن سبنى وبوقاحته غلبنى. قالت ستخم: ولمَ هذا العناد وهذه البغضاء، وكيف لاتقتدى بأبيك فى خلاله الشماء؟ أتكره التشبه به فى إكرام الأشباه واحترام النظراء؟ قال بعاكر: وهل يحبنى هؤلاء الأشباه حتى أحبهم؟.. قد بلغ من نكد طالعى أن يعارض الآلهة أنفسهم رغباتى ويعاكسوا مطالبى ويلقوا المعاثر فى طريقى وأنا أنا الذى يوافيهم بالهدايا والقربان فى كل آن. فيا للطامة الكبرى والمصيبة العظمى!!

قالت ستخم: حذار يابنى! إن زمام أمور العالم بأيدى الآلهة فلا تطير ريشة فى مهب الريح إلا بأذنهم وسابق إرادتهم. وقد كان المرحوم أبوك على هذا الاعتقاد يجهر به فى كل محفل وناد، ولكن ما أعظم الفرق بينك وبينه فى محاسن الأخلاق وتصوير الخلاق؟ قد امتلأ قلبى ذعراً منذ رأيتك تقذف من فيك شواظ الشتائم الفاضحة على ولى نعمتك ومغدق الخيرات على والدك من قبلك، أميرك المبجل رعمسيس. قال بعاكر: أصبح هذا الملك ألد خصومى ولسوف تسمعين عنه ما هو أجدر من الشتائم بالاهتمام، بل لسوف يعلم أبناؤه أن ابنك وابن المرحوم زوجك لايتذلل لأحد ولايصبر على الهوان والضيم، بل ينتقم شر الانتقام ممن يريدونه بالإساءة أو يقصدونه بالحطة والدناءة.. إن صدرى لينشرح سروراً لو رأيت تلك الذرية القذرة تتلوى حول قدمى. فصاحت ستخم وقد طار لبها: إنك لعتل ذميم وخائن أثيم.. نعم لست إلا امرأة ضعيفة الحول ولكننى أقسم بطاعتى لأبيك واجلالى لسيرته لأسلبنك نعمة حبى وعطفى إن لم.. آه لقد رأيت.. لقد فهمت.. لقد علمت.. أجبنى أيها الجانى الاثيم أين السهام السبعة التى كانت معلقة هنا؟

ما كادت ستخم تفوه بهذه الجملة حتى ألقت بنفسها على بعاكر فتراجع إلى الخلف كما كان يفعل فى طفولته إذا سقط فى هفوة، وهمّت والدته بعقابة فاقتفت أثره حتى أدركته وجذبته من نطاقه. ثم كررت عليه صائحة ذلك السؤال، فاضطرب حنقاً وحقداً لا خوفاً من والدته واحتراما ثم قال: أما السهام فما برحت فى كنانتى وها هى، على أننى ما زلت مصراً على رشقها فى كبد عدوى ولسوف تقفين قريباً على حقيقة كل شيء.

وفاضت العبرات من عينى ستخم وثارت نفسها فرفعت يدها ثانيا فى وجه

بعاكر الذى لم يتمالك إن دفعها بعيداً عنه قائلا: اعلمى لست– أيتها السيدة– طفلا، وإنما أنا رجل ولى وحدى هنا الكلمة والأمر. لا مفر لى إذن من تنفيذ ما أردت ولو اقتفى أثرى مائة امرأة مثلك يعولن خلفى أو يعوين كالكلاب المسعورة. قال هذا وأشار إلى الباب يريد بذلك صرفها من حجرته، فطفقت ستخم تبكى وتنتحب حتى إذا بلغت إلى الباب وقفت ثم أجالت النظر فى داخلها وكان بعاكر جالسا فى كرسى معتمدا رأسه بيديه فصرخت مراراً باسطة يديها نحوه وقائلة: لايمنعنى مانع من أن أضمك إلى صدرى إذا عدلت عن نياتك الخبيثة ومشاريعك الشيطانية.

هز بعاكر رأسه إيماء إلى الرفض فتولى الأم من جراء هذا العقوق يأس شديد وأرخت ذراعيها وقبضت كفيها ثم قالت منتحبة: أتذكر يا ولدى ما جاء فى الكتابات المقدسة من الأوامر والنواهى التى لقنك إياها والدك فى صغرك.. فقد جاء فيها «اعتبر طاعتك لوالدتك جزاء لها على صنيعتها لك بالقيام على تربيتك، ولا تُلجئها بسببك إلى بسط يديها بالدعاء عليك، وأسلك معها مسلكا يحجب عن السموات صعود شكواها إليها»(١).

ما طرقتْ هذه الكلمات أذن بعاكر حتى أخذ يئن وينتحب، ولكن لم يبرح مكانه ولم يتكلم بكلمة. فصاحت ستخم باسمه مرة أخرى وكان صوتها يدل بنبراته الناعمة على ما يخالج فؤادها من عواطف الحنان والرفق، فلبث ساكتاً ساكناً كأنه لم يسمع نداءها. وكانت فى خلال ذلك قد لمحت الكنانة بين أسلحة أخرى فانقبض صدرها وتربد وجهها وقالت بصوت متهدج: لست أرضى لك المضى مع هوى النفس فيما تروم من الانتقام.. أسمعت قولى؟ أعوّلت على اتباعه؟ لمَ لا تجاوبنى؟

---

(١) هذه التعاليم تتضمنها الورقة الرابعة من أوراق البردى المحفوظة بالمتحف المصرى.

لقد ضقت ذرعا أيها الناس فخلصونى من شر هذه المحنة!

وبعد هنيهة انقضت على الكنانة فاستلت منها سهماً همّت بكسره فوثب بعاكر عليها من مكانه واستخلص السهم بعنف من يدها، فأصاب نصله ذراعها فسال الدم منه دافقاً على جسمها. وقد أحست الألم ورأت الدم متقطرا فتولاها خوف شديد، لأنها كانت تكره سفك الدماء، ثم قالت بصوت خافت: إن هذه اليد التى سفكت دمها عليها عهد الآلهة وميثاقها ألا تلامس يدك ما لم تقسم الأيمان المغلظة لتعدلن عن نية الانتقام وتنبذن ظهريا هواجس القتل والإعدام وتطهرن ضميرك من كل ما يدعو إلى تلوث شرف والدك والحط من مقام أسرتك.

ما سمع بعاكر هذه الكلمات حتى جثا على ركبتيه متأثر الوجدان وأخذ لوخز الضمير وعقاب السريرة يتلوى كالثعبان، فاتجهت والدته نحو الباب إذ وقفت قليلا دون أن تنبس شفتاها بكلمة، إلا أن توجه نظرها نحو ابنها ونزوع نفسها إليه جعلاها فى وضع يخالها الرأى فيه أنها تنادى ولدها وهو لايجاوبها وترجو منه وتبتهل إليه. ولابد أن قد أعيتها معه الحيل فخرجت من الباب الذى انغلق فجأة خلفها بقوة الرياح التى دفعته.

وكان بعاكر قد فطن لانصراف والدته فأخذ يبكى وينتحب قائلا: والدتى! والدتى! لا أستطيع العدول.. لايمكننى الرجوع.. وهنا كفّ عن الكلام لأنه سمع من قصف العواصف ما كاد يصم أذنيه وما لم يعهد له نظيرا من قبل وأحس الدار كأنها تنتفض كعصفور بلله القطر، وخُيل له أن صخوراً صلدة تتساقط من الجو فى فناء الدار فتُحدث تلك الرجة التى ارتاح لها قلبه، وقام نحو النافذة ونادى بالخدم يسألهم عن الحادث الجلل، فتقدموا إليه فوجاً بعد فوج. وكان فى طليعتهم قيّم الدار

فقال لمولاه: لقد اقتلعت العاصفة كل الأدقال المغروسة أمام الباب الكبير. قال بعاكر: أوَ ممكن هذا؟ قال القيم: مولايَ هـذا ما حصل، ولاشك عندى فى أن الخوّاص الذى كُسرت ترقوته قطع تلك الأدقال عنـد مغارسها فى الأرض. وإذا حصرت الشبهة فيه فما هـو إلا لأنى بحثت عنه فى أركـان الدار فلـم أجده ولعلـه أركن إلى الفرار. قـال بعاكر: أطلق الكلاب فى أثره، وليطارده من يحسن الركض منكم ليأخذ الآفاق عليه، ولمن يرجع به فك رقبته وملء يدى خمس مرات ذهباً.

* * *

كان ضيـوف هيكل سيتى يلتمسون الـراحة بـالنوم وقتما ورد على أمينى خبر قدوم الساحرة مع الأعوان الذين أنفـذهم فى طلبها. فقصد فى الحال إلى الغرفة التى كان أنى ينتظر بها ساعة اللقاء بالعجـوز. وكان هذا الوالى نهباً للهواجس آنئذ، فلما سمع وقع أقدام أمينى وهو مقبل عليه هبّ من غفلته وقال فجأة: أوصلت العجوز؟ أجاب الكاهن الأعظم: نعم. فأخذ الوالى يسوّى شعره المرسل على كتفيه ونظم عقده الكبير ثم قال: فى قدرة تلك الساحرة أن تلحق بي أذى، أفلا تمنحنى البركة أتقى بها شر سحرها. نعم إن معى التعاويذ الـواقية من الشرور كعين حورس وفتنة ايزيس، وإنما يحسن من باب النظر فى العواقب أن.. قال أمينى: فى وجودى هنا وقاية لك من شر السحر، بيد أنى أعلم من جهة أخرى أنك راغب فى مكاشفة العجوز بشئون ليس لى أن أطلع عليهـا. والأمثل عندى أن تـدخلها الغـرفة المنقـوشة الجدران بـالأمثال المقدسة حتـى لايتسلط سحرها عليك، وأبرح أنـا هذا المكان طلباً للراحـة. ثم ودعه وأمر كاهناً كان يسير وراءه: جيء بالساحرة إلى الغرفة المقدسة ورش عتبتها بالماء قبل أن يتخطاها الوالى.

قصد أمينى إلى خزانة صغيرة لصيقة بالقاعة المقدسة التى أمر الكاهن باستقدام الساحرة والوالى إليها ليتمكن وهو جالس بها من سماع ما يدور من الحديث بينهما بواسطة أنابيب وضعت بالجدار فى أوضاع مديرة بحيث توصل الصوت مفخماً إلى أذن المتسمع وإن يكن فى الحقيقة خافتاً. وما هى إلا فترة قصيرة حتى دخلت الساحرة فتفزع آنى لرؤيتها واستطير لبه روعا من هيئتها. وزاد فى تفزعه أن المرأة لبست ثيابا رثة بالية وفكت شعورها البيضاء المرسلة إلى ما يوازى منتصف الجبهة واتخذت لها عكازا تتوكأ عليه فلما أن وقفت شخصت فى الوالى بعينيها الحمراوين بتأثير ما كانت الرياح تسفيه عليهما من الرمال حتى صارتا كجذوتى النار. وكان الناظر إليها فى هذا الشكل الرهيب لا يفرق بينها والضبع الذى يتربص بالفريسة. فلم يلبث آنى- حين رآها وسمع قولها وهى تسلم وتعاتب لأنه استقدمها فى وقت لايلائمها- أن ارتعدت فرائصه فزعاً وتوجس منها خيفة واستطردت هى الكلام فانتقلت من العتاب إلى الثناء والشكر تلقاء وعده إياها تجديد الإذن لها، إلى أن قالت معترفة إنها هى التى وافت بعاكر بالماء السحرى. ثم أزاحت الشعر عن وجهها فعلم آنى آنئذ أن الواقفة أمامه امرأة وكان قبلاً فى ريبة من أمرها.

كان الوالى جالساً فى كرسى والعجوز واقفة تبدو عليها أمارات التعب والضجر فرجت منه أن يأذن لها بالجلوس قائلة إن عندها من جم الأخبار ما يمهد له اتخاذ بعاكر آلة فى يده، فأشار آنى إلى زاوية من زوايا الغرفة فانحدرت العجوز إليها وجلست فيها ولم تنتظر أن يأذن لها بالكلام، لأنها ما كادت تستقر فى مكانها حتى أخذت تناجى نفسها: نعم لابد لى أن اذيع له ما كان كامناً من أسرارى كى يرتاح بذلك ضميرى وتهدأ نفسى وأخلص من أعباء المسئولية، فلست أحب أن أحرم

تحنيط جثتى، بل أود الاطـلاع على حوادث الحيـاة الأخرى.. أعـرنى سمعك! يجب عليك قبل أن أثير لك ما هو كامن فى صدرى أن تقسم بالآلهة لتدعنى وشأنى أعيش فى سـلام وأمان وتبـاشرن فى تحنيط جثتى بعـد موتى.. أقسم بـاليمين وإلا فلست أبوح بشىء.

اقتصر أنى فى جوابه على ايماءة الرضى بهذا الشرط. فاعترضت العجوز: الايماء فى هذا المقام لايكفى لتوكيد القسم. بـل لابد أن تجهر فى صراحة بصيغة اليمين التى أمليها الآن عليك وهى: «إذا لم أفِ لنيخت بوعدى إياها قضاء مرادها فى مقابل عملها على أن تجعل الموهـار فى حوزتى وتلقى بـزمامـه فى قبضتى فللشياطين الخاضعـة لمطلق إرادتها والمنفـذة لجازم مشيئتهـا أن تسلبنى نعمة الحيـاة قبل الصعـود إلى عـرش الملك».. لاتحفظ علىّ يـامـولاى إذا شرطت هـذا الشرط، فإنما بقـولك «نعم» توكيدا لهذا اليمين تستفـزنى إلى سرد حوادث على مسامعك هى لغـرابتها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، مع أنها الواقع الذى لا اختلاف فيه.

قال أنى وقـد عيل صبره: أقسم بذلك القسم وأقول «نعم» غير حـانث ولاناكث. عندئذ تمتمت العجوز بكلمات لاتفيد معنى ولا تـؤدى إلى مراد وظلت سـاعة فى تأمل واستجماع فكر، ثم اشرأبت عنقها فبدا جيدها ضئيلا يكاد يظنه الرائى لشدة نحوله فقرات عظم مكسوة بالجلد، ثم شخصت فيه بعينيها المتقدتين ناراً قائلة: أسمعت فى شبـابك أن غادة تـدعى (بيكى) فتنت الشبـان بجمالها البـاهر وخلبت مسـامعهم بصوتها الرخيم.. إذا كنت لم تـرها ولم تسمع عنها فانظر أمـامك جيداً تجدها بين يديك. قالت هـذا وضحكت بطناً لظهـر ثم استجمعت بيديها أطـراف ثيابها الـرثة البالية لتستر بها مـابدا من سوأتها وقبح صورتها. وبعـد هنيهة استأنفت الحديث

قـائلة: نعم إن الـرجل يتناول قطف العنـب فيمتص عصير حياتـه بلذة وهنـاءة ثم يطرحهـا على الأرض ويدوسـهـا بقدميـه. فما أشبهنى اليوم منهـا أهينت وديست بالاقـدام بعد أن استنزف خيرهـا وامتص كل حسن ولذيذ فيهـا.. لا ترمقنى بعين الرأفة.. لأننى وإن قوست الشيخوخـة ظهرى والتصقت بالتراب ذلا ومهانة وفقراً واستكانـة لم يستطع أحدهم أن ينكر علىّ أننى كنت ذلك القطف اللذيـذ الطعم الذي طـالما جدّ الكثيرون في طلب التمتع بلـذته.. ولست أجـد فى ألف امرأة مثلى كـانت فى حياتها مجمعاً لتضارب الأضـداد من سعادة وشقاء وحب وبغضاء وسرور وألام وتســامح وانتقام ونشــاط وثبوط وأمل وقنـوط. لـذلك أرانى كلما فكرت فى هـذه الحياة جـديرة بالصعود إلى عـرشك المنيع والاستواء فى مكانك الـرفيع. ولاتوجس منى خيفة أبداً فقد اعتدت من أمد بعيد الزحف والتسلق والهجوم والتدفق، فاسمع إذن كل كلامى ولاتقــاطعنى وأنا أوافيك بما تتـوق إلى الوقـوف عليه من الحوادث الجلى والوقائع العظمى.

كنت فيما غبر من أهل الطبقـة العـاليـة فى الأمـة، وكانت عـادة الأكـابـر وذوى الحيثيـات أن يتزلفـوا إلى المرأة الجميلة بأنـواع الملق والمداهنة وتصنـع الخشـوع، وابتسم لى ثغر السعادة والعز فأصبحوا طوع أمرى جميعا. هذا ولقد آن لى أن أقص عليك تاريخ حيـاتى وإن لم أجرؤ من قبل على مفـاتحة أحد بـه ولو كـان من أولياء الأمور.

قبل نحو الخمسين عامـا كانت الشبيبة تتهافت على سماع صـوتى وتتنافس فى التقرب إلىّ للأنس بى والحظوة منى بلفتة أو ابتسامة أو كلمة، وكنت لا أغنى صوتا إلا ويجىء صحيح الصنعـة والتجـزئة فتراهم يتوثبـون من أمـاكنهم إلىّ اهتـزازا

بتلاحينه وإعجابا بما كنت عليه من براعة جمال وحسن محاضرة وكان والدى ذا أصل وفضل وجاه. عهدت إليه فى زمانه أزمة الحكم فى مدينة أبيدوس ولجهره بالولاء والإخلاص للأسرة التى أنت غصن دوحتها والحلقة الأخيرة من سلسلة سلالتها اضطهده رعمسيس الأول بعد إذ خلص له الملك اغتصابا وتعدى بالبغى عليه وأوصل صنوف الأذى إليه، فقد أمر بإبعاده هو وأفراد أسرته إلى منجم الذهب ببلاد الحبشة فلقوا حتفهم فيها جميعاً ولم يبقَ منهم وقد انقرضوا سوايَ. وكنت لم أزل على جمال غض وصوت رخيم، فلما عدت إلى مصر اندرجت بطيبة فى سلك فرقة موسيقية، فكانت لاتقام معالم الأفراح والحفلات إلا وأكون لها غرة جبين ودرة تاج. وقد جمعت من ممارسة هذه الصناعة مالا كثيراً وجذبت إلى دائرتى عدداً لا بأس به من الشبان وحصلت من مشهيات الحياة الدنيا ما تجاوز المأمول. ولكن الرزايا التى ألمت بأسرتى والمكاره التى حفت بإخوتى ووالدى ووالدتى أفعمت قلبى بهموم جعلتنى ذاهلة دائمة التفكير كثيرة الهواجس، مع أننى كنت فى سن يحلو فيه مذاق المر ويعذب طعم العلقم.

وكان لايجرؤ أحد من أبناء الأمراء والكبراء– الذين تدلهوا فى عشقى وتسابقوا إلى كسب مودتى وتنافسوا فى مرضاتى –على أن يلمسنى بأطراف أنامله، إذ كنت أضن عليهم حتى بهذه الحظوة استعلاء واستكبارا..بيد أنه كان لكل كبرياء حد ينبغى أن تقف عنده، فقد قضت الآلهة فى حكمتها الأبدية ان تستذلنى وتكسر من شكيمتى، فساقت لى الشاب أسا الذى لابد أن تعرفه، وهو والد الموهار السابق وجد بنطاؤر، وإن تشأ فقل جد بعاكر رئيس الطلائع. كان ذلك الشاب يجمع إلى جماله الرائع شرف الأصل وكرم الأخلاق، فكنت كلما غنيت دوراً عمد إلى الجلوس أمامى ووضع عينيه علىّ وأصغى سمعه إلىّ واستقر فى مكانه لايتلفت يمنة ولايسرة. وفى

هذا القدر كفاية لكى تعرف ما وقع بعد.. ولكنك لاتستطيع أن تعرف ما حصل.. لم يتفق لمخلوق على وجـه الأرض ان يتفانى فى عشق آسا كما تفانيت فى عشقـه.. مالى أراك لاتهش لسماع هذا الكـلام..؟ ولكن لعل لك عذرا فقد يكـون من المضحكات أن تسمع الحديث من عجوز مثلى لا سن واحدة فى فيها.. تـوفى آسا منذ بعيد، ولعلى لم أزل أضمر له البغضاء ذلك لأن حبه ما بـرح متأصلا فى فؤادى.. قضى آسا حولين كـاملين لم يعرف فيهما امـرأة غيرى ثم سافـر مع الملك سيتى فى محاربة الأعـداء، فكان لايمـر بى يوم إلا كما يمر العام ملـلا من الانتظار. فلما حطت الحرب الأوزار وعاد إلى الـوطن متوجـا بأكليل الغار ومنيت النفس بقـرب لقائه وبعـودة المياه إلى مـجاريها، فما كان أشد مصابى حين علمت أنه اقترن بفتاة جميلة من بيت عظيم ذى محتد كريم وما أسرع ما دبت فى قلبـى عقارب الغيرة حتى كدت أذوب غيظاً وأموت حسرة وكمداً.

وكنت لم أزل على جمال غض وشبـاب نضير فتحينت الفـرص حتى التقيت بـه وجها لوجه عشرين مرة، غير أنه كان فى كل منها يصدف عن طريقى ويلتمس الفرار منى كما يفر السليم من الأجـرب، فكبر الأمر على نفسى وانتابنى من جـرائه جزع شديد وتوله لم يلبث أن نالتنى بسببه حمى شديدة عجز عن علاجها أعاظم الأطباء حتى كادت تذهب بحياتى. ولما يئست من شفائى وقنطت من تحقيق رجائى حررت له الـرسالة الاتيـة: «أشرفت بيكى على الهلاك وتتمنى أن لو تتـزود منك نظرة قبل وفـاتها فتفضل بتحقيق أمنيتها» ثـم طويت ورقـة البردى التى حـررت فيها هـذه الكلمات على أول هدية قدمها إلىّ وهى خاتم وضيع القيمة.. اتعرف ماذا كان جوابه على رسالتى؟ أرسل إلىّ مالا وفيراً من النقدين الكريمين. فما وقع نظرى عليه حتى خُيل لى أنـه وضـع فى عينى حديـدا حمى فى النـار حتى احمر، ومازلت حتى اليـوم

أحس لسعاتـه الحامية كلما فكرت فى خيبـة أملى وفشل سعيى، ولكنكم أنتم معشر الرجال والسادة الذين طالما استسهلوا الصعب وانقادت لهم الآمال لاتقدرون تأثير اليأس فى القلـوب الكسيرة والأفئـدة الكليمـة. ولـو اجتمع منكم ثـلاثـة أو أربعـة وقصصت عليهم هذه الحادثة لما وسع أرفعكم مقاماً أن يقول بصوت جهورى «لقد أصاب فيما فعل» ثم يبنى هذا الحكم على أن أسا كان متـزوجا زواجا شرعياً وأنه لا يليق به أن يختلف إلى غانيه تطرب الجمهور بصوتها الرخيم، لأنه إن فعل فقد نقض عهد الزواج ولم يقم بـالواجب وجرّ على نفسه اللـوم والتعنيف.. ولكن أفى مثل هذا التعليل ذرة من الحق والصواب؟ كـلا! لأن صاحبه لابد أن يكـون ممن يعتقدون فى المرأة البائسة التي فوجئت بالهجر المتلف أنها ليست من البشر وأن جوفها خال من قلب رحيم يتأثر بـالعواطف الشريفة أو يحفظ عهـد الوفاء، وأن هذا القلب لـو وُجد فعـلا لبقى متنكساً فى وهـدة اليأس والقنـوط خمسين عامـا فلا يحس قلب امـرأة أخـرى شيئاً من الغيرة بسببـه، فهـو إذن وجود عـدم.. إن أسـا تحرى فى سلوكـه اجتناب اللوم من قرينته.. ولكنه جوزى على بغيـه بتساقط اللعنات عليه والتصاقها بذريته مـن بعده، فهى ملازمة لهم أبـد الآباد.. رأى أنه كان حـريصاً على الفضائل متمسكا بـأهداب العفة فى حين أنـه قد أثم إثما ليس لـه من شافع إذ ألقـى فى مهواة اليأس قلباً كان مـا برح مقيما على عهد الولاء له.. ولا ريب فى أن اجتنـابه الحضور عندى فى ذلك العهد دليل على أنه كان لم يزل مغرماً بى، وإنما خشى أن تذكى رؤيته إياى بعد طول التنائى نار هذا الغرام في فؤاده، وحسبى ذلك باعثا على التماس العذر له. وإذا كان هناك ما يفت فى عضدى ولا أعـذره من أجله فإنما هو إرساله إلىّ بذلك المال.. إنه بهذا الفعل الذميم قد جنى جناية لا شفاعة فيها ولاغفران.

فاهت العجوز بهذه الكلمات فكان يخيل للسامع أنها فى حلم تهذى، فارتاع الوالى

من منظرها وبدرت منه حركـات جعلته وهو فى كرسيه يتراجع إلى الخلف، وتنبهت الساحرة إليه فاستجمعت قواها لاستئناف الحديث وقالت: أنتم معشر القوم الذين تحلقـون فى سماء السيـادة والعـز بأجنحـة الكبريـاء والعظمـة كما تحلق الطيـور الجارحـة فى أجـواز الجو، لا يقلـق بـالكم ولايـزعج ضميركم شـأن أولئك الـذين وضعتهم الأقـدار فى الـدرك الأسفل.. ولكنى استأنـف حـديثى فأقـول: لما كُتب لى الشفاء مما اعترانى من الأدواء شعرت بصـوتى الرخيم وقد ذهبت محاسن نغماته ورصانة نبراته وعطفاته، وكنت مع هـذا في مال كثير وعيش رغيد فصرفت ما أملكه على سحرة طيبة وشربت مياههم السحرية التى تجدد فى القلوب ما اندثر من معالم الحب وتستأصل جرثـومة الشر، وصرفت همتى إلى استرجـاع صـوتى الـذى كان رسول الغـرام بينى وقلب آسا وبه امتلكت قياده، فلم تجدِ الادويـة نفعاً، بل أصبح صوتى أقـرب ما يكون إلى نعيق الناعـق أو نعير الناعر. وقد اطلع على خبيئـة أمرى كاهن طُرد من هيكله وكان ساحراً ماهـراً عرافاً، فلزمته ملازمة الظل للشبح حتى تلقيت عنه أسرار السحر، وإذ رأى أن أصدقاءه فى وقـت الصفاء والهناء قد انفضـوا جميعاً من حـوله، فقـد التجأ إلى المقابر، فـاقتفيت أثره بيد أن الحكـومة سـاقته إلى المحاكمـة وانتهى أمره بـالمشنقة فبقيت وحـدى فى إحدى المغـارات واشتهرت بين الناس– حتى الصبيـة فى الطريق– بممارسـة السحر، فكانـوا يعدلـون عن طريقى وامتلأت صـدورهم علىّ بالأوغار والإحن كما امتلأ صـدرى بها على نفسى، وكان هذا كله جناية وحيد طيبة فى التقوى والمروءة والصلاح.. آسا.

ومع توالى هـذه النكبات كنت حذقت مهنتى المقـوتة ومارست معها نحـو مائة مهنة أخـرى. فلما كان مساء ذات يـوم قدم إلىّ (سنت) مباشر البستـان الذى كنت أشترى منه ما أحتاج إليه من الحشائش، ومعه غلام وليد أصابع إحدى قدميه تبلغ

الستة عداً، وسألنى أن أصلح منه ما أفسد الدهر بأن أجعل الستة خمسة، وقال إنه جاءنى على غير علم من زوجته وأنها لو كانت وقفت على سر ما أراده لمانعته فى تسليم الغلام إلىّ، وكان من المستطاع فى الواقع إصلاح ذلك التشويه أحياناً.

وفى ضحى اليوم التالى سمعت صدى ضوضاء وهرج فى الوادى فما هى إلا برهة حتى أقبل فوج من الخدم يسألوننى المبادرة بمصاحبتهم لإنقاذ مولاتهم، وكان أخذها الطلق وهى فى زيارة قبور الأجداد، فأخفيت الغلام السداسى الأصابع طى ثيابى وأمرت خادمى أن يحضر الماء ثم عجّلت بالانصراف مع الخدم إلى مكان الحادث، فإذا بى أمام قبر والد أسا. وهناك علمت أن المرأة التى جعلتها آلام الطلق تتلوى كالثعبان إنما هى ستخم قرينة ابن أسا، وكانت قد وضعت الجنين قبل وصولى إليها بدقائق. غير أنى رأيت فى حالتها ما ينذر بالخطر.فأنفذت الخدم فى الحال ومعهم محفة كنت رأيتها بجوار الباب لاستدعاء أحد الأطباء من بيت سيتى.

وفى غيابهم جميعاً قالت لى خادمة من غاشية السيدة إن مولاها الموهار والد الغلام فى ميدان الحرب وأنه جده الشريف أسا وعد بالحضور إلى المقبرة وهو لابد واصل إليها بعد فترة من الزمن وأنه لم ينته إليه بعد نبأ الوضع. وكانت ترمى بهذا القول إلى الاستئذان منى فى الخروج للقائه، فأذنت لها ولما ألفيت نفسى وحيدة غسلت جسم الطفل وأخذت أقبّله بشغف كأنه ولدى، ثم سمعت وقع أقدام الطفل وأخذت أقبّله بشغف كانه ولدى، ثم سمعت وقع أقدام على أحجار الوادى فمرت بخاطرى ذكرى ساعة النزع التى رأيت الموت فيها رأى العين. وكنت أنتظر أن يقبّلنى أسا القبلة الأخيرة ولكنه بدلا منها أرسل إلىّ من المال ما كنت عنه فى غنى، فتولانى من ذلك غيظ وامتلأ صدرى حقداً وميلا إلى الانتقام حتى أصبحت كمن

مسها خبل، ولم أدرِ كيف استطعت أن أعطى خادمتى المولود حفيد آسا، وأن آمرها بالـذهاب فورا إلى المغارة. ووضعت فى حجـرى ولد البستانى الـذى كنت أحمله فى طيـات ثيـابى الباليـة. وقـد خُيل لى عنـدئذ أن الـدقـائق تمر كالسـاعـات لشغفى باستطلاع محيا آسا، فلما أقبل رأيت - بالـرغم من بياض شعره- أنه مازال باسم الثغـر حلـو الشمائل فقدمت إليـه ولـد البستـانى وأنـا أشعر بقلبى وقـد سكنتـه الشياطين والجن والمردة.

أما هو فـأطـال فى الغلام النظر ثم أعاده إلىّ دون أن يعـرفنى أو يستبطن حقيقة أمرى، وأبـرز لى من جيبه بعد ذلك ملء كفـه ذهباً فتقبلته منه دون أن أفـوه بكلمة واحـدة، ثم انصرفت. وكـان كهان بيت سيتى قـد تـواردوا منـه تباعـاً. فسمعتهم ينشدون الأنـاشيد يضرعون فيهـا إلى الآلهة أن يكون طـالع الوليد الجديـد سعيداً ومستقبلـه فى أوج السماء. فلما عدت إلى المغـارة أغربت فى الضحك حتى تسـاقطت الدمـوع من عينى. ولم يكن ذلك لابتهاج فـؤادى الواله إلى حـدّ أنه من كثرة مـا قد سرنى أبكانى وإنما لأسباب ، لا تخفى على اللبيب الفطن.

وبعد أيام سلمت إلى البستانى حفيد آسا قائلة له إننى قد نجحت فى إزالة إصبعه الزائد. وكنت - لخدعه وذرّ الـرماد فى عينيه- قد عنيت بخـدش أصبعه وتضميده. وعلى هذا المثال شب ابن الموهـار وحفيد آسا وترعرع فى أسرة البستـانى الوضيعة كما تـربى ابن هذا الـرجل الحقير فى أسرة ذاك. ولقـد تلقى بنطاؤر العلـوم فى بيت سيتى واشتهر فيها بالتفوق على أقرانه.. وبعد أفلا ترى قرائن الشبه متوافرة بينه وآسا وأن بمقـدارها تجد أسبـاب التباين واضحة بين بعـاكر ذى الستـة الأصابع وجده الشريف المزعوم؟..

أصغى آنى إلى العجوز وكأن على رأسه الطير. وإذ كان الإنســان مجبولاً بفطرته على اصطناع من يحسن إليه أولا يفشى لـه سرا أو يساعده على إنجاح مشروع فإن آنى لم تحدثه نفســه قط بعقاب الساحرة على هـذه الجناية، كلا ولا بتـوبيخها على سوء فعلها، بل طفق يطيل التأمل فيما كانت عليه من جمال رائع وصوت رخيم، وفى أنها فتنت بحبها شبـان ذلك العصر. ثم قارن بين خـلالها فى ريعان شبـابها وبينها الآن فشبهها بـالزهرة الزاهية وقـد ذبلت وذوت وبالقناة وقد احـدودبت. لهذا قال لها: يا بيكى! لك أن تعيشى فى أمـان حتى ترحلى من هذا العالم الفـانى وإنى لأعدك وعداً صـادقاً بتحنيط جثتك إذا مت، وإنما أرى أن قـد أصبح جديرا بك ترك السحر والعيش بما عندك من المال فى أرغد حال وأهنأ بال. وإذا كان المال ينقصك فخبرينى بما تحتـاجين إليه منـه وأنـا لا أضن عليك بـه، ولست أخشى أن أتحفك بشىءمن الذهب وإن أكن علمت من كلامك أن الذهب يثير كـامن الحقد فى صدرك. قالت: ربما احتجت يومـا إلى مالك ولكن دعنى الـآن أذهب إلى حال سبيلى. ثم اتجهت مهـرولة نحو الباب فاستوقفها آنى ليسـألها إذا كان أسا هو والد نيمو قزم راتوتى فضحكت ظهرا إلى بطن وقالت: ألمحت فى هذا القزم مشيـة أسا أو ملامح بيكى؟.. حقيقة أمره أننى ربيته ككثيرين من أمثاله. قال آنى: لقد أنست منـه حيلة واسعة وذكاء مفرطا. قالت: لاعجب فإنـه من أقدر الرجـال على حسن التدبير وجودة التفكير. وقـد امتاز بشدة إخلاصه لـراتوتى، وهو خير من يعاونك على نيل مقاصـدك لأن له هو أيضا مقاصـد يسعى إليها. سأل: وماهى هـذه المقاصد؟.. أجـابت: إذا أصبحت راتوتى قويـة بعضدك ومثريـة ببعاكر فلن يعترض الموهـار مانع عن الـرحيل للفتك بمينا وترميل زوجتـه نيفرت. قال: أرى أنك واقفـة على أسرار كثيرة تدعونى إلى تـوجيه سؤال آخر إليك.. أصحيح أن هناك ماء سحريـا يذكى فى شاربه نار الحب؟ أجابت:

سأقفك على الحقيقة لتفى لى بوعدك.. نادراً ما يؤثر الماء السحرى فى شاربيه بقدر ما يؤثر فى النساء الخالية قلوبهن من الهوى، فأنت إذا قدمته إلى فتاة فاتنة تهوى فتى جميلا وشربته هامت به. سأل: أعندك حيلة للمرء يستطيع بها الخلاص من غائب؟ أجابت: كيف لا.. يكفى لذلك أن يسعى الوضعاء والأفناء بالنميمة في حقهم ويشهروا بسيرتهم. والظاهر لى من أسئلتك أن ما رويته عليك من الحوادث لم ينبه فى قلبك عاطفة الرحمة فإننى استخلص منها شدة كراهيتك لينطاؤر.. لمَ أراك تضحك.. إن ذكرى هذا الشاب ما برحت متمثلة لخاطرى لأننى بشطارتى حرمته ميراث أبيه.. إن جمال صورته وعزة نفسه يصوران لعينى تمثال آسا، فلاعجب أن أشعر فى نفسى بعاطفة تدفعنى إلى حبه كما أحببت جده وهو أمر من الغرابة بمكان ولكن لاعجب ولا دهش إذا قيس هذا الشعور بما أشهده من السيدات السيئات الحظ اللائى يفدن زرافات وشتى على مغارتي لالتماس معونتى. إننى أراهن على شغف عظيم بمن تنحوا عن ودادهن وهجروهن الهجر المتلف. وما اشبهنا معشر النسوة بعضنا ببعض فى أمور كثيرة. ومع هذا فلست راغبة فى حب حفيد آسا وليس لى أن أحبه وإنما ينبغى لى أن أعمل على ايصال الأذى إليه بين خصومه .. نعم إن آسا مات وأصبح من الرفات، ولكن نار إساءته إلىّ ما برحت متقدة فى جوانحى وهى لا تخمد إلا بخمود حياتى، فليكن إذن ما قدر فى سابق الأزل لنبطاؤر من الشقاء والتعاسة.. وإذا كنت تريد به سوءاً فما عليك إلا الاتفاق مع نيمو الذى يضمر له الحقد.. فإذا استعملته فى هذا الغرض، فإن عمله سيكون بلا ريب أكبر أثرا من سحرى وتمائمى ومياهى السحرية.. وبعد فإننى أرجو منك أن تأذن لى فى الانصراف.

انقضت ساعات على انصراف نيخت من حضرة الوالى فإذا برسول أمينى يمثل بين يديه ليدعوه إلى تناول الطعام على مائدته، فلما ذهب إليه أنى سأله: أتدرى من

هى الساحرة نيخت؟ أجاب أميني: كيف لا، إنما هى بيكى فاتنة شبان طيبة بجمالها وساحرة عقولهم برقة صوتها.. وهل لى أن ألم بما قالته لك؟ فرأى أنى أن من الأوفق له ألا يكاشف أميني بسر ولادة بنطاؤر ولهذا تردد فى إجابته إلى طلبه، وإذ كان أميني داهية دلكته الحوادث وحنكته العبر فقد استأذن من حليفه أن يوافيه هو بمجمل الأسرار التى أفضت إليه بها ثم أخذ يسرد عليه مادار بينه والعجوز متعمدا التغيير والتبديل فى بعض الحوادث حتى لا يداخل الوالى أنه كان في مخبأ يتسمع لهما. وما استقرت الرواية فى سمعه حتى تظاهر بالدهشة ووافق على ما ارتأه الكاهن الأعظم من وجوب كتمان أصل بنطاؤر وإنكاره عليه. قال أميني: إن بنطاؤر ذو قريحة وقادة وفكرة نقادة وأخشى أن يدبر لنا المكايد وينصب المصايد إذا نحن لم نكاشفه بحقيقة أصله.

وكانت العواصف فى خلال هذه المحادثة هدأت والسحب انقشعت وصفا أديم السماء وبرد الجو، ولكن الحرارة لم تلبث أن انتشرت فيه رويدا رويدا بطلوع الشمس على الأفق. وما غادر الناس مراقدهم لممارسة أعمالهم حتى رأوا وجه الأرض مجللا بما اقتلعته العواصف من الأشجار والأكواخ خاوية على عروشها والمنازل متهدمة والخيام المضروبة فى حى الأجانب متمزقة، وطارت مئات السقوف المتخذة من سعف النخل بفعل تلك العاصفة التى لم تصدها قوة الإنسان ولم تنفع فيها حيلته.

عاد الوالى والكاهن الأعظم إلى طيبة وكان ثانيهما يود أن لو يقف بنفسه على ما أتلفته العواصف فى حديقته فما كاد زورقهما يتوسط النيل حتى اقترب من زورق بعاكر فصوتا به، فلما التفت إليهما طلب الوالى منه فى رفق وملاطفة أن لا يضن عليه بزيارته والتردد عليه لمشاهدته ومحادثته.

وكانت حديقـةالكاهن الأعظم لا تقل انفساح جوانب وحسن تنسيـق عن حديقة الموهار، لأنه ورثهـا عن أبيه فعنى بترتيبها على أجمل نسق. وكان يخيـل للناظر أن الدار القائمة بوسطها -بين الأشجار البـاسقة -قصر باذخ وبناء شامخ. وكان من عادتـه تناول طعـام الغذاء مع قـرينته وهي امـرأة مازالت فى فتـاء السن وتـوافر الحسن، ومع بناته الفاتنـات بجمالهن. فلما أن وصل إلى حديقته وشهد ما لحق بها من أذى العـاصفة جلس معهن تحت أرجـوحة متخـذة من أغصان الشجـر وأنشأ يسليهن عن تلك الخسـارة الفادحـة ويعدهن بإصـلاح ما سقط على الأرض بقـوة الريح من أقفاص الحمائم وأن يجعلها امتن وأحسن مما كانت، ثم انتقل من التسلية والـوعـد إلى المزح والتملح، لأنه كـان مع ظهـوره ببيت سيتى فى مظـهر الـرئيس الشديـد الوطأة لين العريكـة كان فى بيته متواضعـاً فكان لزوجتـه القرين الموافق ولبنـاته الـوالـد الحنون يشـاركهن فى سرورهن ويقتـدى بهن فى محبة أزهـارهن وطيورهن.

ولما تناول الطعـام وغادر المائدة يحيط به بنـاته دخل أحـد الخدم يعلن وصول السيدة ستخم والدة بعاكر. فامره أميني: أرشدها إلى مكان سيدتك. غير أن الخادم الذى كان يخفى فى كفه الهدية الثمينة التي أتحفته بها ظل واقفاً فى مكانه قائلا : إنها إنما تريد مقابلة الكاهن الأعظم لمحـادثته فى أمر خطير. قال أمينى مغضباً: الا يتاح لى التمتع بالـراحة ولو سـاعة من الزمـن؟ الأحسن أن سيدتك تستقبل ستخم وأن تبقى معها حتى أستطيع مقـابلتها بنفسي.. ألم يكن المعقـول يا أولادى أن أخصكم بهذه الساعة أنتم والدجاج والبط والحمام؟

فلم يجاوبه أولاده بغير التعلق برقبته والاستمساك بذيول ملابسه ثم انصرفوا يتوثبون ويطفرون مبتهجين. وقد مضت - وهو بينهم على هذه الحال- ساعة طلب

بعدها إليه السيدة فجىء بها إلى الحديقة فأنشأت تقص عليه ماناالت الأحزان والهموم منها، وكانت عيناه أثناء الحديث تترقرقان بالدموع. ومما قالته له: أنت المرشد الروحانى لولدى وفلذة كبدى، وغير خافٍ علىّ مقدار ما يقدمه للآلهة من القرابين إثباتا لاحترامه إياهم، إلا أنه لا يصغى لنصائحى ولايحترمنى احترام الولد البار لوالديه. وظهر لى أخيراً أنه يضمر النيات الخبيثة والمقاصد السيئة، فإذا لم تتهدده بغضب الآلهة عليه فلا خلاص لمينا من بين يديه وربما.. وربما.. قال أمينى: وربما اعتدى على الملك.. إنى عليم بموضوع شكواك ولسوف أحدثه فيها. قالت وقد تناولت طرف ثوبه لتقبله شكراً وامتناناً: أشكر لك صنيعتك معي مادمت على قيد الحياة ولا تنس أنك على أثر ميلاد هذا الولد قد بشرت والده بحسن طالعه ويمن نقيبته وأنه سيكون زينة أسرته وفخر قومه، وإلا فهل قدرت الآلهة علىّ أن أخسره فى الدنيا والأخرى بعصيانه أمرى ومروقه عن طاعتى؟

قال أمينى : ما بشرت به المرحوم قرينك من حسن طالع ولدك ويمن نقيبته متحقق لا محالة، لأن للآلهة فى تحقيق الآمال سبيلا غير سبيل الرجال. قالت ستخم: فلتكن كلماتك هذه بردا وسلاما على قلبى المفعم بالحزن مما نابنى من ولدى. ولقد كنت مترددة فى الحضور إليك لعرض شكوايّ عليك، ولهذا لم أبح لك بكل ما حصل.. فقد سقطت الأدقال العالية التى جلبها من جبال لبنان البعيدة لتخفق الاعلام بأطرافها أمام داره وألقتها العواصف على الأرض بعد أن اقتلعها من مغارسها. قال أمينى: صبرا صبرا يا سيدتى فلسوف يطمئن قلبك وينشرح صدرك ولابد لولدك أن يذعن لإرادتك كما أذعنت تلك الأدقال لقوة العواصف. قالت ستخم: شكرا لك ولكن عندى سرا أريد مكاشفتك به.. أعرف أننى ضيعت عليك شطراً ليس بالقليل من نفيس وقتك، وهل أنفس عندك من الوقت تقضيه بين أفراد أسرتك؟ ولقد سمعتك تقول يوما لزوجى المرحوم إنك كلما جئت إلى طيبة تشعر فى نفسك برضاء يسرى عنها الهم ويجلى الكرب وتكون أشبه بالجواد الكريم يخلى من سرجه ولجامه

ويرخى لببه ثم يطلق سراحه فى المروج الزمردية والسهول المترامية الأطراف فيمرح كما يشاء. ولكننى أسألك أن تصغى إلى حديثى فقد رأيت فيما يرى النائم ما يوجب الدهشة ويقضى بالعجب .

ذلك أن بعاكر لما أبى العمل بنصيحتي وولى عنى بكتفه عُدت إلى حجرتى فأخذتنى عند طلوع الشمس سنة من النوم رأيت فيها بنطاؤر خطيب الأعياد الذى خلب العقول بذلاقة لسانه وفصاحة بيانه وأنه من توافر الشبه بزوجى المرحوم بما يخيله للناظر قريبا لا غريبا، ثم رأيت بعاكر يتقدم نحوه ويمتهنه ويسفهه ويفحش فى حقه ويستطيل فى عرضه. وكان فى توثبه عليه يحاول إلحاق الأذى به، فلما تبين بنطاؤر منه هذه النية بسط يده للدعاء كما فعل يوم الاحتفال، ولكنه إنما بسطها ليأخذ بتلابيب ولدى وليجره إلى منازلته. وقد تم له ما أراد إذ تنازل الاثنان فخيل لى أن بعاكر قد تدخل جسمه بعضه فى بعض حتى تبّدل من صورته الإنسانية المقوّمة بكتلة لا وصف لها ولا كيفية، وأن هذه الكتلة سقطت على قدمى بنطاؤر، وتبين عند فحصها أنها لم تكن إلا قطعة صلصال كالذى تتخذ منه الآنية سواء.

قال أمينى: غريبة فى بابها هذه الرؤيا! على أننى مازلت أبشرك أنها فأل خير وعنوان سعادة، لأن الصلصال بمرونته يتشكل بجميع الأشكال وفي تحوله إليه حكمة خفية أرادت الآلهة بها إفهامك أنهم يعوضونك من بعاكر خيراً منه صورة ونفساً وعقلا. ولست أدرى على وجه التحقيق كيف يتم ذلك كله، ولهذا أرى أنه لا بأس من مواصلة الدعاء بالدعاء والصلاة بالصلاة وإهداء القرابين مع الاتكال على احكم الحاكمين. وهناك نصيحة أخرى لن أضن عليك بها وهى أن تقابلى بعاكر-كلما لقيك- بوجه باش وصدر رحب، فإذا أقام على عناده القديم فلا تدعيه يدنو منك والفظيه كما تلفظ النواة.

وما ختم الكاهن الأعظم نصحه حتى همت ستخم بالانصراف مطمئنة القلب

مرتاحة الضمير. وكان أمينى يناجى نفسه ساعة انصرافه: لست فى ريب من أن هذه المرأة ستجزى خيراً على صبرهـا وآلام نفسها فقد أمـرّ عيشها وأطال ليلهـا سلوك ذلك الشاب الحقير. ولكن استنقاذها منه فى المستقبل لن يحول دون إمكان جعله آلة لتنفيذ مقاصدنا، ولطالما شككت فى صحة الأحلام ولكن لم تحدثنى نفسى يوما بأن المستقبل سيميط عن هذا السر العجيب اللثام.. ولعل قلوب الأمهات تحس ما يقع فى المستقبل من الحادثات.

ما بلغت ستخم إلى دارها حتى التقت ببعاكـر يسوق عجلته عند بابها فلم تحفل به ولم يعنَ هـو بها، ولايعلم إلا الآلهة مقدار مـا شعر بـه كلاهما نحـو الآخر حين تـلاقيـا من انقباض الصـدر واكتئـاب النفس.. وفى المسـاء التقى بعـاكر بـالـوالى للتفاوض ثم قصد بيت سيتى ليطلب إلى الكاهن الأعظم أن يبارك فى مشروعه ويدعو له بـالتوفيـق، ثم وضع القرابين الكثيرة على قبر والـده. وعلى أثر عـودته أخـذ يعد معدات السفـر إلى الديار السـورية فلما همّ بالـركوب فى مركبتـه وافاه الخدم بنبأ القبض على الخواص المتهم بقطع الأدقـال فأمرهم بـأن يفقأوا عينيه عقـابا لـه على فعلته وكان آخر ما أصدره من الأوامر والأحكام قبل رحيله إلى بلاد الشام.

ابتعد بعاكر رويداً رويـداً، ولم تكن ستخم وجهت إليه كلمة وداع أو إيماءة تدل على رضائهـا عنه، إلا أن هـذا الصدود لم يمنعهـا من الابتهال لـلآلهة أن يلينوا من قسوة قلبـه الجلمودى ويقوه شر الـوقوع فى الخطايـا والآثام. وما تحـرك قلبهـا بهذه العـاطفة إلا لأن الأمهـات فطرن على الـرحمة بـالأولاد والمفاخـرة بهم فى كل محفـل وناد.

الفصل السادس

تدريب الأمراء على الأعمال ..كى يكونوا للغير خير مثال

مضت أيام ثلاثة على رحيل بعاكر إلى الشام، كان المصنع الذى أنشأته بنت أنات يدوى فى خلالها بهمس العاملات كما تدوى الخلية بطنين النحل. وكانت الأميرة ونيفرت قضتا ليلة العاصفة أى الليلة التالية ليوم تنكرهما لشهود الاحتفال دون أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانهما. فلما تنفس الصبح رجت نيفرت من الأميرة أن تأذن لها بقضاء النهار فى التماس الراحة من عناء الحوادث الأخيرة، فرفضت الأميرة طلبها قائلة: الأليق بنا يا صديقتى أن ننفض عن أنفسنا غبار الخوف وأن نوجه أفكارنا شطر غاية أخرى. أما سمعت قول العقلاء «لا تؤجل إلى الغد ما يمكنك أن تعمله اليوم» فاقتفى إذن أثرى بجلد واطمئنان. ولكن هاأنذه أشعر برعدة تهز أركان جسمى كما لو كان الوحش بعاكر قد أهوى بيده على كتفى فلوثتها بدنسها.

أذعنت نيفرت لأمر صديقتها فقضت معها اليوم الأول وقد عانت فيه تعباً ممضا وتولاها يأس مضجر. فلما كان اليوم التالى أنست من نفسها الميل إلى ملازمة الأميرة والاغتباط بصحبتها. ولم يسعها فى اليوم الثالث إلا أن تعترف بما أحرزته من براعة فى العمل وأنسته فى نفسها من ميل إلى مجاراة غيرها فى إتقانه. وهذا شأن الإنسان فى ممارسة الأعمال، كلما اتجهت عزيمته وخلصت نيته فى إنجازها ازداد شعفاً بها. وما عليه إلا أن يجلد ويصبر بادىء الأمر على قمع نزعاته التى تصده عن مزاولتها، فمتى تمكن من صدها حلا له العمل وانكب عليه من غير سأم ولا ملل.

ولقد أحسنت بنت أنات إذ فوضت إلى صديقتها الرقابة على طائفة من العاملات، ومنهن فتيات صغيرات مات عنهن آباؤهن، وأيامى قُتل فى مواطن الحرب أزواجهن، ولقطاء ولقيطات وبائسون وبائسات خانهم الدهر ورشقهم بسهام الغدر وأوقعهم فى مخالب الفقر، لأن هذا العمل كان مما يوافق ميلوها ويطابق رغباتها.

وكان عمل تلك العاملات مقتصراً على فرز النباتات الطبية. وكن يجلسن على الثرى متربعات حلقات بدوائرها متلامسات، بوسطها النباتات ما بين رطبة ويابسات. وكان يرشدهن إلى كيفية فرزها وترتيبها طبيب من ذوى الأسنان لايكف عن التنقل من حلقة إلى حلقة حاثا مرشدا، وكانت نيفرت تحب الأزهار حبها للأطفال فوجدت من العمل الذى ناطته بها بنت أنات خير فرصة للبحث فى تلك الأزهار ودرس خصائصها وحث أولئك الأطفال على مواصلة العمل، وصرفت نحو هاتين الغايتين همها فتمكنت فى الزمن القصير من التمييز بين المجتهد والكسول، تعد ذاك بالمكافأة وتحث هذا على الاقتداء به.

ورأت أثناء هذه المراقبة طفلة عارية البدن نجلاء العينين فاتجهت صوبها وسألتها: ماذا تصنعين أيتها الفتاة، ألا تدرين أنك بخلط هذه النباتات بعضها ببعض تسببين الهلاك لمن يعالجون بها؟ أى مصاب أجل وخطر أفدح من أن يصاب أبوك بجرح فى ميدان القتال فإذا وضع عليه بدلا من النبات النافع الناجع نبات ضار ورد شر الموارد وساء مصيرا؟!.

فلما سمعت الفتاة هذا العتاب علا وجهها الاحمرار وأومأت برأسها ايماءة الامتثال لأمرها والعمل بنصحها واستأنفت عملها بيقظة والتفات. عندئذ انصرفت نيفرت عنها قاصدة إلى فتاة أخرى بدت عليها علامات التوانى والكسل، فقالت لها: أنت كثيرة الهذر! أنسيت والدك الذى ينازل الأعداء فى ساحة الوغى معرضا جسمه

لطعنـات الرمـاح وقاتل الجراح!.. مـاذا يكون مصيره إن لم يجد الطبيب لطعنـات الرماح وقاتل الجراح!.. ماذا يكون مصيره إن لم يجد الطبيب على مقربة منه يسعفه بالدواء؟ أو ماذا يقول هذا الـوالد التعس إن رآك فى حلمه مخلدة إلى السكون واضعة يـديك على ركبتيك.. ألا يقول إن ابنتى لا تحبنى ولا تحترمنى لأنى أراهـا قاعـدة لا تزاول عملا فى حين يجب عليهـا الاجتهاد فى إعداد الدواء الـذى يترتب عليه خلاص والدها المريض من مخالب الموت.

ثم تراجعت إلى مكـان حلقة كبيرة من الفتيات فقالت لهن: أتـدرين أيتها الفتيات أين تنمو هذه النباتات؟.. لعلكن تجاوبننـى بلا، إذن انبئكن بأصلها.. خرج حورس الطبيب يـومـا لمحـاربة سيت الخبيـث فلما احتدمت بينهما نـار القتـال تمكن هـذا الشيطان المريـد من إيذائه إذ فقـأ له إحـدى عينيه[1]، ولكن الظفر كـان فى النهاية لحورس لأنه لابـد من انتصار الخير على الشر وإن طـال الأمد. ولما رأت إيـزيس أن الدائرة دارت على ابنهـا العزيـز تلقته بين ذراعيها وأسنـدت رأسه إلى صـدرها[2] وشعرت بما يشعـر عامة البشر به من الحزن وانقبـاض الرجاء. وقد تأكـد لها انه يتعذر -بل يستحيل- تعويض تلك الخسارة، فتماطـرت الدموع من عينيها وكانت تنحـدر على الأرض فينبـت فى مسقط كل قطـرة منهـا نبـات من النبـاتـات التى بأيديكن[3].

---

(١) هذه الحقيقة التاريخية مستخرجة من كتاب الأموات.

(٢) يؤخذ ممـا جاء فى مقدمة أوراق البردى المعزوة إلى الـدكتور ابيرس مؤلف هذه الـرواية ومما ورد فى كتاب الأموات أن ايزيس عالجت عين ابنها حورس فأعادتها كما كانت.

(٣) يسند المصريـون إلى دم آلهتهم ودموعهـا مزايـا الخصب. وقد استقصى هـذا البحث المسيو (لوفيبـورد) في كتابه تحت عنوان «عينـا حورس» ونشر (نافيل) كتابـا في مدائح را أو رع سمى الإله فيـه (ريمى) ومعناه الباكى. ويوجـد فى الكتابات المنقوشـة على قبر سيتى الأول مع الصور الممثلة للذريات الاربع التى يتفرع منها أفراد الجنس البشرى ما ترجمته «أنتم دموع عينى» إلخ.

فقالت إحـدى الفتيات: إن ايـزيس تحب الخير، وقد ذكـرت لى والدتى أنها تحب الأطفال الطـائعين. قالت نيفرت: ماذكـرته لك والدتك حق لا مراء فيـه فإن لإيزيس ولدا شغفت به حباً وهو حورس الصغير. وغير خاف أن الإنسان إذا تحلى فى حياته بـالفضائل عـاد بعد وفـاته طفـلا صغيراً فتتبنـاه ايزيس وتعـزه وتكرمـه وتمده بمساعدتها وتشمله برعايتها حتى يشب ويترعرع ويصبح قادرا على القتال انتقاما لأبيه.

ورأت أثناء كلامها امرأة أثرت فى نفسها هذه الرواية بما حملها على الكباء فدنت منها وسألتهـا عن أمور أجابت عنهـا بما يفيد أنها فقدت زوجهـا ثم ابنها ،الأول فى حرب الشام فالثانى عقب عودته إلى مصر. قالت نيفرت: ما أسوأ حظك أيتها المرأة.. ولكن الواجب عليك التسلى عن فقـدهما بالعمل لعلاج الجنود الجرحى.. أتـدرين ما فعلت ايـزيس؟ كانت ايـزيس تحب زوجها أوزريس كما كنت تحبين زوجك الـذى رماك الزمان بفقده، وكما أحب قرينى مينـا وأتفانى فى الإخلاص له والمحافظة على عهـده، فلما وقع أوزريس فى الشرك الذى نصبـه لـه سيت اللعين حارت إيـزيس فى أمرهـا وضاقت عليها المذاهب، لأنها كـانت تجهل المكان الـذى احتوى جثة قـرينها العـزيز. فهى قـد ذاقت إذن من العـذاب أضعاف مـا تذوقينـه، ذلك لأن قبر زوجك موجود تستطيعين زيـارته متى أردت. أما هى فلا، لأنها لم تهتد إلى مكـانه فأخذت تخترق البلاد وتجوب الآفاق باكيـة نادبة حتى خشى على مصر أن يصيبها الجدب المهلك. ولما كان أوزريس هـو المودع لعناصر الخصوبـة بين ذرات تربتها، فقـد كاد النيل يجف وتـذوى الأشجار واشتـد اليأس وعزت الحيلـة، غير أن دموع ايـزيس سقطت فى مجرى النهر فـارتفعت فيه المياه حتى بلغت ضفتيـه. ومن ذلك العهد إلى الآن صارت النقطـة الواحدة من دمـوعها تكفى لإفـاضة النيل فى كل عام بـالبركة الوفيرة والـخير العام.

وكانت المسكينة تصغى إلى حـديث نيفرت، فلما جاءت هذه على آخـره قالت: لقد تـرك ولدى بمـوتـه أربعة أطفـال فكفلتهم ، لأن أمهم وهى تحترف بغسل الثيـاب للناس التهمها التمساح وهى تمارس حرفتها على شاطىء النيل وكان لاينبغى لمثلى أن يعنى بشأن الغير وهو عاجز عن العنـاية بشأن نفسه ولا أن أرثى لمصاب غيرى إذا كانت المصـائب محدقة بى.. وهل تظنين أننـا فى هذا البيت كنـا نشتغل ونقضـى معظم الوقت فى العمـل لفائدة الجرحى، لو لم تغـدق علينا الأميرة بنت أنـات جزيل الإحسان ووافر الصـدقات.. إنه لما يضاعف الأحـزان ويثير الأشجان أن يتولانى الضعف والاضمحلال فلا أعود قادرة على تربية أربعة من الأطفال.

ارتاعت نيفرت لسماع هذا القول الذى ماطرق مثله سمعها إلا منذ ثلاثة أيام فلم يسعها– وهى عاجزة عن مؤاسـاة تلك المرأة المسكينة بعبارات العطف والرفق– إلا أن قصدت بنت أنات ورجت منهـا أن تزيد مرتبها من فيض مكـارمها. فلما شـهدت الأميرة جزعها هـدأت روعها قائلة: هل لى أن أرفض رجـاك ولا أقدر مسعاك وأنت الوزر والعـون لى على عملى؟.. تعالى معى الآن لتفقد أحـوال الطاهيات فقـد أمرتهن بـانضـاج بعض الثمار والفاكهـة وحفظهـا فى العلب ليتـذوقها والـدى وإخـوتى، وسأرسل إلى قـرينك مينـا حصتـه منهـا. فـرافقتهـا نيفـرت إلى المطبخ حيث رأت الطاهيات يـرتبن الثمار الذهبية اللون المجلوبـة من واحة آمون (١) فى علب يحكمن اقفالها ويضعن الثمار المستـوردة من النوبة فى أوعية أخـر برسم الملك رعمسيس، لتفضيله إياها على غيرها. قالت: دعينى أضـع هذه الثمار فى الأوعية الخاصة بها. ثم أخذت ترتبهـا، يتخللها فواكه أخـرى مختلفة ألوانها، فكانت كـل طبقة منسقة على

(١) هى واحة سيوة

شكل جميل يروق العين مـرآه. وكانت بنت أنات ترمق الأطبـاق على مـختلف نسقها بعين السرور والارتياح. فلما أتمت نيفرت عملها صافحتهـا الأميرة قائلة: ما لمست هذه الأصابع شيئاً إلا وجعلته جميلا ومحبوباً مثلها. ثم تناولت الورقة التى تلصق على الوعـاء للدلالة على مافيـه وكتبت عليها «رتبته ونمقتـه قرينة مينا العـريقة فى الحسب ورفيقة بنت أنات».

وبعد الغداء وصل إلى القصر لفيف من الناس سألوا عن الأميرة فبرزت لمقابلتهم، ولـزمت نيفـرت العـامـلات إلى أن آذنـت الشمس بـالمغيب ، وهمّت هـذه النسـوة بالانصراف فأستوقفتهن نيفـرت وقالت لهن: إن زورق الشمس يغيب وراء حجب الجبال الشرقية فنبتهل إلى الآلهة أن يحفظوا حياة الملك ويقوا الغائبين عنا شر العناء والهموم، ولتفكر كل منكن فى أقربائها وذويها المحاربين فى مواطن القتال. وأنتم أيها الأطفال أذكـروا آباءكم بالخير وادعوا لهم بـالنجاح والفوز. وأنتن جماعـة النسوة اذكـرن أزواجكن، ولنسأل آمون أن يعيـدهم إلينـا سـالمين كما تعود الشمس بعـد غروبها إلى الشروق ، ثم جثت على ركبتيها فاقتدى بها الأطفال والنسوة. ولما نهض الجميع تقدمت إليها فتـاة فجذبتها من أطراف ثوبها وقـالت: بالأمس قد أجلستنى على ركبتى وشهـدت اليوم أن صحـة والدتـى قد تحسنت فهل سبب هـذا التحسن أننى دعوت لها بالشفاء؟ فربتت نيفرت بيدها شعرها الأسود وقالت: أجل، إن سبب شفـائها دعـاؤك لها. ثم انصرفت للبحث عن بنت أنـات فـرأتها متكئـة على حاجـز الشرفة نـاظرة إلى طيبة الأمـوات التى كان الظلام ينسـدل عليها شيئاً فشيئـاً، وما شعرت بوقع أقدام نيفرت حتى انتفض جسمها لأنها كانت سابحة فى تيار الأفكار.

فلما رأت نيفرت ذلك تراجعت إلى الوراء قـائلة: لعلى كدرت صفوك وأقلقت راحتك. أجابت بنت أنات: كـلا يا عزيزتى، إنى أشكر الآلهة أن ساقـوك إلى هذا المكان لآنس بك وأسرى عن نفسى الهمـوم والأحزان بمخالطتك. قـالت نيفرت بصـوت خافت: تبينت الآن بواعث أشجانك وأحزانك، إنك مازلت تذكرين بنطاؤر. قالت: حقاً ، إننى دائمة التفكير فيه ولـذا أصبح فؤادى ملتقى هواجس وميول وعـواطف لو انتزعت منه لكف عن الخفقـان وكان نصيبى من هـذه الحياة الحرمـان. يروون عنى أننى انتهكت حرمة العادات وخرقت سيـاج الآداب ويتهددونى بعقوبة ربما صرفتك عن مصـاحبتى، إذ لا أشق منهـا على مثلي فتكـون النتيجة حـرمـانى لطف معـاشرتك والأنس بك. قـالت نيفرت: إنـى قسيمتك فى الضراء كما أنا شريكتك فى السراء. ومـا الذى يتهـددونك به ويفرضونـه عليك وأنت كريمة مليك هـذه البلاد والمتصرف فى رقاب العبـاد؟ أجابت: برزت لـلأنظار كإحـدى بنات الشعب وكان هـذا من فساد الرأى ولابد من الرضـاء بعاقبتـه.. دار بينى وكبير كهنة هيكل آمون حديث تأكد لى من فضله وثبت عندى علمه ونبله، واطلعت من خلاله على أنه من ذوى البر، فعقدت النية على العمل بنصـائحه، لاسيما وأن والدى كـان قبل رحيله إلى مواطن القتال قد وصـانى بالخضـوع لأمره والعمل بإشـارته. ومما شرحه لى وأيقنت معه عظم ذنبى أننى دخلت أحـد هياكل طيبـة الأموات ملوثـة بالـدنس ثم عدت فـدخلت بيت بينم المحنط رغم تعـزير الكـاهن الأعظم إياى لـدخولى فيه المرة الأولى. وقـد خبرنى أن جماعة الكهان قـد انتهت إليهم تفاصيل ما وقع لنا من الحوادث يـوم الاحتفال وما كان من تنكرنا وإخفائنا على الناس حقيقة أمرنا. أفبعد هذا كله أستطيع الامتناع عن

التطهر؟ ألا تـرين أنه لم يبقِ أمـامى سوى إحـدى سبيلين: إما التماس الصفح من أمينى بعد الإقرار بالذنب أمامـه في محفل حافل من الكهان والأعيان، وإما الحج إلى هيكل هاتور الـزمردية(١) إلهة المعـادن المطهـرة، فمددهـا هـو الفـاصل بين الحق والباطـل وسرها وسيلة الطهـر من الدنـس. وهيكل هذه الإلهة الـذى يقوم كهـانه بتطهير الأدناس على مسيرة يوم من المناجم وإلى جانبه وادٍ ينحدر الماء إليه من جبل سيناء المقدس كما يقـول أمانتو(٢)، وهى شقة بعيـدة يقاسى المسافر فيهـا العناء ويتكبـد أهـوال الصحارى والقفـار. وقـد شرح لى كـاهن آمون ضرورة الـرضــاء باحتمال المشـاق وأوصانى بـالغنى عن استشارة أمينى فى أمـر ما حتى أتقى أذاه وهـا أنـذه أراني مضطرة الآن إلى العمل بنصيحتـه لاسيما بعـد أن اقتضح أمـرى وخيف أن يقتدى بى فيه غيرى.. إن الكهان لسان حال الآلهة، وقد قضى هؤلاء على المدنسين بالتماس الطهـر من الذنـوب، لا فرق فى ذلك بين كبير وصغير. ومع علمى الآن بصواب هـذه الأحكام أرى من الصعـب على نفسى الخضوع لأوامـر الكهان.. ألست فى الحقيقة ابنـة رعمسيس؟ قالت نيفـرت: نعم أنت كريمتـه وهو من الآلهة.. فقـاطعتها بنت أنـات: علمنى والـدى احترام القوانين ولـذا تـريننى حفيظة عليهـا محترمة لأحكامها عاملة بنصوصها.. وقد دار بينى وبين الكاهن الأعظم حديث ثانٍ

---

(١) كانت هاتور إلهة المعـادن والأحجار الكريمة وكانت تلقب بهاتور المفكـات، والمفكات نوع من حجر أخضر ولعلـه محرف من مسكات الـذى معناه بالسـان المصرى القديم الـزمرد أو الـزجاج الملون بالأخضر. ويوجد فى القصر اليابانى بمدينة درسدن فى ألمانيا صورة الإله بتاج مصنوعا من هذا الحجر.

(٢) سكان جبال سينا.

فى موضع آخـر هو الـزواج بالـوالى آنى. فإنه غير خاف عليك أنـه طلب الاقتران بى فـرفضت رفضـاً لا أرتاب فى أنـه من أجلـه سيبغضنى، غير أننى أصبحت فى حيرة شديـدة لأن والدى اختاره وصيـاً علىّ ومشيرا لى، وليس فى وسعى الآن الاستمداد بمعونته ولا الاسترشاد بمشورته. وكيف يليـق بمثلى الركون إليه فى أمر وأنا أميرة ابنة أمير؟ إننى أفضل أن أجوب الصحراء ألف مرة على أن أصم والدى الملك بوصمة العار.. على أننى سأنتظر إلى غد لاعتـزام أمر، ولكن لمَ هذا التردد وهذا الارتياب؟.. لقد عقـدت النية على الرحيل وإن تكن الشقة طـويلة والمصاعب جليلـة. فلا تجزعى إذن يا صـديقتى، لا تجزعى فقد عرفتك من رقـة الحاشية ونعومـة الأعضاء بما لا تستطيعين معه اقتحـام الأخطار وتجشم مشاق الأسفـار. وقد رغبت.. فقـاطعتها نيفـرت: أبداً ! أبـدا! لا منـاص لى من مرافقتك ولـو كـان السفر إلى أعمـدة السماء الأربعة[1] أو أطـراف البقـاع المسكونـة من العـالم. وكيف لا أرافقك وإليك يـرجع فضل وقوف على أمور كثيرة كان زهدى فى معاشرة الناس سبب جهلى بها وتطورى الآن بطور حياة لم يسبـق لى عهد بها.لست أخاف إن أنا عدت إلى والـدتى أن تذوى أغصان الأفكار التى وضعت غراسها فى قلبى وتعهدت نبتها بمواد النماء من فضل رعايتك وغـزير علمك..؟ ولايـذهبن عليك أن بيت مينا لاينبغـى أن يقبض على دفته سوى واحدة منا نحن الاثنتين، وإذا كانت والدتى تريد أن تكون فيه صاحبة الكلمة النـافذة والأمـر المطاع على كل حـال فجديـر بى ألا أعـود إليه إلا مع أليف حيـاتى وشقيق روحى مينا.

---

(١) توجـد على تمثال تحتمس الثالث الموجـود بالمتحف المصرى هذه الكلمات «أنـا آمون».. انشر أمـامك الخوف حتى يبلغ إلى أعمدة السماء الأربعـة». وكـانوا يـريـدون بهذه الأعمدة الجهـات الأصلية الأربع أو حدود العالم كما يؤخذ من بعض النصوص.

قالت الأميرة: يبدو لى من قولك أنك مصرة على الرحيل، ولكننى آسفة لغياب والدى فإنه لو كان مقيما بين ظهرانينا الآن لفزعت إليه لاستشارته وفضلت العمل بإرادته. فتنهدت نيفرت وقالت: إننى لآسفة كذلك، ولكن هى الحرب لا تعرف أسفاً ولا تفتح صيوان أذنها لشكوى ولا يخفق قلبها لرثاء. ولست أدرى لماذا لا يقنع الرجال بما قسم لهم من الخيرات ولماذا يطمحون دوما إلى المزيد منها ويضحون السلام لذلك على مذبح الحرب. قالت بنت أنات: لو كانوا على غير ما نلوم منهم لما أجبناهم إلى مطالبهم، بل لما ملنا إليهم. وهل رأيت منظراً أجمل فى النفس أثراً من بنطاؤر وقد حمل على قوم طاشت أحلامهم وضاع صوابهم وخاطر بحياته لينقذ روح طفلة بريئة من الذنوب منزهة عن العيوب. قالت نيفرت: لم التفت إلى ما وقع أمام بيت المحنط لما تولانى من شديد الجزع، ولكن لايزال صدى صوته حينما كان يحمل على أعدائه يرن فى أذنى. قالت بنت أنات: هكذا يدوى صراخ الشجعان حينما يتقهقر أمامهم الأعداء ويولون الأدبار. ودخل الأمير راميرى أثناء الحديث فسمع بعضه فقال: صدقت، فهكذا يدوى صراخ الأبطال فى الآفاق. فارتعدت فرائص بنت أنات لأنها لم تكن رأته، إذ كان الليل أرخى سدوله ثم قالت: لقد أزعجتنى وألقيت الهلع فى قلبى. قال الأمير: كيف يعروك خوف ويملأ قلبك جزع؟ قالت: كنت فيما سبق لا أخشى أمراً ولا أهاب خطراً ولكننى منذ ليلة الاحتفال عرانى من الذهول ما صرت معه أخاف من لا شيء . ولعله أصابنى مس من شيطان أو عدانى بعدوى خلقه جبان. قال راميرى: مادمت صاحبة الأمر والنهى فى كل مكان فليس من يطالبك بالطاعة له. هذا وما زلت أراك متأثرة بحوادث ليلة الاحتفال. وأنا أيضاً كلما فكرت فيما كان من أمرى مع الكهان وطردهم إياى من المدرسة وتذكرت جراة بعاكر حينما حرّش بنا الكلب نالنى من الغيظ ما حرك فى نفسى حب الانتقام، ولكن

حمداً للآلهة فقد نصرونا عليه فى الختام. سألت بنت أنات: وماذا كنت تفعل منذ منعك عمنا آني من مبارحة القصر؟ أجاب: لا حاجة بى إلى وصى يتولى شؤونى ويهيمن على فى تصرفاتى، ففى الشهر المقبل أناهز الثامنة عشرة من عمرى. قالت: ولكن أنسيت والدك وأنه.. أجاب مقاطعا: إن والدى يجهل دخيلة نفس الوالى فهو غير ملمّ بما يدبره له من الدسائس وينصبه من الشراك. أما علمت أن أنصاره عاهدوه على الطاعة وحلفوا بالإيمان التى لا فسحة فيها أن يكونوا له عونا على تحقيق مراده، وما مراده فى الحقيقة إلا ما يتهامس به بعض مقربيه من طموحه إلى عرش الملك، فهو إذاً عامل على إبرام التدابير المؤدية إلى إسقاط والدنا الملك من عرشه. ولعلك تنكرين عليه هذا السعى وتستبعدين أن يفكر مثله فيه مالم يكن طاف به طائف من الجنون، ولكن لا تنسى معنى المثل السائر « لا دخان بلا نار».

ما سمعت نيفرت هذا الخبر حتى اصفر وجهها جزعاً وسألت الأميرة أخاها أن يوافيها بما عنده من تفاصيله فسرد لها كل ما انتهى إليه من أقوال الناس وآرائهم وما تأكد له فى أثناء تنكره. ثم قال مبتسما:إذا حاول آنى أن يسقط والدى مع علوة عرشه فيكون أشبه بنا فيما لو حاولنا أن نستنزل من كبد السماء كوكب إيزيس لنوقد به ما نحن الآن فى حاجة إلى الاستضاءة به من المصابيح. قالت نيفرت: أرى فى الظلام الذى نشر جناحيه علينا ما استحسنه. قالت بنت أنات: كلا بل لابد لنا من الضوء إذ لا يستقيم الحديث معى إلا إذا استجليت وجه من أخاطبه. ومع أننى لست ممن يحفلون بما يدور من الأقاويل على ألسنة العامة فلابد لى من مكاشفة والدى بها. قال راميرى: وأغرب هذه الأقاويل ما التقطته من أفواه الناس بمدينة الأموات. قالت الأميرة: يؤخذ من كلامك أنك عدت ثانياً إليها بعد مغادرتنا إياها.. إن كنت فعلت فقد أخطأت ولم تأخذ بالروية فى عملك. قال راميرى: نعم فعلت متنكراً وقد

وقفت بتنكرى على أخبار يسرك سماعها، فإن وردة الزاهية قد تماثلت للشفاء وهى تقيم الآن فى بيت خاص بها بفضل رعايتك وما أغدقت عليها من نعمتك. وهذا البيت كان مكاناً مهجوراً على مقربة من كوخ جدها الذى أحرقه المتظاهرون. فاستعان والدها ببعض الناس على إقامة جدرانه وتدعيم أركانه. وقد أخافنى منظر هذا الرجل لأنه جندى جاف كثيف اللحية بدين الجسم هائل الخلقة، ليس بين وردة وبينه قرينة شبه. فإذا كانت تشبه الأيكة البيضاء فى رقتها ولطف شمائلها فإنه كالقنفذ فى خشونته وقبح سحنته. ولقد عرضت عليها أن تجىء إلى قصرك الرفيع العماد لتزاول عملا مما تجزين عليه البنات الفقيرات خير العطايا وأجزل الهبات فرفضت معتذرة بحاجتها إلى مواساة جدتها والقيام على خدمتها، ولكننى أعلل هذا الرفض بأنه مظهر من مظاهر الإباء وعزة النفس.

فحدقت الأميرة فيه وقالت: أحدس أنك لبثت طويلا بين المدنسين ولم تتعظ بما وقع لى. قال رامبرى: لست أرى بعد الكمال الذى بلغت إلى أوجه باستقلال فكرك وقوة إرادتك مجالا تنزع إليه همتى وتسمو نحوه نفسى. إن المحنط الذين يقولون إنه سبب البلاء وأصل الشقاء قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ولم يبقَ غير والد وردة، وهو رجل طاهر من الدنس وعاره. فأى بأس من الاختلاف إليه واستجلاء أسراره؟ أما العجوز الشمطاء فقد بذلت فى اجتنابها الجهد وبهذا التحرز لا أرى ما يمنع من القصد إلى بيته فى الغد. ولقد عاهدت على ذلك ولابد لى من الوفاء بالعهد. سألت الأميرة: ولمن أعطيت هذا العهد؟ أجاب: أوَ تُعطى العهود وتُضرب الوعود لغير وردة ذات الجمال الرائع! لقد عهدتها شغوفة بالأزهار وفهمت أنها لم تشم لها عرفا منذ الوردة التى تكرمت فأهديتها إليها فى زيارتك الأولى لها. ومن ثم أمرت مباشر الحديقة بتنسيق باقة أنيقة سأحملها إليها بنفسى. قالت: أحجم عن هذا

الفعل.. أحجم وعليه لا تقدم، فأنت فتـى لا تـحسن النظر فى العواقب. وإن كنت ممن يحبون لها الخير والنفع فلا تجعل لك بها صلة، وإلا كان لعاقبتها سىء الوقع.

فتربد وجه راميرى وقال: أنا الآ ن فى معزل عن الـوشاة والرقباء ولهذا أكاشفك بدخيلة نفسى دون أن أهـاب أحداً.. إن كنت تريدين منى الطاعة لك فهـاأنذا مقرّ لك بها، بدليل أنى أترك عنـدك باقة الأزهار. بيد أن هـذا لن يحول دون زيارتى لوردة وتفقدى حالتها.. إن وردة غـادة فتانة للعقول بروعة جمالها ورشـاقة قدها وورد خدها، جذابة للقلوب بمحاسنها التى لا يحصيها العد.. ولم تقع قط عينى على امرأة تضارعها فى محاسنهـا، فإن يدى نيفرت اللتين تضرب بـدقتهما وانفتال أصابعهما الأمثال تشبهان قـدميها. ولقد دار بينى وبينها الحديـث على شؤون كثيرة وتناول حديثنا الشاعر بنطاؤر فخبرتنى أنها تعـرف والده مباشر البستان وتلم من أموره بما لايعلمه إنسان. ومما أنقله عنها أنها لا تعتقد أن هذا الشاعر ولد البستانى، وإنما هـو ملك هبط من سماء الخير والإحســان، وقد يكـون إلها جـاء بالبركـة والفيض العميم. ولقد كانت فى بدء حديثها يقظة شديدة الحذر والاحتياط فى حياء واحتشام ، ثم انطلقت فى الحديث فما نطقت بـاسم بنطـاؤر حتى انطلق لســانها بتقريظـه بما استخلصت منه أنها تحترم هذا الشاعر أو تكاد تعبـده. ولقد غاظنى منها ميلها إليه وعطفها عليه. قـالت بنت أنات باسمة: إذن ترى نفسك أولى من بنطـاؤر باحترامها واعجابها. قال: كـلا، وإنما آنس فى نفسى سروراً لا يوصف كلما جلست إلى وردة، ثم إنى انظر إليها بوصف أنى أنقذتها من الهلاك كما أنقـذها بنطاؤر. ولقد اعتزمت أن أنضد الأزهار فى شعرها الذى يشبـه شعرك غزارة واسترسالا وإن اختلف عنه لونـا، فهو أشقر ذهبى، إذا مســه الإنسان بيده من أصـوله إلى فروعـه أحسّ حالا بالغبطة والهناء.

فتبادلت بنت أنات ونيفرت عندئذ نظـرات لم يفهم معناها سواهما ثم التفتت الأولى إلى أخيها قـائلة: بنى العزيـز! نصحتك ألا تذهب إلى طيبة الأمـوات فلم فعلت؟ قال راميرى: سأنظر غداً فيما ينبغى أن يكون من إقـدام على الزيارة أو إحجام عنها. ثم أعقب هذا المزح بالجد فقال: اعلمى يا شقيقتى أنى حدثت أنانا أحد رفقتى السابقين بمدرسة سيتى فيما يقع بها من الظلم والحيف، فقلت له إن بنطاؤر ملقى فى السجن وأنه حـوكم بالأمس فى حضرة عمنـا الوالى الـذى كان يـريد بـه الأذى والشر، لولا معارضة الكـاهن الأعظم الذى جهر لأمينى بأنه سيشمل بنطاؤر بـرعايته ويسبغ عليه درع حمايته. ومع أن هذه الأخبار بلغت إلى علم الطلاب فإنهم مازالوا يجهلون مـا تم فى أمر الشـاعـر. وكل ما وصلهـم أنهم سمعوا أمينى يقـول لجاجـابو: إنـه يستحق شديـد العقاب، ولكنى لا أسمح لأحد بإعـدامه.. فالمرجح عنـدى أن يكون بنطاؤر هو المقصود بهذا القول. وإذا كنت عقدت النية على الذهاب غداً إلى المقبرة فما هو فى الواقع إلا لاستطلاع الحقيقة ، إذ هل يبعد أن يكون حكم الإعدام أبدل بعقوبة السجن عدة أعوام؟..

ما سمعت بنت أنات هذا الكلام حتى امتقع لونها وصاحت: أنا سبب ما نزل بهذا المسكين من المحن والمصـائب، فيـا أيها الآلهة اسعفونى واظفـرونى بحـاجتى. ثم اعتمدت رأسها وخرجت مهرولة. فقال راميرى لنيفرت : ماذا حصل بشقيقتى، ولمَ تغير لونها.. وأنـت لمَ تبدل من حـالك؟ أجابت: تختلف أحـوال الإنسان بـاختلاف ظروف الزمان. قال: وما تعنين بهذا الكلام؟ أجابت: لا تطلب مزيداً من البيان، وكل مـا أقولـه إنك سترى مغبـة تلك الظروف إذا بقيت مصراً على زيـارة بيت المحنطين والعدول عن نصائح المخلصين.

الفصل السابع

تآمر العواطف على الحب.. وتأثيرها في القلب

في بكرة اليوم التالي جاز القزم نيمو مع رجل عليه رداء قاتم اللون بالخربة التي اتخذتها وردة مسكناً لها مع أهلها. وكانا يقصدان سيراً على الأقدام إلى مغارة الساحرة ، فلما وصلا إليها قال القزم: ليتفضل مولاى بالانتظار هنا ريثما أخبر بوصوله والدتي العجوز. قال الرجل: اخبرها ألا تصوت باسمي فإني أحب ألا يخيلني الناس إلا قيما ككثيرين غيرى، ومع هذا فأنا في غنى عن هذا التحرز إذ لا يستطيع أحد أن يقف من أمرى على شيء مادمت متنكراً بهذا الزى. فهرول نيمو إلى المغارة، وقبل أن يلتقى بالعجوز وجهاً لوجه صاحت به قائلة: لا تترك سيدك الشريف وحده خارج المغارة، فليس هذا من الأدب اللائق في شيء، ولست بجاهلة اسمه وإن أخفى علىّ رسمه، فرفع نيمو سبابته إلى شفته إشارة الأمر بالسكوت وقال بصوت خافت: إن مولاىَ لا يحب التعريف بنفسه وهو يرغب في تسميته بالقيم. قالت العجوز: هب أنه كذلك، فما هو إلا كالنعامة تخفى رأسها تحت جناحها واهمة أن أحدا لا يراها. سألها القزم: وهل طالت زيارة الأمير لوردة؟ أجابت ضاحكة: وهل هناك بأس إذا اجتمعا وهما طفلان يمرحان.. ألا يشبه راميرى الحمل الصغير الذى لم ينبت قرناه بعد، وإنما يشعر بالمكان الذى سيذرّان منه ويودّ أن لو يستطيع الانتفاع بهما؟ فالأولى بك الالتفات إلى من هم أشد بأساً وأصعب مراساً من راميرى كالشاعر بنطاؤر خصمك اللدود، ولكن دعنا الآن من هذا الحديث فإنه مما لا يليق ابقاء القيم على جمر الانتظار.

قالت هذا ودفعت القزم بقـوة ساعدها فانطلق مهرولا نحـو الباب حيث كان الوالى واقفاً بـزى المتنكر، ثم أخذت الطفل شراعـو المسكين الذى كان مثبتـاً فى آلة تقصير القامـة فألقته بداخل المغـارة وغطته بكيس قماش قـاتم اللون إخفاء لـه عن النظر. وبعد هنيهـة دخل الوالى فلما رأته العجـوز حنت رأسها إجلالا ودعتـه إلى الجلوس على الكرسى الـوحيد الذى تملكه فلم يجبهـا إلى هذا الرجـاء فألحت عليه أن يجلس قائلة: اجلس من فضلك ولا تخف أن يراك من بطن الوادى أحد، ثم أخبرنى ما سبب زيارتـك إياىَ فى هـذه الساعة؟ أجـاب: أمر جلـل أنا منه فى حـاجة إلى استشـارتك والتزود بنصيحتك. ولقد كان فى قدرة الحراس- وقـد مدّ الليل رواقه- ان يقبضوا علىّ لـولا أنى بهذا الزى تنكـرت فلم يعبأوا بى. على أنى لبسـت تحت ثياب التنكـر ثيابى العادية كى أتمكن بعد مغادرة هذا المكان من التوجه إلى المقبرة لخلع ذلك الزى والتعجيل بالأوبـة. وسأعتذر للأمة بـأنى خرجت لزيارة قبر والـدى فى أحقر زى وسائراً على القدمين وفاء بنذر نذرته من قبل. قالت: صنيع حسن وفعل مستحسن . قال: كيف لا، وتلميذك نيمو هو الذى دبر تلك الحيل فأصاب فيما فعل؟

لما قصّت العجـوز على آنى روايتهـا التى كشفت لـه بها عن سر مـولـد بنطـاؤر وسردت له ما سبق هذه الرواية وماتلاها من عجيب الحوادث لم ينظر إليها بوصف كونها تلك العجـوز الفقيرة الحقيرة التى قوس الهرم ظهرهـا، بل باعتبار مـا كانت عليه ســالفاً من غض الشباب والجمال الفـاتن للألبـاب، وشعرت هى بهذا العطف فبالغت فى احترامه، حتى إن رأسهـا حينما انحنت أمامه كاد يلامس قـدميها. وكان بجوارهما غراب استأنسته ففزع من منظرهـا الرهيب ونعق نعيقاً لبث بعده فاغراً فاه، فألقت العجوز إليـه بقطعة من الجبن فتوثب إلى مكانها لالتقاطهـا، ساحباً على الأرض جناحيه اللذين أثقلهما الضعف، إذ لم تكن فيه قدرة على رفعهما والاستعانة بهما فى الحركة والطيران.

أما آنى فقد قال لها: أريد الحديث معك فى شأن بنطاؤر. قالت: ولمَ؟ أجاب: لأنى أرى فى وجوده خطراً يتهددنى بل حائلا دون إصابة الأغراض التى إليها أرمى. ثم إنه ارتكب جريمة القتل بالاعتداء على الأبرياء، بيد أن كهان هيكل سيتى يبغون إعفاءه من العقاب لمنزلته من نفوسهم. ولايذهب عليك أنهم ينتحلون لأنفسهم حق محاكمة بعضهم البعض ويدعون بأنه ليس لمثلى أن أجرح حكمهم الذى أصدروه عليه بالنفى إلى محاجر رحنو[1]، غير مكترثين بأمرى. ثم نظر إلى نيمو وقال: اذهب يا نيمو لتنتظرنى عند قبر أمينوفيس فإنى أريد الحديث مع والدتك فى أمر خطير.

قال: سمعاً وطاعة يا مولاى. ثم سار واثقاً بأنه لسوف يحيط علماً بكل ما سيفضى الوالى به إلى الساحرة. وما اختفى عن الأنظار حتى وجّه الوالى إلى العجوز فجأة السؤال الآتى: أما زلتِ مقيمة على عهد الولاء للأسرة الملكية السابقة التى اشتهرت عشيرتك بالإخلاص لها؟ أشارت بالإيجاب. قال: إذن فأنت لا تضنين بمساعدتى على المطالبة بسرير الملك، وهذا ما اغتبط به. ثم إنك تعلمين بلا ريب أنه لا غنى لى عن الكهان وأنهم أخذوا علىّ عهداً بأن لا أوصل إلى بنطاؤر أذى. ومع هذا فمازلت أشعر بقلق فى نفسى وانزعاج فى ضميرى من هذا الشاب، لا سيما وقد أبلغتنى العيون التى بثثتها فى بيت سيتى أن الكهان إذ حكموا عليه بالنفى إلى محاجر رحنو كانوا يقصدون إلى جعل عقوبته مقتصرة على نحت الأحجار مدة قصيرة من الزمن، فى حين أن هذه العقوبة ليست بالشىء المذكور لرجل مثله شديد القوى وثيق الأركان، بل ربما كان النحت رياضة له وتمريناً فتزداد أساطينه قوة وفصوصه اندماجاً. ثم إن فى رحنو كما تعلمين مدرسة للكهان تابعة لبيت سيتى.

(١) محاجر رحنو هى جبل السلسلة الآن، وهى التى استخرج قدماء المصريين منها الأحجار التى بُنى بها أغلب المعابد فى الصعيد.

ومن العادات المرعيــة أنه إذا فــاض النيل وارتفعت مياهــه إلى الحافتين أقيمت لذلك أعياد (١) يجتمع فيها الكهان لانتخاب ثلاثة من المجرمين المحكوم عليهم بالنفى مع الأشغال الشاقة فى المحاجر لاتخاذهم خدماً لهم فى الهيكل .ومما لا مراء فيه أنهم فى الأعياد المقبلة سنتخبون بنطاؤر ويطلقون سراحه فتنطلى بذلك حيلهم ويتم مكرهم. قــالت العجوز: يبــدو لى أنهم يبغون الاستخفــاف بك والاعتــداء على حقوقك ، قــال الوالى: لقــد راجعت نفسى وضربت أخماساً فى أسداس واستشرت راتــوتى ونيمو فرأيت أن العمل بمشــورتهما وبما تنصرف إليه نفسى ربما جــرَّ إلىَّ مشكلة تــدعو الحكمة إلى اتقائها ، فما رأيك أنت؟ قالت وقــد بدت على وجهها علامات الاكتئاب: لا مفرَّ لــك من إبادة ذرية آســا عن آخرهــا. ثم أطرقــت رأسها هينهة وقــالت: ورأيى الحكيم أن تجعل ثقباً فى السفينــة التى سيرسل المجرمــون عليها إلى رحنــو، فإذا ما توسطت النيل هوت إلى قاعة فيلقى بنطاؤر حتفــه مع من يغرقون. قال: قد خطرت هذه الحيلة ببالى وأشار بها القزم، ولكنهــا حيلة عتيقة عملت بها أكثر من مائة مرة فشــاع أمرهــا وافتضــح سرها، دعى أن أمينى لابــد أن يتهمنى وقتئذ بنقض العهــد والحنث فى اليمين التى اقسمت بها ألا أوصل إلى بنطاؤر أى أذى. قــالت: قلت حقاً ، وليس بمستغرب أن أرى الــرجال يــوفون بــالعهد بينهم ثم لا يحافظــون عليه مع غيرهم. وإذا لم ترق لك تلك الحيلــة فإليك حيلة أخــرى أحق بالاتباع منهــا وأحرى، وهى أن تأمر ربان السفينة التى سيركبها المحكــوم عليهم باجتياز محاجر رحنو فى

(١) ينحسر النيل فى جهــات رحنو المشار إليهــا، وقد أقيمت بها فى عهــد رعمسيس الثانــى وخلفه منفتاح أثار اسطوانية الشكل نقشت على سطحها الاناشيــد المقدسة التى كانوا ينشدونها، وبينت القرابين التى كانوا يقدمونها لمناسبة تلــك الأعياد. وقد استخرج الدكتور ايبرس وصديقه استرن معانى هذه النصوص وقابلوها على المعلــوم من غيرها. وربما كان الاحتفال الآن بنزول النقطة أو وفاء النيل أثر تلك الاحتفالات التى يرجع فضل اقامتها إلى رعمسيس الأكبر.

ظلام الليل، والاستمرار على الصعود فى النهر إلى مــدينة أسوان، فيبعث بالمجرمين إلى معادن الذهب فيما يلى الصحراء وربما انقضت أربعــة أسابيع أو ثمانية قبل أن يطرق الأسماع فى طيــة هذا الخبر وتتداولــه الألسنة. فإذا رأيت من أمينى التــذمر والغضب فتظاهــر بالحنق على الــربان وبالغ فى تعنيفــه لما تعمد ارتكــابه من الغلط بإيعازك، فإن أمينى لا يستطيع وقتئذ أن يحتج عليك بأنك أردت ببنطاؤر شراً. وفى غضـون ذلك يسهل عليك بما توافــر فيك من لباقة وحذق، وبما عرف بعــاكر به من عسف وتجبر أن تحقق أملك فى الاستواء على عــرش الملك. أما الأيمان والعهود فإنها تصبح أوهى من بيت العنكبوت، ووقتئذ يمكنك أن تترك بنطاؤر بمعادن الذهب لأن الــذاهب إليهــا لا يعــود منهــا.. ألم يمــت والــدى وشقيقى فيهــا وبيضت الشمس عظامهما.

قال آنى: إن أمينى لا يسلم بوقوع الغلط. قالت العجوز: إذا لم يصدقك فاكشف له عن وجــه الحقيقة وزد عليها أنك لما تبينـت الحيلة التى دبرت لإنقــاذ بنطاؤر من العقوبة فى رحنو، أبت نفسك أن يبقى هذا المذنب جــامحا فى غوايته وأن تهان حرمة القانون بمثل تلك التدابير. ومتى علم منك بوجود الشاعر فى معادن الذهب استفسر عن أحوالــه، فإذا أيقن أنه على قيــد الحياة صوّب الكهــان رأيك واستحسنوا فعلك.. هذه نصيحتى إليك فاعمل بها ولا تحد عنهــا إذ لا يســع القيم الذكى القصى مرامى النظر فى العواقب مثلك إلا أن يجعلها نصب عينيه مــادام طامحاً إلى الاستئثار بالدار التى وُكلت شؤونها إليه. قال آنى: عندى اعتراض على هذا الاقتراح وهو أنى لست فى غنى عن مساعــدة أمينى، ولست أحب أن أصبح ألعوبة فى يديــه فيغلبنى على أمرى ويشاركنى فى سلطانى.

فهـزت العجوز كتفيهـا استنكافـا ثم دخلت المغارة حيث غـابت هنيهة ثم خـرجت وبيدها قنينـة وقالت: خذ هذه القنينـة فإن أربع نقط منها تكفى إذا وُضعت فى قليل من النبيذ لإضاعة الصواب. وما عليـك إلا أن تجربه فى أحد العبيد لتعلم صدق قولى وتتأكد سرعة تأثيره. قال آنى: وماذا أستفيد منه؟ قالت ضاحكة: تستفيد منه إقناع أمينى بأنك لم تهتك للقـانون حـرمـة ولم تجر عن قصد السبيل ، وكيفيـه ذلك أن تبادر بلقاء الربـان عند عودته من أسوان وتقدم له قـدح نبيذ فيه أربع قطرات من هذا السـائل ثم تبعث به إلى أمينى فإذا تأكد لـه أمره وعلم أن به خبـلا فإنه لا تبقى عنده ريبة فى تجاوزه موردة رحنو وابتعاده عنهـا إلى الجنوب. قال آنى: عجباً لك يا بيكى ما أعظم قـدرتك على جعل المستحيل ممكناً! ولكن لا محل للعجـب، وقد فتنت الناس بمحاسنك الباهرة وصرت أمهر امـرأة وأحذق ساحرة. قالت العجوز: لست أسمى بيكى فإن بيكى قد انقضت أيامها وزالت دولتها. وإنما اسمى نيخت فادعنى بهذا الاسم. قال آنى: لا بأس، إلا أننى افضل صـوت بيكى الرخيم على نعيب نيخت العجوز.. على أنـه لايجمل بى أن افارقك، وأنت أرصن نساء طيبة عقـلا وأحذقهن تدبيراً وأوسعهن حيلـة، قبل أن أوجه إليك سؤالا وهو: هل لك فى إخبـارى بحوادث المستقبل وأسراره؟ وإذا استطعت ذلك فهل تـرين أن سعيى سيكلل بـالنجـاح؟ لا أخالك إلا عارفة بما أرمى إليه من المقاصد.

أطرقت نيخت رأسها برهـة ثم قالت: لا أستطيع أن أخبرك الآن بنجاح سعيك أو فشله..صوّب نظـرك إلى هذين الصقرين المقيدين بمخلبيهما، إن الـذى سقط ريشه وهبطت جفون عينيه هو رعمسيس. أما الثانـى المتحلى بريشه الزاهى اللون وعينيه البراقتين فهو أنت ، إلا أننى لا أدرى أيهما يموت قبل صـاحبه. فألقى آنى على الأول نظرة احتقار واشمئزاز بينما كانت العجوز تقول: إننى أعامل الصقرين بالسواء، لا

أفـرق بينهما ولا أتحيـز لأحدهما، وللقضـاء المبرم حق الاختيـار. فجـزع آنى ولم يتمالك أن أخرج كيس نقوده وألقى به إلى العجوز قائلا: أرجو منك العناية بأمرهما ليتيسر لك إخبارى بعاقبة أمرهما. ثم تحفز للانصراف قائلا: إذا طرأ حادث على أحد الصقرين فابعثى نيمو ليخبرنى به.

وبينما كان آنى يتوارى عن العيان ملتمساً الطريق الموصل إلى قبر والده تمتمت العجـوز بهذه الكلمات: إنك لأحمق معتوه، تجعلنى فى عهـدك وتحت رعـايتك لأجل صقرين لا تأثير لهما فى الحظوظ ، ثم تطمح بعد ذلك إلى الجلـوس على أريكة الديار المصرية. لقد كان رعمسيس فاقد الرشد حائر الصواب حين أنابك عنه فى الحكم على هذه البلاد. ولعلـه تعمد اختيارك من بين الأغبياء ليتقى شرك. فإذا كان هـذا هو ما ارتاه فقد سقط آنى فى هاوية الغرور، وعادة الحمقى والأغبياء إذا عجزوا عن العمل بالحكمة والروية أن يقتحموا المصاعب دون أن يتدبروا فى العواقب.

الفصل الثامن

ما حدث أثناء الوداع.. من مظاهر الوجد والالتياع

خرج آنى من مقبرة والده بعد ساعة متشحاً بأفخر الثياب واستوى فى مركبته فمر بمغارة الساحرة وكوخ والد وردة. وكان نيمو جالساً يحدد إليها النظر ويتوثب فى مكانه غيظا وحنقا، لأنه كان يرى من خلال الحاجز شبح إنسان جالساً إلى جانب وردة.

وما كان هذا الدخيل سوى الأمير راميرى متنكراً بزى كاتب من كتاب الخزينة، جاء ليسأل عن بنطاؤر ويستقصى أحواله. وقد رصع شعر وردة الجميلة بوردة زاهية، وجعل همه عند وصوله المبادرة بترصيع شعرها بهذه الوردة مسوغا هذه المسارعة بأن الوردة كانت مخفية فى طيات ثيابه وأنها إذا بقيت فيها طويلا غشيها الذبول. وقال أيضاً فى تسويغ فعله إنه لو بدأ بزيارة بنطاؤر لطال مقامه عنده واضطر إلى الأوبة إلى طيبة قبل أن يتمكن من استجلاء محيا تلك الغادة الفاتنة ولأزعج غيابه اخته بنت أنات فترسل بعض أعوانها فى طلبه. أما الآن وقد تحققت أمنيته وتأكدت بغيته، فهو يحسب نفسه من أهل السعادة والتوفيق.

وكان قلب راميرى فى جلوسه إلى جانب وردة يخفق سروراً وابتهاجاً برؤيتها. ولولا أن الهموم أخذت تساوره لمخالفته القوانين بالدخول فى بيوت المدنسين وإخفائه حقيقة أمره عن العالمين ، لشيب سروره بالكدر. ثم إنه لم يكتفِ بذلك بل تعمد البهتان والكذب، إذ قال لوردة إنه من حاشية بنت أنات. ولما كان الكذب يجرّ إلى الكذب فقد اضطرّ – فى إجابته عن أسئلتها – إلى حشو كلامه بالأخبار الملفقة

ليتوافر التطابق بين مقدمات الكذب ونتائجه. وبالجملة فقد كان الشر فى هذه المعاهد المدنسة متفـاقماً أكثر منه فى بيت سيتى أو قصر عرفـون. ثم حلق راميرى بفكره فى جوّ هذه الخيالات، غير أنه كان يرغم نفسه على إنكار صحتها. لأن سيت الذى يسلط العواصف على الأرض ويحرك القوب الساكنة، كان قد نفخ فيـه من روحه فغدا لا يرى فى مرامى نظره سوى غرض واحد يبغى إصابته، وهو أن تكون وردة في عيشة راضية ومرتبة ساميـة. وعلل هذا الانعطاف بأنه لا يليق بها – وهى فى ذلك الجمال الباهر والحسن الزاهر– أن يكون مهبطهـا بين أقوام ضُـربت عليهم الذلة والمسكنة ووصموا بالعار والدنس وباءوا بغضب من الآلهة.

وكان وقت وصوله إلى فناء الكـوخ لم يقع نظره عليها وإنما سمع صوتها وقتما هبت من مكانها لتزجر الكلب الذى هرّ عند رؤيتـه هريراً شديداً، فلما رأته تراجعت إلى الخلف فزعة وقالت: لم عدت إلى مأوانا المدنس وقد أنذرتك بأن جدتى أرملة أحد المحنطين المدنسين؟ قال راميرى: لست بمجيئى هنا أقصد جدتك وإنما أقصدك أنت لاستجلاء محياك السنى والتلذذ بحـديثك الشهى.. وأرى أنه لا مانع قاطع يمنعنى عنك، إذ لا علاقة بينك والقـوم المدنسين. وهل من عجب إذا تفتحت أكمام الورود فى وسط الـرمال أو بين الجلمـود؟ قالـت وردة فى ثبات واطمئنـان: إننى ابنة والـدى الجندى وحفيـدة جدى المحنط الـذى ذهب فريسـة الغدر والحقـد والظلم. ولست أعرف معنى العقوق حى أجحدهما أو اتبرأ منهما.. إنى لهما ما دمت على قيد الحياة، وكل الصلات تربطنى بهما ولا صلـة بينى ومن يترفع عنهما، لأن من يقدم على هذا الفعل ثم يود أن أفارقهما يكون كمن يبغى أن ينزع قلبى من بين جنبى.

قالت هـذه الكلمات ثم نظرت نحو البـاب، فجذبها راميرى إليه وقـال: لو قيس

الصخر بقلبك لكـان ألين منه وأعطف.. أنت تعلمين أننـي بذلت فوق المستطـاع من الجهـد لإنقـاذك وجئت إليك دون أن يحدثني وسـواسى بأنك.. آه.. من الحقـائق الثابتة عندى أن ليس بينك ومن تدعين أنهم أقـاربك جامعة شبه.. ولا يسوؤك منى هذا الكلام وإنما ينبغى لك تدبر معانيه وإدراك مراميه لتوقنى أن كل مشتهاى أن لا تثقل كـاهلك أعباء الـدنس. ومن ذا الـذى إن رآك لا يشعـر فى نفسه بـالحنين إليك والعطف عليك ومحبـة الخير لك؟.. إن سيـدتـى بنت أنـات نفسهـا قـد.. كـلا! من المستحيل أن تكون .. قاطعته وردة: أن أكـون من زمرة المدنسين! ثم أطرقت رأسها قليـلا وقالت بصـوت جهورى: إن وصمـة الدنس التى أُلصقت بنـا ليست إلا ظلماً فادحا وإلا لما كان جدى على ما عُرف به من الفضائل والكمالات.

قالت هـذا واغرورقت عيناهـا بالدمـوع فابتـدرها راميرى بقولـه: إنى مشايع لـرأيك، ولكن يتعـذر على المرء أن يبقى محافظـاً على الفضـائل والكمالات اذا ظلت الفضائح محدقة به ونظر الناس إليـه بعين الاحتقار والمقت. وقد أيدت التجارب ما أقوله، فإنه إن لامنى أحد على أمر فـانه يثير فى صدرى عواصف الغيظ منه والحقد عليه بخـلافه لو مدحنى، فإنى أشعـر فى نفسى بدافع على إيتاء المعـروف. ومع هذا فإن خلطـائى ملـزمـون بـاحترام وإجـلال عشيرتى فى معـامـلاتهم معى ومعهم. فقاطعته وردة: أما نحن فـلا نصيب منهم غير الازدراء والتحقير. هذا ما يستخلص من قـولك، وإنما يجدر بك علم أنـه لا يبنغى لامـرىء أن يأبـه للناس أأصـابـوا فى حكمهم عليه أم أخطأوا مـادام واثقاً بأنه لم ينحرف عن جـادة الفضيلة. وإذا كنا فى حالة تستدعى الاهتضـام والاستذلال كما تقول، فلدينا من الأسباب مـا يدعونا إلى الرضـى بها وإيثارها على سـواها. لأنكم معشر العظماء الطـاهرين مـن الأرجاس المبرئين من العيوب يخالجكم الشك أحيـاناً فى حقيقة مراكـزكم فتتوهمون أنكم أقل

خطرا مما أنتم فى الحقيقة، بخلافنا نحن فإنا لـواثقون الوثوق كله بأننا أشرف قدرا وأنبه ذكـرا مما تظنون وأننـا نحن العالـون فوق ما شـاء ظلمكم واضطهادكم أن نكون فى حضيضه متنكسين.

قـال راميرى: إن مـا ذكرتـه هـو مجمل رأيى فيك، وإنما لايغب عنك أن فى هـذا الوجود إنســاناً يقدرك تقديـرا خاصا ويضعك فى أسمى المراتب وأسناهـا ويقر لك بالرفعة التى لا تطاول والمجد الذى تطمح إليه العيون. وهبى يا وردة أنك غير خليقة بالاحترام والإعجـاب، فمثلى من لا يسعه أبـدا إغفال أمـرك. قالت وردة: إن مـا مرّ بخاطرك من هذا قد مر مثله بخـاطرى. إذ بينما كنت نهباً للهواجس وأنا على مقربة من مرقـد جدتى خُيل لى أنـه لو كان لى أخ مثلك لعشت فى الهنـاء والنعيم المقيم . ثم أتعلم ماذا كنت اصنع لو أنك كنت لى شقيقـاً؟ قال: ماذا كنت تصنعين؟ أجابت: كنت أشترى لك جـوادين كريمين ومـركبـة فتذهب إلى ميـدان القتـال لتحارب الأعـداء وتذيقهم مـع رعمسيس النكال. سأل: أوَعنـدك مال يكفى لاشترائها؟ أجـابت: نعم عندى، وهو ما تسلمته منذ ساعة فقط.. أوَتعرف القراءة؟ أجاب: نعم، أعرفها. قال: لما أصابنى الجرح فى صدرى عادنى طبيب مـن بيت سيتى، وهو رجل حاذق فى فنه عـارف بمهنته إلا أنـه غـريب الأطوار شـاذ العـادات، فإنـه مثلا كـان لا يكفّ عن تصـويب النظـر إلىّ والتحـديـق بعينيـه فى وجهى كما يحدق السكـران فى النـاس مستثبتاً. وكان يتعاجم متلعثما بلســانه، سأل: أليس اسمه نبسشت؟ أجابت : نعم هو بعينه، وكـان يحدث جدى فى أمور غريبـة. ولقد عمل لنا خيرا كثيرا بعـد حادثة الاعتداء التى دافعت أنت وبنطاؤر فيها عنا. ثم تـوارى عن أنظارنا فلم نعد نراه إلا اليوم منذ ساعة، فقد عوى الكلب عـواء طويلا فخرجت من الكوخ فوقع بصرى على شيخ قال لى إنه أخو نبسشت وأن هذا الطبيب أودعـه مالا طائلا باسمى وعهد إليه

أن يسلمنى خاتما ذكر عند تقديمه إلىّ أنه يكفى أن أبرزه له ليسلمنى الوديعة على الفور، ثم تلا هذا على سمعي، فتناوله راميرى من يدها وقرأه بصوت عالٍ فإذا فيه ما يأتى:

«من نبسشت إلى وردة الجميلة.. إن نبسشت يهدى سلامه إلى وردة ويخبرها بأنه كان مدينا لجدها بينم الذى توفى وأخذ المحنطون يحنطون جثته الآن بمثل العناية التى تحنط بها جثث العظماء بمبلغ ألف حلقة ذهبا، فعهد إلى أخيه تيتا حفظ هذا المبلغ عنده ليكون تحت طلبها فى أى وقت تريده.. ولها أن تثق بتيتا وأن تأخذ المبلغ منه، وإنما الأفضل والأمثل أن تستثمره أو تشترى به بيتا للسكنى أو أرضاً للزرع. فإذا فعلت ذلك فإنها ستعيش مع جدتها فى أمن ورغد وهناء. وكل ما يسأله نبسشت منها أن لا تتزوج أحداً قبل مضى عام واحد من تاريخ هذا اليوم لأنه يحبها حباً جماً. فإذا انقضى الثلاثة عشر شهرا ولم يعقد عليها كان الخيار لها فى الاقتران بغيره، وإنما عليها فى هذه الحالة تكليف مترجم الملك بالبحث فى الخاتم الذى تركته والدتها وحل رموزه».

ما كاد راميرى يأتى على ختام هذا الكتاب حتى صار كالمنزول به، فقال: إن هذا الأمر لمن الغرابة بمكان. ومن ذا الذى يصدق أن ذلك الطبيب الشاذ الخلق الرث الثياب يبلغ به الكرم إلى حد البذل بكل ماله، ثم ما هو الخاتم الذى أشار فى رسالته إليه؟ وقد نشرت وردة ثوبها فأبرزت منه الخاتم الذى كان بريق أحجاره الكريمة يخطف البصر. قال راميرى: إن فصوصه من حجر الماس الثمين فلابد أن يكون رفيع القيمة نادر المثال وهاأنذا أرى وسط هذه الظفرة [1] البيضية الشكل حروفاً منقوشة لا أستطيع حل رموزها.. سأُطلع مترجم الملك على هذا الخاتم.. أكانت والدتك تتحلى به؟ أجابت : لقد عثر والدى عليه فى ثيابها عقب مماتها، وكانت

---

(١) الظفرة حجر العقيق اليمانى.

خرساء من سبايا الحرب، فلم يهتدِ أحد إلى معرفة موطنها ولا إلى حقيقة أمرها. قال: لاريب عندى فى أنها من أسرة شريفة، لأن الأبناء سر الوالدين.. فأنت أميرة صغيرة إذاً يا وردة.. ما أسعد طالعى بك، وما أكبر حبى لك!قالت باسمة: لعل الخوف الذى امتلأ به فؤادك فجعلك تعلو علىّ علوا كبيراً قد زال الآن. قال: لست أرضى منك إساءة الظن بى إلى حد تتوهمين معه أنى أرفع من قدر نفسى بمقدار ما أضع من منزلتك، فلقد قضيت يوم أمس وليلته أعيد محياك الزاهر لخاطرى. وإلا فماذا سبب سهادى وقادنى إلى هنا اليوم؟ قالت: تكلم، لا أدرى السبب.

فاستخرج راميرى من طيات ثوبه الوردة البيضاء وقدمها إلى وردة فأخذتها منه بيد مرتجفة، وقد علت وجهها حمرة الخجل واعتراها الدهش، ثم قال: أنا أعلم أن هديتى هذه من عبث الصبيان، ولكن لا يسعنى قبل تقديمها إليك إلا الاستئذان منك فى ترصيع شعرك الناعم بها. أفتتغدقين على نعمة هذه الحظوة وتحقيق أمنية طالما منيت النفس بقضائها؟ أجابت: ما أجمل هذه الوردة وألطف شذاها العبق!.. وما رأيت فى حياتى وردة تشبهها فى لونها الباهر وشذاها العطر. قال: إنما هذا الجمال مستمد منك وإليك يسند، فدعينى أزين بالوردة شعرك، بل أزينها بهذا الشعر الذى يفوق حرير(صور) نعومة ملمس وأشعة الكواكب الدرية امتداداً واسترسالا.. ها قد رشقتها والحمد للآلهة أن ثبتت فى مكانها.. لا تضعى يدك عليها.. لو رأتك الهواتير [1] السبع لاصفّرت وجوههن حسداً وكمداً.. ألست فى الحقيقة أبرع منهن جمالا؟ فتنفست وردة الصعداء وتوارت خجلا ثم عادت فقالت: ما أبرعك فى المداهنة والملق، ثم حددت فى الأمير النظر وكانت عيناه تقدحان كالشرر

---

(١) جمع هاتور.

لتأثر وجدانه بحب وردة التى لم يتمالك أن أخذ بيدها فوضعها على قلبه لتحسّ قوة ضربانه وسرعة خفقانه ويتأكد لها هيامه بها، وسألها بعد هنيهة: أشعرت بخفقان قلبى وعلمت مقدار حبى؟ أنا لا أهنأ براحة يا وردة إلا إذا أجبتنى إلى أمنية أخرى هى في نظرى أهم من تلك، وأرجو أن يكون اغتباطى بها أعظم منه بها.. أفتسمحين لى بقبلة يا وردة.. بقبلة واحدة ليس إلا؟ فتراجعت الفتاة إلى الخلف فزعة وقالت: كلا.. لقد فهمت الآن سر أمنيتك.. ولم يبق عندى ريب فى أن العجوز نيخت قد وقفت على أسرار الرجال وأن نصيحتها لى كانت فى محلها من الصواب.. سأل : ومن هى هذه العجوز ومن أين لها الوقوف على أمرى والاطلاع على سرى؟ أجابت: أنبأتنى بأنه قد حان الوقت الذى سيدنو منى فيه رجل يجاذبنى أطراف الحديث فى الغرام ويمعن النظر فى وجهى، فإذا نظرت إليه كما ينظرنى همّ بلثم شفتىّ وأوصتنى بأن أدعه وشأنه لا أنظر إليه ولا أحدثه قائلة إننى إن مكنته من تقبيلى فقد خولته القدرة على انتزاع روحى من بين جنبى. ومتى أصبحت بلا روح تسلطت علىّ أرواح الشياطين فلا يهدأ لى بال ولا يستقر حال، بل أكون كالريشة فى مهب الرياح تدفعها المهاوى وتلفظها البحار وتطردها السموات، فإليك عنى أيها الصديق واعلم انه يشق على أن أضن عليك بقبلة، ولكن أيروق لك أن أصبح بلا روح فأهيم فى الأودية والبيداء وأقضى حياتى فى التعس والشقاء؟

سأل راميرى: وهل العجوز تحب الخير وتصطنع المعروف؟ فأومأت وردة بإيماءة تفيد السلب، فقال الأمير: ليست هى بلا ريب من ربات الخير والمعروف لكذبها عليك. وجدير بى أيتها العزيزة أن أمزج روحى بروحك لا أن أنزعها من بين جنبيك كما تدعى تلك المرأة منبع الضلالة والكذب، فتندمج الروحان وتصيران روحاً واحدة. وهل من سبيل إلى ما دون ذلك لمن هو على شاكلتنا رقة قلب ولين

عطف؟ قالت: أحب إلى أن يتحقق قـولك، فقد سبق لى أن شعرت بأثر من مـدلوله فى نفسى. ألم أكن -قبل أن ألزم الفراش- كلما قصـدت الى ضفة النيل لجلب الماء أطيل المقام على مقربـة من الساقية لما كان يستـوقفنى من منظر مياهـهـا دافقة وقطراتها متناثرة، ومـا كان يأخذ بلبى من انطبـاع ضوء القمر بسنائه الباهـر على كل قطرة منها فتبـدو كمرآة صغيرة للناظـر ينبعث منها نور يخطف سنـاؤه الأبصار، فيرى الرائى من الأقمار قـدر عدد القطرات، ومـا هى فى الحقيقة إلا قمـراً واحداً يسبح فى كبد السمـوات.. شهدت هذا المنظـر الأنيق فجال بخاطـرى تعدد القمر وهـو واحد فقلت إن مـا وقع عليه منه لما يجوز أن يقـع مثله على القلب.. حقاً.. ليـس للمرء إلا قلب واحـد، ولكن يظهر أن من المحبـة والعطف تنبعث قلـوب كثيرة لا تسلب القلب الأصلى قوته ولا تخفض من حـرارته ولا تهدىء من خفقانه. وإذ كـان القلب قابلا للتجزؤ والتعدد فلسوف أخصك بنصيب منه بعد أن أوزع الأنصبة الأخرى على من أوليتهم حبى وإخـلاصى وهم جدى وجـدتى ووالدى وشراعـو الصغير والآلهة.. وبنطاؤر. قال راميرى: أويكفينى نصيب واحد من أنصبـة عديدة؟ قالت: أرأيت هذا النصيب الذى تستخـف به لضآلتـه؟ فإنه لسـوف ينطبع فى نفسك قلباً كـاملا كما ينطبع القمر فى كل قطرة من رذاذ ماء الساقية؟ فيبدو كأنه أقمار بقدر عددها. قال : صدقت فى تشبيهك. ثم مد ذراعيه لعناقهـا وكانت تضطرب استحياء. فلما أطرقت رأسهـا قبّلها قبلـة سجلت بين روحيهما عهـداً وثيقـاً وربطتهما بربـاط متين، فلم تتمالك وردة بعد ذلك أن قالت: إليك عنى! عجّل بـالانصراف من هذا المكان. قال: إن تأذنى لى بـالبقاء هنيهـة بين يديك، فإنك تـوليننى نعمة وسعـادة لن أنساهما أبـد الدهر.. هلمى بنا نجلس على ذلك الكرسى ولنا من هذا الحاجز ستار يصدّ عنا أعين الرقبـاء.. ثم لمَ نخشى الرقيب وما أمـامنا إلا الصحراء مترامية الأطـراف إلى أبعد

مدى، وما حولنا ديار ولا نافخ نار؟ قالت وردة وقد علتها علامات القلق: لمَ نتوارى عن الأنظار إذا لم يكن فى دنوك منى ما يستدعى وخز الضمائر ولا مؤاخذة السرائر؟ قال راميرى: أتظنين أن ما يعمله الكاهن الأعظم فى قدس الأقداس شر وباطل؟ كلا! إنا نربأ به عن فعل الشر، ولكنه رغم ذلك يتوارى فيه عن الأنظار. قالت وردة مبتسمة: ما أقوى حجتك وأوثق قدرتك، ولكن لاعجب أن يكون عارف القراءة والكتابة مقنعا ومتلقى العلوم عن أمينى هماما قديرا. قال راميرى: لست تلميذ الكاهن الأعظم وإنما أنا تلميذ بنطاؤر وهو أستاذى المحبوب، ومع حبى له وإجلالى لمقامه فإن قلبى يكاد يتمزق غيظاً منه وكراهة له، كلما ورد اسمه على لسانك، أنت تفضلينه علىّ وعلى كثيرين غيرى.. نعم إن ذلك الشاعر قطرة يتلألأ بالانعكاس فيها سنا قمر محبتك ولكنى لا أحب منك أن توزعي قلبك على الكثيرين من الناس لهذا الحد!

قالت وردة: لمَ تحدثنى بهذا الكلام؟ ألا تحترم نفسك ووالدك والآلهة معا، وهم مع ذلك أنفس متعددة؟ على أن نصيبك من حبى أعظم من نصيب الآخرين، لأننى لم أحب أحدا منهم بقدر ما أحببتك. ألم ترَ أن التأثير العجيب الذى أشعر به الآن – وقد وضعت ثغرك على ثغرى– يشبه الشعاع منبعثاً من القمر؟ وهذا الشعاع ألم يكن شبيهاً بالأشعة الشمسية فى حرارتها وشدة نفاذها؟ وهذه القبلة التى طبعتها بطابع شفتيك ألم تكن كجذوة نار سرت حرارتها الشديدة فى جسمى.. إننى كلما أفكر فيك وأمثلك لخاطرى لأناجيك أفقد أسباب الراحة ولا يهنأ لى بال. ولطالما مددت نظرى إلى الباب أسائل نفسى أيتنازل منقذى ومخلصى من مخالب الموت، ذلك الفتى ذو الشعر المرسل إلى الكتفين.. أيتنازل بالحضور إلى هنا ليرمق بعينيه أسيرة فضله وصنيعة مروءته، أم يأنف من زيارة فتاة فقيرة حقيرة مثلى؟ فلما جئت محققا

بمجيئك ما هو مظنون بمثلك ومقدر فيك قلت فى نفسى لقد سالمتنى الأيام وهادنتنى صروف الزمان ووافتنى بما كنت أطمح إليه من العز والسعادة. فعليك إذاً بالصدق في حبك والاستقامة فى سيرك، وإلا جذبتك من شعرك المرسل هذا..

قال راميرى: اجـذبينى منه ما شئت، فإنــه لا يلحقنى ضرر من جذبك مهما يبلغ من قوة، ولكنى سمعت من كلامـك ما ينفذ إلى الفؤاد ويمزق الأكبـاد.. إنك تؤثرين بنطـاؤر علىّ، ولا عجب ، فبنطاؤر أوسع علماً وأكثـر فضـلا وأرفع مقامـا وأسرع نجدة. قالت وردة بجد: كل ما أستطيع أن أقوله فى هذا الموضوع إنه رجل لا نظير له بين الرجال، ولـو أنه حاول تقبيلى مثلك لذهبت أمـامه هباء كالرمـاد، تعطيه حرارة الشمس فى رأى العين صلابة وقسوة فإذا لمس بطرف البنـان استحال ترابا تسفيه الريح. ولو أنه أقدم على ذلك الفعل لتراجعت خوفا من أن يلامس ثغره ثغرى ولمت رعبا وفررت أمامه فـرارك من الأسد. ولك أن تسخر منى وتضحك على ما تجدنى عليه من سـذاجة الطبع وما ربما تعده حمقـا وبلاهة، ولكن هـذا كله لا يمنعنى من الاعتقاد بأنه إلــه هبط من السموات. ولقد خبرنى والده يومـا أن معجزة ظهرت فى اليوم التالى لميلاده، وكانت كثيراً ما تكلفنى العجـوز بالذهاب للسؤال عنه. وهو مع أنه من العامة حسن السيرة طيب السريـرة. وكان كثيرا ما يطنب فى مدح ولده، ومن كلامه لى فيه انــه كان يقول الشعر صغيرا وأنه تعلم القراءة والكتـابة بلا معلم وأن امينى رآه يوما فادخلـه بيت سيتى بعد إذ تأكدت له براعته وعبقـريته. وكنت يوما مع أبيه إلى شجيرة عريضة الأوراق كثيرة الأزهـار وقال لى: إن ولدى يضارع هذه الشجيرة التى نمت أمامى وامتدت أفنانها دون أن أعرف سر نموها ولا كيفيته، وكل ما فى الأمـر أننى كنت اشتريت بذوراً من طيبـة وجدت بينهـا بذرة واحـدة أجنبية الأصل فأنبتت هذه الشجرة التى لا يعرفها الزارعون فى بلادنا، ولم يستطع أحد أن

يوافقنى على أصلها، وهى مع ذلك ملكى وغرس يـدى. وهكذا شأن بنطاؤر، فإنه لا يشبه والـدته ولا اخوتـه ولا أحدا منا، فأجسـامنا صغيرة ناتئـة العظام فى حين أن جسمه وافٍ وقوامه لدن ولون بشرتنا أسمـر ولون بشرته كالورد ولهجتنا خشنة وعبـارته مهـذبة عـذبة. وهـذه الفروق تحملنى على الحكم بأنـه أحد أبنـاء السماء وضـعتـه الآلهة فى مسكنى الحقير. ولقد أبصرت بنطـاؤر فى الأعياد فتسـاءلت أبين الكهان من يـدانيه جمالا وكمالا وعلما وفضلا..؟ أما أنا فتبينت فيـه بعض أمارات الألوهيـة، كيف لا وقد شهـدته يصـارع جموع الناس فيصرعهم لوقـايتى من شر عدوانهم. أفـلا أحترمه بعـد هذا، وأنا كلما وقع عليـه بصرى تجمد الـدم فى عروقى لتأثـر وجـدانى ولا أحير قـولا لحصر لسانى! كل مـا أستطيع أن أوضحـه لك يـا صديقى من الفرق بينكما أن فؤادى يخفق لخفقان فؤادك متى التقى شعاع بصرى بشعاع بصرك. أما بنطـاور فإننى إذا رمت استجلاء طلعته عـزّ علىّ هذا المرام ما لم أحلق فى جو الخيـال وأصعد إلى السماء بأجنحـة الوجـدان. ولا تنس أنك لى كأكليل غضّ ناضر نمق بالورود الزاهية الطيبة ورصع بالأزهار التى تقر العين بمرآها، كما أنه لى كالشجرة المقـدسة الثابتة الأصل الملتفة الأفنان التـى تعنو لها الجباه اجلالاً واحتراماً.

كان راميرى يسمع هذه المقارنات اللطيفة سـاكناً ساكتاً، فلما انتهت وردة منها قال: أنـا مازلت فى غضاضـة الشباب ومقتبل العمر ولم آتِ من جـلائل الأعمال ما استحق من أجله وصفك إياى بتلك النعـوت الجليلة الجميلة. غير أنى أطلب إليك أن تصبرى صبراً قليلا جميلا فإنك لا تلبثين أن ترفعى بصرك إلىّ بعده لا كما ترفعينه لرؤية شجرة مقدسـة بل إلى شجرة جميز يحبب ظلها الوارف ابن السبيل التماس الراحة تحتها بالتفيؤ. بها واعلمى يا وردة أن سروى قد انمحت آيته كما تنمحى آية

النهار وأنى اعتـزمت مزايلـة هذا المكان ومفـارقتك لكى اقتدى ببنطـاؤر فى فضله وحكمته وسمو أدبه وكرم خلقه حتى إذا تم لى بهذه القدوة ما أطمح إليه من تثقيف عقلى وتهذيب نفسى صرت أكليلا جميلا من الـورد أسرح الطرف فى حسنه الشائق وأمتع النفس بشميم عطره الطيب الأرج. ولقد سمعتك الآن تشبهيننى بذلك الأكليل وهو تشبيه لا ينطبق على الرجال إذ هـو بالفتيات الفاتنات مثلك أليق وعليهن أطبق. وليس فى الرجال من هو أبغض إلى نفسى ممن يشبه الورد الناضر والزهر الزاهر!

ثم قـام من فوره وصـافح وردة فقالت لـه: أرى فى يدك قـوة وصلابـة، فلعلك تستعين بها على عمل الخير واصطناع المعروف. وقد كـان من شدة فعلها فى يدى أن تركت بها هـذا الأثر الأحمر كما ترى.. ولكن لا تظنن أن هذه اليـد الصغيرة لا تفيد أحـداً، فإن من أقل مزايـاهـا تخفيف الآلام عمن توكل إليهـا العنـاية بأمـرهم من البـائسين والمنكوبين. ولقـد كـان جدى يقـول على الـدوام إن يدى تجلب السعـادة وتبشر بالشفاء. أتـرى فى ذاك المكان أشجار الزنبق والرمان وقـد تفتحت أزهارها؟ جاءنى جدى يوما بشىء من طمى النيل وأعطانى والـد بنطاؤر بذوراً غرستها فيه فلم أستطع استنباتها إلا بتعهدها بالرى فى الوقـت المناسب. فخذ زهرة الرمان هذه فإنها أول زهرة تفتحت أكمامها من هذه الشجرة. وقد قالت لى جدتى يوما لما رأتها أخذة بالتكون والتطور والاكتساء بالأكمام وأنها تحمر بتأثير قبلات الشمس لها فى كل يوم: « إن قلبك سينفتح قريباً يا وردة كما انفتحت هذه الزهرة الجميلة وبرزت من ثوبها السندسى». وقد أدركت الآن مغزى كلامها فخذ هاتين الزهرتين فهما لك.

تناولهما راميرى منها فوضع الحمراء وهى زهرة الرمان على ثغره كأنه يلثمها، ثم مد يمناه لمصافحـة وردة فتراجعت إلى الخلف بغتة، لأنها رأت من خلال الحاجز

شبح إنسان ماراً. ولكن لم يلبث خاطرها أن اطمأن حينما علمت أنه شراعو الصغير الـذى كانت العجـوز الساحـرة تعمل على تقصير قـامته لتجعلـه من الأقزام، وقـد اكتسى بالاحمرار وجهه الجميل لإسراعـه فى المشى. ولم تستطع وردة أن تقف منه على خبر، لما اعتراه من التعب الذى أعجزه عن الكلام. وكل ما بـدا منه أنه كان يرمق راميرى بعين الحذر والريبة، فأدركت وردة أن وراء الأكمه مـا وراءها واستدرجته بعد الملاطفة والمواساة والأخـذ باللين إلى التحدث، فهمس فى أذنها أنه يبغى الحديث معها فى خلوة، فقالت: إن هذا الواقف بجوارنا صديق لى حميم فلا تخشَ بأساً. قال: إن ما عندى من القول لا يتعلق به، بـل ببنطاؤر المقدس الطيب الذى أظهر من دلائل الرحمة بى والحنـان عليه مـا يقصر عن وصفه اللسان ، وأقـام الدليل على نجـدته وشهامتـه بإنقاذه إياك من المعاطـب. قال راميرى: اعلم يا هذا أننى أريـد الخير كله لبنطاؤر. ثم التفت إلى وردة وقال: ألا ترين يـا وردة أن بإمكان هذا الغلام التحدث إليك أمامى بما في نفسه دون أن يخشى فضحـا لأسراره. قال شراعو: سأتحدث دون خوف ولا وجـل: انتهزت غفلة العجـوز نيخت فعمـدت إلى الفرار من وكـرها قاصداً إلى هذا المكـان. ومؤكد أنها لو وقفت على الحقيقة لبـادرت بالحضور إلى هنا وعاقبتنى بحرمانى الغذاء الـذى أقيم به أودى. فلما سمع الأمير كلامه عبس وجهه غضبـاً وقال: ومن تكـون تلك العجوز الغـادرة؟ قال شراعـو: عند وردة خبرهـا.. واسمع الآن قبيح فعلها معى.. طرحتنى أرضاً بداخل وكرها فى اللوح الذى اخترعته لتقصير القـامة ثم ألقت علىّ قطعـة قماش لتسترنى بها.. ولم ألبث على هـذه الحال هنيهة حتى أقبل نيمـو ومعه رجل كـانت تدعوه «حضرة القيـم» فأنشأت تحدثه فى شؤون لم أفهم المراد منها، ولكنى سمعت مع ذلك اسم بنطاور فأبرزت رأسى من تحت الغطاء فسمعت كل ما دار من الحديث بعد ذلك. وخلاصة ما فهمته أن حضرة

القيم كان يقول عن بنطاؤر إنه شقى عنيـد يعوقه عن بلوغ مراده وتحقيق أمنيته، وأن الكاهن الأعظم كان عازماً على نفيه إلى محاجـر رحنو فاعترض عليه بخفة هذه العقوبة وأنها لا تناسب الجرم الذي ارتكبـه. فلما سمعت العجوز ذلك أشارت عليه بأن يأمر ربـان السفينة التى تقله إلى المنفى باجتيـاز موردة رحنو والذهـاب به إلى معادن الذهب التى كانت كثيرا ما تروعنى بها قائلة إن والدها وإخوتها ماتوا جميعاً فيها. قال الأمير: والـواقع أن من ذهب إليها لا يعود منها. قـال شراعو: ولم أفهم ما قيل بعد ذلك سوى أنها ذكرت شرابا إذا تعاطاه أحد جعله مجنوناً. وليس هذا كل ما سمعته ورأيته في وكر العجوز التى تعذبنى كل يوم بوضعى فى لوح لتقصير القامة، فإن ما يقع تحت حواسى من حوادثها المزعجة يجعلنى أؤثر الموت على الحياة.

ثم أخـذ شراعو يبكى ويئـن فلاطفتـه وردة حتى هـدأته ، فقـال راميرى: تلك حوادث غريبة ومزعجة معـاً. ثم التفت إلى شراعو وسأله: ومَن هو القيم الذى كان عندها.. ألم تسمع باسمه.. طب نفساً وقر عيناً يا صديقي الصغير وكف عن البكاء، واعلم أن حياة بنطـاؤر قد أحدقت بها الأخطـار ويجب علينا أن ندفعهـا عنه. ولكن لابد لـذلك من معـرفة اسم القيم الشريـر.. أفلا تـذكره؟ فعض شراعـو على شفتيه ليسكن ثائرة نفســه ثم أخذ يفتش فى ثيابـه البالية فلم يلبث أن صــاح قائلا: اصبر قليلا فربما تعرفه من الصورة التى صنعتهـا على مثاله. قال الأمير، وقد دهشه هذا القول: كيف!.. ومن ذا الذى صورته؟ قـال شراعو: هو.. القيم.. ثم أخرج من طيات ثوبه البـالى تمثالا ملفوفا فى خـرقة، واستأنف حديثه فقـال: بينما كان القيم يتكلم ظهر لى أحـد شقى وجهه فصنعت له مثـالا من الطين الذى كان عندى، وأظنـه جاء طبق الأصل. قال هذا وأزال اللفائف عن التمثال بيد مرتجفة ثم قدمه إلى وردة. فلما وقع نظر راميرى عليه لم يتمالك أن صاح: هذا آنى بعينـه.. من كان يدور بخلده أنه

يريد ببنطاؤر سوءاً وبم أساء هذا إليه حتى يستحق منه الخيانة والغدر؟ ثم أطرق رأسه مفكراً وقال بعد هينهة: لقد أدركت السر الآن، إن أنى طامح إلى الاقتران ببنت أنات، وحيث إنى يا وردة أصبحت عاشقاً لك ومتفانياً فى حبك وعالما بما للعشق من الصولة على القلب، فقد تبينت من أحوال الأميرة أموراً تشير إلى ما يختلج فى نفسها نحوه من النفور أو الميل.. لست أستطيع يا وردة البقاء على إنكار الحقيقة التى يؤلم اخفاؤها قلبى ويخز ضميرى. لم أكن غلاماً من حاشية بنت أنات، بل انا شقيقها وابن الملك رعمسيس.. ولقد رأيت الخاتم الذى تركته لك والدتك واستوضحت حقيقة أصلك. ألا تدرين أنى لو كنت فى مرتبة أسمى من مرتبة الإمارة بل لو كنت حوروس ابن الآلهة ايزيس لما حدت عنك فتيلا ولا اتخذت منك بديلا. وإنى لهذا أعاهدك على الوفاء والصدق مع الرعاية المتواصلة لك ما دمت حيا.. لقد حان الرحيل وجاء وقت ينبغى فيه لمثلى أن يعمل بعقله الراجح ورأيه الرصين لإنقاذ بنطاؤر من مخالب الموت، فسلاما عليك ووداعا لك يا وردة عند من لا تضيع الودائع عنده.

همّ الأمير بالرحيل فجذبه شراعو من أطراف ثيابه سائلا إياه: أنت ابن رعمسيس؟ قالت العجوز في كلامها عن أبيك الملك إنه كالنسر الذي تعرى من ريشه لهرمه وعجزه. قال الأمير: إذا كان هذا كلامها فى حق أبى فلسوف يحس أنى نفوذ مخالب النسر الملكى فى جسمه. ثم التفت إلى وردة قائلا: أستودعك الله ثانياً ، ثم مد إليها يده فلثمتها بشفتين كانتا كجذوتى النار حرارة ولوناً، فجذب راميرى يده بلطف وجذب معها وردة فلما دنت قبّلها بين عينيها ثم انصرف.

وبينما كان ينطلق مهرولا كانت وردة تشيعه بنظرات تشف عما عراها من التأثر. وقد مر برجل عرفت هى بزيه وسحنته أنه أبوها، وكان مقبلا عليها لوداعها

قبل سفره، اذ صـدر إليه الأمر بمرافقة الأسرى والسير معهم فى الصحـراء. سـألته وردة: وإلى أين ترافقهم. ألى رحنو؟ أجاب: كلا، بل إلى الشمال. فروت وردة عليه ما اتصل بها من خبر بنطـاؤر ورجت منه أن يسـاعده على النجـاة. قال : لـو أن معى شيئا من المال!.. فابتدرتـه وردة قائلة: عندنا ما يكفى وزيـادة. ثم قصت عليه هبة نبسشت وقالت: عليك يا أبت أن تساعـدنى على عبور النيل ، فما هى إلا ساعة حتى يكون في قبضة يدك ما يكفى لجعل الفقير غنيا والمعدم مثريا [1]، ولكن كلا، فجدتى طريحة الفراش وليس لديها من يعنى بأمرها ويتوجع لمصابها فخذ أنت هذا الخاتم واعلم أن بنطاؤر قـد جرّ العقوبـة على نفسه بسببنـا، لأنه دافع عنا دفـاع الأبطال وعاملنا بشـهامـة الرجال. قال: ما برح خيال هذا الشهم مـرسوما فى ذاكرتى وإنى لأبـذل حيـاتى- بل أبيعهـا رخيصة- فى التحيل لنجـاتـه. غير أنى أتمنى التـوفيق لإنجاح ما خطر بخاطرى الآن من التدبير الـذي أرمى به إلى الحيلولة دون ذهابه إلى معادن الـذهب. وقد عاهـدت نفسى على أن لا أتعاطى نبيـذاً وأن أستيعض عنه الماء ليخلص دماغى من شوائب الخبل والاضطراب ، فلا يطيش سـهمى أو يذهب سعيى أدراج الـرياح . قـالت وردة: هاك يـا أبت قليلا من النبيـذ المزوج بـالماء.. اجرعـه بالصحة والعافية ثم اذهب فى قضاء مهمتك وعد عاجلا لتبشرنى بخبر ما فعلت. قال : تتعـذر علىّ إجابـة سـؤلك لأنى راحل فى انتصـاف الليل، ولكن إذا جاءك رسـول بالخاتم من عنـدى كان ذلك آية توفيقى للنجـاح فيما أردت. فلما سمعت وردة هذا القول دخلت العش فدخله أبوها على أثـرها ليستأذن من أمه فى الرحيل ليودعها، ثم

---

(١) كـان للنسـاء فى مصر حق التصرف فى أمـوالهن. وفى الـورقـة السـابعـة من أوراق البردى المحفوظة بباريس صورة مخالصة بين ارسيـزيس بن احد محنطى طيبة واسكليباس زوجة أحد دافنى الموتى أو خادمه وكان أبوها مدينا لزوجها أو مخدومها.

قال لفتاته: إن ما أتحفتك الأميرة به من الهدايا السنية كافٍ لقضاء مطالبك حتى أعود. أما أنا فيكفينى نصف المبلغ الذى تبرع لك به الطبيب.. ولكن لمَ لا أرى زهرة الرمان التى اقتطفتها الآن؟ أجابت وردة: وضعتها فى مكان حريز لصيانتها. قال: عجباً للنساء فى طباعهن وميولهن. ثم قبّل جبين ابنته وسار سيراً حثيثاً فى الطريق الموصل إلى ضفة النيل.

وكان راميرى فى هذه الأثناء يجدّ فى السير جاعلا وجهته موردة المقابر التى تبرحها السفن المخصصة لنقل الأسرى ليلا، ليستجمع البيانات الدقيقة عن السفينة التى تقرر سفرها إلى محاجر رحنو. فلما وصل إليها عبر النهر ودخل القصر الملكى حيث اجتمع بأخته ونيفرت فألفاهما فى وجد وقلق إذ أبلغهما رئيس التشريفات -نقلا عن بعض حاشية آنى المخلصين لفرعون - أنه أمر بوقف تصدير المراسلات إلى الجيش المصرى فى الشام، ولو كانت من أبناء رعمسيس إليه. وأيد الخبر عند بنت أنات أن أحد الحجاب المقيمين على الولاء لرعمسيس وافاها بنبأ اعتزام آنى تنفيذ تدبير يقصد به اغتصاب الملك وطلب منها أن لا تأمن جانب نيفرت نظراً لما بين والدتها وآنى من الصداقة الوثيقة العرى.

ولما بدا لبنت أنات أنه لم يبقَ ريب فى طموح آنى إلى الاستيلاء على صولجان الملك بدلا من والدها نبأته بعزمها على الرحيل إلى هاتور الزمردية لتلتمس الطهر فى معبدها المقدس. ولكنها كانت تريد فى الحقيقة موافاة والدها - وهو قريب من الشام- بما يدسه له الوالى من الدسائس ويدبره من المكائد ولاستئذانه فى التوجه إلى المعسكر الملكى. ولقد فاتحت صديقتها نيفرت فى هذه النية فكادت تطير فرحا وابتهاجا لأنها كانت ترجو أن يمهد لها الرحيل مع بنت أنات طريق اللقاء بزوجها

المحبوب فلم يسعها إلا أن تحضها على إنفاذ عزمها وإعداد المعدات اللازمة له.

ولما سألها راميرى عن أحوالهما أخبرتاه بما جدّ من الحوادث، فقص الأمير عليهما ما اتصل به من الأخبار وألمع إلى شقيقته أنه وقف على حقيقة ما اعتزمته، وكان يتوخى فى لهجته الظهور على خلاف عادته بمظهر الجد والرزانة. ولهذا أيقنت بنت أنات أن هناك أخطارا تتهدد العرش من جراء الدسائس التى يدسها الوالى لاغتصابه.

وقد استحسنت الأميرة ما اتخذه راميرى من الحيطة للذهاب بعد غروب الشمس إلى جهة (قطبوس) مصحوباً بثقة خبير يجوب الصحراء والوصول معه راكبين متون الجياد إلى سواحل البحر الأحمر، وأن يستأجرا من هناك سفينة فينيقية تنقلهما إلى آيلا (العقبة) ويجتازا بعدئذ الجبال الصخرية الممتدة فى شبه جزيرة سيناء ويلحقا بالجيش المصرى لإيقاف رعمسيس على ما يدبره آنى له من الدسائس ويحيكه من الحيل لنزع زمام الملك من يده. وأخذت بنت أنات على عهدتها انقاذ بنطاؤر، مستعينة فى أداء هذه المهمة برئيس التشريفات. وكانت ترجو تحقيق الآمال لا سيما والخزينة عامرة بالأموال، ينفق منها الخازن ذات اليمين وذات الشمال، وهو من المخلصين للأسرة المالكة. وإنما الصعوبة الوحيدة كانت في التغلب على ربان السفينة بحمله على توجيهها صوب رحنو لا صوب الجنوب كما أوعز إليه به. لأن نكبة الشاعر بالمقام فى رحنو أهون منها به فى معادن الذهب. وقد اتفقت آراء الجميع على انفاذ رسول ثقة إلى حاكم رحنو ليسلمه كتابا فيه أمر ملكى بضبط كل سفينة تمر ليلا بالقرب من أسوار المدينة. وحجز الأسرى المحكوم عليها بالنفى إلى الحبشة لاستخراج الأحجار. وقام راميري بعد هذا الاتفاق فاستأذن من شقيقته

ونيفرت فى الرحيل من طيبة فغادرها دون أن ينتبه أحد.

أما بنت أنات فقد سجدت أمام التماثيل الأوزريسية لولداتها وأمام تمثال هاتور وصور الآلهة حفظة الأسرة المالكة، وظلت تدعو وتبتهل إلى أن عاد رئيس التشريفات فأخبرها بنجاح مهمته لدى ربان السفينة إذ استكتبه عهداً بالوقوف تجاه محاجر رحنو وبأن لا يبلغ إلى آنى مخالفته الأمر الصادر إليه، فطابت نفس الأميرة لهذا الخبر. وكانت قد اعتزمت- فيما لو امتنع الربان عن الامتثال لإرادتها- التوجه إلى موردة المقبرة لمنع السفينة من مزايلة مكانها.

وفى اليوم التالى أقبلت راتوتى على القصر تبغى اللقاء بنيفرت ومحادثتها فى أمر ما، فأبت بنت أنات مقابلتها وبادرت نيفرت باستقبالها فما هى إلا هنيهة حتى طرق الأسماع صوتها رافضة ما اقترحته والدتها عليها من العودة إلى بيتها والعدول عن السفر مع الأميرة لتأمن عليها من أخطار الطريق. ولما يئست راتوتى من إقناعها بالامتثال لها قصدت إلى آنى من فورها والتمست منه العون على منع نيفرت من مغادرة الديار وأغرته بها إذ طلبت منه القبض عليها فى خروجها من أبواب طيبة ومعاملتها بالقهر والشدة حتى تعدل عن مرافقة الأميرة فى رحلتها الخطيرة. وكان آنى يود من صميم فؤاده أن تبرح بنت أنات مدينة طيبة كيلا يعوقه وجودها عن تحقيق مقاصده الاستقلالية ، فأجاب: ليهدأ روعك فقد عولت على أن أرسل فى أثرهما من يتولى منعهما- إذا ما دخلتا هيكل هاتور- من مغادرته فتبقى الاثنتان به حتى يتم لنا الأمر ويتيسر لك تزويج نيفرت من بعاكر الفظ إذا كنت مصرة على عزمك. وفى اليوم التالى ودع الوالى بنت أنات وصديقتها نيفرت وشيعهما بما يليق بهما من مظاهر الإجلال ، ثم انصرف. وأخذ ركب الأميرة طريقه إلى مرسى السفن

فشيعها إليه كهان هيكل آمون، وفى طليعتهم الكـاهن بك أن شونسو. وكان المرسى غاصاً بوفود الناس على اختلافهم تقاطروا من كل ناحية لتوديع بنت أنات. فلما أن بلغت إليـه صاح هـؤلاء الـوفود صيحـات الهتـاف وانطلقت ألسنتهم بـالدعـوات يستمطرون عليهـا بها وافر البركـات. وقد اندس بين الحاضريـن رهط من خصوم رعمسيس فاستطالوا فى حق ابنته الراحلة بالسب الفاضح، إلا أن أصواتهم لم تبلغ مسمعاً بل تلاشت فى أصـوات الجموع الزاخرة وأدعيتهم المتواتـرة. وكانت سفينة حجاج هيكل هاتور تتبعها سفينتان كبيرتـان تحملان عدداً وافراً من الجند. وكانت ريح الجنوب شديدة، فكورت أشرعة السفن الثلاث ودفعتها إلى الأمام صوب مصب النهر، فصوبت بنت أنات بصرها إلى القصر الملكـى وما حوله من الحدائق الغناء، ثم إلى ناحية المقابر والهياكل الباذخة، وظلت شاخصة فيها تارة وفي القصر طوراً حتى اختفت تلك المشاهـد والمعاهد عنهـا خلف حجاب الأفق، ولـم يبق أمامهـا وخلفها إلا النيل تحف به ضفتاه يمنة ويسرة. عندئذ فـاضت عينا الأميرة بالدموع ثم تنفست الصعـداء لما رأت من حولها الصحـراء مترامية الأطـراف إلى أبعد مـدى وأحست بشعور جعلهـا تظن بنفسها أنها برحت قصر أبيهـا ملتمسة الفرار أو مغلـوبة على أمرها، وأن قد لحق بها الهوان والصغار. ولكنهـا لم تلبث أن عاودها الأمل فوطنت النفس على الصبر ولقاء كوارث الزمان بـالثبات والجلد. ثم دنت من المخدع الخاص بها فى السفينة فإذا ببـابها فتاة ملثمة، مـا كاد يقع نظرهـا على الأميرة حتى أماطت اللثـام عن وجهها وقـالت: أيتهـا الأميرة تجاوزى عن زلتى واصفحى عنى الصفح الجميل، أنا وردة التى دهمتهـا مركبتك ثم نلت من إحسانك وعطفك مـا كان سبب شفائى.. وأنبئك الآن بأن قـد توفيت جدتى، فلما رأيتنى وحيـدة تنكرت واختلطت بنساء حاشيتك لأكون دوماً فى خـدمتك، أفترضين بى خادمة أمينة؟.. قالت الأميرة:

إنه ليسرنى وجودك معى يا وردة . ثم مرت بكفها على شعرها المرسل فتذكرت وردة ما كان يفعله من ذلك معها الأمير راميرى إعجاباً بشعرها ومن وضعه فى غدائرها وردة وأزهاراً تحاكى خدها نضرة واحمراراً.

الفصل التاسع

قفار موحشة خطيرة.. وقلوب حزينة كسيرة

لما مضى شهران على اعتقال بنطاؤر وسفر بنت أنات، كان جمّ غفير من الرجال وعدد عظيم من الدواب المحملة بالأثقال يسيران في واد ضيق يدعى وادى (انت بابا) بالجهة الغربية من شبه جزيرة سيناء [1] وكان ذلك في منتصف الصيف، وكانت الشمس محتدمة الحرارة تنعكس أشعتها على الصخور الصلدة فينبعث منها بريق يرتد عنه الطرف حسيراً. وكان في طليعة السائرين ثلة من الجنود الليبين وفي المؤخرة ثلة أخرى منهم مسلحين بالخناجر والدروع والرماح، على أهبة الدفاع في كل أونة عن أنفسهم. وكان الأسرى الذين نيطت بهؤلاء الجنود حراستهم كثيرا ما ينزعون للعصيان بالإغراء والتحريض من الزعماء الناقمين. وكانوا مرسلين إلى سواحل البحر الأحمر لتسخيرهم في نقل الذخائر والمؤن الواردة من مصر باسم الجيوش بعد طرح ما حملوا به من المعادن باسم الديار المصرية.

وكانوا يمشون الهوينا بادية على وجوههم علامات الكلل والإعياء من ثقل تلك الأعباء. وكانوا يرسفون فيما كبلوا به من القيود، ولم يكن عليهم من الأطمار سوى ما يستر عوراتهم. وكانوا على الدوام ينظرون إلى الأرض مطرقين، فإن توانى أحدهم ابتدره أحد الفرسان المحافظين عليهم بضربة سوط يستحثه بها على مواصلة السير بلا توان فكان لا مناص لهم من أحد أمرين: إما مواصلة السير بلا توان، وإما الضرب بالسياط. وكان لا يسمع من الأسرى ولا من الحراس همس

(١) بحث الدكتور ايبرس بالتفصيل في شؤون شبه جزيرة سيناء وتاريخ أماكنها المقدسة في كتاب طبعه باللغة الالمانية عام ١٨٧٢، وقد وصف فيه تلك الأرجاء وصفاً دقيقاً.

بكلمة، حتى ولـو ضرب الأولون ضرباً مسرفاً مبرحاً، ذلك لأن عضـو الصوت فيهم قد تـلاشت قوتـه كما تلاشت فى قلوب الآخـرين عواطف الـرحمة والحنان أو كما تتلاشى الحشائش الخضراء على الصخور المحرقة الجرداء.

كـان الأسرى يمشـون بعضهم على رسل بعض فـلا يجرؤ أحـدهم أن يخاطب زميله بكلمة، بل كانوا كالطيف يمـرون متعاقبين من جهة واحدة، وإنما كان يطرق الآذان فى بعض الأحيـان قرقعـة انحدار الأحجار تحت أقـدام السائريـن أو نفثات الصدورين من أولئك المظلـومين. وكان مما يـزيد في كآبة هـذا المنظر– ولاسيما إذا عـلا النهار– تعطل الأرض ممـا تـرتاح لـه الأنظـار من زينـة الأشجار والأزهـار والحيوانات والأطيار.

وكان أولئك التعساء قد برحـوا الجون فى ظهيرة اليوم الماضى فظلوا ساعتين فى سير مغذّ متابعين سواحل البحر الأحمر(١) فاجتازوا هضبة بلغـوا منها إلى مدخل وادٍ مفض إلى المنـاجم، فوقفـوا عنـده لالتماس الراحـة فى الليل والتجأ الحراس إلى الصخور ليناموا عندها وأشعلوا النار ورتبوا الحراسة إذ جعلوها مناوبة بينهم. أما الأسرى فلبثـوا فى بطن الـوادى ، لا نـار عندهم يصطلـونها ولا أغطيـة يقـون بها أجسـامهم التى أنهكها التعب وأضنـاها العـذاب، فارتعـدت فرائصهم واقشعـرت جلودهم لشـدة القرّ وتمنوا أن لـو تبزغ الشمس لتنقذهم بحـرارتها من شر ما هم فيـه، مع أنهم كانـوا فى النهـار يترقبون إقبـال الليل للتخلص من حـرارة الشمس وعذاب السفر ومواصلة السير. وهكـذا يتمنى المرء فى الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكره.

---

(١) سمى البحر الأحمر إما بسبب الصخور الحديدية التى على سـواحله وإما لأن الأحباش كانوا يسكنون بعض هـذه السواحل. وكـانوا معروفين عنـد الأقدمين بالـرجال الحمـر، وسمى البحر الأحمر فى أحد النصوص القديمة باسم (مياه البلاد الحمراء).

وقبل التأهب للمسير وُزعت عليهم الأغـذية من مطبـوخ العدس ويـابس الخبز وقليل الماء، فلما تعاطـوا ذلك وأوغلوا فى الوادى الضيق تحف بهم الجبال الشـاهقة عن أيمانهم وشمائلهم لم يلبثـوا أن شعـروا بـالشمس ولكأنها نـار اللـه الموقـدة وباشعتها ولكأنها سهـام محرقة. ولقد أفضى بهم ذلك الطـريق إلى مكان ضيق لم يستطيعوا المرور به إلا فرادى. وكان يخيل لهم فى بعض الأحيان - بسبب اعتراض الصخور- أنهم بلغوا من الطـريق إلى نهايتها، ولكنهم كانوا إذا دنـوا منها انفتحت المسالك عن يمينهم أو عن شمالهم فيستقر فى اخلادهم أن عذاب السفر لم ينته بعد، وأن آمالهم فى الاستقرار قد ذهبت أدراج الرياح. وكانت للصخور فى بعض الجهات أشكال تخيلها للـرائى قلاعا حصينة شيدت بحجـارة منحوتة، ولم يكن فى الأسرى جميعاً سوى رجل واحد كان يجيل الفكـر فى ميدان التأملات ويمعن النظر فى العبر، وكان ممتازاً على صحبه بقوة الأساطين ومتـانة البنية وعدم التأثر بعبء ما يحمل على عاتقه من الأثقـال التى ينوء بها ذوو العصبة من الرجال، إذ كـان يناجى نفسه بقوله «فى هذه الفلوات التى تنبو عنها العين ولا يطمئن القلب أغفل (الشنيمو) الذين عهد إليهم تكوين الأرضين تمهيد تلك الذرى الشبيهة بنصال الرماح المصوبة وسد هذه الأخاديد التى يهوى إلى قاعها الغافـل، فصارت للسائرين فيها عذاباً ولا عذاب الجحيم. ولست أدرى كيف عزوا إلى الإلهة هـاتور ربـة الحنان والرأفـة تلك الفيافى القاحلـة التى لا يسع الإنسان فيها - مهما جبل على الشفقـة والرحمة- إلا أن يغلق أبواب قلبه دونهما». وكان هذا الرجل المنـاجى نفسه قد انحرف عن الطريق فانفتل إليه أحد الملاحظين وقال: لا تبعد عن طريقك يا «هونى».

ما طـرق هذا النداء سمعـه حتى استقام فى طـريقه، إذ دنا من رفيقـه فى البؤس والشقاء، وهو عين رفيقه فى السعادة والهناء الطبيب نبسشت. وما كان ذلك الأسير الطويل القامـة المتين البناء غير الشاعر بنطاؤر ، وقـد أدرج اسمه فى كشف المحكوم

عليهم بالعمل فى المناجم باسم «هونى». أما الأسرى الباقون فقد أخذ منهم الجهد وأعياهم النصب وأملهم طول الشقة فتثاقلوا فى المشى وزادهم تثاقلا أنهم كانوا يصعدون فى منحدر من الأرض مفروش بحصى أحمر وأسود، يبدو من شكله أنه كان أحجاراً كبيرة ثم كسرتها يد الإنسان. وما وصلوا إلى نهاية السبيل حتى انفتح أمامهم سبيل آخر كالشعب بين الجبلين وخيل لهم أن بنهايته سداً لا منفذ منه إلى ما بعده. فصاح رئيس الحراس فى أعوانه أن انزلوا الأحمال عن متون الحمير وضعوها فوق ما يحمل الأسرى من أمثالها. فتذرع هؤلاء بالصبر واستمدوا من هممهم قوة جديدة وقدرة على اجتياز الدرب. وكان الأسير الذى يتقدم بنطاور شيخاً ضعيفاً نحيفا فما كاد يتوسط الشعب حتى هوى إلى الأرض وانصب الملاحظ عليه ليصب على رأسه سوط عذاب، جزاء على ما أبداه من وهن. إلا أن ضيق الطريق حال دون وصوله إليه، فما كان منه إلا أن رماه بحجر ليستفزه به على النهوض ، وحاول المسكين ذلك بما استجمع من قواه الخائرة وجهوده الفانية ولكنه لم يلبث أن هوى إلى الأرض ثانياً متوجعاً من هول ماأصابه. وما سمع بنطاور توجعه وأنينه حتى تذكر المحنط بينم وقتما كانت طغمة المتظاهرين يرشقونه بالأحجار ومر بباله ما كان من حسن بلائه فى الدفاع عنه وما حدث بعقب ذلك من حضور بنت أنات. وما مضت فترة من الزمن قصيرة بعد هذه الذكرى حتى اتجه بنطاور– بدافع الرفق ولطف الشعور– نحو الشيخ الرازح تحت حمله الفادح فأخذ ما كان من الأثقال ووضعه على كتفه فى الحال، ثم ساعده على النهوض وأدرك معه القافلة التى واصلت السير حتى بلغت إلى نهاية ذلك الطريق المتعرج الكثير الملتويات والمنعطفات.

وهناك أخذت بنطاور قشعريرة الخوف والفزع، إذ أرسل النظر فرأى عند قدميه هاوية لا يصيب البصر آخرها ثم أرسله كرة أخرى إلى فوق فرأى جبالا تناطح ذراها السماء مختلف ألوانها فمن أزرق إلى أصفر كالكبريت إلى أسود إلى

أحمر يبدو للرائى كأنه خضب بدماء سفكت فى قمتهـا فانحدرت إلى سفوحها. وقد تـذكر عنـدئذ بحيرة (موث) التى يحيط بها فى طيبـة مائة تمثـال برؤوس الأسـود لـلإلهة هاتـور، فخيل له أن تلك الجبـال السامقـة ليست إلا تلك التماثيل تضخمت حتى بلغت إلى ذلك القـدر. وانـدفع فى تيـار الخيـال فصوّر لـه أن هـذه الجبـال أو التماثيل الأسديـة الرؤوس قد فغرت أفـواهها وأن الدم يصعد إلى رأسـه من شدة الذعر، وسمع طنينـاً ظنه زئير تلك الأسود الوهميـة وتمادى في الوهم والظن حتى وقع فى نفسه أن الأثقال التى أنقضت ظهره ما هى إلا مخالب هذه الأسود أنشبت فى صدره.

وما وصل الأسرى إلى نهاية الطـريق حتى طرحوا الأثقال عن متـونهم وترامو على الصخور يلتمسون الراحة فاقتـدى بنطاؤر بهم. ولما نال قسطه منها واطمأنت نفسه زال عنه الاضطراب وتلاشت من أمامه الخيالات وأتيح له فهم ما يسمعه من القـول وإدراك ما يـراه من المرئيـات، وعاودتـه قـوة الفكر. وكـان كل من الشيخ ونبسشت إلى جانبه، فأخذ الشيخ يمر بيده على أوداج بنطاؤر وقد انتفخت، واستدر عليـه بدعـائه البركـات السماويـة. وشهدهما رئيـس الحراس فتقدم إليهما وقـال لبنطاؤر: ماذا يـاهونى وفيك من القوة مـا يعدل قوى ثلاثة رجـال ويستفزنى على إضافـة حمل إلى ما تحمله من الأثقـال. فنظر نبسشت إليه متغيظـاً وقال: إن الآلهة يقابلـون دعوات المظلـومين بالقبـول والإجابـة وهم يثيبون المحسن على إحسـانه ويعاقبون المسيىء على إساءته. فـالتفت بنطاؤر برفق إلى الشيخ وقال: إن مكافأتك إياى بهذه الأدعية كفـايتى. ثم نظر إلى نبسشت وقال: وأنت أيها السـاخر بحوادث الزمان، مالى أراك باهت اللـون وكيف حالك؟ أجاب الطبيب: حالى كتلك الحمير التى تـراها واقفـة هناك تـرتعد فـرائصها من الإعيـاء والألم. ولست أشتهى أكثر ممـا تشتهيه هى من العودة إلى مقرها الذى اعتـادت فيه الراحة والعلف. فتبسم بنطاؤر

وقال: أهنئك بما أوتيت من قدرة التفكر ونحن فيما نقاسيه من الأهوال، لأن هذا دليل استقامة أحوالك وجودة صحتك. قال نبسشت: بينما كنت أنظر إليك الآن وأنفك فى الهواء وعيناك شاخصتان فى السماء مرت بخاطرى فكرة ساطعة. يقول الكهان إن الذكاء هو القوة المحركة للعالم وأن الروح خميرة القطعة الطينية المسماة بالإنسان. ولقد بحثت عن مقر العقل أفى القلب هو أم فى المخ. فذهبت تجاربى وأبحاثى أدراج الرياح. أما الآن فقد أيقنت أن مقر العقل فى قوة الساعدين وصلابة الساقين، ومع أنى الآن فى حالة لا تسمح لى بالتوسع فى هذا الموضوع فقد عولت على أن احترم فى المستقبل ساقى وساعدى كما كنت أحترم فى الماضى عقلى وفكرى. وبلغ صدى هذه الكلمات إلى سمع رئيس الحراس فصاح بهم قائلا: إلى متى هذه المناقشات أيها الرجال؟ هلموا إلى المسير واستعدوا لعذاب السعير.

نهض الأسرى فوضعوا الأثقال على الحمير ثم على أكتافهم واستأنفوا المسير يبتغون الوصول إلى المناجم قبل غروب الشمس. وكانت بوسط واد فسيح تحيط به أوعار جبال صخرية عالية كان المصريون يسمونها (تمسكا) والعبرانيون (دوفكا). وكانت صخور الجبل الجنوبى منها من الحجر الأعبل الأسود اللون وصخور الشمالى منها الذى يلى معادن الفيروز من الجص الأحمر. وعلى مقربة منها معادن النحاس فى مضيق عمودى الاتجاه[1] على ذلك الجبل. وكان بوسط هذا الوادى أكمة تحيط بها أسوار عالية وبيوت صغيرة مبنية بالأحجار لسكنى الحراس والضباط والمفتشين والمراقبين[2]. ولم تكن سقوف تلك المساكن ثابتة فى أماكنها ، إذ كانت العادة المرعية وقتئذ- بسبب ما ينشأ عن البرد الشديد من الأمراض- أن تغطى

---

(١) اكتشف هذا المضيق حديثا السائحان بلمر ولسن، ووصفاه فى كتابهما المسمى «صحراء الخروج».

(٢) يسمى الوادى الآن «وادى المغارة»، ومازالت تُرى فيه آثار المعادن.

المبانى بعد الغروب بغطاء متخذ من سعف النخل المجلوب من واحة العمالقة القريبة من هذا الوادى.

انقضى على بنطاؤر ونبسشت شهر مع عمال المعادن فى وادى (مفكات) دون أن يقف الشاعر على سبب ارساله إليه وبقائه فيه، بل ولا على سبب مقاسمة الطبيب له هذا العقاب الجائر، لاسيما والمعروف أنه كـان سيرسل إلى محاجر رحنو. وقد حار فى تعليل هذا الاختلاف ولكنه تذكر أبا وردة– وهو أحد الحراس– فلم يستبعد أن له ضلعاً فى تغيير وجهة السفر، مع أن هذا الجندى الهمام لم يخاطبه بكلمة واحدة منذ رافق الأسرى من طيبة. غير أنه مـا وصلت القافلة إلى الوادى حتى دنـا منه الجندى وساره بقوله: لا تخشَ ضيراً فإنى محافظ على حياتك وستجد هنا الطبيب نبسشت فتظاهر بخصومته وليفعل هو كذلك، وإلا فُرق بينكما.

بادر الشـاعر فأطلع صـديقه على نصيحة الجنـدى فاقسم الطبيب ليعملن بها بقدر مـا يتفق مع مزاجـه وينطبق على علاقتـه الذاتيـة ببنطاؤر، فقـد كان يـذكره بأفكاره الحكيمة التى خالفتها الحقائق المشـاهدة ويقول له: أين القدرة الإلهية التى ترسل من أوج السماء بين النـاس أشعة رحمتها لتسكين الخواطر الثـائرة وتوطيد دعامة العـدل؟.. أين الإنصاف المانع لوقوع الشقـاق والخلاف بين الناس؟.. وكان الطبيب يسترسل فى هذا المزح كلما زادت آلامه وتراكمت أشجانه، ولم يكن ميله إليه بقصد التهكم على صديقه، بل لقضاءالوقت فيما يدعو إلى ارتياح النفس ويمحو من القلب أثـر الحزن. وكان كلما لمح حـارسـاً من الحراس أفاض فى المزاح بعبـارات لا يدرك معنـاها السـامعون، ويزيـد فى تعقيدها تعـاجمه ولعثمة لسـانه حتى يخيل لأولئك الحراس ان نـزاعاً ثـار ثـائره بين الاثنين فينأون عنهما بجانبهم ويغفلـون مراقبتهما. ومن مبهم العبارات التى كان الطبيب يكررها على سمع بنطاؤر قوله: يا

غلاف المعارف الربـانية .. يا أيها المشعوذ الذى يحاول إقناع النـاس بأن الدنيا دار ملاذ ومقـر فناء وسعادة.. يـا أيها المعجب بآثار جـراحه الزرقـاء ، إلى غير هذا من العبارات التى كان يدرك الشاعر والطبيب معناهـا ويرد عليها بنطاؤر بألفاظ عذبة ومعانى دقيقة لايفهم الحراس شيئاً منها.

وكثيرا ما كان ينقلب المزاح بينهما على هـذا النمط إلى مناقشة ليست فى شىء من المزاح، وإنما هى جد يقتطفان منه ثمر تبادل الأفكار فى العلوم والمعارف التى كانا لا يكفان عن الاشتغـال بها قبل وقوعهما فى أحبـولة الأسر. وكـان بنطاؤر ونبسشت يشتغـلان النهار كلـه، أولهما فى معادن النحـاس والثانى فى منـاجم الفيروز، فإذا أرخى الليل سدولـه تلاقيا فى مكان واحـد فتبادلا عبارات الوداد والسلـوان وعزى كلاهما الآخر وواساه على مصـابه. وكانوا قد قرروا لكل منهم عمـلا يناسب قوته الجسمية، فكان الطبيب لهزاله وضعفه يشتغل بإزالة الطبقة الترابية المغلفة لأحجار الفيروز. أما بنطاؤر فكان لمتانة قواه وجودة فصوصه يقطع أحجار المعدن بالمعاول الكبيرة الثقيلة ويدأب على العمل بما يوجب رضاء رؤسائه وارتياحهم منه. وكان فى أثناء قيامـه بالعمل المفروض عليه يتمثل بنـت أنات ماثلة أمامـه، يحيط بها الشبان يعالجون الفوز بالقـرب منها فيبالغ فى ضرب الأحجار بالمعـول ظناً منه أنه يضرب أولئك المزاحمين لـه على حب تلك الغادة الفـاتنة، ويقضى على حيـاتهم الواحـد بعد الآخر. وكـان يمسك أحيانا عن العمل ويمـد ذراعيه كمن يريـد أن يضم إلى صدره محبوبـا شاقه الوجـد إليه ثم يلقيهما إلى جنبيه متنهدا كـاسف البال، كمن يهب من نومه والأحلام تـداعبه فيرفعها إلى جبهته ليمسح ما يقطر منهـا من العرق الغزير. هذا الشاب الـذى جمع إلى كرم الخلق وسلامة الطبع همة الأبطال وقسـوة الرجال أصبح فى نظر حراسه ونظر نفسه سرا لا تستبطنه الأفهام، إذ كان يسائل نفسه عما طـرأ عليها من التغيير وكيف أنـه بعـد أن وُلد من أب وأم لم يكن لهما همّ ولا وكـد

سوى التماس الهناءة ونعيم البال فى شظف العيش، وبعد أن رُبى فى بيت سيتى مهد العلوم ومعهد السلام، أصبح وكأن فى نفسه قوة خفية تسوقه إلى الجلاد فى ميادين القتال. وكان كلما حلق فى أجواء هذه التأملات ثارت فيه نخوة الشجعان وهمّ بالنزول فى حومة الوغى، ولكن أين الميدان؟ وكان أول شعوره بهذه الميول الحربية ليلة اتخذ من الطنب المنصوبة أمام كوخ المحنط بينم سلاحاً دافع به عن هذا الشيخ المسكين الذى اغتاله الأشرار وعن حفيدته وردة.

وكان العمال قد وهنت قواهم بمواصلة العمل والحراس سئموا استمرار المراقبة فعمدوا إلى مضاجعهم وناموا جميعاً بينما كان ملاحظ المناجم وجماعة الضباط فى منزله يصطلون النار جالسين على شكل حلقة واسعة، فقال كبير الضباط لزملائه: اشربوا ما بقى فى أقداحكم من المدام ثم ليدنُ بعضكم من بعض للمشاورة ، فإن عندى أنباءخطيرة تحتاج إلى إعمال الروية وقدح زناد الفكر، فقد قيل ما خاب من استشار. وخلاصة الخبر أن الوالى بعث إلىّ مرسوما يأمرنى فيه بتوجيه نصف رجالنا إلى (بيلزيوم) تعزيزاً للجنود المرابطة بها، ولكن أخشى إن نحن نقص عددنا أن ينتهز الأسرى هذه الفرصة لإثارة غبار الفتنة ونشر لواء العصيان. وهم أن اقتصروا على قذفنا بالأحجار من قمم الجبال أبادونا عن آخرنا وسدوا فى وجوهنا أبواب الرجاءفى الفوز عليهم، فكيف بهم وهم يحلمون آلات العمل[1] فى النهار وهى سلاح يقوون به علينا. دع أن العبرانيين العاملين فى معادن النحاس أشد خطراً منهم. ومع هذا فإنى لا أخشى أذاهم وان أكن أحس فى قلبى خفقانا شديدا وفى ضميرى قلقا وانزعاجا، وهو ما يحملنى على الحكم بحرج

---

(١) كان شكل آلة عمال المعادن المصريين كذيل الخطاف إذا اتخذه حامله سلاحا فاز به على عدوه. وقد وصف المؤرخ ديودورس الصقلى فى الجزء الثالث من تاريخه أحوال الأسرى المحكوم عليهم بالعمل فى مناجم الذهب الواقعة بين البحر الأحمر والنيل واهتدى إلى تلك المناجم فى عامى ١٨٣٢ و١٨٣٣ لينان بك دى بلفون وبونومى.

مركزنا هنا، ولا يخفى أن الغابة المجاورة لنا هى التى تؤخذ الأخشاب منها للوقود، وقد أشرفت على النفـاد بحيث سنضطر منذ الغد إلى التماس الخشب الـلازم لأفران المعامل بغيرها أو نرسل شرذمـة من الجند إلى رفيديم (١) لجلب الأخشاب التى حقّ على جماعة العمالقة أن يقدموها إلينا. فعلينا لدفع تلك الأخطار أن نحمل الأسرى ما لايطيقون من النحاس لنوهن قـواهم ونتقى شرهم، ولكن إذا تم لنا هذا التدبير فما الوسيلة للمحافظة عليهم؟.

أطـرق الحاضرون رؤوسهم مفكـرين ثم بسط كل منهم رأيـه فتقـرر إرســال شرذمـة من الأسرى يـومياً بقيـادة بعض الجنـد لـلاحتطـاب وأن يكبل العصــاة والمشاكســون بالقيود، فاعترض الملاحظ على هـذا القرار بأنه إذا قرن اثنـان فى قيد واحـد ازدادا قوة بضرورة اتفـاقهما على العمل. قال رئيس كتبـة حساب المنـاجم: الرأى الراجح أن يقرن كل رجل متين القـوة وثيق الأعضاء بآخر ضعيف، ويحسن أن يكـون الاثنان خصمين كـلاهما لـلآخـر، إذ يستحيل الاتفـاق بينهما. قال أحـد الضباط: كأن يُـوضع هونى القـوى مثلا مع نبسشت الضعيف الـذى لا يكف عن مجادلته. قال رئيس كتبة المنـاجم: إنى بما أدليت من الرأى الآن إنما كنت أقصدها. وعلى أثر ذلك جعلـوا الأسرى فريقين يخالف أحدهما الآخـر قوة وضعفا وينـافره مزاجـا وطبعا، ثم قـرنوا كل واحـد من فريق بنقيضــه من الفريـق الثانى ونـاطوا بالجندى والد وردة حراستهم. فلما كـان فجر اليوم التالى سلكت أرجل الأسرى فى القيود، وكـان من بينهم بنطاؤر ونبسشت فقُرن الاثنـان فى قيد واحد. ومـا كادت الشمس تتكيـد السماءحتى همّ الجميع بالمسير بعـد أن رفعـوا إلى أكتافهم سبـائك النحاس قـاصدين إلى واحـة العمالقة يحرسهم ستـة من الجند بقيـادة ابن المحنط

(١) رفيديم واحة فى سفح جبل عريب.

بينم. ولما أن قطعوا من الطريق شطراً كبيرا ثابوا إلى الراحة فى نقطة (آوس) فإذا ما أخذوا قسطهم منها استأنفوا السير فى شعب ضيق بين صخرين من حجر السماق. وكانت الشمس فى وقت بلوغ الجند والأسرى إلى هيكل هاتور الزمردية جانحة إلى الغروب، فرأى بنطاؤر طيوراً تحلق فى الفضاء فانشرح صدره لرؤيتها. وكان قد مر زمن طويل دون أن يقع نظره على ما سوى الصخور والجبال الجرداء والصحارى المتنائية الأنحاء والفلوات العاطلة من حلية الحياة. لذا قال لأصحابه: إن مشاهدة الطيور فى مكان دلالة على وجود المياه به. وفى الواقع فإنه ما كاد يتم كلامه حتى طالعت السائرين شجرة نخل وارفة الظلال وطرق آذانهم خرير الماء ساقطاً على الأحجار الصلدة فارتاحت صدورهم واطمأنت قلوبهم وانبثت الآمال فى نفوسهم.

وكان إلى غرب الغدير ثلاثة سرادقات كبيرة من قماش معلم بخطوط زرقاء وحمراء تتخلل نسيجها المتين أسلاك الذهب وتحف بها شرذمة من الجنود المصريين. ولم يكن أحد يعلم من هم المتفيئون بظلال تلك السرادقات، فلما مر جند الحرس بقيادة والد وردة أمامهم وأدوا التحية العسكرية برزت من السرادق الأكبر غادة تجر مطرفها الخز واتجهت نحو الأسرى وتصفحتهم جميعا وجها وجها، فما أن وقف عليها نظر بنطاؤر حتى سرت بجسمه قشعريرة الدهش والفجأة بما لم يكن يتوقعه وخيل له أنه إنما رأى خيالا لا حقيقة. أما نبسشت فقد صاح صيحة عالية دلت على تأثره بهذا الحادث الذى لم يكن يخطر بباله. ولقد رآهما أحد الحراس وهما فى هذه الحالة فظن أنهما مختلفان على أمر فألهب كتفيهما بالسوط وقال: المشاتمة جائزة ولكن الملاكمة ممنوعة. ثم التفت إلى حارس وسأله: أرأيت الفتاة الفاتنة التى برزت من الخدر؟ أجاب: لا ريب أنها إحدى وصيفات الأميرة التى نزلت بهذا المكان منذ ثلاثة أسابيع لأداءفريضة الحج فى هيكل هاتور. قال الأول: يؤخذ من كلامك أن الأميرة تلوثت بلوث الخطيئة فجاءت تلتمس الطهر.. لو

كـانت من عـامـة الأمــة لما أقامت بهذه السرادقــات فى أسعـد حــال وأنعم بــال، بل لاشتغلت بتنظيف رمــال المعـــادن أو بسحق الألــوان. ولكن أين صـــاحب اللحيــة الشقراء؟

وكان المقصــود بهذا الوصف والــد وردة وكان يتثــاقل فى مشيته ويتمهل ، لأن وردة– وهى تلك الغادة الفاتنة– أشارت إليه بالدنــو منها فدنا فتبادلت معه حديثاً قصيراً وهرول نحــو الأسرى والجنود القائمين بالحراســة فلما أدركهم سار معهم فقال له أحدهم ممازحاً: أنت من أعرف الناس بمحاسن النسـاء. أجاب وقد بدت عليه أمــارات الاستحياء: إنما هــذه المرأة من وصيفات الأميرة، وقــد عهدت إلىّ تــوصيل كتاب إلى رئيس كتبة حساب المعادن، ولست أشك فى أننا إذا نزلنا هنا على مقربة من هذه السرادقــات الملكية نحظى بنعمة الالتفــات الخاص ونطفىء ظمأنا بجــرعة من النبيــذ العتيق. وقــال آخر: ألا تــرى هــذا السكير يتحرى بــأنفه أجــود الشراب كما يتحــرى الثعلب مكان الــدجاج؟ فلنقف هنــا قليلا وليطــرح كل منكم ما يحملــه من الأثقال وليشرب هذا الماء الــزلال وليأكل ما يساقط عليه من الــرطب الجنى. دع أنه لابد من نــزول المنّ علينا(١) فنتغذى به. ثم التفت إلى هــونى ونبسشت وقال: كفى عناداً ونزاعاً أيها الشقيان وإلى متى الشحناء والضوضاء؟

---

(١) المن مادة سكرية تفرزها شجيرة معروفــة فى علم النبات باسم نماركس مانيفرا وتنمو بكثرة فى الأودية الخصيبــة بالصحــراء ويكون الافــراز عادة فى مــايو حيث يشبــه المن عندئذ الصمغ، ويقــول العلماء إن المن هو الــذى ورد ذكره بهذا الاسم فى الكتب المنــزلة. وأصلهــا أن العبرانين لما عثروا على المن فى البرية قال بعضهم لبعض «من هو» أى «ماهو» فسمى بالمن. وهو الآن يطلق على المواد السكــرية التى تفــرزهــا أشجار الطــرفــاء والبلوط والخطمى. ومنــه الاسترالى الخارج من الكافور والفارسى ويسمى الحاجى ويعرف عنــد العرب «الترنجبين». قال فى وصفه ابن البيطار: «طل يقع من السماء وهو نــدى شبيه بــالعسل جامد متحبب وأكثــر مايقع على شجــر الحاج وهو العاقــول ينبت بالشام وخــراسان» والسيناوى ويخرج من الأثل والطــرفاء والكردستــانى وهو عجينى القوام.

قضت بنت أنات بضعة أسابيع فى السفر بطريق النيل حتى وصلت إلى بلدة (ريت)، ثم اجتازت الصحراء على جملة مراحل، مسيرة كل يوم مرحلة. فلما بلغت إلى سواحل البحر الأحمر ظلت تنتظر أسبوعا وصول سفينة فينيقية لتقلها إلى بلدة (فران). فلما حضرت إلى هذه البلدة صعدت فى الجبال الشاهقة التى تلى سفوحها من الناحية الأخرى الواحات الفسيحة المشيد فيها هيكل هاتور الزمردية. وقد استقبلها كهنة هذا الهيكل بما يليق بمقامها الملكى من الإكرام والتعظيم، إلا أنهم تكلفوا الإكثار من الرسوم الدينية حينما كاشفتهم برغبتها فى التطهر من الدنس، أذ عينوا يوما لغمس جسمها فى الماء المقدس وآخر لتطهيره بماء الغدير الذى يسقى منه النخل وثالثا لتلاوة النصوص المقدسة وإطلاق البخور من المجامر، إلى غير ذلك من الطقوس الكثيرة التى جهرت الإلهة من بعدها برضائها عن بنت أنات وصفحها عما ارتكبته من الغلطات. وكانت الأميرة قدمت إليها ما جلبته برسمها من التحف النادرة والهدايا النفيسة.

لما انتهت مراسم التطهير من الدنس صدرت أوامر الأميرة بالعودة فأبى الامتثال رئيس الحراس وهو ضابط حبشى الأصل أنعم الوالى آنى على أبنائه بالرتب العالية ليتخذه آلة فى تنفيذ أغراضه، وقال لرئيس التشريفات إن التعليمات التى تلقاها من الوالى قبل مغادرة طيبة تقضي عليه بحجزها فى الواحة حتى يرد إليه أمر جديد بشأنها. فلما أطلعها الرئيس على قول الضابط الحبشى احتدمت غيظا، ولكنها كظمته وفاءت إلى سكونها، رجاء أن يصل إليها المدد من أبيها فيما لو وفق راميرى لأداء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها.

وكان لا ينقضى على بنت أنات ونيفرت يوم وهما في هذا المكان إلا ويضاف إلى همومها همّ جديد، لأنهما أصبحتا ملتقى أنظار العيون التى بثت عليهما بل أسيرتين

ذليلتين اتضع قدرهما وسقط جاههما فى نظر الجند الذين أصبحوا ولا همّ لهم إلا العربدة وارتكاب المنكرات والعدوان على سكان الواحة بالأذى وسفك الدم على مسمع منها ومرأى وهى لا تستطيع شيئاً.

ولقد أحست بتوالى هذه الحادثات أن اليأس أخذ يستولى على قلبها وأنها بعد أن كانت تسمو على العامة بجناحين قويين– هما عزة المكانة وسعة الإدراك– هوت إلى مهبط الذل وحضيض الصغار، فأخذت من ثم تناجى نفسها بأن الحب الذى استقر فى فؤادها لبنطاؤر لا ينتهى إلا بانتهاء الأجل. ثم خُيل لها أنها ترى طيفه ماراً فبدت عليها أمارات التأثر الشديد لفراقه وأكسبها هذا التأثر هيبة وعزة وزاد وجهها جمالا ونضرة. وكان يتردد بخاطرها أنه قد تكون المنية أدركته أو أنه وقع فى فخاخ الغادرين فتظهر عليها علامات الالتياع والجزع. أما نيفرت فقد جاءها من أمها كتاب تؤيد لها فيه خيانة مينا عهود الأمانة الزوجية وشغفه بالفتاة الآسيوية، وأن بنطاؤر لم يصل بعد إلى جهة المناجم التى نفُى إليها فأجمعت الآراء على أنه مات فى الطريق بحادث ما. قرأت نيفرت هذه الرسالة فلم يضطرب لها جأش ولم ينبض نبض ولم يخفق قلب بل لم يظهر بالمرة على وجهها يدل على تحرك عوامل الغيرة فى نفسها، وذلك لأن ثقتها فى إخلاص زوجها مينا وقيامه على عهد الوفاء لها كانت ثقة لا حدّ لها. ولم تغير تلك الأقاويل شيئاً ما من أحوالها، بل زادتها إيماناً بحب زوجها وبدّلت فى نفسها من اليأس الرجاء حتى لقد كانت تقول لبنت أنات مساء كل يوم إن الامدادات ستصل إليهما فى الغداة لتخلصهما من عناء ما هما فيه من ذل الأسر. وكانت تنساق أحياناً فى تيار المزاح تلتمس به تسلية الأميرة وتسرية الهموم عن نفسها فتقول لها: لايبعد أن نرى فى هذا المكان بيننا قرينى مينا بخيله ورجله، ولكن من يرافقك فى هذه الحالة بصيوانك ويساعدك على قضاء الوقت فى الأحاديث

الظريفة والنوادر المستملحة. وكيف نقسم الصواوين شطرين بيننا؟ ثم أتفضلين يا ترى البقاء ههنا أو نرحل إلى جنوب الواحة لتمتيع النظر بالمناظر الجديدة والمشاهد الجميلة؟

كانت وردة فى خلال ذلك تقوم بما عهد إليها من العمل حائزة على رضاء الأميرة فى كل حال، وكانت إذا جلست فى حضرتها لـزمت 'لأدب وحرصت على الصمت والوقار، فلا تتكلم إلا بإذن ولا تظل جالسة إلا بمسوغ ، وكانت إذا حدثت خلبت المسامع بعذوبة حديثها وطلاوة لفظها ورقة لهجتها، وإذا ضحكت خيل للسامع أن ضحكها رنين قطع البلور إذا تلاطم بعضها ببعض، وإذا غنت بصوتها الرخيم أطربت الأميرة ونيفرت. ولاعجب إذا برعت وردة فى الغناء، فقد كانت فى كل ليلة تنصت إلى العجوز نيخت تتغنى بالأناشيد التى برعت فيها أيام صباها وتجتهد فى تقليدها حتى أتقنت الغناء ولم يضارعها فى إجادته أحد بجميع الأنحاء.

وقد سر الأميرة مالمحته فى وردة من مخائل الذكاء والفطنة فآلت على نفسها أن تربيها على أحسن المبادىء وتعلمها القراءة والكتابة. ولقد صادفت فى هذه السبيل عقبات حائلة وصعوبات مانعة، بيد أنها بذلت فى تحقيق أمانيها جهد المستطاع واتخذت من الاجتهاد فى العمل سلاحاً تقطع به حبال الوقت الطويلة، حتى بلغت ما يتجاوز المأمول من أمنيتها. وكانت من وقت إلى آخر ترمق قمة الجبل الذى ضربت السرادقات على سفوحه بعينين تقرأ فيهما آيات التدله فى الغرام، فتنظر إليها وردة من طرف خفى وتدرك مكنون سرها. غير أنها كانت لا تستطيع أن تفاتحها فى شأن ما من شؤونها اجلالا لها واحتراما. وكانت تترقب الفرصة المناسبة للكلام فتقص عليها من ظريف النوادر ما له علاقة ببنطاؤر وأسرته فينصرف عنها الهم وتخف أعباء الكدر والحزن. وكان يتفق أن يمرّ الأسرى أمام خيام الأميرة وهى جالسة

تحت ظلالها مع نيفرت عند غروب الشمس تتطارحان الأحاديث فى أحوال الملك ومينا وبنطاؤر، فلما مروا بعقب وصول كتاب راتوتى إلى ابنتها صاحت هذه قائلة: لاشك أن بنطاؤر لايزال على قيد الحياة، وقد أصابت والدتى فيما كتبته لى، لأنها لم تقل إنه مات بل قالت إن أخباره انقطعت وهو إذا استطاع الفرار فلابد أنه جعل معسكر الملك وجهته لتحظى بلقائه فى القريب العاجل.

لم تجاوب الأميرة على هذا القول بل أطرقت رأسها حزنا، فشخصت فيها نيفرت بعين الرفق والاشفاق وقالت: لعلك تفكرين فيما بينكما من تفاوت المرتبة وتباين الشرف. قالت بنت أنات: إنى باختيارى إياه قريناً لى أجعله أميراً عالى الكعب رفيع المقام واجب الاحترام، وإذا استطعت أن أجعل زمام الأرض كلها بيديه وملكته الحكم على العباد كافة أفلا يكون أرفع منى مقاماً وأسمى قدراً وأشرف مرتبة؟ قالت نيفرت مستحيية: وماذا والدك فاعل إذا رأى منك هذا الميل؟ قالت الأميرة: يحبنى والدى ويكرمنى ويفهم مقاصدى. وقد انتويت- إذا ظفرت بمقابلته- مفاوضته فى جميع شؤونى ومطالعته بأسرارى كافة. وبعد أن سكتت هنيهة استأنفت الحديث فقالت: ليحضر الخدم السراج والنول لأقضى بعض الوقت فى النسج.

هرولت نيفرت إلى باب الصيوان فالتقت عنده بوردة فامسكت بيدها وجذبتها إلى خارجه وسألتها: مالى أراك مضطربة ووجلة؟ أجابت وردة: وصل أبى إلى هنا مرافقا بعض الأسرى المقبلين من معادن مفكات، وقد رأيتهم فإذا باثنين منهم قرنا فى قيد واحد، ولا شك عندى فى أن أحدهما بنطاؤر. وقد حدثت أبى فى أمره فوعدنى أن يطلق سراحه. ولست أود أن تطلعى بنت أنات على الخبر إذ الأحسن أن نتركها على غير علم به ليكون سرورها عند مفاجأتها بلقاء بنطاؤر أعظم منه فى حالة علمها بوصوله، ثم إننى من جهة أخرى أخشى أن تتدخل فى أمره بما يمكن أن يؤدى إلى

فشل تـدابيرنا. سألت نيفـرت: أترين أننى أصلح لمسـاعدتك على إنفـاذ مشروعك؟ أجابت وردة: ولمَ لا.. والـذى أسـألك إياه الآن أن تأمـرى القيم بإرسال قربـة نبيذ جيـد إلى الأسرى وتأتى لى بالقنينـة التى فى متـاع الأميرة وتحتوى الشراب المخـدر الـذى يلقى شـاربه فى سبـات النـوم، وما زالـت تأبى الانتفاع بـه رغم نصـائحك المتكررة.

فانصرفت نيفرت من فورها إلى القيم وأمـرته أن يذهب بقربة نبيذ مع وردة إلى حيث ترشده وأن يعطيها من تعينـه له من الناس، ثم دخلت مـخدع الأميرة وفتحت صندوق عقاقيرها[1] وأخذت تفتش فيه. فسألت بنت أنات: عمّ تبحثين؟ أجابت: عن دواء ضـد الخفقان. ولما عثـرت على القنينـة أخفتهـا فى كمها وهمت بـالخروج من الصيوان لتعطيها وردة، وكانت وردة تنتظرها مع القيم خارجه، فلما أخذت القنينة من نيفرت تظاهـرت بأنها تريد أن تشرب من قربـة النبيذ فى حين أنها كانت تسكب فيه السائل المخدر دون أن تنبه القيم إلى حقيقـة الواقع. ثم قدمت النبيذ إلى الحراس الذين أنهكهم التعب. وقـد وقع عليها نظر شـاب من شبان العمالقة فقـال: السلام عليك أيتهـا الغادة الهيفـاء.. أقدم إليك أربع حجـال[2] ذبحتهـا بيدى وحجـراً من الفيروز عثر عليـه أخى بين الصخور[3] وهـو فأل السعادة وبشرى الخير لحاملـه وجالب النصر له على الأعـداء وطارد الأحلام المزعجة [4]. فتناولـت وردة الحجر،

(١) فى متحف بـرلين صنـدوق مصرى للعقـاقير ثبـت أنـه صنع قبل عصر رعمسيس الثـانى «سيزوستريس» بزمن طويل.

(٢) يوجد بقمـة الجبل الذى يسميه رهبان طور سينـاء جبل القديسة كاترينـة مجرى ماء يدعى بغدير الحجـال ويروون بشأنه حكايات غـريبة، منها أن مياهه تنفجـر بإذن الله من عيون كثيرة تشرب منها الحجال التى رافقت الملائكـة الذين حملوا جثة القـديسة كاترينـة من الإسكندرية إلى جبل طور سيناء.

(٣) أحجار الفيروز التى تستخرج من صخور جربـال هى أجمل أحجار هذا النوع وأحفظ للونها من الأحجار التى تستخرج من وادى المغارة.

(٤) مازال العرب يسندون هذه الفضائل إلى أحجار الفيروز

وكان سنجابى اللون، جميل الشكل، وقالت: إنى أشكر لك هديتك. ثم أخذت بيد الشاب وذهبت به إلى مكان لا تهتدى إليه أعين الرقباء، وقالت له بصوت منخفض: انصت يا ساليش لكلامى وع قولى.. قد ثبت لى الآن شرف نفسك وطهارة قلبك ولطف شعورك وعلمت من تابعات الأميرة أنك قلت عنى إننى كوكب سماء هبطت الأرض فى صورة إنسان.. ولاريب أن أحداً لا يقول هذا القول إلا إذا كان عاشقاً والهاً، ولهذا لا أخالك إلا كذلك لاسيما وإنك ترسل إلىّ فى كل يوم باقات الأزهار النضيرة والطيور التى يصطادها أبوك برسم الأميرة. فإن تكن هذه حقيقة حالك معى أفتقدر أن تقدم للأميرة ولى خدمة جليلة نعدها من أجمل المنن علينا ونحفظ ذكراها لك مقرونة بالشكر مدى الدهر؟.. لعلك مجاوبى بنعم.. فإذا حققت رجائى فيك فإنى مخبرتك بأن لمولاتى الأميرة صديقاً يهمها من أمره أن يكون فى معزل عن الرقباء بضعة أيام، فهل لك فى إخفائه مع رفيق آخر له فى بيت أبيك القائم هناك على قمة الجبل المقدس؟ أجاب الفتى: فلينزلا عندنا على الرحب والسعة ، فإن عادتنا إكرام المثوى وقضاء الحاجات.. وأين هما هذان الأجنبيان؟ أجابت وردة: سيحضران هنا بعد ساعة.. أفتريد أن تبقى فى انتظارهما حتى يطلع القمر؟ قال الشاب: بل انتظر حتى يختفى القمر خلف حجاب تلك الجبال السامقة. قالت وردة: اجعل مكانك فيما يلى هذا الغدير فإذا حضرا واقتربا منك وذكرا لك اسمى ثلاثا فارشدهم إلى بيتك، ولست أخالك جاهلا باسمى . قال الشاب: لقد أسميتك الكوكب الدرىّ وأسميت كل امرأة سواك بوردة. قالت وردة: إذا بلغت الأجنبيين إلى دارك ورضى أبوك أن يكرم فيها مثواهما فعجل بالعودة إلىّ لتخبرنى بهذه النتيجة، وهاأنذه باقية فى انتظار عودتك بباب الصيوان. وإننى لآسفة من أننى لا أملك شيئاً معى الآن لأتحفك به جزاء صنيعتك وصدق ولائك، ولكن لا تيأس فلابد للأميرة من أن تجزل لأبيك العطاء وتفيض فى أسرته الخير فكن حذراً يا ساليش ولا تغفل.

قــالت هذا ثم انصرفت قــاصدة إلى مكــان حراس الأسرى وهنــاك وجهت إليهم عبارات التمنى أن يقضوا ليلتهم فى هناء وسرور. ولما عادت إلى بنت أنات سألتها عن سبب ما تراه من امتقاع لونها وكســوف بالها وقالت: هلمى إلى سريرك فإننى أرى الحمى قد اعترت جسمك اللطيف. ثم التفتت إلى نيفرت وقالت: أترين الدم يا نيفرت وهو يجرى فى عروق جبينها؟

وكــان الحراس فى خــلال ذلك يجرعــون النبيــذ الملكى ويهنىء بعضهم البعض لفــوزهم بهذه السعــادة التى لم تكن تـخطـر لهم ببــال. وكــان والــد وردة يـرقب حـركاتهم وأقــوالهم فــاقترح عليهم أن ينعمــوا بشىء ممــا يشربونــه على الأسرى فاستجــاد أحد الأحراس هذا الــرأى وقال: لقد أصبت، إذ الــواجب أن يكون لهؤلاء المنكوبين -ولو مرة واحدة فى حيــاتهم- نصيب من نعيم الحياة ولذة السعادة. فلم يكد والد وردة يسمع هــذا الإستحسان حتى ملأ الكوب بالنبيــذ ثم دنا من بنطاؤر وتــركه لــه بعد أن همس فى أذنــه ألا يشرب قطـرة منه وألا ينــام ليله. ولما دنــا من نبسشت وأراد أن يقدم إليه الكوب جاء جندى آخر ومنعه من تقديمه ثم عرض عليه قدحاً كان بيمينه فأخذه نبسشت وأخذ يكرع منه. وكان الحارس ينظر إليه ويعجب من قدرته على تجرع بنت الدنان وعجزه عن الكلام بحسن البيان وفصيح اللسان.

الفصل العاشر

أين يلتقى بربه ويتوجه إليه بكل قلبه

لم تمر بالشاربين ساعة أو بضع ساعة فى اللهو والمرح والمطايبة حتى أحسوا بثقل رؤوسهم فلم يتمالكوا أن ألقوا بجنوبهم على الثرى، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى دهمهم النوم. وكان القمر آنئذ يلامس الأفق ، فقام والد وردة ودنا متمهلا من الحراس ليستوثق من نومهم، ثم دنا من بنطاؤر فحل قيوده وفعل مثل هذا بنبسشت، غير أنه لم يستطع إيقاظه من نومه فحمله على كتفيه وقال لبنطاؤر: اقتف أثرى. ثم سار مسرعاً نحو المكان الذى عينته له وردة على مقربة من الغدير ، فلما وصل إليه نطق باسمها ثلاثاً فبرز الشاب العملاقى، فرجا الجندى من بنطاؤر أن يصاحبه إلى حيث يسير به، فتردد كأنه خشى عاقبة هذا الفرار فقال له: لا خوف عليك كما لا خوف على نبسشت، وسأعنى كل العناية بأمره. قال بنطاؤر: لا قدرة لى على مفارقة صديقى وأرى أن بالامكان إفاقته بالماء البارد . فجرداه من بعض ثيابه ووضعاه فى ماء الغدير، فلما أحس قوة تياره أفاق وسار مع بنطاؤر متمايلا كالثمل وأمامهما الشاب العملاقى وظلوا سائرين جميعاً حتى بلغوا إلى البيت الذى على قمة الجبل.

وكان والد الشاب نائما فأيقظه من نومه وأخبره بما سارّته به وردة وماعاهدته عليه من العهود ، فهب الرجل من مكانه واستقبل نبسشت وبنطاؤربالإكرام وطرح للأول على الأرض حصيراً نام عليه وهيأ للثانى مضجعاً من الفرو، وقدم إليه ثيابا جديدة ليلبسها بدلا من أطماره البالية ونادى بابنته أن تغسل قدميه، فاضطجع

بنطاؤر على الفراش الذى أعده له والـد الشاب العملاقى فإذا به فراش لين لا تفضل عليه أرائك الملوك نعومة ونظافـة، بيد أنه لم يستطع النوم لما أنهك جسمه من التعب وتـولاه من الدهش وانـزعاج الضمير. ولبث على هـذه الحال زمناً نهض بعـده من مكانه فوضع نبسشت على فراشه وخرج من الدار للايغال قليلا فى الخلوات تسرية للهمّ عن قلبـه، فقـاده السير إلى غـديـر منحدر مـن مكان عـالٍ تتكسر ميـاهـه على الصـخور فيُسمع لها خرير لطيف فغمس فيه رأسه ثم أدلى بجسمه ليتنعم بطراوة مـائه النقى، وقد تخلص بـذلك من الادران التى تـراكمت عليه كما نجت نفسـه من أوضار الحقد والعار والحزازات الناشئة من مخالطته قوما لا نصيب لهم فى الحياة الدنيا إلا التلطخ بأدران العار والهوان وفساد الأخلاق. ولقد أحسّ كأنه فى صبيحة عيد من أعيـاد بيت سيتى التى كان ينتبـه من نومـه فيها مبكـراً فيستحم ويتطهر ويلبس الثياب الكهنوتية الناصعة البياض. لهذا عجل بالعودة إلى دار العملاقى تبدو عليه مظـاهر النشاط والخفـة والاغتباط ، فبعد أن جفف جسمـه لبس الثياب التي قدمها الرجل إليه فأصبح فى يومه الجديد عكس ما كان عليه أمس الدابر.

وكان يرى أمامه صخورا قاتمة اللون فيخالها سحباً متراكمة تنذر بوابل غزير، إلا أن السماء كانت بأديمهـا الصافى تلوح مـن خلال قماتها الشاهقـة وقد رصعت بألوف الكواكب المتلألئة. وقد أثر هذا المنظر العجيب فى نفسه تأثيراً سما بها إلى أوج الحرية. وكان النسيم فى ذلك الوقت عليلا فسـار– وقد لاحت عليه علامات السرور والاغتباط– فى درب يوصل إلى قمة الجبل التى اتخذهـا والد الشاب العملاقى مقراً له. وكان فى صعوده إليها يشعر كمن يطير أو تجذبـه نحوها أيد خفية، ورأى وهو صاعـد تيساً أركن حينما رآه مقبـلا إلى الفرار وتسلـق مع أنثاه الصخـور الصلدة فصاح الشـاعر بهما: لا تخافا منى أذى فلست مـن جُبل على الأذى. وقد جاء قـوله

هذا دليلا على ما تحن إليه جـوارحه من العشق وعلى ما يحسه من ضرورة الإعراب عنه للحبيب.

ثم وقف على هضبة ضيقة عند مآخذ القمة الصخرية، فإذا به يرى مسرباً تجرى فيه الميـاه من أعالى الصخـور فترتوى به الحشـائش الطبيعية وتنعكس فيـه صور الكواكب التى أخـذ بريقهـا الساطع يبهت قليلا قليـلا تلاشيـاً وتفانياً أمـام ضوء الفجر المبلج، فنظر إليها نظرة تدل على تتبعـه لها بفكره فى سيرها السرمدى بأكناف الفضاء اللانهائى . ثم التفت إلى الجبال التى أضاء النـور سفوحها وأبان للناظرين ما يليهـا وما يتخلل آكامها من المهـاوى التى لا قرار لها. ومازال الليل يـولى الأدبار حتى سطع النهار وتمثلت للأنظار قمم تلك الجبـال تتسـحب فوقها السحب كدخان يتصاعـد من بؤرة النار. وكان ضبـاب كثيف يصعد وقتئذ من الـواحة، فلم تمض هنيهة حتى انجلت دقائقه وانتثر بعـد التماسك حينما فعلت فيها أشعة الضوء فعل السهام النافذة فى الأجسام.

هذه كانت حالة تلك الأصقاع من الـوحشة ساعة طلوع الفجر. ولم يكن بها من دلائل الحياة سوى نسر كان يحلق بجناحيه العـريضين حول بنطاؤر، وهومأخوذ بالتأمل فى عجائب الخليقة وأسرار الكائنات من تلك القمة العالية. وكان السكون قد مدّ أرواقه على الطبيعة فلما رأى بنطاؤر ذلك النسر منحـدراً إلى قاع الوادى وشاهد الضباب تتلاشى جزيئاته هباء وتهبـط فى تلاشيها إلى أسفل المنحدرات، خطر بباله أن يواصل الصعود إلى نقطة أسمى يكـون فيها بمعزل عن مصائب الجنس البشرى بعيداً عن التأثـر بالنوازع الدنيئة التـى تجذب إلى ناحيتها أفئدة العاجـزين فتحول دون تأملهم فى عجائب الكائنـات، بيد أنه كان فى حـالته هذه أشبه بـه يوم أن اطلعه

الكهان على أسرار الكهنوت المقـدسة، إذ كان يجمع إلى الخشوع الذى امتـلأ به قلبه يومئذ عزة النفس التى تسمو به على الكـافة. وغاية ما أحسه من الفرق بين الحالين انه كان فى ذلك اليوم يستنشق أريج الزهور ورائحة البخور وغيرهما مما يثقل على النفس ولا ينتعش به الفؤاد وهـو واقف على ذروة الجبل الشاهق يستنشق النسيم النقى العليل ويرى من السكون السائد على الخليقة ما يوطىء سبيل الفوز بالقربى من الألوهية أكثر مما تمهد منه أناشيد الكهان.

ثم أوغل فى التأمل والتفكر فـرأى أن الأنفاس الخافتة المنبعثـة من صميم الفؤاد تتقبلها الآلهة أكثر مما تتقبل الأناشيد والأغانى التى يلحنها الكهان ويصدحون بها فى كل آن، وأن الإنسان مدين للمنعم عليه بشكر ما أنعم وبالاقرار بالطاعة له، ولكنه لم يكن مديناً بتصوير ذلك الشكر وهذه الطاعة فى صور محسوسة مغالاة فى إفهام المراد منهما. وكاد لسانه– مع هذا التصور– ينطلق بترديد بعض الأناشيد لولا أنه أحس بحصر فجثـا فى الحال على ركبتيه للصـلاة والـدعـاء وأداء مفروض الشكـر والثناء.

ونهض واقفاً بعد الصلاة فأمعن النظر فيما حـوله من عجائب الكائنات، وكان مستشرقا الشرق وميامناً الجنوب حيث تمتـد أراضى النيل المقدسة التى تقام فيها الشعائر الدينية لآلهة لا يُحصى لها عدد ، فاختلط عليه الأمر إذ حار فى اختيار من يعبده من هـذه الآلهة: أ (أوزريس) أم (حوروس) أم (زيفـا) أم (رينوت) صـاحبة البركات العميقة ومفيضة النعم؟ وبينما هو فى هذا التردد إذ هبّ نسيم لطيف انقشع بسببه الضباب الذى كان منسدلا كحجاب يحول دون رؤية الوادى، وانبعثت أشعة الشمس من وراء الأفق ، فكللت هام جبـل سيناء بتاج من الـذهب وطرحت على الماء طبقة ناصعة البياض من اللجين.

ومرّ ببـاله آنئذ أن يبتهل إلى الإلــه (فيرو) ، ولكنه عدل عن نيتــه اذ تذكر تفـاهة عبارة الصلوات الدينية الخاصة بمعبـودات السهول والفلوات وخلوّها من المعانى اللائقـة بالزمـان والمكان، ثم سكت برهـة قال بعقبها: «إنى الآن فى حضرة الـواحد الأحد الذى تقدس عن الحاجة إلى المكـان وليس فى مكان ولا على مكان، لأن كل ما فى العالم تحت قدرته وتسخيره، تراه عيناىَ بلطفـه وقدرته وعجيب صنعه، لأنه تعالى منزه عن الكيف والكمّ وكل مـا يخطر بالخيال والـوهم من التكيف والتمثيل، فإليه ضراعتى وإليه إنابتى». ثم بسط كفيه وقال: أنت الـواحد الأحد! أنت الواحد الأحد! أنت الواحد الأحد!

وكان شيـخ بدين الجسم قـوى الأساطين واقفـا وراء بنطاؤر وهو يكـرر تلك الكلمات، فلما التفت بنطاؤر إليه قال له الشيخ: بورك فيك وعليك، إن كنت تبحث عن الإله الحقيقى. فحدق الشاعر فى وجه الشيخ وكـان طويل اللحية مهيب المنظر وقال له: لقد عـرفتك.. لانت ميسو [1] بعينـه. وإذا عـرفتك فما هـو إلا لاننى كنت ببيت سيتى أتلقى فيه المبادىء العلمية وقتما تخرجت أنت منـه نابغاً فى المعارف والعلوم اللدنية. وقد أطلعنى أمينى– كما أطلعك – على سر الاعتقاد بوجود إله واحد لا إله إلا هو. قـال ميسو، وقد حـدق بنظره فى الأفق الذي كـانت تسطع الأنوار من نـاحيته الشرقية: أما أمينى فلا يعرف من الوحدانية شيئاً.

فى خـلال هـذا الحديث برزت الشمس مـن وراء حجاب الأفق وأصـابت سهـام أشعتها الذهبية كبد الفضاء، فكان أول مـا بدر من بنطاؤر أن استقبلها بوجهه وبدأ يصلى. فلما انتهى من الصلاة شهـد ميسو وهو يصلى أيضاً، إلا أنـه كان مستقبلا

(١) اى موسى عليه السلام.

الغرب، فلما أتى على آخر صلاته سأله: لم استدبرت الإله «الشمس» وقد تعلمنا بالمدرسة وجوب استقباله عند شروقه. قال ميسو: إنى أعبد إلهاً غير ما تعبد.. الشمس والكواكب مسخرات لأمره . قال بنطاؤر: أرشدنى إلى طريق هذا الإله القادر. قال ميسو: ابحث عنه تجده، لأنك كابدت الآلام وقاسيت مشاق المتربة. واعلم أنه تجلى لى فى مكان مثل هذا وفى صبيحة يوم كهذه.

قال هذا ومضى فى سبيله، فوقف بنطاؤر وحده سابحا فى بحار التأملات،ثم نزل متمهلا نحو دار العملاقى ، وبينما هو فى طريقه طرق سمعه همس أناس على مقربة منه. وكانت تحجبهم الصخور عن نظره، فوقف هنيهة حتى ظهروا من خلفها ودنوا منه، فإذا هم ابن العملاقى ورجل بثياب مصرية وامرأة ميادة القوام ترافقها فتاة رشيقة الحركات وعبيد يحملون محفة. فخفق قلبه شديداً حين وقع بصره عليهم، لأن تلك المرأة كانت بنت أنات كريمة رعمسيس. ثم وقف مستنداً إلى صخرة لا يقدر على الحركة لما غلبه من الدهش، وغابت عنه الحواس فصار لا يسمع وقع الأقدام على الصخور الصلدة، ولا يرى انعكاس الأشعة الشمسية على حجر السماق، كلا ولا المرأة الحسناء التى هرولت نحوه لاستجلاء محياه. وما نادته باسمه وطرق صوتها أذنيه حتى صار كالأعمى الذى يرجع إليه البصر أو الأصم الذى يعاوده السمع، فقد عرته رعشة فتنبه فسمع بنت أنات تكرر نداءها له: يا بنطاؤر! فأوسع لها الشاعر صدره الرحيب فترامت بين ذراعيه فضمها إليه وعانقها عناق المشتاق الذى أضناه الفراق.

أما رفيقات الأميرة فكن جالسات فى بيت العملاقى. فقالت وردة لنيفرت: لقد رأيتها تلقى بنفسها بين ذراعيه.. لست أنسى – ماحييت– هذا المنظر البديع الذى

كانا يحاكيان فيه البحر المتلألىء عند الأفق هناك، وقد تحركت مياهه لعناق الجبل المقدس. قالت نيفرت: كيف ابتدعت هذا التشبيه الجميل، ومن أين لك مثله أيتها الفتاة؟ قالت وردة: عثرت عليه فى صميم فؤادى وليس عندى ما أكاشفك به سوى أننى أشعر الآن فى نفسى بسعادة وهناء، لم أشعر بهما من قبل. قالت نيفرت: لعل سعادتك وهناءتك ناشئتان من اعتقادك أنك وفيت لبنطاؤر ما عليك له من الدين، إذ كنت سبب إنقاذه من الهلاك كما أنقذك منه. قالت وردة: ليس هذا سبب سعادتى، بل إن هناك سبباً آخر كان داعية هناءتى وجالبة سرورى. وغاية ما أخبرك به أننى كنت يئست من كل شىء فلم ألبث أن تحول اليأس فى نفسى رجاء بفضل الآلهة وعدلهم.

فاستحسنت نيفرت هذا القول بإشارة ثم قالت وهى تتنفس الصعداء: ما أسعدهما حالا وأهنأهما بالا وقد تلاقيا بعد الفراق! قالت وردة: إنهما جديران بهذه السعادة لأن بنت أنات إلهة الحقيقة، وليس فى الديار المصرية من يجارى بنطاؤر فى علمه وشرف نفسه وعلو همته. فصمتت نيفرت زمناً ثم قالت بصوت اليائس الحزين: أما رأيت مينا؟ قالت وردة: من أين لى أن أراه.. عليك بالصبر يا نيفرت ودعى عنك الجزع، فلسوف تجتمعين بمحبوبك. وثقى بقولى هذا، فأنا أعرف من حوادث المستقبل ما يعرفه الأنبياء.. ولكن دعينا من هذا الآن ولنقصد نبسشت لنرى إن كان لايزال نائما.. أنا عرافة بما للشراب المخدر الذى مزجته بالنبيذ من تأثير فى إضاعة الرشد. قالت نيفرت: أصبت ، فهيا بنا. ثم سارت مع وردة مقتفية أثرها.

وكان الطبيب ملقى على ظهره فاغراً فاه، فتقدمت وردة نحوه وحدقت فيه النظر

فقالت: لقد أجهد هذا الرجل نفسه فى دراسة العلوم والاطلاع على خفايا الحقائق ، ولكن مازلت أجده أقرب فى هيئته إلى الحيوانات العجم منه إلى الإنسان. ثم تناولت عوداً يابساً وعبثت به فى أنفه فتحرك أولاً ثم عطس وتقلب على أحد جنبيه واستغرق فى النوم، فقهقهت وردة ضحكا كان يرن رنين الفضة النقية أو الذهب المصفى ولم تلبث أن احمر وجهها خجلا إذ وبخها ضميرها على استخفافها بالرجل الذى أحسن إليها فاعترفت بخطأها وندمت على ما فعلت وتذكرت ما كان عليها له من مآثر تدل على كرم محتد وطيب عنصر.

وفى الحال تناولت يد النائم فقبلتها وعمدت إلى جبينه فمسحت العرق الذى كان يتصبب منه. وكان فى هذه الأثناء بين يقظان ونائم فقال: وردة عزيزتى وردة! فتراجعت الفتاة إلى الخلف هاربة. فاقتفت نيفرت أثرها. فلما تنبه نبسشت من نومه نهض واقفاً ونظر فيما حوله فوجد أنه فى مكان لم يره من قبل ولم يعلم سبب وجوده فيه ولذا خرج مهرولا فالتقى ببنت أنات تحذر أصحابها مما يكنفهم من الأخطار والنكبات.

الفصل الحادى عشر

«الرحلة من سيناء إلى لبنان.. وما وقع فيها من غرائب الحدثان»

مرت قرون عديدة وأحقاب مديدة على سكان الواحة وهم يؤدون الجزية للفراعنة، مقابل تعهدهم لهم أن لا يطأ عسكرى مصرى ثرى بلادهم. وكان هذا هو سر نزول الأجناد الحبشان خارج حدود الواحة وإقامتهم صواوين بنت أنات بعيداً عنها، غير أنه حدثت بالرغم من هذه التدابير معارك كثيرة سالت فيها الدماء بين أولئك الجند الذين أركنوا الى البطالة والكسل وبين العمالقة سكان الواحة الذين عرفوا بعزة النفس وسمو الهمة وسرعة النجدة وحب الاستقلال. وكانت تلك الحوادث تنذر بالخطر فى مساء يوم أفرط فيه أولئك العساكر فى الشراب حتى ترنحت أعطافهم وضلت عقولهم وضاع صوابهم فهاجموا النساء وهن ذاهبات للاستقاء.

وفى فجر ذلك اليوم استيقظ أحد الحراس الأسرى من نومه، فتنبه إلى غيبة بنطاؤر ونبسشت فذهب مع أصحابه من فوره وفيهم والد وردة – وكان قد عاد الى مكانه مستتراً بالظلام بعد قيامه بما عهد اليه– ليرفعوا الأمر إلى ضابط الجنود الحبشان الذى أيقن أن الشاعر والطبيب اختفيا بالواحة عند أحد العمالقة. فخابرهم فى تسليمهما له، ولكنهم لم يبالوا به لاعتقادهم فساد التهمة الموجهة إليهم وسخروا منه فاستشاط غيظا وأمر بتفتيش الواحة. ولم يكن هذا الأمر متفقا مع نصوص المعاهدات المبرمة بين حكومة مصر وبينهم. ولما لم يعثره البحث عندهم عليهما اقتفى النساء والأطفال أثره يشيعونه بألفاظ التهكم والتبكيت وتمادوا فى ذلك حتى

ضاقت عليه المذاهب فذهب إلى الواحة بنصف قوته العسكرية واحتلها.

لما رأى العمالقة هذا التعدى هبوا إلى أسلحتهم فتقلدوها وتظاهروا بالانسحاب الى الوراء ليستدرجوا تلك القوة إلى متابعتهم، ومازالوا بها حتى بلغت إلى بقعة ممهدة من الوادى حول جبل صخرى صغير (١) فاعتصم به سوادهم الأعظم. فلما مرّ الأحباش بجوارهم انقضوا على الطليعة والمؤخرة انقضاض النسور وفتكوا بهما شر فتك. ثم انجلت الواقعة عن قتل عدد عظيم من الجند وإصابة الضابط نفسه بجراح اضطرته إلى الارتداد على الأعقاب . وما ترك شرذمة من جنده لحراسة الأميرة إلا لكى تستنجد بها عند الحاجة لأنه سارع بعد الانسحاب بالانضمام اليها واستأنف كرة الهجوم على الواحة بها وبالقوة التى عهدت إليها المحافظة على الاسرى.

لم يكد يتوارى شبح آخر جندى وراء غابة النخل عن نظر بنت أنات حتى أصدرت أمرها بإعداد العدة للرحيل. وكان رجال حاشيتها متفانين فى الإخلاص لها، فما هى إلا ساعة حتى قوضوا الخيام ووضعوا على متون الجياد ما خف حمله وغلا ثمنه من المتاع والزاد، وانطلقوا فى دروب سيناء يفرونها فرياً وفى طليعتهم ساليش متجهاً معهم صوب دار أبيه، بينما كان الضابط وجنوده فى قتال عنيف مع سكان الواحة الأبرياء.

وكانت وردة فى أثناء المسير تدبر بذكائها وصدق رويتها التدابير لالتقاء بنت أنات وبنطاؤر. وقد شرحنا كيف تم هذا الالتقاء وسردنا ما وقع فيه من حوادث الهيام ووقائع العشق والغرام. فنضرب صفحا عنه الآن لنقول إنهما لما استأنفا

(١) يسمى هذا الجبل الآن أكمة مهاوت وتوجد بها إلى الآن أطلال كنيسة فران

السير لم يفترقا حتى وصلا إلى آخر المرحلة، فى محلة كسيت أرضها بديباج الحشائش الخضراء، فجلسا على هذا البساط السندسى وشرعا يتطارحان ذكرى ما اعترضهما من الشدائد والصعاب. ولما كان قبيل الظهر أقبلت ابنة العملاقى واخت ساليش تحمل قدراً مملوءة لبناً فتناولتها بنت أنات منها وسكبت بعضاً مما فيها فى طاس متخذ من قشر القرع المجفف وقدمته إلى بنطاؤر الذى كان يشعر ساعتئذ كأن روح العزة والكرامة مقرونة بالتواضع تنبت فى كيانه الذاتى حتى تناولته جميعاً. ولقد حدق فى بنت أنات النظر فعاهد نفسه على أن يبقى ما عاش مخلص الولاء لها مضحياً روحه فى سبيلها ومتفانيا فى حبها. وكانت حوادث الماضى الذاهب والحاضر المشاهد لحسن طالعه قد محت من قلبه الخوف من المستقبل، فأصبح وكأن جناحى السعادة يرفرفان على رأسه. وما انتهى الاثنان من تناول ما هيىء لهما من الطعام حتى أحس بنطاؤر بسلطان الغرام الذى نحاه عن مواطن التفكر فى شؤون الدنيا قد تغلب عليه، فأخذ يجهد الفكر فى تدبير تخلصه من المأزق الذى زج بنفسه فيه حيال بنت أنات وحاشيتها.

وكان الناظر اليهما وهما فى حدثيهما يأخذه العجب من أمرهما، فإنه بينما كان يسمع منهما عبارات الخوف والفزع كان يقرأ فى عينيهما آيات السرور، وبينما كان يسمع مفاوضتهما فى تدبير مخرج لهما من هذا المأزق كان يراهما متراجعين نحو دار العملاقى. وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى شهدا هذا الرجل وابنته مقبلين عليهما ومعهما شيخ جليل من العمالقة، فلما دنا الثلاثة من بنت أنات خروا سجدا وقبلوا الارض بين يديها.

كان اسم ذلك الشيخ (ابو شرابوس) وهو عميد الواحة وكبيرها. وكان قد اتصل به نبأ محاصرة الحراس لبنت أنات ووقوعها فى شرك أسرهم فحضر ليجعل نفسه فى

خدمتها ولينفذ ما تأمره به. وقد قال لها إنه موالٍ لأبيها الذى صان حرمة المعاهدات المبرمة بين مصر وعرب العمالقة. وكان الرجل طويل القامة قوى الأساطين أسمر اللون اقنى الأنف، وفى وجهه ندبة جرح أصيب به فى منازلة عدوٍّ له. ثم أخذ يقص على بنت أنات وبنطاؤر -وكان يظن أنه شقيقها- ما لحق جند الأحباش من الخذلان وأنهم وقعوا جميعاً بين قتيل وجريح وأسير، ثم قال: إن هؤلاء الجند أشداء على أهالى (رزوح) الذين يشبهون الكلاب جبناً وسفالاً. أما نحن فرجال إذا طمع فينا أجنبى وحاول الإغارة على بلادنا أذقناه من دفاعنا الذى يشبه دفاع الليوث عن عرائنها كأس المنون. فليأت منهم الألوف تلو الألوف ونحن ننكل بهم ونوردهم موارد الحتوف.

وما أيقنت بنت أنات إخلاص الرجل وصدق استعداده لدفع المكاره عنها حتى وعدته بأن تذكره بخير عند أبيها الملك وتوصيه برعايته هو وقومه، ثم أخبرته برغبتها فى الذهاب مع بنطاؤر إلى المعسكر المصرى فى الشام وذكرت أن هذا الشاب سيكون فى المستقبل قرينها.

وكان الشيخ يمدّ بصره إلى بنت أنات وهى تفوه بهذه الكلمات حتى إذا التفت إلى بنطاؤر أطرق رأسه احتراما وإجلالا له ثم قال: أنتِ يا ابنة الملك لأزهى من القمر سناء وتألقاً ، إنه لا نظير لرفيقك فى العالمين، وإنما هو أشبه الناس بـ (دوزاره) إله الشمس. ثم ضرب صدره بكفيه وقال: لم أرَ فى حياتى زوجين يشبهانكما غير (أبى شرابوس) وزوجته ولهذا عولت على مرافقتكما بنفسى إلى (هبرون) ومعى رجالى الشجعان.. ولكن عجلوا بالرحيل قبل وصول الجند الذى لابد أن يبعث به ذلك الخائن الأثيم الحاكم الآن على مصرائم (١) لينتقم من العمالقة. هلموا إلى خيامكم لإعداد معداتكم وغداً لا تبزغ الشمس حتى نكون فى الطريق.

---

(١) اسم مصر عند العبرانيين

ثم وقفوا تجاه بيت العملاقى فتقدم رجال حاشية الأميرة صوب بنطاؤر وأدوا له واجب السلام، فلما دنا منه رئيس الحجاب كانت تبدو على وجهه علامات القلق والتردد، لأن الملك رعمسيس وإن يكن قد أمره بالطاعة المطلقة لكريمته المحبوبة لم يرق فى نظره أن تهوى من أوج كرامتها العالية إلى حضيض الرضاء بأن يكون أحد رجال العامة قريناً لها. أما نيفرت فكان مما يشرح فؤادها أن تحدق فى بنطاؤر النظر وتعجب بما رزق من جمال صورة واعتدال قوام وكانت تناجى نفسها بأن هذه الصفات العالية تمثل لخاطرها صورة آسا زوج خالتها.

وكان هذا شأن وردة مع بنطاؤر وبنت أنات، فإنها كانت لا تمل النظر إليهما والدعاء بتحقيق أمانيهما، وأن تكون هذه السعادة مقدمة خير لتحقيق أمنية نيفرت بلقاء قرينها مينا وتحقيق أمنيتها أيضاً.. وكان نبسشت فى أثناء هذا بمعزل عن الجميع تواضعاً منه أو حياء، وقد ذهب صفاء الجو وطراوة النسيم بصداع رأسه. فلما انتهت مراسم السلام على بنت أنات وبنطاؤر على الوجه المتقدم دنا من الشاعر فأخذه بيده ثم قال: إنى أكف منذ الآن عن تعزيزك لأن مبدع هذا الكون الذى تستمد به فى صلواتك قد محا من نفسك العيوب التى لأجلها عزرتك. قال بنطاؤر: لا مدعاة لأسف أيها الصديق، ولسوف يجىء دورك فنكون على وفاق تام ونعيش فى صفاء وسلام. قال نبسشت معترضا: أرى بلوغ هذا المرام وعراً، لأن بنى الإنسان آلات رُكّبت فى مصنع واحد لا تدركه الابصار. وكل الفرق بين آلة وغيرها أن تكون إحداهما من الخشب الجيد والاخرى من الردىء، وأن تكون الأولى صحيحة الصنعة محكمة تناسق الأجزاء والثانية عكس ذلك. أما أنت فمن الطراز الاول لأنك تشبه الآلة الموسيقية التى يُسمَع اهتزاز أوتارها كلما هبت عليها رياح القدر وأما أنا فكالآلة التى تبين اتجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكنى كلما تحركت يمنة أو يسرة

سُمع منى صرير يملّ السـامع. وإذا اتخذنى ربان السفينة دليلاً للسلـوك بفلكه إلى الوجهة المرومة فليس هذا مايهمنى شأنه، ولذلك ترانى أدور كلما حركتنى الرياح، وسواء عندى التفت الربان إلىّ أم لم يلتفت.

غـادر بنطاؤر وبنت أنـات بيت العمـلاقى بعـد أن أفاضت عليـه النعم. وكـانت الشمس فى التطفيل وقمة جبل سيناء تتوهج كعلم على رأسه نار أو كأحجار ياقوت تسطع فى أكليل ذهب. وكـان قرص الشمس كجـذوة نار شـديدة الاحمرار، إلا أنها كانت مغشاة بسحـاب خفيف كالقبس تغشاه طبقة رقيقة من الـرماد. ولما افتر ثغر الفجر وبـدا عمود الصبح تحرك ركب الأميرة جـاعلا وجهتـه معسكر رعمسيس، وكان (ابوشرابوس) إماماً لها يهديها سواء السبيل فى المنعرجات، وكان ابن المحنط بينم سـائراً خلف ابنتـه وردة. فلما قطع الـركب المرحلـة الاولى والتمس الـراحـة بالوقوف عندها دعته الأميرة إليهـا وسألته أن يقص عليها ما استنبطه من التدابير لتخليص بنطاؤر، وكيف استطاع الـذهاب به إلى شبه جزيـرة سيناء، فى حين كانت النية معقودة على نفيه إلى محاجر رحنو فقال:

«انبأتنى وردة بالمكان الذى تقرر أن يُنفى إليـه هذا البطل الذى تطوع للذود عنا وبسطت لى ضرورة العمل لإنقـاذه حتى لا يـرسَل إلى ذلك المنفى، ولكنـا لم نـوفق لحيلة نقضى بها هذا الوطر. ولم يكن لمثلى أن يستنبط حيلة أو يخترع وسيلة، فربّ أمر أستحسنـه فيكون بذاته قبيحـا فأنساق به إلى فعل الشر وأنـا لا أريد إلا الخير. وحـدث قبل أن تفاوضنى وردة فى هـذا الشـأن أنى كنت أقـوم على حراسـة بعض المحكـوم عليهم بالعمل فى معـادن (مفكات) وجـرت العادة بإنـزالهم فى السفن من مـرسى مدينـة الأمـوات فـرأيتهم قبل نزولهم، وقـد علت وجـوههم غبرة الحزن

والأسى، وكان منهم من يلــزمـون السكـوت والسكـون إلا أن امتقـاع ألـوانهم واصطكاك أسنانهم رعبا وفـزعاً وإنصراف أنظارهم إلى الفضاء أوحت إلى ضميرى الاعتقاد بأن أولئك الساكتين الساكنين أولى بالشفقة وأحق بالرعاية من الذين ارتفع صياحهم إلى عنان السماء ورددت جلبتهم أركان الفضاء. وكنت كلما تأملت الفارق بين الفريقين انتابت جسمى قشعريرة التأسى لهؤلاء والحقد على أولئك.

«وكـان فى الفريق المتمسك بأهـداب الصبر والسكينة رجل تبينت حقيقتـه لأنى كثيرا مارأيتـه حين كان أسرى الأجانب الـذين نيطت بى حراستهم يشتغلـون ببناء القاعة الكبرى ذات الأعمدة. تأكد لى منه أنه مفتش حراس حمل آمون المقدس، وكنت أعهد فيه الحرص على أداء الواجب، وكان لجأ ليلـة إلى الراحة فدخلت الذئاب الهيكل واغتـالت الحمل الذى وُجـد قلبـه بعد فى صـدر النبى رونى. وإذا كـان لا غنى عن إرضاء الامة وتسكين ثائرتها بمعاقبة الحارس المسمى هونى فقد صدر عليه الحكم بالنفى إلى معـادن الذهب وعُين بدلا منه رجـل أشد يقظة وأكثر حـرصا على الحمل المقدس.

«شهدت هونى فى معزل عن بقية المحكوم عليهم فدهشت لعزلته لاعتقادى أن له زوجة وأولاداً كـان يجب عليهم الحضور لـوداعه وتشييعـه بعبارات العطف التى تخفف عن القلوب أعبـاء الحزن فسألته عن سبب إهمال أهله أمره وعـدم عنايتهم به، فأجاب أنه ودعهم عند الباب حتى لا يروه مع باقى المحكوم عليهم من المزورين والقاتلين. وكان قد حدث منذ أيام حريق هـائل فى بيته فالتهم ما به من أثاث ومتاع حتى لم يبق عنده ما يسدون به الرمق، فزاده ذلك كدراً على كدر. وكان فى روايته لى حوادث هذه الفـاجعة لا يستطيع متابعة الكـلام، بل كانت تخنقه العبرات فيصمت.

وحينما أنس منى العطف عليه والرفق به قال بصوت جهورى: إننى أرضى بالنفى إلى معادن الذهب، بل أرضى أن يقطع جسمى إرباً، ولكن لا أرضى أن تحتمل زوجتى ذل الفقر ويقع أولادى فى مخالب الجوع.

«وعلى أثر ذلك خرجت لتوديع ابنتى وردة ممثلا لخاطرى حالة ذلك الرجل وما استولى من اليأس على فؤاده فقلت فى نفسى لو كنت غنياً لما توانيت عن إسعافه بما يجعل زوجته وأولاده بعيدين عن الحاجة وذل السؤال، ولكنى سأبذل قصارى الجهد لتعزيته بما يسرى الهم عن قلبه. ولما التقيت بوردة أبلغتنى تبرع الطبيب نبسشت لها بماله وحادثتنى فى أمر بنطاؤر ووجوب انقاذه، فأصبحت تجاه أمور ثلاثة تتنازعنى : إسعاف المنكوبين والشكر لنبسشت وإنقاذ بنطاؤر. غير ان هذه الأمور الثلاثة اندمجت فصارت أمراً واحداً اتخذته رائدى ودليلى فيما استخزت الله على اتباعه، فعجلت الأوبة إلى الميناء حيث سلمت هونى مبلغا كبيرا من المال ليحل محل شخص محكوم عليه بالنفى إلى محاجر رحنو. وأطلعته على أنه سيُرسل فى الحقيقة إلى معادن الذهب لا إلى هذه المحاجر، لأنه إذا جازت الحيلة على من حنكتهم التجارب ودلكتهم المحن فإنه لا يجوز على الأطفال والمرضى- أعنى المنكوبين فى عقولهم وأبدانهم- غير الحقيقة الواضحة. عرضت عليه المبلغ وأصدقته القول فتلقى طلبى منه بالرضاء والقبول قائلا إنه يفضل عذاب السعير على أن يرى أولاده فى ذل الحاجة والسؤال. وبناء على هذه الحيلة التى لم أعالج عناء فى استنباطها إذ جائتنى عفوا حضر بنطاؤر إلى السفينة منتحلا اسم هونى، بينما كان هونى الحقيقى يواصل السير صوب الجنوب منتحلا اسم بنطاؤر، ولم يظهر قط سر هذه المعاوضة الاسمية حتى الآن. أما ما وقع بعد من الحوادث فعندكم علمه، وها أنتم أولاء تقصدون إلى الشام التى خبرت أحوالها منذ كنت أذهب بالأسرى منها

إلى مصر وأقمت خمس سنوات فى حراسة الموهار الأكبر أبى بعاكر رئيس الطلائع».

شكرت له بنت أنات هذه الصنيعـة وأثنت عليه بأجمل الثناء، فقال نبسشت: لقد كنت فى أثناء السفر شديد القلق على بنطاؤر إذ كـانت تبدو عليه علامات الألم، ولكن قلبى عاد فاطمأن عليه لما وصلنا إلى الصحـراء إذ أخذت تلك العلامات تتبدد شيئاً فشيئاً. وكان كلما نـزلنا بمكان أو وقفنا عند مـرحلة يشنف سمعى بما ينظمه من شعـر وافـر الحظ من بـديع المعنى وشريف اللفظ، فقـالت بنـت أنـات: يـالها من مصـادفة حسنـاء فإنى مـا بلغت من رحلتى إلى الصحـراء حتى فارقتنى الهمـوم ونشط جسمى من عقـال المتـاعب. قـال نبسشت لبنطـاؤر: أى رحمك اللـه.شنف مسامعنـا بالقصيـدة الغراء التى نظمتهـا فى وصف نبات البعيثـران، سأل بنطاؤر الأميرة: أو تعرفين هـذا النبات؟.. إنه ينمـو فى الصحارى والفلـوات وها نحن أولاء نراه حولنا وبعيـدا عنا.. إن عركه الإنسان بين أصابعه سطع منـه شذا عطرى يملأ الأنوف. وقـد نظمت فيه أبيـاتاً كما نظمت فى غيره على مـا تعلمين. فتبسم نبسشت قائلا: نعم! هى الأبيات التى تمجد فيها إلهة واحدة ملكت عنان الجمال وقبضت على صولجان الحسن والدلال. قـالت بنت انات: هات ما عندك هـات واتحفنا بما نظمته من الأبيات. قال الشاعر: «عثـرت بالصحراء على النبات ذى الأوراق الخضراء، التى إذا عركت بالاصابع انتشر شذاها الساطع، مع أنها نبتت من الصخر، فى بلد قفر، إن قلبى قد أدمته الكلوم، وساورته الهموم، فلما سرحت النظر فى الصحراء، انجلى عن قلبى البـؤس والعناد، وأدركت كيف يكـون نظم الاشعار، حينما انسدل عليهـا من السكون ستار».

سـألت نيفرت: ماذا تقول؟ الصحراء علمتك قرض الشعر! وهل نسيت ما للعشق

في تعليمك إياه من الأثر الظـاهر؟ أجاب بنطاؤر: حمداً وشكـراً للاثنين معاً. ولكن لا يسعنى أن أنكـر مـا للصحـارى ومد النظـر فى الآفـاق من حسن التأثير فى نفـوس العشاق. ألا يضطرنا السأم من تجانس ظـروف الحياة وتماثل أحوالها فى كل وقت إلى مراجعة النفس في استطلاع أسرارها وكشف مضمرها؟ ألا نحس آنئذ بمشاعرنا وقد امتـد عليها رواق السكـون وخفقت عليها أعـلام الهدوء لا يساورهـا شيء من العوامل المحيطـة بها، ألم يكن هذا الاطمئنان مستفزاً للـذهن على الايجاد والابتكار حاثـاً للروح المنطـوية فى ذاتها على الانفعال بأقل المؤثـرات؟ إن الانسان فى مـدائننا الكبرى كالهباَة الصغيرة بل كالجزء الذى لا يتجـزأ إذا قيس بالمجموع، وهو متصل به اتصال اندماج وتلاحم وخاضع لما هو له خاضـع، ولكنه متى انفصل عنه ملتجئاً الى الصحراء أصبحت عـلاقته به منحلـة العرى مفكـوكة الروابط، إذ يكـون وقتئذ خالياً من قيـود التضامن بينه وذاته، فيها يتحسس أسباب الفـرح وكل ما تصبو إليه نفســه من خير. إن العقل ليرى فى البعد عن المجمـوعات البشريـة مجالا للفكر لا تحده عقبة ولا يقوم دونه مـانع قاطع، لأنه لا ينصرف إلا إلى المستقبل، أما الماضى فيتلاشى تجاه ما تترامى إليه الآمال فى آفاق الاستقبال.

قـال نبسشت. أصبت! فإن الصحـراء خير مجال لتـوارد الخواطـر والأفكـار وأحسن مستغل لثمـرات الابتكـار، بدليل أنى وأنـا بمصر كنت أنظـر إلى الكثير من الأشياء فيخيل لى أن بينى وبينها حجابـا مسدولا أو ضبابا كثيفاً، فلما أن جئت إلى الصحـراء انحسر الحجـاب وانقشع الضبـاب. سأل بنطــاؤر: أجبنى مـا هى تلك الأشياء؟ أجاب نبسشت: ثلاثة أولهما أننا لا نعلم بالحقائق علما أكيداً ، وثانيهما أنه إذا كانت النفس تميل إلى الورد مثلا فليس معنى هذا أن الورد يميل إلى النفس، وأما الثالث فسر غامض أحب استبطانه. وإذا ارتبط هذا السر بأحوال الكون فمن ذا الذى

يكلف نفسه مشقة الاهتمام به؟ ثم التفت إلى الحاجب وقال: فلنبين هذا السر معا أيها الحاجب.. أنت أعلم الناس بضروب التحية وماتقتضيه من الطقوس والمراسم.. علمت ذلك ممن يتشرفو ن بلقاء الأميرة، ولكن أخطر ببالك يوما البحث فى تركيب العمود الفقرى للإنسان؟ أجاب الحاجب سائلا: كيف تطالبنى بالوقوف على سر تركيب الفقرات وإنما أنا منوط بتحديد وتنسيق ما ينبغى أن يبديه المتشرفون بلقاء الأميرة من ظاهر الإشارات والحركات؟ ان مثلك من يجدر به الوقوف على سر تركيب العمود الفقرى لأنك تواصل ليلك بنهارك فى استطلاع أسرار الجسم البشرى، ولو أنك هوّنت على نفسك ولم تعكف عكوفك هذا على الدرس والمذاكرة والبحث والمناظرة لاستطعت أن تنسق شعرك وترتب ثوبك.

وصل ركب الأميرة إلى هبرون -عاصمة أمة الخيتاس- دون أن يلقى بالطريق عائقاً ولا حادثا مكدراً. فلما استقرت بها الأميرة وأمنت على نفسها استأذن منها أبو شرابوس ورجاله فى الانصراف فأذنت لهم بعد أن غمرتهم بجزيل انعامها، ثم تحرك الركب إلى الشمال تحف به كوكبة من الفرسان المصريين. وكان بنطاؤر قد تخلف عنه فى ذلك المكان مع أبى وردة العارف بأسرار طرق الشام ومنافذها ، ولكنه ما غاب عن الأنظار وانقضى الليل وطلع النهار حتى هطلت الأمطار وأصبح متعذراً اجتياز جبل السامرية. ومع هذا فقد جدّ الركب فى المسير فوصل إلى مدينة ماجدو[1] فاستقبلته الحامية المصرية بمظاهر الإجلال إكباراً لمقام الأميرة التى أقامت بها أياما نالت نيفرت فيها الشفاء من مرض ألمّ بها. أما وردة فكانت تزداد

---

(١) تسمى باللغة المصرية مارطة وهى إحدى مدائن فلسطين ومازال اسمها منقوشا فى الآثار المصرية. وكانت مشهورة بمناعة موقعها الحربى قبل أن يعيد بناءها النبى سليمان. وقد أغار عليها ملوك الأسرة الثالثة عشرة المصرية فى القرن السادس عشر قبل الميلاد.

كل يوم نحولا وضعفا لما غشيها من الهموم، وشهدت ذلك منها بنت أنات فسألتها عن السبب فلم تجاوب بما يشفى الغليل موارية عنها مكنون سرها، لأنها لم تكن فاهت قط باسم راميرى على مسمع من أخته الأميرة كما لم تكن حدثتها بمسألة الخاتم الذى تركته والدتها استحياء وخوفا من أنها إذا أطلعتها على دخيلة أمرها وأبانت ما هو مبهم من سرها ازدرت بما يربطها وراميرى من عواطف العشق وأنحت باللائمة عليه فيعرض عن حبها وينقض ما توثق بينهما من عهوده ويلقى بها فى مهواة من المحن والأحزان لا قرار لها.

ولما صار الركب على مقربة من الحدود أنفذت الأميرة إلى المعسكر الملكى رسولا للاستفهام عن الطرق المأمونة والمسالك التى تؤدى بالسائر فيها إلى قصده فى سلام وطمأنينة، فما هى إلا فترة من الزمن حتى عاد ذلك الرسول وبيده رسالة موجزة من الملك رعمسيس إلى بنت أنات يأمرها فيها ألا تبرح ماجدو لتوافر أسباب الأمن فيها على الأرواح، بما يحيط بها من الحصون المنيعة ويقوم على حفظها من القوى العسكرية المدربة على القتال. وهذا فضلا عن أنها قاعدة الاجراءات العسكرية للجيش المحارب، ومستودع لوازمه من مؤن وذخيرة، والحاكمة بموقعها الحربى قرب البحر على شمال فلسطين ووسطها. ثم زاد أمره تعليلا بأنه أصبح على وشك محاربة العدو فى معركة فاصلة تقضى العادات والتقاليد ألا تحضرها حتى لا يصيبها فيها مكروه.

وبينما كانت بنت أنات فى ماجدو تنتظر توارد الرسائل من أبيها تطمئن قلبها بتلاوة ما تحتويه من أنباء الظفر، كان بنطاؤر والجندى والد وردة وكوكبة من الفرسان- نصب حاكم هبرون على قيادتها ذلك الشاعر- يسيرون حثيثا نحو

الشمال. وكانت هذه أول مرة امتطى بنطاؤر فيهـا صهوة جواد ولكنه استوى على متنه بما خيل للـرائى معه انـه من الفرسـان المدربين الذين قضـوا شطرا كبيرا من حياتهم فى ركـوب الخيل، مع أنه لم يكن تلقى هـذا الفن ولا برع فيه إلا منـذ يومين فقط على والـد وردة. وبلغ من مهارتـه وبـراعته أنـه كـان يفضل امتطاء الفـرس الشموس على السهلة القياد، فما هى إلا دقـائق معدودة حتى يكبح جماحها ويكسر من حدتها ويخضعها لإرادتـه. وكان قد تجرد من ملابسه الكهنـوتية ولبس الزرد وتقلد السيف وأرسل اللحية إلى أن مست منـه الصدر. وكان والد وردة لا يكف عن النظر إليـه والاعجاب بشكلـه، بل كان كثيرا مـا يناجى نفســه بقولـه: يخيل لى أن الموهار الأوزريسى الـذى كثيرا ما جبت معـه الأمصار وسلكت القفـار قد بُعث من بين الموتى متقمصا شخص بنطاؤر. إنى لأراه يضارعه نضرة وجه ونبرة صوت إذا أمر الجند بأمر، ويشبهه فى لفتته ومشيته والقبض على زمام جواده وفى العدول عن ركوب المركبات إلى متون الجياد، كلما حالت وعورة الطريق دون سهولة السير فيه.

ولم يكن بين رفاق بنطاؤر من يسكن إليه ويرتاح لمحادثته إلا والد وردة. ولهذا كان يسير فى الغـالب خلفهم بمفرده ناظرا إلى كل مـا يقع تحت بصره ممعنا البحث فيه حتى لا تفوته الاستفادة بعلم مـا لم يعلم. ومازالوا مجدين فى السير حتى بلغوا إلى جبـال لبنان فشهـد الوادى الـذى كثيرا ما قـرأ عنه فى الكتب وسمع من النـاس وصف محاسنـه، فسره منظــره وأعجبـه على الأخص خـريــر الماء المنحـدر على صخوره، وإنما ساءه أن يـرى القرى وقد عبثت بها يد الخراب والتهمتهـا النار من جراء الحرب وأن تصبـح ضواحيها مـوحشة معطلـة من الأنيس لانتظـام سكانها الفلاحين فى سلك الجيش المحارب. وقد علم أن الأعـداء مروا بهذه الجهة واغتصبوا من الفلاحين بقـرهم ومن الرعاة أغنامهـم. وكان رجل يعالج فى هذه الســاعة بعض

الكروم، فلما سمع وقع حوافر الخيل وثب وثبة اختفى بها عن الأنظار دون أن يتلفت إلى المقبلين عليه. وكانت الأرض محروثة ومحضرة للزرع وآلات الحراثة ملقاة على حواشيها، وليس فيها للسبب المذكور من يتمم الحراثة بالبذار، فانشأ يقارن بين هذه الأودية النضيرة ذات الخيرات الوفيرة وبين رمال ليبية وصخور سيناء وسهول مصرائم، فلم يتمالك أن صاح: ما أجمل هذه البقاع!.. إن الآلهة فيها أراف بالإنسان منهم به فى بلادنا. ولقد أصاب أساتذتنا حين بثوا فينا بغض الأجنبى ومقت الكافرين وخشية الايغال فيما يلى النيل، حتى لا يتجاوز شعب بلاده التى نشأ فيها إلى بلاد غيره فيطمح إلى منازعته على الاختصاص بخيراتها.

وكان الشاعر فى أثناء ذلك يدنو من معسكر الملك، فلما صار على مقربة منه تنازعه عاملان: ذكرى بنت أنات ورهبة رعمسيس فيما سيدور بينهما من المحادثات. إلا انه كان يطمئن خاطره بقوة الاعتماد على النفس وحسن الظن فى العاقبة فيتغلب بهذا الاطمئنان على ما عراه من الأحزان ولكنه كان يعود فيتهم نفسه بالتطرف فى حسن الظن والتهور فى الاعتماد على النفس فيغشى قلبه الحزن ويعترى خاطره الاضطراب ويستسلم لهذه العوامل حتى إذا أوشك أن ييأس وقى نفسه شر اليأس بالجلد وعدم المبالاة وأزاح بهما عن قلبه غشاء الحزن ووطّن نفسه على الثبات والإقدام.

وتذكر بنطاؤر – وهو فى متنازع بين هذه العوالم– ما كان من حكم أمينى عليه وهو واقف وراء أقرانه فى تواضع واستحياء وانصراف عن الناس، فتبسم وأخذ يسائل نفسه– أهو الآن كما كان يصفه أستاذه أمينى فى مصر، وإذا كان هناك تباين فهل سببه اختلاف المكان وهل تؤثر الأمكنة فى النفوس والطباع؟ وأخذ بعد ذلك

يمثل لنفسه حـالته فقال إنـه لم يكن إلا كاهناً لفظتـه الهياكل لفظ النواة وأخـرجه الكهان عن أفقهم وطـرده الدين من حظيرته القدسية.. دع أنـه ليس إلا ابن بستانى وضيع القـدر منحط الكـرامة.. ولكن عـاطفـة الشمم وعلـو الهمة تغلبت على هـذه الضعة بالأمل في حب بنت أنات فقال منـاجيا نفسه: إن حبه لها متمم لما ينقصه من الكمالات وساتـر لما مُنى به من العيـوب وانه أصبح صـاحب الحق فى التطلع إليها بطلب الاقتران بها. ثم راجع نفسـه فقـال: ولكـن مـا العمل إذا قـابل رعمسيس بالرفض هـذا الطلب وانقلبت من عنده شر منقلب. ووقف ثابتاً فى مكـانه كمن ينظر سيف النقمة الذى يود الملك ضرب عنقه بـه معلقاً على رأسه ثم قال: لا أحد على وجه الأرض مهما يكن لـه من الجبروت والسلطان ينتزع مـن يده قلب بنت أنـات. وهو أنفس ما أغدقته الآلهة عليه من النعم والهبات.

الفصل الثانى عشر

بداية الحوادث.. وفاتحة الكوارث

كان سكـان الجبال يترصـدون فى الغابـات والآجام لنبطـاؤر وصحبه حتى إذا مروا بهم باغتوهم بالحملة عليهم والتنكيل بهم، فيهب هؤلاء للذود عن أنفسهم وقد ظلـوا بين اطمئنـان وانـزعاج وبين سلم وحـرب حتى بلغـوا إلى بقعـة ليس بينهـا والمعسكر سـوى مسيرة يومين للمجدّ، فإذا هم يـرون فيها جموعا كثيفة وأفـواجا حشيدة من العدو خرجوا من مكامنهم. وكـان بربروس والد وردة قد أحس الخطر الداهـم فتقدم ليستطلع الخبر ثم عـاد كاسف البـال منزعج الضمير مـروع الفؤاد فأخبر بنطاؤر بأن الخيتاس ملأوا الأرض وسدوا بجموعهم الأفق وراء الغابة، وأن فى هذا الـدلالة الأكيـدة على تقهقر جيش رعمسيس ، وإلا فمن أين للعـدو أن يقتحم الخطر بـالزحف على مـؤخرتـه طمعاً فى قطع خـط الرجعة عليـه والفتك بـه؟ ومما ضـاعف الخوف والأسى أن أصحـابنا التقـوا فى أصيل اليـوم الماضي بشرذمـة من الجنود المصرية خـرجت للاستطلاع فأخبرت بأن الملك مازال مـوجودا بمعسكره، وأنه على أهبـة مقاتلـة الأعداء فى واقعـة يكون فيها فصـل الخطاب، وأن المرجح أن الحرب لم تُضرم نارها بعد لخلو الغابات من أثر الجبناء اللاجئين إلى الفرار. فلما لم يهتد بنطاؤر إلى الحقيقة الثابتة تجاه تناقض الأخبار دنا منه والد وردة وقال له: إذا استطعنا أن نتقى شر مداهمة العدو ساعتين فقـد نجونا. وأرجو ألا يهتدوا إلينا إذا سلكنا الطريق الموصل إلى سهل قادش، وهو طريق وقفت على سره وتبنت مسالكه كالموهـار السابق وخاصـة رجالـه. وأذكر أن عند منتصفـه كهفاً طالما لجأنـا إليه واختفينا أيـاماً وليـاليها به دون أن يقف الخيتـاس لنا على أثـر، حتى لقد رسخ فى

عقائدهم أن الموهـار ظفر بخاصية الاختفـاء عن الأبصار فى أية سـاعة من الليل أو النهار، مع أنه ما كان لنا أن نلجأ إلا إلى ذلك الكهف الذى ساقتنا إليه المصادفة . فإذا كنت لا تخشى على نفسك خطر الصعود إلى قمم الجبال ولا تستصعب مشاق السير فى الـوهاد والنجـاد فترجل عن جوادك وابتغى بـلا كلام وأنـا كفيل بوصـولك إلى معسكر رعمسيس فى أمن وسلام. عهد بنطاؤر قيـادة الشرذمة عندئذ إلى بربروس فسار هـذا المقدام على رأسها صـاعداً تـارة ومنحدراً أخرى ومـاراً من جهة اليمين طورا وجهة الشمال آخـر حتى وصل إلى شعب ضيق بين جبلين تنحدر منهما مياه يبدو زبـدها فى ثنايـا الصخور بشدة الاصطـدام فنزل والـد وردة عن متن جواده فـاقتـدى به بنطـاؤر والجنـد. ولما عبرت الجيـاد الماء محا بـربروس أثـر الأقـدام والحوافـر فى الرمـال وأفرغ فى أداء هـذه المهمة كل حـذق، ثم صعد مع صحبـه فى المسيل وعانـى صنوف المشاق فى هـذا السبيل لمقاومتهم اتجاه التيـار. وما بـرحوا كـذلك حتى وصلوا إلى بقعـة اشتبكت فيهـا أغصان الـورد بأغصـان الغار، فكـان بربروس يفـرق بينها لاقتصاص الأثر فى الطريق، وبـذل فى ذلك جهده حتى اهتدى إليه. وكـان بنطاؤر ورجاله والـدواب قد نال منهم التعب فلم يصلـوا إليه إلا بشق الأنفس. وظلوا يحثون السير حتى اجتازوا غابـة مترامية الأطراف إلى أبعد مدى ثم انحدروا من شعـاب ضيقة إلى نجاد بعيدة القـاع وصعدوا منها فى صخـور كأسنة الرماح فى ارتفـاع الذرى، ثم هبطوا غدرانـا فاضت مياهها لانسيـاب مياه الأمطار فيها فـركبوا فيها متن الأخطـار والمعاطب. وقـد اكفهر وجه السماء فى هـذه الأثناء فهطل المطر غـزيراً، ثم أظلم الأفق وماهـى إلا هنيهة حتى أرخى الليل سدالـه وشد وشد النهار رحاله.

فقـال بـربروس: هلمـوا بنـا سريعـاً وتماسكوا بعضكم ببعض، فبـالاتصـال

والتماسك تكون النجاة، وبالجلد والثبات نصون الحياة. وما أتم هذه الكلمات حتى كبا جواد فعانى والد وردة وأعوانه النصب فى إقالتـه من عثرته وإشالته من كبوته، وكان الليل اسـود فاحما والمطـر وابلا، فأخـذ بربـروس يتحسس بيديـه الطريق ورجال الشرذمـة حولـه تتنازعهم عوامل اليأس والـرجاء، وكـانوا إلى اليأس أميل منهم إلى الرجاء. ثم وقف فجأة وجـذب بنطاؤر إليه وقال: لعل المغارة قـريبة منا.. ادنُ منى ليتأكد لك صدق قولى، ولكنى أخاف أن نلتقى فيها ببعض خدم بعاكر الذى اتخذها والـده فى حياته مستـودعاً للمـؤن والذخيرة.. أترى شبحى فى هـذا الظلام الحالك.. أمسك بنطـاقى وحدّب ظهرك ولا تقـف إلا بأمرى، ثم تقلـد سلاحك إذ لا أستبعد أن نلتقى فى طريقنـا بجماعة من الخيتاس أو اللصـوص فلا نـؤخذ على غرة منا. أما أصحابنـا فلا تفكر فى أمرهم فسندعوهم عما قليل. فسـار بنطاؤر والدليل متراكنين فى نفق ينتهى إلى جب عميق ذى حـافة من الحجر الصلـد المشرع الأطراف كأسنة الرماح. فلما بلغا إليه قال بربروس: خذ حذرك ومل إلى يسارك لأن الجب إلى يمينك.. ماذا .. إننى أشـم رائحة دخـان.. عليك بمقبض سيفك لأن فى المغارة رجالا. انتظر هنا حتى أدعو رجالنا.

قال بربروس هذا وانقلب راجعـا وظل بنطاؤر ينصت إلى الجهة التى لاح له أن الدخـان مندفع منهـا بتيار الريح، ثم أمعن النظـر فلمح نوراً وسـمع أنينـا وتبادل سبـاب، فـدنـا من مصدر الصـوت ومنبعث الضـوء متكئـا بيسراه على الصخـور وقابضـاً بيمناه على السيف ونـاظرا إلى الضـوء. وكان والـد وردة قد عـاد فى هذه الأثناء فسـار الاثنان حتى بلغـا إلى باب المغارة الـذى كانت أشعـة النور تنبعث من شقوقـه، فاستند إليه وقـال بنطاؤر للجندى: إن القوم من المصريين وهـاأنذا اسمع حديثهم. قال والد وردة: قال حسن ولعل الموجودين هنـا بعاكر وفريق من أعوانه.

ولاريب أننا إذا طرقنا الباب أربع طرقات شـديدة وثلاثا خفيفة فتحوه لنا لأن هذه الطـرقات رمـز التعارف بين الـذين خـارج المغارة والـذين داخلها، وهل تفهم مـا يقولون؟ قـال بنطاؤر: أسمع صوت رجل يلتمس إطلاق سراحـه وفك قيوده وآخر يظهر من سياق حديثه عن الأول أنه خائن غادر، وطرق أذنى بعد ذلك صوت خشن يرفض هذا الملتمس ويطلب من صاحبه أن يقيم على طاعة مولاه. فلما سمع صاحب الالتماس هذا الجواب شكا وبكى واستحلف رفيقه بروح والده أن يطلقه من قيوده. ويلوح لى من شكلـه وقوله أن اليأس قـد استحوذ عليه.. إن قلبى ليرفق بحـال هذا الرجل، فأطرق الباب يابربروس فقد حان وقت إنقاذه من هذا العذاب الأليم.. أطرق! اطرق! لا تخف! فأطاع بـربروس الأمر وطرق سبع طـرقات أربعا شديـدة وثلاثا خفيفـة، فسمع من داخل المغارة صـوتا رددت صـداه أركانها ثم فتح البـاب رجل صلصل بصوته سائلا: أأنت بعاكر. قال بـربروس: كلا ،بل أنا (رشتا) ألا تعرفنى يا (نـوبى). فلما سمعه الرجل وهـو أحد عبيـد بعاكر الأحبـاش تراجع إلى الخلف وقال: من جاء بك إلى هنـا وأنت على قيد الحياة.. قال رشتا أو بـربروس وأشار إلى بنطاؤر : يجاوبك مولاى هذا عن سؤالك.

فتقـدم بنطاؤر نحـو الحبشى ووقف إزاءه فى موقف تجلت فيـه هيبته وبـانت طلعته بأشعـة الضوء المنبعث من نار مشتعلة بـالمغارة، فحدق فيه نـوبى النظر ثم سقط على الأرض كالمصروع وأخذ يهرّ كالكلب يؤدبـه صاحبه ويتمرغ كمن أصابه مس ويقول: هذا خيال الموهار! هذه روحه قد تجلت لى فى شبح ! لعله أراد ذلك! لعله أراد ذلك! فلما رأى بنطاؤر منه هذه الفعال وسمع هذه الأقوال أخذه العجب، وزاده عجباً أن رأى رجلا مكبلا يحبو متعثراً وينظر إليه مسترحماً ويقول: أنقذنى الهلاك يا روح الموهار يـا أبت! أنقذنى إحسانا منك ورحمة! قال بنطـاؤر بعد أن تأمل فيه:

لست روحا لأحد الموتى حلت فى جسد ليكون بها كما كان بين الكائنات.. عجباً! إنى أعرفك ! ألست حورس أخا بعاكر؟ ألم تتلق العلوم معى فى بيت سيتى؟..

ارتعدت فرائص الأسير المصفد بالحديد وشخص فى بنطاؤر وقال: كن كيف شئت فأنت أشبه الناس بوالدى وصوتك كصوته، فحق عليك إذن أن تحل قيدى وتطلق سراحى. أنقذنى! أنقذنى من هذا الذل الشائن والعذاب المهين! أنقذنى! فقد أبرم الخائنون الحيل للفتك برعمسيس وما نحن جميعاً إلا حزبه وأنصاره. فما قرعت هذه الألفاظ سمع بنطاؤر حتى جرد سيفه ففرى به الجلود التى شُدَّ بها وثاق الأسير وفك الأغلال، فوقف الرجل وصاح صيحة السرور بالخلاص وشكر للآلهة إسعافهم وإمدادهم وأثنى على مخلصه ثم قال: إن تكن محباً لمصر صادق الولاء للملك فاتبعنى، فقد آن أوان كشف المكيدة المدبرة للملك والضرب على أيدى مدبريها بما يكون عبرة لهم وأمثولة للأعقاب. قال بربروس: ان الليل الآن حالك الظلمة والطريق الموصل إلى الوادى محفوف بالأخطار. قال الرجل: الاستهانة بالأهوال واحتقار المصاعب واجبان الآن، فاقتفوا إذن أثرى ولو لقينا الحتوف. ثم استولى على سيف الشاعر وخرج. أيقن الحبشى عندئذ أن الشاعر لم يكن روح الموهار تقمصت فى جسد أحد الابرار، وتذكر أنه الكاهن الذى كان يدافع عن وردة وجدها دفاع الأبطال فحاول الفرار مقتفياً أثر حورس شقيق بعاكر فجذبه حورس من ناصيته، فصاح لشدة الألم وقال: إذا طلبت لنفسك النجاة وتركتنى وحيدا هنا فلا خلاص لى من بعاكر. فدفعه حورس إلى باطن المغارة واغلق عليه الباب وقال: انتظر فى هذا المكان فليس لمثلك أمان.

سار بنطاؤر وحورس وبربروس حتى بلغوا إلى الصخرة وانسابوا فى النفق

وساروا فيه حبواً تارة وصعوداً وهبوطا تارة أخرى. ومازالوا كذلك حتى نفذوا إلى الجهة الأخرى. وكان البرد قارساً فأثر زمهريره فى وجوههم كما لو كانت تلهبها السياط. فقال حورس: أرى السحب تنقشع انقشاعا يدل على قرب انقضاء العاصفة فامتطِ يا بنطاؤر صهوة جوادك ولا تُضع دقيقة من وقتك. فأمر الشاعر والد وردة بمرافقة الجند فاعترض هذا بقوله: إنهم ومطاياهم قد أنهكهم التعب فضلا عن أن السير فى الليل الدامس يعرض السارى إلى الأخطار والمخاوف ولا يقطع به إلا شوطا قصيرا من البيداء، والصواب عندى أن ندع الجياد تأخذ نصيبها من الراحة وتستجمع من قوتها ما تستعين به على استئناف السير والجد فيه. ولا يخفى أن القمر سيطلع علينا بعد ساعة ويملأ الآفاق نورا. فإذا استرشدنا به فى سيرنا أمنا العثار وتجنبنا الأخطار وأطلقنا الأعنة للجياد. قال حورس: الصواب ما رأيت أيها الجندى، ثم أخذ بيده ذاهباً إلى مغارة أخرى احتوت كثيرا من الشعير والبلح وقرب النبيذ العتيق، فبعد أن أخذ بربروس من ذلك ما طاب له ولجنده أشعل وإياهم النار ثم تولوا العناية بالخيل ثم بتسخين الماء بينما كان حورس وبنطاؤر يسيران سبهللا، وقد بدت عليهما علامات الجزع. وكان بنطاؤر يسأل حورس: أكنت موثوق الأكتاف قبل وصولنا بزمن طويل؟ أجاب: فعل بى بعاكر أخى ما رأيت منذ أمس. ولقد نجا مما كان لابد أن يحل به من النكال لولا تعجيله بالانصراف، ولعله يقصد إلى الخيتاس لينضم إليهم قبل وصولنا إلى معسكر الملك فتحسر الفرصة ونضيع النهزة. قال بنطاؤر: يؤخذ من قولك أن بعاكر يدبر المكائد للملك. قال حورس: نعم.. فقد دبر له حيلة تخجل الوقح لشناعتها وتعافها النفس لبشاعتها. فدنا بنطاؤر من حورس وكان اعتمد رأسه بكفيه وسأله: ثق بصداقتى واعتمد على أمانتى وقل لى كيف أصبح شقيقك عدوًا لك. أجاب: بعاكر هو أخى الأكبر، فبعد أن

تخرجت من بيت سيتى بـزمن تـوفى والـدى وكان آخـر كـلامـه لى وصيته إيـاى بالامتثال لأمره واعتبارى إيـاه رئيساً للأسرة من بعده، غير أنى أنست من هذا الأخ البكر - بل الأب الجديـد- ميلا إلى القسـوة واستبداداً فى الـرأى وشدة فى المعـاملة، فغـالبت ضميرى فى احتمال تلك الـرذائل منـه وأطعت أوامـره احتراماً لإرادة أبى واتماماً لمقـاصده الشريفـة ، ولبثت هكذا حولين كـاملين عدت من بعـدهما إلى طيبة وفيها تزوجت ورُزقت أطفالا لايزالو فى حضـانة أمهم، عند والدتى . وقد مرّ بى إلى الآن ستة عشر هلالا وأنـا ببلاد الشام وأجوب الصحراء وأفرى مع بعـاكر القفار. وكان مازال على سابق عهـده من جفاء الطبع وغلظة الكبد وحب الريـاسة، فقابلته بشهامة الرجال وهمة الأبطـال لأننى أصبحت بعد الزواج غيرى قبله، إذ تعلمت به كيف أصون كرامتى واحتفظ بمركزى وأعمـل لتعزيز جانبى. واتفق خلال ذلك أن سافـر أخى إلى مصر ثم عاد منهـا منذ ثمانية أسـابيع، ضاربـا بأوفى سهم فى سوء الخلق وخشونـة الطبع. وقد قدم للعتبـات الملكية جملة تقـارير وقدمت أنـا غيرها فحازت تقاريرى من لدن الملك الـرضى والاستحسان فنغرت فى قلبه قروح الحسد فعـاد إلى مناقشتى ومخاصمتى ومعـاملتى بصنـوف التعذيب والأذى، فتـذرعت بالصبر.. آه ولكنى لا أود أن أبـوح بما صبه علىّ من ألـوان العذاب، فإنـه ليس مما يحيط بوصفـه اللسان. ومع أنه وهـو فى مصر قد وقعت لـه حوادث خطيرة الشأن فانه لا يبوح لأحد بسرها جرياً على عـادته فى كتمان أحواله، سارة كانت أم مكدرة. ومع هذا فقـد استنتجت من كلمات فاه بها لأحد الأجـانب أنه حاقد على مينـا وناقم على الملك فأنبهتـه إلى مواقع الـزلل ومـواطن الخطر فيما يـروم أن يسلكه من هـذا الطريق، ثم لم أكرر عليه التنبيه لما ألفته من غضبه وسرعة انتقامه. وإذ كانت الهمم فى المعسكر منصرفة منـذ أيام إلى إعداد المعدات لواقعـة يكون بها فصل الخطاب بين

المصريين والخيتاس، فقد كلفنى الملك بمهمة خطيرة وهى تحرير تقرير ببيان الحالة فى مواقع العدو فبادرت بالاستطلاع وبثثت العيون والأرصاد حتى إذا توافرت عندى الأخبار حررت بها فى صبيحة أمس التقرير المطلوب وما كدت أشرف على ختامه حتى أقبل بعاكر نحوى وطلب منى أن أسلمه إياه قائلا:إنه هو الذى أخذ على عهدته أن يقدمه إلى الملك فرفضت معتذراً بأن الملك هو الذى تفضل فعهد إلىّ أداء هذا العمل وأنه لا يليق أن يكون تقديمه على يد غير يدى، فاحتدم غيظاً واتهمنى بأنى اغتنمت فرصة غيابه فعملت بحيلتى للتقرب من الملك حتى فزت برضائه دونه، ولهذا كلفنى بتحرير التقرير مع أنه كان ينبغى أن يعهد إليه هذا العمل. ثم حتم علىّ بعد أن أقسم باسم والدنا الطاعة لأمره وعدم معارضتى له فى فعله وخرج متخبطا كالمجنون. وبينما كان الخدم يسرجون الخيل رأيت منهم عبداً أسود وضع على متن جواد بعض المتاع وأشياء أخر منها ملفات من الورق فهرولت نحوه ظنا منى أنها التقرير الذى حررته.. ولكن ماذا وجدت؟ وجدت تقريراً ملفقا بقلم بعاكر قرأت فيه أن الوادى الأكبر المؤدى إلى نهر العاصى (الأوزنت) فى الشمال الشرقى من بلدة قادش لا أثر فيه للعدو وأنه ممهد يسهل على المركبات سلوكه، مع أنى فى أثناء الاستطلاع رأيت ذلك الوادى غاصاً بالأعداء ودونت هذا الخبر فى تقريرى الذى اغتصبه أخى منى وقرأت أموراً أخر إذا اعتقد الملك بصحتها وأخذ بها كأنها قضية مسلمة كانت له كالشباك الممدود أو الفخ المنصوب. فلما أيقنت المكيدة بحثت فى كنانة بعاكر فرأيت بها سهاماً كتب عليها «فليهلك مينا» ثم رأيت ملفا صغيراً من ورق البردى ففتحته، فجمد دمى فى عروقى حين قرأت فى عنوانه ما يأتى «إلى ملك الختياس.. إلى تيتور رئيس ضباطه». وكان هذا الملف والملف الأول فى يدى حين أقبل بعاكر، فلم أتمالك حينما أبصرت به أن قلت: ويلك من خائن أثيم!

فلم يعر لهذا القـول أذنا بل ألقى حول عنقى حبـلا بطرفه آخية وهـو يتخذه لضبط الخيل الجامحة فى المرعى فضغطت الآخيـة على رقبتى وكتمت أنفـاسى حتى كـدت أختنق ثم أرخى الحبل وجذبنى إليه من ناصيتى وشرع يشدّ وثاقى بمساعدة عبده الأسود. وحملنى هذا العبد إلى داخل المغارة ووقـف على حراستى، بينما كان بعاكر يرخى العنان لجياده قاصداً معسكر العدو. هذه خلاصة ما اتفق لى مع هذا الخائن، ومنها ترى أن لى حقا فى طلب التعجيل بالسفر، وهـا قد تلألأت الكواكب وبدأ القمر يعلو على الأفق.

قال بنطاؤر بصوت جهورى: هلموا إلى الرحيل وأحضروا ثلاثة من كرام الخيل لحورس وبربروس ولى، ولا يرافقنا أحد منكم بل لابد لكم من البقاء هنا حتى نعود. وكان القمـر يتخلل السحب فاستـوى الثلاثة على جيـادهم وانطلقوا مسرعين فلما وصلوا بعد ساعة إلى السهل عادت بهم الجياد قاصدة بحيرة قادش التى كانت تبرق فى الأفق كمـرآة من الصلب مصقولـة تنعكس على سطحها أشعة الشمـس المشرقة، ولم يمضِ زمن حتى بلغوا الضفة الغربية من تلك البحيرة، وكانت أرضها جرداء لا نبت بها فلمحـوا من بعيد غبـارا متصـاعدا كـان ينجلى بين آن وآخـر عن أشبـاح متلاحمة ورمـاح متشابكـة وسيوف متشـاجرة، فأكـب حورس بنفسـه على جيد جواده باكيا مصعدا الزفرات قائلا: الواقعة! الواقعة! قال بنطاؤر: نحن لم نخسرها. ثم أطلق لجواده العنان وتبعه رفيقاه فسقط جواد رشتا والد وردة من تحته لكثرة الإعياء والإجهـاد وتلاه جواد حـورس الذى قال: ربما جـاءت السلامة من نـاحية الجناح الأيسر.. إننى عالم بأسرار المكان فلابد من الوصول إليه ركضا على الأقدام. أما أنت يـا بنطاؤر فذهـابك إلى الملك ميسور إذا سرت على ضفة النهـر قرب الجسر المدعم بالأحجار، لأن مهـاجمة الجناح الذى ستناط بـه مفاجأة الجيش لا تكون إلا

من الوادى المجاور للنهر على مسافة ألف خطوة من الشمال، فانطلق إذن واجتهد أن تقابل رعمسيس لتطلعه على جلية الأمر. وإذا سألك عن كلمة السر فقل (بنت أنات) وهو اسم كريمته العزيزة.. عجل بالذهاب واطلب لقاءه وإلا دهمه الألوف من الأعداء أما أنا فسأعمل للانضمام إلى الجناح الأيسر والحملة على مؤخرة العدو. فأطلق بنطاؤر العنان لجواده ولكنه لم يلبث أن أجهده التعب وسقط من تحته فعدا على قدميه عدواً سريعا وجرى كهبوب الريح مكررا لفظتى (بنت أنات). وكان كلما طرق هذا الاسم مسمعه تجددت فيه قوة تعاونه على احتمال مشاق الركض وظل كذلك حتى التقى بأحد فرسان العدو فصرعه بطعنة رمح، ثم استوى على ظهر جواده مكانه، وأرخى له العنان مندفعاً إلى ميدان القتال ، بهمة من يطمح إلى الاقتران بغادة كريمة من الحسان.

الفصل الثالث عشر

ليلة تقلد السلاح.. والاستعداد للكفاح

كانت ليلة المعركة من الليالى المشهودة فى معسكر الملك، إذ كنت ترى الجنود فى حركة دائمة، وهمتهم فى إعداد معدات القتال قائمة، وعيونهم للتبكير قبل بزوغ الشمس غير نائمة، عملا بالإرادة الملكية وتحقيقاً للمقاصد الوطنية. وكانت تبدو على وجه كل جندى أمارات الشوق إلى النزال لإحراز فخر الانتصار والعودة من حومة الوغى مكللا بالغار. وكان بعاكر قدّم لمولاه الملك تقريره عن مواقع العدو، فعقد المجلس الحربى للنظر فيها، فأقر على أن تكون خطة الهجوم كما يأتى: تزحف فرقة (رع) جنوباً حتى تبلغ إلى ما يلى بحيرة (شبـاطوم) كى تفاجىء جناح العدو وتنكل به. وتسير فرقة (سب) المؤلفة من جنود الوجه البحرى فى القلب من ناحية (أنام). ويزحف الملك بمركباته وصفوة الأبطال من جنده فى الوادى الذى أشار بعاكر إليه فى تقريره حتى يصل إلى نهر (أوزنت) فيعبره خوضا بجنوده ثم يبرحه ليستولى على قلعة قادش. أما فرقة آمون فى الجناح الآخر فتسير مع الجنود الحبشان فى طريق ذكر الموهار أنه سهل وهو لم يكن كذلك فى الحقيقة وتقرر أن تبقى فرقة (فتاح) على أهبة نجدة الجناح الأيسر وإمداده عند الحاجة.

لم تكتحل جفون الجند بنوم، بل قضوا ليلهم فى إعداد معدات الكفاح. وكانت ثلة من الجنود المدججين بالسلاح يحرسون أبواب المعسكر وفى يد كل منهم درقة مستطيلة وسيف قصير عريض محدد الطرف، وعلى مقربة منهم نيران مشتعلة ينبعث منها ضوء أحمر اللون. وكان الجنود الآخرون مجتمعين داخل المعسكر على

هيئة حلقـات لتعاطـى النبيذ أو إنضاج اللحـوم أو لعب الميسر على الغنـائم المأمول أخذهـا، وكثيراً ما أفضت هذه اللعبة المسماة (مـورا) باللاعبين إلى أخـذهم بتلابيب بعضهم البعض. وكـان يشتغل الحدادون في جوارهم بـوضع الحدوات فى حوافـر الخيل، والسنانون بإرهـاف الأسلحة لتكون بتّارة لرقاب الأعـداء، وخدم الضباط بتهيئة المركبـات وحمل أجزائها على الحمير لنقلهـا فى مضائق الجبال ومنعـرجات الصخور والأوعار. وكان الكهان شرقى المعسكر فى أشغال شتى حول ظلة نصبوها هنالك، إذ كـان فريق منهم يترنمـون بالأنـاشيد الـدينية والفـريق الآخر يقـدمون القرابين ويبـاركون فى الضبـاط وعليهم. وكان يصم الآذان فى غضـون ذلك صراخ اللاعبين وسباب السكارى وصهيل الخيل ونهيق الحمير، ويحول دون الوقوف على معانى أغانى المنشـدين، غير أن هذه الجلبة كانت لا تلبث أن تتحـول إلى سكون عام فيحل محلها- بين حين وآخر- زئير الأسود المستأنسـة التى ستحف بمركبة الملك فى معمعة القتال حتى لا يجسر على الدنـوّ منها إلا من حقت عليهم كلمة الهلاك. وقد تعمد المكلفون بخدمتها عدم تقديم الغذاء لها منذ اليوم الماضى ليستفزها السغب إلى الثورة والغضب ويزداد منها على الأعداء العطب.

وكـانت صـــواوين الملك مضروبـة وسط المعسكـــر، تحيط بها خيـام الحراس والضبـاط أصحاب المركبـات. أما الجيـوش التى حُشدت من غير المصريين فكـانت مصطفة خطوطا متوازية يـرأس رجالها جنود من المصريين ، فكنت ترى الحبشان بشعـورهم المتجعدة وهنـاك أبناء الـرمـال الذين تـواردوا من الصحراء، يلفتـون الأنظـار بقوامهم المعتـدل ويميـدون يمنة ويسرة راقصين كعـاداتهم عند نشـوب الحرب ويخطرون بسيوفهم ورماحهم، وعلى مقربة منهم الجنود الصقليون صفر الـوجوه بخـوذاتهم المعـدنية وسيـوفهم الكبيرة والليبيـون بألـوانهم الواضحـة

وأذرعتهم الموشومة ورؤوسهم المزينة بريش النعام، والعرب سمر الوجوه بلحاهم الجميلة المحددة الأطراف وقد وقفوا إلى جانب جيادهم يسانونها بمس جيدها لاهجين بالأدعية للكواكب أن تمدهم بالانتصار وتتوجهم بتاج العز والفخار، إلى غير هؤلاء وأولئك من القبائل التى لا حصر لأسمائها، وقد تقلدوا جميعاً السيوف وملأوا كناناتهم بالسهام ليرشقوا بها الأعداء اللئام ويوردوهم موارد الحتوف. ويرأسهم على اختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم وتنوع ملابسهم الملك رعمسيس، فكأنما هو سائق جياد يسوسها بعنان واحد.

وكان بوسط الصواوين الملكية هيكل صغير غير سميك الجدران رُفعت فيه تماثيل آلهة طيبة وصور أجداد الملك. وكان دخان البخور يصعد منه إلى طبقات الجوّ فتبدده الرياح كما تبدد السحب الكثيفة وتنشر رائحته الساطعة فى أركان الفضاء. وكان الكهان يقدمون فيه القرابين لآمون رب الأرباب، و (نيشب) إلهة الجنوب التى بيدها الفوز تؤتيه من تشاء، و(منث) إله الحرب.

وكان إلى جانب الصيوان المعدّ لنوم الملك المكان الخاص بحارس الأسود، وأقيمت تجاه صيوان عقد الجلسات أعلام كثيرة. وكان السكون بهذه الناحية من المعسكر سائدا بخلافه فى النواحى الأخرى منه حيث كانت جلبة الجند وغيرهم ولاسيما فى الخيام المعدة لادخار المأكولات والأنبذة وتحضير الأطعمة ترتفع إلى عنان السماء. وكان بين هذه الخيام خيمة منصوبة على مستطيل كبير من الأرض مُدت فيه الموائد وعُلقت بداخلها وخارجها مصابيح الزجاج الملون ووقف حولها الجنود الصقليون والليبيون والمصريون وقد شهروا السيوف، يرون ما يمر أمامهم من الحوادث دون أن يبدوا إشارة أو ينبسوا بكلمة ويقفون أنظارهم على الأوانى

الذهبية يتصاعد منها بخار الطعام والقنانى البلورية تشبه العقيق لونا وتلألؤاً بما شملته من الشمول، ويطوف بها حول المائدة الملكية ولدان من أبناء الأشراف والأسر الكريمة في الهيئة المصرية. وكان هذا الصيوان موضوعا بحيث يستطيع الخدم عند الانتقال والارتحال أن يفكوا أجزاءه في وقت قصير، ثم يركّبونها كذلك. وكانت جدرانه قطعا من قماش لين كثيف لا ينفذ منه الماء نُسج بمدينة منفيس وطلته بالألوان الجميلة والنقوش العجيبة في بلده طانيس أيدى أمهر العمال الفينيقيين. وكان في أجزائه جزء نسجه عمال (صائيس) ورسموا فيه بأسلاك الفضة صورة نسر الانتصار الذى يمثل الإلهة نيشب مكررة مائة مرة. أما الأعمدة فكانت من خشب شجرة الأرز المرصع بالذهب الخالص والنضار المصفى تمسكها أطناب فُتلت بخيوط الحرير وأسلاك الفضة.

مُدت بداخل هذا الصيوان أربع موائد جلس إليها مائة مدعو وقد خُصص ثلاث منها لقواد الجيش ورؤساء الدين وأكابر الكهان والمستشارين، والرابعة للأمراء من الأسرة المالكة. إلا أن رعمسيس لم يكن يجلس بينهم إذ جلس إلى مائدته الخاصة التى مُدت في مكان مرتفع يصعد إليه بدرج مفروشة بجلود النمور والفهود ليشرف منه في أثناء الطعام على جميع الآكلين فتزداد هيبته وشوكته استقراراً في نفوسهم.

وكان رعمسيس جميل الصورة متين الأركان مرتفع القامة معتدل القوام مرسل اللحية إلى الصدر مكلل الهامة بأكاليل الوجهين القبلى والبحرى، في عنقه عقد عريض سُلكت فيه الأحجار الكريمة، وعلى كتفه وشاح ساتر لبعض جسمه، أما الذراعان فكانتا تكاد تخفيهما دمالج الذهب النقى لكثرتها. وكانت أعضاؤه المتينة وعضلاته البارزة وبشرته الصقيلة اللامعة النحاسية اللون تنم عن حقيقة نفسه

وأنه خُلق للنهى والأمر وللحرب والفوز. وكان فى مجلسه الذى وصفناه يرمق أبناءه بعين الاغتباط والفخر ويحوطهم بمظاهر العطف والرفق. إلا أنه كان مع ذلك أشبه بالليث، مهما يخلد إلى السكون ويلتزم الراحة تصحبه القوة والشوكة والقدرة على قهر المصاعب. ولئن قطعت يده الخبز فى لين ورفق فإنها سرعان ما يشتد وقعها ويقسو ضربها إذا أمسكت بمقبض السيف وأطارت به المئات من هامات الأعداء.

كانت أحوال هذا الرجل العظيم وتصرفاته فعلا وقولا تشف عن أخلاق فاضلة وصفات تنطق بعبقريته وتسمو به على النظراء. ومع ما خصه الله من هذه الفضائل التى قلما اجتمعت فى أحد إلا أن كان نادرة زمانه ونسيج وحده، فإن ناظره أو محدثه كان لا يرى منه إلا الدعة والدماثة والرفق فى سمت وهمة وعزة، ولايلبث أن يأنس من باسمة ثغره ما يملأ بالطمأنينة قلبه. وإذا كان العدو ترهبه صلصلة صوته التى تشبه الرعد القاصف فى حومة الوغى، فإن محدثه لايسعه إلا أن يعجب بعذوبة لفظه وسلاسة خلقه إذا خاطبه ملتمساً إقناعه بصحة ما يريد إقامة الدليل عليه. وكل هذا عائد إلى المبادىء الصحيحة التى شب عليها منذ نعومة الأظفار فجعلته ملكا يُخشى بأسه فى سويعات الأمر والنهى وحليما يُرجى خيره فى أويقات الراحة من عناء الحكم.

وكان يقف من خلفه ساعتئذ شاب شديد العضلات فى ضمور، معتدل القوام فى اطمئنان حسن الشارة من غير تعمل، يقدم إلى فرعون كأس شراب بعد أن يشرب هو منها قليلا فكان كلما أفرغها رعمسيس فى جوفه ملأها ثانياً وقدمها إليه بعد أن يكرر ذلك الفعل. هذا الشاب هو مينا زوج نيفرت وأقرب المقربين إلى الملك. وكان الناظر إليه يستشف من ملامحه عزة النفس وكرم المحتد. وهو وإن لم يكن ممن

يُعتمد على آرائهم فى المجـالس العالية أو يُـركن إليهم فيما يستدعى شدة العـارضـة وثقابـة الفكر وبعد النظـر فى المصائر، إلا أنـه كان على إرث كبير من الرقـة وصفاء الطبع وصدق الولاء فى المخـالطة. أما (شاموس) بكر أبنـاء رعمسيس- وهو الذى رقى فى الكهنوت إلى مرتبة كاهن أعظم لمدينة منفيس- فكان أقرب موضعاً فى المأدبة إلى أبيه ويتلوه أخـوه (منفتاح) ثم صاحبنا (راميرى) ذو الشعـر المرسل الذى كان العـدو أسره فأنقذه من الأسر بعض الجنـد الـذين يدينـون بعقيـدة الولاء لـلأسرة الملكية. وكان رعمسيس يحادث ابنه راميرى فى موضوع المؤامرة التى كان نقل إليه خبرها وقـال: إن ما نقلته إلىّ من أخبار مصر لموجب لشـديد القلق وداعٍ إلى الخوف من سوء العاقبة. ولست أشك هنيهة فى صحة التهمة التى وجهتها إلى المتآمرين، غير أنى مازلت أجنح إلى الاعتقاد بأن إفراطك فى محبتى وغلـوك فى الولاء لى قد حادا بك عن نهج الصواب وصرفاك عن مشاهدة الحقيقة المحسوسة. ومن ثمّ عراك الخوف من سوء مغبة مـا وقع فى وهمك. وإذا أضيف ما رويته لى من ذلك إلى الـرسالة التى وردت من بنت أنات والتقرير الذى حرره مباشر خيل مينا والإخطارات السرية التى تواردت علىّ تباعا من مصر، فإن قلبى مع خطورة ذلك كلـه لن يرتاع بسوء مغبته، لأنه وان يكن آنى يتمنى من صميم الفؤاد التربع فى هذا العرش لإيهام السذج بعزته وعلو مكانته إلا أنى أعتقد انه يقنع بأى نصيـب أمنحه إياه عند عودتى ، بل يرضى بلا شىء. فلتطمئن إذن خواطركم، فـالرجل ليس من ذوى الصبر والجلد فى جسام الأمور وخطير الأعمال. وقد حبب عجزه هذا إلىّ اعتقادى غباوته وضيق عقله وقصر نظره وأنه لن ينفذ ما يبتكره أو يبتكره له غيره. فقال شاموس وقد أحنى رأسه أمام والده احتراما له: ومع هذا فقد استطـاع أمينى أن يذكى فى قلبه نار المطامح فاصبح مما يصح الجهـر به أن الكـاهن الأعظم هو رأس الفتنة وآنى سـاعدهـا، وهو رجل

عُرف بالذكاء وقوة الإرادة، إذا قال فعل وأجاد الفعل وأحسن التدبير بحيث يخضع لأمره نصف الكهنة فى الديار المصرية.

قال فرعون: إنى عالم بذلك وعالم أيضاً أن أكابر الأمة وسراتها مازالوا ناقمين علىّ لأنى سقت عبيدهم وفلاحيهم إلى ميدان القتال، ومع هذا فلم يأتِ هؤلاء العبيد بفائدة لأنهم جبناء تقشعر أبدانهم متى احتدمت المعركة. وقد عولت على تخصيصهم منذ الغد بحراسة المعسكر ولعلهم يفلحون فى أداء هذه المهمة السهلة. وإذا نحن حملنا على قادش ودخلناها عنوة فلسوف نغنم منها التحف الكثيرة والخيرات الوفيرة التى سيؤول أوفى نصيب منها إلى هياكل وادى النيل. فعليك ياشاموس أن تبلغ إلى زملائك كهان هيكل منفيس أن والدك سيضاعف لهم ما كان أخذه منهم. قال شاموس: إن لتذمر أمينى وتحيزه لآنى وممالاته إياه فى تدبير المكائد ضد الملك أسبابا أخر أولى بالالتفات، ويكفى مولاى الوالد هذا الإلماع فإن فكره.. قاطعه رعمسيس: إن سراة الأمة وكبراءها اعتادوا إرشاد الملوك والأخذ بزمامهم فى القيام بشؤون الرعية ولكنى أضرب بنصائحهم ومشوراتهم عرض الحائط لأنى النائب وحدى فى إدارة تلك الشؤون عن ملك الآلهة ورب الأرباب.. نعم لست أزعم أنى إله وإن يكن يقام لى من المراسم ما يشبه أن يكون مراسم الآلهة، ولكنى أدع للكهان القيام بما هو اختصاصهم المألوف، وهو الوساطة بين الآلهة وبينى وأمتى فيما يرتبط بالأمور الدينية، أما الأمور الدنيوية فمازلت قابضاً بيدى على زمامها، إذ لى وحدى الحق الصريح فى القيام بها. ولنترك البحث فى هذا الموضوع لأن من الخصال التى فُطرت عليها اجتناب الظن فى الأصدقاء والثقة بالغير ولو أدى ذلك إلى ما لا تحُمد عقباه .

قال هذا وأشار إلى مينا فأقبل عليه بالكأس الذهبية فتجرع ما فيها من الشراب عباً، ثم حدق فى الحاضرين بعين الليث وقال بصوت جهورى متهدج: إذا كانت صفوة القوم الذين وضعت فى أيديهم زمام مملكتى ليسلكوا بها سبيل الرشاد فى غيابى كامينى وآنى يريدون إيقاعى فى شرك الحيل السافلة والتدابير السخيفة، فسيكون عهدى بالعودة إلى مصر وشيكا. ووقتئذ لايكبر علىّ وطء تلك الأفاعى بقدمى وهى تدب فى رمال استنباط الحيل والتدابير. وكان لصوت رعمسيس وهو يفوه بهذه الكلمات دوىّ تردده أركان المكان حتى جمد السامعون فى أماكنهم لاينبسون بكلمة ولا تبدو منهم حركة. ولكنه بعد إذ سكت هنيهة رفع رأسه وقال بصوت تختلجه نبرات السرور والعطف : أصدقائى وخلصائى! لتطمئن أفئدتكم وليهدأ جاشكم قبل أن يشب ضرام القتال. فغير خافٍ عليكم أننا قمنا بفعال توجب المجد والفخر وأن شعوب الأرض كلها – حتى القاصية منها– قد أحست شدة بطشنا ونفوذ سلطاننا وأننا شدنا على ضفاف الأنهر آثاراً ببيان ما فتحناه من الأمصار. ونقشنا فى الصخور الصلدة ما يخلد ذكرى شهامتنا فى صدور الذريات والأعقاب. ما ذلك إلا لأن مليككم وصاحب السيادة عليكم وأعظم الملوك شوكة، ما عظمة ملكه وبسطة نفوذه إلا من فضل الآلهة وفضلكم أيها الإخوان الأعزاء. ولاريب فى أن واقعة الغد ستضيف إلى فخاركم فخراً جديداً وإلى مجدكم مجداً مستأنفاً، فادعوا إلى الآلهة أن توفقكم فيها للفوز وأن تمنحكم الغلبة على العدو إلى أن تضع الحرب أوزارها ويدنو موعد الأوبة إلى الوطن العزيز. ارفعوا جميعاً كؤوسكم واشربوا معى فى نخب الانتصار وسرعة العودة إلى الديار.

فصاح الجميع بصوت واحد: لك الإقبال والنصر! لك العزة والفخر! لك الصحة والعافية! لك الرفعة والمجد! فنزل رعمسيس من علوة عرشه ثم سار بين ضيوفه

قائلاً: عليكم بالراحة حتى يختفى كـوكب ايزيس ، فإذا ظفرتم منها بما يجدد فيكم النشاط ويستفـز الهمم فاتبعـونى إلى هيكل آمـون ومنه إلى ميدان القتـال. فما أتم رعمسيس هذه الكلمات حتى انطلقت الألسنـة بالـدعاء للملك بالفـوز والنصر وعلوّ القدر وبقـاء الذكـر. وكان فى خلال ذلك يخاطب ولـديه منفتـاح وراميرى بعبارات التشـجيع ثم أمرهما باتباعه. فبرح الثلاثة صيوان المأدبة يتقدمهم الحرس يحملون بأيديهم قضبانا نيط بأعلاها ريش النعام وزهور الزنبق المموهة بالزرياب واقتفى مينـا أثرهم وظلـوا سـائرين حتى وصلوا إلى الصيـوان الملكى المعـدّ للنوم، فأمـر رعمسيس قبل الدخـول فيه بإحضار اللحـوم النيئة، فلما أُحضرت قدمهـا بيده إلى أسوده الـذين كانـوا يطوفـون به ويتملقـونه ويستجـدونه نظـرة عطف. ثم دخل اسطبل الأفـراس الكريمـة فتفقدهـا واختار منهـا اثنتين لجرّ مركبتـه فى الغداة إلى ميدان القتال، واسماهما (نوره) و (نصرة طيبة). ثم عـاد إلى صيوان النوم فأشار على ندمائه وصحبه بالانصراف وأمر مينا بتجريده من السلاح والعقود والدمالج، فلما انتهت هذه المهمة دعا بولديه وكانـا بباب الصيوان مضطربى الخاطر شديدى القلق، فقال بصوت مرتفع: أتعلمان لمَ أمرتكما بـاقتفاء أثرى؟ فلزما الصمت فكرر السؤال، فأجاب راميرى: لعل مولانا الوالد استشعر ما بينى وشقيقى من الشقاق. قال الملك: نعم هذا مـااستشعرته وبعينى شاهدته. وإنى لـراغب فى أن يسود الوئام بين أبنـائى جميعاً وكفـاكم فى الغداة مـا ستمتلىء به صـدوركم من المقت والبغض للأعداء، ثم اعلما أن الأصدقاء الصـادقين أصبحوا ولا وجود لهم فى هذه الأيام، مع أنهم أول من ينبغى أن يلاقـوا النكال فى حومـة القتال، فإذا كان من حظ أحـدنا أن يصرعه الأعداء فأولى بـه أن يذهب فى خير وسلام وأن يمحو من قلبـه أثر الضغينة والبغضاء.. قل لى يا راميرى ما سبب النزاع بينك وأخيك؟.. أجاب الأمير: أبت! لست

أكمن له حقـدا ولا أريد به سوءا. وخلاصـة الأمر أنك جزيتنى على ما أظهـرته من الشـهـامة فى منـازلة الخيتـاس بسيفى هذا الـذى تراه معلقـاً بنجاد أخى منفتـاح. والمألوف أننا ننام معا فى صيـوان واحد، فلما كانت صبيحة أمس جردت سيفى من غمده لأغتبط بحسن صنعه ومضاء حـده فتولانى الدهش إذ رأيت أنه ليس السيف الذى وهبتنى إياه، وأيقنت أن منفتاح أخذه وبـدّله بغيره. قال منفتاح: ما فعلت هذا إلا من باب الممازحة والتطايب، ولكنى علمت فيما بعـد أنه يكره المزاح وقد قرصنى بواحدة من قوارص كلماته حيث قـال إنه لمتنازل عن سيفه لى كى أتحلى بمكافأة لم أنلها بفضلى وأن فى وسعه القيام من جليل الفعـال بما يستحق عليه المكافأة بسيف آخـر. قـال الملك: كفى .. كفـى! لقـد وقفت على سر الخلاف وسبب قلـة الائتـلاف. وحكمت عليكما بأنكما وقعتما معـاً فى الغلط وركبتما متن الشطط . واعلم يا ولـدى منفتاح أنه خليق بمثلك اجتناب الغش ولو قصـدت به إلى المزح، فقد حدث يوما أنى كبوت كبـوتك بارتكـاب ما يشبـه هفوتك.. سألتنى والـدتى المقدسـة (تائى) قبل سفرى إلى بـلاد (التنوس) أن أجلب لها فى عـودتى منها قطعـة من حجر سـواحل (ببلوس) التى دفعت لجج البحر إليها جثـة أوزريس للتبرك به، فاتفق لسوء حظى ونكد طـالعى أن نسيت قضاء ما سألت ولم أذكره إلا عقب عـودتى إلى طيبة وكنت وقتئذ فى مقتبل العمـر وربيع الشباب، فدفـع بى النزق إلى التقاط حجـر من أحجار الطريق قـدمته إليهـا مدعيـا أنه ذلك الحجـر المقدس والتحفة النـادرة التى كلفتنى إحضـارها، فسـرّت سرورا وتهلل وجهها بشراً وحبوراً وأخذت تعرض الحجر على إخوتها وأخـواتها إعجابا وافتخـاراً. ثم جعلته فى حـرز حريز ووضعتـه إلى جانب تماثيل الأجـداد، فلما رأيت منهـا شدة الاهتمام بعـرض دنىء لا يستحق العنـايـة وعلمت أننى غششتها وضللتها بما ادعيت كذبـاً وبهتاناً دبت فى قلبى عقارب الندم

ووخزنى واخز السريرة فلم أذق للراحة طعما، ليلا ولا نهارا، وأبت نفسى أن يكون ذلك الحجر الوضيع محترم المقام علىّ الشأن كأنه علق من الأعلاق النفيسة أو تحفة من التحف النادرة فلم يسعنى إلا أن ألقيت بـه فى النيل. فلما شعر القوم فى القصر بضياعه قاموا على قدم وساق وفتحوا للتحقيق أبوابا وأُلقيت الشبهات على الغاشية والحشم والندامى، فخفت أن يضحى أحدهم ويذهب فداء للآخرين، وأن يؤخذ البرىء بذنب الجانى فبادرت بالاعتراف وقصصت حقيقة الأمر من رأسه إلى قدمه. وكنت أود أن لـو أقع تحت طائلة العقاب، ولكنهم صرفوا النظر عن معاقبتى وتركونى وشأنى فازداد قلقى واضطرابى واشتدت على نفسى وخزات السريرة وتبكيت الضمير، ولم يذهب عنى الباس إلا بتوالى الأيام وتعاقب الأعوام. غير أن هذه الحادثة أفادتنى فائدة ذات قيمة وهى تجنب الكذب ولو فى المزح، فعليك يا منفتاح بالسير على سنن أبيك وسلوك منهاجه. أما أنت يا راميرى فخذ سيفك ولا تنس أن الحياة سيل ينحدر بالشقاء والآلام وأن خير الناس من عود نفسه وهو فى شرخ الشباب التجاوز عن الهفوات إلا عاد مكفهر الوجه كاسف البال كبعاكر رئيس الطلائع. فهيا يا ولدىّ تصالحا وامحوا الضغائن من قلبيكما.

فدنا الأميران من بعضهما وألقى راميري بنفسه على أخيه بحركة مصدرها الانبعاث النفسى ثم قبّله. فوضع الملك يديه عليهما وقال: هيا اذهبا للاستراحة كى تفوزا غداً بالحمد والثناء. فلما غادر الأميران مجلس أبيهما التفت فرعون إلى مينا وقال لـه: أود أن أحدثك قبل اندلاع الحرب فى أمر ذى بال. لقد قيل إن العين مرآة القلب وهاأنذا أرى فى عينك ما يشير إلى هموم تساور فؤادك منذ حضر من طيبة حارس خيولك، فماذا يا ترى قد دهاك؟ وما الأخبار التى بها وافاك؟ أجاب مينا بصوت ينم عما فى فؤاده من الكدر والحزن: إن حماتى راتوتى أساءت تدبير أموالى

فقد رهنت أطيانى وباعت ما كنت أملكه من الخيل. قال الملك: إن لهذا الداء دواء فلا تحزن.. سأغدق عليك من النعم والعطايا السنية ما يتجاوز مأمولك إن أقمت لى الدليل على أن نيفرت لم تتغير حتى الآن ثقتها بك وانها ما برحت مقيمة على حبك.. ألا يكون القلق الذى ساورك وبدت علاماته على وجهك نتيجة وهم وقع بشأنها فى قلبك؟ ما عهدتك قط شديد الاهتمام بمالك وأرضك.. فإذا كنت بقصرك الكلام عليهما تقصد إلى ستر حقيقة الواقع عنى فإنى أحب منك أن تميط الستار الذى مددته عليها وأن لا تنكر علىّ شيئاً، واعلم أنى منك بمثابة الوالد من ابنه فكاشفنى بكل ما فى صدرك ولن ينقلب قائد فرسانى المحبوب إلى أهله كاسف البال حزين القلب.. فقبّل مينا صولجان الملك وقال : تركت نيفرت والدتها لترافق كريمتكم بنت أنات فى حجها إلى جبل سيناء وبلدة ماجدو. قال رعمسيس : فى التنقل والارتحال تحسين للحال ورجاء للاستقبال، فدع نيفرت تعيش فى كنف بنت أنات فإنه لا أحد يعنى بحمايتها ويحرص عليها مثلها. قال مينا: لا ريب عندى فى هذا، وإنما وقعت قبل رحيلى من طيبة حوادث ليست مما يرتاح إليه الخاطر، فإنه لما تكرم مولاى فخطب لى نيفرت من أمها كانت مخطوبة لبعاكر ابن خالتها، وقد اغتنم هذا فرصة غيابى عنها بعد زواجى بها إذ قضت الظروف بذلك الرحيل لقتال الأعداء فأكثر التردد على بيتى والاختلاط بحماتى والتودد إليها حتى لقد نُقل إلىّ أنه أنعم عليها بمال طائل لتسدد به ديون ابنها وقد تذرع بصنوف الحيل والتدابير للتدخل فى شؤون أسرتى حتى بلغ من سماجته فى ذلك أن أهدى إلى حليلتى باقة من الزهور وقد رآه حارس جيادى رأى العين . فتبسم الملك ثم أهوى بيده على كتفه وقال: يؤخذ من قولك أنك تطلب من زوجتك الثقة العمياء بك وأن تكون المثل الأعلى عفة ونزاهة مع أنك لم تأنف من إيواء امرأة أجنبية فى صيوانك. وإذا كان هذا عجباً

فأبعث منه على العجب أن تفتح للظن باباً إلى فؤادك لمجرد أن ابن خالة زوجك أهدى إليها باقة من غض الزهـر.. ليس من العدل ولا الحق أن يكيل المرء بمكيالين أو يزن بميزانين.. والمرجح فى نظرى أن كل ما فى الأمر أن ثارت بنفسك عواصف الغيرة من ذلك الوحش الـذى تلاقت فيـه صنوف النقائص بل الحجـر الثقيل الذى قـذفت به الشياطين فى بيت المرحوم الموهـار السابق. قال مينا: الحقيقـة يا مولاى أن ثقتى فى نيفرت لاتـزال كما كانت ثقة الـرجل النزيه بـزوجته الطاهـرة النقية الجيب. إلا أن نفسى لا تطيق أن يكـون بعاكـر - ذلك الشخص الدميم الخلقـة الشبيه بـالذبـابة السامة- هـو الذى يجرؤ على استجلاء محياهـا وتقديم الزهور فى بيتـى إليها. قال الملك: جدير بمن يطمح إلى إحراز ثقـة الناس أن يثق بهم فعلا. ألا ترانى مضطراً فى أحوال كثيرة إلى قبول القصائد الشعرية فى مدح فعـالى والتنويه بذكرى من قوم هم فى أخلاقهم وطبـائعهم مثال الدنـاءة والسفال؟ فدع عنك الهمّ والبال واستعـد غداً للنزال.. استعد للانتصار والعود إلى وطنك مكلـلا بالغار، ولايذهبن عليك أن بعاكر سيعفو عنك بقـدر ما فرط منك.. انصرف الآن وتفقد الخيل واركب غـداً المركبة بما عُهد فيك من الشهامة فى مواطن الطعن والنزال.

ذهب مينا ليتفقد الخيل فـالتقى براميرى الذى ابتدره بقولـه: لعلك تعلم يا مينا أنى مازلت أنزهك من المعـائب وأبرئك من الشوائب وأرفع قدرك إلى المنـازل العالية واقتدى بك فى المحامد. ولكن لا أنكر عليك ما اعترانى من الشك فى نزاهة قصدك منذ علمت أنك أتيت إلى صيوانـك بامرأة أجنبيـة وأنت تعلم أنك قرين أجمل نسـاء طيبة وأكرمهن محتداً.. إنى- كأخ لنيفرت عارف بما ينطـوى عليه فؤادها وما تجنح إليه نفسها- أؤكد لك أنها لن تعيش ساعة واحـدة إذا أيقنت أنك فضحتها بإيوائك امرأة أجنبية فى صيوانك.. هذا الفعل منك عار كبير لا يلصقه بالمرأة المصرية إلا عدم الوفاء

لها بالأمانة والعفاف، فأرجو منك ألا تحقد علىّ فلا يعلم إلا الآلهة ما يجيء به الغد.

وكان مينا يصغى إلى حديث راميرى دون أن تبدو عليه علامات الاكتراث. فلما أتم الأمير كلامه قال: يعجبنى منك أيها الأمير الكريم اقتداؤك بأبيك فى الصراحة والصدق والإعراب عن كل ما يتلجلج به خاطرك دون تصنع ولا مواربة، كما يسرنى أن تكون مثله فى الإمساك عن الحكم على متهم قبل سماع دفاعه عن نفسه.. لست بمنكر عليك أن فى صيوانى امرأة أجنبية هى ابنة مالك الدنائم. ولكن لعله وصل إلى علمك أنى منذ بضعة أقمار لا أتردد على هذا الصيوان بل أقيم على الدوام بباب صيوان والدك الملك.. ادنُ منى قليلا لأروى عليك القصة بحذافيرها حتى لا يداخلك الشك فى نزاهة قصدى وحسن نيتى وأوقفك على أسباب وجود تلك المرأة عندى.. كان المعسكر ضارباً تحت حصون قادش، وكان رعمسيس ملازماً الفراش لجرح أصابه فأصبحنا فى بطالة يسأم منها النشيط، وكنت لذلك أقضى جل وقتى فى الصيد والقنص على سواحل البحر. وحدث يوما أن أوغلت فى تلك الجهة فإذا بكتيبة من جيش الدنائم أحاطت بى إحاطة السوار بالمعصم وأخذتنى إلى معسكرها أسيراً بعد إذ أوثقت كتافى. وقد اعتبرنى قواد العدو من العيون المبثوثة عليهم فحكموا علىّ بالإعدام وشرعوا فى تنفيذ الحكم، إذ أحاطوا بالحبل عنقى. وكان الملك لحسن طالعى ووفور حظى مقبلا فى تلك الساعة فسألنى عن حالى فأطلعته على الحقيقة فأطلق سراحى وأحسن معاملتى وأكرم مثواىَ ودعانى لتناول الطعام على مائدته. وكان لحسن صنيعه من التأثير فى نفسى ما حبب إلىّ مقابلة هذا الصنيع بمثله. وقد سنحت فرصة لذلك بعد زمن يسير إذ لم ينقضِ على تلك الحادثة شهر حتى هجم جنودنا الليبيون على معسكر الملك وجاءوا بما لا يُحصى عدده من السبايا والأسلاب والغنائم، وكان من بين السبايا ابنة ملك الدنائم. وإذ قرر والدك

الملك مكافأتى جزاء ما أظهرته من ضروب البسالة والإقدام فى القتال، فقد أمر بأن أكون أول من يختار حصته منها فاخترت ابنة ذلك الملك الذى صان من الموت حياتى وذهبت بها إلى صيوانى ومعها نساء حاشيتها وتركتها معهن فيها هادئة البال مطمئنة النفس محترمة الجانب، حتى تسنح الفرصة لردها إلى أبيها تحف بها الحشمة ويحدوها العفاف والصون، وأكون بهذا قد قابلت الصنيع الحسن بمثله.

وما أن وقف راميرى على سر الخبر حتى مد يده إلى مينا مصافحاً وقال له: التمس منك الصفح عن سوء ظنى بك فقد وقفت الآن على سر سؤال والدى الملك لى عما إذا كانت نيفرت ما برحت مقيمة على عهد الوفاء لك. قال مينا: وبم أجبت؟ قال: أجبت بأنها لا تكف عن التفكير فيك وأنها لم يداخلها قط شك فى أمانتك ووفائك، وقد بدا لى أن هذه الإجابة قد حلت منه محل الرضاء فالتفت إلى أخى شاموس مبتسما وقال: «لقد كسب مينا الرهان». قال مينا: نعم، فإن الملك حفظه الله وعدنى بمكافأة حسنة وتحفة سنية إذا كانت نيفرت- بالرغم من إقامة امرأة أجنبية بصيوانى- تبقى على ولائى وتستحق شكرى وثنائى. ويظهر لى أنه كان يرى الأمر مستحيلاً، ولكن الحمد للآلهة أن كسبت الرهان، إذ ثبت إخلاص نيفرت لى بالدليل والبرهان.

الفصل الرابع عشر

ذل الانكسار.. وعز الانتصار

ما خلعت الشمس جلباب الأفق وبرزت من خدرها حتى كان الكهان وقوفا فى طليعة كل فيلق من فيالق المشاة والفرسان، يرفعون الأصوات بالأدعية والصلوات، ويقدمون القرابين التماساً للنصر المبين ويعرضون صور الآلهة على الأنظار فى زوارق من العسجد والنضار، وانبث المبشرون فى كل مكان يبشرون بما استطلعه رئيس الكهان، من الطوالع المؤذنة بالسعادة والهناء والفوز على الأعداء. وكان لكل فيلق علم خاص قد رُسمت عليه صورة الحيوان المقدس أو المرموز به إلى الإقليم الذى ينتمى هذا الفيلق إليه. وكان كل جندى قد حمل معه – لوقاية نفسه من فتكات الأعداء وحفظ كيانه من شرورهم– التمائم والأحجبة والأحكام الدينية المسطرة على ورق البردى والخواتم ذات الفصوص المصنوعة على مثال الجعل. وكان سوادهم الأعظم يخفون فى ثنايا ملابسهم أو قطر ميزات مؤونتهم خصلا من شعر الحيوانات المقدسة أو أفاعى أو جعلانا على قيد الحياة[1] تبركاً بها وتفاؤلا بالخير ودفعا للشرور والنكبات.

أما الملك فكان فى محفة يحملها أربعة وعشرون شابا من أشراف مصر ونبلائهم يستعرض الجند ويتفقد أحوالهم قبل نزولهم إلى حومة الوغى. وكانوا يقدمون إليهم آلهة طيبة الثلاثة ومنث إله الحرب ونيشب إلهة الانتصار، وما ظهر الملك بين

---

(١) كان لكل إقليم حيوان مقدس يعبده أهله، وكان بعض هذه الحيوانات معبودا من المصريين كجعران فتاح وابن آوى و غيرهما

صفوف الجند حتى جثوا جميعاً ولم يقفوا إلا بعد أن أحرق البخور بيده وتناول من ابنه شاموس الكاهن الأعظم رمز الحياة والقوة. وما انتهت هذه الرسوم الدينية حتى أخذ الكهان ينشدون بصوت واحد أناشيد التمجيد والإجلال للإله (رع) وظله وخليفته فى الأرض الملك رعمسيس.

وما تحرك الجيش للزحف حتى سطعت فى السماء كواكب لامعة كانت قبل السير بدقائق معدودة تحجبها عن الأنظار سحب كثيفة قاتمة، فتحرك الكهان من فورهم للقاء الملك وفسروا له هذا الحادث العلوى بانكشاف الغمة وأن جيوشه ستبدد شمل العدو كما بدد الإله رع السحب المتلبدة ومزقها تمزيقاً. وكان المشاة يحثون السير دون جلبة ولا غمغمة حتى يخلد الأعداء إلى الطمأنينة وينصرفوا عن الحذر والحيطة فيكون مأخذهم سهلا والانسياب عليهم فجأة. ووقف الضباط فى مواضعهم المعينة على مركبات القتال وبأيديهم أعنة الجياد. وكان رعمسيس فى مقدمتهم يحمل فى مركبته كنانتين إحداهما للقسى والأخرى للسهام. وكانت الجياد التى تجرها مكللة الرؤوس بريش النعام تلامس متونها أعنة مرصعة بالأحجار الكريمة. وكان الوهج يسطع من سنابكها إذ كانت تضرب الأرض مللا من الوقوف ورغبة ايراد العدو موارد الحتوف.

وكان رعمسيس متوجا بتاج الوجهين البحرى والقبلى ومحصن الجسم بقميص الزرد تحمله كتفاه برافعات من الحرير الأحمر. وكان مينا واقفاً من ورائه ممسكا بإحدى يديه أعنة الخيل وبالأخرى درقة يقى بها مولاه سهام الأعداء. فلما جاوز باب المعسكر عند بزوغ الشمس فى تلك الهيئة الهيّئة والشارة العجيبة أقبل بعاكر رئيس الطلائع فقبل الأرض بين يديه وترامى على قدميه، وقال جوابا عن سؤال

وجهه الملك إليه عن أحوال أخيه وأين هو، إنه قـد أصابه مرض اضطره إلى ملازمة الفراش فى بعض النقط الأمامية. ولم تكن الشمس قد تم وقتئذ شروقها ليتبين الملك أقد اكتسى وجهه بحمرة العار والخجل أم بصفرة الخوف والوجل، فإذا به يراهما تتـداولان وجه هـذا الخائن الأثيم الذى لم يعتـد سبك الحيل ولا تـدبير الخيانـات والدسائس، إذ كانت هذه أول مرة فرط فيها فى واجب الأمانة نحو وطنه ومليكه.

ثم سألـه رعمسيس: وماذا العـدو صانع الآن. أجـاب: يحشد كل قواه جنـوبى المدينة وشرقيها. لذا أصبح القتال قاب قوسين أو أدنى، فإن رأى مولاى أن يفاجىء قادش فى الوقت الـذى يزحف فيه الشطر الأكبر من الجيش لمنـاوشة الآسيويين من جهة الجنوب فإن حصونه واستحكاماته لابد ساقطة اليوم بين يديه الكريمتين. ثم إن طريق الجبل – وهو الطريق الذى لابد لجيـوش مولاىّ من الزحف فيه للوصول إلى القصـد– طريق معبـد ممهد لا وعـورة فيه. فسأل الملك: أأنت مـريض كأخيك، فإنى اسمع فى صوتك خلخلة واضطرابـا؟ أجاب الموهار: لم يمضِ وقت من حياتى كنت فيه أجود صحة منى الآن. قال الملك: هلم إذن لترشدنا إلى هذا الطريق.

والتفت رعمسيس بعد هـذا إلى مينا قائلا: إن الطريق ممهـد معبد وغير وعر كما أخبرنا الموهار، فـلا عجب ان طابق الواقع هذه الأخبار. أليس هـو الوارث عن والده فضيلـة الإحاطـة بأسرار الطـرقات؟.. ثـم جياده العـاديـات ضبحا المثيرات نقعـا المباريات للريح سبقا.. ما كادت تصل به إلى جبهة الجيش ليرشده إلى الطريق الممهد والمسالك القويمـة حتى عادت به إلينا. فالتفت مينا إلى بعـاكر ولم يتمالك ان صاح: إنه لدنىء الطبع سافل النفس منحـط الهمة، فإن الجياد التى أُعجب بها مولاى إنما هى جيـادى التى أُبلغت أن راتـوتى أهـدتها إليـه قبل رحيلى من طيبـة، ومـا كنت

لاصدق هذا الخبر حين بلغنى ومع أنى ما اشتريتها إلا لتجـر مركبة نيفرت لولا أن زال الشك الآن وارتفع اللبس. ولقد رأيت هـذا الغر بعينى رأسى فى مركبـة تجرها تلك الجياد المشتراة بمالى. فلاطفه الملك وسكّن مـن غضبه وقال: إن زوجتك مازالت لك، فدع له الجياد.

لم تمضِ بعـد هـذا الحديث هنيهـة حتى تـرجرج الهواء بـدوى بـوق لم يـدر السامعون مصدر النافخ فيه، غير أن شدة ارتفـاع الصـوت كانت تدل على قربه من مكان الجيش. فوقف رعمسيس فى مكانه وانتضى سيفه ووقفت الخيل آذانها فقال مينا: هذا بـلا ريب صوت بوق الخيتاس. وكـانت مركبة ذات أربع عجـلات حاملة أسود القتـال تتبع مركبة الملك، فأمـر رعمسيس بإطلاق سراحها. وكـان قد سمع صيحـات العدو ورأى جنـود الطليعة تـرتـد على الأعقاب بغير نظـام وقد تخللتهـا مركبات الخيتاس التى كانت تنحدر تباعا من راس الوادى وتُسَمع لها قرقعة تصم الآذان، فانطلقت الليـوث مزمجرة إلى أن اتصلت بمـركبة الملك وأحـاطت بها، فرفع مينا السوط وأهوى به على متون الجيـاد فكبت فى بادىء الأمر ثم وثبت مندفعة إلى الأمام حتى بلغت إلى قلب الميـدان. وكان الجنود المصريـون قد خذلوا فعـلا وأخذوا يلتمسون لأنفسهم مخرجاً للفرار من وجه العـدو الذى كان نكل بهم تنكيلا وأثخن فيه إثخاناً وبيلا، فلما رأى الملك الخطر محدقا به ولم يكن ليخطر له ببال سأل: أين بعاكر؟ فلم يجاوبـه أحد لأنه كان اختفى عن الأنظار. وكـانت الأرض تتزلزل تحت أقـدام الهاربين والمطـاردين والخيـول تـدوس الـرمم وعجـلات المركبـات تصم بصريرهـا الآذان والرعد يلقى بهزيمه الـوجل فى القلوب، فلم يتمالك رعمسيس أن صاح صيحة الحرب المألـوفة له فى مواطن القتال إذا اشتـد الحرج عليه وعلى جنده فتغلب على صوت البـوق ورددت صداه الجبال والأودية. وقـد أجاب الضباط على

هذه الصيحة بمثلهـا، فوقف الفارون فى أماكنهم مترددين بين متابعـة الركض طلباً للنجـاة وبين الثبات فى مـواطن القتـال. إلا أن الخوف أخذ مـن قلوبهم مـا أضعف بأسهم وهدّ ركنهم فمضـوا فى طريق الفرار لايلوون على شىء. ومـا هى إلا دقائق حتى طرق آذان الملك صوت الأبواق وصرخات الخيتاس ، وكان منبعث الصوت من خلفه حيث يمتد أحد الأودية عمودياً على الطريق الذى سلكه الجيش المصرى. ومر هذا الجيش دون أن يداخله شك فى أمره، إذ كانوا يجهلون ما دُبر لهم من الدسائس ونُصب فى طريقهم من الشباك. على أن ذلك الوادى لم يكن سوى الذى انطلق بعاكر فيـه حينما تـوارى عن الأنظـــار لإخبار العـدو بقـرب زحف الجيش المصرى فيـه وحضـه على مفاجـأته بـالهجـوم من حيث لا يـدرى. وما كـادت تصل صرخـات الخيتـاس إلى سمع رعمسيس على مـا شرحنـــاه آنفـا حتى رأى المصريـون آلـوف الفرسان من أعدائهم والمئات من مركباتهم طغت طغيان السيل على المؤخرة والجنب وحالت دون الاتصال بينهما والكتيبة الملكية، وتمكنـوا بهذه الحركة من الإحداق به وأخذ المنـافذ عليه حتى صـار أشبه ما يكون بـالصخرة فى وسط البحر تسـاورها اللجات من جميع الجهات.

نظر رعمسيس على الفور فى أمر نفسه ومصير جيشه وكلاهما فى أحرج المواقف وتأمل فى ذلك بعين الحكيم الذي لا تزعزع ركنه الحوادث فأدرك حقيقة الخطر الذى أحدق بـه، ولاسيما وقد كان يـرى الأعداء يتدفقـون من الخلف على جيشه ويسمع صلصلة سيـوفهم وشخشخة دروعهم وضبح خيولهم وغمغمة الفـريقين فى قتال عنيف ونزال مخيف، كما كان يرى من الأمام خطباً جللاً وطامة كبرى. كان يرى فى مرامى نظراته قتلى تبقر بطونهم حـوافر الخيل وجرحى يئنون أنين الثكالى وفارين يلتمســون الآفاق هـائمين على وجـوهم حذر الموت وخلف هـؤلاء أعـداء ألداء قـد انشرحت صدورهم لبوارق الانتصار والفوز.

إلا أن الملك قوّم قـامته ورفع هامتـه إذ استفزتـه فداحة الخطب فثـارت حميته فصاح صيحـة ثانيـة تغلب بـدويها على زئير الأسود وجلبـة العساكـر وصلصلة السيوف. وكان أنين الجرحى وصوت القوّاد ولغب المحاربين بالنسبة لهذه الصيحة كالصمت المطلـق. ثم تناول قوسـه وأرسل منه سهماً أصـاب به كبـد أشجع قواد الخيتـاس فأراده. أما الأسـود فكانت تثـب على جياد العـدو وتنشب فى صدورهـا الأظفار فتعـوقه عن متـابعة الـزحف. وقذ ذعـرت جياد الفـرسـان من مـرأى تلك الضوارى فتراجعت إلى الخلف براكبيها وتـلاحقت فى الفرار من ميدان القتال حتى حـالت بين جيوش الخيتـاس والمصريين. وكان رعمسيس لا يفترّ لحظـة عن رشق العدو بسهامه الصـائبة حتى كادت تنفد من كنانته. وكان مينا يقيـه بدرقته سهام العدو فلم يصبه سهم واحد منها بـل كانت تتكسر نصالها على النصـال ، وألقى أعنة جياد المركبة الملوكية على غاربها فانطلقت حتى توسطت صفوف الأسيويين، فجرد رعمسيس سيفـه وطعن بـه الجم الغفير منهم فصرعهم جميعـاً . وكـانت ليـوثـه الكـواسر فى غضـون ذلك تفتك بهم شر فتـك وتلقى فى قلـوبهم الفـزع، كلما نشبت أظـافرهـا وكشرّت عن نابها. والخلاصـة أن الجيشين التحمت عساكـرهما جسما لجسم وطـال بينهما النزال والجلاد واشتـدت الجلبـة وعلت الضوضـاء بما يصم الآذان ويرهب النفـوس ويذكر الرائى بـالبحر الخضم وقد ثار ثـائره واضطربت عناصره، وصعب مراسه وانحلت أمراسه. أمـا مينا فقد أبدى من معجزات البسالة والتدبير مـا يخلب العقـول ويسترعى الأنظار، فقـد كان يخيل للنـاظر أنـه نفوس متعـددة فى ذات واحدة، إذ كـان يواجـه الخطوب بثـاقب الرأى فيتجنبهـا بتوجيـه المركبة ذات اليمين تارة وطوراً ذات اليسار وحينا إلى الوراء. وكان يرقب السهام فى مسراهـا مخترقـة الفضاء فيتصرف فى أوضـاع درقتـه بما يكفل وقـايـة الملك شر

الإصابة بها. وكان يبدى فى ذلك من آيات التبصر وحضور الذهن ما يندر أن يتوافر مثله فى واحد من مشاهير الأبطال. وكـان تفاقم الخطب قد حرك فى نفس رعمسيس سواكن الغضب، فتطـاير الشرر من عينيـه وأكثر من الصيحـات المزعجة وأمعن فى الفتك والتنكيل وأبلى بلاء لم يسبق له مثيل.

وقد انغرزت ثـلاثة من سهام العدو بـدرقة مينا فقرأ عليهـا بالحروف المصرية كلمات معناها «الموت لمينا» ومر بجانب أذنه سهم رابع فنظر صوب المكان الذى جاء منه فأصـابه بكتفـه سهم خامس فصـاح: خيانـة سافلـة! إنى لأشهد بعـاكر بين الخيتـاس بعينى. وقد سمع الخائن صيحـة مينا فلم يـركن إلى الفرار، بل دنـا من المركبة الملكية وأرسل من قوسه سهما سادسا وقال: دونك أيها الغاصب السالب.. هـا نحن أولاء فى ميدان القتـال! مازالت خطيبتـى قرينتك ولكنهـا بعد هـذا السهم ستصبح أرمـلا، فأستـولى عليها وأحظى بها. ومـا مـرق السهم من القـوس حتى أصاب خوذة مينـا فاضطرب جسمه وسقطت الـدرقة من يده وكـان قد رفعها إلى رأسه ليدفع بها الخطـر عن نفسه وسمع بعاكر فى أثنـاء ذلك يغرب فى الضـحك فما هى إلا لمعة البرق حتى أحس سهما سابعاً ينفـذ من كتفه فأزعجه الألم وصرفه عن القيام بمهمته نحوالملك إذ أرخى الأعنة للجياد ووثب من المركبة وثبة الليث، ثم جرّد حسامه وحمل به على خصمه اللدود الذى كان ينتظره ثابت الجنان هادىء الجاش، وما أن دنا منـه حتى حمل عليه حملة منكرة. ورآهما الملك يتنـاجزان ويتصاولان، فلم يستطع الفصل بينهما، لأنه مـا شعرت الجياد بارتخاء الأعنـة على غاربها حتى انطلقت كالريح مقتفية أثر الأسود.

وكـان حراس الملك هـووا إلى الأرض صرعى، بعضـهم تلـو بعض، فسرعان مـا

أحاط به العـدو يريد به الأذى والشر. ولكنه أخـذ درقة مينا وانقض عليهم يطعنهم بسيفه، فكـان فى كل طعنة حتف واحـد منهم. ورأى راميرى أن أباه أصبح فى عـزلة وأنه لم يعد ثمة اتصال بينه وجيشه فاخترق الصفوف واقتحم الألوف حتى وصل إليه ودنـا منه. فقال رعمسيس : المجد والفخـر لك يا ولدى وفلـذة كبدى! أنت خير حفيـد لسيتى الأول وأحق الناس بـالانتماء إليه. قـال راميرى: إنى طامح لإحـراز سيف غير الذى اغتصبه أخى منى. ولقد حمل في هـذه الأثناء على جندى ضيّق عليه الخناق فاحـاط العدو به، وشـهد الملك جماعـة من الدنائم يقبضـون على أعنة جياد الأمير وآخـرين انصبـوا عليه بسيـوفهم، كما شهـد رفـاق الأمير يولـون الأدبـار بمركباتهم إذ خافوا الخطر على حياتهم.

وأصيب أسد بسهم فسقـط يتلوى- لشدة مـا نابـه من الألم- ويزأر. وأدركت رعمسيس طعنة سيف شطرت درقته شطرين فاشتد عليه الكرب لما عاناه من توالى الطعن والضرب. ورأى كأن أجنحة الموت ترفـرف على رأسه وأسنة الهلاك مشرعة إلى صدره، غير أنـه بدلا من أن يواصل صيحـات الحرب التى كانت تـرتجف منها أفئدة الأعـداء وتقوى بها عزائم المصريين بسط يـديه بـالدعاء إلى آمـون أن يعززه بنصره ويوافيـه بالنجدة والعون، فما أتم الـدعاء حتى برز لـه من بين الجمع شاب مصرى طويل القامة تبدو عليه مـلامح الهمة والشـهامة، فأمسك بأعنة الخيل وحيا الملك بأحسن تحية، ثم وثب فى المركبة فارتعدت فرائص رعمسيس دهشـاً وعجباً إذ خُيل له أن هـذا الحادث الغريب ما هو إلا إحـدى المعجزات أو إجابة لتلك الـدعوات. ولما هدأ روعه التفت إلى الشـاب، وهو يدبر حركات المركبة بحذق غريب وشجاعة لم يكن للأبطال منها نصيب، فـلاحت له فيه ملامح الموهار السابق والـد بعاكر خائن الوطن وسبب الـرزايا والمحن، فقـال مناجياً نفسـه لعل الإله آمـون تقمص شكله

لينقذه من الوبال ويدفع عنه عار الانخذال. وزاد هذا الاعتقاد رسوخاً فى نفسه أنه سمعه يقول: الثبات يا مولاى الثبات! فبعد هنيهة ترد لك الإمدادات فتنجو من المهلكات، ثم تصل بنا فى ميدان الفوز إلى أبعد الغايات.

اطمأنت نفس الملك بهذه الكلمات فصاح صيحة القتال التى رددتها الآفاق والجبال وأطار رأس رجل من الخيتاس كان بدنوه منه كالباحث عن حتفه بظلفه. وكان الشاب الذى أرسلته العناية الربانية لنجدته يحمل الدرقة يحميه بها من سهام الأعداء الأنذال ويثخن فيهم ويوردهم موارد النكال. وظل الملك ونصيره على هذه الحال هنيهة من الزمان، فإذا بصوت الأبواق يقرع الأسماع منبعثاً من الجهة اليمنى، فتبين رعمسيس فيه صوت الأبواق المصرية، فسطعت بوارق السرور على وجهه وأيقن الظفر بالأعداء. ولم تمض إلا دقائق معدودة حتى لاحت للأنظار من خلف الجبل القريب بضعة آلاف من جنود فيلق (فتاح) تحت قيادة حورس. ولقد رأت هذه النجدة الخطر محدقا بالملك فانقضت على العدوّ بهمة لا تعرف الكلال وثبات تميد له الجبال، واخترقت صفوفه وفتكت برجاله فتكا وبيلا وألزمتهم بعد طول المجاهدة بالفرار، وأنقذت رعمسيس من الانكسار. أما الشاب الذى كان ملازما لركابه فقد اختفى عن الأنظار، لأنه أصيب بسهم أدماه. وقال قائل انه لم يكن من الإنس وإنما هو الإله آمون تقمص شكل رجل من الشجعان ليمحو عن الملك معرة الذل والهوان.

ثاب رعمسيس إلى الراحة ساعة جمع فيها شتات جنوده ثم هجم بهم على الخيتاس ففرّق شملهم ومزق جمعهم وقتل بعض رؤسائهم وأسر الآخرين، ثم انتشر بجنوده فى أركان السهل فضم إليهم ما بقى بالمعسكر من الجنود الاحتياطية وهجم بهم على قلب جيش العدوّ فاضطر الفارين إلى التفرق فى نهر الأورنت وبحيرة

قـادش، واستمـرت المناوشـة بين الفـريقين حتى أرخى الليل ستـاره. ولما أسفـر الصباح استأنف القتال بشجـاعة لم تخطر للخيتاس ببال، فحـاربوا متقهقرين ثم ولوا مدبرين بعد أن كانوا من النصر بخيانة بعاكر واثقين.

ولقد كانت الحيلة التى دبرهـا هذا الخائن الأثيم على وشك النجاح وكان ينبغى أن تكلل به إذا صح دائما أن يُـدلىَ إلى النتائج بـالمقدمـات، فى مثل هذه الحالات. فإن قواد الـخيتاس اختـاروا من جنودهم أحذقهم فى سياسـة الجياد وأثبتهم فى مواطن الجلاد، فتواروا خلف أشجار الـوادى الذي تعهد بعاكـر لهم باستدراج رعمسيس وجيشـه إليـه. فلما وفى بهذا العهد وسـار الجند المصريـون فى اطمئنان مـن بغتات العدو، إذا بألفى مركبة وخمسمائة قـد هاجمت جناح الجيش المصرى، بينما كانت مقدمته تستعد لمقابلة فريق آخر من الأعداء انساب عليها من خلف الوادي، ولم تكن تتوقع الاشتباك معه فى قتال لبعد مكانه على مـا أكده بعاكر فى استطلاعه قوة العدو واستعداده. ولكن العناية الربانية تداركت الخطب بما أشرنا إليه من المدد الذى خسر الأعـداء بسببه ثلثى جيشـهم ومعظم قـوادهم، وفى مقدمتهم (تيتـور) المشير الأكبر و(شيرو بازار) مـؤرخ ملك الخيتـاس الذى كـان ملازمـا ركابـه، يدون الحوادث تمجيداً لاسمه وتخليداً لذكراه.

أما رعمسيس فقد استقبله الجنـود فى معسكره بهتاف السرور وأناشيد النصر. وعمّ الخير الديار المصرية فهش له الكهان فى هياكلهم والجند فى ثكناتهم، بعد إذ طال عبوسـهم، لما حـرك آنى من خواطـرهم ونبه من كـامن بغضـائهم. ولم يبـقَ حديث يتداوله القـوم فى محـافلهم ومجتمعاتهم سوى ظفر المصريين بـأمة الخيتاس. وعلى أثر الواقعـة أرسل الأعوان لتفقد الجرحى ورفع جثث القتلى، فوجـد مينا فى الفريق الأول ولم يقف لراميرى على أثـر ولم يعرف عنه خبر. وانقضت أيام لا يـدرى أحد

عنه شيئاً فأفضى ذلك إلى تواطؤ الأنباء بوقوعه فى أسر الأعداء. وأن الفريقين اتفقا على المقايضة عليه ببنت ملك الدنائم التى اختار مينا أن تكون نصيبه من الغنائم، وأسكنها فى صيوانه وعاملها بكرمه واحسانه. وقد نقبوا عن بعاكر فى كل مكان فلم يعلموا من أمره شيئاً، ولكنهم وجدوا مركبته فخلصوا الجياد منها وسلموها لمينا صاحبها الذى ما كان أعظم فرحه برجوعها إلى حوزته بعد أن سُلبت منه غدراً فى غيبته.

استولى المصريون على قادش واستتب لهم الأمر فيها، فالتمس (خيتازار) أمير الخيتاس الصلح فأجاب رعمسيس بأنه لن يفاوضه فى هذا الموضوع إلا عقب عودته إلى الديار المصرية، فاضطر السفير المنوط هو واثنى عشر من أمراء الأمم المتحالفة ضد المصريين إلى اقتفاء أثر الموكب الفرعونى فى قصده – بمظاهر الانتصار– إلى وادى النيل كأسرى حرب لا يمتازون على هولاء إلا بما كان المصريون يعاملونهم به من الاحترام والتكريم.

وكان رعمسيس شديد الاشتياق إلى العودة منصرف الرغبة إلى المسارعة بها، لأن وسواسه كان يحدثه بوقوع أمر خطير فى مصر وكان ضميره يناجيه بتحرج الأحوال، واستمكن منه هذا الشعور على وجه أحس معه أن الفوز المبين الذى فاز به على الأعداء قد شابته شوائب الفتنة، وكدر صفوه بوجه خاص تحققه من خيانة بعاكر ونزوع آنى إلى الاستقلال بالملك ومعرفة الدانى والقاصى بهذا الخبر، حتى إن أمير جيش العدو لما سأله الصلح ألمع إلى فوائد المبادرة بإبرامه من حيث انه يمكّن أولياء الأمر من رتق الفتوق الداخلية التى تواردت عليه أخبارها من مصر. وكان رعمسيس موقناً أنه قادر على كبح جماح الثائرين والضرب على أيدى المارقين، إلا أنه ظل واجماً كاسف البال، لأنه أحسن الظن بقوم ألقى إليهم بأزمة الحكم ليدبروه

فى أثناء غيبتـه على ما يطابق مصلحة الـرعية فاغتنموا هـذه الفرصة للاستئثـار به وضاعف حـزنه مـا حل بمينا من الـردى، وهو البطل المقدام الـذى كان يـوليه من الإعزاز والإكـرام ما يذهب بالفـوارق بينه وأبنائه ويعهـد إليه قيادة جياد مـركبته وتلقى أوامره التى كان يكفيه لتنفيذها التلميح بكلمة أو إشارة بطرف العين.

ولم تشفع هذه الصفات النـادرة له عند القائد العام للجنـود المصرية، فقد حكم عليه بالتجريد من رتبته والعزل مـن وظيفته وبعدم صـلاحيته للقيام بها وبنى هذا الحكم على أسباب منها أنه آثر الانتقام لنفسـه فتخلى عن مركبة الملك وعرّض حياته للخطـر فى أحـرج المواقف، كما عـرّض الجيش بـذلك للهـلاك والفنـاء، ومثل هـذه الجريمة فى القانون العسكرى المصرى يُعاقَب مرتكبها بالإعدام. فلم يجد رعمسيس من ثمّ سبيلا لـلاعتراض على الحكم، بل رأى فى الاقتصـار على التجـريد من الـرتبة والعزل من الـوظيفة مبـالغة فى الرفق بـالمذنب وغلوا فى الصفح عنـه، ولكنه رضى بذلك لمكانته منه وسالف خدمته لذاته السنية.

وكان رعمسيس شديد الاتئاد والحذر بفطرته ومقتضى غريزته، لا يمضى أبدا مع الخيـال ولا يستسلم للوهم. ولـذا كان يُرى منشرح الصـدر لين الجانب متهلل الوجـه فى غالب أيامـه، حتى أيام الشقاء التى تُنَهك فيهـا قوة البدن ويعتـور الفكر الكلال والضجر، ولكنه كان ذلك اليوم سابحا فى تيار الأفكار تائها فى فيافى الخيالات تنفعل نفسه بأقل المؤثرات، فيرتفع رأسه بغتة كمن يقوم من نومه منزعجا. وكثيرا ما اقتحم الأهوال وعـانى الشدائد ورأى الموت مجسما فى أقبح الأشكال فلم ينبض له نبض، إلا فى يـوم قادش الذى ختم مع ذلك بفـوزه. وهو مادام حيـاً لن ينسى ما استشعره فيـه من العجز وقلـة الحيلة وقتما انفض جنده من حـوله وانـدفعت به الجياد نحو الأعداء رغم أنفه ، فكان كـريشة فى مهب الريح تتلاعب بها الحدثان، بل

لن يـذهب عنه أبـدا مـا تولاه مـن الحيرة كلما عالج الخلاص من الأعـداء وأراد أن يعـرف من أنقذه من أيـديهم أ آمون- وقـد سمع دعـاءه ولبى نداءه، فتجلى لـه فى صورة إنسان وكـان له خير معوان- أم غيره، أم انه ابن الشمـس يجرى فى عروقه الدم الإلهى؟ وكان لرعمسيس أن يسلك فى الظنون كل مسلك لأن الإله خصه بمزية لم يخص بها أحدا من البشر وأدركه من عنايته بما يدل على سمو مرتبته، ولكنه كان ينظر إلى نفسه ليرى أنه بشر سوى وأنه كغيره من بنى الإنسان خلق ولا فارق بينه وبينهم، وإلا لما أنّ من ألم الجرح الذى أصابه واشتكى بل لما ازعجتـه خيانة بعاكر. ثم قارن بين نفسه وقد توسط شيع الأعداء ولم يجد حوله أحدا من الاصفياء ونجا من مكرهم السيىء بما أيده من المدد الإلهى، ومن حكم عليـه بالإعدام، وأنه لما جىء به إلى دائرة التنفيذ صدر الأمر بالعفو عنه فـاستنتج من هذه المقارنة أنه أحد أفراد البشر وأيقن ذلك وسُـرّ له لأن بشرية الإنسان تكفيه مؤونة التصدى لعلم المستقبل، ومتى كـان الإنســان لا يعينـه من علم الغيب شىء خـلا قلبـه من هموم الحيـاة ومشاغلها.. وفى هذا منتهى الهناءة والسعادة.

كـانت واقعة قـادش من الوقـائع الفاصلـة وكان فـوز المصريين فيها مبينـا إذ استولى رعمسيس بها على مضائق الشام وقـلاعها ثم عاد إلى مصر مطمئن النفس، بعـدمـا أنفذ إليهـا بحـراً شطـراً كبيرا من أدوات القتـال وجماً غفيرا من الجرحى، وصحبه فى عـودته الأمـراء المغلوبـون على أمرهم. وقـد بعث باثنين مـن أبنائه إلى ماجدو للمحافظة على أختهما بنت أنات فى بيلوز(١) ولينتظرا معها فى سفينتها حتى يصل هو إليها.

---

(١) بيلوز هى الفرمة الآن ، وكانت مفتاح مصر لكل جيش حاول الإغارة عليها من جهة الشرق.

الفصل الخامس عشر

ملتقى الابطال.. والخونة الأنذال

مضى على واقعة قادش ثلاثة أشهر كان الجند والأهلون بمدينة بيلوز فى خلالها يعدون معدات الاحتفال باستقبال الجيش المصرى الظافر بالأعداء الأنذال. وكان آنى المعروف بفتور الهمة وخمود العزيمة لا يكف عن استنهاض العمال وحثهم على إنجاز الأعمال، وكان دائب الحركة في مركبته ذهابا وجيئة لمراقبة العبيد المكلفين بإقامة أبواب النصر وتنميقها بالأزهار وترتيب الأسود الصناعية المموهة بزاهى الألوان فى أماكنها. وكان يقف مع كل فوج منهم هنيهة حاثا على إتمام القصر الذى شيد إكراماً لفرعون وتنويها بذكره فى موقع معسكر الهكسوس ومستنهضا على الاحتفال بتنميقه وتزيينه.

وبهذا الحث والاستنهاض استطاع بضعة آلاف عامل تشييد هذا القصر(١) فى عدة أسابيع، فجاء قصراً فخم المنظر حسن النسق خليقاً بسكنى الملوك والأمراء. وكانت الأرض من حوله صلدة لا تصلح للنبت فإذا بها حديقة غناء، بل جنة فيحاء يمتد فى وسطها طريق يفضى بالسائر فيه إلى غرفة المائدة وهى غرفة مرتفعة أيضاً عن أرض الحديقة ذات أزج يمثل القبة السماوية فى لونها السنجابى وتلألؤ كواكبها السنية، مرفوعة على أعمدة بشكل النخل علقت بتيجانها أطراف قطع مستطيلة من الخز اللازوردى اللون، بحيث تتصل أطرافها الأخرى بعضها ببعض فى نقطة واحدة هى مركز الظلة القائمة فوق العرش الملكى. أما الظلة فكانت عبارة عن قبة

(١) جاء فى بعض النصوص ما يشير إلى أن المصريين كانوا يبذلون الأموال الطائلة لتشييد القصور وإقامة الحفلات بها يوما واحدا أو بعض يوم ثم يهدمونها

مجوفة مرصعة بلآلىء زرقاء وخضراء وقطع من البلور النقي منشورية الشكل كانت بسنائها، تلألؤ ألوانها تخطف أبصار الناظرين.

أما العرش الملكى فكان موضع الجلوس منه درقة يقف إلى جانبيها ليثان يتكىء الجالس عليهما. وكانت زواياه الأربع قائمة القوائم على أربع صور تمثل أربعة من أمراء آسيا قد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون. أما الأرض فكانت مفروشة ببساط أزرق اللون رسمت فيه الحيوانات البحرية من أسماك وغيرها، إشارة إلى البلاد التى استولى فرعون مصر عليها، وقد مدت عليه موائد يحيط بها ثلاثمائة كرسى للمدعوين الذين سيدعون إليها من عظماء المملكة وقواد الجيش الظافر. وكانت ألوف المصابيح التى تشبه بشكلها أزهار الزنبق والخزامى تضىء القاعة بضوئها الباهر وتلفت الأنظار إلى شكلها البهى الزاهر.

وكانت مخادع النوم على هذا المثال من الجمال والجلال، إذ كانت مكسوة الجدران بنسيج أحمر مزركش بأسلاك الفضة والذهب وسقوفها مغطاة بقماش لازوردى دقيق السلك وأرضها مفروشة بجلود الزراف. وفيما يلى الحديقة من الناحية المجاورة للمدينة شيدت مبانى الخشب على صفوف متوازية لإقامة الحراس والجند، وجُعلت الاسطبلات فى آخر ذلك كله ومن بينها إسطبل مُموه بالذهب وزُين بالأزهار للجياد التى كانت تجر في ميدان القتال مركبة الملك. وقد وهبها رعمسيس لإله الشمس شكرا له على ما منحه من الظفر.

وكان الوالى آنى وصديقته راتوتى يتفقدان هذه الغرف فقالت له: يظهر لى أنك قد بلغت المراد بتشييدك هذه الأماكن وتنسيقك إياها على ما يوافق الذوق السليم. أجاب آنى: أصبت، إلا أننى لا أدرى ممّ أعجب، أمن سلامة ذوقك فى الترتيب أم من

رجاحة عقلك فى إتقان الأساليب. فتبسمت راتوتى وقالت: إذا كنت أهلا لبعض المدح فما هـو إلا لأننى أخلصت لك الـولاء ورُمت لك الصعـود إلى أوج السماء. وإلا فأى باعث يحملنى على إجهاد القريحة فى استنباط الـوسائل الرجيحة لإنشاء هذا القصر الفخم فى مستنقع امتـلأ بـالحشرات، مع أن مصيره للزوال بعـد أن يُنفق فى سبيلـه الكثير من الجهد والمال. قال آنى مطرقـا رأسه: نعم سيكون عمر هذا القصر قصيرا وبقاؤه كالطيف، ولكـن هل ذهب عليك أن مشروعنا الذى قدحنـا فى تدبيره القريحة وأعملنا فى تحضيره الفكـرة قد ذهب نفخـة في رماد؟.. أرى أمينى قـد خمدت همته وتلاشت عزيمته كما أرى الجنـود التى اخلصت لى الولاء وحالفتنى على الصدق فى السراء والضراء قليلـة العدد يكـاد لا يبـدو لها أثـر فى جيش عرم قـد ثمل بخمـرة الانتصار وتعلق بـرعمسيس لما أصاب من المجد والفخار. ثم إن الـرعاة العبرانيين الذين استملتهـم هنا إلى مودتى بما رفعـت عنهم من الضرائب الفادحـة لم يتعودوا حمل السلاح والنزول فى مواطن الكفاح. وأنت تعلمين فـوق هذا ما جُبل عليه شعبنا من اتباع الغـالب وتحرى مواطىء أقـدام الظافـر والغاصب والتزلـف للقوى، فهم ولاشك مبادرون بتقبيل قـدميه ولو سعوا حبواً إليـه مع علمهم بما سفك من دماء أبنـائهم وأزهق من أرواحهم.. لـذا أرانى فقـدت الثقـة فيمن حـالفتهم واضطـرب خاطرى لأمر آخر لا أجد مـجال القول ذا سعة لشرحه.. وهو أن الصقر المرموز لى به والذى عهدت إلى العجوز نيخت العناية بأمره لايزال مريضا، بل على وشك الموت لما تولاه من الضعف والوهن.

قالت راتـوتى: إذا سلكت مسلك الرجـال وجاريت في شهامتك الأبطـال ، قويت أجنحة ذلك الصقر فاستطـاع الطيران وحلق فى سماء القدرة والامكان. واعلم انه لا يحسن بك النكـوص على الأعقاب ولا أن تخشى مـن الملك أى عتاب. لأنـه متى رآك

وقد استقبلتـه استقبال الآلهة العظـام انتفخت أوداجه بـالكبرياء ونسـى الانتقام، ومنعه ذلك عن توهم الغدر فيك وتحامل على من يناويك ، وعز عليه أن يسيىء الظن فيمن أنابه لإدارة شؤون الوطن. ولكنه إذا أصغى اليوم لمقالك ولم يشك فى حال من أحوالك، فإنه يـُخشى أن ينقلب عليـك فى الغـد بوشايـات الواشيـن إذ لايغيب عنك ما وقع فى طيبة من حوادث لا يرجى أن تمحو أثر الوشايات. وما أشبهك الآن بأسد حبس فى قفص حديـد فاختلس من غفلة حـارسه فرصة أفلت منـه بها، فلما أُخذت عليه الآفـاق وامتدت الأيـدى للقبض عليه كشرّ عن نـابه. فإذا سلكت اليـوم مسلك الأساد ولم تخش بأس أحد من العباد فويل ثم ويل لمن يحاول أن يخضعك لجبروته ويرغمك على الطاعة لحكمه.

قال آنى: أنتِ لا تكفين عن إغرائى بما أخشى أن تكون عـاقبته شقائى وبلائى.. من يـدرى أن يخيب سعينـا كما خـاب سعى بعـاكـر من قبلنـا، وهـو الـذى دبـر لرعمسيس من محكم التدابير ما كان ضمينـا له بسوء المصير. قالت راتوتى: أتظن أنك إن أخطأت المرمى اضطـرب حالك وسـاء مآلك.. إذن مـا معنى قول النـاس إن الآلهة هم الـذين يدبـرون حركـة العنـاصر وأن لا أحد منهم على تحريك ذرة منهـا بقادر . أتستبعد أن تكون الأقدار ساقتك إلى إنشاء هذا القصر الفخم العظيم لتدمره بالنار وتجعله العظم الرميم؟ قال: ومن يأخـذ على عهدته إشعال النار فى هذا المكان الذى ملأه عبدى ونيمو بالقصل والقـار؟ أجابت: أنا التى تقوم بهذه المهمة مع رجل لا مطمع له عند رعمسيس ، وهو من أرباب النجدة والهمة. سأل: ومن هو؟ أجابت: بعاكر ! سأل: وهل هـو هنا؟ أجابت: كيف تجهل وجوده وقـد رأيته بعينيك؟. قال : لعلك واهمة. قالت: كلا! وقد خاطبته بنفسـك. أتدرى من العبد الأسود الأعور الذى وافاك أمس بخطـابى؟ إنه لبعـاكر ابن أختى ستخم. فـأرعـد آنى لسماع هذا الخبر

وقال: مــا أسوأ حــاله! قالت: نعم، إنــه فى أسوأ ما يخطــر بالبــال من الاحوال لتغير معالمه وتبدل ملامحه. ولقــد فقد إحدى عينيه فى منازلته لمينــا فأصبح أعورا، وكان جسمه أبيض نقيا فطلاه بالسواد حتى تنكــره أمه والناس. وقد أصيب بطعنة رمح نفذت مــن رئتيه فأصبح لا يتكلم ولا يتنفس إلا بعنــاء. وكان متين الأســاطين قوى العضلات عــريض الأكتاف، فصار نحيــلا ضئيلا لا يفرق النــاظر إليه بينــه وعبد التصق بطنه بظهره من فرط الطوى. ومــا رأيته فى هذه الحال التى يتعذر معها تبين أمره حتى عنّ لى أن أجعله من أتباعى دون أن أطلعــه على ما أرمى إليه من المقاصد. والذى أتــوقعه أنه سيكون لنــا على تحقيقها عضدا ونصيرا ولــو كان من وراء ذلك حتفه.. مالى أراك مترددا؟ أما رأيت أنى لك كمن يهز الجذع ليلتقط غيره الرطب ومن يغرس الشجر ليجنى غيره الثمر؟ وأذكرك هنا بوجوب التنبيه على حافظ الأنبذة ألا يبخل بها على العسس والحراس وغيرهم من الجنود السردينية كيــلا يفسدوا علينا تدابيرنــا. ولقد علمت أنك أمــرت بإفراغ ثلاث من السفن الخمــس التى جاءت من مصر مشحونة بما كان مدخــراً عندك من النبيذ. وعهدى برب مصر فى المستقبل أن يكون كريما لا شحيحا لئيما.

قالت ذلك وافتر ثغرهــا عن ابتسامة الاستنكاف. فأدرك آنى مــرادها بها وقال: لقد خيل لى أنى خجول وفى جلائل الأعمال غير عجول، ولكنى أكاشفك بما يجول فى خاطرى الآن وهــو أن يكون ما فرط منــا أضغاث أحلام لا حقيقة شــديدة الأيلام.. أود تنفيض يدى من الدسيسة التى أحكمت تــدبيرها بإنشاء هذا القصر الذى تكلف المبالغ الطائلــة من المال. أما النبيذ الذى أشرت فى كــلامك إليه ففى وسعى التصرف فيه على كل حال وإهراقه على مــذبح الأمانى والآمال. ومع هذا فإنى أكل الأمر إليك وأدع تصريفه على الوجــه الموافق لسعة حيلتك. وقد اعتزمت الذهــاب بعد الاحتفال

إلى معسكر الحبشان لأقضي به ما بقي الليلة من الزمان.

قـالت راتوتي: ان تفعل هـذا وشهد النـاس أن النار التهمت ذاك الـذى اغتصب عرش الفراعنة يبايعوك ملكا على مصر، ويكفى أن يبـدأ أحدهم بالمبايعة ليقتدى به الآخـرون.. ولا يهولنك من الأمـــر شيء فإن الكـاهن الأعظم أمينـي يـؤثـرك على رعمسيس ويتلقى نبأ جلـوسك على الأريكة المصريـة بـالبشر والارتياح، ولـو بقى صدره حامـلا بعض الحقد عليك . ها قد أقبل الملك وها هى أعـلامه تخفق من بعيد. قال آني: نعم لقد جـاء فى قضه وقضيضه. ثم سكت هينهة وقـال: أنبهك يا راتوتي إلى أن بنت أنات قد حلت بالجناح المخصص لها من القصر ولست أحب متى اشتعلت النار فيه أن تذهب فـريسة للنار. فضحكت راتوتي باستخفاف وقـالت: أهذا كل ما عندك؟.. كن واثقا أنها ستنجو من الخطر ولن يلحقها شيء من الضرر. فودعها آني ثم أجال النظر فى البهو المعد لإقامة الحفلات وقال متنهداً: لقد ضاق صدرى وحرت فى أمرى، ألا ينقضي هذا اليوم وليلته بخير وسلام.. فضحكت راتوتي وقالت: أراك تشبه هذا البهو الفسيح فى التجـرد من مظاهر الجلال ومجالى السرور، ولكنك متى وضعت التـاج على مفـرقك وأمسكت الصـولجان بيـدك تهلل وجهك بشراً وتهافت لاستجلاء محياك النضير أفواج الناس فيكون شأنك عندئذ شأنه فى هذا المسـاء، متى أضيئت المصـابيح وخفقت الأعـلام وتـلألأت كؤوس الـراح وبـدت على المحتفلين علامات الارتياح. فشكر آني لها هذا التعبير الجميل بغمزة عينه وانصرف، فشيعته بنظرهـا وقالت فى نفسها: سأدع بنت أنـات هنا فريســة النار.. إذ لا أود أن أرى إلى جانبى من يشاطرنى النفوذ والاقتدار.

وكانت بيلوز غاصة بالوفـود توافدوا من كل صقع وحدب لتهنئة الملك وجيشه

الظافر. وكانت طوائف الكهان أوفدت الـوفود لتحية رعمسيس وتهنئته بالانتصار على العدو. وكان -وفد مدينة الأموات منها مؤلفاً من خمسة أعضاء يرأسهم أمينى والنبى جاجابـو. فقصد الجميع، وقد لبس بعضـهم ثياباً نـاصعة البياض والبعض الآخر جلود الفهود التى خُص بحملهـا الأنبياء- إلى القنطرة المشيدة على فرع النيل، يتقدمهم أعضاء وفد هيكل فتاح فى منفيس وهـو الهيكل الذى شيد فى عهد الفرعون مينا أول مصرى جمع بين التاجين وملك ناصية الوجهين وعلى رأسه كاهنه الأعظم والمدبر لأموره ابن رعمسيس. وتلاه وفد مؤلف من كهان عين شمس فكهان هيكل مـدافن طيبة الـذى سبقت الإشارة إليـه. وكان بيـد كل كاهن محجن طـويل منمق بأزهار الزنبق والورد، وبيد الكثيرين منهم مجامر البخور يشبه شكلها يداً منضمة الأصابع وُضع فى تجويفهـا العطر الثمين. وكان ضمن مبعـوثى هيكل آمون بعض نساء الأسر الكبيرة فى طيبـة، وقد وهبن أنفسهن لعبادة هـذا الإله، وكـانت راتوتى انخرطت فى سلكهن حديثاً بناء على طلب الوالى آنى.

أما أمينى فكان يسير إلى جانـب جاجابو مفكراً كاسف البال فسـأله هذا بصوت خافت: أنظـرت كيف جاءت الأحـوال بما لم يخطر ببـال.. أين آمالنـا التى عللنا بها النفوس.. ألسنا الآن أشبه بسعاة البريد يحملون كتبا مختومة لايدرون ما تتضمنه من الأقـوال؟ قال أمينى: كن واثقـا أنى جئت لتهنئـة رعمسيس مسـوقا بعـواطف الإخلاص .. أمـا علمت أنه سيعـود إلى مصر على أثر مـا وقع من الحوادث فى قادش على غير ما جاء منها وفى حالة تباين حالته حينما برحها.. إنه ليقدر بلا ريب ما وافاه آمون بـه من النجدة والنصر ولعله نـذر لهذا الإله تشييـد الهياكل الباذخـة إجلالا وإكـراماً ووعـد بتقـديم القـرابين لهيكلى. ولقد عهـدت من رعمسيس حفظ العهـد والوفاء بالوعد أكثر من ذاك الـرجل النحيل الذى أراه فى مركبته هناك باسم الثغر..

قال جـاجابو: أخاف على هـذا الوالى أن تبطش به يـد الملك. قال أمينى: إني واثق من عفو فرعـون عنه لأن الرجل لا حول لـه ولا حيلة فهو كالغصن الـرفيع الذى تثنيه الرياح. قـال جاجابو: ومع هـذا فقد كانت ثقتك به عظيمة فـإذا آمالك فيه أصبحت الآن كآمال العـاطش الذى يحسب السراب ماء فإذا جاءه لم يجده شيئـاً. قال أمينى بصوت منخفض: إن ثقتى كـانت بنفسى لا به، وآمالى كـانت مستمدة من همتى لا من همته. وغاية الأمر أنى أردت استعماله فى قضاء بعض الحاجات، فإذا أنا تخليت الآن عنه فما هو إلا لغلطـه وغروره.. وأول مازلت قدمه زلت معنـا فى رفضه رجاء العفو عن بنطاؤر ثم حنثه فى يمينه انتقاماً من شاب شريف الخصال حسن الخلال. وإنه لجدير بالنفس الشريفة أن تناصب العداء نفساً مثلها لا نفساً خسيسة ممتهنة، أفيجوز إذن أن يكافأ الرجل الذى انتزع بنطـاؤر من بيننا بإجلاسه على عرش الملك ووضع التاج على مفرقه؟! كلا إن المرء إذا أبى الظهور فى مظهر الرجل السـهل القياد المنحدر مع تيار الأهواء فالضرورة تحتم عليه الاستمســاك برأيه وعدم الحيد عنه، إلا بعد إمعان النظـر وإطالة الروية. ولكنا معشر الكهـان الذين لا همّ لهم إلا السـهر على مصلحة الجمهور لا يسرى علينا مـالا محيص لغيرنا عن العمل به من المبادىء والقواعد. فمن الحقـوق المخولة لنا الرجـوع عن الغاية التى إليها نرنـو ، ولو بلغنا إليها وجذبناها من ناصيتها كما لنـا أن نتخلى عمن نصرناه ورفعنا شأنه ولو هوى إلى الحضيض. ومن مبادئنا الخالدة التى لم نحـد عنها منذ ألوف السنين أن الحياة الطيبة هى التى يقبض الكهان على زمامهـا. وهذا رعمسيس قد فتح البلاد وأخضع لسطوتـه العباد، لا أظن إلا أنه سيـدأب بعد عـودته إلى الوطن على تشييـد الهياكل الشامخة وفاء بالنذر، ولابد له من الالتجاء إلينا لالتماس معونتنا، وأنت أدرى أنه لا محيص لمن كانت له حاجة عندنا من الإذعان لنا. ها هو سر تهنئتى ابن سيتى على ما ناله من الفوز والغلبة ولا سر سواه.

وكانـت الأعلام تخفق على ضفـة فرع النيل بينما كـان ارتفاع الغبـار فى الضفة الأخرى يشير إلى دنو الجيش المصرى. ولم تكن إلا غمضة الطرف حتى طرق الآذان عـزف الموسيقى العسكـرية التى تسير فى طليعتـه وكـان الملك رعمسيس على رأس الجيش تقدح عيناه شرراً وتبدو فيهما آثار العظمة والكبرياء، ولكنه ما كاد يرى عند الجسر الممـدود على النهـر عشرات الآلاف من الأهلين يصيحـون صيحـات الفـرح ويهتفون بالـدعاء له وينثرون فى طـريقه الأزهار اليانعـة والغصون الناضرة حتى تحولت عظمته إلى تواضع وكبريـاؤه إلى عطف وحنان. ثم تواصل سير الموكب على هذا النمط فلما وقف تقدم آنى إليه وقبّل الأرض بين يـديه ثم عرض عليه صولجان الملك موضوعـاً فوق وسادة من الحرير، فأشـار فرعون إليه أن يدنـو منه فلما دنا مال عليه وقبل ما بين عينيه ورجا منـه أن يصحبه ويسوق مركبته لتشرف بقيادته إياها. وكـان رعمسيس يحس فى نفسه ساعتئذ بعاطفة الشفقـة على آنى والشكر له بعد إذ رأى من ظاهر أمره ما يحمله على حسن الظن به وطرح الاعتقاد بأنه قد نزع إلى الخيانة ومزق عهد الأمانة.

وكان رعمسيس يستشعـر كأن قلبه إناء يفيض سروراً لمشـاهدته الـوطن الذى يريـد له السعادة والسيـادة على سائر الأوطان. ثم استقبل الكهـان بأرق التحيات وأظهر لهم من الميل ما انثنوا منه داعين له بدوام البقـاء غوثاً للوطن وحافظاً له من الشرور والمحن. ثم سار بإرشاد الوالى حتى بلغ إلى القصر فـدخله وصعد إلى القاعة التى أعدت له متهلل الوجه باسم الثغـر وتفقد بعد ذلك العجول وكانت تبلغ الألفين عدا ثم الأسود فـالفهود المستأنسة فالأشجار النادرة المجلوبـة من البلاد الأجنبية وقد تخللت أغصـانها الطيور المغردة بألـوانها الزاهية، وهـذا فضلا عما لا يحصى عدده من الزراف والنعام الـذى خصص لجر المركبات. وكان لذلك دائم الانصراف

نحو البحر ينتظر بذاهب الصبر حضور كريمته بنت أنات.

أقبلت الأميرة بعد هنيهة فعانقها الملك وضمها إليه ضمة المشوق، لاسيما وقد أثار مرآها فى نفسه ذكرى والدتها المحبوبة التى اغتالتها المنون منذ عهد غير بعيد. وكانت نيفرت تلازمها وتحمل لها مروحتها، فلما دنت من الملك جثت على ركبتيها فأمسك بيدها لإنهاضها وتلطف بها إذ قال: لقد وقفت اليوم على أمر جديد لا بأس من موافاتك به يا نيفرت.. لاحظت أن السعادة القصوى التى كنت أظن أن لا سعادة بعدها وأن الجمال الرائع الذى كنت أعتقد أن لا جمال بعده قد يتدرجان فى النمو والازدياد إلى ما يتجاوز الظن والاعتقاد. ومن هذا القبيل طالع مينا، فقد كان كوكباً ساطعاً لا يدانيه كوكب فى السمو والتلألؤ فأصبح شمسا متألقة الضياء. وما فاه رعمسيس باسم مينا حتى فكر فى أمره فتقطب وجهه وكسف باله ولكنه تدارك ما فرط منه فالتفت إلى كريمته وسألها : ماذا فعلت صديقتك نيفرت حينما علمت أن قرينها اختار من بين السبايا امرأة جميلة أكرم فى صيوانه مثواها وأقامها عنده أشهرا طويلة؟.. أريد منك يا ابنتى العزيزة أن تكشفى لى النقاب عن هذه الحقيقة. قالت: إن الشطط الذى ركب مينا بهذا الفعل متنه اضطر نيفرت إلى ملازمتى فى هذا السفر الشاق، فقد نقلت راتوتى ذلك إليها فحنقت عليها وقالت لها إنها تظلمه بذمه والافتراء عليه وذكرت لها بعد ذلك أنها واثقة به ثقة لا حدّ لها وأنها تفضل البعد عنها حتى لا تسمع ما تكرهه فى حقه منها.

سأل رعمسيس نيفرت: أحقيقى ما روته بنت أنات؟ فاحمر وجه نيفرت خجلا وأومأت إيماءة الإيجاب، بينما كانت دموعها تترقرق فى عينيها وتنحدر كاللآلىء على خديها. فقال الملك: إن رجلا أحرز السعادة كلها باقترانه بمثلك لخليق به أن يكون

قدوة الناس فى كرم الخصال ومحاسن الشيم. ثم التفت إلى رئيس التشريفات وقال: بلغ مينا أنى أحب منه أن يقوم اليوم على خدمتى فى أثناء الطعام كما خدمنى ليلة الاستيلاء على حصون قادش واذكر له أنه تركنى فى معمعة القتال عندما أبصر ببعاكر وأنه إن رأى قرينته فى هذا المساء فلا يتركن قدح الشراب يسقط من يده. فشكرت نيفرت للملك هذا العطف جاثية فلم ينتظرها حتى تقف، بل انصرف للسلام على رجال بطانته الذين حضروا معه تضحية القرابين وكرر لهم وعده بإنشاء هيكل فخم فى طيبة. وكان الملك فى مروره بين الأهالى والجند الذين ثملوا بخمرة الانتصار وأطالوا له الهتاف والدعاء يقطع الطريق الموصل إلى المرسى حيث كانت سفن كثيرة تقل جرحى المصريين فتفقد أحوالهم واستفسر عن جراحهم وتمنى لهم الشفاء السريع. وكان آنى قابضاً على أعنة جياد الملك يجذبها إليه ليكبحها عن السرعة، ولكنه بالغ فى الجذب حتى حرنت ولم يهدأ ثائرها إلا بشق الأنفس. وكان رعمسيس فى خلال ذلك يشعر بأحاسيس غريبة تنتاب نفسه، فقد خيل له أنه يرى وسط المزدحمين حوله شابا توافرت فيه قرائن الشبه بالبطل الذى انقذه فى واقعة قادش عقب استغاثته بآمون، فقال محدثا نفسه لعل الجياد حرنت عندما أبصرت بهذا الإله الذى لم يكن فى الحقيقة إلا بشراً كغيره عاد من موطن القتال جريحا كما عاد كثيرون غيره. ولقد كان فى سعة الخائن الذى يقود مركبته ايقافه على جلية الخبر بعد إذ شهد بنطاؤر وسط الجموع، ولكنه لم يفعل ولن يفعل لأنه قد هاله منظره فجذب إليه الأعنة بدون إرادته لتشنج أعضائه واضمحلال قوته.

الفصل السادس عشر

المادبة الملكية.. لتنفيذ المؤامرة السياسية

كانت الشمس على وشك الأفول وقتما عاد الملك من المرسى إلى القصر الشامخ الذى أعده آنى إجلالا له وإعلانا لانتصاره. وكان جماعة المدعوين يتهافتون على البهو الفسيح المخصص للمأدبة، وقد أضىء بالأنوار المتألقة. فلما دخل رعمسيس وجلس على أريكته واصطف أبناؤه حوله على شكل الهلال أطرق الحاضرون رؤوسهم ثم مثلوا بين يديه يتبع بعضهم بعضا، فكان يقابلهم بوجه باش ويحدثهم بلطف ارتاحت له أفئدتهم وانشرحت منه صدورهم وتطابقت ألسنتهم بالشكر له والثناء عليه. وكان رعمسيس يحدث نفسه بقوله: إن أخص صفات الملوك الدعة واللين والدماثة، فإذا كان أجدادى اختاروا الثعبان رمزاً لعظمة شأن الفراعنة ومبلغهم من البطش والجبروت فلست أود أن يحمل رأسى تاجا يحتوى هذا الرمز الجائر. ثم أجال النظر فيمن حوله وقال: ارفعوا عن رأسى هذا التاج وضعوا بدلا منه أكليل ورد زاه نضير.

وفى غضون هذا الاحتفال انصرف من البهو اثنان دون أن يشعر بهما أحد، وهما الوالى آنى والكاهن أمينى. أما الأول فما كاد يبلغ إلى الباب الخارجى حتى أمر حراسه بالذهاب إلى مكان الجرحى لإحضار بنطاؤر وحجزه فى صيوانه ليتصرف كما يرى فى أمره، وكان لايزال لدى الوالى ذلك الشراب الذى جهزته الساحرة نيخت ليصيب ربان السفينة بالجنون فى الحال إذا ساغه، فحدثته نفسه أن يستعمله فراراً من بنطاؤر إذ كان يتوقع منه الأخطار والشرور.

أما أمينى فقصد إلى صديقه جاجابو ليعوده، وكان أغمى عليه لشدة القيظ فى

أثناء التشريفات الملكية. ولقد سأل عن حـاله فلما اطمأن عليه عاد أدراجه إلى القصر الملكى لحضور المأدبـة السنية، فالتقى فى طريقـه بالجنود الذين نيط بهم استـدعاء بنطاؤر، عائديـن به. وقد لفت نظره إلى الشـاعر اعتدال قده وهيبة وجهـه فوقف فى مكانه حائرا من الدهشة. أما بنطاؤر فقد عرفه وصوّت باسمه فاقبل الكاهن الأعظم عليـه وعانقـه فرحـاً بلقائه. ولقـد همّ الحراس بالتفـرقة بينهما فكـاشفهم أمينى بحقيقته وأمرهم أن يذهبوا به إلى صيوانه لا إلى صيوان الوالى مؤكدا لهم أنه يتحمل عنهم تبعة مخالفتهم أوامر الوالى. فبكى جاجابو فرحاً برؤية بنطاؤر وأمر له أمينى بثياب بيضاء فلما تدثر بها وقف نظـره عليه ثم وضع كفه على كتفه كما يفعل الأب الحنون بـولده الـذى ضل ثم اهتدى. وقـد قص بنطاؤر عليهما كل ما اتفـق له من الحوادث منذ برح مصر، وما كان من التقائه ببنت أنات ومشاركته الجنود المصرية فى واقعة قادش، إلى غير هذا من جليل الحوادث، إلا أنـه لم يفه بكلمة ما فى حبه لبنت أنات وانقاذه الملك من الأخطار والمهلكات، بل قال فى ختام حديثه: كنت منذ ساعة فى خيمتى أسرح الطرف فى الأنوار الزاهية المنبعثة من القصر، فإذا الحراس قد انسابوا فى خيمتى على غرة منى وانتزعونى منها قائلين إنهم سيذهبون بى إلى صيوان الوالى الذى لست أعلم من أمره معى غير أنه ناقم علىّ متعمد ايصال الضرر إلىّ.

فأرسل جاجـابو وأمينى كلاهما إلى الآخـر نظرة كفتهما مؤونة الكـلام، ثم قام الكـاهن الأعظم وانصرف معتذراً بقـرب ميعـاد الاحتفال وضرورة وجـوده وسط المجال وأمر الحراس بـالانصراف قائلا لهم إنه سيخبر الوالى بتعـرضه لهم ومنعه إياهم من أخذ بنطاؤر إليه. وحينما بلغ أمينى إلى القصر كان آنى منصرفا إلى إجلاس المدعوين فى الأمـاكن المعدة لهم، فاتجه نحـوه وبعد أن سلم عليه باحترام قـال: لقد تأخرت عن الميعاد المضروب فعفواً عفـواً. وسبب تأخرى أنى ألفيت بنطاؤر على قيد

الحياة فدعوته إلى النزول فى صيوانى وأن يقوم على خدمة النبى جاجابو مكانى فإن هذا النبى لايزال طريح الفراش.

امتقع وجه الوالى غيظا حينما سمع هذه الأقوال، ولكنه كظم غيظه وتكلف البشاشة فى وجه أمينى حتى لا تنكشف له نياته ثم قال: أراك مخطئاً فى سوء ظنك بى، إذ يبدو لى من كلامك اعتقادك أنى قصدت هذا الشاب بالإساءة فى حين أنى لم أطلبه إلا لأرسله إليك. قال أمينى: لا يسعنى إلا الشكر لك وطلب الصفح منك بعد إذ خرجت على إرادتك ولم أنتظر إتمام مشيئتك . ثم تركه وجلس فى المكان المعد له إلى جانب الملك.

وكان مئات العبيد فى غدو ورواح بين الموائد لتقديم الألوان الشهية ، وكانت تسير بين هذه الموائد مركبات صغيرة وُضعت عليها أوانى كبيرة من المعدنين الكريمين قد اتقن صانعوها نقشها، لتوزيع ما فيها على المدعوين. وكان فريق من الأطفال مختفين خلف أزهار النيلوفر المجسمة التصوير فى خشب سقف البهو ينثرون على المدعوين أوراق الورد والبنفسج فيزداد منظر البهو بفعلهم هذا بهاء وبهجة ، لا سيما إذا أضيف إليه تموج الأقمشة الشفافة التى علقت بأطرافها فوق الثريات والمصابيح، فكان يخيل للرائى أنها سماء لازوردية اللون تتخللها على أبعاد متفاوتة منها سحب بيضاء تسير فى الجو سيراً وئيداً. أما الروائح العطرية فكانت تحرق فى مجامر من الذهب الخالص ارتفاعها ستة أقدام موضوعة وسط البهو. وكان الموسيقيون فى مكان لاتراهم فيه العيون، يشنفون الآذان بأنغامهم المطربة وألحانهم التى تهز النفوس هزاً. وكان الملك ابن الشمس تنبعث من وجهه الأنوار السنية كما تنبعث من هذا الكوكب الدرى، وحوله إلى اليمين واليسار أبناؤه الفخام.

وكان مينا يقدم إلى الملك الشراب فى أكواب بعد أكـواب، أما نيفرت وبنت أنات فكانتا تجاه كرسيه كالبدور الطالعات.

ولطالما انصرف نظر مينا وهو فى مكانه إلى قرينته المحبوبة الأمينة التى لم يظفر منها بحديث منذ جاءت إلى هذه الأصقـاع ، فكان الملك يشعر بأنه لاهٍ بها عنه فينبهه إلى تقديم الشراب ، كما كـان فى خلال ذلك يتحف المدعـوين بأخبار الانتصـار. وقد طاب لـه فى ذلك تجنب الاختصار، فما جاء على آخـرها حتى قـال رئيس كهان عين شمس: لا غرابة أن أفاض الشعـراء فى تمجيد أعمالك والتغنى بخصالك . قال الملك: لاتقل تمجيد أعمالى ومدح خصالى بل عناية الآلهة الذين أنقذونى ببركاتهم الطيبات وأظفروا جندى بما لهم من باهر الآيات وعجيب المعجزات. سالت بنت أنات: أرأيت الإله ذاته يـا أبت، وإن رأيته فبأى شكل تجلى لناظريـك؟ أجاب رعمسيس . بدت لى ملامحه كمـلامح الوهار السـابق، أبى بعاكـر الخائن. وكان طـويل القامـة بدين الخلقة تلـوح سمات الهيبة على وجهه. وكان يحرك السـلاح فى يده برشـاقة الطفل ولباقتـه إذا تفرغ للعبته. وكان أمينى يصغى إلى الملـك وعلامات الدهش ظـاهرة فى وجهه، فلما أمسك عن الكـلام وقف وقال: لـو أن لمثلى أن يعود إلى عهـد الشباب لما عاقه عـائق عن التنويه بقدر هذا الاحتفـال ، عملا بالتقاليد القديمـة، فى خطبة بليغة أنثر دررهـا، ولا عن تمجيد معجزة آمـون وبسالة ولده فى أبيـات عامرة بـالمعانى الشريفة والألفاظ العذبـة اللطيفة كأملح شىء وأحسنه. إلا أنى لشيخوختى التمس منكم الإغضاء على ظـاهر عجزى عن السبق فى هذا الميـدان. ثم التفت إلى آنى وقال: ولما كانت الأسماع يطـربها الصوت الرخيم، وكان لا ينقص بهجـة الاحتفال سوى شاعر يشيد بذكر انتصارات مـولانا الملك بما ينظم من عقود الأشعار وينشد منها بين يديـه الكريمتين وفى حضرته العليـة بصوتـه الرخيم ونبراته البلبليـة، فماذا لو

استدعينا الشاعر بنطاؤر الذى أفاضت الآلهة عليه المواهب ، وهو الآن قريب من هذا المكان وحضوره فى حيز الامكان؟

مـا طـرق اسـم بنطـاؤر سمع بنت أنـات حتى عـرتها هــزة الـدهش والحيرة والاضطراب، ولم يتمالك الكهـان - الذين آلم قلوبهم وفتّ فى عضدهم نبأ فقـد هذا الشاعر الكريم الذى كان نـابغة الشعر وبدر الشعراء الطالع فى سمائهم- أن انجلت كروبهم وثلجت صدورهم حين علموا أنه مـازال حيا يرزق وأنهم لسوف يمتعون برؤيتـه أبصارهم ويهذبون بسمو ابتكـاراته أفكارهم. وما هى إلا دقـائق معدودة حتى مثل الشاعر بين أيـدى الملك والمدعوين وأنشد أشعاراً حماسيـة بليغة المعانى وصف فيها زحف الملك رعمسيس وجنوده على مدينة قادش حيث قال:

«نهض حضرة الملك وهو فى غاية الصـحة واعتدال المزاج، ونهاية القوة والابتهاج، كأنــه المعبـود منث آخذا عـدة الحرب فى الحال، ومتهيئـاً للضرب والنـزال، فأرسل مركبته فى صفوف الأعداء الأنذال، ليوردهم موارد النكال، فهجم على بنى الخيتاس منفرداً بنفســه، ولم يتقدم معــه أحد من أبنـاء جنسه، واقتحـم المعركـة وحده أى اقتحام ، بمشهد من جميع الأتباع والخدام، وقد أحــاط به ألفان وخمسمائة مركبة حربية، لأبطال الخيتاس وذوى العصبية، من القبائل المتكاثرة، والعشائر المتظاهرة، وهم (أرادوس) و (ماز) و (بتـاسا) و (كشكـاش) و (أليون) و (جاز) و (نـاتان) و(شيروت) و (اكتور) وغيرهـم. وكان على كل مـركبة ثـلاثة محاربين، بـالسلاح مدججين وبعدة القتال مـؤهبين، ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته، ولا من قواد جنده ولا من أمراء دولته، بل ولا من عساكر المركبات وجند الرماة، فتوجه إلى معبـوده واستغـاث بمولاه، قـائلا: تـركنى وحـدى بـوسط الميـدان جند الـرمـاة

والفرســان، ولم يبقَ معى من يشد أزرى ويعضــد ظهرى ، فماذا يريـد بى مولاى آمــون؟ فهل أنا ولـد عاق، وللعقــوبة أهل استحقــاق ، مع أنى لمولاى سميع مطيع، أصدع بالأمر على قدر ما أستطيع ، وأقوم بحقوق المشاعر، وإظهار الشعائر، وأملا بيوت العبـادة من غنائم الأعداء الغـادرين، وأتقرب إلى المعبـود بما لا يُـحصى من القرابين، وقد أنفقت فى تشييد المعابد المبالغ الفادحة، وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة، وأقمت الهياكل الجسيمة، واقتطعت لها الأحجار العظيمة، وغرست فى المعابد الأشجار المخلدة، ونـذرتها لتكون مآثر مؤبدة، وأحضرت للمولى المعبـود من جزيـرة أسوان أحجـار المسلات البـاقية على مـدى الأزمان، وأجـريت السفن فى البحـار الزاخرة، لجلب غنـائم الملل إلى الهياكل الفـاخرة، فأبتهل إليـك يا مـولاى وبك أستعين، وأنا بين مـن لا أعرف من قـوم كثيرين، بل وأنـا فى حضرتك وحدى، وقـد انفض من حولى جندى، تـركنى عساكر الـرماة، وفرّ عنى الفـرسان الكماة، وقد دعـوتهم فما أجابونى، واستغثت بهم فما أغـاثونى، وأنت أولى بى من الجنود الرماة والفرسان، وأحق بنصرتى من الأبطال والفتيان، فانصرنى على العدد الكثير والجم الغفير، ولو كان بعضـهم لبعض ظهيراً».

ثم أجاب الشاعـر فى قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبى دعـاه وقبل رجاه، فقال : «سمعنا يا رعمسيس نداك، وقرع آذاننا من هرمونتيس صداك، فها أنا منك قريب، ولك نعم الأب ونعم المجيب، وأنـا الشمس آخذ بيـدك، وأقوم بسعـدك، خير لك من الآلاف العديـدين، من الناس ولو جـاءوا مجتمعين، ومتى كنت بين مركبـات القوم ولـو كـانت ألفين وخمسمائة تفـرقوا منهـزمين، وراحـوا تحت سنـابك أفـراسك منكسرين، وضـعفت قلــوب أعـدائك بين جــوانحهم، واسترخت أعضــاؤهم بين جــوانبهـم، فـلا يـرمـــون بها سهما ولا يهزون رمحاً، وسأغـرقهـم فى الماء فـلا

يستطيعون سبحاً، ويقعون فلا يقومون نهضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، ولقد تعلقت ارادتي بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه، ومن سقط فلا يسود، ومن هوى فلا يعود».

ثم قال الشاعر على لسان سائس ركاب الملك: «يا سيدى العظيم، وملكى الكريم، وحامى مصر يوم النزال، لقد بقينا بين صفوف الأعداء فى وسط القتال، فمهلا مهلا والنجاة والنجاة! وياليت شعرى يا سيدى الأجل، ماذا يكون العمل؟» . قال الشاعر فأجابه الملك: «اشدد عزمك، وقوّ قلبك ، فإنى سألقاهم وأحمل عليهم كما يحمل الصقر العلوى على غنيمته، فأخذلهم وأقتلهم حتى يُلقوا فى التراب». قال سائس الركاب:« فأرسل رعمسيس عليهم حينئذ مركبته وحمل عليهم ست مرات متواليات فقهر رجالهم، وخذل فى كل مرة أبطالهم ، واجتمع حوله من لم يشهد الواقعة من قواد عساكره وفرسانه، وانصرف كل منهم فضمهم حوله، وجمع بهم شمله، وقال لهم لقد احتد عليكم قلبى، واشتد عليكم غضبى، هل منكم من أدى حق وطنه، وحمى حما بلده؟ لو لم يقم مولاكم هذا المقام، لأدرككم الحمام، بل قعدتم فى مساكنكم وتخلفتم عن قلاعكم ومحاصنكم، ولم ترسلوا لجندى خبرا، ولا أوردتم عندى من أحوالكم أثرا، وإنما أرسلت كل واحد منكم فى قلعته، وأوليته بولايته، موصيا أن يرتقب وقت الجهاد، وأن لا يتأخر عن النزال والجلاد، وها أنتم جميعاً أخطأتم، ولأوطانكم قد أسأتم، ولقد اقترف جنودى وفرسانى أكبر الآثام، إذ تركونى يحيط بى الطغام، وإن إثمهم لأكبر من أن يُنعت ولكنى أبديت شجاعتى ، وأظهرت جرأتى ، وما أسعفنى أحد من العساكر الرماة، ولا الفرسان الكماة، بل أخلى العالم بتمامه الطريق لبطشة عضدى، وكنت وحيداً لم يأخذ أحد بيدى».

ثم وصف بنطاؤر ميدان القتال وقتما عادت جنود الملك إليه بعد الهرب فقال:

«ثم آبوا فـوجدوا وجه الأرض حيث ساروا مجلـلا بالرمم، مغموراً بـالدم، ولكثرة القتلى به كان لا يوجد فيه موضـع لقدم، فخاطبوا حضرة الملك بقولـهم: – أيها البطل الباسل والسيـد المقاتل، وصاحب القلب ذى الصـبر والثبـات، لقد أغنيت بنفسك عن جميع الفـرسان والرمـاة. وبما أنك ابن الإله تـوم ومن صلبه فقـد محوت بسيف الانتصار ، قطر طائفة الخيتاس من بين الأقطار، وإنما أنت رب العظمة، وملك القهر والغلبة، ولا اتفق لك نظير من سلطان ، قام بـدلا من جنوده بأعباءالحرب والطعان. فـلا غـرو أيها الملك ذو القلب الكبير إذا كنت أنت حيث التقى الجمعـان أول مبـارز، وكنت أمـام جندك أول بـارز، والعالم بأجمعـه ينظر إليك. إذ تعصب كلـه عليك».
فأجـابهم الملك بقولـه: « لقد أخطأتم جميعـاً خطأ شديـداً، إذ أنكم تركتمـونى بين الأعـداء فريـداً، فـلا أخذ بيـدى عشير، ولا أسعفنى أمير، ولا قـام بناصرى مطلقـاً نصـير، بل هزمت الأحزاب من كل الملل وحـدى ، وقاتلت دون جندى، وكان يحملنى كل من الجوادين المدعـو أحدهما بـالعظمـة فى الصعيد، والآخـر بالسعـادة فى الملأ الأعلى، ولم تجد يدى سواهما حين أحـاط بى الأعداء، فاكرمـوهما واعلفوهما بجيد الحب فى حضرة الإله (فرا) كلما آويت إلى قصورى المشيـدة، ذات الأعمدة العديدة.
قال الشـاعـر: «فلما أصبح الصباح، وأشرق الفجر فى اليوم الثـانى وبنوره لاح، عاد الملك رعمسيس إلى القتال ، ورجـع على الأعداء بالصيـال ، كأنه ثـور نزل على أوز، وعاد الشجعـان من أصحابه للمجـد والعز، فانقضـوا معه على العدو فى معـركته ، كالصقر ظفر بفريسته ، وقاتل معـه الأسد الكبير، الذى كان يسير إلى جنب جواديه فاشتعلت جميع جـوارحه غضبـاً، وصـار كل من دنـا منه سقط على الأرض ملقى، وظفر الملك بـالأعداء، وقتلهم جميعـاً فلم يترك منهم أحداً، وداسهم بسنـابك الخيل حتى اندرست منهم الرمم، وتعجنت فى الدم، وصـارت كلها قطعة واحدة، لم تلبث ان صـارت جامدة خامدة».

ومـا أتى الشاعـر على آخـر قصيدتـه حتى بهت الحاضرون ولـزموا السكـوت والسكون. وكـان رعمسيس لا يفتر عن النظر إلى بنطاؤر. كأن نفسه كـانت تحدثه بتوافر الشبه بين صورته وصـورة المبعوث الإلهى الذى نصره فى واقعة قادش على أعدائه وقد حدق فيه النظر حتى انتهـت به الحال إلى الاعتقاد بأن ذاك الذى يراه هو الذى أنقذه من مخالـب الموت ووقاه شر الوقوع بأيدى الأعـداء، ولولا ذلك لما وقف على نص الدعاء الـذى كان يستنجد به الإله آمون. ولقد أنس مـن نفسه ميلا إليه لم يتمالك معـه من الوقـوف أمـام عرشـه إذ قال للمـدعـوين: إن هذا الـرجل لحقيق بالاحترام والتبجيل فاحترموه وارفعوا قدره، لأن الألوهية تجلت فى صورته لنجدة مليككم حين أحاط بـه الألوف من الأعداء. فصاح الحاضرون بصـوت واحد: المجد والفخر لبنطاؤر.

وقد أثر هـذا المنظر فى نفس نيفرت تأثيراً جعلها تقصد إلى مكان الشـاعر- وقد اكتسى وجهها النضير بحمـرة الخجل- وتقدم إليـه باقة ورد كـانت وضعتها بين نهديها الـرمـانيين. فطـرب رعمسيس لهذا العطف ثم التفت إلى بنت أنـات بعين المستفهم عن هذا السر، فنظرت إليه ثم قصدت إلى مكان بنطاؤر فكللت رأسه بأكليل من الـزهـور. فأعجب الملك بفعلهـا وصفق الحاضرون بأيـديهم استحسـانـا، واسترسلوا فى التصفيق زمانـاً. وكانت أنظارهم متجهة نحـو الملك وابنته وبنطاؤر وظلـوا كذلك حتى قـال رعمسيس: لقـد انتصف الليل فلينصرف كل منكم إلى حيث يريد، وموعدنا فى الغد هنا.. فلا تنس هذا يا بنطاؤر. ولكن لنشرب قبل الانصراف فى سر السلام والأمن، ولنشكـر لآنى حفاوته بنـا ومبالغته فى إكـرامنا، وإنى لأحمده حمداً خاصاً على غيرته وأمانته فى إدارة شؤون رعيتى مدة غيبتى .

وهنا سار الملك يتقدمه آنى مرشداً وانصرف الحاضرون. وما استطاع مينا أن يحظى بمقابلة نيفرت إلا دقائق معدودة تبادل معها فيها عبارات الشوق والوجد. وكانت الأميرة أذنت لها بالمبيت عند والدتها راتوتى. أما رعمسيس فبقى بعد أن صرف رجال حاشيته فى خلوة مع ابنته. وقد سألها: فيم كنت تفكرين وقتما وضعت أكليل الزهور على رأس بنطاؤر؟ قالت بصوت واضح وعبارة صريحة: وفيم يا والدى فكر بنات مصر إذا فعلن مثل هذا؟ قال رعمسيس: ألا تحسبين حساباً لوالدك؟ قالت: إن والدى يعلم أننى خاضعة لأمره ولو كان فى الخضوع حرمانى من السعادة، ولكننى أعتقد أيضاً أنك تحب لى الخير والهناءة، ولن أنسى ما حييت تلك الساعة التى كانت والدتى المرحومة فيها على فراش الموت فوعدتنى باستطلاع أفكارى واستكناه مكنون أسرارى، كما كان هذا شأنها معى فى جميع أحوالى وأطوارى. ثم ما فائدة الإسهاب وأنا لم أعشق بنطاؤر منذ أيام، بل إن زمام قلبى بيده قبل اجتماعنا بهذا المكان. ولقد رأيت أنه بما أبداه من جليل الفعال جدير بأن يرقى إلى أقصى درجات الشرف والكمال. وهب أنه وضيع الأصل وحقير الشأن، أفلم يكن خليقاً بشرف القربى من أميرة هى سلالة أعظم الملوك وجديرا بأن يسمو بفضائله إلى أسنى المراتب وأبعد الغايات؟ قال الملك: نعم لم أنس الوعد الذى تذكرينني به فافعلى ما شئت وتصرفى بشؤونك على ما تشتهين. ولقد عهدت فيك من الصراحة فى القول والفعل ما يحملنى على الثقة بك والاعتماد عليك وإحلالك من نفسى منزلة والدتك منها، والدتك التى كثيراً ما سمعت قولها إن المرأة الصادقة أهدى إلى الصواب من الرجل مع ما اختُص به الرجال دون النساء من الفضائل والمزايا. فاذهبى الآن يا ابنتى العزيزة لالتماس الراحة من العناء وابحثى عن أكليل جديد يزين رأسك ويظهر بأسك.

الفصل السابع عشر

ما يدبر فى الظلام.. من الجرائم والآثام

فى السهول المحيطة ببيلوز نُصبت خيام وسرادقات ناصعة البياض يظنها الرائى- وقد طرحت الكواكب عليها أشعتها الباهتة المريضة- كثبان رمل فى الفلوات الصحراوية وآكام برد فى المناطق الثلجية. وكان النازلون فى هذه الخيام والسرادقات فى ابتهاج وازدحام لا تشوبهما أكدار ولا آلام، لأنهم جلسوا للشراب من النبيذ العتيق الذى جيء به إليهم فى ثلاث قرب وُضعت على ثلاث مركبات زُينت بالأزهار تجرها عشرة من عجول البقر، وأصابوا منه كثيراً دون أن يكتفوا فثملوا وترنحت أعطافهم وطاشت أحلامهم. وكان بعضهم يتهافتون على الموائد التى مُدت برسمهم فى أماكن معينة من تلك السهول الفسيحة فيتناولون ما لذّ لهم وطاب من الطعام والشراب.

وكانت خيام الجند مضروبة حول الحديقة التى أقيم بوسطها القصر الملكى، وكان سرادق آنى بينهما يمتاز بارتفاعه وانفساح جوانبه وجمال رونقه وحسن نظامه. وكان إلى اليمين منه الأمكنة الخاصة بإقامة وفود مدارس الكهنة، وإلى اليسار رجال حاشية الوالى وراتوتى خالة بعاكر تختال فى مطارف العز والجلال. وكانت نيخت العجوز خلف السرادق لا يفصلها عنه سوى ستار رقيق. وكان آنى قد أخذها معه فى سفينته وقتما حضر إلى مصر دون أن يُعلم بأمرها أحدا سوى راتوتى وبعض من يثق بأمانتهم من الخدم.

وكانت العجوز فى أثناء الاحتفال قاعدة القرفصاء بالمكان المعين لها تعانى المشاق والإجهاد فى استنشاق الهواء، لما أصابها فى صدرها من الداء. وكانت تستضيء

بمشكاة مـن الفخار الأحمر وعلى مقربـة منها الصقـر المريض، وقد غشيـت عينيه سحـابة بيضـاء. وكـان كلما حملتـه العجوز بين يـديها الجافتين لتنفخ فى منقـاره الأحدب ارتفع حاجباه وانتشر جناحاه، كما لو كان يتأهب لمنازلة جارح آخر أراد به سوءا. وكان الطفل شراعو على مقربة منها غارقـا فى نومه، وقد رأته فى هذا الوضـع فـدفعته بـرجلها قـائلة: قم من نـومك أيها الخبيث. فهبّ المسكين من نومـه فزعـاً وانتصب على قدميـه وهو يتداعى للسقوط لغلبـة النعاس عليه، فقـالت له: يخيل لى أننى أسمع صياح امرأة منبعثاً من صيـوان آنى، فاسترق السمع وقل لى إذا كان ما خيل لى حقيقة. أجاب: إننى أسمع صياحاً يشبه أن يكون أنينا، وأسمع صياحا آخر من خيمة نيمو. قالت: انطلق إلى هناك ولايـدرين بك أحد ثم عد سريعاً واخبرنى بما رأيت.

انطلق شراعو مهرولا بينما كان الصقر فى يديها تحوطه بعنايتها لأن الضعف قد استمكن منه فأخذ يميد يمنة ويسرة، إلا أنه كان بالرغم من ضعفه وتضعضعه يمد عنقه إلى يـدها ويرفع منقـاره يذود عن نفسه كلما بـدت حركة منهـا تقصد بها إلى معالجة أمـره. ولقد أيقنت العجـوز أن لا أمل فى استنقاذه من خطـر الهلاك، فقالت بصـوت خافت: هـذا الطـائر لا محالة هـالك بعد قليـل، أما الطـائر الذى أسميتـه رعمسيس فإنه يـزداد فى كل ساعة قـوة وشبابا.. نعم إن قـوة هذا وضعف ذاك لا يـدلان على شىء ما فى المستقبل من أمـر الملك والـوالى آنى، فإن الاعتقاد بمثل هـذه الخرافات ضرب من الهوس والجنون. ولكن من يدرى ماذا تكون العاقبة؟ ألا يجوز أن يفضى التفاؤل بخير أو شر فى أمر ما إلى الاعتقاد أحياناً بصحته.. رأيت الوالى قد ركب متن الخطر وزج بنفسه فى مأزق الشر والضرر، مع أنه سيعود بصفقة المغبون كما يدل عليه ضعف جناحى هذا الصقر المسكين وارتخاء أعضائه وانكباب رأسه..

ها هو قد تدلى.. ها هو قد مات. طرحت العجوز الطائر ميتاً في حجرها ثم ألقت به إلى أحد أركـان خيمتها ووجهت كلامهـا إليه كما لو كـان الوالى آنى بعينه: أسـعـد الله مساءك يـا آنى .. لقد عدت من آمـالك فى وضـع التاج على مفرقك بـالخيبة والفشل، وتبين مـا بنيت عليـه آراءك من الخطأ والخطـل. ثم سكتت هنيهـة وقـالت بكلمات متقطعـة: وماذا عسـى يا ربى أن يقع بعـد الآن من الحوادث؟ إن الـرجل الحف فى سؤالى أيقترن سعيه بالفلاح. وكان نيمو ينقل إلىّ أخباراً جعلتنى أعتقد بقرب وقوع حوادث كثيرة خطيرة لم يكشف لى عن مكنون سرهـا، ولكننى أخذت منها أن القوم يدسون لى الآن الدسائس وينسجـون من التدابير ما أخشى منه على نفسى.. آه! ها قد عاودنى الحزن والألم.

ثم رفعت يـدها إلى قلبهـا وسقطت على الارض مغشياً عليهـا ولبثت غائبـة عن الصواب سـاعة من الـزمن. فلما أفاقت من غشيتهـا أحست كأن قطرات مـاء بارد تجرى فى عروقهـا، فقالت: لـو أننى ربيت صقراً آخـر لاستطلع من حالـه مستقبل أمـرى لسار الآن فى أثـر أخيه. ثـم من يدرينى أيفى آنى بـوعـده الذى وعـدنى من تحنيط جثتى بعد ممـاتى! ولكن كيف يستطيع الوفاء وهو ذاتـه سائر إلى الهلاك.. ستُترك جثتى معـرضـة إذن لعوالم الفسـاد والفنـاء دون أن أحظى بنعيم الحيـاة الآخرة. أو أظفر بما أشتهيه من اللقاء بمحبـوبى آسا الذى لن أنساه ما خفق لى قلب فى صدرى.

قالت هذا ثم لزمت الصمت هنيهة استأنفت بعـدها مناجاة نفسها ليس الموت فى الحقيقة سوى واسطة للخلاص من آلام ذكرى الحوادث الغابرة وسبيلا إلى الحياة الخالدة التى لست أيأس من الفـوز بها! نعم لا يليق اليأس بمثلى فإن الموتى جميعاً

–على تفاوتهم فى الدرجات– لا مناص من محاسبتهم على أعمالهم فى الحياة الدنيا بمقتضى القوانين الإلهية التى لا ينبغى لنا التطلع لاستبطان أسرارها واستكشاف أسبابها. فأين يا ترى أجد محبوبى العزيز الذى أحرق بنار الحب مهجتى؟ أفى الجنة بين البررة المقربين أم فى الجحيم بين المعذبين؟ أما أنا فسواء عندى أفى السعير وجدته أم فى رياض الجنان رأيته، مادامت غايتى اللقاء به والتملى بمشاهدته، وليس لهذا أم ذاك من ذريعة إلا تحنيط جثتى بعد الوفاة وصونها من الفساد والفناء.

وفى هذه الأثناء كان شراعو أبلغ إلى نيمو ما صارت العجوز إليه من تضعضع القوى والإشراف على الموت. فلما دخل عليها لتفقد أحوالها ووقع نظرها عليه تنفست الصعداء وقالت:إنك أحسنت بحضورك فى هذه الساعة، فقد حان يا بنى أجلى. ولا تغرب شمس اليوم حتى ألفظ النفس الأخير. فجزع نيمو وصاح قائلا: كيف هذا يا والدتى؟ أتموتين! كلا، بل يجب أن تبقى على قيد الحياة لتنعمى– بعد انقضاء حوادث اليوم– بلذة العيش وتفوزى بجزيل العطايا والمنن. قالت العجوز: أما حوادث اليوم التى تشير إليها فقد وقفت على ظواهرها وبواطنها. ثم أوعزت إلى شراعو بالانصراف وسألت نيمو أن يذيع لها ما كان كاتما من تدابير تُتخذ وفخاخ تُنصب. فدنا القزم منها وقال: إن القصر الذى سيقضى الملك فيه الليل بُنى من الخشب وقد وُضع القصل والقار فى جدرانه حتى إذا نام أشعلنا النار فيصبح القصر وليس به أنيس ولا ديار، أما الحراس فهم الآن بين موت وحياة لكثرة ما شربوا من النبيذ الذى نهب عقولهم وسلب شعورهم. قالت العجوز: لقد بلغت الغاية فى سبك الحيل، لكن لا أتوسم فيك الجرأة والإقدام على تنفيذها مادمت تجهل إذا كان قد اتصل بالملك سر المؤامرة عليه أم لا، أو سيشاركك فى ذلك رفقة توافرت فيهم صفات الشجاعة واقتحام الأخطار. قال القزم: لايدرى بدخيلة هذه المؤامرة غيرى

وراتوتى وبعاكر. وقد اتفقنا جميعاً على إضرام النار فى وقت واحد بجهات معينة. أما الجهة التى أخذت على عهدتى إضرامها بها فهى الحجرة الخاصة ببنت أنات. وقد تعهدت راتوتى بإحراق السلم المتصل بأداة إذا حركت سقط السلم ولم يعد الصعود فيه ولا النزول منه ممكنين. أما بعاكر فتعهد بإشعال النار فى حجرة الملك رعمسيس. قالت العجوز: حسن كل هذا، ولكن من المرأة التى كان صوت استغاثتها قبل حضورك بقليل يدوى فى الفضاء؟ فتردد القزم فى الجواب فقالت: تكلم ولا تخش شيئاً من عجوز مثلى ستحمل هذا السر معها إلى القبر. أجاب نيمو: التقيت فى الطريق بحفيدة المحنط بينم فجئت بها إلى خيمتى معللا النفس بزواجها متى استوى آنى على عرش الملك واعتنقتنى راتوتى من رقها وكافأتنى على إخلاصى فى خدمتها. والظاهر أنها كانت فى حاشية الأميرة بنت أنات، وكان مقرراً أن تقضى الليلة معها فى حجرتها. فساقتها الأقدار إلىّ حتى لا يصيبها ما سيصيب غيرها من الموت بعذاب النار. وكانت تريد منى أن أطلق سراحها كى تعود إلى القصر فلم أجبها إلى طلبها، ورأيت أن إنقاذها من الحريق فرض محتوم علىّ. وقد ألحفت فى الطلب فلم أرَ بدًا فى اخضاعها لإرداتى من شد وثاقها بحبل متين. سألته العجوز: وهل سكتت ولم تقاومك؟ أجاب: كيف لا وقد كانت تتقلب فى يدى كمن يتقلب على الجمر ولم تمنعنى هذه المقاومة العنيفة من التغلب عليها بمساعدة الأخرس خادم الوالى الذى أمره مولاه بمساعدتى. ولما علا صراخها حتى ملأ الجو وخفت العاقبة سددت فمها بقطعة خشب فلم تستطع الصياح. سألته العجوز: وإذا ذهبت فى تنفيذ مكيدتك، فهل تتركها وحدها في خيمتك؟ قال: نعم لأن والدها معها. قالت العجوز دهشة: والدها رشتا ذو اللحية الصفراء!. وكيف لم يحطم عظامك كما يحطم قدر الفخار وقد رآك تسىء إلى ابنته؟ قال نيمو ضاحكا: والدها لا يستطيع حراكا لأنى كنت

التقيت بـه فى المعسكر فأعطيتـه من نبيـذ آنى قدراً وافيـاً أضــاع رشده فهـوى إلى الأرض جامـدا كالمومياء. وهـو الذى أطلعنى على مكـان وردة فأسرعت من فورى إليها ومازلت بها حتى أحضرتها إلى خيمتى بحجة أن والدها مريض وأنه رجا منى استدعاءها ليخفف عن نفسه الألم بـالنظر إليها، فما سمعت هذا القول حتى اقتفت أثرى وحين رأت أن والـدها قد فقـد صوابه جثـت على ركبيتها أمامـه ثم طلبت ماء لتنضح به جبينـه بعد اذ ظهـر لها أنه أصيب بحمى شديـدة وسمعته يلهج بـذكر جرذان كان يقول إنها أحدقت به وحملت عليه. وقد لحظت بعد ذ لك أن الوقت أزف وأنه لابد من العودة إلى القصر الذى فيه بنت أنات، فلما أبت البقاء عندى التجأت إلى العنف فى إلـزامها على البقاء، ولـو دريت يا أمـاه ما أصبحت عليـه الآن من الجمال الباهـر والحسن الزاهـر! قالت العجـوز: نعم جمال باهر وحسـن زاهر! ولكنك إذا اتخذتها حليلة لك ستضطـر إلى اذكاء العيون عليهـا لأن الجمال مرعى. قـال نيمو: اعلمى أنى سأعـاملها بما يعـامل الأمـراء والكبراء به نسـاءهم فأرصد لخدمتهـا الخاصــة بعض الجوارى الحسان.. أتـرى راتوتى قـد عادت مع نيفـرت؟ إنى أرى الكواكب تهوى قليـلا قليلا، وعما قليل يتم الحادث الجلل الذى اتفقنـا على أن تكون إشارة الشروع بتنفيذه أن تصفّـر سيدتى ثلاث مرات فتهم عنـدئذ بوضع النار فى الأماكن المعينـة. وأذكر يا أماه أن عندك علبـة ثقاب فاعطنيها فإنها أجـود من ثقاب علبتى. قالت العجـوز: خذها فلست بحـاجة إليهـا بعد أن فرغ نصيبى من الـدنيا. ولكن قل لى مالى أرى يـديك تضطربان. دع الجبن والكعـاعة وخذ العلبـة بقوة وإلا تناثرت ثقابها قبل أن تضرم النار بها. فـودعها نيمو بعبارات تشف عن العطف فلم تبد منها حركة ولم تنبس شفتاها بكلمة، فلما غاب عن نظرها وقف وقد ظهر القلق على وجههـا وأنصتت لتسمع صفير راتوتـى وكانت عينـاهـا تلمعان وسـاورتها

الهواجس ، فلما سمعت للمرة الثـانية من صفير راتوتى المنبعث من صفـارة فضة قالت تحدث نفسها: ما أشنع فعلتكم أيها الأغبياء الأدنياء، فبعاكر منكم عنوان الشر ونذيـر السوء وراتوتى صـاحبة الصلف والخيـلاء ونيمو مصدر المكـائد وينبوع الحيل. ولكنكم لن تستطيعوا أن تمسـوا رعمسيس بأذى ولو فى أضغـاث الأحلام . إن صقـر آنى قد مـات فلا أمـل إذن له فى تحقيق أمنيتـه كما لا رجاء لى فى قضـائه غايتى، ولكن لو رام رعمسيس.

ثم تناولت قنينـة وسكينا وسارت مستندة إلى عكاز ومتعثـرة فى أذيالها ، حتى بلغت إلى خيمـة نيمو، وكـانت الآفـاق تردد دوى الصفير الثـالث. فلما وصلت إلى الخيمة وجدت بها وردة مطـروحة أرضا وموثقـة الأكتاف ورشتا فاقـدا الشعور. وكانت وردة ترتعد فرائصها وشراعو ممدودا عند قدميها كالكلب الأمين، فلما رأى العجوز مقبلة عليهما بسط يديه بالضراعة أن تنقذهما. أما هى فقد ألقت السكين إلى الطفل وأمرته أن يقطع الحبل الذى شُد بـه وثاق وردة، وكان حبلا متينا مضفورا بألياف ورق البردى.

وبينما كان شراعو يعالج قطع الحبل بالسكين كانت العجوز تدلك صدغى رشتا بالخلاصـة التى فى القنينة ثم قطـرت نقطتين منها بين شفتيـه، فما هى إلا غمضة الطرف حتى أفاق الرجل من غشيته وأجال النظـر فيما حوله دهشاً حائرا. فقدمت العجوز إليه ماء وألحت عليه أن يشربه وقالت لوردة التى نشطت من عقالها ووقفت على قدميها: اعلمى أيتها الأيكة البيضاء أن الآلهة قد بعثتك هنا لأداء مهمة جليلة.. إن الملك وأولاده قد دُبـرت التدابير لاغتيالهم ، ولى شـوق إلى إنقاذهم ممـا أوشكوا أن يقعـوا فيـه، غير راغبة فى جـزاء إلا أن تحنَّط جثتى وتُـدفن فى طيبـة. أفتقسمين لى

لتبلغن إلى الملك هذه الوصية؟ قالت وردة: أناشـدك الآلهة ما الخطر الذى تتوقعينه؟ قالت العجـوز: خذى على نفسك عهـد الآلهة وميثاقهم أن تتعهـدى قبرى بالعنـاية. قـالت وردة: أقسم لك بالآلهة وبحيـاتى لئن مت لأتعهدن قبرك، ولكن أى مصـاب يتهددنـا الآن؟ أجابـت نيخت: إن راتوتى وبعـاكر ونيمـو تآمـروا على إضرام النار بقصر فرعـون فى ثلاث جهـات منه، فعليك يا رشتـا باقتفـاء أثرهم وبـادر بإيقاظ الحراس وعجّل بإنقاذ الملك من الهلاك. قالت وردة لوالدها: هلم بنا يا والدى نتلافى الخطر وإلا وقع بنا السـوء والضرر. قالت هذا وأخذت تـركض خلف أبيها. وبينما كانـت تمعن فى الركض كـانت العجوز تشيعهما بنظرات العطـف والحنان وتحدث نفسها: إن وردة صـادقة الـوعد وأهل لحفظ العهـد. ثم همت بالعـودة إلى خيمتها فخانتها قواها ولم تستطع نقل قـدميها. ولم يكن شراعو الصغير لضعفه بقادر على مسـاعدتها، فسقطت على الثـرى، والتفتت إلى القصر فإذا بشعـاع يسطع فى السماء بين حين وآخر كأنه لمع البرق الخاطف ثم ازداد تألقه وتصاعدت بعده سحب دخان كثيفـة اشتدت بها حلكـة الظلام. ومـا هو إلا مـرّ الطيف حتى اندلع لسـان اللهيب وتطـايـر الشرر فى جميع الأرجـاء. فلما رأت العجوز هـذا المنظـر المخيف صـاحت بشراعو أن يجرى إلى المعسكر ويوقظ النائمين. فأخذ يعدو صائحا بملء فيه: النار! النار! وقد أحست نيخت فى أثناء ذلك ألما أحرج صدرها وضيّق أنفاسها فرفعت يدها إلى قلبها وتشنجت شفتاها، وكانت آخـر جملة فاهت بها قبل أن تفيض روحها: إلى الملتقى فى العالم العلوى يا آسا!.

الفصل الثامن عشر

النار! النار! وما وقع بالقصر من الدمار والاندثار

كانت راتـوتى أخفت بعاكـر فى خيمة بعض الخدم كيـلا ينكشف أمره ويفتضح سره. ومـا تمكن هـذا الشـاب السـاقط الهمـة من العـودة إلى مصر إلا بشق النفس واستنباط الحيل. فإنـه بعد معركة قـادش التى أصيب فيها بالجراح الفادحـة أخذ يتلمس الطريق فى الآجام الكثيفة والغابات المظلمة حتى وفقته المصادفة لمقابلة فلاح سورى يقود حمارا فاشتراه منه ثم امتطاه وطـار به من سبل لايعرفها سواه وظل يواصل السير إلى أن بلغ إلى المغارة التى كان الشاعر بنطاؤر أرشد إليها والد وردة، فوجد بها تـابعه الحبشى الأمين الذى أقام على خدمته والعنـاية بشأنه حتى أصبح بحيث يستطيع السفر إلى مصر. وقد قصد إليها فعلا فوصل إلى بيلوز متنكرا بلباس حداة الابل ولم يستصحب الحبشى، بل تـركه فى سوريا حتى لايشى بـه فتمتد يد الانتقام إليه. ولما دنا من الحدود بين سوريا ومصر[1] وُجهت إليه أسئلة عن حقيقة شأنه وعن سبب حضـوره وعما إذا لم يلتقِ فى طريقـه ببعاكر الخائن لـوطنه أو لم يسمع عنه خبرا. وأخذ السائلون –وهم حفظة الحدود وحراسها –يصفونه له بأنه عريض الأكتاف قوى الأساطين بـدين الجسم ظاهر الصلف، ولم يخطر قط ببالهم أنه هو بعينـه الذى يجاوبهم عن أسئلتهم، وكان لهم فى ذلك عـذر. وقد تنكر فى زى جمّال أعور ووخطـه الشيب وأنهك قواه التعب لاسيما مع تحيلـه على بشرته إذ غير لونها بعقاقير اشتراها من طبيب وطلى بها جسمه فأصبح أسود فاحما لا فرق بينه وبين الزنوج.

(١) كان على طول الخط الفـاصل للحدود المصرية من حدود الشـام بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر حصـون متعاقبـة تكاد يتـلاصق بعضها ببعض لحمايـة مصر من غـارات عرب الشاسو وكانت هى العلامة على خط الحدود.

وكان آنى وراتوتى قد وصلا إلى بيلوز حينما وافاها بعاكر متنكراً بذلك الزى يستجدى الناس إحسانهم، وحاملا بيده سعفة نخل. واتفق أن أبصر بخالته راتوتى فدنا منها مستجديا فاثر منظره الرث الحقير فى نفسها بما حملها على إسدائه البر. وقد سألته عن أصله وسبب جراحه والصناعة التى يزاولها واظهرت الاهتمام بأمره عملا بخطة عقدت العزيمة على اتباعها وهى استمالة الفقراء للاستعانة بهم عند مسيس الحاجة. فجاوبها عما وجهت من أسئلة، وكانت تتلقى بيانه بتكلف الشفقة والرفق ولكنها تعذرت عليها معرفته بصوته، فلما كان اليوم التالى عاد إليها ليعرّفها بنفسه. وقد كان، فلم تتمالك عندئذ أن أظهرت الدهش من تغير حاله وانقلاب سحنته. وكان آنى قد أصدر منشوراً ينذر فيه بعقوبة الإعدام كل من اهتدى إلى بعاكر ولم يقبض عليه ليسلمه إلى رجال الحكومة. ومع هذا فإن راتوتى قد رضيت بهذا الخائن فى خدمتها غير مقدرة لمخالفة ذلك الأمر عاقبة. وليس غريبا أن لاتعبأ راتوتى بالأوامر والمنشورات الرسمية لأنها كانت بحاجة شديدة إلى بعاكر ألد خصوم رعمسيس ومينا سائس ركابه. وكان ذلك الخائن على ما أصابه من العور ونزل به من المحن يجتهد فى مجانبة الخدم، لأن رذيلة الكبرياء فى طبعه لم يقهرها وازع المصيبة، فأراد مغالبة سنة الدهر فى الخلق بأن يكون بعد أفول نجمه كما كان فى أيام عزه وبأسه. وكان ما امتلأ صدره به من الأحقاد والسخائم قد محا من فؤاده عاطفة الحب فلم يعد يفكر فى نيفرت. وهو إن أفسح صدره للأحقاد ولم يمت بها فما هو إلا لتردد الأمل بنفسه فى أنه سيقهر أعداءه ويدحر خصومه ويراهم فى عداد الموتى، قبل أن يدهمه هادم اللذات ومفرق الجماعات.

كان بعاكر وهذه حالته أطوع آلة فى يد راتوتى لتحقيق أمانيها. ولقد وثقت من صدقه وأمانته لأنه ما كاشفته بالمكيدة التى دبرتها وفوضت إلى حذقه – بل إلى

حقده– إضرام النـار بقصر الملك والفتك بمينا حتى بـرقت فى عينه بـوارق الارتياح للقيام بأعبائها. وكـانت تحت نوافذ حجرة الملك – وهى من سطح الارض بأربعين قدما– دريزون مقاما على أطراف قوائم الخشب الحاملة للسقف. فوضع المتآمرون تحت هذا السقف مـواد كثيرة قابلة للالتهاب وتلمـس بعاكر الثقوب المعـدة لدخول المتآمرين منها ليشعلوا النار فاهتدى إليها بما احتدم فى بصيرته من نار الحقد لا بما بقى فى عينه الوحيدة من البصر.

وقد نفخت راتوتى فى صفـارتها النفخة الأولى فاندس بعـاكر فى الداخل دون أن يمانعه أحد لأن الحراس كان غلب عليهم النعاس، لما أفقد صوابهم من النبيذ العتيق الذى قـدمه الوالى وأنصاره إليهم. ثم أخـذ يتسلق الجدران بالأفاريز البـارزة منها حتى بلغ إلى ارتفاع قامتين. وهناك وجد سلما من الحبال المتينة قد تُرك بمكانه عمدا بناء على خطة مرسومة من قبل، فـاستمسك به خشية السقوط. وكانت حجرة الملك مضاءة بالأنوار الساطعة فشهد فى مكانه ما كان يحدث فيها وسمع ما يقال.

وكان ممـا رآه جلوس الملك يطيل التأمل ويُعمل الفكـر وأمامـه الوالى آنى، وعلى مقربة من سريره مينـا يهيىء له لبسة المتفضل[1] وأنه بعد هنيهـة رفع رأسـه ومد يده لآنى قائلا له بثغر باسم: اسمح لى يا ابن العم بأن يكون ختام هذا اليوم الجميل اعترافى بفضلك وشكـرى مروءتـك، فقد ألفيت فيك الصـديق الحميم والخل الـوفى والحافظ الأمين، وإن اعتقـادى فيـك لكـذلك، ولهذا لم أحفل بما سعى الـواشـون والحساد به لـدىَّ فى حقك. وأعلم أنى من أبعد الناس عن إسـاءة الظن بالناس، غير أنى رأيت أموراً رابتنى كثيرا وقلق من أجلهـا خاطرى. رأيت أننى ظلمتك وأجحفت

---

(١) ثياب النوم

بحقك، فقد بلغ من سوء ظنى بك مالا أجد معه مندوحة من الاعتذار إليك. انك صديقى وأنا صديقك ومن أحب الأمور إلىّ أن تقف الأمة المصرية على مبلغ ثقتى فيك واعتمادى عليك، ولست أجد للدلالة على هذه الثقة ما هو أبلغ من دعوتك إلى القيام على حراستى هذه الليلة، فنم أنت على الأريكة بينما أرقد أنا فى هذا السرير.

فمد آنى يده لمصافحة الملك، وكان بعاكر على مقربة منهما يسمع كل ذلك ويراه فلم يتمالك من التبسم حينما شهد السوالى ممتقع اللون بادية عليه علامات الاضطراب والوجل. أما رعمسيس فلم يشعر بهذا التغيير الفجائى لأنه التفت إلى مينا وقال له: هلم إلىّ ياامينا لقد اختبرت قرينتك أيما اختبار، فعلمت ما انطوى فؤادها عليه من الأسرار، وتحققت أنها تهواك ولاتحب فى الدنيا سواك، وأنها قد أسلمت قيادها إليك لتمام ثقتها بك واعتمادها عليك. وشأنها فى هذا شأن الاطفال الذين يأتون عفوا من الاعمال ما يفوقون به همة الرجال. وتذكر أنى وعدتك يوما بهبات وعطايا جزيلة إذا أقامت قرينتك على عهد الوفاء لك فى مدة غيبتك الطويلة. وإذ لم تبقَ عندى خلجة شك فى ذلك فسلنى ما تتمنى وهو يُوجَه فى الحال إلى بابك.

فجثا مينا أمامه وأخذ يقبّل أطراف ثوبه ثم قال: لا أستميحك يا مولاىّ إلا الإغضاء عن ذنبى ليخف عبء الهموم عن قلبى، وأنت أدرى بما هو هذا الذنب الذى ما تورطت فيه إلا لأن يد الخائن بعاكر تطاولت إلى نيفرت الطاهرة الذيل. وقد أيقنت الآن– كما كنت أوقن من قبل– أن هذه الزوجة الصالحة المقيمة على عهد الوفاء لم تحس فى نفسها نحو ذلك العتل الذميم غير الاشمئزاز والاحتقار كما تشمئز النفس لرؤية الخنفساء والصرصار. قال الملك: ماذا أسمع؟ لقد طرق أذنى الآن أنين شاك وعويل باك. ثم دنا من النافذة وأطل منها فلم يرَ أحداً، لأن بعاكر الذى لم يكف عن النظر إلى الملك ولا عن متابعة حركاته، قد تمطى تحت الدربزون فلم يره الملك لحلكة

الظلام. ولقد عاد إلى مكانه فقال مينا، وكان لايزال جاثيا على ركبتيه: اعفُ عنى يامولاى واصفح الصفح الجميل. أعد إلىّ ثقتك وسلمنى زمام جيادك الصافنات وفوض إلىّ أمر المركبات.. أنا لا أعيش إلا بك ولا أنعم بغير الإخلاص لك، فإذا كان مولاى قد رأى فى عبده كفاءة واستحقاقا فما الفضل فى ذلك إلا له وهو مليكى ومولاى وأبى. قال رعمسيس: قف يامينا، فلقد أجبت من قبل نداك وحققت رجاك، ولا يأخذنك العجب إذا سبقتك إلى تحقيق مرادك لأنى مدين لك بأشياء كثيرة لولاك لما حصلت عليها. ولك الآن أن تحمد نيفرت حمدا جزيلا فقد جاءت بالدليل على تفانيها فى حبك، وأبسط أكف الدعاء إلى الآلهة الذين يجلون عن الموت ولايدركهم الفوت، اعترافا بما وفقونى له فى هذا اليوم الميمون من مقابلة خلين وفيين وزيادة أولادى فى شخص الشاعر بنطاؤر.

ما أتم الملك الكلمات حتى طرق الآذان الصفير الثالث منبعثا من صفارة راتوتى، مؤذنا بتنفيذ المكيدة، فما أن سمعه بعاكر حتى ألقى جذوة نار مشتعلة من الفتحة المثقوبة تحت الدربزين، ثم نهض لينصت إلى حديث الملك ومينا غير مكترث بالخطر المحدق به. وكان آنى فى خلال ذلك قد تقدم صوب الملك وقال له: ألتمس من مولاىّ العفو إذا اجترأت على الاستئذان منه بالانصراف وإنى لأشكر له التفاته السامى إذ عهد إلىّ حراسة ذاته العلية فى هذه الليلة، غير أنى أشعر بإعياء فى جسمى على أثر ما بذلت فى الأيام الأخيرة من جهود وعانيت من تعب. فإن راق لمولاى أن يأذن لى، وهو المرتجى والمأمول للنعم.. فقاطعه رعمسيس: سيبقى مينا طول ليله ساهرا، أما أنت فاذهب إلى فراشك مطمئن البال، واعلم أنه إن أبقيتك هنا حتى الآن فما هو إلا لرغبة منى فى إظهار ثقتى بك.. هلم إلىّ بالثياب يامينا.. ثم إن على لسانى كلمة أحب الإفضاء بها إليك.. اعلم أن الشباب يجذب الشباب كما يجذب المغناطيس الحديد.

فإن بنت أنات اختــارت لنفسـها بعلا من ذوى الشـهامــة والمروءة والفضل، ألا وهو الكاهن الشاعــر بنطاؤر الذى أنقذنى من أيــدى الأعداء وخلصنى من الشرور. وقد رُوى عنه أنــه ابن بستانى بيت سيتى، ولكن أمينى أطلعنى على حقيقــة أصله وسر مولده، فتأكد لى أن بنطاؤر إنما هــو ابن الموهار العريق الحسب الكريم المحتد، وأن ذلك الوغد الممقوت بعاكر هو ابن البستانى، وأن عجوزا ساحرة تسكن على أطراف المقبرة بـدّلت أحـدهما بـالآخر لغـايــة فى نفسهـا وأنها اعترفت بهذه الحقيقــة ولم تجحدها. وهذا النبأ قد هشّ له وجهى وارتاح صدرى، إذ لولا استكشاف ذلك السر لانتقمت من ستخم إمــا بإعدامها وإمــا بنفيها إلى معــادن الذهب فى بــلاد الحبشة.. يالله.. ما هذه الحوادث العجيبة والمصادفات الغريبة!

وهنا سُمع دوى جسم ثقيل قد سقط وارتطم عند سقوطه بالأرض فهرول الملك ومينا إلى النـافذة لاستطلاع الخبر فلم يستطيعــا الوقوف عندهــا لتصاعد الـدخان الكثيف من تحتها ودخـوله منهــا. فقال الملك: أحضروا الخدم لإطفــاء الحريق. قال مينا للـوالى: عجّل بالخروج وانجُ بحياتك، أمــا أنا فسأبقى هنا حتى تنجلى الكــارثة ويعود الاطمئنــان. وما كــاد آنى يمسع نصيحة مينا لــه بالنجــاة حتى ولى الأدبار كالأسير الذى يُطلق سراحه بعد طول الاعتقــال. وكانت راتوتى أشعلت النار بداخل القصر وكسرت الأداة الحافظـــة للسلم فسقط تلك السقطـــة التى ألقت الـــروع فى القلوب. ورأى آنى ثيابها الســابلة إلى كاحل القدمين وهى تطلب النجــاة بعد فعلتها الشنعاء فناداها باسمها وهو يركض خلفها طالبا النجاة لنفسه أيضا.

أما رعمسيس فأظهر من الثبات والجلد ما استوجب العجب، لأنه عاد إلى حجرته رابط الجأش ساكن القلب، ثم أطـل من النافذة ليقف على مبلغ الخطـر فرأى اللهيب مندلع اللسان من الجناح الأيسر فيصبغ الفجر بلـون يخيل للرائى معه أنه فى رابعة

النهار. أما جهة الجنـوب فكان السكون سائدا فيها، فوجّه مينـا نظره إلى الدربزين الذى نزل بعاكر منه واختبر بقدمه متانته فتأكد له أنه من المتانة بحيث يحمل جملة من الناس، ثم التفت إلى الجهة الأخـرى فلم يسعه إلا أن صاح قائلا: يـا للخيانة إن هذا الحريق لم يقع اتفاقا وإنما هو نتيجة تدبير سابق، فإنى أرى رجلا يلقى جذوة نار مشتعلة، فأسرع مينا نحو السريـر فتناول قوس الملك ورماه منها بسـهم فسقط صـارخـا. ولقد وُجـدت جثة ذلك المجـرم بعد فإذا بها جثـة نيمو الـذى كان السـهم أصابـه فى قلبه. وكان بذلك المكـان ليحاول إضرام النار بحجـرة بنت أنات ومخدع الأمير راميرى. وخرج مينا من النافذة بعد ذلك ليقيس ارتفاع الوثبة، إلا أن الدخان كان فى حجـرة الملك كالضبـاب المنتشر وكانت ألسنـة اللهب تندلع فتلتهـم أخشاب السقف. وأحس الناس كلهم هذا الحادث الرهيب فأخذ الجنود الذين يقودهم رشتا والد وردة يصيحـون: النار! النـار! ليمت الدسّـاسون والخونـة! انقذوا الملك! فلما سمعت وردة صيـاحهم أسرعت إلى القصر لتخبر بنت أنات بما وقع، وتحضهـا على النجاة بنفسها. وكـان الملك واقفا على الدربزين بجوار مينا يصيح بـالجند: ليذهب بعضكم إلى القصر لإنقاذ ابنتى ويجتهد البعض الآخر فى منع سريان الحريق بإخماد النار، أما أنا فذاهب إلى الجناح القبلى لأرى ما حدث به.

ولكن جذوة النـار التى ألقاهـا نيمو قبل أن يُرمى بسهم مينـا جاءت بـالغرض المقصـود من إشعـال النـار وإحراق أخشـاب السقـوف وتخريب القصر وإهـلاك سكانه. وكـانت غمغمة أصوات العسـاكر تمتزج بقرقعـة سقوط السقوف ودوى الطبول وصـدى الأبواق فتصدم السمع جلبة يعجـز قلم البليغ عن وصفها. وربط الأمراء أطـراف ثيابهم بعضها ببعض ليتخـذوا منها حبلا متينا يستعينـون به على النزول من النافذة وقد تمكنوا من ذلك بما لا يخطر بالبال من الجرأة والهمة. وكان

رعمسيس يشجعهم على الخلاص دون أن يتحرك من موضعه ليلتمس النجاة لنفسه، لأن الدربزين المحيط بالقصر كان مقسما أقساما متساوية يبعد كل قسم عن تاليه بستة أقدام وكان يمتد ويشتد استعارا وينبعث منه الشرر فيتساقط كالشهب عليه وعلى مينا.

فصاح رعمسيس: أحضروا القش واتخذوا منه كوما فى هذا المكان فلا مطمع فى النجاة إلا بالوثوب. وكان اللهب يخرج وقتئذ من نوافذ مخدعه، ولاسبيل للوصول إليه، غير أن رعمسيس ومينا لم يفقدا شيئا من الجلد والأناة وحضور الذهن، فلما رأى مينا أن الاثنى عشر أميرا ينزلون من النافذة بالحبل المتين المتخذ من الثياب المتصلة الأطراف بعضها ببعض صاح براميرى-وقد تأهب للنزول- أن يرفع الحبل وان يثبت بمكانه حتى يجىء إليه. فأطاع الأمير أمره وقبل أن يعترض رعمسيس على مينا فى فعله كان هذا قد وثب فى الفضاء الذى بين أجزاء الدربزين فارتعدت فرائص الملك والأمراء وأكبروا مجازفته إلى هذا الحد بحياته. لأنه لو كانت قدمه زلت فى شىء لسقط كما سقط بعاكر ومات شر ميتة.

وبينما كان الحضور يشهدون هذه المناظر المؤلمة المفجعة التى قوبلت فداحة الأخطار فيها بما يناسبها من الإقدام والثبات والاقتحام ، كانت النار تدمر السقوف وتلقى بها إلى الحضيض فيُسمع لها دوى يختلط بترنيمات المنشدين المقبلين من المعسكر البعيد. وأبلغ شراعو نيفرت نبأ الحريق فأسرعت إلى مكان الحادث وجثت على ركبتيها تبتهل إلى آلهة النجاة أن ينقذوا أهل القصر من مخالب الهلاك. وكانت ترى مينا واثبا من مكان إلى مكان وترافقه فى حركاته بفؤادها وسائر جوارحها وتعض على شفتها لتكظم فى نفسها أحاسيس الخوف فلا ينهمر من عينيها دمع ولاينطلق لسانها بصياح. ولم تلبث الطمأنينة أن عاودتها حينما أيقنت أنه يؤدى

الواجب عليه بشهامة الشجعان وثبات الأبطال فحل السرور فى فؤادها محل الخوف والانزعاج.

ولما دنا مينا من راميرى ربط نفسه بطرف الحبل وأرشد الأمير الذى كان مستندا وقتئذ إلى النافذة إلى ما ينبغى أن يعمله ليرفعه ثم اجتاز الطريق الذى وثب منه بحيلة، فلما شهدت نيفرت أن الخطر محدق به لم تتمالك أن كتمت أنفاسها بيدها حتى لاينبعث صياح من فمها، ثم أغمضت عينيها حتى لاترى ما يزعج فؤادها ويروع قلبها، وظلت كذلك زمنا. فلما فتحت عينيها رأت أن مينا اجتاز بعون الآلهة الفضاء الأول فالثانى فالثالث، حيث أمسك رعمسيس به وأوقفه إلى جانبه بعد أن كاد يفلت من يديه. وهنا تناولا الحبل وربطاه بطرف البرطوم ربطا متينا، ثم رمى راميرى بالطرف الثانى، واقتدى بمينا الذى كان ملما بأساليب الرياضات البدنية فاجتاز الفضاء السابق بدرجاته الثلاث ثم تلاه رعمسيس فمينا الذى عاجلته نيفرت بمسح العرق المتصبب من خديه وجبهته.

وما وطأت قدما رعمسيس الثرى حتى هرول قاصدا حجرة بنت انات فألفاها سالمة من أى عطب ولم يصبها أدنى أذى، ولكن تجلى له من الحزن الذى استولى عليها أن وردة التى أنقذتها من الخطر بإنباهها إياها من النوم قد عادت إلى القصر فأحاط بها اللهب ولم يُعلم من أمرها شىء بعد. وكان رشتا والدها انطلق مقتفيا أثرها ينزع شعر رأسه لشدة ولهه وخوفه عليها وأخذ يصيح صيحات الانزعاج فرآه الملك وهو فى هذه الحال فعهد إليه قيادة الجنود الذين نيط بهم فتح ثغرة فى الأسوار ليُخرج منها من يستطيع النجاة. وكان بيده معول فلم يستطع فتح النافذة بأول ضربة منه فاستجمع قواه وضرب ثانيا فما هى إلا فترة من الزمن حتى انبعث منها دخان كثيف كالضباب وبدا منه رجل قد وهت قواه، وبين ذراعيه وردة مغميا

عليها فأيقن أنها ابنته فاختطفها منه كما يخطف الصقر فريسته وذهب بها إلى حيث تستطيع استنشاق الهواء النقى الذى ينعش القلب ثم قبّلها بين عينيها المغمضتين وانحدرت دموعه لما أثارت حالتها فى نفسه من الأشجان وجددت فى مخيلته من ذكرى امرأته التى كان متدلها فى حبها، غير أن بنت أنات فاجأته وهو فى هذه الحالة فلم تدع له فرصة الاستسلام للحزن على أمر مضى وانقضى حيث تسلمت منه وردة وذهبت بها فعاد رشتا لقيادة الجند المكلفين بإخماد الحريق وإنقاذ المنكوبين.

أما الرجل الذى برز من النافذة حاملا وردة بين ذراعيه فقد علم والدها حين رآه أنه الطبيب نبسشت الذى كانت الأميرة بنت أنات اتخذته طبيبا خاصا لها. وقد ظل فى معيتها منذ التقت به فى جبل سيناء واتفق له بعد أن تسلم رشتا ابنته منه أن سقط ثانيا فى القاعة التى برز من نافذتها حاملا إياها. وكانت الريح شديدة الهبوب تزيد النار استعارا والدخان تكاثفا وتصاعداً إلى عنان السماء وجدران القصر وأركانه وسقوفه انهيارا وسقوطا. فلما رأى رشتا أن الخطر قد أحدق بمنقذ ابنته ارتكز على النافذة واتخذ وضعا خيف عليه فيه من الهلاك ومن أن يلحقه ما لحق الطبيب، فطلب رعمسيس منه أن يعدل عن نيته وأن يترك نبسشت وشأنه فأجابه: لا.. لا.. يا مولاى إن علىّ لهذا الرجل دينا يجب الوفاء به، إنه أنقذ ابنتى من مخالب الموت مرتين فإذا أنقذته الآن أبرأت ذمتى.

فاه رشتا بهذه الكلمات واختفى فى اللهب ثم لم يلبث أن برز منه بعد دقائق حاملا على ذراعيه الطبيب الذى كانت النار تأكل ثيابه البيضاء. وكان يتحسس النافذة، فلما دنا منها رأى نفسه بإزاء مائة رجل تحت قيادة بنطاؤر قد اقتحموا هذا التنور المتلظى سعيراً لإنقاذ الطبيب. فلما رأى الشاعر أنه قد أغمى عليه وفقد الشعور بما حواليه اختطفه وناوله لأقرب الجند إليه فألقاه هذا إلى الذى بعده

وهكـذا. وبينما كان بنطـاؤر يمد يـده إلى رشتـا انقض السقف فأحاط والـد وردة بشواظ من نار.

أما بنطاؤر فقـد حمل نبسشت إلى صيوانه وهو لايزال مغمياً عليـه من شدة ما أصابه واستدعى الاطباء إليه للعنايـة بأمره وساعدهم على أداء هذه المهمة وكان فى أثنـاء ذلك مضطـرب البـال متأثراً بـالحوادث الغـريبـة التى وقعت فى ذلك اليـوم الكاسـف. وكان – حينما همّت راتوتـى بالصفير إيـذاناً بإشعـال النار فى القصر– بحضرة الكاهن الأعظم أمينى الـذى أوقفه على سر أصله ومـا طرأ من الحوادث على أثـر ولادته إلى غير هـذا مما أيقن معـه أنـه لم يكن ابن ذلك البستانى وأنـه رُبى فى الهيكل إكرامـاً له، بل أميراً من كبـار الأمراء. ومع هـذا فإنه لما استقـر هذا الخبر فى ذهنه لم يحس فى نفسه أحاسيس سعادة جـديدة ولم يوسوس فى صدره وسواس الكبرياء ولا غـرور الارتفاع عن ذل المرتبة التى وُلـد فيها إلى عزة المجد المنتظـر له. لأنه– منـذ درج من عشه– جُبل على التماس السعادة والشقاء لنفســه من نفسه لا من غيره.

ولما اندلع لسـان اللهيب واشتد زفير النـار وارتفعت أصوات الاستغـاثة بطلب النجدات، هبّ من بين يدى الكاهن الأعظـم لتلبية المستغيثين، فرأى ابن راتوتى ذلك الشاب الذى عُـرف بالطيش والنزق. وكان قـد أظهر فى واقعة قادش مـن الشهامة والإقدام ما استحق عليه جميل الثناء، فأراد المزيد منـه بإظهار براعته وشجاعته فى هذا الخطب المدلهم. ولكنه جازف بنفسه مع نفـر من صحبه مجازفة الطائش الذى لا يحسب للعواقب حساباً فتوسط معهم النار فسقط فوقهم جدار كان مستعراً كله فأوردهم موارد الموت وحُرمت نيفرت بهذه النازلة لذة العيش مع أخيها.

أمـا وردة فكـانت فى أقـرب صيوان إلى القصر، قـد أسنـدت الأميرة رأسـهـا إلى صدرهـا وأخذت نيفرت تبـذل صنوف العنايـة بها لإفاقتها من غشيتهـا، إذ كانت لاتكف عن دلك جبينها بالروائح العطرية حتى أفاقت شيئاً فشيئاً من غشيتها، وعاد إليهـا الشعـور فتمثلت لها حـوادث اليوم الماضى فى صـورة انقبض لها صـدرهـا وتذكرت اقتفاءها أثر أبيها راكضـة لإخبار أهل المعسكر بالطامة الكبرى والجائحة العظمى، وكيف دخلت فى الدهليز الموصل إلى مقصـورة الاميرة وكيف كسر والدها الأبـواب التى أحكمت راتـوتى إغلاقهـا على بنت أنـات حتى لايكـون لها سبيل إلى النجاة وكيف أيقظتها من نومها وذهبت بها إلى خارج القصر، وشعرت بعد ذلك أنها نسيت الخاتم الذى حفظته عن والدتها أثراً خالداً وطلسما واقيا فى خزانة بحجرتها الخاصة فأسرعت العودة إليها للبحث عن هذا الأثر النفيس. ولقد وجدته في الخزانة وأخفته فى طيـات ثيابها ثم حـاولت العودة من الطـريق الذى جاءت منـه فوجـدته مسدوداً بحاجز من اللهيب والدخـان. وقد وقع نظر الطبيب نبسشت عليها وهى فى هذا الموقف الحرج فانتزعها منه انتزاعاً. ولم تذكر من كل هذه الحوادث سوى أنها ابتسمت ابتسامة أرادت بها الاعتراف بصنيعة الطبيب الذى أنقذها من براثن الموت، ولكنها لم تلبث أن شعـرت بحرارة قبلة أثرت فى خـدها كما تؤثر النـار الشديدة فى الشىء الناعم الـرقيق فثار ثائرهـا وبدت علامـات الغضب على وجهها. فلم تتمالك بنت أنات أن قالت: ما أجمل هذه الفتاة ولا لوم على الطبيب نبسشت إذا ذهب إلى أنها من سـلالـة أسرة أجنبية شريفـة، فهل وقعت الأنظـار على يـدين بلغتـا من حسن الصورة وانفتال الأصابع ما بلغت يداها؟ وهل ماثل صفاء أديمها وشفافية بشرتها غير بلور فينيقيا؟

الفصل التاسع عشر

«حيث تسهل الأمور.. ويباح المحظور»

لما انفذت راتوتى الحيلة التى دبرتها ونالـت منها مرادها وقضت بغيتها هرولت مسرعة إلى صيوانها، حيث أزالت بالماء أثر الدخان الذى كسا بالسواد يديها، إلا أنها لم تجد به ابنتها نيفرت التى كان صياح الطفل شراعـو قد أيقظها من النوم، فوقفت لذلك فـزعة حائرة فى أمرهـا. وكان بعاكر ونيمو وعـداها بأن يوافيـاها على الفور بنتيجة المؤامرة وفعل الحريق فلم يأت منهما أحد ببشرى نيل المراد ونجاح التدابير. وكانت فى خـلال انتظارها الطويل تبعث القيّم من آن إلى آن فى استطـلاع أخبار آنى فلم يعد فى مـرة واحدة مزوداً من الأخبـار بما يشفى غليلها ويطفىء نار أحقـادها. وغاية ماهنالك أنه أخبرها برؤيته العجوز نيخت ملقاة على قارعة الطريق، فاستمكن الانزعـاج من نفسها بحيث كـاد يفضى بها إلى الإغماء. وكان يـزيد بها الحال كلما سمعت صياح منادٍ أو قرقعة سقف هـوى إلى الأرض بعد أن تأكله النار وإذا خطف بصرهـا ضوء لامـع. ومع هذا فإنها مـاسمعت دوى سقـوط السقف حتى قـالت: لاريب أن هذه الأخشاب المتساقطة قد أوردت صهرى مينا موارد الهلاك، ولولا أنه مرق من طاعتنا لمرافقة رعمسيس لما استحق هذا العذاب الأليم.

وبينما كـانت نهباً لهذه الهواجس سمعت هتـافـاً عاليـاً وأناشيـد جميلة تـردد صداهـا الآفاق، فداخلهـا وهـم أن الآتيوبيين يبـايعون آنى ويعترفون بـه ملكاً على مصر. وتجسم هذا الوهم فى نظرها ساعتئذ فخُيل لها أن الوالى قد استولى على عرش الديار المصرية ووضع على مفرقه تاج الوجهين البحرى والقبلى. وزادت على ذلك أن

تراءت لها نفسها جالسة إلى جانبه، وقد أفرغت على قوامها ثوباً ثميناً. ثم عللت النفس بأنت تصبح هى وابنتها نيفرت - وقد أيقنت أن مينا ذهب فريسة الحريق- صاحبتى التصرف فى أملاكه الواسعة. ثم أطرقت رأسها كمن يفكر فى أمر ذى بال وقالت: أصبحت نيفرت اليوم من الأيامى فلمَ لاتقترن بأنى؟ وهل لمثله أن يرفض الزواج بأجمل امرأة فى الديار المصرية؟ أما أنا فسيكون لى كوالدة ملكة الديار المصرية من سمو المكانة وشرف الرتبة وسعة النفوذ ما أعلو به علواً كبيراً على أهل الدولة، حتى على بعاكر نفسه الذى أصبحت لا أرى فيه إلا آلة حقيرة أعبث بها كما أشتهى. ولايبعد أن تؤول أملاكه الواسعة وأمواله الوفيرة إلى ولدى الذى لابد أن يعينه أنى سائساً لركابه أو رئيساً لضباط المركبات الحربية.

وبينما كانت راتوتى تعلل نفسها بهذه المنى إذا بالقيِّم مقبلا عليها، وما أن صار منها على قيد خطوات حتى صاح قائلاً: مولاتى! مولاتى! إن الملك ومينا واقفان وسط النار على أفريز ضيق من أفاريز جدران القصر. ولن ينجوا من هذا الضيق إلا بمعجزة إلهية. ويقينى أن الذين أشعلوا النار بالقصر طغمة من الأشرار. ولقد رأيت جثة بعاكر فعرفته بخاتم أبيه وهو بأصبعه كما شهدت نيمو مصروعاً بسهم أصيب به. فما سمعت راتوتى هذا القول حتى اعتراها مايشبه الخبل اضطراباً وحيرة ثم سألت القيم: وماذا حدث لأبناء الملك؟ أجاب: الحمد للآلهة أنهم نزلوا بحبل من ثياب وُصلت أطرافها بعضها ببعض. وحينما برحت مكان الحادث كانوا جميعاً قد فازوا بالنجاة.

ماسمعت راتوتى هذا القول حتى تقطب جبينها واكفهر وجهها وأمرت القيم بالعودة لاستجلاء حقيقة الخبر. ومامضى على انصرافه من حضرتها بضع دقائق حتى أظهرت الجزع وملت الاصطبار وخُيل لها أن الدقيقة الواحدة منها ساعة

طويلـة. ثم انقضت السـاعات فتتضاعـف جزعها وازداد يـأسها وفزعهـا. ولبثت تساورهـا الهموم حتى إذا أشرقت الشمس وارتفع النهـار عاد القيم كـاسف البال مضطرب الفـؤاد ممتقع لون الـوجه مصابـاً بعمى أعجزه عن الإعـراب عن مراده، فألقى بنفسه على قدمى سيدته وقـال متلعثماً: لقد كانت ليلة شؤوم ونحس هلعت لهول حوادثها النفس .. توكلى يا مولاتى على الآلهة فيما نزل بك من الأرزاء وليكن لك فى الإلهة ايزيس التـى سقط ولدها جـريحاً وهو ينـاضل عن أبيه وملكـه أسوة حسنة فى التعزى عـن المصاب وصدق الاتكال على رب الأرباب، وليلهمـك آمون اله طيبة القوى القهار الصبر الجميل على مصابك والقوة على احتمال رزئك إ ولدك فخر الشبان وموضع الآمال فى الحال والاستقبال قد أودت بحيـاته الغالية قطعة خشب كبيرة هوت عليه. وكـانت راتوتى تصغى إلى هذا القول دون أن تبـدى حراكاً كأنها تمثـال نُحت فى حجـر أو صيغ من نحـاس ولم تنـذرف من عينيهـا دمـوع الأسى والحزن على فقـد ابنها وظلـت كذلك فترة من الـزمن قـالت بعـدهـا: وماذا جـرى لرعمسيس؟ أجاب القيِّم: حمداً للآلهة فقد أنجتـه من المعاطب. سألته: وأنى؟ أجاب: احترق جسمه فصار قطعة فحم ولم يُعرف إلا بالتاج الذى كان يكلل هامته.

هنا تولى راتوتى من الذهول ماكاد يُفقـدها الصواب ويُسقطها فى يدها جزعاً من العاقبة والعقاب. ووقف القيِّم فى مكانه كالمنزول به فزعاً مما رآه، فتراجع إلى الوراء وأحس كأن الدم قد جمد فى عروقه حين رآهـا وقد شبكت أصابع يديها وأرسلتهما فى الفضاء بعد ذلك كمن يريد خصمه بمصـارعة أو ملاكمة، ثم قهقهت ضحكاً كمن أصيب بلوثة وبدا عليها بعد ذلك من العـلامات والإشارات مادل على أن سماعها قد أزعجهـا فسكتت مطـرقة رأسهـا، بحيث لم يقع نظـرهـا على رئيس حـراس الملك المعروف باسم (عين وأذن فرعون) وهو مقبل عليها فى ثلة من ضباط الجند وبعض

الكتبة. وقد بلغ من ذهولها وجمودها أنها لم تسمع صوته وهو يناديها، بل لم ترفع رأسها إلا حين نبهها القيم بلمسه ذراعها فرفعتها فى وضع تصنعت به أنها كانت فى سبات عميق، ثم التفتت إلى رئيس الحراس وسألته بصلف وكبرياء: ماجاء بك إلى صيوانى.

أجاب: بالنيابة عن قاضى مدينة طيبة الأعظم ألقى القبض عليك وأعلنك بالحضور إلى مجلس العدل لمحاكمتك بتهمة الخيانة الموجهة إليك، وهى إحراقك قصر الملك للفتك به. قالت راتوتى وقد لاحت على خديها آثار ابتسامة الازدراء والتحقير: إننى مستعدة لك ومطيعة لأمرك، ثم أشارت إلى كرسى رجت من الضابط أن يجلس عليه ريثما تسوى شعرها وتلبس ثيابها، فأبى رئيس الحراس الجلوس بل ظل واقفاً عند الباب، بينما كانت راتوتى تضفر شعرها الأبنوسى اللون وتضع على مفرقها تاج الإمارة، وأخذت تبحث فى أشيائها بعد ذلك عن قنينة صغيرة تحتوى خلاصة الجوز المقىء، وهو سم قتّال ابتاعته منذ أشهر من الساحرة نيخت على يد القزم نيمو. فلما عثرت عليها طلبت من إحدى خادماتها مرآة، فلما تناولتها منها جعلتها إزاء وجهها بحيث لايراه الضابط ثم شربت القنينة. فما استقر السم فى جوفها حتى اضطربت أعضاؤها وخرّت على الأرض صعقاً، فأقبل الضابط نحوها على عجل، فلما وقع نظرها عليه قالت له: لقد فشلت فى تدبيرى، فأخبر الكاهن الأعظم بأنه سيصيبه من الفشل ما أصابنى. ثم تقلبت يمنة ويسرة ناطقة باسم نيفرت وفاضت روحها.

***

إن الذين سالمتهم الأيام من بنى الإنسان وهادنتهم صروف الزمان وشربوا من

كوثر السعـادة والهناء، يعلمون يقيناً أن لابد من كدَرَة تشـوب هذا الشراب العذب. ولكن ليس فى هذه الكدرة من ضرر ولا ضير لأنها تنبـه الإنسان إلى وجوب الاعتقاد بأن أسباب الفرح والسرور لم تتوافر لأحد على وجه المعمورة مهما تجاوز له الدهر وابتسم له من السعادة الثغر.

فقد جاء موت راتوتى على مابسطناه مـن الوجه المحزن نقطة سوداء فى صحيفة هناء نيفرت وميـنـا، ولكنه بث فى نفسيهما أحاسيس جديـدة بالحب المتبادل بينهما على أشرف المبادىء وأقدسهـا وهو الزواج فإن نيفرت كـانت تستعين بحبه لها على التسلى عن مصابها بموت والدتها وأخيها، وكان حبها له يزيح ما تراكم من الهموم فى نفسه لتبديد والـدتها المتوفاة ماله فى غيابه. وقد فهم وقتئـذ أن سعادتهم باللقاء بعد طـول الفراق والتنـائى لم تكن من بواعث تطـامن قلبيهما وانشراح صدريهما فحسب، بل وسيلة أيضا لإبانة ماهنالك من ضرورة قيامها بعضهما لبعض بواجب مقدس ألا وهو أن يطيب كلاهما الآخر بما يزيل عن صدره صدأ الأكدار ويزيح عنه الهموم ورديء الأفكار.

أمـا رعمسيس فإنـه لم يبرح مكـان الحريق إلا بعد أن أصـدر أوامـره بتقـديم الأضحيات وتقـريب القرابين ورفع الأصوات بـالدعاء شكـراً للآلهة على حمايتهم الباهرة ومساعدتهم الظاهـرة. وقد كانت تلك المكيدة التى أخفق أنى وراتوتى فيها سعياً سبباً لهواجسه وبلباله فعدل عن مخالطة رجال الدولة متوخياً العزلة وفضل الانزواء فى خيمـة بسيطة أمر بضرب أطنـابها على غشيان القصر الباذخ الـذى كان ابتنـاه أنى رافعاً أركـانه على أسس الـدسائس والغش. ولبث فيهـا يقيس الحاضر بـالغـابر ويـزن مـارآه من خير النـاس وشرهم، بميزان الاعتبـار والاستبصـار،

فاستنتج من هذه المقـارنة أن الخير كان فى كفة الرجحان فقـال: ان الواجب عليه فى هذه الحالة الشكر للآلهة وبنى الإنسان. ثم نـاجى نفسه بقوله: لقد علّمتنى والدتى وأنا فى نعومة الأظفار كيف يكون شكر المعروف ومقابلة الصنيعة. وقد لقنت أبنائى هذه الدروس النافعة ونشّأتهم التنشئة الصالحة على تلك المبادىء الشريفة وغرست فى قلـوبهم وألقيت فى عقيدتهم أن نكـران الجميل ليس فى شىء من كـرم النفس ولا مقتضى الإحسان والعدل.

وكان رعمسيس قد تجرد من ميول الشر التى لايخلو منها فؤاد إنسان فبعث فى طلب كريمته وبنطاؤر، فلما مثلا بين يـديه رجا من الأميرة أن تسرد عليه بالتفصيل الواف جميـع الحوادث التى أفضت إلى وثوق عـرى الحب بينها والشاعـر، فأنشأت تقص عليه تلـك الحوادث بالإسهاب، فكـان فى سماعه لها يـوافقها على سلـوكها فى بعض المواقف وينعى عليها تصرفها فى البعض الآخـر. ولكن علامات السرور كانت بادية على وجهه فى الحالين فلم يسعه حين أشرفت على ختام حديثها إلا أن أمسك بيد الشاعر ووضع فيها يد بنت أنات التى أطرقت فى الحال رأسـها حتى لمست به صدره لشدة ماتولاها من الفرح والدهش.

ثم التفت إلى بنطـاؤر وقال لـه: لقد صرت منذ الآن بعضـاً من كلنا وعضـواً من أعضاء أسرتنا. وعليك أن تبقى إلى جانبى فى أثناء انعقاد الجلسة التى ستعقد حافلة بالأمراء الآسيويين للتداول فى شروط الصلح بين الأمتين.

وفى خلال ذلك تشرف أبناء الملك بمقابلته وحظوا بجميل رعايته وشامل عنايته. وكانـوا أقبلوا لتهنئته بـالنجاة من خطر دسـائس أنى وراتوتى، فعـرّفعهم جميعاً ببنطاؤر وكشف الغطاء لهم عن سر أصله الحقيقى معلناً عقد قرانه بشقيقتهم بنت

انات. فوقف الأمير راميرى وأخذ يهنىء بنطاؤر بأبلغ عبارات التهانى، فسر الملك بقوله وعانقه عناقاً طويلاً شاكراً له ما أبداه من الإقدام والشهامة فى حادث الحريق. وكان أفرغ عليه حلل الرجولة والبلوغ(١) على أثر واقعة قادش، لما أظهره فيها من الثبات والجلد. وقد عينه فى هذه المرة رئيساً لفرقة الكماة المحاربين فى المركبات وقلده وسام الأسد(٢) الذى لايُمنح إلا للمتفوقين فى الثبات والإقدام فى ميدان القتال. فلما رأى الامير ترادف نعم الإنعامات الأبوية الملكية جثا على ركبتيه مثنيا على والده وشاكراً فلاطفه الملك بإمرار يده على شعره المسدول وقال: أكافئك اليوم اعترافا بشهامتك وتنويهاً بكفاءتك. وربما كان مقدوراً لك أن تلقى بدل المكافأة العقاب الصارم لأنك لم تخضع للنظام قط ولم تطع أوامر رؤسائك، وأنت عليم بأنه لا يعرف من الأمر والنهى شيئا من لم يتعلم الامتثال قبلهما. ومن آيات ركوبك متن الشطط فى مخالفة الأوامر أن طردك الكاهن الأعظم لهيكل سيتى من مدرسته فجئت إلى الشام وانخرطت فى سلك الجندية دون أمرى أو أمر أحد القواد. نعم لست أنكر أنك رجل راشد بشجاعتك وحذقك ولكنك ما برحت صبيا بعقلك ورأيك، وهذا نقص فى خلقك كان من أثره أن ألقى بك مرتين فى يد العدو فافتديتك مرتين إذ قايضت عليك فى احداهما بابنة ملك الدنائم مع أن بقاءها فى حوزتى كان خير وسيلة لنيل بغيتى منه على أيسر وجه وحسم كل خلاف بينى وبينه، ولكن سوء تصرفك أدى بنا إلى التفريط بعض الشىء فى حقوق مصر. ولا تنس أن أبناء الوطن الذى تقوم على تصريف شؤونه وسياسة أموره حكومة منظمة متضامنون جميعاً فى عمل ما يعود

(١) انظر صحفة ٢١٧ من الجزء الأول من كتاب فتوح مصر لماسبيرو

(٢) انظر كتاب هارتمن.

عليه بالمنفعة. وإنى لأشبههم- وهم إزاء الواجب- بأسنان العجلتين المتعاشقتين فى الناعورة إذا انكسر سن إحداهما تعطلت هذه الأداة الرافعة وعجزت عن رفع المياه من النيل.

ما أتم رعمسيس حديثه حتى جاء المنادون يبشرون بأن ملك الخيتاس وحلفاءه الأمراء ينتظرون وصوله إلى المجلس، فلبس أفخر ملابسه وتزين بأجمل حلاه ومس أجود طيبه ووضع على رأسه تاج الوجهين القبلى والبحرى. ثم أقبل عليهم فى المجلس يتقدمه رئيس التشريفات وحملة الإشارات والكرام الكاتبون، ويتلوه أشباله فقادة الجيش فالمترجمون. وظل سائراً على هذا المثال حتى استوى على عرش الملك. فأشار إشارة خرَّ لها الأمراء الآسيويون سجدا وقَبلوا الأرض بين يديه. أما ملك الدنائم فلم يقتد بهم بل استقر فى مكانه مكتفيا بأداء السلام المعتاد، فلما شهد رعمسيس ذلك احتدم غيظاً وسأله بلسان المترجمين أيعتقد أم لا أنه مغلوب على أمره. فأجاب: لم أحضر هنا أسيراً حقيراً. وقد سألتنا أن نخرَّ على الأرض سجدا فرأيت أن سجود الإنسان للإنسان لا يتفق مع ما ألفته من عادات بلادى ولا مع شهامة الأحرار الذين يأبون السجود إلا للآلهة. وإذا كان مما ترامت إليه آمالى أن أسير لك حليفاً فى السراء والضراء، أفيروق لك أن يكون حليفك ممن تجردوا عن حلية الشرف والوقار.

سمع رعمسيس منه هذا الكلام فأخذ يجيل نظره فى ملك الدنائم الذى كانت تبدو آيات الشهامة وعزة النفس واضحة على وجهه. ثم قال بصوت جهورى: أنا لا أقبل التفاوض فى شروط الصلح إلا مع خصوم يسجدون لتاج الوجهين القبلى والبحرى، فإذا أقمت على إصرارك ولم تعدل عن عنادك فلن تصيب نصيبا ما من فوائد الصلح

الذى سأبرمـه مع حلفائك. فلم يتحرك الملك الآسيوى من مكانـه، بل قال: جئت هنا للمفاوضـة فى الصلح ولن أبذل كرامتى ثمنـا له. أما جبهتى هـذه فلن تلمس الثرى لإنسان أو لتاج، على أن لى عندك رجاء أيها الملك الشريف الأصل الكريم المحتد، فهل أنت محققه لى؟ إن مينا سائس ركابك قد بالغ فى الحفاوة بابنتى (براكسيلا) وأكرم مثواها فى أسرهـا فأردنا أن نشكر له هذا الجميل، أفتأذن لنا بعبـور النيل لنؤدى له هذا الدين فى صيوانه؟.

فأذن رعمسيس لـه بالانصراف ثم بـدأت مفاوضـات الصلح الذى كـان الكتبة المصريون والآسيويـون قد وضعوا المهم من شروطه وقواعده واتفقـوا عليها قبلا. وكـان العمل بالمجلس لهذا السبب مقتصراً على مـراجعة نسخ الشروط التى جـرت المناقشـة فيها وحصل الاتفاق عليهـا، وعلى تقريـر النظر فى نص النسخة النهـائية للمعاهدة بمدينة رعمسيس المسماة (طانيس) والمعروفة عند الساميين المقيمين فيها باسم (زاون).

ولما تمت المفاوضات دُعى الأمراء الآسيويون الى مأدبة ملكية أُقيمت على شرفهم فجلسوا إلى موائد خـاصة بهم، إذ كانت التقاليد المصريـة فى ذلك الوقت تقضى بأن يكون الاجانب – فى أثناء تناولهم الطعام– بمعزل عن غيرهم خشية التلوث بالدنس فى مجاورتهم أو الأكل معهم. وكـانت تظهـر على رعمسيس أمـارات الامتعـاض والاستياء فى أثنـاء الوليمة، إذ خشى أن يترتب على إنصراف ملك الدنـائم استئناف الحرب بعد زمـن قصير، ولكنه مع هـذا وبالرغـم من إعجابـه بشهامـة هذا الأمير الاجنبى وإبائه قد عقد النية على التشدد معـه فيما أراده عليه من الرضوخ لشوكته، خيفـة أن يجر التسـامح إلى إقتـداء بقية الأمـراء بـه فكأن لم يكن هنـاك صلح ولا اجتماع لتقرير سلم.

وكـانت الشمس على وشك الغـروب، فإذا بمينـا الـذى أمـر الملك له بـالـراحـة والـرياضــة قد عـاد والتمس المثول بين يـديه ليرفع إليـه أمراً خطيراً. فلما أذن لـه رعمسيس واستدنـاه منه أخـذا يتحادثان مليـاً، ثم قام الملك بغتـة على أثر الحديث وقال مخاطباً بنـت أنات: هذا اليوم الذى بُـدىء بالحوادث المروعة قد خُتـم بالأنباء السارة والبشائر، فقد اتضح أن الغادة التى أنقذتك من مخالب الموت، وكادت تلتهم النار جسمها اللطيف من أسرة عريقة فى الحسب والنسب. فما طرق هذا القول سمع الأمير راميرى حتى صـاح غير محتشم: أى نعـم، إنها لمن أسرة ملكيـة راسخـة في الشرف، فنظر إليـه والده نظـرة مغضب وقال: خليق بـأبناء رعمسيس أن يلـزموا الصمت مالم يُدعوا إلى الكلام. فلم يكن من الأمير – وقد أدرك زلته وتعرف خطأه– إلا أن أطرق رأسه خجلا، وظل كذلك بينما كـان الملك يستـأذن من ضيوفه فى الغيبة عنهم هنيهة. ثم أشار إلى كريمته أن تقتفى أثـره فأجابته إلى أمره وكلمته مسارّة فى شأن ما.

فالتفت إلى راميرى، وبعد أن ظل قليلا فى التفكير أمره بمرافقة أخته بلا توانٍ ولا تأخير.

الفصل العشرون

حيث تتفتح أكمام الورد.. فيشم أريجه من وافاه السعد

كان راميرى –وبنت أنات منصرفة إلى إفاقه وردة من غشيتها– يسأل عن بعض أطباء المعسكر. فلما التقى بهم سألهم أن يرافقوه إلى صيوان أخته فأجابوه إلى طلبه وما وصلوا معه إليه حتى أخذ يرمى الغادة بنظرات تنم على ما كان يخالجه من عواطف الرفق وأحاسيس المحبة لها، ولاحت على وجهه علامات الغبطة والابتهاج حينما تأكد له أنها لم تُصَب بجرح يُخشى منه على حياتها. وقد أخذ منه الوجد عليها والشغف بها مأخذاً لم يسعه معه إلا أن تناول يدها اللطيفة ورفعها إلى شفته يلثمها بلهفة وشوق. ولعله تخيل أن لا رقيب عليه فمضى فى تيار العواطف الغرامية وانقاد إلى الأحاسيس القلبية، إلا أن بنت أنات ما لاحت لها هذه الجذبات حتى أبعدته عنها بلطف الحيلة رغم ذهوله ولهاً بها ووجداً عليها. ولكنه استطاع بفضل مغاليته لهذه الجذبات استحضار ذاكرته فابتهل إليها أن لاتمنعه منها ولاتدفعه عنها، ثم سارّها بحقيقة أمره مع وردة منذ عرفها وأحبها وقال إنه عقد النية على الاقتران بها، فأرعدت بنت أنات لسماع هذا الكلام ثم قالت: إن الابنة ورثت الدنس عن أبيها، وهى مازالت ملوثة ولن تبرأ منه إلا بتجشم مشاق الأسفار وقطع الفيافى والقفار. فاعترض الأمير بقوله: إن الشرف عندنا معشر المصريين يتصل بالأعقاب من الأرحام لا من الأصلاب. وقد كانت زوجة الجندى الشجاع رشتا.. فقاطعته بنت أنات: لقد عرّفنى نبسشت بأمرها، إذ قال لى إنها إحدى سبايا الحرب. ولاريب عندى فى أنها كريمة الأعراق على ما يؤخذ من شرف صورتها وحسن ملامحها. ولقد ورثت وردة عنها كل هذه المحاسن، فما أجملها من غادة تسبى النظر وتحير

الفكر! قال راميرى: إن لونها فى صفائه لكالأزهار فى حسن الازدهار. أجيلى النظر فى محاسنها أيا شقيقتى فقد تحركت من موضعها.. وردة افتحى عينيك.. وردة افتحى عينيك.. افتحيهما يا ريحانة قلبى وبهجة حياتى وسرورى من الناس جميعاً.. إنا إذا أشرقت الشمس نقدم القرابين إليها ونضحى الأضاحى، فماذا نضحى ولى من عينيك شمسان متى أشرقتا أرسلتا إلى فؤادى سهاماً حادة النصال، فلما وقفت بنت أنات على ما به من العشق والهيام ابتسم ثغرها، ورجت منه أن يبتعد قليلا عنها لأنها كانت تتنفس بعناء. وفى هذه الاثناء جاء طبيب ليخبر الأميرة بأنه هيأ للمريضة حماماً ساخناً من النباتات الطبية، وأنه قد آن وقت نقلها إليه. فدبرت الاميرة التدابير لحملها إليه. وإنها من ذلك لفى شغل شاغل وهمّ ناصب، وإذا برسول من عند الملك يدعوها إليه، فاحمر وجهها من الخجل إذ كانت تعلم ما لأجله طلبها، فرجت من راميرى أن يغيب عنها ريثما تتحلى بثياب الأعياد وفوّضت إلى نيفرت العناية بوردة بالنيابة عنها. ثم تحوّلت نحو أخيها وقالت له: إن نيفرت لعلى خلق كريم وخصال شماء وتفويضى إليها هذه المهمة الآن– وهى بين السرور والهم– خير ما تسرى به عن قلبها الهموم. ولقد أجاز والدى لمينا أن يلجأ أياماً إلى الراحة، فأطلقت لنيفرت عنان الحرية وأعفيتها من كلفة المراسم والطقوس الرسمية، لاسيما وقد أصبحت منذ الأمس فى شغل شاغل كما أصبحت أنت كذلك. ولا عجب يا راميرى إذا كنا الآن أشبه بطير (بينو) المقدس الذى يتهافت على النار فى عين شمس فلايحترق بها، بل يصدر عنها أحلى رواء وأجلى مظهرا منه عند تهافته عليها. فإنا بعد نجاتنا من نار الحريق وخلاصنا من الضيق قد رفرف السكون بأجنحته على رؤوسنا وبث الثقة فى نفوسنا وبشرنا بالدخول فى دور جديد من الهناءة والسعادة.

ومـا كاد راميرى يغـادر الصيـوان حتى سجدت بنت انـات أمـام صورة جـدة والدتها وعكفت على الصلاة، ثم أطلقت البخور من المجـامر على مذبح الإلهة هاتور التى كـان لايفارقهـا تمثالها أين ذهبت فضـوعت رائحته المكـان. ثم ازينت بأجمل وأفخر مـا عندهـا من الحلى والحلل وقلبهـا يفيض فرحـا وابتهاجـاً لقرب لقـائها ببنطاؤر. وما أخذت زخرفهـا وازينت حتى دخلت على نيفرت ورجت منها أن تتولى وردة بعنايتها فى مـدة غيابها. وعندما بـرح راميرى صيوان شقيقته رأى الحراس يطاردون طفـلا كانت تفيض الدمـوع من عينيه. فعرف الأمير أنه النقـاش شيراعو الـذى كان أول من قصـد إلى وردة وكشف لها القناع عن سر المؤامـرة التى دبرهـا الوالى للفتك بالملك طمعاً فى الجلوس على عرشه، وتـذكر أنه كان لمحه على مقربة من القصر ساعة شبوب النار فيه. وكان الحراس يدفعونه عن صيوان الأميرة فيحاول الدنـو منه فيزدادون ارتيابـا بأمره وخوفا من شره، وإنهم فى معـاملتهم إياه بهذه القســوة لمعذورون لأن الألسنـة لم تكن تلوك فى هـذه الآونة غير سيرة أعـداء الملك وتفننهم فى أساليب تدبير الدسائس له للفتك به مرة أخرى.

ومـا وقع نظـر راميرى على الطفل شيراعـو حتى عجّل بـاستخـلاصـه من يـد الحراس وأخـذ يترفق به ويسألـه عن أمره، فسرد الغـلام ما اتفق لـه من الحوادث وكيف أنفذت العجـوز نيخت الجندى رشتا وابنتـه وردة لإخطار فرعون بـالخطر المحدق به والدسائس التى تُدس فى الظلام له وكيف انطلق هذا الجندى بين صفوف الجند يوقظهم من نـومهم وينذرهم جميعاً بالخطر المحدق بهم والـذى جاء وقوعه على غير انتظار، وأنـه لما لم يجد ملجأ يأوى إليه ولا حاميـا يستظل بظله ويفىء إلى كنفه أراد أن يستنجـد بوردة، فلما سمـع الأمير منه هذا القـول بعث بـه إلى نيفرت ورجا منها أن تأمر بعض الخدم بالقيام على شئونه والعناية بأمره.

وكـانت وردة تفيق شيئاً فشيئـاً من غشيتها على أثـر نجاح الأطبـاء فى العنايـة بعلاجها فتحلت بأحسن ملابسها وقصدت إلى نيفرت، فلما وقع نظر مينا عليها ولم يكن رآها من قبـل بـُهت لجمالها وخولط فى أمـره فلم يسعه إلا أن قـال: عجبا لهذه الفتاة الفتانـة! إنها لأشبه الناس بابنـة ملك الدنائم التى أنزلتهـا سرادقى، ولا فرق بينهما إلا أنها أصغر سناً وأنضر شبـاباً وأوفر حسناً وبهجـة. وكان شيراعو وقع نظره عليها فـدنا منها، فحدقت فيه النظـر، إلا أنها لم تفه بكلمة واحدة بـالرغم مما بذل الأطباء من العناية بها. وكانت الدموع تتساقط على خديها فاتجهت نيفرت إليها وقالت: لست أنكـر أنك فقدت فى أبيك ركنا من أركان الشهامـة وعزة النفس، ولكن خسارتـى كانت ضعف خسـارتك. فقد فقدت والـدتى وأخى فى نفس اليـوم الذى فقدت أنت أباك. فنطقت وردة: إن رشتا والدى كان على جفاء زيه وقبح شكله حميد الأخـلاق كـريم السجـايا، ولهذا لن تنمحى ذكـراه من ذاكـرتى مـا دمت على قيـد الحياة.. إن النـارجيل خشن الملمس، ولكنه يعطـى الحاذق الذى يعرف كيف يـزيل غلافه شرابا لطيفاً سائغا وطعاما حسن المذاق.. وما كان والدى إلا كالنارجيل يجفل الإنسان من منظره ويقبل عليه عند مخبره. ولقـد مات جميع أهلى وأصبحت بوفاته آخر من بقى منهم على ظهر الغبراء، فأنـا اليوم أشبه ما أكون بـورقة شجرة عبثت بها الرياح على ساحل البحر قبل وصولنا إلى هذا المكان، ثم سقطت فى الماء فتلاعبت بها الأمواج وأصبحت بمعزل عن سائر الأوراق.

ما وسـع نيفرت عنـدما سمعت هذا التشبيه إلا أن قبّلتهـا بين عينيها وقالت لها: ثقى بأن لك أصـدقـاء وصديقـات لايتركـونك وحيـدة تعبث بك عواصـف الدهـر وصروف الزمان، كما عبثت الرياح بتلك الـورقة. قالت وردة: إننى مع وثوقى بهم مازلت أشعر أننى وحيدة لا أنيس لى فى هذا العالم. ولقد كنت بطيبة أقضى نهارى فى

رؤية الأوز البرى طائرا فى الفضاء غدوا ورواحا فأميز بين السابقات منها واللاحقات. وكنت لا أرى أن السابقات قد هجرتها اللاحقات لأنها تظل مرموقة منها من بعيد. غير أنى رأيت لفيفاً من الصيادين جعلوا اللاحقات مرمى أنظارهم فشتتوها فى جميع الأرجاء وبقيت واحدة منها بأيديهم، أفلا ترين أن هذه الأوزة جديرة بالشفقة، وإننى شبيهة بها من كل الوجوه بعد إذ فقدت عشيرتى الأقربين ولم تعد عندى وسيلة للاجتماع بهم، وقد طال أمد الفراق.

قالت نيفرت وقد ظنت أنها تزيل عن قلبها صدأ الهم: ولكن أنسيت أنك الآن فى كفالة أسرة أعرق أصلا وأسمى شرفا من أسرتك؟ فما طرقت هذه الكلمات أذنى وردة حتى اضطربت شفتاها ولمعت عيناها وقالت بصوت يدل على إباء وعزة نفس: إننى فرع والدتى وهى رحمها الله من أصل عريق ومحتد كريم. أتدرين لمَ اقتحمت الأخطار إذ ألقيت بنفسى فى النار؟.. لم أجازف بحياتى الثمينة إلا للاحتفاظ بالأثر النفيس الذى تركته لى، وكنت وضعته مع ثياب الحفلات والأعياد وقتما جاءني الشقى نيمو وأخذنى بدنىء حيلته إلى خيمته. ولايخطرن ببالك أن هذا الأثر مال دفعنى الجشع إلى الحرص عليه، إذ ما يلزم المرء لوقاية حياته من الموت بالجوع؟ إن هو إلا كسرة خبز وقليل من التمر وجرعة ماء نقى!.. بل كان فص خاتم نُقشت عليه كلمات لم أقف على سر معناها. وكانت تحدثنى الآمال بأننى ربما وقفت بهذا الطلسم النفيس النادر على حقيقة أصلى فذهبت آمالى أدراج الرياح ويئست من الحصول على السعادة المتمناة وفقدت بضياعه كل أمل فى الاستقبال.

وأخذت وردة العبرة فأمسكت عن الكلام فعانقتها نيفرت قائلة بلهف: إذن ذهب الأثر النفيس فريسة النار. أجابت وردة: كلا! بل انتشلته من الصندوق،

وكـان لايزال بيـدى حينما تلقـانى الطبيب نبسشت فى ذراعيـه. ولما أُنقـذت مـــن الـــقصر وحُـــملت إلى سرادق بنت أنـــات حضر الأمير راميرى فتراءى لعينى كما تتراءى الأشبـاح فى المنام. قـالت نيفـرت: لعلـه فُقد منك وأنت فى الطـريق إلى هنـا. فأومأت وردة بـــايماءة الموافقـة، وكـان شيراعـــو مضطجعـا على الارض يسمع الحديث، فلما انتهت منه نيفرت ووردة نظـر إلى هذه الاخيرة بعين العطف ثم تسلل إلى خارج الصيوان دون أن يشعر به أحد.

كانت الساعات تنقضى، ووردة مطرقة إلى الارض برأسـها كأنها تمثال الخشوع والحياء، ونيفرت ومينا صامتين جـالسين أحدهما إلى جانب الاخرى يفكران فيمن التهمتهم النار. وكان السكون سائدا فى السرادق فلم يسمع أحد به حسا ولا جرسا. ولم يكن فى هـذا المنظـر الـذى يقبض الصدور ويمحـى آية السرور مـا يستفـز إلى العجب، فإن سحب الهموم أوشكت أن تكدر صفاء الزوجين فالتزما جانب السكون الذى لـولا ما تخلله من صـوت الأبواق ودق الطبول لخُيل لنـاظرهما أنهما فى بطن الصحراء. وكـانت هذه الاصـوات التى ترددها الآفـاق منبعثة من مكـان استقبال الأمراء الآسيـويين فى السرادق الكبير الذى أُعـد لرعمسيـس. وكان هـؤلاء الأمراء مقبلين ساعتئذ على مكان انعقاد الجلسات وقتما كان ملك الدنائم خارجا منه بعد أن استأذن فرعون فى الانصراف ليـذهب فى حاشيته إلى قاعـة الطعام، فتأمل فيما كان من احتفاء رعمسيس به وإعادتـه إليه ما سلبه من ألقابه إكـراما لنيفرت وجزاء لها على إخـلاصها الـولاء لزوجهـا. فـأخذ يصـافحها كمن يترجم بهذه الاشـارات عما يخالجه من الشكر والامتنان.

وبينما هـو فى هـذه الهواجس إذا بجلبـة وضجيج، فـالتفت مينـا نحـو مـدخل

السرادق فإذا بضابط جاء ليخبره بقدوم ملك الدنائم وكريمته، تحرسهما شرذمة من الجند الملكى، فأمر مينا بفتح أبواب السرادق وتقدم مع نيفرت لاستقبال الزائرين الكريمين اللذين لم تكن زيارتهما فى الحسبان، بينما كانت وردة تتراجع إلى الخلف تتلمس ركنا لايراها فيه أحد. وكان ملك الدنائم رجلا دب دبيب الشيب فى لحيته ورأسه ولاحت أسارير وجهه ولم تذهب بشىء من نضرة محياه وجمال ملامحه، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان فتخطفان الأبصار وكانت ابنته تسير إلى جانبه بخطوات لاتباريها فى الاستقامة والاتساق إلا التى تنظمها نقرات الآلات الموسيقية. وكانت ممنطقة بنطاق من العسجد المصفى حول حلة ناصعة البياض أفرغت على قدها السمهرى، وشعرها مرسل إلى الكتفين كما كانت مكللة الجبين بأكليل متقن الصياغة، باسمة الثغر مستجمعة من محاسن الجمال ما يستهوى القلب ويأخذ باللب. وكان معهما مترجم لترجمة ما يدور من الحديث بينهما ومينا وقرينته، ورجلان وامرأتان يحملون الهدايا النفيسة برسمهما.

وقد بدأ الملك حديثه مع مينا منّوها بكرم محتده وطيب عنصره وعزة نفسه وصدق شهامته ثم قال: لقد أتيتنا بدليل جديد على أن أبناء الدولة المصرية صاحبة الشوكة والاقتدار يعرفون الأمانة والاعتدال ويأتون المعروف والجميل، غير أنى اعترف لك بأنك قد زدت فى نظرى قدراً حين رأيت أن قرينتك لاتعدلها ابنتى حسنا وجمالا. قالت نيفرت وقد احمر وجهها حياء: إن حسن ظنك بى هو الذى وهبنى نعمة الجمال الذى رأيت أنه يفوق جمال بنت ملك الدنائم، وما هو فى الحقيقة إلا دونه. وإننى على كل حال التمس منها ومن مكارمك الصفح الجميل. فتقدمت براكسيلا ابنة ملك الدنائم نحو نيفرت وعرضت عليها ماجاءت به من الهدايا النفيسة وهى أكليل مرصع بالأحجار الكريمة ومشابك ذهب وعقود لؤلؤ، وقدم

الملك إلى مينا درعاً دقيق الصنع ودرقة من الفضة جميلة النقوش ثم دخل الجميع السرادق لتناول الخبز والنبيذ كالعادة المصرية بين الضيف والمضيف.

وبينما مينا فى حديث الملك كانت براكسيلا تقص على نيفرت حديث آلامها وتشرح لها ما لقيته فى الأسر، وكيف تنازل مينا لما وقف على حقيقة أمرها عن حصته فى الغنيمة وأكرم مثواها فى سرادقه، وأن أحد الرؤساء أراد أن يخص نفسه بها. ثم أفاضت فى شرح حسن معاملته لها وإيثاره إياها بعنايته ورعايته. وكانت متهدجة الصوت لشدة ما عراها من التأثر، حتى أشفق مترجم أقوالها وعطف عليها ولا سيما حين قالت: وقد أُصيب خطيبى بجرح بالغ فأُخذ من ميدان القتال محمولا على الأعناق، وقد منّ الله عليه بالشفاء وهو الآن بالانتظار حتى إذا عدت إلى مسقط رأسى ارتبطنا بعروة الزواج التى لا انفصام لها.

وسمع الملك هذه الكلمات فقال: ياحبذا لو أسبغت الآلهة علينا هذه النعمة فإن براكسيلا آخر سلالتنا وعليها نعتمد فى استبقاء ذريتنا وتخليد ذكرانا. فقد فقدت فى الحرب الأخيرة أبنائى الاربعة الذين كانوا فى مقتبل العمر وصهرى الذى كان ابنه لايزال طفلا رضيعا وسقطت زوجتى سبية بأيدى المصريين منذ سنوات، ولم يبقَ لى سوى براكسيلا التى هى أملى للمستقبل وعزائي للحاضر. وفيما هو ماضٍ فى حديثه انساب طفل صغير راكضا فى السرادق يصيح بملء فيه: ها هو.. ها هو.. لقد عثرت عليه.

وكانت وردة خلف ستر مسدول بينهما الملك وابنته من جانب ومينا وقرينته من الجانب الاخر، فسمعت مادار من الحديث وأحست فى نفسها جذبات تجذبها نحو ملك الدنائم وبراكسيلا التى كانت لاتنفك عن النظر إليها والإعجاب بجمالها. وبثّ

هذه العواطف فيها اعتقادها أن والدتها ربما كانت من أفراد أسرة الملك فتقدمت إليه بقلب يخفق وديباجة عليها علامات الحياء وعرضت عليه الخاتم فما كاد بصره يقع على وردة حتى أخذته رجفة وتراجع إلى الخلف باسطا إليها ذراعيه، وصار أشبه ما يكون بامرئ يتنازعه عاملان: الحنان والذعر. فبينما تحمله الجذبات القلبية على التماس من يوليه الحنان ليضمه إلى صدره كان يتراجع إلى الخلف تأثراً بروعة منظره أو يأسا من لقائه، فعدّ مواتاة الزمان بتحقيق أمانيه المستحيلة من خوارق العادات أو الآيات الباهرات. وما وسعه وقتئذ إلا أن صاح: يا كزانت! يا كزانت، أهبطتِ ثانيا من السموات العلى للبحث عنى والقرب منى؟ وكانت براكسيلا تنظر إلى والدها بعين يخامرها القلق، ونزعت عقدها الثمين من جيدها، ثم ترامت على وردة فخطفت من يدها الفص المكسور قائلة: إن معى نصفه الآخر، ولقد كان لشقيقتى كزانت السيئة الحظ.

إن قلم البليغ ليعجز عن وصف ما ألم بالملك من الدهشة والذهول حين طرقت مسامعه هذه الالفاظ، وما عالجه من الجهد للتظاهر بالسكوت والاطمئنان، وما أحسه من الجذبات الغريزية نحو وردة حباً لها وعطفا عليها. ثم قارن بين شطرى العقد اللذين كانت وردة متحلية الجيد بأحدهما وبراكسيلا بالآخر فأرعد دهشا وخولط ذهولا، وقارن بين نصفى الفص فبان له أنهما يكملان بعضهما وأنهما يمثلان جناح نسر متصلا بقطعة أشبه ما يكون بنصف الشكل البيضاوى نُقشت عليه حروف ورموز يجهلها المصريون، وأن موضع التحام النصفين يكون فى حالة اتصالهما شكل النسر الملكى ناشرا ذراعيه ومكتوبا على صدره بأحرف يونانية هذا الكلام الذى يكاد يكون من الأحاجى والمعميات «ليس نصف الواحد حليا ولكن إذا ضُم إلى نصفه الثانى توافرت فيه مسرات زفس».

وقد تأمل الملك قليـلا فى ذلك الفص الذى كان صنعه لقرينتـه وهى شقيقته التى كان وإيـاها توأمين وتوفيت فى نضـارة الشباب وإبان العمر فأعطى نصف عقـدها براكسيلا عملا بـوصيتها قبل وفاتها والنصف الثانى لابنته كزانـت، يوم عرسـها. وقد كفاه الوقوف على حقيقة العقد مـؤونة البحث فيما إذا كانت الفتاة من سلالته، فضمها إلى صدره فلم تجفل منـه وردة خوفا أو استنكارا، بل تـركت نفسها إليه إذ أحست كأن الدم الذى يجرى فى عروقها يسرى أيضـا فى عروقه. وبعد هنيهة أشار الملك إلى المترجم، فـوقف أمـامهـا ليكـون واسطـة التفـاهم بينهما فسألها أولا عن والدتها، فأجابت بما لم يبقَ معه أثر للشك فى أنها كانت من السبايا اللائى أُخذن إلى طيبة ثم اشتراهـا جندى مصرى أحبهـا حباً جماً وأولـدها هـذه الفتاة الفتـانة، فلم يسعـه إلا أن عانقهـا مـرة أخرى ودعـاها: ابنتى! ولـدى! فلـذة كبدى! وعهـد إلى براكسيلا العناية بها والقيـام على شئونها ثم أخذ يسرد الحوادث المحزنة التى تلت وقوع ابنتــه فى أسر المصريين وكيف أنه قضـى زمنا طـويلا فى البحث عنهـا ووعد بالمكـافأة من يأتيه بأخبارهـا أو يرشده إليها، وأنــه كان إذا سأل المصريين عما إذا كانت ابنتـه خرساء أجاب نفيـا لأنه لم يكن يدور بخلده- وقـد انقضى على سبيها نحو العشرين عـاما- أن تحرمها المخـاوف والآلام والشدائد نعمة النطق، وأنـه لو كان يعلم ما آل إليه أمرها لما انقضت تلك السنوات الطويلة دون أن يلتقى بها.

وكان وجه الملك يفيض ابتهاجا وسرورا. فظلت وردة تنظر إليه وتستثبته ويدها فى قبضة بـراكسيلا، إلا أنها التفتت بعد إلى المترجم وسألتـه أن يترجم لها بلغة الملك «أنا سعيـدة جداً»، فلما أجـاب نظرت إليـه باسمـة الثغر ونطقت الجملـة بلغته، ثم سألتـه أيضا عن تـرجمة: «إن وردة تحبك من صميم فؤادهـا»، فلما أوقفها عليهـا فاهت بها صـحيحـة اللهجة كما لو نشأت على التكلم بلغة الملك الـذى لم يسعه إلا أن

ضمها إلى صدره مرة أخرى. وكانت نيفرت فى أثناء ذلك تذرف الدموع ارتياحا لهذا المنظر العجيب والاتفاق الغريب. فلما التفتت وردة إليها وجهت نحوها وجهها وقالت لها: إن الأوزة المتروكة أدركت بقية الأوز، والورقة التى كانت تتلاعب بها الرياح وتتقاذفها الأمواج قد عادت إلى غصنها من شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. فلتسعد من كانت وحيدة فريدة بما منّ الله عليها من نعمة الاجتماع بآلها بعد اليأس من اللقاء.

وقضى القوم بعد ذلك ساعة يتجاذبون أطراف الحديث. وكانت ساعة هناء لا يشوبها كدر فأمر ملك الدنائم جماعته بالعودة، إلا أن مينا رجا منه الانتظار ريثما يطلع الفرعون على ما شهد من الحوادث، لاسيما وأن وردة أصبحت عداد غاشية بنت أنات التى عهدت إلى نيفرت العناية بشؤونها والقيام على مصالحها، ولم تأذن بتسليمها إلى أحد إلا بإذن منها. وكان رعمسيس على مائدة الطعام فلما رفع مينا إليه حقيقة حالها وأيقن منها أنها حفيدة ذلك الملك قام من فوره للاجتماع به. ثم التفت إلى راميرى وقال له: عليك بإصلاح ما فرط من هفواتك بالاقتران بوردة فتربطنا بجدها لحمة النسب وأصرة القرابة. فسكت راميرى ثم بادر بلثم يد ابيه وبدت على وجهه لوائح الابتهاج والسرور ورأى رعمسيس ذلك فقال له: يبدو لى من حالك أنك سبقتنا إلى تحقيق قصدنا ودبرت التدابير لذلك دون علمنا.

وظل القوم سائرين مهلا حتى بلغوا إلى سرداق مينا حيث كان ملك الدنائم وابنته وحشمه وغاشيته بالباب. فتقدم رعمسيس لمصافحته فلم يكن من الملك إلا أن جثا على ركبتيه فى الوضع الذى كان يرى أن فيه صغارا له يوم دعاه رعمسيس إليه فأبى ثم قال: لا تجعلنى عداد الملوك ولا تحسبنى من الأبطال، بل والدا حنونا

وأبـاً رحيما يلتمس الصفح منك ويناشـدك الصلح ويستأذنك فى أخـذ هذه الفتـاة حفيدته إلى بلاده.

فما بلغت هذه الكلمات سمع رعمسيس حتى هرول نحو الملك فانهضه وصافحه وقـال لـه بلطف: لا أبلغك إلا النصف من هـذه الأمـانى فإنـه لا أشهى إلى نفسى بصفتى صاحب هذه الديار من إبرام الصلح معك على وجه ثابت جلى، وبصفتى رب أسرة لا أرى فى أمر حفيدتك وردة إلا ما تراه ابنتى بنت أنات التى اتخذتها خليلة لها تلازمها أنـاء الليل وأطراف النهار، ويراه كذلك ابنى راميرى الـذى أسرته فى إحدى الوقائع، وما نراه جميعا وهو اقتران ولدى هذا بها. قالت بنت أنات: لقد سقط حقى على وردة فى سبيل الأمنيـة التى يتطلع راميرى لتحقيقهـا، ثم سألت وردة: أيتهـا الفتاة أترضـين بأخى بعلا لك؟

فأحنت وردة رأسها علامـة الرضـى والقبول. ثم التفتت إلى جدهـا وحدقت فيه بعينين أعـربتا عما يكنـه ضـميرهـا. فقال جـدهـا لراميرى: إنى أعـرفك أيها الفتى الشجاع، لأنك شققت صفوف جيشى ونفذت فيهـا حتى صرت وإياى وجها لوجه فضربك أحـدهم بالسيف فهـويت من مركبتك إلى الأرض. وقـد رأيت منك تهورا فى البسالـة والإقدام، وهـو عيب الزمان وحـده كفيل بإصلاحـه. وأما أنت أيها المولى الكريم والفرعون العظيم فسأرفع إليك فكرى حتى لا تخفى خافية عليك من أمرى. لست أعارض فى اقتران الفتى بالفتاة، لأنى أرجو أن يكون من وراء هذا القران دوام الصفاء والاتحاد وزوال الأحقاد والأضغان.

غير أنى أستمحيك الإذن بأخذهـا إلى بلادى وإبقائهـا فيها عامـا واحدا لأشنف أذنى بسماع اللغـة التى كـانت والـدتها تتكلم بها. وأرى أن هـذا الالتماس لن يجد

منكم إعراضـــا، لا سيما والوقت الملائم لــلاقتران لم يحن بعد، إذا راعينــا الطقوس المتبعة فى بــلادنا حيث الفتيــان والفتيات يبلغون الحلم متأخـرين بالقيـاس على ما تقتضيه نــواميس الطبيعة فى بلادكم. ولا يـذهب عليكم أن وردة من سلالـة ملكية، وهى هنا لا دار تأوى إليها لأن راميرى عثر عليها فى مساقط الفاقة ومهاوى الشقاء. والأولى أن يتم الزواج فى بلادنا إذ فى وقوعه هنا ما يدعو راميرى إلى أن يتخيلها فتاة وضيعة انتشلها من وهدة الفقر ليرفعها إلى ذروة السؤدد والمجد.

قال الفرعـون: ما تقوله حق وعدل فخـذ حفيدتك مع العلم بأنها ابنتى وخطيبة ولـدى. ثم أخـذ بيد وردة وقـال لها: اعلمى يـا وردة أن الأجل المضروب لـزواجك سيعلمك كيف يكـون الصبر ويجعل راميرى كفـؤا لك بما يكسبـه فى هـذه المدة من التجربـة والخبرة. وأعلم يا راميرى أنه بعـد عام ستصل إلى بيلوز سفينـة فينيقية تقلك إلى بلاد خطيبتك حيث تقـام الحفلات احتفاء بزواجكما وإكبـارا لمقامكما. قال ملك الدنائم: ليكن ذلك، وإنى أقسم بزفس – وهو قسم عظيم إن أحنث فيه أمت شر ميتة– أنى رضيت بابنة كريمتى كزانت قرينة لراميرى.

وما عاد راميرى إلى سرداق إخـوته حتى عانقهم واحـدا واحدا سرورا بالاقتران بوردة وبتحقيق أمنيــة من أعظم الأمانى التى تـردد بها خاطـره فى حياتـه الماضية باعتبار أنه فتى فى مقتبل العمر ينفعل قلبه بعوامل العشق. ثم أخذ يمازح قيّم القصر الملكى، وهو رجل قوّست الشيخوخــة ظهره. وتطرف فى المزاح لشدة تأثير السرور فى نفسه فــانتزع من رأســه الشعر المستعار ورمى بـه فى الفضاء. ولكنـه استشعر غلطته وشططه فى الهزل فأعـاد إليه الشعر وأظهر لـه أمارات الود والحب بما أزاح الضغن والبغضاء من القلب.

الفصل الحادى والعشرون

(موت رجل من أهل الشكوك ..وموت والدة حميدة السلوك)

صحبت وردة جدها وخالتها برا كسيلا إلى السرادقات المعدة لهم بالضفة الأخرى من فرع النيل، على أن يعودوا فى اليوم التالى إلى المعسكر المصرى، ولم تنسَ ما وصتها به نيخت قبيل وفاتها بساعات معدودة فأطلعت عليه بنت أنات. والتمست هذه من أبيها – وقد ثبت لها بالدليل المقنع، بل بالحقيقة المحسوسة الملموسة ما كان للخدمات الجليلة التى أدتها للأسرة المالكة من الأثر النافع– أن يحنط جثتها كما تحنط جثث نساء الأشراف فأجابها إلى طلبها، ولما همت وردة بمزايلة المكان دنا بنطاؤر منها وسألها أن تحقق لنبسشت الذى أنقذها من غائلة الموت– وهو الآن على آخر رمق من الحياة– ما يتمناه من مشاهدتها فاحمّر وجه وردة خجلا وأجابت الطلب قائلة إنها تعد نفسها سعيدة إذا أمكنها أن تخفف عنه وطأة الآلام. فانطلق بنطاؤر ليبشر الطبيب بتحقيق أمنيته، وكان قد قضى عنده طول ليله للعناية به.

أما سبب إشراف نبسشت على الموت فهو أنه أصيب بحمى شديدة من جراء الحروق البالغة التى انتابت رأسه. وقد تورم بتأثيرها خداه وانتفخت أوداجه، وحار الأطباء فى علاجه لأنهم لم يهتدوا إلى سبيل فى شفائه ويئسوا من إنقاذه. وأبلغوا إلى صديقه الشاعر أنه لم يبقَ بينه والموت سوى ساعات معدودة فوضع بنطاؤر كفه على جبهة صديقه ليتحسس الحرارة فالفاها شديدة، ولكنه أخذ يشجعه بعبارات الأمل فتبسم نبسشت الموقن بدنو أجله وقال بصوت خافت، وهو

يشير بأصبعه إلى رأسه وقلبه: ليس لى سوى أنفاس معدودة لأحصل على الراحة فى هذا العـالم والعالم الثانى. قـال بنطاؤر: إنا نسير بخطـوات واحدة ونطمح إلى مثل أعلى جعلناه مـوضـع أمانينا ألا وهو الـراحة. فهل يبعد أن يكون هـذا السير الباعث الوحيد على عمل الإنسـان ونشاطه فى هذه الحياة؟ وإذا كـانت الآلهة تطوف بالنعم أعناق العاملين المجدين، فلا ريب فى أنك ستنـال اسنى العطايا وأجزل الهبات جزاء عملك المتـواصـل وهمتك التى لاتنى فى البحث عن الحقيقـة. وإذا كـان عقل بشرى اندمج فى روح هذا الكون وغاص بحـار العلوم لاستطلاع أسرارها، فإنما هو عقلك أيها الصـديق الحميم. وإذا كان للعينين أن تبصرا الـربوبيـة الصحيحة من خـلال السحب الكثيفة الحائلـة بيننا وسر وجـودها فما هما إلا عينـاك، وهما أولى العيون وأحقها بهذا الامتياز الجليل.

قال نبسشت متنهدا: طـالما نقبت عن هذه الحقيقة وكابـدت فى سبيلها المصاعب واحتملت الضيم، فلما كشفت النقاب عن جانب منها مد الموت إلىّ يده الباردة الثقيلة ليغمض بها عينى. ولست بعـد هـذا أرى من فـائدة فى شهـود الألـوهيـة ولا فى مشاطـرتها الإحاطة بعلم الحقائق اللـدنية والوقوف على الأسرار الكـونية. لأن من وراء البحث عن هـذه الحقائق والأسرار لـذة لا تعـادلها لذة شهـودها بأعيـانها أو الإحاطة اتفاقا بعلم ما لم يُعلم من أطـرافها. لهذا كنت ترانى أوثر أن تتجدد حياتى فى هـذه الـدنيـا على الخلـود فى الأخـرى، ليتـواصل تمتعى بلـذة البحث وحـلاوة الاستكشـاف التى تجعل الباحث إزاء نتائج بحثه كالثمل سرورا وفرحا.

قـال هذه الكلمات وسكـت، لأن قواه كـانت تتـلاشى بسرعـة غريبـة فلما رأى بنطاؤر ذلك رجا منه أن يهدىء روعه وأن يستحضر فى ذهنه ما قضـاه فى الحياة من

سويعات الفرح والمسرة. قال الطبيب: تلك سويعات ما كان أحلاها، أذكر منها ساعة كانت تضمنى والدتى إلى صدرها وتملأ جيوبى بالتمر، وساعة خلوتى تفرغا للعمل والأمل والمشاهدة، وساعة كنت أسرح الطرف فى أرجاء عالم غير عالم المادة والفناء، وهو عالم الشعر الخالد والخيال. تلك الساعات لم أنسها وياليت مداها قد طال وما زال. قال بنطاؤر: أنسيت الساعات المديدة العديدة التى قضيتها فى علاج المرضى وتخفيف آلامهم؟ طوبى لك وسلاما عليك، فقد عشت ما عشت بيننا لم تمتد يدك بأذى لأحد من العباد، بل الكل يذكرون فضلك ويترنمون بذكرك من حاضر وباد. فهز نبسشت رأسه وقال بصوت خافت: ألم أكن سبب جنون المحنط بينم وموته؟!.

ثم لبث تائها فى بيداء الفكر والتأمل زمنا لمعت بعده عيناه وقال: ما قصدت هذا الشيخ بسوء قط وما كانت سريرتى بناقمة عليه، بل كنت أرمى إلى غاية محمودة وغرض شريف ولكن الضرر الذى أدركه أثمر من المزايا والفوائد ما لم يكن فى وسعى إدراكه لولا القيام بأعمالى فى بلدة ماجدو وبلاد الشام فقد توصلت بذلك الضرر إلى استكناه حقيقة العضو الذى يسدى الإنسان نعمة الحياة العقلية وهو القلب.إذن ما هو القلب؟ إن لقلب الإنسان وقلب الكبش وظائف متشابهة، فكما أن الأول يزيد منه الخفقان بمؤثرات الخوف والاطمئنان، كذلك الثانى يزداد منه الضربان متى أثر فيه هذان المؤثران. وسببه أن الحيوان كالإنسان فى الشعور بالمؤثرات الطارئة من خوف وغير خوف. وغاية ما هنالك من الفرق أن الإنسان خُص بمزية العقل الذى يقدر بواسطته على مقارنة الأشياء بعضها ببعض، والحكم عليها واستنتاج النتائج موافقة لما ترمى إليه مقدماتها، والإعراب عن الضمير وإبداء الأراء بالكلمات المنطوقة إلى غير هذا، مما يدل على أن مركز العقل الذى هو الروح

والحياة الحقيقية هنا، بداخل الرأس خلف الجبهة.

ما كـاد يصل إلى هذا من الكـلام حتى استمكن منه الوهـن فلزم الصمت وخيل للشاعـر بنطاؤر أن هـذيه فى هـذه الساعـة الحرجة والموقـف الخطير نتيجة حمى أصابته، فبـادر بإعطائه شرابا ملطفا بينما كـان الطبيبان اللذان يعالجانـه يطوفان حولـه داعيين له. ومـا استقر الشراب فى جـوفه حتى انتعش وحـاول النهوض من مضجعه فاغتنم بنطاؤر هذه الفرصـة وسأله: ألا ترى أن أحسن تذكار علق بذهنك فى حيـاتك مـرأى تلك الفتـاة الفتـانـة التى أنقـذتها من الموت وضحيت فى سبيلهـا حياتك.. تلك الفتاة الجميلة التى ذكـرت لى أن مرآها الجميل أيقظ فى نفسك الشعور بحب الجمال والميل إلى الكمال؟ تلك الغادة التى تستعبد القلوب والمهج قد اهتدت إلى أهلها وهى بلقـائهم الآن مغتبطة ولكنها لا تفتـأ تذكرك وتشكـر لك صنيعك معها، وقد آلت على نفسها أن لا تبرح هذه البلاد قبل أن تراك.

فتردد المريض هنيهة ثم قـال ببطء: لمَ لا أراها؟ عجّل يـا صديقى بإحضـارها، ولكن لا تدعها تدنـو منى فإنى أريد أن أراها من بعيد. فخرج بنطـاؤر ثم عاد ثانيا ومعه وردة التى وقفت ببـاب الخيمة وخداهـا كجذوتى نـار وعيناها مغـرورقتان بالدموع. فأجال نبسشت فيها النظر ساكتا باهتا ثم قال: أشكر لكِ يا وردة تفضلك بزيارتى وأرجو من الله أن يسبغ عليك ثوب السعادة والهناءة.

لم تتمالك وردة عندئذ أن تقدمت قليلا نحوه ولكنـه أشار إليها بالتراجع مظهرا لها يده الداميـة وقد أحيطت بالأضمدة ثم قال: الزمى مكـانك ولا تقربى منى. ماذا جرى لك؟ أتبكين؟ ولمَ هـذه الدمـوع الغزيـرة؟ أترفقين بحـالى وتتوجعين لآلامى؟ قـالت وردة: إننى أرثى لحالك وأتـوجع لمصابك أيها الـرجل الطيب الكـريم.. أبكى

لأننى أشعر بآلامك أنت يا من أنقذت حياتى من الموت مرتين. وكان الطبيب قد أطبق جفنيه وهى تتكلم فلما أمسكت عن الكلام فتح عينيه وأمعن فيها النظر شبه المعجب بجمالها الباهر قال لها بصوت خافت: كفانى منك هذه النظرات قبل الممات يا من تحلت نفسها بأطهر الصفات.

فانصرفت وردة وأخذ بنطاؤر يرقب حركات صدر صديقه ويقيس قوة تنفسه وإنه لكذلك إذا بالمريض هب من رقدته وقال لبنطاؤر: أستودعك الله يا صديقى، إنى لراحل وليس من يدرى أين أرحل. قال بنطاؤر: أنت لا ترحل أبدا إلى فضاء العدم. فهز نبسشت رأسه وقال: كنت فى الدنيا شيئا فأصبحت ومصيرى حتما إلى شىء لأن مالاشىء لا يحدث عن شىء والعدم لا ينشأ عن الوجود. إن الطبيعة قائمة على التدبير والحكمة، فهى لا تدع شيئا يذهب عفاء وفناء، بل هى تنتفع بالفتيل والقطمير كما تنتفع بالشىء الكبير، وستنتفع من جثتى بقدر حاجتها منها وتسير على قواعد ثابتة وأقيسة مبينة فى إيصال كل شىء إلى الغرض المرسوم له دنيا أو أخرى، ينتهى شىء، ولا يضيع شىء، بل لابد لكل شىء أن يُنتج شيئا أو يستحيل إلى شىء مطابق لما قُدر له أن يصير إليه، ولا دخل فى ذلك كله لإرادة البشر. آه لقد ضاع رأسى وضل عقلى منذ أُصبت بتلك الجراح الموجعة ،لا أستطيع التفكير ولا الملاحظة ولا القياس، فياليت لى قدرة على إثبات النظريات العلمية أو استنباط القواعد الفنية أو الغوص على الحقائق الخفية ولكن هيهات هيهات..

هنا تلجلج لسان المسكين وتعاجم عليه النطق وكان صوته بعد صلصلة حلقه به يترامى إلى الخفوت وأنفاسه بعد شدتها تشرف على الضعف والضيق وأعضاؤه تتشنج وحشرجة الصدر يعلو زفيرها ثم لم تكن إلا دقائق معدودة حتى فارق

الحياة. فأغمض بنطاؤر جفنيه وفيما هو خـارج من الخيمة إذا بأمينى مقبلا عليها معتقدا أنه سيلتقى بـه فيها لما يعلمه من استحكام عـرى المودة بينهما فعاد بنطاؤر معه إليهـا ولما شـهد الكاهن الأعظم الطبيب مطـروحا على الأرض جثة هامـدة اشتد حزنه وأسفـه لفقده وبعد أن صلى أشار إلى بنطاؤر أن يتبعه وفى الطـريق حادثه فى أمور أراد أن يهيئه بها لاحتمال مباغتة لم تكن لتخطر بباله.

وكان قضاة مدينة طيبـة حكموا بالنفى على ستخم أم بعاكر الخائن(١) ولكنهم أجازوا لها مقابلة رعمسيس بحراسة شرذمة من الجند لتلتمس منه العفو فتظاهرت ستخم بالصبر على ما أصابها بخيانة ولـدها ثم أعدت معدات السفر لتلتمس العفو عن ابنها قبل ان تلتمسـه لنفسها. وكان الحكم عليها صدر فى غيبـة الكاهن الأعظم فلم يرَ فائدة لكتمان السر الذى سارّت نيخت بـه الوالى آنى وسمعه من وراء حجاب أما ستخم فكـابدت فى سفـرها من المشاق والأهـوال مالا يطيقـه الاحتمال لجنوح سفينتهـا فلم تصل إلى بيلوز لهذا السبب إلا بعـد حـدوث الحريق المعلوم. وكـانت شعبة النيل الموصلة إلى هـذه المدينة غاصة بسفن الملك والأمـراء والسفراء والتجار والاعيان وافـدين من جميع الأنحاء فـوقفت سفينة ستخم بعيدا عنهـا وبينما كان نبسشت يلفظ النفس الأخير تمكنت ستخـم بعـد العنـاء من لقـاء الكـاهن الأعظم ومكاشفته بسبب حضورها من طيبة.

وكانت سحنة ستخم قد تغيرت معالمها إلى حد أن أنكرها من كانوا يعرفونها لأن

(١) فى الجزء الثالث من تاريخ ديودورس الصقلى أن من العادات المتبعة فى مصر سابقا الحكم على أهل الخائن وأعضاء أسرته بالأشغال فى المناجم ولو لم يشتركوا معه فى إثمه. وفى إحدى المعاهدات المبرمة بين رعمسيس والملك أرشيتـا شرط مؤاده أن المتشرد الذى يؤتى بـه إلى مصر لا تطبق عليه عقوبة ولا يلحق بيته ولا بوالدته ولا بأولاده أذى ولا يـُحكم بالموت على والدته.

نكبات الـزمان وتصـاريف الحدثان أذوت غصـن شبابها الأنضر وأيبست عـودها الأخضر وجعلتهـا فى نقيض ما اشتهـرت به أيـام عـزها السـابق ومجدها الـرفيع السامق. فإنه بعد أن كان لسانها ينطلق بـالمطايبة والملاحظة تارة وطورا بتمحيض النصح أو إعطاء الرأى، أصبح فى سجن بابه شفتـان متلاحمتان لا تنفتحان أبدا إلا إذا أزفت ساعـة الصلاة فيتلعثم ببعض كلمات تطلب فيهـا المغفرة لولـدها بعـاكر. وكانت على يقين من أن ولدها هذا سلك مسلك اللئام وارتكب الآثام الغلاظ وأنه غير أهل للشفقة من الملك ولا من الأمة والوطن، ولكنها بما جُبلت عليه من الرحمة كانت تعمل جهدهـا لدفع معـرة الخيانة عنـه واستصدار العفـو له فكانـت تواصل الليل بالنهار فى الشخوص بعينيها فى مقره ساكبة عليه عبراتها الغزيرة.

وقـد رأت ستخم وهى على ظهر سفينتهـا ضوء النـار المضطرمـة فى قصر الملك ووصل إلى أذنيها صيـاح الجماهير وجلبة الجند والحراس فأخبرها من كـانوا على مقـربـة منهـا بأن قصر الـوالى آنى التهمتـه النـار واستحـال إلى رمـاد، وأن الملك رعمسيس على وشك الهلاك، وأن بعض الخونة اللئام أضرموهـا نكاية فيه وذريعة لانتزاع صولجان الحكـم من يده. فلما كان الفجر تـواردت الأخبار ببيان الحوادث فطرق سمعهـا اسم ابنها بعاكر وأختهـا راتوتى، فلم تفه بكلمـة واحدة ولم تسأل سـؤالا ، بل صمّت أذنيهـا عن سماع بقيـة الحوادث اكتفـاء بما وقفت عليـه منهـا وتأكدت لها مطابقته لما كانت تنبأت به وأنذرت بوقوعه لما أعرض عنها وأبى العمل بنصائحها والاعتبـار بمواعظها، مؤثرا الجموح فى ميـادين البغى والايغال فى بيداء الوهم والمضي مع نـزغات الشيطان على الوجـه الذى أفضى به إلى ارتكاب جنـايته، ورمى بها من بعده فى مهاوى الحزن والخزى. وكانت إذا سمعت دعاء على الخائنين واستنزالا للعنـات عليهم من الـرائحين والغادين، دوت فى أذنيهـا أصداء الـدعوات

واللعنات واستشعرت بصداع فى الرأس وقشعـريرة فى الجسم وتجمد فى الدم وقد ظلت فى الغداة طريحة الفراش لا تفوه بكلمة ولا تبـدى حركة كالمنزول بها ولم تذق طعامـا ولا شرابا. ويئس قيم بيتهـا مما آلت إليـه حالها فجـدّ فى البحث عن أمينى، وكان يومئـذ فى حضرة الملك رعمسيس فلم يستطع الوصول إليـه إلا فى اليوم التالى لمحادثته فى أمـرها. وما أن قابلـه فيه وأطلعه على الواقع حتى هـدّأ روعه ونفّس من كربته وصحبه فى مركبته إلى المرفأ حيث كانـت ترسو سفينة ستخم وقد بادر بذلك ليهيىء هذه المرأة المسكينة لما أراد أن يفاجئها به من سر صلة بنطاؤر بها ومتّه إليها بحبل البنـوة الصحيحة وتعـريفها بحقيقـة أمـره، لتكمل لها السعادة وتنجـو من الهاوية التى أصبحت على وشك السقـوط فيها من جراء ابنها خـائن الملك والوطن. ولكن وصوله جاء بعد فـوات الوقت المناسب فإن المرأة المسكينة أصابها خبل، فلما سمعته يتكلم أخذت تحدق فيـه بعينيها دون إصغاء إلى ما يقول. وكل مـا كان يبدو منها من حركة أو قول أنها كـانت تقطع عليه الكلام بسؤالها: هل فعل ذلك حقيقة ؟ هل هو على قيد الحياة؟.. وظلت تكرر هاتين الجملتين من غير أن تفهم معنى لكلامه، حتى يئس من تفهيمها مراده. ولكنه استطاع مع ذلك أن يقنعها بمرافقته إلى سرادقه الخاص الذى وعدها بأن يقدم إليها ابنها فيه.

كان بنطاؤر كما ذكرنا صورة طبق الأصل لأبيه الموهار. وكان كل اعتماد أمينى العارف بأحوال النفس ومـا يؤثر فيها من العوامل على هذه المشـابهة الصادقة بين الموهـار المتوفى وابنـه الحقيقى، لكى يردّهـا إلى حظيرة العقل والصواب. فـاستهل حديثه بأن سرد تـاريخ استبدال بنطاؤر ببعاكـر وهما فى الأيام الأولى من عمرهما، وما كان لنيخت السـاحرة من الشأن فى هذا العمل. ثم استرسل فى تمجيـده عبقرية الشاعر ووصف محاسنه جسما وعقلا ونفسا، وذكر ما يجمعه بالموهار من صادق

التشابه والمماثلة. وكانت ترمقه كما لو كان الكلام الذى يفوه به غير موجه إليها ولا هى مقصودة به، ولكنهـا قالت حين أتى على آخره:نعم نعم، أنت تريـد بكلامك ذلك الشاعـر الذى القى الخطبة البليغة يـوم الاحتفال بعيد الوادى.. إننى أعـرفه.. إننى أعرفه.. ولكن أين بعاكر؟ فتركها الكاهن الاعظم ليجىء اليها ببنطاؤر ويواجهها به، رجاء أن تهتدى إلى الصواب بتعرفهـا عليه. فلما عاد لم يجدها لأنها كانت طلبت الى جاجابو أن يطلعها على جثة بعاكـر، فتميز الكاهن الأعظم غيظا ويئس من نجاحه فى سعيه. غير أنـه دعا بنطاؤر إلى اقتفاء أثـره عسى أن يدركاهـا قبل أن تبلغ إلى مكان الجثة.

وكانت جثـة بعاكـر ملقاة بخيمة أحـد الجند ومغطاة الى مـادون الوجـه بقطعة قماش. فلما وصلت ستخم إليهـا جثت على ركبتيهـا وأخـذت تحدق النظـر فيهـا. وفاجأها أمينى وهى فى هذا الوضع فصوّت باسمها فلم ترد عليه فأمسك بكتفها ثم أشار الى الجثة وقال: هذا الرجل الذى تنظرين إليه بلهف وحنان لم يكن ابنك بل ابن بستانى وضيع. أما ابنك الحقيقى وارث زوجك.. الابن الـذى انطوت عليه جوانحك ثم هبط من بينها فهـو بنطاؤر، هذا الـذى جمعت الآلهة فيه صفات أبيـه الجثمانية وشيمه الغراء، فواجب عليك أن تسدلى ستار العفـو عن بعاكر وتمنحى بنطاؤر هذا الحنـان الذي تـولينه جسما لم يشتق من جسمك، لأن ابنك الحقيقى هـو الشاعـر البطل الذى أنقذ الملك من خطر الموت.

مـا استقرت هـذه العبـارة فى أذن ستخم حتى انتصبت قـائمـة وأخذت بيـدى بنطاؤر وابتسمت فى وجهـه وقالت: هو.. هو.. فلتبارك فيـه الآلهة. فلما همّ بنطاؤر بعناقها دفعته عنها بعنف، ثم التفتت إلى الجثة صـائحة: بعاكر!.. مسكين يا بعاكر!

فتأثر بنطاؤر من هذا المنظر وتولاه منه يأس فقال: والدتى! والدتى! والدتى! أما آن لك أن تعرفى ابنك البار بك. فلما سمعت صـوته أقبلت عليه ثانيـاً وأمعنت فيه النظر وقالت: هذا صوتـه.. هو هو بذاته.. ثم ارتمت على صدره وأحـاطت بذراعيها عنقه ووضعت شفتيها على ثغره وقالت: لتبارك الآلهة فيك يا ولدى. ولكنها ما كادت تتم هـذه الكلمات حتى انساقت بجـذبات خفيـة نحو جثـة بعاكـر وأكثرت من البكـاء والعويل، كما لو أنها جنـت عليه. ثم ألقت بنفسها على هذه الجثـة الخامدة الهامدة وقد خفت صوتها وسكن جسمها حتى لم تبدُ منه حركة وخُيل لناظرها أنها سُلبت نعمة الحياة لولا أنفاسا ضعيفـة يتحشرج بها صدرها بين حين وحين. عندئذ نقلها الحاضرون إلى السفينة وطـرحوها على فـراشها، ثم قـدموا إليها شيئـا من الطعام والشراب فألوت عنـه وجهها وأمسكت عن الكلام إلا عن قولها بين وقت وآخـر: ما أشقى حظك يا بعاكر..مسكين يا بعاكر..

وظل بنطاؤر ملازماً لها، وهى على هـذه الحال، حتى فارقت الحياة وهى تبغى اللقاء بهذا الابن الكاذب الغادر والبعد عن ابنها الصادق البطل الشاعر.

الفصل الثانى والعشرون

«مسك الختام»

قوّض العساكر الخيام وساروا فى ظلال الأعلام يتقدمهم المليك الهمام، حتى بلغوا إلى طانيس المعروفة بمدينة رعمسيس. وكان سكانها اليهود الذين فك عنهم آنى جميع القيود، وأعفاهم من دفع الضرائب والرسوم ليستميلهم إليه ويتخذهم آلة طوع فى يديه، هم الذين سخّرهم رعمسيس فى تشييد الحصون الصعبة المرام والقصور المتسقة النظام. وفى تلك البلدة أُبرمت معاهدة الصلح والأمان بين (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس وقُدمت إلى أعتاب فرعون منقوشة فى ألواح فضة(١).

أما بنطاؤر فقد اجتمع بالملك بعد أن أدى الفروض الواجبة عليه لوالدته ستخم، إذ سار بجثتها إلى عين شمس حيث عولجت بمواد التحنيط ثم قصد بها إلى طيبة وقام على دفنها فى مدفن الأجداد، وأظهر فى ذلك من فائق العناية وبالغ الاهتمام والرعاية ما لا مطمح بعده لطامح. لأن المصريين كانوا يرون أن من أقدس الواجبات عليهم أداء تلك الفرائض التى لا يجوز بدونها أن تسمو آمال الراغب فى التزوج إلى الاقتران بمن يهواها. فلو أن بنطاؤر قصّر فى العناية بجثة والدته لما استطاع أن ينال بغيته من الاقتران ببنت أنات التى جمعت إلى محاسنها الفتانة جميل الخصال وجليل الصفات.

---

(١) مازالت معاهدة الصلح هذه منقوشة فى الجدار القبلى لهيكل الكرنك. وقد جاء فى السطر الرابع منها وصف اللوح الذى نُقلت منه صورة المعاهدة والذى قدمه (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس ووزيره المفوض إلى الملك رعمسيس. ويؤخذ من هذا الوصف أن اللوح كان مستطيل الشكل وكان يعلق بحلقة مثبتة بأعلاه.

عاد الشاعر إلى طانيس ووافق يوم عودته الحادى والعشرين من شهر طيبى من السنة الحادية والعشرين من حكم رعمسيس. وهو اليوم الذى تم فيه التوقيع على معاهدة الصلح والأمان، إلا أنه كان واجماً كثير الهموم، لأنه لما وصل إلى طيبة وسأل عن البستانى – الوالد الحقيقى لبعاكر– علم أنه انتقل إلى الدار الآخرة فحزن عليه. لأن الرجل كان يحبه ويرى أنه ممن توافرت فيهم صفات الكمال، بل إنه ملك من ملائكة السماء هبط منها رسولا للخير ورائدا للسعادة والهناء.

وقد احتُفل فى طيبة –عقب عودة الملك رعمسيس إليها– بزفاف بنت أنات إلى بنطاؤر احتفالاً باهراً زاهراً فى قصر الفراعنة العظام، وطابق هذا الاحتفال ختام الشهر السابع من وقوع حادث الحريق ببيلوز. وكان ما لقيه العروسان من المصاعب الشديدة من البواعث على ارتباطهما بعروة الحب التى لا انفصام لها. وكانت بنت أنات – بالرغم من قوة بنطاؤر وعلوّ همته– تحس أنها أصبحت منبعثا لأشعة الأمل، وأن ابتسامة ثغرها تدعو إلى الاطمئنان، وأن كلمة واحدة منها تجبرّ القلوب الكسيرة وتسهل الأمور العسيرة. ولكنها مع هذا كانت موقنة أن وجودها مع بنطاؤر هو الذى محا من صحيفة صدره سورة الحزن وشجّعه على احتمال المصائب. وكان اغتباطها بذلك مقترنا بعزة الفخر بأنها هى التى دخلت به فى طور حياة جديدة، فكانت له كالشمس إذا أشرقت انبعثت أشعتها على ألوف الأزهار فتتفتح أكمامها وتبتهج بازدهارها الأنظار.

وكان الاثنان أيام اشتغالهما بمكافحة الصعوبات وتذليل العقبات، وشعورهما بالآلام الشديدة التى أعقبت خيبة الآمال يظنان كل الظن أن لا تلاقيا. فلما اجتمعا وجاءت الأمور بما يتجاوز المأمول أدركا قيمة ما بينهما من الحب المتبادل، وأن

مايرميان إليه من المثل العليا ينحصر فى الشرف والخير، وأن لا سعادة لهما فى الحياة بإدراكه والتحلى بحليته.

وكان بنطاؤر يطلع بنت أنات على أسراره ويشركها فى الصعب من أعماله، فتزداد روابط الحب بينهما وثوقـا. وقد أسبغ رعمسيس عليه من النعم والهبات مـا رفعه إلى أسمى الـدرجات فتنـازل عن نصيبه فى الإرث لأخيـه حورس واتخذ الملك هـذا الشاب المقـدام موهاراً لجيشـه جزاء ما أبداه من الإخـلاص والبسالة يـوم قادش. وكان مع عـزة نفسه وكرم محتـده عيوفـا متواضعا، ولهذا استعـاض عن جذوع الأرْز العاليـة التى كان بعاكـر غرسها فى باحـة القصر لرفع الاعلام اعجـابا وكبرا بادقال قصيره ناط باطرافها هذه الأعلام.

أما هونى المسكين الذى كان بنطاؤر انتحل اسمه للتمكن من الوصول إلى سيناء، فقد أُعيـد من المناجم بمساعيـه المشكورة وعرفانـه الجميل فانقلب إلى أهله فـرحا مسرورا بالتعـاطفات الملكيـة وفيوض المكـارم العلية. ولم يلبث الملك أن تأكـدت له فضائل بنطاؤر فأولاه من العطف مـا لم يوله أحدا إلا كـريمته بنت أنات التى ظلت مقربة من والـدها، حتى بعد أن اضطرته السياسة إلى الاقتران بـابنة الملك (شيتا). ولكى يقيم له الدليل على ذلك الميل اتخذه مشيرا خـاصا يستضىء بمشكاة آرائه فى عويصات المسائل ومعضلات المشاكل.

وقد عثروا فى صيوان آنى على وثائق ظهر منها بالدليل القاطع تواطؤه مع أمينى واغلب الكهان، فـانتوى رعمسيس معاقبة هـؤلاء الخونة عقابا يكـون عبرة زاجرة وعظة خـالدة فى الأعقاب. إلا أن بنطاؤر وشـاموس ألحا عليه أن يعـدل عن الانتقام قائلين إنـه لا يليق بمقام الكرام، وأن بالعفـو والإحسان يستقيم الملك وتتوطـد منه

الأركان. وكان رعمسيس أشد الناس تعلقا بـالدين وتمسكا بسببه المتين، لاعتقاده أن الإيمان تعزية الفقراء والمساكين وسلـوان المظلومين والمنكوبين وركن البائسين، بل إنه الحافظ الأمين للحياة البشرية والحامى لسعادة الشعوب والباعث فى الوجود البشرى ذلك الـوجدان الذى يسيـل الخير منه على جوانـب الحياة فيخفف أعبـاءها ويصرف ضراءها، وأنـه من هذه الوجهة أشبـه ما يكون بالمدرسـة التى يتعلم فيها الاطفال فروض الامتثال. ولكنه اجتنب مع الكهان مايفضى بهم إلى احتقار القوانين المسنونة لتـدبير شؤون الامة، لأنـهم وإن يكونـوا الامناء على أرواح العباد فليس فى وسعهم على جلال قدرهم وارتفاع منزلتهم وخطورة مهمتهم أن يعارضوا الإرادة الملكية بالانحراف عن جادة القواعد الموضوعة لتصريف أمور الجمهور.

ولقد قال لأمينى والكهـان الذين التقوا به فى طانيـس إنه لا يتنازل عن شـىء من حقوقه، وأن له وحده حق التصرف فى شؤون مصر بلا منازع ولا شريك.

ولم يكن للإله سيتى صاحب المكانة العليا عند الساميين منذ عهد الهكسوس– اذ كانوا يعبدونه باسم الإله (بعل)– هيكل مشيد على ضفاف النيل. فقد كان المصريون يعتبرونـه من المعبـودات الأجنبية التى لا يُقـام لها عنـدهم وزن، فأمـر رعمسيس بإنشاء هيكل فخم لـه فى طانيس ليتعبده فيهـا المهاجرون الأجانب، وكـان إنشاؤه بالرغم من احتجاج الكهان على الملك باسم الدفاع عن التقاليد القديمة. وكان الحزب الـذى تألف من هـؤلاء المعـارضين يسمى بحـزب (المؤمنين الصـادقين). وكـان رعمسيس حـريصاً على شرف آلهة الـوطن بدليـل ما بـذله من المال فى رفع بيـوت العبادة، إلا أنه كـان مفطورا على التسامح والتساهل فى أمـور الدين، وهو شأن كل مليك عاقـل يريد أن يـؤلف حولـه القلوب. ولم يشأ أن يعـارض المذاهب والأديان الأخرى فلم يـدع مدينة كبيرة فى أنحاء المملكـة إلا وأقام فيها الهيـاكل الجديدة، ثم

وسّع هيكل فتاح فى منفيس وشاد تمثالين جسيمين أمام مدخله تخليداً لذكرى نجاته من المكيدة التى دُبرت له ليلة الحريق، وأنشأ فى مقبرة طيبة بناية وطيدة الأركان تخليدا لذكرى الساعة التى نجا فيها. ولا يزال السياح يعجبون بها ويبهتهم ما يرونه من حسن نظامها وجمال تنسيقها. وقد نقش فى أعمدتها بالكلمات البارزة ما يتضمن شرح واقعة قادش كما نقش فى جدران قاعة الطعام بها تاريخ الخطر الذى أنقذته منه أيدى الآلهة.

وكان بنطاؤر قد نقّح القصيدة التى نظمها وألقاها ارتجالا على مسامع رعمسيس فى ليلة الوليمة ببيلوز، فأمر بنقشها فى جدران ثلاثة هياكل وتدوينها فى كثير من أوراق البردى، وبذا تمكن علماء الآثار من استكمال أبياتها. ولم يبقَ كبير ولا صغير من الأهالى إلا وحفظها عن ظهر قلب للتغنى بها كنشيد وطنى فى المناسبات الحماسية.

وعهد الملك إلى بنطاؤر بعد ذلك إنشاء مدرسة جديدة للكهان من طراز مدرسة بيت سيتى وهيكل آخر سُمى بيت رعمسيس، وهو الذى نذر بناءه من قبل فوفى بالنذر. ثم قرر إصلاح الهيئة الكهنوتية على وجه يصد به الكهان عما اعتادوه من الاستئثار بالسلطة والتحكم فى العقائد فذهبت بهم إلى الاعتقاد بأن لا سيطرة إلا لهم، ويعلّمهم الخضوع للملك وأن هذا الخضوع لا يحط من هيبتهم ووقارهم. وعيّن بنطاؤر رئيساً للمدرسة الجديدة فأنشأ بها دارا للكتب لم تُنشأ بمصر دار مثلها وسمّاها (دار صحة النفس)، وسارت المدرسة فى طريق التقدم والنجاح حتى أصبحت مجمعاً للعلماء ومحطا لرحال الطلاب والفضلاء الوافدين عليها من جميع الأنحاء والأرجاء.

وقد أُنشئت على مثالها مدرسة الاسكندرية ونبغ منها مشاهير الفلاسفة

والحكماء والأدباء والشعراء وغيرهم ممن أحيوا ذكرها ووصلت كتاباتهم ومنشآتهم إلينا، ومن أهمها الأناشيد التى نظمها (أنانا) رفيق بنطاؤر فى عهد التلمذة ورواية الأخوين التى دبّجها قلم (جاجابو). هذا ولم يستطع الكاهن الأعظم الإقامة فى طيبة، لأن رعمسيس وقف على سر مسألة قلب الحمل وعلم كيف استغلها أمينى لدس الدسائس ضده اعتمادا على ما له من النفوذ ولاستمالة قلوب العامة من الجهلاء إليه بأمثال تلك الخرافات الباطلة، فأجابه إلى طلبه بأن يقيم فى بلدة منديس من بلدان الوجه البحرى المعروفة ببلدة الحملان المقدسة. ولم يصادره فى ألقابه ووظائفه السامية وايراداته الواسعة، بل اقتصر فى نكايته على كلمة قالها فيه ليتناقلها الخلف عن السلف ولتبقى وصمة فى تاريخ حياته إلى الأعقاب وهى: «إن أمينى كان فى حاجة إلى قضاء حياته مع الحيوانات المقدسة». على أن هذا التلويح لم يمنع الكاهن الأعظم من السير بين مرؤوسيه بالشدة والهمة اللتين عُرف بهما فى طيبة، فأصبحت منزلته هناك كما كانت هنا من الاحترام، ولبث بنطاؤر يواصله برسائل المودة إلى أن جاءهما اليقين.

وكان أكبر تمثال من تماثيل القطر المصرى قائما بشكله المهيب في وسط الفناء الأول من بيت رعمسيس الذى سبقت الإشارة إليه. وقد كُسر من وسطه بتوالى الدهور عليه، ولكنه ما برح موضع إعجاب السياح الذين يقصدون إليه لمشاهدته. وقد صُنع من الحجر الصلد ممثلا صورة رعمسيس الأكبر، صنعه فى رعاية الشاعر بنطاؤر (شيراعو) الذى رأيناه فى مغارة العجوز نيخت يصنع تمثالا من الطين للوالى آنى، ثم حذق صناعته ومهر فيها مع الزمن فنحت ذلك التمثال الذى كان يفتخر به ويعتبره أحسن وأتقن ما قام بعمله من التماثيل الكثيرة التى نُحتت لتخليد ذلك الملك الجليل.

وبعد حـريق القصر بعام أبحـر الأمير راميرى قاصـدا إلى بلاد (الـدنائم) حيث أقيمت الأفراح احتفاء بمقدمه وسروراً باقترانـه بوردة حفيدة ملك هذه البلاد. وقد أقام بها حتى توفى هذا الملك فآل الملك إليه وصار بذلك رأس أسرة ملكية جديدة فيها، ولبث اسم وردة معطـرا فى أفواه شعبهـا الذى أخلص لها ولقـرينها الـولاء. وهى جديرة بهذا الإخلاص لأنها ذاقت مرارة الفقر وصاب الذل والفاقة فكانت أدرى من غيرها بتخفيف الآلام عن المنكوبين وإغداق الإحسان على المحتاجين. وكانت فى إيتاء المعروف بين الناس كالورد إذا تضوع ريحه ترادف على الألسنة مديحه.

تضوع مسكا بطن نعمان إذ بدت

به (وردة)فى سوسن وقطاف

فهرست

«الجزء الثانى من رواية وردة مصر»



وردة . . .

رواية مصر الخالدة . .

ترجع بالقارىء في ماضي الحقب

إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة

فيحس إذ يتلوها كأنه بحياة المصريين

في عصر رعمسيس الثاني

ونصورها له تصويراً محسوساً . .

فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية

في العلوم والفنون والآداب .

ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية

والسياسية والإدارية . . ويستطلع مكنون أسرارهم

الكهنوتية ، ويلم بالأسباب التي علت بهم

فوق شعوب الأرض طراً في زمنهم .

مكتبة مدبولي MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ 6 Talat Harb SQ .Tel 5 756421